مَسعُود الخوَند

القارّات . المناطِق . الدوَل . البُلدان . المدُن

الموسوعة التاريخية الجغرافية

معَـالِم . وَثـائق . موضوعات . زعماء

الجزء الحادي عشر

سورينام—العالم

مشاركون في التصحيح:

شربل الخولد　　جورج سليم　　خليل سمعان

الناشر: إصدار خاص

سن–الفيل – القلعة

ص.ب: ٥٥٥٨٦ بيروت–لبنان

هاتف ٤٩٣٢٩٦

طبع في لبنان

مقدمة

عندما رغب إليّ الأخ والصديق مسعود في كتابة كلمةٍ يفتتح بها هذا الجزء من موسوعته القيمة مرّ في خاطري شريط من ذكريات الماضي، يوم كان هذا الباحث طالبًا في كلية الحقوق والعلوم السياسية ينهل العلم بنهم، ويتلقف الدروس بشوق، ويطالع كل ما تقع عليه عيناه من مؤلفات، ويحاول الاستزادة من مواد الدراسة والتبحّر فيها.

وعندما علمت منذ سنوات بعزمه على إصدار هذه الموسوعة، بعد انغماس طويل في إعداد المعاجم وتجميع المصادر والمعلومات المتعلقة بالمعرفة الانسانية، خالجني شعور بالفرح والاعتزاز والاكبار، لعل سببه يعود إلى أمور عدة نوجزها بما يلي:

أولاً– إن الجامعة اللبنانية التي أمضينا فيها زهرة العمر، والتي كانت في أوج عطائها قبل اندلاع الحرب العبثية، استطاعت أن تخرّج أجيالاً من الباحثين والعلماء الذين أثبتوا جدارتهم في مجالات اختصاصهم. وكنا (وما نزال) حينما نسمع بتفوق أحد المتخرجين، نشعر بالفخر والزهو، كأنّ ابنًا لنا أتى بابتكار جديد. وهذا ما شعرنا به لدى اطلاعنا على موسوعة الأخ مسعود.

ثانيًا– إن الطالب، ثم الباحث الموسوعي، مسعود الخوند، كان على مستوى الآمال التي عقدها عليه أساتذته (ولو لم يبوحوا بذلك). فالأستاذ قد يتوسم خيرًا في أحد الطلاب ويتنبأ له بمستقبل باهر، دون أن يُعلن ذلك أو يُسرّ به لأي انسان. فإذا ما برّز الطالب فيما بعد وتفوّق غمرت الاستاذ موجة من الارتياح والانشراح، لأن كل استاذ يتمنى أن يكون حصاده، إذا ما أتقن عملية الزرع والعناية، جيدًا ومتميزًا، ولأن فساد الحصاد هو، في معظم الأحيان، دليل الفشل في الاعداد والتلقين والتوجيه والتوعية.

ثالثًا– إن صاحب الموسوعة قد أحسن الاختيار عندما قرر إثراء الفكر العربي بهذا العمل الضخم. فالعرب كانوا من أوائل الشعوب التي اهتمت بوضع المعاجم والموسوعات في مختلف ضروب المعرفة. وإذا كانت عصور الانحطاط قد أوهنت هذا النشاط العلمي، فإن بداية عصر النهضة العربية الحديثة قد أوقدت من جديد هذه الشعلة. وكان للبنانيين، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، الفضل الأكبر في نشر المعاجم والموسوعات، وإيقاظ الثقافة العربية من سباتها، وتحديث لغة الضاد وتمكينها من مواكبة المصطلحات المستجدة في شتى العلوم.

ومع أن العرب انكبوا في القرن العشرين على العمل الموسوعي فإن جهودهم لم تتمكن من سدّ كل فراغ ولم تتناول (أو تناولت دون تعمق) جميع المجالات الفكرية والعلمية. وكانت الناحية التاريخية والجغرافية التي تشمل كل ما في المعمورة من بلدان ومناطق تنتظر مجموعة من الباحثين المؤهلين والقادرين على الاحاطة بهذا الموضوع الواسع والمتشعب، فقرر الأخ مسعود التصدّي للمهمة بمفرده، متوكلاً على الباري العظيم الذي علّم الانسان ما لم يعلم، ومعتمدًا على المعلومات المتراكمة التي جمعها بشقّ النفس خلال سنوات من التنقيب، ومتسلحًا بارادة حديدية لا تلين أمام عوامل الارهاق، حتى لاحظ أصحابه أنه أصبح، بسبب هذا العمل الشاق، خصمًا لدودًا للراحة

د. محمد المجذوب
رئيس الجامعة اللبنانية (١٩٩٢-١٩٩٣)
نائب رئيس المجلس الدستوري (١٩٩٤-١٩٩٧)
استاذ القانون الدولي العام (من ١٩٥٨ وما يزال)

والاستجمام. والحقيقة ان التاريخ الموسوعي في لبنان لا يخلو من هذه المبادرات أو المغامرات الفردية الجريئة التي آتت أكلها ووفّرت للبنان قصب السبق في هذا الميدان، وأثبتت ان الرجال إذا أرادوا استسلمت الصعاب وانحنت أمام هاماتهم.

رابعًا- إن صاحب الموسوعة أدرك أن رفعة الأمة تُقاس اليوم، كما كانت تُقاس بالأمس، بمدى ما يملك أبناؤها من علم رفيع. فأجدادنا لم ينتصروا ويتفوقوا في الماضي إلاّ بامتلاكهم ناصية العلم. وإذا كان الإيمان من العناصر الضرورية للصمود والتصدي، فانه عاجز وحده عن مقاومة الاعداء المدجّجين بأحدث الأسلحة التدميرية، والمحتكرين لآخر ما توصل إليه العلم من مبتكرات في شتى الحقول. ومما لاشك فيه أن العدو المستكبر شيطان رجيم، إلا ان العلم ليس وقفًا على الملائكة.

والعلم يشمل كل أنواع المعرفة. وموسوعة التاريخ والجغرافيا جزء من هذا العلم، ولكنه جزء مهم. فالتاريخ حافل بالعبر، وهو جسر عبور إلى المستقبل. والأمة التي لا تاريخ لها لا مستقبل لها. ودراسة التاريخ فن. وما زال ابن خلدون (بمقدمته) عَلَمًا عربيًا خفاقًا حتى في سماء الغرب.

والجغرافيا علم وفن كذلك. وكان لأجدادنا باع طويل في اكتشاف القارات والمحيطات. وكتب التاريخ تذكر ان كولومبوس اكتشف العالم الجديد بالاستناد إلى خريطة وضعها علامة عربي (الادريسي)، وبمعاونة بحّارة كانت غالبيتهم من عرب الأندلس.

ورغم هذه الانجازات الباهرة التي خلّفها لنا الأجداد فقد تقاعسنا عن استكمال ما برعوا فيه. ولعل موسوعة الأخ مسعود تثير من جديد اهتمامنا بالتاريخ السياسي والأوضاع الجغرافية لدول العالم التي باتت تكوّن الأسرة الدولية التي تواجه مصيرًا انسانيًا واحدًا.

خامسًا- إن العالم تحوّل، بعد الثورة التكنولوجية الحديثة، إلى قرية كبيرة تتلقى الحدث فور حدوثه، وتتفاعل مع الخبر فور نشره، وتتعرف إلى أي ابتكار فور تعميمه، وتسير في ركاب أي نسق في الحياة فور إطلاقه. وهذا الوضع يُحتّم على بني البشر أن يتعارفوا ويتفاهموا ويتعاونوا في كل المجالات لدرء الأخطار عن «قريتهم» وتوثيق الروابط بين أهلها. ولعل أفضل وسيلة لتحقيق هذا الهدف يكمن في تقديم المعلومات الصادقة والموضوعية عن أوضاع كل منزل فيها (أي كل دولة) إلى هؤلاء السكان. وقديمًا قيل: «إن الانسان عدو ما يجهل». وموسوعة الأخ مسعود تسعى لتعريف العرب بالمجموعة الدولية التي ينتمون إليها ويشاطرونها سرّاء الوجود وضرّاءه، ولا يمكنهم الانفلات من مصيرها.

* * *

إن هذه الموسوعة المباركة هي ثمرة جهد جبار قام به فرد، في غياب المؤسسات الرسمية المسؤولة، وسدّ به فراغًا ثقافيًا وضروريًا في حياتنا العربية، ونبّهنا إلى أن التاريخ والجغرافيا ما يزالان في طليعة العناصر القادرة على تطوير الأمم. ولا يسعنا إلاّ أن نهنّئه من أعماقنا سائلين المولى أن يمدّ في عمره لُيتحفنا بالمزيد من هذه الانجازات المتميزة.

فهرست

معالم تاريخية

مدن ومعالم

زعماء، رجال دولة وسياسة

سويسرا

نبذة تاريخية

معالم تاريخية

نبذة تاريخية

زوال الدولة

(مناقشة)

جمهورية ارض الصومال

مدن ومعالم

زعماء، رجال دولة وسياسة

الصين ٢٨٥

نبذة تاريخية

سورينام

بطاقة تعريف

الاسم: من نهر سورينام Surinam الذي يروي العاصمة. عُرفت باسم «غويانا الهولندية» حتى نيلها الاستقلال في ١٩٧٥.

الموقع: في شمالي أميركا الجنوبية. يحيط بها المحيط الأطلسي، غويانا، البرازيل، وغويانا الفرنسية (يبلغ طول حدودها مع هذه الأخيرة نحو ٥٠٠ كلم).

المساحة: ١٦٣٨٢٠ كلم م.

العاصمة: باراماريبو Paramaribo الواقعة على بعد ٣٢ كلم من البحر وعند مصب نهر سورينام في المحيط الأطلسي. تعد نحو ٣٠٠ ألف نسمة. شهيرة بتعدد طوائفها الدينية التي تضفي عليها ميزة خاصة في المنطقة (معابد، كنائس، مساجد) إضافة إلى الطراز الهولندي الغالب على عمارتها. مرفأ. صناعات تحويلية تعتمد أساسًا على البوكسيت. أهم المدن: وانيكا (نحو ٧٢ ألف نسمة) ونيكري (نحو ٤٠ ألف نسمة).

اللغات: الهولندية (رسمية)، الانكليزية والاسبانية. وهناك لغات متعددة بتعدد الاتنيات: سرانغ تونغو، الصينية، السورنامية والهندية.

السكان: كان تعدادهم في ١٩٩٠ نحو ٤٠٠ ألف نسمة، ويبلغ حاليًا (في ١٩٩٧) نحو ٤٢٥ ألفًا؛ منهم نحو ٣٥٪ من الكريول (Créole: الابيض المولود في المستعمرات الاوروبية)، و٣٣٪ من الهندوس و١٧٪ من اليابانيين، و١٠٪ من البوشنغروس (القبائل المحلية) و١،٧٥٪ من القبائل الهندية، و١،٥٪ من القبائل الاميركية الهندية، و١،٨٪ من الصينيين، و٠،٤٤٪ من الاوروبيين، و٠،٨٤٪ من إتنيات أخرى مختلفة. الهندوس نحو ١٣٥ ألفًا، والكاثوليك نحو ٧٩ ألفًا والمسلمون نحو ٨٤ ألفًا، والأخوة الانجليون نحو ٥٥ ألفًا، والاصلاحيون واللوثريون نحو ٥ آلاف، والباقون بوذيون وأصحاب معتقدات دينية محلية

إحيائية.

الحكم: جمهوري. الدستور المعمول به صادر في ٣٠ ايلول ١٩٨٧ ونال ٩٤٪ من أصوات المقترعين باستفتاء عليه. الجمعية الوطنية (البرلمان) من ٥١ عضوًا. رئيس الجمهورية رونالد فينيتيان (مولود في ١٩٣٦) منذ ١٦ ايلول ١٩٩١. نائب الرئيس ورئيس الوزراء جول أجوديا منذ ١٦ ايلول ١٩٩١. الانتخابات العامة التي جرت في ٢٥ ايار ١٩٩١ اشترك فيها ٦٨٪ من الناخبيين، وفازت فيها الجبهة الجديدة للديمقراطية بـ٣٠ مقعدًا، والحزب الوطني الديمقراطي (أسسه الكومندان بوتيرس في ١٩٨٧) بـ١٢ مقعدًا، واحزاب وأشخاص آخرون بـ٩ مقاعد.

الاقتصاد: يعمل في الزراعة ٢٠٪ من اليد العاملة التي تساهم بـ١١٪ من الدخل العام، وفي الصناعة ٢٠٪ من اليد العاملة (١٩٪ من الدخل العام)، وفي الخدمات ٥٥٪ (٦٥٪). هولندا أكثر البلدان المانحة، علّقت مساعداتها في ١٩٨٢، واعادتها بدءًا من ١٢ تموز ١٩٨٩.

أهم المزروعات: الارز، قصب السكر، الموز، الجوز، الحمضيات والخضار. ثروة حرجية وخشبية مهمة (نحو ١٥٠ ألف متر مكعب). ثروة سمكية (نحو ٢٨٠٠ طن). أهم المعادن البوكسيت، الألومينيوم. نحو ١٢ ألف سائح سنويًا.

نبذة تاريخية

مستعمرة الكليزية: في ١٤٩٨، اكتشف الاسبان هذه البقعة التي سيطلق عليها إسم «سورينام». وفي ٢٣ نيسان ١٥٩٤، جعلها دومينغو دو فارا إحدى الممتلكات الاسبانية. وفي ١٦١٤، نجح الكابتن شارلز لايغ في إقامة منشآت انكليزية فيها. وفي ١٦٥٠، أسّس اللورد ويللوغبي مستعمرة دائمة وحكمها باسم انكلترا، واستقدم عددًا كبيرًا من المستوطنين الانكليز والفرنسيين والرقيق الافارقة، فما لبثت البلاد ان شهدت نشاطًا في بعض الزراعات. وكانت قد وصلت إلى البلاد مجموعة من اليهود البرتغاليين الأثرياء الذين أقاموا مؤقتًا في البرازيل قبل انتقالهم إليها.

مستعمرة هولندية: وخلال حرب اندلعت بين هولندا وانكلترا (١٦٦٧)، هاجم الاسطول الهولندي سورينام وانتزعها من الانكليز، فأصبحت مستعمرة هولندية بموجب معاهدة بريدا؛ وبالمقابل، تخلى الهولنديون للانكليز عن أمستردام الجديدة (نيويورك). وفي السنة التالية (١٦٦٨)، أطلق الهولنديون على المستعمرة إسم غويانا الهولندية. فاحتفظت بهذا الإسم حتى الاستقلال (١٩٧٥، حيث استبدل باسم «سورينام»).

خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كان الملاكون الزراعيون في غويانا الهولندية (سورينام) يستقدمون الافارقة للعمل في الاراضي. وقد رفض هؤلاء الاستمرار بهذا العمل، خاصة بعد إلغاء تجارة الرقيق في ١٨٦٣، ما حدا بالملاكين لأن يستقدموا اليد العاملة الضرورية من

مختلف البلدان وبموجب عقد عمل. فبين عامي ١٨٥٣ و١٨٧٢، قدم إلى البلاد نحو ٥٤٠٠ عامل زراعي، منهم ٥٠٠ برتغالي و٢٥٠٠ صيني و٢٤٠٠ من جزر الأنتيل. ولما كان هذا العدد غير كاف، استقدم بين ١٨٧٣ و١٩٣٠ نحو ٣٤ ألف عامل زراعي من الهند ونحو ٣٣ ألفًا من جاوا بموجب عقود عمل لمدة خمس سنوات. وقد اختار الكثيرون منهم البقاء في غويانا الهولندية (سورينام) بعد انقضاء مدة العقد. من هنا هذه الفسيفساء الاتنية التي يعرف بها شعب سورينام اليوم.

الاستقلال: في ١٩٢٢، جرى تعديل على وضع غويانا الهولندية (سورينام)، يقضي باعتبارها اقليمًا ملحقًا بالمملكة الهولندية. وفي ١٩٥٤،اعترفت هولندا لمستعمرتها بالحكم الذاتي فيما أبقت شؤون الدفاع والخارجية بيدها. وفي ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٥، أعلن عن استقلال سورينام، وقد تمّ ذلك تدريجيًا ودون حدوث مصادمات. وقد رأس حكومتها، منذ ١٩٧٣، هنك أرون، زعيم الحزب القومي، وكان هذا الحزب يقود البلاد منذ ١٩٦٦ حين كفّ الحاكم العام الهولندي عن رئاسة الحكومة رغم بقائه ممثلاً للملكة الهولندية.

أهم احداث العقدين الأخيرين: في ٢٥ شباط ١٩٨٠، أطاح انقلاب عسكري حكومة أرون، وتشكل مجلس وطني عسكري، كان الرقيبان سيتال ونيد أبرز قادته. إلا ان الخلافات العقائدية سرعان ما عصفت بالمجلس، وكان بين اعضائه من يطالب باقامة أفضل العلاقات مع كوبا والنظام السانديني الجديد في نيكاراغوا. وبعد عودة سيتال من المشاركة في احتفالات الذكرى الاولى لانتصار الثورة الساندينية في نيكاراغوا (١٩ تموز ١٩٨٠)، أوقفه رئيس هيئة الاركان النقيب بوترسيه واجبره على تقديم استقالته، ثم اعتقل جميع اعضاء المجلس العسكري، وبدأ نظامه الجديد الذي دعاه «الجمهورية الثانية» بسياسة التقرب من الولايات المتحدة والاعتماد عليها. وفي ١٣ آب (أي بعد أقل من شهر واحد)، قاد بوترسيه انقلابًا آخر، فاعتقل رئيس الوزراء الأسبق هنك أرون والمعاونين في الجيش، سيتال وميجنالز (اللذين تعاقبا على رئاسة المجلس الوطني العسكري). واستمر دايسي بوترسيه، رئيس هيئة اركان الجيش، الرجل الأقوى في الحكم، وقد برّر انقلابه الثاني بخشية البلاد من ان تقع ضحية مؤامرة يسارية متطرفة. ووعد بمساعدات تأتي من هولندا والولايات المتحدة. وفي ٥ آذار ١٩٨١، أطلق سراح صف الضباط الثلاثة الذين كانوا معتقلين. وبعد عشرة ايام، فشلت محاولة انقلابية جديدة بعدما تسببت بمقتل عديدين.

في اواخر ١٩٨٢، عاشت البلاد (خاصة العاصمة باراماريبو) أجواء مضطربة. فبدأ تلامذة المدارس اضرابًا مفتوحًا، وقاموا بتظاهرات وانضم إليهم طلاب جامعة العاصمة، وأعلنت النقابات العمالية وقوفها إلى جانبهم، واتخذت السلطات موقفًا متشددًا (أعدم بوترسيه ١٥ من المعارضين). وفي سياق دعمه للحكومة التي يرئسها هنري نايهورست، عاد الرجل الأقوى الكولونيل دايسي بوترسيه ليقوم بعملية عسكرية جديدة هدفت إلى إحباط انقلاب معد، ونجح بذلك. واحتجاجًا على طريقته في ممارسة الحكم، أعلنت هولندا وقف مساعدتها لسورينام، كما علّقت الولايات المتحدة كل علاقاتها الاقتصادية والمالية معها.

في شباط ١٩٨٣، عاد الكولونيل دايسي بوترسيه (الرجل الأقوى) وشكل حكومة مدنية برئاسة إرول إليبوكس. وبعد التدخل العسكري الاميركي في غرانادا، طلب بوترسيه من كوبا سحب سفيرها، وطرد نحو ٨٠ مستشارًا كوبيًا

و٢٥ دبلوماسيًا وزاد من تقاربه مع البرازيل.

في ٩ كانون الثاني ١٩٨٤، استقال إليبوكس. وفي ٢٤ آذار ١٩٨٦، اعتقل النقيب إتيان بورنفين (الرجل الثاني في النظام) في ميامي (الولايات المتحدة) بتهمة اتجاره بالمخدرات. وفي تموز نشبت حرب عصابات بين الجيش والمعارضين من البوشنغروس (يتزعمهم روني برنسفيلك ثم ميشال فان راي). وفي تموز ١٩٨٩، وقع اتفاق بين الثوار والحكومة في كورو لم ينفذ بسبب معارضة الجيش. فعادت المعارك في تموز ١٩٩٠، وكانت حصيلتها حتى اواسط ١٩٩٠ ونجاح الجيش في طرد الثوار من قواعدهم نحو ٥٠٠ قتيل (منذ ١٩٨٦).

في ٢٤ كانون الاول ١٩٩٠، وقف الرجل القوي نفسه، بوترسيه، وراء انقلاب جديد أدّى إلى استقالة رئيس الجمهورية رامسواك شانكار، وانتخب البرلمان جوهان كراغ رئيسًا مكانه. وفي ١٦ ايلول ١٩٩١، حلّ محله رونالد فينيتيان (وكان وزيرًا للتربية).

في ٢٣ حزيران ١٩٩٢، وقعت سورينام معاهدة تعاون مع هولندا. وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٩٩٢، قدّم قائد الجيش، دايسي بوترسيه، استقالته.

مع هذين التطورين الأخيرين، أخذت الاوضاع تعود إلى طبيعتها. وبدت السلطات البرازيلية، التي تقدم مساعدات اقتصادية وعسكرية لسورينام، أكثر الجهات اهتمامًا بمراقبة تطور موازين القوى بين مختلف الاحزاب السورينامية. وكذلك السلطات الفرنسية بسبب قرب قاعدة الصواريخ الفرنسية في كورو (على ساحل غويانا الفرنسية وقد اقامتها فرنسا هناك في ١٩٦٦).

السويد

بطاقة تعريف

الاسم: في اللغة السويدية «سفيريج» Sverige الذي يعني «مملكة السويون» Suiones. وقد شكل هؤلاء إحدى الاتنيات الثلاث الاولى التي سكنت البلاد قديمًا: السفيريج والقوطيون والفينيديون (الفنيدا Veneda قبيلة سلافية في الأصل). ونتيجة للحروب الدائمة بين القبائل الثلاث، والغلبة النهائية لقبائل السويون أو السفير على القبائل الأخرى في القرن الثالث عشر، اتخذت البلاد إسم القبيلة المنتصرة.

الموقع: شمالي أوروبا. تحيط بها النروج (وطول حدودها معها ٢٢٠٥كلم) وفنلندا (٥٨٦كلم) وبحر البلطيق (وطول شواطئها ٢٣٩٠كلم). والسويد واسطة العقد فيما يعرف بمجلس التعاون لدول الشمال الاسكندينافية. وتمتاز بامتدادها طوليًا (١٥٧٤كلم، ومتوسط عرضها ٤٩٩كلم). تتناثر بالقرب من شواطئها آلاف الجزر. وعلى الرغم من طول فصل الشتاء فيها وبرودته فإن السويد لا تعد من البلدان المتجمدة كما هو الحال في آيسلندا مثلاً، ويعود الفضل في ذلك إلى التيارات الهوائية الدافئة التي تهب عليها من المحيط الأطلسي.

المساحة: ٤٤٩٧٥٠كلم م. (رابع دولة اوروبية من حيث المساحة)، منها مساحة ٣٨٤٥٩ مياه داخلية إذ في السويد نحو ١٠٠ ألف بحيرة يتصل بعضها بالبعض الآخر بشبكة واسعة من القنوات، فضلاً عن انهار عديدة تغذيها مياه الثلوج الذائبة والقادمة من جبال المنطقة الشمالية الغربية. ومن المساحة العامة ايضًا للبلاد مساحة مناطق لابونيا الجنوبية البالغة ١٦٥ ألف كلم م. (بالنسبة إلى بلاد لابونيا راجع «اوروربا»، ج٣، ص ٣٠٧).

العاصمة: استوكهولم. أهم المدن: غوتبرغ، مالمو، أوبسالا، لينكوبنغ، أوريبرو، نوركونبغ، فاستراس، جونكوبنغ، هلنسغبورغ، بوراس، كيرونا (راجع باب «مدن ومعالم»).

اللغة: السويدية (رسمية)، وتشبه أبجديتها الأبجدية الفرنسية والانكليزية.

السكان: كان عدد السويديين ١،٧٨ مليون

نسمة في ١٧٥٠، وأصبح ٢،٣٥ مليون في ١٨٠٠، و٣،٥ مليون في ١٨٥٠، و٥،١٤ مليون في ١٩٠٠، و٦،٣٤ مليون في ١٩٣٩، و٨،٠٧ مليون في ١٩٧٠، و٨،٦٦ مليون في ١٩٩٢. وتشير التقديرات إلى ان عددهم سيبلغ ٨،٩ مليون في العام ٢٠٠٠، ونحو ٩ ملايين في العام ٢٠٢٥.

عرفت السويد موجات هجرة واسعة (خاصة إلى الولايات المتحدة)، أكبرها الواقعة بين عامي ١٨٤٠ و١٩١٠ بسبب الضائقة المعيشية إذ بلغ المهاجرون منها ٦٠٠ ألف مهاجر. كما هاجر منها بين ١٩٨٤ و١٩٩٠ نحو ١٥٩ ألفًا، وفي ١٩٩١ نحو ٢٥ ألفًا.

أما الهجرة إليها فبلغت ٤١٤ ألفًا في ١٩٨١، واستمرت باعداد متقاربة في السنوات اللاحقة، وكانت ٤٩٣ ألفًا في ١٩٩١، منهم ١١٥ ألفًا من الفنلنديين، و٤١ ألفًا من اليوغوسلاف، و٤٠ ألفًا من الايرانيين، و٣٧ ألفًا من النروجيين، و٢٨ ألفًا من الداناركيين، و٢٦ ألفًا من الأتراك، و١٩ ألفًا من التشيليين، و١٦ ألفًا من البولنديين، و١٣ ألفًا من الألمان. وكان بين المهاجرين إلى السويد عدد غير قليل من اللبنانيين والسوريين (خاصة من طائفة السريان) وغيرهم من البلدان العربية. وقد نال عدد كبير من المهاجرين (خاصة من الإستونيين) الجنسية السويدية. شكل الاجانب في السويد، وبصورة عامة، نسبة ١،٨٪ من مجموع السكان في العام ١٩٥٠، و٢،٥٪ في ١٩٦٠، و٥،١٪ في ١٩٨٠، و٥،٦٪ في ١٩٩٠.

٩٢٪ من السويديين يعتنقون المذهب اللوثري (البروتستانتي)، والكنيسة اللوثرية هي دين الدولة الرسمي، وقد تأسست في ١٥٢٧. وهناك نحو ١٣٠ ألف كاثوليكي، و١٠٦ آلاف أرثوذكسي شرقي، و٥٠ ألف مسلم، و١٦ ألف يهودي.

في حزيران ١٩٩٧، صدرت دراسة اظهرت ان خمس سكان السويد يتحدرون من أصل أجنبي، وان نسبة تمثيلهم في مراكز القرار أقل بكثير مما توصي به الاعراف الديمقراطية. ففي استوكهولم وغوتبرغ، وهي ثانية المدن السويدية، فإن نسبة المواطنين الذين ولدوا خارج السويد أو أنهم أبناء لوالدين أجنبيين ٢٨٪ من مجموع السكان، لكنهم لا يتمثلون في المجلس البلدي إلا في حدود ١٦٪ في استوكهولم و٧٪ في غوتبرغ. وعلى اثر هذه الدراسة، أطلق وزير الاندماج الاجتماعي، لايف بلومبرغ، وعدًا باشراك «المواطنين من أصحاب الجذور الاجنبية في الحياة السياسية في البلاد».

الحكم: نظام ملكي. دولة تعتمد سياسة الحياد على صعيد العلاقات الدولية، ولكنها سياسة وُصفت بـ«الدينامية» و«الفعالة». الدستور المعمول به صادر في اول كانون الثاني ١٩٧٥ بعد ان أجرى تعديلات على دستور ١٨٠٩ (أقدم دستور في اوروبا). إصلاحات حدّت من سلطة الملك ابتداء من ١٩٦٨-١٩٦٩. ومنذ ١٩٧٥، لم يعد من صلاحيات الملك تعيين رئيس الوزراء (فانتقلت هذه الصلاحيات إلى رئيس البرلمان) ولا رئاسة اجتماعات مجلس الوزراء. تعود السلطة التنفيذية لحزب الأكثرية في البرلمان (ريكسداغ **Riksdag**) المشكل من ٣١٠ نواب منتخبين مباشرة و٣٩ نائبًا منتخبين بموجب نظام الاقتراع النسبي. منذ اول كانون الثاني ١٩٨٠، أصبح من حق الولد البكر للملك (إبنًا أو إبنة) ان يرث عرش الملك.

إداريًا، تقسم البلاد إلى ٢٤ محافظة.

الاقتصاد: يعمل في الزراعة ٣،٨٪ من اليد العاملة، وتساهم الزراعة في ٣،٤٪ من الدخل العام؛ ويعمل في الصناعة والمناجم ٢١،١٪ من

اليد العاملة (٢٤،٤٪ من الدخل العام)؛ وفي الخدمات ٦٨،٨٪ (٦٤،٤٪ من الدخل العام)؛ وفي قطاع البناء ٦،٣٪ (٧،٨٪)؛ وهناك نحو ١،٤ مليون موظف (٣٢٪ من اليد العاملة). أما البطالة فبلغ معدلها السنوي (السنوات الخمس الاخيرة) نحو ٥،٥٪.

تشكل الغابات ٥٢،٢٪ من مساحة السويد، والاراضي غير المزروعة ٢٩،٤٪، والاراضي المزروعة ٧٪، وتحتل المياه (بحيرات وانهار) ٨،٥٪. أهم المزروعات: الشمندر السكري والشعير والقمح والشوفان والبطاطا والزراعات الزيتية. تصدر السويد ٥٠٪ من منتوجات الصناعة الحرجية: عجين الورق. ثروتها الحيوانية: الدواجن، الخنازير، الابقار، الاغنام، الخيول والرنّة. ويزيد متوسط إنتاجها السنوي من السمك على ٢٢٥ ألف طن.

ثروتها المنجمية: الحديد (في كيرونا-مناطق لابونيا-أكبر منجم في العالم، ويحتوي على ٦٥٪ من إجمالي حديد السويد)، البيريت، الزنك، القصدير، النحاس والفضة. صناعاتها مزدهرة: الميكانيكية (سيارات فولفو وصعب) والاجهزة الكهربائية، وبناء السفن، والصناعات الخشبية، والورق، والصناعات الكيميائية.

شهدت السويد ضائقة اقتصادية ممتدة من ١٨٦٠ إلى ١٩١٠ وفقرًا معيشيًا لا مثيل لهما، وقد تسببا في نوعي الهجرة: إلى الخارج (وخاصة إلى الولايات المتحدة)، وهجرة من الريف إلى المدن الرئيسية الثلاث استوكهولم وغوتبرغ ومالمو.

لكن السويد استطاعت، في مدى نصف قرن تقريبًا، ان تثب من فقر هذه العقود وتخلفها فتحقق تقدمًا حضاريًا كبيرًا ورفاهية اقتصادية سرعان ما صارا سمتها البارزة التي تمتاز بها على كثير من بلدان العالم المعاصر.

لقد مضى على السويد نحو ١٨٠ سنة بلدًا محايدًا ولم تدخل في حرب. وكان لذلك أثره في الحفاظ على ثرواتها. كما انها لم تدخل، في سياستها الاقتصادية، أي مفاضلة بين المجتمع الزراعي أو المجتمع الصناعي أو المجتمع التجاري أو الخدماتي. فاختارت سياسة النهوض الشامل والمتوازن بين القطاعات مع ترجيح للصناعة لأنها تتلاءم والبيئة والمناخ والموارد الطبيعية. فعوّلت في بادىء الأمر على مادتين أوليتين أساسيتين تدخلان في بناء المصانع والبيوت السكنية: الحديد والخشب. ولقد ازدهرت صناعة الحديد والصلب والصناعات التي تقوم على منتجات الغابات في القرن الماضي ومطلع هذا القرن بفضل التقدم الذي طرأ على طرق الانتاج والأساليب الكيميائية المستخدمة في تحويل الألياف الخشبية إلى عجينة ورقية.

أما الطاقة، عصب الصناعة، فتؤمنها الثروة المائية الهائلة (لا وجود للنفط)، فكان للطاقة الكهربائية شأن كبير في التطور الصناعي.

«سعادة الانسان» و«الرفاه الاجتماعي» حقق الاقتصاد السويدي منهما قدرًا كبيرًا. لكن في ١٩٩٢-١٩٩٣ بدأت الامور تختلف نوعًا ما. وأخذت الحكومة تقتصد في تقديماتها الاجتماعية نظرًا إلى الازمة الاقتصادية المتفاقمة التي جعلتها ترزح تحت أعباء ٦٠ بليون كرون (اوائل ١٩٩٥)، وزادت الضرائب، وانخفضت قيمة العملة الوطنية بنسبة ٣٠٪ (خريف ١٩٩٢) ما أدّى إلى انخفاض مماثل في مستوى المعيشة دفعة واحدة. عودة الحزب الاشتراكي الديمقراطي إلى الحكم في ١٩٩٤ خففت من حدة الازمة.

نبذة تاريخية

أول القاطنين: ثمة آثار تدل على وجود شعوب سكنت البلاد حوالي العام ٢٥٠٠ق.م. وتعاطت الزراعة. وفي حوالي ١٤٠٠ق.م. أدخلت قبائل جرمانية قادمة من جنوبي البلطيق ومن جزيرة جوتلند (حاليًا في الدانمارك) حضارة البرونز. وفي حوالي ١٠٠٠ق.م. (عصر الحديد)، هاجرت بعض القبائل الجرمانية من الشمال (القوط، الفاندال...) إلى المنطقة المعروفة اليوم باسم أوكرانيا، والاعتقاد السائد ان هذه الهجرة جاءت بسبب تغييرات في المناخ.

الفايكنغ وظهور المسيحية: كان عصر الفايكنغ من ٨٠٠ إلى ١٠٥٠. وقد عُرف هؤلاء ببأسهم وقسوتهم في مغامراتهم البحرية والحروب التي خاضوها، وكذلك بفطنتهم التجارية. فقد اجتازوا البلطيق وصعدوا الانهار الروسية حتى وصلوا إلى شواطىء البحر الأسود وبحر قزوين، وأقاموا في القرن العاشر مراكز تجارية لهم في هذه المناطق البعيدة. ويعتقد ان إسم «روسيا» مشتق من إسم «رس» الذي يطلق على الفايكنغ السويديين الذين انطلقوا من شاطىء البلطيق واتجهوا حتى شمالي استوكهولم.

وفي القرن العاشر، ظهر مرسلون مسيحيون في السويد. إلا ان المسيحية لم تبدأ بالانتشار هناك إلا في القرن الثاني عشر. وقد توحدت البلاد تدريجيًا خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وأصبحت ملكية. وعمل السويديون بدورهم على نشر المسيحية في فنلندا التي انضمت إلى المملكة السويدية.

اتحاد كالمار: في ١٣٩٧، أُنشىء اتحاد كالمار الذي ضمّ الدانمارك والنروج والسويد تحت سلطة ملكة الدانمارك مارغريت الاولى. ولكن السويديين ما لبثوا ان رفضوا سلطة الدانمارك. فاندلعت حرب طويلة في القرن الخامس عشر، عادت بعدها السويد إلى استقلالها في ١٥٢٣. ولم يكن تاريخ البلاد الاسكندينافية منذ ذلك العام حتى ١٨١٤ سوى سلسلة من الحروب بين النروج والدانمارك من جهة، والسويد وفنلندا من جهة ثانية (راجع «كالمار» في باب مدن ومعالم).

أسرة فاسا المالكة: كان غوستاف فاسا، على رأس الدولة السويدية، وقد انتخب ملكًا في ١٥٢٣ باسم غوستاف الاول. وقد قضى هذا الملك عهده في حروب ضد الدانمارك، وفي إجراء اصلاحات داخلية. وفي عهده، قطعت العلاقات مع روما واصبحت اللوثرية دين الدولة. وحكم حفيده، غوستاف أدولف، من ١٦١١ إلى ١٦٣٢، وقضى عهده في حروب توسعية في اوروبا، وكان له الدور الاول في حرب الثلاثين عامًا حتى بات يقال، في اواخر عهده، ان البلطيق «مجرد بحيرة سويدية».

(في السويد ثلاث أسر مالكة: أسرة فاسا من ١٥٢٣ إلى ١٧٥١؛ أسرة هولشتاين-غوتورب من ١٧٥١ إلى ١٨١٨؛ وأسرة برنادوت من ١٨١٨ إلى اليوم).

حروب الشمال وبداية التراجع: في ١٧٠٠، تضافرت القوى المعادية للسويد (روسيا، الساكس المنضمة إلى بولندا، النروج والدانمارك) وشنت حروبًا متوالية عليها عُرفت باسم «حروب الشمال». وقد أحرز الملك السويدي شارل الثاني عشر انتصارات باهرة في بداية الأمر، إلا انه عجز عن تحقيق خطته القاضية باجتياح روسيا والوصول إلى أوكرانيا. فقد هُزم في بولتافا في ١٧٠٩، وكرت بعدها سبحة الهزائم، فرأت السويد نفسها تتخلى شيئًا فشيئًا عن مكتسباتها في البلطيق،

وخسرت فنلندا في ١٨٠٩، وباتت تخشى هجومًا دانماركيًا من الجنوب والغرب، وهجومًا روسيًا من الشمال. وانفجرت في داخلها ثورة أطاحت الملك غوستاف الثاني لمصلحة الملك شارل الثالث عشر الذي أصدر دستورًا جديدًا. ولما لم يكن من وارث لهذا الملك، فقد نادى السويديون بـ جان باتيست برنادوت (١٧٦٣-١٨٤٤)، أحد كبار ضباط نابوليون وجنرال سابق في الثورة الفرنسية، ملكًا عليهم باسم شارل الرابع عشر. وقد اشترك الجيش السويدي، بإمرة برنادوت، في المعارك ضد جيوش نابوليون في اوروبا. وفي مؤتمر فيينا (١٨١٥) تحررت النروج من سيطرة الدانمارك واتحدت مع السويد. إلا ان هذا الاتحاد دام حتى ١٩٠٥ عندما نالت النروج استقلالها.

القرن العشرون، الحياد، الاشتراكيون الديمقراطيون: مع بداية القرن العشرين انتهج السويديون سياسة ليبرالية وقرروا ان يجعلوا من الحياد حجر الزاوية في علاقاتهم الخارجية. فبقيت السويد، طيلة الحرب العالمية الاولى، خارج النزاع، مثلها مثل الدانمارك والنروج. وفي الحرب العالمية الثانية، جدّدت التزامها سياسة الحياد، وتجنبت الغزو الالماني لأراضيها، وقدمت المساعدة، قدر الامكان، لجيرانها الاسكنديناف، واستقبلت الكثيرين من اللاجئين من مختلف البلدان.

أتاحت أزمة ١٩٣١ للحزب الاشتراكي-الديمقراطي استلام الحكم واستمر فيه أكثر من نصف قرن. وأول زعيم لهذا الحزب الذي عين رئيسًا للوزراء هو بير ألبن، ثم تاج أرلندر، وأولاف بالمي. وقد خسر الحزب الاشتراكي الديمقراطي، لأول مرة منذ ١٩٣١، الانتخابات النيابية في ١٩٧٦، وتشكلت حكومة ائتلافية برئاسة توربجرن فلدن، من حزب الوسط. ثم أعقبتها في تشرين الاول ١٩٧٨ حكومة ليبرالية برئاسة أولا أولستن. وفي انتخابات ١٩٧٩، هُزم الاشتراكيون الديمقراطيون مرة جديدة بفارق ضئيل. ولكنهم عادوا وفازوا بأغلبية المقاعد النيابية في انتخابات ١٩٨٢. وفي ٧ تشرين الاول ١٩٨٢، عاد مجلس النواب وعين زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي، أولاف بالمي، رئيسًا للوزراء.

أولاف بالمي: أول إجراء اتخذته حكومة بالمي إعلان المصرف المركزي السويدي خفض قيمة الكورون بنسبة ١٦٪، وقد اعتبر هذا القرار إجراء من سلسلة إجراءات ستتخذها حكومة بالمي لتعزيز القدرة التنافسية للسويد في الخارج بعدما سجلت صادراتها انخفاضًا بنسبة ٩٪ في الأشهر التسعة الاولى من ١٩٨٢.

وعلى صعيد السياسة الخارجية، باشر بالمي حكمه معتبرًا (كانون الثاني ١٩٨٣) ان الامين العام الجديد للحزب الشيوعي السوفياتي، يوري أندروبوف، «يبدأ عهده في هدوء... بينما تعطي ادارة الرئيس رونالد ريغان الانطباع انها جاءت إلى السلطة ضد الانفراج ومع إعادة التسلح... لكنها في الوقت نفسه تعطي هذه الادارة مؤشرين مشجعين: تغيير موقفها من مشروع خط انابيب الغاز السيبيري... ومعاودة المفاوضات مع الاتحاد السوفياتي في شأن نزع السلاح». وبعد توقف الاتصالات الحكومية السويدية مع الاتحاد السوفياتي منذ نيسان ١٩٨٣ احتجاجًا على دخول غواصات سوفياتية مياه السويد الاقليمية، عادت حكومة أولاف بالمي وأوفدت مسؤولاً حكوميًا إلى موسكو في آذار ١٩٨٤ رغم المعارضة اليمينية في السويد وفي الوقت الذي كان الجيش السويدي «يطارد غواصة أجنبية كانت تقترب من قاعدة كولسكرونا البحرية السرية».

وأبرز ما دشّن به بالمي علاقاته الاوروبية استقباله للرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران في ايار ١٩٨٤، وإجراؤه معه محادثات عن الشرق

والغرب والعلاقات الثنائية. وكان آخر رئيس فرنسي زار السويد ريمون بوانكاريه في ١٩١٤ قبل اندلاع الحرب العالمية الاولى.

في ١٥ ايلول ١٩٨٥، جرت انتخابات عامة فاز بها الاشتراكيون الديمقراطيون واحتفظوا بالسلطة. لكن بعد ١٦٨ يومًا، أي في ٢٨ شباط ١٩٨٦ اغتيل رئيس الوزراء أولاف بالمي (راجع «بالمي، أولاف»، في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»، وكذلك باب «الاحزاب»، المواد المتصلة بموضوع «الحياد»).

كرونولوجيا العقد الأخير: في أول تموز ١٩٨٩، ألغت الحكومة رقابة النقد. وفي ٢٧ تموز ١٩٨٩، اتهم كريستر بيترسن باغتيال بالمي وحكم عليه بالسجن مدى الحياة، وبعد نحو ثلاثة أشهر جرت تبرئته من التهمة.

في ١٥ شباط ١٩٩٠، رفض البرلمان مشروع التقشف الذي تقدمت به الحكومة. وفي ١٣ حزيران، صدر قانون للاصلاح الاداري بدأ تنفيذه في اول كانون الثاني ١٩٩١. وفي هذا الشهر، وضع برنامج الـ٣،٨ مليار كورون بهدف الحفاظ على ثروات الطاقة. وفي ١٧ ايار ١٩٩١، اصبح الكورون السويدي مرتبطًا بالإيكو (وحدة النقد الاوروبية)، وفي تموز، قدمت السويد طلب انضمامها إلى المجموعة الاوروبية (المتوقع قبولها في هذه المجموعة في ١٩٩٥). وفي ١٥ ايلول جرت انتخابات عامة أسفرت عن هزيمة الاشتراكيين الديمقراطيين. وفي ٦ تشرين الاول (ايضًا ١٩٩١)، زار الملك شارل السادس عشر الفاتيكان (أول زيارة لملك سويدي للفاتيكان) وشارك في احتفالات المجمع المسكوني (البابا يوحنا بولس الثاني، وكبير أساقفة الكنيسة اللوثرية السويدية، وكبير اساقفة الكنيسة اللوثرية الفنلندية).

في ٧ آذار ١٩٩٢، توفي غونار سترانغ (مولود ١٩٠٧)، وزير سابق وأحد كبار رواد «النموذج السويدي».

في ١٩٩٣، وفي أجواء أزمة اقتصادية انفجرت (في آذار) أزمة سياسية في وجه حكومة الاقلية التي يرأسها رئيس الوزراء المحافظ كارل بيلدت، نتيجة لانتقال حزب الديمقراطية الجديدة إلى صفوف المعارضة بتصويته ضد الحكومة في شأن سياساتها الاقتصادية (راجع «تجمع المحافظين وحكومة بيلدت» في باب «الاحزاب»).

في ١٨ ايلول ١٩٩٤، توجه نحو ٦،٥ مليون ناخب لانتخاب برلمان جديد (٣٤٩ مقعدًا). وعاد الاشتراكيون الديمقراطيون ليحققوا النصر الانتخابي في معظم المحافظات باستثناء استوكهولم. ففازوا بـ١٦٢ مقعدًا مقابل ١٤٢ لتحالف اليمين (الذي كان قد شكل ائتلافًا رباعيًا بقيادة رئيس الوزراء كارل بيلدت والذي كان قد فاز في انتخابات ايلول ١٩٩١ واستلم الحكم على اثرها)؛ وتعرض حزب الديمقراطية الجديدة (يميني متشدّد) لهزيمة كبرى إذ خسر جميع مقاعده وعددها ٤٠ لأنه لم يحصل سوى على ٤٪ بينما النسبة المطلوبة لدخول البرلمان هي ٥٪؛ ويرتبط هذا الحزب بنزاعات عنصرية مناهضة للأجانب. وفي هذه الانتخابات (ايلول ١٩٩٤) احتلت النساء ٤٠٪ من المقاعد، وحزب اليسار (الشيوعي سابقًا) ٦،١٪، وحزب الخضر ٥٪ من المقاعد (١٨ مقعدًا)، والحزب الليبرالي ٧،١٪. وصرح زعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي إنغفار كارلسون (مولود ١٩٣٩)، الذي كان قد رأس الحكومة إثر اغتيال أولاف بالمي من ١٩٨٦ إلى ١٩٩١، إثر تلقيه نبأ انتصار حزبه: «أولوياتنا هي مكافحة الازمة الاقتصادية وتثبيت ديون البلاد ومكافحة البطالة». وشكل كارلسون الحكومة الجديدة بعد حكومة كارل بيلدت.

في أول كانون الثاني ١٩٩٥، أصبحت السويد عضوًا في الاتحاد الاوروبي أو المجموعة الاوروبية (في انتخابات البرلمان الاوروبي في

السويد في ايلول ١٩٩٥، أظهر السويديون تراجعًا بل «ندمًا» على دخولهم في المجموعة الاوروبية- راجع «معالم تاريخية»). وفي ربيع ١٩٩٥، أثيرت مشكلة دبلوماسية بين السويد وأريتريا بسبب الجالية الأريترية في السويد حيث أظهرت أسمرا تصرفًا غريبًا إزاء مواطنيها (راجع «معالم تاريخية»).

في ١٤ ايار ١٩٩٥، قدّمت اسرائيل اعتذارًا من السويد لاقدام مجموعة يهودية متطرفة على اغتيال الوسيط الدولي السويدي الكونت برنادوت في ايلول ١٩٤٨، وذلك على لسان وزير الخارجية الاسرائيلي شمعون بيريز وفي احتفالات جرت في متحف تل أبيب (بحضور نائبة رئيس الوزراء السويدي مونا ساهلين) إحياء لذكرى الكونت فولك برنادوت «الذي انقذ الآلاف من اليهود في نهاية الحرب العالمية الثانية عندما كان يرأس الصليب الأحمر في السويد (راجع «برنادوت، الكونت فولك» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»). لكن اسرائيل افتعلت، في الوقت نفسه، أزمة دبلوماسية مع السويد لمنعها مونا ساهلين من إجراء اتصال سياسي بمنظمة التحرير الفلسطينية في القدس الشرقية. فعادت ساهلين إلى بلادها، في اليوم التالي (١٥ ايار ١٩٩٥)، بعد إلغاء عدد من اللقاءات التي كانت مقررة مع رئيس الحكومة الاسرائيلية اسحق رابين ووزير خارجيته شمعون بيريز. واتخذت هذا القرار على أثر إبلاغها بأنه لا يمكنها زيارة «بيت الشرق» مقر منظمة التحرير الفلسطينية في القدس الشرقية للقاء فيصل الحسيني المكلف ملف القدس في السلطة الفلسطينية.

في آب ١٩٩٥، وبمناسبة ذكرى مرور خمسين سنة على إلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما، شن رئيس الوزراء السويدي إنغفار كارلسون حملة شعواء على سياسة الرئيس الفرنسي جاك شيراك داعيًا إياه إلى إعادة النظر في

مونا ساهلين.

قراره استعادة التجارب النووية في المحيط الهادىء. وصاحبت هذه الحملة موجة احتجاجات شعبية سويدية تمثلت بمظاهرات ودعوات لمقاطعة المنتوجات الفرنسية. وكانت وزيرة الزراعة مارغريتا فينبرغ أول من أطلق فكرة المقاطعة. ففي المؤتمر الدولي لنساء الاشتراكية الدولية الذي عقد في أوائل حزيران ١٩٩٥ في جنوب افريقيا، دعت فينبرغ إلى مقاطعة النبيذ الفرنسي والمنتوجات الزراعية الأخرى، وبررت هذا النداء بأنه محاولة للتأثير على شيراك «بالضغط على الأصبع الذي يؤلمه أي على المزارعين». ونجحت هذه الحملة إلى حد كبير، إذ بينت الاحصاءات ان شراء السلع الفرنسية من مشروبات كحولية ومنتوجات زراعية وصناعية تراجع بنسبة ٣٠٪.

في ايلول ١٩٩٥، فاجأ كارلسون مواطنيه (والعالم) بعزمه على الاستقالة من رئاسة الحكومة وزعامة الحزب الاشتراكي الديمقراطي والتقاعد ابتداء من ربيع ١٩٩٦، والتفرغ لهواياته وشؤونه الشخصية. وبرزت نائبته، مونا ساهلين، كأكثر

المرشحين حظًا لخلافته على رأس الحكومة وفي زعامة الحزب. لكن، في الموعد المحدّد (ربيع ١٩٩٦)، أصبح يوران بيرشون، وليس ساهلين، رئيسًا للحكومة.

في ٣٠ كانون الثاني ١٩٩٦، استقبلت استوكهولم رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات للمشاركة في حفلة تسليم جائزة السلام لمجموعات من الشبان الفلسطينيين والاسرائيليين. والتقى عرفات رئيس الوزراء السويدي إنغفار كارلسون ووزيرة الخارجية لينا هيلم فالين، وصرّح هناك بأن السويد ستقوم بدور الوسيط في المفاوضات الفلسطينية-الاسرائيلية الخاصة بوضع القدس.

في آب ١٩٩٦، وبعد نحو أربعة أشهر من بدء ولايته خلفًا لكارلسون، زار رئيس الحكومة يوران بيرشون الولايات المتحدة (وقبل ان يزور أي دولة اجنبية أخرى باستثناء الدول البلطيقية المجاورة)؛ وعلى أثر هذه الزيارة بدأ الحديث يدور حول ما إذا كانت السويد مقبلة على انهاء دورها الحيادي التقليدي، وحول ما إذا كانت مقبلة على الانضمام إلى حلف الناتو (راجع باب «السويد جغرافيًا واستراتيجيًا»).

في ايلول ١٩٩٦، كشفت موسكو عن فضيحة تجسس سويدية تتعلق باجهزة الاتصال العسكرية الجوية (كانت وجهة التجسس معكوسة في ايام الحرب الباردة والاتحاد السوفياتي، إذ كانت السويد تشتكي دائمًا من تجسس سوفياتي عليها) علق عليها وزير الدفاع السويدي بأنه «ليس هناك ما نخجل منه... الكل يعلم ان لدينا جهازًا للاستخبارات ومن الطبيعي ان ينشط هذا الجهاز في مضماره». وقصة التجسس كانت وقعت في شباط ١٩٩٦، لكن البلدين اتفقا على تطويقها لكي لا تترك أثرًا على العلاقات الطيبة بينهما. أما الكشف عنها الآن (أي بعد نحو ٧ أشهر) من قبل موسكو فقد تزامن مع وجود الدبلوماسي الاميركي ريتشارد هولبروك في استوكهولم في مهمة لم تسلط عليها الاضواء ولم ترافقها أي ضجة على رغم أهميتها، وهي باعتقاد موسكو وكما تناولتها الصحافة العالمية، متابعة ما اتفقت عليه القيادتان في اميركا والسويد في شأن الشروع فورًا «في تعاون أمني وعسكري واسع ثنائيًا عبر حلف الناتو لحماية الأمن والاستقرار في منطقة البلطيق خوفًا من الشراهة الروسية التاريخية تجاهها».

في اوائل آذار ١٩٩٧، أي بعد عامين ونصف العام على عودة الاشتراكيين الديمقراطيين إلى الحكم بنسبة ٤٥،٣٪ من اصوات الناخبين وقبل عام ونصف العام من الانتخابات العامة (ايلول ١٩٩٨) أظهر آخر سبر للآراء أجرته

ملك السويد كارل السادس عشر غوستاف مستقبلاً رئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات في قصره في استوكهولم (كانون الثاني ١٩٩٦).

مؤسسة «سيفو» الرسمية تراجعًا كبيرًا في شعبية الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم لمصلحة المحافظين (راجع باب «الاحزاب»).

وفي اواخر الشهر نفسه (آذار ١٩٩٧)، انتقد مسؤولون سويديون (وزير المساعدات الخارجية بيير شوري، ومسؤول الملف الفلسطيني في الحكومة ستن أندرسون) مواقف اسرائيل من عملية السلام والاستيطان والسلطة الفلسطينية، وطالبوا حكومة نتانياهو الاسرائيلية بالعودة إلى طريق السلام والتزام الاتفاقات المبرمة مع الجانب العربي.

الجدير ذكره ان الدبلوماسية السويدية مارست، خاصة في العام ١٩٩٧، دورًا فعالاً على المسرح الدولي لصالح السلام في الشرق الاوسط، وذلك عبر الامم المتحدة وعضويتها في مجلس الأمن. وقد قيل في السياسة الشرق أوسطية التي قادتها وزيرة الخارجية السويدية، ليناايلم إنها كانت «متطابقة إلى حد كبير مع وجهة النظر العربية في شأن تحقيق السلام في الشرق الاوسط». وبالفعل، فقد صدرت عن الحكومة السويدية، في السنة المذكورة، سلسلة من المواقف التي شدت الانتباه إليها بجرأتها ووضوحها في تحميل اسرائيل مسؤولية التوتر وغياب السلام والجمود في منطقة الشرق الاوسط، والدفاع عن الموقف الفلسطيني خصوصًا، والمواقف العربية عمومًا.

السويد جغرافيًا واستراتيجيًا على ابواب تطليق الحياد

تمهيد: السويد أكثر البلدان الاسكندينافية شهرة. فهي أكثرها سكانًا، وتتصرف، سياسيًا، وكأنها ماسكة بزمام المبادرة في كل سياسة دولية متعلقة ببلدان اوروبا الشمالية. فتبدو، في الواقع، هذه المملكة المحايدة منذ ١٨١٤ كصاحبة رسالة دولية عليها إنجازها. والشاهد على ذلك حماسها في ما يتعلق بنزع السلاح الدولي عندما استضافت استوكهولم مؤتمر الأمن والتعاون الاوروبي في ١٩٨٤-١٩٨٦، كما في ما يتعلق بقضايا العالم الثالث حيث كانت السويد إحدى أول البلدان التي خصصت أكثر من ١٪ من دخلها العام لمساعدته، وكذلك لا تغيب عن الذاكرة تلك الانتقادات الحادة التي كان يوجهها قادتها وحكامها-وخاصة أولاف بالمي-للولايات المتحدة إبان حرب فيتنام.

عودة إلى النبذة التاريخية: ويمثل ما يُذكر حياد السويد يُذكر ايضًا تاريخها. فبعد ١٣٢٣، تمكنت المملكة السويدية من ضم فنلندا ووقفت ندًا للملكة الدانماركية، وخطّت لها إرثًا عسكريًا كبيرًا، فحققت في القرن السابع عشر امبراطورية وصلت اطرافها إلى الضفة الأخرى من البلطيق،

فشملت استونيا وكاريليا وليفونيا وبوميرانيا الغربية ومدينة ويسمار وأسقفيات بريم وفردن. ولم يبدأ نجم «عصر العظمة» هذا بالافول إلا مع القوة المتصاعدة لروسيا على يد قيصرها بطرس الأكبر. ففي ١٨٠٩، تخلت السويد عن فنلندا لروسيا، لكن بعد خمس سنوات (أي في ١٨١٤) استعاضت عنها بالنروج. وفي ١٩٠٥، أعلن عن حل الاتحاد السويدي-النروجي.

هذا المخزون الامبراطوري في الذاكرة السويدية هو أحد العناصر الذي يُساعد على فهم موقف السويد اللاحق. فالموضوع الامبراطوري الضائع استمر حاضرًا في الخطاب السياسي للاحزاب-خاصة الاحزاب اليمينية-حتى الحرب العالمية الاولى؛ كما انه لا يزال حتى الآن أحد العناصر المكونة، ولو بصورة غير واعية تمامًا، للثقافة السياسية القومية. ولا شك ان ذكرى هذه العظمة كانت حاضرة عندما حاولت السويد، في ١٩٤٨-١٩٤٩، تحريك فكرة الدفاع الاسكندينافي مع النروج والداغارك، عندما كانت هاتان الدولتان تفضلان الدخول في الحلف الاطلسي (منظمة معاهدة شمالي الأطلسي).

«الرسالة»: وهذه «الرسالة» الدولية التقت، في العقود الأخيرة، مع ازدهار «النموذج» السويدي الاقتصادي الذي سعى (ونجح) إلى التوفيق بين الليبرالية الاقتصادية وعدالة الاشتراكية. فتأمنت للسويد وسائل سياسة دولية دينامية؛ فضلاً عن ان الاقتصاد السويدي متعلق إلى حد كبير بحركة المبادلات مع الخارج، فاتاح ازدهاره، واستوجب في الوقت نفسه سياسة دولية نشطة.

وثمة ظاهرة أخرى ساهمت في تفسير «رسالة» السويد الدولية: هيمنة الحزب الاشتراكي الديمقراطي الذي استمر في السلطة (منفردًا أو بالائتلاف) من ١٩٣٢ في ما عدا انقطاعه عنها من ١٩٧٦ إلى ١٩٨٢، محققًا بذلك أطول فترة حكم في اوروبا. فكانت ايديولوجية هذا الحزب الاشتراكية (المتأثرة جوهريًا وثقافيًا بالمذهب اللوثري) وعلاقاته داخل الاممية الاشتراكية (الثلاثي الاشتراكي الشهير: برونو كرايسكي-ويلي برانت-أولاف بالمي) عناصر تقريرية في توجيه سياسة السويد الخارجية وطروحاتها. وبرزت السويد كمدافع عن البلدان الفقيرة، وعن التضامن بين الشعوب، منتقدة إمبريالية الدول العظمى، ومطالبة بالعدالة الاجتماعية في العالم وباحترام حقوق الانسان، من على المنابر الدولية.

الحياد: وعلى صعيد علاقاتها بين الدول، تميزت السويد بسياسة «الحياد النشط». فكانت إحدى الدول الاوروبية القليلة جدًا التي عرفت كيف تتجنب الحربين العالميتين. وهذا الحياد يمكن فهمه كنتيجة لموقع السويد الجغراسي (الجيوبوليتيكي) القائم بين امبراطوريتين كبيرتين: الروسية والألمانية. وبعد الحرب العالمية الثانية، برزت مشكلة تقسيم المنطقة بين المعسكرين. فاختار السويديون، بعد نجاح سياسة الحياد التي انتهجوها خلال الحرب على اثر فشل مشروع الاتحاد الاسكنديناڤي، الاستمرار في سياستهم التقليدية. وحدّدت السويد سياستها الحيادية بسياسة «عدم الانحياز في وقت السلم بهدف الحياد في وقت الحرب»، وبسياسة «الحياد النشط».

وطيلة فترة الحرب الباردة (١٩٤٥-١٩٨٩)، اجتهدت السويد في المحافظة على توازن دقيق بين الشرق والغرب. أوروبا الغربية والولايات المتحدة أهم الدول الشريكة لها تجاريًا (وتدافع في الوقت نفسه، مثلهما، عن التبادل الحر)، ومع ذلك فإن خطابها الحيادي النشط كان يتضمن في أغلب الأحيان، تذكيرًا بالقيم الاشتراكية ونقدًا عنيفًا، فاق أي نقد غربي آخر، للسياسة الاميركية في فيتنام، أو غرانادا، أو

نيكاراغوا؛ كما انتقدت الاتحاد السوفياتي في افغانستان، لكن بصورة أخف وأقل إيذاء.

وعلى صعيد العالم الثالث، جاءت الأفضلية في المساعدات السويدية لبلدان ماركسية (في القرن الافريقي، أنغولا، فيتنام، نيكاراغوا، كوبا...)، وكذلك لحركات التحرير الوطنية والتقدمية، مثل منظمة شعب جنوب غربي افريقيا (سوابو)، وجبهة تحرير موزمبيق (فريليمو)، والمؤتمر الوطني الافريقي. وبسبب هذه السياسة، لم تتمكن السويد من ان تصبح عضوًا في المجموعة الاقتصادية الاوروبية (CEE).

وارتكز الحياد السويدي على سياسة دفاعية أشركت فيها المجتمع برمته. فطوّرت البلاد صناعة حربية حتى اصبح الطيران الحربي يضاهي، في الستينات، نظيره الفرنسي. فكانت ميزانية الدفاع مثلاً تستقطع نحو ٣٪ من إجمالي الناتج الوطني، وكانت الخدمة الالزامية مفروضة على الجميع بين سن ١٨ و٦٥ سنة، وكانت الصناعة الثقيلة تعنى بانتاج أرقى الاسلحة وأقواها. وكانت هذه السياسة تستند ايضًا إلى جهاز استخبارات كفؤ لمجابهة حروب التجسس المستمرة من الـ«كي.جي.بي» السوفياتية الشهيرة. لكن الأهمية التي أعطاها القادة الاشتراكيون الديمقراطيون السويديون لـ«الانفراج» الذي عرفته السبعينات، والتزامهم سياسة نزع السلاح، أدّيا إلى هبوط مهم في القوة الدفاعية السويدية. ففي أواخر الثمانينات، أكد قائد الجيوش السويدية ان الدفاع لم يعد يمتلك وسائل إنجاز المهمات الموكولة إليه. ومن المعروف ان سلسلة من الانتهاكات للمياه الاقليمية السويدية أقدمت عليها الغواصات السوفياتية طيلة الثمانينات من دون ان يكون لدى السويد القدرة على إيقافها.

هذا التدني في القدرة الدفاعية رافقته قراءة ناقصة للأهمية الاستراتيجية للبلاد. فالعقيدة السويدية بالغت في تثمين حالة الاستقرار التي عرفتها المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية واعتبرت ان الموقع الاستراتيجي للسويد قليل الأهمية بذاته. فالاتحاد السوفياتي، بنظر الاستراتيجيين السويديين، ما كان ليهتم بهذا الموقع إلا من زاوية حق المرور باتجاه الشمال والنروج، واهتمام الولايات المتحدة منحصر بالطيران باتجاه الجنوب حيث بلدان حلف فرصوفيا.

هكذا وجد التحليل الاستراتيجي السويدي نفسه مقصرًا إزاء وتائر استراتيجيات الدول العظمى التي أولت أهمية استراتيجية كبرى لأوروبا الشمالية بدءًا من العام ١٩٧٥، حيث كان الاتحاد السوفياتي منكبًا على بناء قواعده في شبه جزيرة كولا، أي المكان الذي اصبح مخبأ لأكبر كمية من السلاح النووي. وقد دلّت دراسات عديدة ان النشاط المحموم للغواصات السوفياتية في المياه الاقليمية السويدية جاء في سياق تنفيذ السوفيات لخطط عسكرية موضوعة. وهذا ما اعترفت به لجنة التحقيق التي شكلتها الحكومة السويدية في ١٩٨٣. واستمرت «نواقص» العقيدة الاستراتيجية السويدية بعيدة عن الرأي العام السويدي الذي كان يتناول أنباء انتهاكات الغواصات السوفياتية وكأنها موضوعات للدعابة. لكن مع انتهاء الحرب الباردة التي فاجأت الجميع في ١٩٨٩، كان موضوع الامن والدفاع قد نضج ليصبح منتقدًا ومتناولاً من الجميع، مسؤولين ورأي عام. فبعد ان تقدمت السويد بطلب ترشيحها للانضمام إلى المجموعة الاوروبية في اول تموز ١٩٩١، سارعت إلى الاعلان عن اطلاق مشروع إعادة هيكلة قواتها الدفاعية مع تركيزها على تفضيل نوعية هذه القوات وسلاحها على الكمية. وكانت حريصة في الحالين، طلب الانضمام إلى المجموعة الاوروبية ومشروع إعادة هيكلة القوات الدفاعية، على عدم الانسياق وراء إعادة اعطاء تحديد دقيق لحيادها. وقد لوحظ انها لم تعد تقول عن نفسها انها بلد محايد، ولكنها لا تزال تركز

على عدم الانحياز. وقد نُظر إلى عدم الانحياز هذا، في السنوات الاولى من التسعينات، على انه مؤقت بدليل الأمل الذي تضعه السويد في اوروبا المستقبل، وفي مختلف المنظمات الاوروبية، بما فيها المنظمات العسكرية والدفاعية (ما جاء تحت العنوانين الفرعيين الأخيرين: «الرسالة» و«الحياد»، عن Dictionnaire Géopolitique des Etats, Flammarion, Paris 1994, p.536-537).

من الباحثين والمؤرخين من يعتقد ان الحياد السويدي هو سياسة ظرفية وموسمية هدفها تجنيب البلاد الحروب وليس نهجًا ينم عن قناعة عميقة أو عقيدة قومية أو إنسانية. ويعطون الدليل في موقف السويد الحيادي خلال الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من وقائع جرت على صعيد حقيقة علاقات السويد بالولايات المتحدة من جهة والاتحاد السوفياتي من جهة ثانية (راجع باب «معالم تاريخية»). والمسار الأخير (السنوات التي بدأت بانتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفياتي حتى اليوم، ١٩٩٧) لسياسة السويد الدولية، خاصة إزاء روسيا وإزاء الولايات المتحدة، يعطي الدليل الآخر.

مآل الحياد السويدي إزاء روسيا والولايات المتحدة: متغيرات ١٩٨٩-١٩٩٠ الدولية الجذرية (انتهاء الحرب الباردة وزوال الاتحاد السوفياتي) عززت الوضع الامني للسويد، ووفر لها الانضمام إلى الاتحاد الاوروبي عمقًا استراتيجيًا مهمًا على حد ما جاء في تقرير وضعته لجنة برلمانية شكلت في ١٩٩٥ للنظر في شؤون الدفاع، وعليه لا تواجه السويد «خطر نشوب حرب كبرى على اراضيها أو بالقرب منها خلال الاعوام القليلة القادمة» («الحياة»، عدد ١٤ كانون الثاني ١٩٩٦، تيارات).

لكن التحسب للمخاطر الخارجية بقي منصبًا على جهة روسيا. وهذا تحسب تاريخي يعود إلى ايام روسيا القيصرية، ثم الاتحاد السوفياتي وفي سنوات الحرب الباردة، خاصة وان الديمقراطية في روسيا الحالية لا تزال غير راسخة، ووضعها ينطوي على احتمالات مخاطر جدية، وقد زاد الروس من عمليات التجسس على السويد في ١٩٩٤-١٩٩٥، إضافة إلى نمو التيارات القومية المتطرفة في روسيا واحتمالات عودة الشيوعيين اصحاب مشروع إعادة بعث «الاتحاد السوفياتي». لذلك، فالسويديون عاكفون على تصميم وإنتاج الطائرة الحربية «جاس ٣٩» التي يُقال إنها تتفوق على أحدث طائرات الميغ الروسية أو الطائرات الاميركية والاوروبية الأخرى. وللأسباب نفسها، عارضت قيادة الجيش تقليص ميزانيته ونفقاته وأعداد أفراده إلا في حدود ضئيلة (٣،٣ مليار كرون اعتبارًا من اول ١٩٩٧).

موضوع حياد السويد طُرح بقوة في السويد والعالم على أثر الزيارة التي قام بها رئيس الحكومة السويدية يوران بيرشون للولايات المتحدة في آب ١٩٩٦ والتي وصفت بـ«التاريخية» لاجرائه «محادثات على جانب كبير من الأهمية مع الرئيس كلينتون وكبار اعضاء ادارته ولا سيما مجلس الأمن القومي تطرقت إلى موضوعات للمرة الأولى لا منذ انتهاء الحرب الباردة بل منذ بدايتها وهي مسائل التعاون الامني بين السويد واميركا وبين دول البلطيق وحلف الناتو» (حلف الأطلسي).

حافظت السويد، بصورة عامة وبرغم بعض الوقائع التقنية والتفصيلية الداخلة في معظمها بالموضوع الأمني، على الحياد طيلة حقبة الحرب الباردة ولا تزال كذلك رسميًا. وقد نشبت بينها وبين الولايات المتحدة توترات حادة وأزمات متكررة على خلفية هذا الحياد. وبلغت هذه التوترات ذروتها في مناهضة السويد للحرب الاميركية في فيتنام نهاية الستينات، وكذلك ضد سياسة سباق التسلح ونشر الصواريخ غير التقليدية في اوروبا والعالم. ولقد استمر هذا الميراث المتوتر

يحكم العلاقات بين الدولتين حتى آخر ايام عهد رئيس الحكومة إنغفار كارلسون (ربيع ١٩٩٦) الذي رفض الدعوة لاجراء أي مباحثات أمنية مع أميركا أو الناتو خلال ١٩٩٤-١٩٩٦، في حين ان سلفه المحافظ كارل بيلدت خطا أولى الخطوات في هذا الاتجاه. أما الخطوة الكبرى «شبه الانقلابية» فحققها يوران بيرشون في زيارته الولايات المتحدة وفي السياسة التي ينتهجها على أساس ان ظروف منطقة البلطيق قد تغيرت. وبيرشون اشتراكي ديمقراطي مثله مثل بالمي وكارلسون.

(جمع محمد خليفة حصادًا حول آخر ما وصلت إليه العلاقات السويدية-الاميركية، وتاليًا «الحياد السويدي»، ونشرته «الحياة» على صفحات «تيارات» تاريخ ٢٥ آب ١٩٩٦، تحت عنوان «السويد تطرق ابواب الناتو واميركا تساند دورها العالمي الجديد»، جاء فيه):

في السابق لعبت السويد دورًا قياديًا ولكن محدودًا على صعيد ثلاث مجموعات اقليمية: المجموعة الشمالية، والاسكندينافية، والمحايدة. أما الآن فإنها ترغب في الاضطلاع بدور اقليمي وعالمي أكبر على صعيد «الاقليم البلطيقي» و«الاتحاد الاوروبي» والامي (من خلال الامم المتحدة)، وهي تدرك بالطبع ان هذا الدور الكبير لا يتأتى من دون الوظائف الامنية والسياسية، بمعنى انها يجب ان تطوي حيادها السابق.

ترجمت السويد طموحها الحالي عبر تنظيم «القمة الاولى في التاريخ لزعماء دول البلطيق الاحدى عشرة» في ايار ١٩٩٦ حيث اسفرت عن ولادة مجموعة اقليمية كبرى تتزعمها استوكهولم. كما سبق ان ترجمته عبر انضمامها إلى الاتحاد الاوروبي في ١٩٩٥. وهي تريد ان تستكمل ترجمته الآن بتعزيز انتمائها إلى العالم الديمقراطي الحر، وعبر علاقات مميزة وشاملة مع عظمى دوله، أميركا، وعبر منظماته العالمية كافة.

وقد رحبت اميركا بالتوجه السويدي الجديد بحفاوة تمثلت في استقبال بيرشون في هذا الشهر (آب ١٩٩٦). ولا شك ان من بين اسباب هذه الحفاوة كون بيرشون لا يمثل السويد فقط بل المجموعة البلطيقية ايضًا، وهذا ما دعا نيكولاس بيرنز المتحدث الرسمي باسم الخارجية الاميركية للقول: «السويد مهيأة لدور قيادي إيجابي في العلاقات الدولية... إن علاقاتنا بها كانت جيدة دائمًا، لكنها الآن أفضل من أي وقت مضى». وأكدت من جانبها صحيفة «سفنسكا داغ بلادت»، أرصن الصحف السويدية، في تقرير لها من واشنطن ان رئيس الوزراء (بيرشون) اطلع الرئيس الاميركي على نتائج قمة البلطيق والايجابيات التي تمخضت عنها، وقالت إن كلينتون أشاد بها: «هذه القمة من الصيغ التي لا يمكن لأميركا ابتكارها، لكن السويد نجحت في ذلك، نحن مرتاحون جدًا لهذا الانجاز الذي لم يكن بالمستطاع تحقيقه خلال الحرب الباردة». ونقلت الصحيفة عن مصدر اميركي رفيع المستوى ان بلاده كانت «قلقة» قبل سنة فقط نتيجة لعدم وضوح الصورة في منطقة البلطيق ورفض رئيس الحكومة السويدي السابق (كارلسون) التعاون مع اميركا في صدد المشكلات الأمنية.

للمرة الاولى لم تسمع واشنطن الشعار السويدي التقليدي: «الشأن البلطيقي شأننا»، لأن السويد الآن «قلقة» جدًا من الغموض الذي يلتبس مستقبل الاوضاع في الدول المجاورة، وخاصة مصير الديمقراطية في روسيا ومستقبل السلطة في هذه الدولة العملاقة، نظرًا إلى ان وضع الرئيس الروسي بوريس يلتسن الصحي لا يوحي بالطمأنينية أبدًا، وكذلك مستقبل بولندا التي عاد الشيوعيون إلى السلطة فيها، وكذلك مصير الدول البلطيقية الصغيرة الثلاث: لاتفيا، استونيا وليتوانيا. وهذه الدول توليها السويد مع شقيقتيها فنلندا والنروج اهتمامًا فائقًا لأنها تقع على الحد الفاصل بينها

وبين الدب الروسي ذي المزاج المتقلب، ولا زالت السويد تعتقد ان روسيا لم تسلم نهائيًا باستقلال هذه الدول الصغيرة.

إزاء هذه المخاوف يرى السويديون ان الوقوف على «الحياد» بالمفهوم القديم نفسه أضحى وهمًا لا يلبي مصالحهم الامنية ومصالح أشقائهم وجيرانهم. لذا يجدون ضرورة كبرى في توسيع نطاق الاتحاد الاوروبي بشكل عاجل ليضم الدول البلطيقية الثلاث وبولندا دعمًا للديمقراطية والاستقرار فيها وفي المنطقة. وقد أعربت استوكهولم لشركائها في الاتحاد عن قلقها من تأجيل البت في قبول عضوية هذه الدول إلى العام ٢٠٠٢، كما تخشى ان يأتي ذلك العام من دون ان توافق بروكسيل (مركز الاتحاد الاوروبي) على انضمام الاعضاء الجدد. ولذلك فإن السويد لم تعد تناهض توسع حلف الناتو (الأطلسي) إلى هذه المنطقة، بل ربما غدت تطلبه وتدعمه.

الاحزاب

أهم أحزاب السويد: تسعة، وهي:

١- الحزب الاشتراكي الديمقراطي:

تأسس في ١٨٨٩، حكم بالتحالف مع احزاب أخرى بين ١٩١٧ و١٩٣٢، وحكم بمفرده منذ ١٩٣٢ حتى اليوم (اواخر ١٩٩٧) باستثناء ثلاث مرات عقب ثلاثة انتخابات عامة لم ينل فيها الأكثرية المطلوبة: انتخابات ١٩٧٦، وانتخابات ١٩٧٩ وانتخابات ١٩٩١.

يعد الحزب الأداة السياسية لنقابات العمال، وهي التي أسسته ويخضع لها حتى الآن. أقوى مناطق نفوذه في الشمال بسبب كثرة المناجم ومصانع الاخشاب وتجمعات العمال، ويحصل هناك على ٥٥٪ من اصوات الناخبين. وأضعف مواقعه في العاصمة إذ تتدنى نسبة مؤيديه إلى ٣٥٪ يتزعمه حاليًا رئيس الحكومة يوران بيرشون، وعدد اعضائه نحو ٣٠٠ ألف.

٢- حزب تجمع المحافظين (معروف ايضًا باسم حزب التجمع المعتدل):

تأسس في ١٩٠٤ من ممثلي الاقطاعيين والرأسماليين الكبار. سكرتيره العام كارل بيلدت الذي اصبح رئيسًا للوزراء في ١٩٩١ واستمر حتى هزيمة الحزب في انتخابات ايلول ١٩٩٤. يندر وجود متحدرين من اصول غير سويدية بين اعضائه، ويدعو لنقاء المجتمع عرقيًا وثقافيًا من دون اللجوء إلى العنف. تتمركز قوته في العاصمة حيث تبلغ نسبة مؤيديه ٣٢٪، بينما لا تزيد هذه النسبة عن ١٠،٨٪ في الشمال. يؤيد بقوة اندماج السويد في العالم الغربي ويساند السياسة الاميركية. عدد اعضائه نحو ١٤٠ ألفًا.

٣- حزب الشعب الليبرالي:

تأسس في ١٨٩٥. يعتبر ضعيفًا من حيث عدد أعضائه (نحو ٧٠ ألف عضو)، لكنه يتمتع بنفوذ قوي بسبب امتلاكه وسيطرته على أكبر الصحف اليومية السويدية، ويملك عددًا من اضخم الشركات الاقتصادية. ويعد هذا الحزب بمثابة

البيت التقليدي للعائلات الثرية النافذة، بما فيها العائلات اليهودية. وللمثقفين والكتاب وجود محسوس في صفوفه. يتزعمه بينيت ويستر بيري.

٤- حزب الوسط:

تأسس في ١٩١٣، وكان إسمه حتى ١٩٥٧ حزب المزارعين لأنه يمثل طبقة الفلاحين. حزب قوي، وتتركز قاعدته في جنوبي البلاد لا سيما في جزيرة غوتلند حيث غالبية السكان من الكاثوليك. ضعيف في العاصمة والشمال. يتزعمه أولف يوهانسون، وعدد أعضائه نحو ٢٢٠ ألفًا.

٥- حزب اليسار (الشيوعي):

تأسس في ١٩١٧. انشق عن الحزب الاشتراكي تأييدًا للأممية السوفياتية. ظل دائمًا ضعيفًا وهامشيًا، و لم يزد عدد اعضائه في أي وقت عن ٢٠ ألفًا، و لم يشارك في أي حكومة. تتركز قوته في الشمال. رئيسه غودرون شيمان.

٦- الحزب الديمقراطي المسيحي:

تأسس في ١٩٦٤. شارك في الحكم للمرة الاولى في ١٩٩١ ضمن ائتلاف اليمين (حكومة بيلدت). تتركز قوته في وسط البلاد إذ تصل نسبة مؤيديه إلى ١٦٪. رئيسه آلف سفنسون، وعدد اعضائه نحو ٢٧ ألفًا. ويمثل الحزب الكنائس الحرة والناشطين في مجال التبشير المسيحي (اللوثرية).

٧- حزب الديمقراطية الجديدة:

تأسس في ١٩٩١ بتأثير الموجات العنصرية في اوروبا. تتركز قوته في جنوبي البلاد حيث الاتصال العرقي والثقافي بالمانيا والدانمارك. أفكاره اقرب إلى العنصرية، وعلى رغم دخوله البرلمان في ١٩٩١، فإن الائتلاف الحكومي لم يقبل مشاركته في السلطة. تراجعت قوته في العامين الأخيرين. زعيمه إيان وشتمايستر.

٨- حزب البيئة (الخضر):

تأسس في ١٩٨١. لم ينجح في دخول البرلمان إلا مرة واحدة (١٩٨٨)، لكنه يحظى باستمرار بدعم واحترام قطاع عريض من الشعب.

٩- الحزب الليبرالي:

تأسس في ١٩٠٢. رئيسه بنغت وستربرغ، وعدد أعضائه نحو ٤٦ ألفًا.

الحزب الاشتراكي الديمقراطي (التجربة السويدية): تأسس (١٨٨٩) تعبيرًا عن نمو الحركة العمالية-الاشتراكية وصعود القوى الاجتماعية الفقيرة والمتوسطة التي أفرزتها مرحلة التصنيع (في السويد واوروبا، القرن ١٨-القرن ١٩). وتأسس الحزب بمبادرة من نقابات العمال التي كانت سباقة في الولادة، وارادت له ان يكون أداتها الحزبية في المعترك السياسي. ورغم العوارض الطبيعية لمرحلة المخاض والولادة الاولى والانشقاقات التي وقعت في صفوفه في سنوات العقد الاول، أظهر قوته بسرعة قياسية إذ نجح مرشحوه في الدخول إلى البرلمان بعد عام واحد فقط من ولادته، وشارك للمرة الاولى في حكومة ائتلافية مع احزاب الوسط واليمين في ١٩١٤. وفي ١٩١٧، عزّز الحزب مواقعه في الساحة كأحد الاحزاب الرئيسية، وسرعان ما استحوذ على السلطة بمفرده في ١٩١٨ يوم شكل أول حكومة اشتراكية بالكامل برئاسة زعيمه هالمار برانتنغ. وواصل صعوده الكاسح مواكبًا اندفاعة الحركة الشعبية المطالبة بالاصلاحات الدستورية ثم بتمثيله الحركات المنادية باتباع سياسة الحياد في الحرب العالمية الاولى إلى جانب تمثيله الحركة العمالية والتي كانت مصممة على نيل حقوقها وتحسين ظروفها وشروط عملها (راجع «برانتنغ، كارل هالمار» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

ظل الاشتراكيون يتأرجحون، حتى بداية العقد الثالث، بين المشاركة في الحكم أو المعارضة مع توسيع مطرد في قاعدتهم الاجتماعية. فشكلوا حكومة أقلية في ١٩٣٢ برئاسة الزعيم الجديد للحزب بير ألبين هانسون نجحت في انجاز مشروعات حيوية وضخمة في ميدان البنية الرئيسية

والخدمات والمرافق الحيوية خلال وقت قصير، الأمر الذي كانت له نتائج اجتماعية واقتصادية اعطت ثمارها في انتخابات ١٩٣٦ حين فاز الحزب فوزًا ساحقًا على مجموع الاحزاب البورجوازية، فتقلد الحكم بالتعاون مع الحزب الزراعي (أصبح إسمه في ما بعد حزب الوسط).

مع صعود النازية في المانيا وهبوب رياح الحرب العالمية الثانية، وجد الحزب الاشتراكي الديمقراطي ان المصلحة الوطنية تقتضي تأليف حكومة وحدة وطنية بزعامته، فضم ممثلين من الاحزاب الأخرى إلى صفوف الحكومة. فاستطاع بذلك المحافظة على السلام الداخلي وعلى الحياد الخارجي، مع ان موقع السويد في الطريق بين المانيا والاتحاد السوفياتي ووجود تيار اجتماعي قوي مساند للنازية كانا يمكن ان يعصفا بالبلاد ويلقيا بها في جحيم الحرب ويدمرا مكتسباتها كما حدث في الدول المجاورة. وحصدت السويد في هذا الموقف مضاعفة في حجم التبادل التجاري معها سواء من جانب الكتلة الشيوعية أو الكتلة الرأسمالية، ما أدّى إلى تمكين الحزب الاشتراكي من المضي قدمًا في خططه التنموية. فارتفع الدخل القومي والدخل الفردي، وازدهرت البلاد، وصار الحزب يحكم البلاد بصورة مستمرة مستندًا إلى تأييد شعبي جارف.

تألفت الحكومة السويدية برئاسة زعيم الحزب تاجي ارلاندر في فترة ما بعد الحرب (١٩٤٦-١٩٦٩)، ثم برئاسة خليفته الأشهر أولاف بالمي إلى حين اغتياله في مطلع ١٩٨٦ (راجع باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

ارتبط إسم الحزب الاشتراكي الديمقراطي بـ«التجربة السويدية» المشهود لها بالنموذجية والنجاح. ويُعزى هذا النجاح إلى ان روادها الاشتراكيين الديمقراطيين ابتعدوا عن المذهبية الجامدة التي طغت على التجارب الماركسية-اللينينية، وتجنبوا ايضًا المماحكات المثالية المجردة، وركّزوا على بلوغ الغاية المنشودة بأقصر الطرق وأنجح الأساليب والوسائل العملية. وظل معيارهم الذي يحسبون به خططهم ويزنون انجازاتهم هو كيفية الوصول إلى الاهداف الثلاثة التي رفعوها: الرفاهية الاقتصادية، السلام الاجتماعي والمساواة. وقد كتب أولاف بالمي ذات مرة يقول: «إن الصياغات النظرية للقرن التاسع عشر مثل الليبرالية التقليدية أو الماركسية الأرثوذكسية إنما فرغت تمامًا من أي محتوى أو مضمون مفيد في وقتنا الحاضر. فلم يعد هناك في مجتمعنا مكان للمعجزات أو للقدرية أو للتطور الحتمي للتاريخ خارج إرادة البشر. فنحن ورثة العالم الذي حطم بقسوة كل الاحلام الرائعة للمفكرين السابقين».

وآمن إشتراكيو السويد منذ البداية بالتدرجية والمرحلية الهادئة في بلوغ الاهداف رافضين مبدأ «الثورة الطبقية بالعنف» ورافضين استراتيجية حرق المراحل لأنها تفتقر للبعد الانساني حين تطلب من جيل أن يضحي بنفسه من اجل سعادة جيل تال لم يولد بعد. فطبقوا الاشتراكية وبنوها بتؤدة وبالتدريج وباتباع وسائل غير دموية ودون تفجير الصراعات الطبقية. وفي الوقت نفسه تمسك هؤلاء الاشتراكيون بالقيمة الكبرى والرئيسية في النظام الرأسمالي، وهي التعددية والديمقراطية واحترام حق الملكية الخاصة جنبًا إلى جنب مع الملكية العامة، وبدور الفرد جنبًا إلى جنب مع دور الدولة بلا طغيان من هذه على ذاك ولا انحراف من ذاك عن إطار المجتمع. وعلى كل هذا صاغوا الأسس النظرية لاشتراكيتهم الديمقراطية، وفي مقدمتها:

١- تقليل التفاوت في المداخيل عن طريق اشتراكية الضرائب واشتراكية الخدمات والتنظيم التعاوني كوسيلة لتحقيق الاشتراكية في بعض القطاعات.

٢- زيادة الانتاج وكفايته عن طريق ترشيد الادارة.

٣- تحقيق الوفرة وضمان الاستقرار في سوق العمل، وتحقيق التوظيف الكامل.

٤- بناء قطاع عام في بعض المجالات، خاصة الخدمات والتخطيط المبرمج والرقابة.

٥- تحقيق اشتراكية الاستثمار واستخدام السياسة المالية والنقدية في منع الآثار الدورية السلبية في الاقتصاد الوطني.

ومن ناحية أخرى بقي الاشتراكيون السويديون، وهم في ذروة قوتهم الشعبية وانتصاراتهم الكثيرة، يحترمون القوى الاخرى المعارضة وأفكارها ويأخذونها بالاعتبار ويتعاونون معها تعاونًا جادًا وبحديًا في اطار لعبة الديمقراطية البرلمانية والنقد البناء. وحافظوا على مبدأ الاحتكام للناخبين بشكل دوري كل ثلاث سنوات وهي أقصر دورة تشريعية في العالم، كما حافظوا على احترام مثالي لحريات التعبير والصحافة وحرية الاطلاع على المعلومات وتسهيل ذلك لكل المواطنين واحترام لا يقل مثالية للحريات الفردية. لذا، وصف كثيرون الاشتراكية السويدية (والتجربة السويدية) بأنها «تحقيق لحلم كينز في بلوغ دولة الرفاهية» (الفقرات الاربع الأخيرة المتعلقة بـ«التجربة السويدية» عن محمد خليفة، «الحياة»، العدد ١١٥٢٠، تاريخ ٢ ايلول ١٩٩٤، ص ١٨).

بعد خسارته انتخابات ١٩٩١، أصبح الحزب الاشتراكي الديمقراطي معارضًا حكومة المحافظين (راجع العنوان التالي). ثم عاد إلى الحكم بعد تحقيقه فوزًا في انتخابات ايلول ١٩٩٤ بنسبة ٤٥،٣٪ من اصوات الناخبين وهزيمة ائتلاف الاحزاب المحافظة، وترأس زعيمه إنغفار كارلسون الحكومة حتى استقالته في ربيع ١٩٩٦، فخلفه يوران بيرشون لرئاسة الحكومة وزعامة الحزب (الاشتراكي الديمقراطي)، ولا يزال (آخر ١٩٩٧).

في الشطر الأول من الحكم (أي في عهد إنغفار كارلسون)، شهد الحزب الاشتراكي الديمقراطي تفاقمًا في المشكلات التي كان بدأ يعاني منها، وفي صدارتها اعادة النظر في مفاهيمه وافكاره الايديولوجية في ضوء التحولات العالمية وضرورة التكيف مع آليات السوق الدولية التي تشكلت في اعقاب انهيار الانظمة الاشتراكية الشيوعية في شرقي اوروبا، وكذلك في ضوء أزمة لم تعهدها السويد من قبل وتمثلت بارتفاع قياسي في نسبة البطالة تجاوز الـ١٠٪، وتراجع نسبة النمو وحالة ركود طويلة، وارتفاع حجم المديونية إلى أكثر من ٦٠ مليار كرون، وانخفاض قيمة العملة الوطنية بمعدلات سريعة امام العملات الاوروبية والاميركية وغيرها.

وشهد الحزب كذلك في الفترة نفسها (١٩٩٤-ربيع ١٩٩٦) تصدعات أهمها الانقسام السياسي إزاء قرار الانضمام إلى الاتحاد الاوروبي. وما زال هذا الانقسام على أشده لأن نسبة الرافضين حتى الآن (آخر ١٩٩٧) لا تقل عن ٤٩٪. وثاني هذه الانقسامات اتساع حجم الهوة في داخله بين الليبراليين الجدد والاشتراكيين القدامى. وللمرة الاولى تضم الحكومة الاشتراكية وزراء يطبقون المناهج الليبرالية، ووزراء آخرين يطبقون المبادىء الاشتراكية السابقة.

وثالث هذه الانشقاقات انشقاق جزء كبير من نقابات العمال عن سياسة الحزب الجديدة. وللمرة الاولى في تاريخ السويد صار عمال النقابات يضربون احتجاجًا على سياسة ينفذها وزراء من الحزب الذي أسسته النقابات وظلت تهيمن عليه طوال قرن ونيف.

في مقابل هذه السلبيات، نجحت حكومة كارلسون الاشتراكية (١٩٩٤-ربيع ١٩٩٦) في معالجة الازمة الاقتصادية والحد من مفاعيلها الاجتماعية. فتقلصت البطالة وارتفعت نسبة النمو وتحسنت العملة الوطنية، فيما انخفضت اسعار الفائدة.

لكن هذا النجاح بقي مقصرًا في مدّ الحزب بعناصر إعادة وحدته واستقرار هياكله وقواعده الشعبية. وبرزت أزمة جديدة في داخله تمثلت في الفراغ على مستوى القيادة، وظهرت جليًا فور إعلان كارلسون (خريف ١٩٩٥) عن رغبته في التقاعد مع بداية ربيع ١٩٩٦.

كانت ملامح هذه الازمة ظهرت مع تشكيل حكومة كارلسون في خريف ١٩٩٤ حين رفض معظم نواب الحزب الاشتراكي الدخول في الحكومة تفاديًا للمسؤولية الشخصية والتضحية بالراحة والرفاهية. فاضطر رئيس الحكومة لاختيار عشرة وزراء من خارج البرلمان، وهي حالة استثنائية بالنسبة إلى تقاليد الحكم والسياسة في السويد.

ثم تعمقت الازمة وتبلورت بعد اتهام المرشحة الوحيدة لخلافة كارلسون مونا (منى) سالين باستغلال وظيفتها كنائبة لرئيس الوزراء لتحقيق منافع شخصية، والحملات الاعلامية القاسية التي تعرضت لها حتى اضطرتها للاستقالة من منصبها الوزاري وسحب ترشيحها لخلافة كارلسون. ومع ان النائب العام ما لبث ان برّأ سالين ورأى ان تصرفاتها لا تستوجب محاكمتها، فإن ما تعرضت له من نقد جارح قد عدّ مثلاً لما يحتمل ان يتعرض له أي مسؤول حكومي آخر، وأصبح أمثولة تستوجب الحذر والانكفاء عن هذه المناصب الرفيعة التي لا تتمتع بأي جاذبية ولا تحقق أي طموح، بينما تتطلب التضحية بالقدر الكبير من الراحة الشخصية والحرية، في بلد كالسويد. فعاش الحزب عدة شهور (من خريف ١٩٩٥) يبحث عن مرشح مناسب للقيادة بلا جدوى. وبينما فضل جميع الذين عرض عليهم المنصب الاعتذار من دون إبداء السبب، فإن أحدهم، يوراز ليغرين، الذي كان يعد من كبار نجوم الحزب، قال بصراحة انه وعد ابنه بألا يتخلى عنه لصالح المنصب الكبير.

في ظل هذه الاوضاع التي لم تعرف السويد مثيلاً لها من قبل رسى الاختيار أخيرًا على شخصية كانت مغمورة إلى بضع سنوات لتخلف زعيم الحزب المتمرس والمخضرم إنغفار كارلسون، وهو وزير المالية يوران بيرشون (راجع باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

فمع بيرشون، ومع ربيع ١٩٩٦ يبدأ الشطر الثاني من الولاية الحالية (التي تنتهي في انتخابات ١٩٩٨) لحكم الحزب الاشتراكي الديمقراطي.

لم يمض شهر واحد على حكم يوران بيرشون إلا وبدأت اخطاؤه تفضح افتقاره للخبرة، وبدأت التعليقات، في الداخل والخارج، تركّز على انه ما كان ليصل إلى هذا المنصب إلا نتيجة لوجود أزمة فراغ في مستوى الزعامة وليس نتيجة لكفاءاته أو مواهبه. أما على الصعيد الحكومي، فقد باءت محاولات الاصلاح الاجتماعي بالفشل ايضًا. ومع ان بيرشون تعهد خفض معدل البطالة في البلاد إلى النصف قبل نهاية ١٩٩٦، فقد اظهرت الاحصاءات الرسمية انها زادت عما كانت عليه عندما اطلق تعهده وقفزت فوق ٨٪ بعدما شهدت تراجعًا طفيفًا خلال العام الاول من حكم الاشتراكيين (خريف ١٩٩٤–خريف ١٩٩٥).

أما على الصعيد الاقتصادي فقد تحققت انجازات مهمة إذ تقلص العجز والدين الخارجي وارتفعت الانتاجية وزادت الصادرات. ولقد تبين ان جميع هذه الانجازات تعود إلى خطة اصلاحية وضعتها حكومة الائتلاف اليميني قبل ان تسقط في انتخابات ١٩٩٤.

وعلى رغم ما أظهره عام ١٩٩٧ من تدن في شعبية الحزب الاشتراكي الديمقراطي وارتفاع في شعبية تجمع المحافظين اليميني فإن حكومة بيرشون استفادت من الانحسار الكبير في فعالية المعارضة ولا سيما على مستوى الزعماء. إذ إن زعيم المعارضة الاول كارل بيلدت غائب عن البلاد منذ

منتصف ١٩٩٥، وتعاني الاحزاب الاخرى من فراغ على مستوى القيادة، مثلها مثل الحزب الاشتراكي الديمقراطي. وهذا عامل لم تعرفه الحياة السياسية السويدية من قبل.

تجمع المحافظين اليميني (حكومة ١٩٩١-١٩٩٤): زعيمه كارل بيلدت، رئيس حكومة ١٩٩١-١٩٩٤، وزعيم معارضة الاشتراكيين الديمقراطيين، وممثل الاتحاد الاوروبي للشؤون الانسانية في البوسنة.

كان على القوى اليمينية ان تأتلف دائمًا في تحالف واسع يضم أربعة احزاب على الأقل حتى يمكنها الفوز بغالبية ضئيلة وهشة لا تستند إلى قاعدة متجانسة تتيح لهم الحكم (كما في ١٩٧٦-١٩٧٩ و١٩٧٩-١٩٨٢ و١٩٩١-١٩٩٤) ولكن بسلطة مقيدة بحكم التوازن الداخلي فيها.

وهذه الاحزاب اليمينية لم تتجرأ على الاقتراب من نواميس النظام الاشتراكي القائم في الفترات الثلاث التي امسكت خلالها بالسلطة. ولم تستطع إجراء تعديلات تذكر، وكأنها كانت تنتظر عودة أصحاب الشأن الاصليين (الاشتراكيين الديمقراطيين) إلى مواقعهم في السلطة.

ولا تعزى اسباب عجز القوى اليمينية عن التغيير إلى عدم وجود الرغبة طبعًا، ولكن إلى عدم وجود القدرة على خوض التجربة الخطرة، تجربة تعديل الصرح القوي الذي بناه الاشتراكيون الديمقراطيون، قبل ان تضمن البديل الأفضل.

على أي حال، حاولت الحكومة اليمينية (١٩٩١-١٩٩٤، بزعامة كارل بيلدت) زعزعة قواعد النظام الاشتراكي الديمقراطي، وإحداث تغيير عميق مستفيدة من المناخ الاوروبي-العالمي، وخطت خطوات جريئة عدة في مجال تخفيف مسؤوليات الادارة الحكومية وتقليص الضمانات الاجتماعية والصحية، ودعمت المشاريع الخاصة، سيما في قطاع السكن الذي كان قطاعًا حكوميًا-تعاونيًا بالكامل، وغير ذلك من الخطوات.

لكن النتائج كانت مخيفة جدًا، إذ ارتفعت البطالة من ٥٪ إلى ٢٠٪ في اقل من عامين، وارتفعت الفوائد المصرفية على القروض فانكمش الاستثمار، ثم انهارت قيمة العملة (كرون) بنسبة كبيرة زادت عن ٣٠٪ في فترة وجيزة.

وبذلت الحكومة كل ما في وسعها لايقاف معدلات التدهور التي أخذت طابع التغيير المبرمج. لكنها فشلت في تثبيت الاوضاع، كما فشلت في معالجتها على رغم انها اطلقت حملة مكثفة من الوعود المستندة إلى أبحاث الاختصاصيين.

كانت هذه الازمة، وفشل الحكومة في معالجتها، سببًا رئيسيًا في سقوط المحافظين في انتخابات ١٩٩٤ وعودة الاشتراكيين الديمقراطيين إلى الحكم (راجع المادة السابقة).

وكشف آخر استطلاع لآراء الناخبين (شباط ١٩٩٧)، بعد عامين ونصف العام على عودة الاشتراكيين إلى الحكم، أجرته مؤسسة «سيفو» الرسمية، عن تراجع قياسي في شعبية الحزب الاشتراكي الحاكم وارتفاع قياسي بالمقابل في شعبية حزب تجمع المحافظين المعارض فاقت أي نسبة حققها من قبل بما في ذلك النتيجة التي حصل عليها في انتخابات ١٩٩١ أو أي نتيجة أخرى منذ عقود، إذ ظلت شعبية المحافظين تراوح في الماضي بين ١٦ و٢٣٪ بينما تجاوزت هذه المرة الـ٣٠٪. ما يعني ان انتخابات ١٩٩٨ ستعيد المحافظين إلى الحكم مرة جديدة ما لم تحصل تطورات تؤدي بالناخبين إلى تغيير آرائهم (عن تأسيس تجمع حزب المحافظين، راجع «أهم احزاب السويد» في هذا الباب «الاحزاب»).

معالم تاريخية

□ **التجربة السويدية**: راجع «الحزب الاشتراكي الديمقراطي» في باب «الاحزاب»؛ وراجع باب «السويد جغرافيًا واستراتيجيًا».

□ **«جائزة نوبل»**: نسبة إلى العالم والأديب السويدي ألفرد نوبل. والرجل وجائزته من أكثر الموضوعات التي تطرح، ولا تزال، في الصحافة والمنشورات الادبية والكتب المدرسية والموسوعات في العالم، لنبل الرجل ونزوعه نحو المثالية الانسانية المطلقة، وللاحترام الكبير الذي تحظى به جائزته العالمية (وقد تحولت إلى مؤسسة سويدية وعالمية) المخصصة لكبار العلماء والادباء والسياسيين والاقتصاديين المساهمين في السلام العالمي وتقدم البشر ورفاهيتهم، وهي ذات شهرة واسعة عزيزة المنال يحلم بها أرفع الشخصيات في العالم.

ولد ألفرد نوبل في استوكهولم في ١٨٣٣ لأبوين سويديين ثريين لكنهما دائما الترحال والتنقل. هاجر معهما وهو في التاسعة من عمره إلى روسيا حيث أقامت الأسرة في العاصمة الامبراطورية، بطرسبورغ، سنوات عدة ما أتاح له تعلم اللغة الروسية واتقانها إلى جانب لغته السويدية التي كان أجادها إجادة تامة.

بعد روسيا، سافر إلى دول عدة في اوروبا طلبًا للعلم، فدرس في المانيا وفرنسا وبريطانيا، وتفتحت مواهبه وقدراته على التعمق في معارف وعلوم وفنون عدة في آن واحد، وفي مقدمها اللغات والطب والفيزياء والكيمياء. وكانت له ابتكارات وابداعات عظيمة فيها كافة.

رسائله التي كان يكتبها بالانكليزية تنم عن موهبة شعرية كبيرة وتأثر واضح بأساليب أكبر شاعرين انكليزيين في مطلع القرن التاسع عشر، اللورد بايرون وشيلي؛ وكانت رسائله ومقالاته باللغة الفرنسية تنم عن مقدرة وموهبة في الكتابة الفرنسية الادبية.

ألفرد نوبل

كان منذ طفولته قارئًا نهمًا متعطشًا للاطلاع على كل شيء يتيسر له. كتب الشعر بغزارة في صباه، وترك من بين ما كتبه قصيدة طويلة سجل فيها سيرته الشخصية والتجارب التي مرّ بها. وإلى جانب الشعر أحب الروايات الكلاسيكية. ويبدو ان المطالعات الروائية بالذات عمّقت نزعته المثالية وتوقه للسلام والاستقرار في العالم والاخاء بين الشعوب. فترك عددًا لا يحصى من الرسائل المفعمة بهذه المشاعر الانسانية كان بعث بها إلى كبار الروائيين كالسويدية سلمى لاغرلوف (حصلت على نوبل للآداب في ١٩٠٩)

والكاتب النروجي بيورنشيرنا بيورتسون (حصل على نوبل للآداب في ١٩٠٣).
تخصص ألفرد نوبل في الكيمياء والفيزياء ودرس الطب، وحاول تحقيق بعض الاكتشافات والابتكارات في هذه المجالات، وعمل في مجال الصناعة وكانت لديه مصانع استغلها في ابحاثه العلمية وتجاربه، وتمكن من اختراع مادة T.N.T الشديدة الانفجار، وهو اختراع مثّل قفزة نوعية في تاريخ الصناعة لأنه مهّد الطريق لزيادة إنتاج فلزات الحديد والنحاس والفولاذ وغيرها من الخامات والمواد الضرورية لصناعة المكائن والقاطرات وعربات السكك الحديد والسيارات والطائرات والسفن... وسمح بتطوير وسائل النقل والاتصال في العالم. غير ان المخترع الذي كان محبًا للسلام وعاشقًا للانسانية أصيب بصدمة قاسية عندما وجد اختراعه يتحول إلى أداة لزيادة حدةالقتال والحروب والفتك بالبشر، وعامل قوي لتطوير صناعة السلاح وتكنولوجيا الدمار والموت.

وعانى نوبل منذ شبابه من اعتلالات عديدة وشديدة في صحته، فاضطر كثيرًا لدخول المصحات طلبًا للراحة والعلاج، وضاعفت تلك الصدمة (استعمال اختراعه أداة للدمار والموت) من آلامه ومعاناته.

في المرحلة المتقدمة من عمره بدأ نوبل يدعم الأشخاص الناشطين من أجل السلام في العالم بتمويل مبادراتهم وتحركاتهم. وارتبطت حياته بصديقة نمساوية ذائعة الصيت تدعى البارونة بيرتا فون سوتنر وقفت حياتها لخدمة السلام ونظمت سلسلة من المؤتمرات الدولية في روما وبرن وفيينا، وقدّم لها نوبل الاموال اللازمة من ثروته الطائلة.

وعندما أدرك الرحل ان أجله يقترب بسرعة، كتب وصيته الاولى في ١٨٨٩ ثم عاد فغيرها في ١٨٩٣، واخيرًا سجّل وصيته النهائية في ١٨٩٥ وكلف أحد معاونيه، راجنر سولمان، تنفيذها بعد وفاته تأكيدًا لاستقراره عليها.

وفي ١٠ كانون الاول ١٨٩٦، مات ألفرد نوبل مخلفًا ثروة هائلة بلغت في ذلك الوقت ٣٣،٢ مليون كرون سويدي، كرسها -حسب الوصية- للانفاق من عائدات استثمارها على الجوائز الخمس التي حددها واختارها وسمّاها بنفسه. وقد احتجت أسرته وورثته وطالبوا بعدم تنفيذ الوصية والحصول على حصصهم من التركة، لكن المناقشات التي فجرتها القضية في طول البلاد وعرضها على مستوى المؤسسات العليا في الدولة بدءًا من الملك وانتهاء برجال الفكر والاعلام والصناعة انتهت إلى الموافقة علىاحترام رغبة الراحل والالتزام بما ورد في وصيته حرفيًا. وتمّ إنشاء مؤسسة تتعهد امواله وتدير استثماراتها، وهي ما زالت إلى يومنا تقوم بمهمتها الموكلة إليها وتضم جهازًا إداريًا ضخمًا وتقع في العاصمة السويدية. وقد عين معاونه المخلص راجنر سولمان أول مدير تنفيذي لها في ١٩٠٠.

اختار نوبل في وصيته المجالات والحقول العلمية والأدبية التي يمنح المبرزون بها جوائزه، ولا أحد يعلم لماذا اختارها بالتحديد، ولماذا اختار الفيزياء مثلاً و لم يختر الهندسة المدنية والمعمارية، أو لماذا اختار الطب و لم يختر الفلك وعلوم الفضاء، ولماذا اختار الآداب و لم يختر العلوم الاجتماعية أو الموسيقى!...

التفسير السائد بين المتخصصين في تراثه انه اختار المجالات الأقرب إلى نفسه وله مساهمات فيها، وهي الطب والكيمياء والفيزياء والآداب. أما السلام فاختاره نظرًا إلى إيمانه القوي بالمثل العليا وبفكرة «العالمية» حتى انه كان يعد نفسه مواطنًا «عالميًا» لا سويديًا فقط. وربما ساعدته تجربة الترحل والاقامة في بلدان عدة على اكتساب هذا الايمان، فضلاً عن ان نوبل كان يمقت «القوة» بكل اشكالها ويرفض استخدامها لتحقيق الاهداف القومية أو الوطنية خلا حال الدفاع المشروع عن

النفس. وكان يكره الحروب وبناء الجيوش، ويعارض الاستعمار والسيطرة.

ومن الافكار التي جبل عليها صاغ الشروط والمبادىء التي تقوم عليها جائزته. وأهمها ان يكون الاشخاص الفائزون بها أو حتى المرشحون لنيلها ممن تتوافر لديهم «نزعة مثالية» مثل نزعته والذين «يقدمون أجلّ الخدمات والفوائد الانسانية خلال السنة». وشدّد على ان هؤلاء «يجب ألا ينظر إلى جنسياتهم، وان اكثر المؤهلين وأفضلهم يجب ان يحصلوا عليها بصرف النظر عما إذا كانوا من اسكندينافيا أو من جنسيات أخرى».

ونوبل هو الذي اشترط بنفسه ان يتولى علماء معهد كارولنيسكا الطبي في استوكهولم اختيار أفضل المرشحين لنيل جائزة الطب سنويًا. كما اختار بنفسه ان تتولى الاكاديمية الملكية السويدية للعلوم اعطاء الجائزتين الأخريين في الفيزياء والكيمياء. واختار بالطريقة نفسها تكليف الاكاديمية السويدية كمرجع لانتقاء من يصلح للفوز بجائزة الآداب. وهي أشق مهمة في نظر النقاد، لأنه يصعب اختيار الأديب الأفضل في العالم بالمعايير التي يتم بها اختيار أفضل علماء الطب والكيمياء والفيزياء.

واخيرًا، قرر نوبل في وصيته ان يكلف البرلمان النروجي بانتقاء الشخصية العالمية الجديرة بجائزة السلام، ولا احد يدري لماذا أخرج نوبل هذه الجائزة بالذات من السويد وارتأى ان يعطيها للنواب النروجيين، خصوصًا ان النروج في ذلك العهد كانت جزءًا من دولة موحدة مع السويد... والتفسير الشائع ايضًا هو ان نوبل اراد ان يشرك النروجيين وعاصمتهم أوسلو في هذا «الشرف» العالمي الكبير تعبيرًا عن حبه لهم. وهكذا تقرر ايضًا، بعد انفصال الدولتين، ان يسلم الملك النروجي هذه الجائزة بنفسه في أوسلو. ونوبل هو الذي قرّر ان يقوم الملك السويدي بتسليم الجوائز إلى الفائزين بها كل عام.

الأمر الوحيد الذي أُضيف إلى الوصية هو تحديد يوم العاشر من كانون الاول كل عام موعدًا لتسليم الجوائز في استوكهولم وأوسلو. ففي هذا اليوم كان نوبل قد مات (في سان ريمو في ايطاليا) متأثرًا بالمرض.

أما التطوير الجوهري الذي أُدخل على الجوائز فهو ما اقترحه المصرف المركزي السويدي في ١٩٦٨ في الذكرى السنوية المئوية لإنشائه، ويقضي بتخصيص جائزة عالمية للاقتصاد وتضاف إلى جوائز نوبل الخمس، على ان يسدّد المصرف قيمتها من حسابه، بعد ان تتولى اللجان المختصة اختيار الفائزين بها وفقًا لشروط ومبادىء نوبل نفسها (محمد خليفة، «الحياة»، العدد ١١٩١٢، تاريخ ٣ تشرين الاول ١٩٩٥؛ والجدير ذكره ان هذه المعلومات، سواء المتعلقة بسيرة حياة ألفرد نوبل، أو بوصيته أو بالجائزة، مثبتة في مختلف الموسوعات والمعاجم).

لكن، ثمة تطور جديد ومهم طرأ على الجائزة الاضافية ويتعلق برسالة رسمية وجهتها أكاديمية العلوم في استوكهولم في اواسط ايلول ١٩٩٧ إلى «لجنة نوبل» المانحة للجوائز تطالبها فيها بإلغاء الجائزة المخصصة للاقتصاد، مما بدأ يثير حفيظة الدوائر التي قد تتعرض للاحباط، في ما لو اقتنعت اللجنة المانحة بالاسباب التي اوردتها الاكاديمية العلمية في رسالتها، وأهمها، ان الابحاث والنظريات الاقتصادية هي امتداد لمدارس أكاديمية وتقليدية موجودة أصلاً. يثبت ذلك ان ثلثي الذين نالوا جوائزها هم من الاميركيين، ونصف هؤلاء هم من أتباع المدرسة التقليدية المتجددة، والباقي أبناء مدرسة شيكاغو القائمة على أفكارّ ونظريات الاقتصادي الاميركي ميلتون فريدمان. كما ان ما يطرح من نظريات وأبحاث هو انعكاس لواقع طبيعي موجود في النشاط الاقتصادي اليومي، بمعنى ان ما يُطرح هو نتيجة لا سبب، إذ تقوم

هـذه الابحـاث والنظريـات بتفسـير وشـرح الواقـع الموجـود، ولـو انهـا تتضمـن طروحـات راغبـة في التحسين. لكنها لا تخرج عن كونهـا آراء وأفكـارًا فقط، ربما لا تسـبب المنفعـة العامـة عنـد تطبيقهـا، بقدر ما تفيـد قطاعـات اقتصاديـة معينـة لهـا تأثـير ونفوذ على اصحاب النظريات والابحاث المرشحين لنيل الجائزة، وهي مختلفة بطبيعتهـا كأسباب تمنـح من اجلهـا نوبـل في السـلام أو الأدب، لأن روايـة أدبيـة في الشـأن الانسـاني العـام، كروايـة «أولاد حارتنـا» للأديـب المصـري نجيب محفـوظ، تشـيع مناخات من التقارب الثقافي بـين الشـعوب، أكـثر بكثير من نظريات اقتصاديـة تعـزز التناقضـات ولا تثير إلا الجدل العقيم.

وثمة سبب آخر: الاقتصـاد لم يكـن ضمـن الحقول التي حددهـا العـالم السـويدي ألفـرد نوبـل لينال البارز فيها جائزته. فمخترع الديناميت طلب في وصيته التي تم الاطلاع عليهـا في كـانون الثـاني ١٨٩٧ ان يتـم تحويـل معظـم الـثروة الـتي تركهـا (تقريبًـا ١٠٠ مليـون دولار بسـعر اليـوم) إلى صندوق استثمار خاص «باسـم لجنـة تقـوم سنويًا بتوزيع الفوائد المالية التي يجنيها الصندوق كجوائـز لأشخاص قاموا قبل عام بأبحاث أو أعمـال علميـة وفكرية، أو فنية انسانية، أدت أو ستؤدي بالتـأكيد إلى خدمات ينتج عنها خير بشري عام»، كما ورد في الوصية.

وما أراده نوبل، الذي يقال إنه كان يتمتـع ببعد نظـر كبـير، هـو: الفيزيـاء، الطـب، الكيميـاء والادب «أو أي نشاط يخدم الصالح العام» وهو ما أتاح في ما بعد لولادة «جائزة نوبـل في السـلام». فالاقتصاد لم يكن واردًا بل أصبح جزءًا من حقول الجائزة لاعتبارات اقليميـة سـويدية. ففـي ١٩٦٨، ولمناسبة مـرور ٣٠٠ سـنة علـى تأسـيس البنـك المركزي السويدي، قـام مديـره العـام آنـذاك، بـير آسبرينغ، باقتراح نوبل في الاقتصاد كجائزة يسـدد قيمتها البنك نفسه وليس من فوائد اسـتثمار ورثـة نوبـل، علـى ان تحظـى عمليـة تسـليمها لصاحبهـا بمراسم الاحتفال والتكريم التي يحظى بها مـن ينـال الجوائز عن النشاط في الحقول الاخـرى الـتي تتـابع الأكاديميـة السـويدية البـارزين فيهـا لتقدمهـم كمرشحين.

الأكاديمية ترى الآن بأن الظروف تغـيرت، وان نوبل في الاقتصاد كـانت، ومـا تـزال، جـائزة «دخيلـة» علـى الروحيـة الـتي استند إليهـا ألفـرد نوبـل، لذلـك طلبـت إلغاءهـا «أو علـى الاقـل تسليمها بلا مراسم الاحتفال والتكريم» كمـا ورد في الموجبات التي اوردتها في رسالتها، وهو مـا قـد يؤدي إلى موت جائزة الاقتصاد ببـطء، باعتبـار ان معظم الذيـن سينالونها سيحجمون عـن تسـلمها احتجاجًـا، وهـو مـا ترغبـه الاكاديميـة كمخـرج تبحث عنه، أي ان تلغي الجائزة نفسها بنفسها، أو بقرار قد تقرره «لجنة نوبل» في أي وقـت (كمـال قبيسي، مجلة «المشاهد السياسـي، بـي.بـي.سـي»، العـدد ٨١، ٢٨ ايلـول-٤تشـرين الاول ١٩٩٧، ص ٢٩).

في تشـرين الاول ١٩٩٧، منحـت لجنـة نوبـل جـائزة السـلام للعـام ١٩٩٧ مناصفـة بـين «الحملـة الدوليـة لحظـر الألغـام الارضيـة المضـادة للأفـراد»، والمنسـقة الدوليـة للحملـة، الاميركيـة جـودي ويليـامز لجهودهـا الحثيثـة في هـذا الميـدان. وجاء قرار اللجنة بعد أقل من شهر من اختتام أول مؤتمر عالمي في نوعه اسـتضافته أوسـلو لوضـع أولى الخطوات على الصعيد الدولي لنزع أكثر من ١٠٠ مليون لغم مضاد للافراد من عشرات الدول، وقبل أقل من شهرين من انعقاد المؤتمـر الـدولي المقـرر في أوتاوا (كندا) لتوقيع مشروع المعاهدة الدولية لحظر إنتاج هذا النوع من الأسـلحة وبيعـه واسـتخدامه. وهذه «الحملة الدولية» بـادرت إلى إنشـائها أصلاً جـودي ويليـامز عـام ١٩٩٢، وبـاتت تضـم الآن (خريـف ١٩٩٧) أكـثر مـن ٩٠٠ منظمـة غـير حكومية من ٦٠ دولة.

جودي ويليامز.

وكان نال جائزة نوبل للسلام في السنوات العشر الأخيرة: -١٩٨٧: أوسكار أرياس سانشيز (كوستاريكا)؛ -١٩٨٨: قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام؛ -١٩٨٩: الدالاي لاما (التيبت)؛ -١٩٩٠: ميخائيل غورباتشوف (الاتحاد السوفياتي السابق)؛ -١٩٩١: أونغ سان سو تشي (بورما)؛ -١٩٩٢: ريغوبيرتا مينشو (غواتيمالا)؛ -١٩٩٣: نلسون مانديلا وفريدريك دو كليرك (جنوب افريقيا)؛ -١٩٩٤: اسحق رابين وشمعون بيريز (اسرائيل) وياسر عرفات (منظمة التحرير الفلسطينية)؛ -١٩٩٥: جوزف روتبلات وحركة «بوغواش» المناهضة للتسلح النووي؛ -١٩٩٦: المونسنيور كارلوس فيليبي خيمينيس بيلو بالاشتراك مع خوسيه راموس هورتا (تيمور الشرقية).

□ **الجالية الأريترية في السويد وتصرف غريب لحكومة أسمرا:** في السويد جالية أريترية (ويذكر ان السويد من أكثر البلدان المتقدمة استقبالاً للجاليات القادمة من العالم الثالث وأرقاها أداء إنسانيًا إزاء هؤلاء المهاجرين إليها) يبلغ تعدادها نحو ١٠ آلاف شخص، كانت طلائعها قد وصلت منذ نهاية الستينات ومطلع السبعينات حين كانت الثورة والحرب في بلادهم على أشدها، إضافة إلى تعرض المنطقة إلى كوارث بيئية (وبالأخص الجفاف) قتلت ملايين البشر جوعًا. وتعد هذه الجالية من أنشط الفئات المهاجرة من افريقيا والبلدان العربية والاسلامية، ولديها عدة منظمات وروابط محلية أهمها الاتحاد المركزي للجالية الأريترية والرابطة الاسلامية الأريترية، إلى جانب منظمات فرعية لكل الحركات السياسية المعروفة في الساحة الأريترية الأصلية كالجبهة الشعبية وجبهة التحرير والمجلس الثوري، وغيرها. ولهذه المنظمات والروابط نشاطات فعالة وملموسة ثقافية واعلامية وسياسية وتربوية واجتماعية إلى عدد من المدارس والمساجد والنوادي في مدن مختلفة من السويد.

منذ نهاية ١٩٩٣، عندما أصبح استقلال أريتريا ناجزًا، رأت وزارة الهجرة السويدية (ومثلها وزارات الهجرة في عدد من الدول الاوروبية) انه لم تعد هناك مبررات سياسية أو انسانية لقبول المزيد من اللاجئين الأريتريين، وقررت رفض جميع طلبات اللجوء المقدمة من أريتريين كانوا وصلوا إلى السويد قبل الاستقلال (ويقدر عددهم بنحو ٣٠٠ شخص) وترحيلهم إلى بلادهم.

وجاءت المفاجأة من أسمرا التي رفضت عودة هؤلاء المواطنين إلى بلادهم ورفضت استقبالهم متذرعة بأنها لا تملك الامكانات الاقتصادية لاستيعابهم. ونشب نزاع سياسي بين الدولتين استدعى تشكيل وفد سويدي رفيع المستوى لزيارة أسمرا، وبدأت مفاوضات أسفرت عن اتفاق في كانون الثاني ١٩٩٥. وقد «وصف مسؤول سويدي أريتريا بقوله إنها الدولة الوحيدة في العالم التي ترفض عودة أبنائها إليها. وأضاف ساخرًا: لم نسمع قبل اليوم عن دولة تساوم الدول الاجنبية وتشترط عليها دفع الاموال لها حتى

تسمح لمواطنيها بالعودة إلى بيوتهم. وأضاف: ان الوفد الذي سافر إلى أسمرا اضطر إلى ان يذكر الحكومة الأريترية بأن القانون الدولي الذي منح الشرعية لاستقلال الدولة الأريترية وجعلها عضوًا في مجتمع الدول المعاصرة يفرض عليها ان تتصرف بمسؤولية كاملة تجاه الدول الأخرى وتجاه مواطنيها الذين من حقهم الطبيعي والبديهي الرجوع إلى اراضيهم وبلادهم. لكن المسؤول السويدي امتنع عن التطرق إلى تفاصيل أخرى من المحادثات وتتعلق بما سمته بعض مصادر الجالية الأريترية في السويد «صفقة مالية» بين الجانبين مقابل موافقة الحكومة الأريترية. غير ان هذه المساومة ارتدت طابع الاتفاق الدبلوماسي ووضعت الاموال التي ستدفع تحت عنوان المعونات الاقتصادية والانسانية لايجاد مشاريع وفرص عمل ومساكن لآلاف الشباب» («الحياة»، ٦ نيسان ١٩٩٥).

وقام الأريتريون، طالبو اللجوء إلى السويد الذين تقرر ترحيلهم، بتحركات مكثفة رافضين العودة، ومندّدين في الوقت نفسه بموقف حكومة بلادهم من قضيتهم ومصرين على حقهم المبدئي والطبيعي في الحصول على الجنسية الأريترية وحق المواطنة والعودة متى يشاؤون. وجمدت وزارة الهجرة السويدية قرار ترحيلهم ووعدت باعادة درس ملفاتهم بشكل فردي.

□ **«السويد أنظف الديمقراطيات الغربية» (ألف دولار تشكل أزمة وفضيحة):** في تشرين الاول وتشرين الثاني ١٩٩٥، وقف العالم، بدوله وأنظمته وشعوبه المتقدمة وخصوصًا النامية، وباندهاش واعجاب بالمستوى الراقي جدًا الذي بلغته التجربة السويدية في أدائها لمختلف مستويات المسؤوليات وعلى جميع الأصعدة، وخاصة الحكومية والادارية والقضائية. أما الذي أعاد التذكير بهذه الفرادة السويدية فأزمة سياسية تسببت بها «فضيحة فساد» بطلتها مونا سالين نائبة رئيس الحكومة (إنغفار كارلسون) والمرشحة التي كانت أوفر حظًا لزعامة الحزب الاشتراكي الديمقراطي وتاليًا لرئاسة الحكومة في ربيع ١٩٩٦، التي استخدمت بطاقة الائتمان الحكومية الموضوعة في حيازتها للانفاق منها في أثناء العمل والمهمات الرسمية. وأما المبلغ الذي شكل جرمًا فهو ألف دولار أنفقته سالين لشراء أشياء شخصية وهدايا لأطفالها وزوجها، وتخلفها عن دفع ضرائب مستحقة عليها حتى اضطرت إدارة الضرائب لاحالتها إلى المحكمة المختصة.

لم تجد صحيفة «اكسبرسن Expreesen» صعوبة في كشف هذه «الفضيحة». إذ إن الحصول على المعلومات عملية سهلة في السويد، وذلك بفضل مبدأ العلانية الذي يكفله الدستور السويدي ويطبق بدرجة عالية من الصدقية. وهو يعني ان من حق أي فرد في المجتمع الاطلاع على أي شيء من اوارق ومحاضر وملفات الحكومة، ولا يجوز حجب أي شيء سوى القليل جدًا المتعلق بالأمن القومي حصرًا. ومن حق أي فرد قراءة بريد رئيس الحكومة أو محاضر إجتماعاتها، أو الاستفسار من الجهات المختصة عن الذمة المالية لأي مسؤول.

ونادرة جدًا حالات استغلال السلطة. وآخر حادثة مشابهة ظهرت في اواخر السبعينات حين اتضح ان وزير المال في حكومة أولاف بالمي قد استفاد من منصبه في السلطة، فطرده بالمي من الحكومة فورًا وانتهى كل شيء. ولا حادثة أخرى منذ عشرات السنين.

أظهرت التحقيقات، وحكم المحكمة، صحة ما قالته مونا سالين بأنه ليس هناك من قصد جرمي وانها احتاجت لبعض السيولة فاستخدمت بطاقة الائتمان الحكومية وانها كانت عازمة على إعادة ما استلفته، وان المبلغ صغير لا يزيد عن ألف دولار اميركي.

أحيطت سالين بمشاعر العطف والشفقة

والرحمة من غالبية فئات السويديين وقد رأوها تذرف الدمع ندمًا وتوبة على إنفاقها ألف دولار من غير وجه حق وهي نائبة رئيس الحكومة وأقوى مرشحة لزعامة الحزب الاشتراكي الديمقراطي ولرئاسة الحكومة، حتى ان زعيم المعارضة المحافظة، كارل بيلدت، بدل ان يستغل السقطة لاضعاف خصومه الاشتراكيين قال: «إن المشكلة لا تعنينا وإنما تعني الحزب الحاكم وحده، وعليه ان يعالجها بالطريقة المناسبة». والمحقق العدلي قال بصراحة تامة انه هو نفسه قام احيانًا باستلاف مبالغ صغيرة من الحساب الحكومي بواسطة بطاقة الائتمان الرسمية ثم اعادها لاحقًا. وعزت فئات أخرى ما فعلته سالين إلى «اننا جميعًا نعيش وننفق أكثر من مداخيلنا. وهذا الاسلوب لا بد ان يوقعنا في مشاكل من هذا النوع». بيد ان جماعات من الكتّاب والمثقفين والفئات الاجتماعية الرصينة، وخاصة من الجيل الذي أنجز التجربة «المعجزة السويدية» رأوا ضرورة عدم التهاون في أمر هذه «الفضيحة» إذ قد تكون مؤشرًا على بداية انحطاط المجتمع وعلى انعدام القيم والمثل التي تبني الدول والحضارات الراقية.

□ **السويد في الاتحاد الاوروبي:** نتيجة للاستفتاء الشعبي الذي جرى في تشرين الثاني ١٩٩٤ اكتسبت السويد العضوية الكاملة في الاتحاد الاوروبي وأخذت عمليًا مقعدها فيه بدءًا من أول ١٩٩٥.

ومع هذا الانضمام توسع الاتحاد الاوروبي شمالاً بعد ان كان يصب اهتمامه جنوبًا ناحية البحر الأبيض المتوسط حيث كان قد جذب إليه اليونان واسبانيا والبرتغال في الثمانيات. ومع عضوية السويد، وهي أقوى الاعضاء الجدد، أصبحت عضوية النروج مضمونة. كما انها شكلت نقطة تحول في حظوظ الاتحاد الاوروبي كله بعد عامين اتسما بالركود الاقتصادي والقلاقل المالية والانقسام حول البلقان ويوغوسلافيا.

جاك ديلور، الذي كان رئيس المفوضية الاوروبية، قال، وكان يستعد لترك منصبه لخليفته: «إن اختيار السويد الانضمام إلى الاتحاد الاوروبي يثبت ان اوروبا لا تزال جذابة». وكان ديلور يخشى من ان يؤدي رفض السويديين دخول الاتحاد الاوروبي إلى تشجيع المعارضين لـ«تورط» الدانمارك وبريطانيا وحتى فرنسا في الاتحاد الاوروبي، أو على الأقل تشجيع المشككين في الحكمة من وجود هذا الاتحاد في الأساس، أو من توسيع صلاحياته. كما ان رفض السويديين، لو حصل، لكان وضع حدودًا نهائية للآمال في إقناع النروج بالانضمام وهي الغنية بالبترول والأسماك، ولأصبحت فنلندا معزولة، ولتحولت السويد إلى مركز استقطاب لمزيد من التعاون بين الدول الاسكندينافية والتنافس بينها من جهة وبين دول الاتحاد الاوروبي من جهة أخرى.

لذلك، جاءت نتيجة الاستفتاء السويدي لتعني ان الاسكندينافيين دخلوا اخيرًا إلى رحاب الاتحاد الاوروبي بعدما ابتعدت دول هذه الشعوب عن اوروبا الغربية طيلة الفترة التي تلت انتهاء الحرب العالمية الثانية متمسكة بالحياد وحريصة عليه وتنظر نظرة ملؤها الشك والريبة في نوايا ما كان وقتها «الأسرة (أو السوق) الاقتصادية الاوروبية» (CEE). والجدير ذكره ان النمسا وفنلندا والسويد والنروج انضمت إلى بريطانيا في ١٩٥٩ لتشكل معًا «منطقة التجارة الاوروبية الحرة» (EFTA).

لكن بعد أقل من سنة على استفتاء خيار الانضمام إلى الاتحاد الاوروبي، عاد السويديون ليعبروا بطريقة صارخة عن ندمهم على ذلك التحول، وذلك في ١٧ ايلول ١٩٩٥ حين أجريت اول انتخابات لاختيار ٢٢ نائبًا سويديًا إلى البرلمان الاوروبي. فاسفرت هذه الانتخابات عن مفاجآت

لا سابق لها طوال هذا القرن، وعن نتـائج لم تكـن منتظرة على الاطلاق.

أبرز المفاجآت تدني نسبة الذين شاركوا في الاقـتراع إلى ٤٠٪ واستنكاف ٦٠٪. وهـذا التدني في المشاركة يعتبر حادثة فريدة في السويد لا مثيل لها، لأن العلاقة بـين الناخبين السـويديين وصناديق الاقـتراع علاقة حميمة فعلاً وفي جميـع المناسبات، تشريعية أم محلية أو بلدية أم استفتاءات عامة، حيث تظهـر البيانـات الرسمية ان نسـبة المشاركين في الاقتراعات لم تنحدر عن ٧٠٪ منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ووصلت إلى ٩٠٪ في أكثر الاحيان (بينما تتدنى في الـدول الاوروبية الغربية الأخرى في اقتراعات واستفتاءات كثيرة إلى ٤٠٪).

وقياسًا على ذلـك، يمكـن إدراك عمـق الصدمة التي شعر بها المسؤولون الكبار في السـويد (خاصة أولئك الذين كانوا متحمسين للاتحـاد الاوروبي) من جراء عـزوف الناخبين عـن اختيـار ممثليهم إلى البرلمـان الاوروبـي، حتـى ان هـؤلاء المسؤولين تركوا جانبًا دلالات نتائج الانتخابات بحد ذاتهـا وانصرفـوا لمناقشة هـذه المفاجـأة الـتي اعتبرت بمثابة اضـراب شـعبي احتجاجًـا علـى العضوية في الاتحاد الاوروبي.

وحملت نتائج فرز الاصوات المفاجأة الثانية الـتي اظهـرت ان كـل الاحـزاب المؤيـدة للعضويـة الاوروبية إما انها حافظت على مواقعهـا المتواضعة كما كانت من قبل، وإما تراجعت باستثناء حزبين صغيرين احرزا تقدمًا هائلاً وغير متوقع هما حـزب البيئة (الخضر) وحـزب اليسار (الشـيوعي)؛ ولا تفسير لذلك سوى انهما كانا منذ الأساس معادين للعضوية الاوروبيـة ومـا زالا، فكافأهمـا النـاخبون بحرارة.

□ **السويد ودول منظمـة «أفتـا»**: راجـع «حياد سويسرا» في باب «معالم تاريخية» في مـادة «سويسرا» من هذا الجزء، الحادي عشر.

□ **السويد وموجـة العنصريـة**: مـع اوائـل التسعينات وعلى مـدى نصفهـا الاول، بـدأ يظهـر لدى بعض السياسـيين خطـاب (وممارسـات لـدى بعض أنصارهم) سياسي ينـمّ عـن عنصريـة شـبيهة بتلك التي نمت في معظم البلدان الاوروبية في الفترة نفسها، ما أدّى بلجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة إلى إصدار أول انتقاد من نوعـه إلى السـويد «بسبب ازدياد عدد المنظمات العنصرية واللاسامية ومختلف مظاهر كراهية الاجانب فيها»، ومـا حـدا برئيس هذه اللجنة، فرنشيسـكو خوسيه أغويـلا-أوربيتا إلى القول: «إنه لأمر مؤسف حقًا ان تتطور هـذه الاشـياء بصـورة سـلبية في دولـة كـانت إلى الأمس القريب توصف بأنها الجنة في مجال حقـوق الانسان». وقد أحدث هذا الانتقاد الدولي رد فعل كبيرًا لدى السلطات الحكوميـة لحساسـية السـويد تجاه قضايا حقوق الانسان التي ظلت علـى الـدوام تعتبرها مقدسة. فباشرت تدابـير وإجـراءات للحـد من تفاقم النزعات اليمينية المتطرفـة وحمايـة المجتمـع والديمقراطية من التوترات العنيفـة الـتي كـانت قـد وصلـت إلى ذروتهـا في ١٩٩٢، ثـم عـادت إلى الهبوط في الأعوام التالية.

(محمـد خليفـة جـال في الموضـوع بصـيورة مكثفة، ونشـرت لـه «الحيـاة»-٢٤ كـانون الاول ١٩٩٥-ما يلي):

الواقـع ان مـا يمـيز السـويد عـن الـدول الأخرى هو هذا البحث الجدي عن سبل مكافحة التطرف العنصري، وبالتحديد، كما اشار إلى ذلك مسؤول الامم المتحدة عن حقـوق الانسـان حـين قال: «تظل السويد متميزة عـن غيرهـا بالمناهضـة القوية والجادة لهذه الموجات». وإذا ما اعتبرنا عـام ١٩٩٢ عام الذروة بالقياس إلى عدد ضحايا العنف الارهابي حيث أصيب نحو ١٥٠ شخصًا بين قتيـل وجريـح وكـانت إصابـاتهم خطـرة، فـإن ١٩٩٣

شهد تراجعًا واضحًا في مثل تلك الجرائم نتيجة ان الحكومة قامت فورًا باجراءات وقاية ملموسة. وفي ١٩٩٤، حدثت ١٠٧ جرائم لأسباب عنصرية أصيب فيها ٩٩ شخصًا بجراح مختلفة. ولكن انخفاض عدد الجرائم لا يكفي لايضاح الصورة. ففي المقابل هناك ارتفاع وتطور في شدة الجريمة وضراوتها، بل ان الشرطة نفسها تعترف ان الجرائم المسلحة أقل بكثير من إجمالي ما يحدث منها، لأن الكثيرين يفضلون السكوت خوفًا من الانتقام المضاعف. وأعلن مؤخرًا (اواخر ١٩٩٥) مسؤولون كبار في مؤسسات الدولة-جميعهم من أصول أجنبية-انهم يتلقون بانتظام رسائل ومكالمات تهديد بالقتل. وقد شارك بعض هؤلاء في تظاهرة حاشدة نظمت اواخر تشرين الثاني ١٩٩٥ في العاصمة استوكهولم، كالنائب خوان فونسيكا.

وتعترف الشرطة السويدية ايضًا بأن المجموعات النازية تزداد بسرعة، وكذلك بمجموعات حليقي الرؤوس المعادين للمهاجرين، بحيث صار لهم حضور ظاهر في سائر أرجاء البلاد. وإلى جانب ذلك انتشرت أعمال الدعاية ضد الملونين والأقليات والأغراب في المدارس ووسائل الاعلام على شكل مطبوعات وملصقات وموسيقى، وصار الكثيرون من المهاجرين يشمون رائحة العنصرية في كل مكان ويلمسونها في كل وقت، حتى ان العديد من اصحاب المطاعم رفضوا السماح للملونين بالدخول إلى محالهم، وكذلك أرباب العمل...

وتتسم الظاهرة العنصرية في السويد بسمات مميزة ومهمة. فمعظم رموزها وقادتها هم من الأجانب لا من السويديين، وخاصة من الألمان. وكان من اللافت جدًا ان الذين نظموا تظاهرة نازية حاشدة في ثاني أكبر مدن السويد (يتبوري) نهاية تشرين الثاني ١٩٩٥ كان أكثرهم ألمانا.

ويفسر المسؤولون في الشرطة السويدية هذه السمة تفسيرًا مقنعًا إذ يرون ان رحابة صدر الديمقراطية السويدية وخاصة في مجال الاعلام هو ما يغري النازيين الجدد في الدول المجاورة بالانتقال إلى السويد لممارسة نشاطاتهم والتعبير عن آرائهم بحرية من خلال المطبوعات والملصقات التي لا تخضع لأي تقييد أو رقابة. وقد لوحظ في الفترة الاخيرة ان أكثر من قائد في الحركة النازية الالمانية وصل إلى السويد وبدأ يخطط لشراء مزارع نائية لتحويلها إلى معسكرات تدريب على السلاح والعنف لأنصاره. ومن الملاحظ ان هؤلاء النازيين ينجحون ببث دعواهم في اوساط المراهقين وتلاميذ المدارس ممن هم دون سن الـ٢٠ والـ٢٥ سنة على أبعد تقدير.

ولكن كيف يفكر السويديون في معالجة هذه الظاهرة؟

هناك أولاً نقاش عميق وجاد يشارك فيه كبار المسؤولين يهدف إلى بلورة الآراء وخلق تيار وعي عام في المجتمع وتوليد الاقتراحات والحلول. وقد طالبت وزيرة العدل ليلى فرينالدز الحكومة بطرح مبادرات مبتكرة في هذا المجال وبتعميق التعاون بينها وبين منظمات المهاجرين، وبين هذه المنظمات بعضها بعضًا. وفي الوقت نفسه، قامت الوزيرة مع الجهاز القضائي باعادة الروح إلى قانون قديم صدر في ١٩٣٣-ايام الموجة النازية-يحظر ارتداء ملابس ذات طابع سياسي أو حزبي أو ايديولوجي، وذلك لتطبيقه الآن على الذين يرتدون ملابس ذات طابع نازي.

ومن ناحية أخرى، أسفرت التظاهرة الشعبية الحاشدة ضدالعنصرية (تشرين الثاني ١٩٩٥) عن ولادة تحالف اجتماعي يضم عشرات المنظمات والروابط والنقابات الشعبية. وقد صرّح على اثرها يان إيدلينغ، ممثل اتحاد النقابات، بقوله: «صحيح اننا لم نفعل شيئًا مهمًا حتى الآن ولكننا بعد الآن لن نهمل هذه القضية ابدًا، وسوف

يلاحظ الجميع ما سنفعله قريبًا». كذلك قامت الحكومة بتخصيص مساعدات مالية سخية لكل المنظمات والجمعيات الناشطة في مضمار مكافحة العنصرية والنازية، وشجعت على إصدار مطبوعات وصحف جديدة توضح الحقائق الخاصة بالمهاجرين وحجم المكاسب الاقتصادية التي تجنيها الدولة بواسطتهم (إلى هنا ينتهي ما جاء عن محمد خليفة).

وفي آب ١٩٩٧، انشغل الرأي العام السويدي بفضيحة «نازية وعرقية» كشفت عنها الصحافية السويدية ماسيج زارمبا التي كتبت على مدى أربعة أيام ان الحكومات السويدية أجرت عمليات تعقيم لنحو ٦٠ ألف امرأة لتخليص المجتمع السويدي من نماذج عرقية «متدنية». وقالت وزيرة الشؤون الاجتماعية، مارغوت فالستروم: «ما حدث لم يكن سوى همجية». وذكرت زارمبا، في دراستها، ان السويد والنروج والدانمارك لعبت دورًا في «علوم» التطهير العرقي بعد الحرب العالمية الاولى. وبدأت عمليات التعقيم في السويد في ١٩٣٥ وبلغت ذروتها في ١٩٤٦ ولم تتوقف حتى ١٩٧٦. وعلى رغم ان هذه العمليات اختيارية من الناحية الرسمية فإن الضحايا يقولون إنهم تلقوا أوامر بتوقيع إقرارات بالموافقة وإلا واجهوا خطر فقد اطفالهم الآخرين وكل ما يتمتعون به من مزايا. وكان كل الضحايا من فئات «دنيا» أو من «نوعيات عرقية مختلطة أو فقيرة» بمعنى انهم كانوا يواجهون صعوبات في التعليم، أو من عائلات فقيرة أو ليسوا من السلالة النوردية (الشمالية) التي ينتمي إليها الجنس الشمالي في دول اسكندينافيا.

□ **شوائب حياد السويد:** لم تدخل السويد حربًا ولا نزاعًا منذ ١٨٣٤، أي منذ عهد الملك كارل يوهان الرابع عشر الذي أعلن ان السويد تتمسك بـ«حياد صارم ومستقل» في حال وقعت الحرب بين روسيا وانكلترا. لكن الحرب العالمية الثانية شكلت تحديًا كبيرًا لحياد السويد. إذ اعتبر كثيرون ان التنازلات التي قدمتها السويد خلال تلك الفترة كانت مخالفة لمبادىء الحياد حسب بنود معاهدة لاهاي ١٩٠٧. فخلال الحرب الروسية-الفنلندية شتاء ١٩٣٩-١٩٤٠ طلبت فرنسا وبريطانيا الأذن بتمرير مساعدات عسكرية لفنلندا عبر السويد. فرد وزير الخارجية كريستيان غنتر بسرعة ان عبور القوات العسكرية الاراضي السويدية أمر غير قابل للنقاش، في حين كان الشارع السويدي والصحافة يحثان الحكومة على التدخل إلى جانب فنلندا باعتبار العلاقات التاريخية بين البلدين. لكن رئيس الحكومة آنذاك بير ألبين هانسون دعم وزير خارجيته وقال: «ليس من البطولة ان تستشهد السويد إلى جانب فنلندا إذا كان الاستشهاد لا يغيّر من وجهة الحرب».

لكن الشائبة الكبرى في هذا الحياد ان السويد التي كانت بدأت بتقديم مساعدات انسانية لفنلندا في بداية الحرب عادت وغيرت من استراتيجيتها، فقادت حملة دبلوماسية محمومة هدفت إلى منع دول الحلف من التدخل إلى جانب فنلندا في محاولة لإبعاد شبح الحرب عن اسكندينافيا من جهة (وهذا أمر لا يزال في صلب الحياد)، لكن تصرفها هذا من جهة أخرى جاء إرضاء للألمان الذين كانوا على علاقة طيبة بالسوفيات آنذاك. فأجبرت هذه السياسة السويدية فنلندا على الاستسلام وتوقيع معاهدة صلح مكلفة جدًا مع السوفيات.

وخلال الحرب الألمانية-النروجية، تقدمت المانيا بطلبات متكررة لنقل عتادها عبر الاراضي السويدية. فكان رئيس الحكومة هانسون، يرد بالرفض استنادًا إلى حياد بلاده. لكن اثناء الهدنة في النروج، أعادت ألمانيا الطلب بالسماح للجنود المسرحين والآليات التابعة لها بعبور الاراضي السويدية في طريقها إلى المانيا. ووافقت السويد،

هذه المرة، لأن الاجراء لا ينطوي على اية تسهيلات حربية لصالح هذا الفريق أو ذاك، وبشروط ثلاثة: -ان يعبر الجنود من دون سلاح؛ -ان يخضع نقل الآليات للامكانات التقنية المحددة؛ -ألا يستعمل خط العبور لتعزيز القوات الألمانية في النروج. ولم يعتمد نص مكتوب في تحديد هذه الشروط، وتبيّن في ما بعد ان الخط استعمل لنقل قوات نظامية وليس جنودًا مسرّحين. وقدمت الحكومتان البريطانية والنروجية ورقتي احتجاج للسويد اشارتا فيهما إلى وجود «نقص فاضح في مبادىء الحياد»؛ فأخذ السويديون يحاولون اقناع الالمان باستعمال المياه الاقليمية السويدية بدلاً من الخطوط الحديدية لعدم تعارض مثل هذا العبور مع قوانين الحياد.

وعندما هاجمت المانيا الاتحاد السوفياتي في ٢٢ حزيران ١٩٤١، وضع وزير الخارجية السويدي من جديد امام لائحة من المطالب الالمانية، أهمها وأكثرها إلحاحًا نقل فرقة عسكرية من أوسلو إلى فنلندا. وقدمت المانيا ضمانات انها لا تنوي تكرار العملية. وبعد مناقشات ومشاورات في البرلمان السويدي (ريكسداغ) أعطت الحكومة السويدية موافقتها على العملية. لكن الضغوط الالمانية تجددت لتكرار عمليات نقل الجنود، أهمها عملية إنغلبرشت التي شملت نقل ١٥ ألف جندي من أوسلو إلى تورنيو في فنلندا على مدى ثلاثة اسابيع. وكان على السويد ان تنتظر تراجع النفوذ الالماني لتجرؤ على رد الطلبات بعمليات عبور جديدة. فالخروقات التي ارتكبتها ضد حيادها رمت بالدرجة الاولى إلى تجنيب البلاد الحرب. وقد عبّر عن هذا الموقف اعلان رئيس الحكومة بير ألبين هانسون: «لا يخوض الانسان نضالاً من اجل إبعاد الحرب عن دياره بمواقف متشنجة تجر إلى صراعات غير مرغوب فيها». وتظهر ايضًا دمغة مسايرة المانيا النازية والخوف منها في الاجراء التي اتخذته السويد، بالتعاون مع سويسرا، ويقضي بختم جوازات سفر اليهود بحرف «J»،الحرف الاول لكلمة يهودي باللغة السويدية، وهو إجراء قيّد حركة اليهود وجعلهم فريسة سهلة في قبضة النازيين والمتعاونين معهم.

خلال الحرب الباردة، كانت السويد تلوح بالحياد وتشدّد عليه وتعمل على تقويته بتوسيع الدائرة لتشمل الدول الاسكندينافية.الفكرة أثارت السوفيات والاميركيين على السواء. فحذر السوفيات الدول الاسكندينافية من الدخول في أي تكتل قد يفسر انه موجه ضدهم. والولايات المتحدة أوضحت بضرورة انضمام النروج والدانمارك إلى الحلف الاطلسي مؤكدة ان الدول المنضمة إلى الحلف وحدها مؤهلة للحصول على التكنولوجيا الحربية. لم تأخذ الحكومة السويدية برئاسة تاجي أرلندر التهديد الاميركي على محمل الجد غير ان القيادة العسكرية التي اقلقها حرمان الجيش من الصناعة الحربية الاميركية، راحت خلف ظهر الحكومة تمد شبكة اتصالات مع الاميركيين. وهذا الأمر بات معروفًا عند الرأي العام السويدي، إذ تمّ الكشف، بعد توقيع معاهدة باريس (تشرين الثاني ١٩٩٠) من قبل ٣٤٠ دولة بينها ٢٢ من حلفي الأطلسي ووارسو ونصت على نهاية الحرب ا لباردة، عن وثيقة سرية عائدة لعام ١٩٤٨ تحدثت عن اتصالات قائد الجيش السويدي ملغي يونغ بالسفير الاميركي في استوكهولم حول استعداد السويد لاعادة النظر في الحياد مقابل التعهد بتسليحها بالسلاح الاميركي. وألح يونغ على السفير بابقاء اتصالاتهما سرية «لأن الكشف عنها يكلفه وظيفته».

تلك الفجوة بين الحكومة والعسكر حملت وزير الخارجية الاميركي جورج مارشال على تشديد اللهجة مع استوكهولم: «السويد مدعوة لأن تهجر حيادها غير الواقعي وتنضم إلى خط غربي مشترك». وبعد محاولات متكررة رمت إلى رفع الحصار الاميركي استسلمت الحكومة

السويدية للضغوط الاميركية ووقعت اتفاقات عدة شكلت ما عُرف بالجبهة التقنية ضد السوفيات، قادت هذه الاتفاقات في ما بعد إلى تعاون وتبادل معلومات بين الاستخبارات الاميركية والسويدية.

وفي الخمسينات بنت السويد مدارج اضافية في قواعدها الجوية المحاذية للساحل الشرقي خصيصًا لاستقبال طائرات الحلف الأطلسي في حال قرّر الحلفاء مهاجمة الاتحاد السوفياتي. كما جهزت نفسها بأجهزة اتصال ربطت القواعد الجوية في الدانمارك والنروج مع إمكانية الاتصال بانظمة القواعد الحربية الاوروبية التابعة للحلف. ولم تكن هذه التجهيزات كافية للتنسيق بين الدفاع الجوي السويدي والاخرى التابعة للحلف الاطلسي إلا انها كافية لتبادل المعلومات في حال وقوع غارات جوية.

وخضعت سياسة الحياد السويدية لعملية تجميل في السبعينات مع أولاف بالمي الذي استعمل رصيده وجاذبيته ليطرح السويد في المحافل الدولية كدولة محبة للسلام، مناصرة للحق ومساندة للعالم الثالث في كفاحه من اجل الاستقلال والحرية. وقد منحته حملته ضدالولايات المتحدة في حرب فيتنام شعبية عالمية، وجرّت على البلاد تأزمًا في العلاقات الاميركية-السويدية دام سنوات حرب فيتنام وبعدها. إلا ان هذا التأزم لم يطل القنوات الاستخباراتية التي استمرت متعاونة إبان حرب فيتنام وفي فيتنام نفسها. ويعرّف الاعلام السويدي هذا التبادل للمعلومات بين جهازي الاستخبارات الاميركي والسويدي بـ«أعمال كالعادة»، إشارة إلى استمراريته على مر العقود. ولعلّ أفضل من عبّر عن هذه الحقيقة في السياسة السويدية وزير الدفاع السويدي تورشتين غوستافسون إذ قال: «على رغم اننا حياديون إلا اننا نعرف لمن ننتمي» (لورا مقدسي، «الحياة»، ٢ حزيران ١٩٩٥؛ وراجع باب «السويد جغراسيًا وسياسيًا»).

□ **المسلمون (والاسلام) في السويد:** يبلغ عدد المسلمين الذين يعيشون حاليًا في السويد، وبعد موجة تدفق البوسنيين أثناء الحرب في البوسنة، نحو ٢٠٠ ألف مسلم. ويتمركز نحو ٤٠ ألفًا منهم في استوكهولم، وتوجد مراكز تجمع كبيرة أخرى في مالمو وغوتبورغ.

أما علاقة الاتصال والتعارف فتعود إلى الزمان الذي كان خلاله المسلمون في آسيا والشرق الاوسط يشكلون حلقات الوصل الرئيسية بين الشرق والغرب، وكان الفايكنغ في السويد يقومون برحلات بعيدة وواسعة في سفنهم الطويلة، فاحتكوا بالتجار المسلمين في آسيا الوسطى. كانت سفن الاسكندينافيين القدامى التي تزين مقدمها بتنين تشق طريقها عبر الانهار الروسية لتصل إلى المراكز التجارية الكبيرة في بحر قزوين والبحر الأحمر. وعثر على أدلة على التجارة الواسعة التي كانت قائمة في الفترة بين العامين ٨٠٠ و١٠٠٠ عندما اكتشفت حوالي ١٠٠ ألف قطعة نقود فضية عربية كانت مدفونة في السويد، معظمها في جزيرة غوتلاند في البلطيق. لكن الاسلام لم يتمكن من التقدم شمالاً ولم تصل إلى السويد موجات الفتح الاسلامي اللاحقة على ايدي المغول بعد اعتناقهم الاسلام، ولا على ايدي العثمانيين.

وصلت أول موجة صغيرة من المسلمين إلى السويد في ١٩٤٩ مع قدوم بضعة آلاف من التتار من الاتحاد السوفياتي. وفي ١٩٥١، تم تشريع قانون يضمن الحريةالتامة لممارسة الشعائر الدينية. وفقد الجيل الثاني من تلك الدفعة الاولى من المسلمين كل صلة تقريبًا بمعتقده الاصلي. وهذا أمر حاولت الجاليات المسلمة التي وصلت خلال الستينات والعقود اللاحقة ان تتفاداه. وأدى الامر إلى وجود حوالي ٦٠ منظمة اسلامية حاليًا تنشط في السويد. وتتوزع هذه الجاليات إلى حد ما على

أساس اللغة. إذ توجد للعرب، وهم الأكثر عددًا، مراكزهم الدينية الخاصة بهم، وكذلك الحال بالنسبة إلى الاتراك والبنغلادشيين والباكستانيين. وفي ١٩٩٤، حصلت الجالية التركية على إذن لبناء مسجد لها على ارض خارج استوكهولم.

في تموز ١٩٩٥، استضافت الحكومة السويدية مؤتمرين اسلاميين: مؤتمر «الاسلام في اوروبا»، وهو الاساس، ومؤتمر شبابي عقد بموازاة الاول وشارك فيه ممثلون عن المنظمات الاسلامية في ١٢ دولة اوروبية، ومنظمات أخرى من الدول العربية. وكان ممثلون عن المؤتمر الشبابي يشاركون في جلسات المؤتمر الرئيسي العمومية، وقد أثنى الشباب المسلم في اوروبا على بادرة الحكومة السويدية لتستمع منهم شرحًا لظروفهم ومشاكلهم وطموحاتهم واقتراحاتهم لتسوية أوضاعهم، وعن نظرتهم لمستقبلهم داخل المجتمعات الاوروبية.

أما المؤتمر الاساسي، «الاسلام في اوروبا»، فقد ارست الحكومة السويدية من خلاله «مبادرة اسلامية» اتفق المؤتمرون على التسليم لها بها. فأكد الدكتور عصمت عبد المجيد، امين عام الجامعة العربية (وكان مدعوًا للمؤتمر ومشاركًا فيه) ان «السويد مؤهلة تمامًا لمثل هذا الدور نتيجة لرصيدها الايجابي السابق لدى العالم الاسلامي، وبفضل حيادها واستقلاليتها عن المحاور والاحلاف والتكتلات الدولية، ومساهماتها في الدفاع عن حقوق الدول والشعوب الضعيفة على المسرح الدولي، كذلك عن القضايا العربية».

ضم المؤتمر ١٥٠ شخصية سياسية وأكاديمية واعلامية. وراعى المنظمون دعوة أكثر من ٨٠ مفكرًا وصحافيًا ومسؤولاً ينتمون إلى ٣٠ دولة اسلامية واوروبية، وعشرات المنظمات والمؤسسات الفاعلة، بما فيها منظمة المؤتمر الاسلامي، ورابطة العالم الاسلامي، وجامعة الدول العربية، والاتحاد الاوروبي، والمجلس الاوروبي، والفاتيكان، والكنيسة السويدية. وراعوا ايضًا التوازن الدقيق بين الطابع العلمي والفكري من حيث المبدأ وبين الاطار السياسي والعلمي لأهداف المؤتمر. كذلك لحظوا التنوع والتعدد في توجهات المفكرين والمثقفين الايديولوجية ومناهجهم العلمية، من الاسلامية والاصولية والمتحررة والعلمانية والمحافظة والليبرالية. ولم يتخلف عن الحضور أي شخصية أدرجت في لائحة المدعوين، وحضر ممثل شخصي للملك الحسن الثاني رئيس منظمة المؤتمر الاسلامي.

بحثت لجان المؤتمر في الحيلولة دون تحقق سيناريوهات الحظر والعداء المتبادل، وفي كيفية إنجاز التواصل الثقافي بين اوروبا والمسلمين عمومًا ومسلمي اوروبا خصوصًا، وفي استخلاص الدروس والعبر من التجارب التاريخية الماضية كالاندلس والصليبية والعثمانية إلى الامثلة المعاصرة كتجربة التعايش في بلد كبير وفي ظل غالبية مسلمة (أندونيسيا أو ماليزيا)، وفي الخيارات المطروحة امام المسلمين في اوروبا (العزلة أو الاندماج)، وفي كيفية تحقيق التعددية الثقافية الكاملة، وفي دراسة رؤى الاسلام كشريعة وتجربة اجتماعية تجاه المرأة والرجل والطفل والأسرة ومقارنتها بنظائرها في الثقافة والواقع في اوروبا، وفي علاقة الدين والمجتمع بالديمقراطية سواء من المنظور الاسلامي أو سواه ولا سيما منظور العلمانية وعلاقة كل منها بالمستقبل.

وأجمع المفكرون والمثقفون من الجانبين على ان لا وجود لأي عوامل موضوعية لاستمرار سوء الفهم، لا في الاديان ولا في الثقافة ولا في حجم العلاقات والمصالح المادية والجغرافية؛ وان لا مبرر للحملات الاعلامية والايديولوجية أو السياسية على الاسلام أوالمسلمين. كما أجمع المشاركون على ان «إمكانية الاسلام الأوروبي» ليست موضع بحث لأنها حقيقة حياتية قائمة، وانها تتمثل بصورة خاصة وجلية في الجيل الثاني من المهاجرين المسلمين، وهو جيل أوروبي الثقافة والتفكير

واسلامي الهوية والعقيدة والسلوك، وان عملية الاندماج أو التوفيق بين الاسلام والنظم الاوروبية قد جرت ببطء لكن بثبات، ونتائجها ملموسة في وجود أكثر من ١٠ ملايين مسلم يحملون جنسيات دول الاتحاد الاوروبي.

وأثناء المؤتمر، وبعده، صدرت تأكيدات من الحكومة السويدية على انها عاكفة على درس العديد من المقترحات والتصورات لتطوير المبادرة الاسلامية ومتابعتها بالتعاون مع دول ومنظمات أخرى عربية واسلامية واوروبية.

□ **مشاركة المرأة في السياسة:** في ١٨٦٢، حصلت المرأة السويدية على حق الاقتراع في الانتخابات المحلية لكن بشروط. وفي ١٨٨٤، تشكلت أول حركة سياسية للمطالبة بالمساواة التامة في الحقوق بين الذكور والإناث. وفي ١٩٠٩، صار من حق المرأة المشاركة في التصويت في الانتخابات العامة. وفي ١٩١٢، اصدر البرلمان قانونًا يعطي المرأة الحق في ان تشغل منصبًا وزاريًا. وفي ١٩١٨، أعطيت المرأة حق الترشيح للانتخابات البلدية والمحلية فقط. وفي ١٩١٩، أعطيت حق الترشيح للانتخابات والدخول إلى البرلمان. وفي ١٩٢١، صوّت البرلمان على قانون يلغي أي تفاوت أو تمييز في الحقوق الفردية والعامة بين الرجل والمرأة، وأقرّ المساواة التامة بينهما. وفي ١٩٢٢، دخلت البرلمان خمس نساء للمرة الاولى في تاريخ السويد الحديث. وفي ١٩٦٨، بلغت نسبة النساء الاعضاء في البرلمان ١٤٪. وفي ١٩٨٨، بلغت نحو ٣٨٪، ثم تراجعت واستقرت في انتخابات ١٩٩١ عند ٣٣٪. وفي البرلمان الحالي (انتخابات ايلول ١٩٩٤، أما الانتخابات التالية ففي ١٩٩٨) فازت ١٣٧ مرشحة ودخلت البرلمان إلى جانب ٢١٢ نائبًا، أي بنسبة ٤٠٪، وهي الاعلى في العالم متقدمة بفارق ضئيل على نسب برلمانات الدول الاسكندينافية الاخرى (فنلندا، النروج والدانمارك). واما النسب في دول أخرى فهي: أيسلندا ٢٤، هولندا ٢١، المانيا ٢٠، بولندا ١٤، سويسرا ١٤، كندا ١٣، الولايات المتحدة ١٠، بريطانيا ٩، أوستراليا ٧، الهند ٧، هنغاريا ٧، فرنسا ٦، اسبانيا ٥.

أما بالنسبة إلى المشاركة النسائية السويدية في الحكومة فتأخرت حتى ١٩٤٧، وظلت محدودة حتى ١٩٧٣ حين ضمت الحكومة خمس وزيرات ثم ثماني في نهاية الثمانينات. وضمت حكومة الاشتراكيين الديمقراطيين المنبثقة من انتخابات ١٩٩٤ ١١ امرأة و١٠ رجال والرئيس.

والفضل في جميع التطورات الايجابية في مسألة حقوق المرأة ومشاركتها البرلمانية والحكومية يرجع إلى الحزب الاشتراكي الديمقراطي أساسًا. فاضطرت جميع الاحزاب الأخرى لمجاراته في هذا المجال (البيئة، اليسار الشيوعي، والوسط). أما الاحزاب المحافظة، خصوصًا حزب تجمع المحافظين وحزب المجتمع المسيحي الديمقراطي، فمشاركة المرأة فيها متدنية إلى درجة واضحة.

ومن الملاحظات في الحكومة الاشتراكية الأخيرة ان الوزارات التي أعطيت للنساء أكثر أهمية من الأخرى بصورة لافتة. فوزارات الخارجية والعدل والشؤون الاجتماعية والثقافة والزراعة والمواصلات والبيئة والشؤون المدنية وشؤون الهجرة والصحة في أيدي النساء، بينما يمسك الرجال بوزارات الاقتصاد والتجارة والدفاع والتعليم والادارة، إلى رئاسة الحكومة.

□ **مشروع همرشولد:** راجع «همرشولد، داغ» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»

مدن ومعالم

* استوكهولم Stockholm: عاصمة السويد. تعد نحو ١،٦ مليون نسمة (مع الضواحي). مرفأ مهم على البلطيق، وأكبر مركز صناعي وتجاري في البلاد، وكذلك ثقافي حيث الجامعات ومقر مؤسسات جائزة نوبل. تقوم على ارض جزيرة تدعى «جزيرة الفرسان» التي يرجع تاريخ العمارة فيها إلى قرون عديدة خلت، وعليها «كنيسة الفرسان» ويرجع عهد بنائها إلى القرن الثالث عشر، وعلى مقربة منها يقع القصر الملكي أحد أقدم القصور الاوروبية. في منطقة «سكانسن» متاحف عديدة، كمتحف العصور الوسطى، والمتحف التاريخي حيث معرض خاص بالفايكنغ، والاوبرا الملكية، والمسرح الدرامي، وكنيسة من القرن الخامس عشر، والمكتبة الملكية.

ثمة معلمان من المعالم المهمة في المدينة: البرج، وهو المنارة التي يمكن مشاهدة كل مدينة استوكهولم من فوقها، ويرتفع ٥٠٨ أقدام (١٥٤م) عن سطح الارض، ويتكون من ٣٤ طابقًا، تشغل معظمها ادارة المواصلات السلكية السويدية التي تستخدم البرج للبث الاذاعي المسموع والمرئي. والمعلم الثاني، «متحف فاسا»، وهو متحف بحري، يتخذ من سفينة فاسا الحربية مقرًا، ولا تخلو قصة هذه السفينة من الغرابة، فقد بنيت تلبية لرغبة الملك غوستاف أدولف الثاني (قبل تورط السويد في حرب الثلاثين عامًا الاوروبية)، ولم تكد السفينة تبحر حتى غرقت على مقربة من ميناء استوكهولم في ١٦٢٨؛ وبعد ٣٣٣ سنة اكتشفت السفينة وهي على عمق ٣٠م ووجد فيها أشرعة ملاحة ومدافع وهياكل عظمية بشرية وملابس ومعدات ومصكوكات نقدية وغير ذلك. ولقد تم انتشالها في ١٩٦١، وتقرر منذ ذلك الحين ان تصبح بما تحتويه من نفائس متحفًا. يبلغ طول السفينة-المتحف ٦٢م. وتصل حمولتها إلى ١٣٠٠ طن، وتبلغ منطقة الشراع فيها ١٢٠٠م م.، ويزورها سنويًا ما لا يقل عن نصف مليون زائر.

الميزة الاساسية للعاصمة استوكهولم انها المدينة التي تضم أكبر عدد للمتاحف في العالم؛ وهي متاحف متخصصة في غالبيتها؛ مثل «متحف البحر المتوسط» الذي أنشىء في مطلع القرن الحالي، ويقوم في وسط المدينة بين مقرات الوزارات والفنادق ودار الاوبرا، وأهم محتوياته «المجموعة القبرصية» التي تعتبر الأكبر من نوعها في أي مكان خارج متحف نيقوسيا في قبرص، وقد جاءت من أحد المواقع الاثرية في شمالي قبرص حيث كانت تعمل بعثة تنقيب قبرصية-سويدية مشتركة بين ١٩٢٧ و١٩٣٠. أما أحدث متاحف العاصمة السويدية هو «متحف تاريخ الاقتصاد العالمي» الذي يجري إنشاؤه حاليًا (١٩٩٧) وهو الاول في نوعه في اوروبا على ما يقول مديره هنريك كالاكنبرج. ويتضح من المعلومات الصادرة عنه انه مزيج من المتحف والمكتبة والارشيف. فهو يحتوي على مجموعة ضخمة من المواد والاشياء والمعلومات التي تشكل في ما بينها سياقًا تراتبيًا لتاريخ التطور الاقتصادي في العالم بجوانبه ومحطاته الرئيسية وتحولاته الكبرى. إذ ستوجد فيه أضخم وأندر مجموعة في نوعها من النقود من معظم دول العالم وحضارات الامبراطوريات القديمة بدءًا من عصر المقايضة الاول إلى عصر بطاقات الائتمان المعدنية الحديثة. وفيه ايضًا صور ومعلومات وبيانات كافية عن طرق التجارة الرئيسية في العالم القديم، كطرق الحرير وطرق البهارات، وكذلك الممرات البحرية، والاكتشافات، والاختراعات التي ساهمت بتقدم النشاطات الاقتصادية، ووسائل الحفظ والنقل للاموال والبضائع، ووسائل الترويج والدعاية، وأشهر القوافل التجارية والحروب والمعارك التي

دارت بسبب التجارة أو نتيجة لها بشكل مباشر. إلى جانب ذلك سيكون في المتحف ركن خاص بالمعلومات النظرية، كأقدم القوانين الخاصة بالاقتصاد والتجارة وأشهر المعاهدات والاتفاقيات في التاريخ، وأهم النظريات الاقتصادية.

تاريخيًا، تأسست استوكهولم في ١٢٥٥. أصبحت في القرون الوسطى مركزًا تجاريًا مهمًا. بعد اتحاد كالمار (راجع «كالمار» في هذا الباب)، تضاربت المصالح الدانماركية والسويدية، ودخلت الدولتان مرحلة من النزاع المحموم: في ١٥٢٠، استأثر الملك كريستيان الثاني بالمدينة وأمر بقتل زعماء الحزب الوطني السويدي («حمام دم» استوكهولم في ٨ تشرين الثاني). وفي ١٥٢٣، وصل الوطني غوستاف فاسا إلى السلطة وطرد الدانماركيين من استوكهولم. وأصبحت هذه عاصمة السويد منذ ١٦٣٤.

إرتبط إسم استوكهولم، أكثر ما ارتبط، في التاريخ المعاصر، بـ«نداء استوكهولم» في ١٩ آذار ١٩٥٠ الذي وقع عليه كبار المثقفين والمبدعين في العالم الذين تمكنوا من ان يجتمعوا ليعبروا عن همّ انساني قال بصدده النداء: «إننا نطالب بمنع السلاح النووي منعًا مطلقًا، بوصفه سلاحًا يستخدم لارهاب الناس وإبادتهم، ونطالب بفرض رقابة دولية صارمة غايتها ضمان تطبيق هذا المنع. ونرى ان الحكومة التي ستكون البادئة في استخدام السلاح النووي ضد أي بلد من البلدان لن تقترف فقط جريمة حرب، بل جريمة ضد الانسانية، مما يجعلها عرضة لأن تعامل كمجرمة حرب. وإننا لندعو كل الناس ذوي الارادة الطيبة في العالم إلى توقيع هذا النداء».

وكان النداء صدر رسميًا عن مؤتمر «انصار السلام» الذي عقد في العاصمة السويدية، وكان تطبيقًا لما كان قد نص عليه مؤتمر آخر للمثقفين من اجل السلام عقد في روكلاف في بولندا في آب ١٩٤٨، وهو المؤتمر الذي شهد أول حديث سوفياتي عن انقسام العالم إلى كتلتين.

ومن الجدير ذكره ايضًا ان الاتحاد السوفياتي والاحزاب الشيوعية الاوروبية كانت تقف خلف نداء استوكهولم، ثم تبين أن هذا النداء قد أذيع في الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفياتي قد حصل بدوره على القنبلة النووية، ما جعل المؤرخين والمراقبين ينظرون إلى نداء استوكهولم على انه جاء في حينه ليغطي سعي موسكو للحصول على السلاح النووي. وهذا ما جعل الكثيرين من المثقفين والمشهورين الذين وقعوا البيان يعلنون بعد ايام فقط عن خيبة املهم وندمهم على التورط في ما اعتبروه لعبة تمّ جرّهم إليها انطلاقًا من «مشاعر نبيلة سخرت من اجل خدمة اهداف غير نبيلة».

* **أوبسالا Uppsala**: مدينة سويدية، على بحيرة مالار، وعلى بعد ١٦٠كلم شمال غربي العاصمة. تعد نحو ١٧٠ ألف نسمة. تأسست فيها أول جامعة سويدية. كاتدرائية قوطية (أواخر القرن الثالث عشر). قصر شيدّه غوستاف الاول فاسا (١٥٤٠). اقتصادها الأساسي قائم على قطاع الخدمات، وصناعاتها قليلة (الصباغة، المنشآت الميكانيكية).

تاريخيًا، كانت أوبسالا القديمة واقعة شمالي المدينة الحالية، وكانت تحتضن معبدًا وثنيًا منذ القرن التاسع. في القرن الحادي عشر، أصبحت مقرًا اسقفيًا. قضى على المدينة حريق هائل، فنقلت إلى موقعها الحالي في العام ١٢٧٣. ومنذ أن أسس الأسقف جاكوب (يعقوب) أولفسون جامعتها في ١٤٧٧، والمدينة أهم مراكز التعليم في البلاد.

في جامعتها مكتبة أنشئت في ١٦٢٠ وتحتوي على الكثير من المخطوطات، منها نسخة من الانجيل كتبت بالخط القوطي في ٥٢٥، وهي أقدم نسخة بهذا الخط، ومخطوطات عربية واسلامية. ولوجود المخطوطات الأخيرة في مكتبة

أوبسالا قصة روتها «العربي» (العدد ٣٥٨، ايلول ١٩٨٨، ص ٨٦) على الشكل التالي:

«يبدأ الفصل في تلك القصة برغبة أبداها أوسكار الثاني ملك السويد والنروج في تأليف كتاب في تاريخ العرب قبل الاسلام يبين أساليب عيشهم وعاداتهم في الزواج والمآكل والمشرب، وحروبهم ومعتقداتهم، ورصد لذلك جائزة، وألف لجنة تنظر في ما يقدم إليها من مؤلفات ضمت نخبة من كبار المستشرقين الاوروبيين آنذاك، ولا غرابة ان جعل الدكتور الكونت كارلو دي لندبرج كاتب اسرار تلك اللجنة، فقد كان هذا الكونت هو الذي حث الملك على الاهتمام بتاريخ العرب والاسلام. كان لندبرج، وهو سويدي، قد درس في استوكهولم ثم في جامعة ليبزيغ في المانيا.

بدأت صلة لندبرج المباشرة بالوطن العربي عندما صار قنصلاً عامًا في الاسكندرية بين ١٨٨٨ و١٨٩٣، و«خلال هذه الفترة جمع كميات كبيرة من المخطوطات من مصر والبلاد العربية» كما جاء في كتاب «تغريب التراث العربي» للدكتور محمد عيسى صالحية.

كان لندبرج قد تعلم التركية والعربية فضلاً عن عدد من اللغات الاوروبية الحديثة، وقد ألف وحقق ونشر عددًا من الكتب، منها «أمثال أهل برّ الشام» و«قصص عربية جديدة»، وشرح ديوان زهير بن ابي سلمة، ووضع بحثًا في لهجة حوران ولغة عنزة. لكن الأهم من ذلك كله هو ان المستشرق نجح في حمل عشرات المخطوطات اليمنية «بالاضافة إلى الحجارة الحميرية والآثار» بل «استطاع خلال جولاته وتنقلاته في البلاد العربية ان يحصل على أكثر من ألفي مخطوط».

* أوريبرو **Orebro**: مدينة في وسط السويد، على بعد ٢١٥كلم من العاصمة لجهة الغرب، وعلى ضفة بحيرة هالمارن. تعد نحو ١٢٣ ألف نسمة. كاتدرائية نيكولاي كيركان (أواخر القرن الثالث عشر). تزدهر فيها التجارة والخدمات. صناعاتها ضعيفة وتنحصر بالمنشآت الميكانيكية وصناعة المواد الغذائية.

* بوراس **Boras**: مدينة في جنوبي السويد، على بعد ٥٣كلم من العاصمة، وشرقي مدينة غوتبرغ. تعد نحو ١٠٣ آلاف نسمة. مركز الصناعات النسيجية، وتزدهر فيها الصناعات الميكانيكية.

* جونكوبنغ **Jonkoping**: مدينة في جنوبي السويد، على الطرف الجنوبي من بحيرة فاترن، وعلى بعد ٣٣٨كلم من العاصمة. تعد نحو ١١٣ ألف نسمة. فندق المدينة يعود إلى القرن السابع عشر. متاحف. مرفأ. عقدة مواصلات برية. مركز قديم لصناعة اعواد الكبريت. صناعة الورق، والنسيج والزجاج.

في ١٦١٢، وخشية ان تقع المدينة في أيدي الدانماركيين، عمد سكانها إلى إحراقها. فيها وقعت السويد والدانمارك معاهدة السلام في ١٨٠٩.

* غوتبورغ **Goteborg**: ثاني أكبر مدينة في السويد، بعد العاصمة التي تبعد عنها ٤٧٨كلم. تعد نحو ٧٥٠ ألف نسمة مع ضواحيها. بسبب تكاثر المستنقعات في المنطقة، بنيت المدينة بالطريقة نفسها التي بنيت بها المدن الهولندية، ولا تزال هناك شبكات أقنية ظاهرة للعيان. في المدينة متحف تاريخي، وآخر للفنون الجميلة. جامعة تأسست في ١٩٥٥. عقدة مواصلات برية. مطار. أول مرفأ في البلاد لنقل الاشخاص والبضائع. وأعيد حديثًا العمل في بناء السفن، وهي الصناعة التقليدية الاولى في المدينة. مركز صناعي (صناعات ميكانيكية، الكترونية، وخشبية).

تأسست المدينة في ١٦١٩ على يد الملك

غوستاف أدولف الثاني الذي جاء بمعماريين هولنديين لهذا الغرض. وبدأ ميناؤها بالنمو أثناء تأسيس «الشركة السويدية للهند الشرقية»، ثم أثناء الحصار البري الذي فرضه نابوليون بونابرت في ١٨٠٦، حيث أصبح أهم مرفأ لعبور البضائع البريطانية إلى اوروبا.

* **فاستيراس Vasteras**: مدينة سويدية، واقعة على بحيرة مالار، على بعد ١١٥كلم عن العاصمة لجهة الغرب. تعد نحو ١٢٢ ألف نسمة. كاتدرائية قوطية (القرن الثالث عشر)، وبالقرب منها قصر «أنغسو» (القرن الثالث عشر). مرفأ مهم. مركز صناعي (صب الحديد، الكهربائيات، المنشآت الميكانيكية، صناعات زجاجية). شهدت المدينة اجتماع الديت الشهير في ١٥٢٧ الذي تبنى سياسة غوستاف الاول فاسا الاصلاحية في السويد.

* **كالمار Kalmar**: مدينة في جنوبي السويد، على البلطيق وفي مواجهة جزيرة أولاند. تعد نحو ٢٤٥ ألف نسمة. كاتدرائية (القرن السابع عشر). قصر (القرن السابع عشر، وقد جرت عليه تعديلات عدة مرات). أحواض بناء السفن. صناعات ميكانيكية وخشبية.

كالمار إحدى أقدم مدن السويد، وكانت أكبرها لمدة طويلة. في ١٣٩٧، وقعت فيها معاهدة «اتحاد كالمار» بين الدانمارك والنروج والسويد، وقد خضع الاتحاد لسيطرة إريك دوبوميرانيا (إريك الثالث عشر). وكان الاتحاد يعمل على تحقيق سياسة توحيد اسكندينافيا في ايام اولوف الثاني، هاكون السادس ومارغريت. لكن الملك غوستاف الاول فاسا قضى عليه في ١٥٢٣.

* **كيرونا Kiruna**: مدينة في شمالي السويد، على بعد ١٣٥٢كلم من العاصمة. تعد نحو ٢٧ ألف نسمة، وقد جرى تأسيسها في منطقة غنية بمناجم الحديد (٦٠٪ من إجمالي مناجم الحديد في السويد). أدت أزمة السبعينات من هذا القرن إلى إعادة هيكلة الصناعة وتنويعها في المنطقة المعتبرة ايضًا منطقة سياحية.

* **لينكوبنغ Linkoping**: مدينة سويدية، على بعد ٢٠٨كلم من العاصمة لجهة الجنوب- الغربي. تعد نحو ١٢٧ ألف نسمة. كرسي أسقفي في القرن الثاني عشر. كاتدرائية (القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر). مكتبة عامة. مركز ثقافي وديني مهم منذ القرون الوسطى. مدارس ومعاهد كبرى، ومراكز ابحاث. مركز صناعي: منشآت ميكانيكية، أجهزة دفاع، إلكترونيات، وصناعات غذائية.

في هذه المدينة، وقعت مذبحة ١٦٠٠ حيث قضى الملك شارل التاسع على أنصار سيغيموند الثالث الذي كان يعمل على فرض الكاثوليكية على البلاد.

* **مالمو Malmo**: مدينة سويدية تقع في أقصى جنوبي السويد على بعد ٦٠٤كلم من العاصمة، وتعتبر ثالث مدن السويد. تعد نحو ٥٠٠ ألف نسمة مع ضواحيها. يربطها خط مواصلات بواسطة المراكب بكوبنهاغن التي تبعد عنها ٢٥كلم فقط. مدينة قديمة، حيث لا تزال تقوم عليها بيوت تعود إلى القرن السادس عشر. كنيسة القديس بطرس (طراز قوطي من القرن الرابع عشر). قلعة (بنيت في ١٤٣٦، وأعيد بناؤها في ١٥٣٧). مسرح كبير. مرفأ تجاري مهم. مركز صناعي: صناعات ميكانيكية وغذائية وكيميائية وطباعية واسمنتية، وإضافة إلى صناعة الحلى وأدوات الزينة.

* **نوركوبنغ Norrkoping**: مدينة ومرفأ

في جنوب شرقي السويد، على بعد ١٦٥كلم من العاصمة. تعد نحو ١٢٣ ألف نسمة. عقدة مواصلات برية وبحرية وجوية. مركز صناعي: صناعات خشبية، منشآت ميكانيكية، الكترونيات.

* **هلسنغبورغ Helsingborg**: مدينة في الطرف الجنوبي من السويد، عند أضيق نقطة من أورسوند، وعلى بعد ٥٧٨كلم من العاصمة. تعد نحو ١١٢ ألف نسمة. يربطها خط مواصلات بواسطة المراكب بمدينة ومرفأ إلسونور الدانماركية. آثار قلعة بنيت في القرون الوسطى. كنيسة قوطية (القرن الثالث عشر). متاحف. عقدة مواصلات. إقتصاد يقوم على نشاطات المرفأ، حيث تتم مختلف عمليات نقل البضائع، والمسافرين، والعربات والقطارات. صناعات ميكانيكية، كيميائية وغذائية.

زعماء، رجال دولة وسياسة

* **إيرلندر، تاج Erlander,Tajj** (١٩٠١-١٩٨٥): رئيس وزراء السويد بين ١٩٤٦ و١٩٦٩، ولعلها الولاية الأطول لرئيس وزراء في دولة ديمقراطية برلمانية غربية.

انتخب نائبًا عن الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ١٩٣٣. عمل وكيلاً لوزارة الشؤون الاجتماعية في ١٩٣٨-١٩٣٩. أشرف على تركيز نظم الخلافات الاجتماعية في السويد التي جعلتها أبرز مثال غربي على دولة الرفاهية.

* **بالمي، أولاف Palme, Olaf** (١٩٢٧-١٩٨٦): أبرز زعماء السويد منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية، وزعيم الحزب الاشتراكي الديمقراطي.

درس في الولايات المتحدة وفي السويد. انضم إلى الحزب اللاشتراكي الديمقراطي في ١٩٤٩. لفت بنشاطه نظر رئيس الوزراء تاج إيرلندر، فاختاره في فريق عمله، وبدأ منذ ١٩٥٣ يشارك في القرارات الحكومية المهمة. وباعتباره ينحدر من عائلة بورجوازية كبيرة من استوكهولم، فقد لاقى صعوبة كبيرة في التقرب من قواعد الحزب العمالية. فالتمس، لصعوده السياسي، وسائل الاعلام والاصدقاء في مراكز السلطة. انتخب نائبًا في الريكسداغ (البرلمان) في ١٩٥٦، وعين وزيرًا بدون حقيبة في ١٩٦٣، ثم شارك في كل الوزارات التالية، فبرز كرجل دولة كبير. ومنذ ١٩٦٧ وحتى انتخابه رئيسًا للحزب الاشتراكي الديمقراطي، اضطلع بمهام وزارة التربية حيث أجرى عدة إصلاحات مهمة، أخصها تعميم القروض على الطلاب.

كان عام ١٩٦٥ عامًا مفصليًا في حياة بالمي السياسية، وذلك على أثر إلقائه لخطاب شديد اللهجة أدان فيه الوجود الاميركي في فيتنام. ومنذ ذلك الحين وسياسة بالمي مرتكزة على «الحياد النشط» ومتضامنة مع العالم الثالث. وفي ١٩٦٨، سار، وإلى جانبه سفير فيتنام الشمالية في موسكو، على رأس مظاهرة كبرى في شوارع العاصمة استوكهولم احتجاجًا على التدخل الاميركي في فيتنام، ما تسبّب في وقوع أزمة

أولاف بالمي.

كارل السادس عشر غوستاف أثناء تتويجه ملكاً في ١٩٧٣.

دبلوماسية حادة مع الولايات المتحدة.

في ١٩٦٩، خلف بالمي رئيس الحكومة تاج إيرلندر. وكان عليه، بعد فترة قصيرة من بداية حكمه ان يواجه موجة إضرابات كبيرة طالت معظم القطاعات الصناعية في البلاد، وجعلت الحزب الاشتراكي الديمقراطي، ومعه زعيمه أولاف بالمي، معرضين لهجوم اليسار وتحالف القوى البورجوازية وأرباب العمل في الوقت نفسه. وجاءت انتخابات ١٩٧٦ (التي سبقها في شباط ١٩٧٥ صدور دستور جديد حل محل أقدم دستور في اوروبا يعود تاريخ صدوره إلى ١٨٠٩) لتنهي حكمه وتحمل إلى رئاسة الحكومة زعيم تحالف القوى المحافظة توربيون فيلون. لكن انتخابات ١٩٨٢ التشريعية أعادت بالمي إلى الحكم مرة جديدة. قضى اغتيالاً في ٢٨ شباط ١٩٨٦.

وجد السويديون في أولاف بالمي وجهًا أعطى بلادهم مكانة عالمية، حتى وإن كان الكثيرون منهم قد أخذوا عليه عدم اهتمامه بما يكفي بالشؤون الداخلية. ناطح القوى العظمى: لم يكن معاديًا للسوفيات، ولكنه لم يكف عن مفاوضاتهم من اجل اخلاء المناطق المجاورة من السفن النووية ومن اجل فرض منطقة منزوعة السلاح النووي في وسط اوروبا. الاميركيون، كان حذره منهم كبيرًا، وكذلك عداؤهم له، بسبب موقفه منهم في فيتنام ومعارضة وجودهم العسكري في اوروبا، واعترف بالحكومة الوطنية الفيتنامية وقدم لها المساعدات المالية والعسكرية علنًا. الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، لم يكف بالمي عن انتقاده بسبب نشر فرنسا صواريخ بيرشنغ في الاراضي الاوروبية وبسبب سياسة حكومة فرنسا الاشتراكية حول التأميمات التي قامت بها تحت ضغط حلفائها الشيوعيين، وأيّد بالمي الخضر (غرين بيس) في مرات عديدة وخاصة في معركتهم ضد فرنسا بشأن التجارب النووية وبشأن إغراق الفرنسيين لسفينة الخضر «ريمبو واريور»».

وإضافة إلى مواقفه إزاء القوى العظمى، جاءت نزعته وسياسته العالمثالثية لتضفيا على

زعامته بعدًا انسانيًا محببًا كانت نادرة لدى مسؤولي وزعماء العالم المتقدم بجناحيه: الرأسمالي والاشتراكي الشيوعي. دافع عن فيدل كاسترو في وجه الحصار الاميركي. ناضل بقوة ضد التمييز العنصري في جنوب افريقيا وحاول دؤوبًا لاطلاق سراح نلسون مانديلا وأيد المؤتمر الوطني الافريقي وأمده بالدعم. تفهم القضية الفلسطينية ورشحت من سياسته مواقف مؤيدة لها وللدول العربية. وقف مع نظام الحكم المعارض للاميركيين في نيكاراغوا، ووصل استفزازه للاميركيين إلى ذروته حين زار ماناغوا في ١٩٧٤.

كان بالمي كثيرًا ما يشدّد على ان الديمقراطية «قيمة في حدّ ذاتها»، كما انه كان يلفت الانتباه إلى ان الديمقراطية التي يؤمن بها حزبه ليست حرية البورجوازية بل حرية الشعب بكل فئاته بعد إقامة السلام الاجتماعي وتمكين الفقراء والضعفاء في حقوقهم الاجتماعية ومن القدرة على ان يمارسوا الديمقراطية فعلاً.

استمرت قضية اغتيال بالمي، التي وقعت مساء ٢٨ شباط ١٩٨٦ بعيد خروجه من دار للسينما واتجاهه إلى منزله مشيًا على القدمين ترافقه زوجته بلا أي حراسة، لغزًا محيرًا وشغلاً شاغلاً للرأي العام السويدي وأجهزة الأمن طوال سنوات، حتى كان صيف ١٩٩٦ عندما اعتقل في جوهانسبورغ أحد كبار مسؤولي الاستخبارات في النظام العنصري السابق المدعو يوجين دوكوك بتهمة التورط في ارتكاب ست جرائم قتل بدوافع شخصية وعنصرية. وقد اعترف دوكوك بأن جهاز الاستخبارات السابق هو الذي دبّر عملية اغتيال رئيس وزراء السويد انتقامًا منه لدوره في حشد الدول الغربية وراء سياسة عزل بريتوريا ونظامها العنصري، وانه يعرف منفذي العملية وهم ما زالوا على قيد الحياة. وكانت هناك معلومات أكيدة لدى الشرطة السويدية ان مجموعة من عملاء استخبارات جنوب افريقيا كانت موجودة في السويد أثناء وقوع الجريمة وخاصة المدعو طوني

مواطنون سويديون يضعون باقات الزهور في المكان الذي سقط فيه أولاف بالمي اغتيالاً.

وايت الذي أشير إليه مجددًا وتشبه ملامحه ملامح القاتل كما وصفتها زوجة بالمي وبعض المواطنين. وطوني وايت هذا مقاتل روديسي عنصري يحترف الجريمة ويعيش حاليًا (صيف وخريف ١٩٩٦) في قبرص التركية ويخدم الاستخبارات التركية ضد الاكراد بعد ان انتهت «روديسيا» التي كان ينتمي إليها. وأكد المسؤولون السويديون، وقد سافر بعضهم (منهم وزيرة العدل) إلى جنوب افريقيا، ان إماطة اللثام عن اسرار مقتل بالمي باتت وشيكة.

* **برانتنغ، كارل هيالمار Branting,K.H.** (١٨٦٠-١٩٢٥): أول زعيم للاشتراكية الديمقراطية السويدية. متحدر من اوساط بورجوازية العاصمة (استوكهولم). انفصل عن وسطه البورجوازي منذ سنوات الدراسة وعمل في الصحافة، ثم سرعان ما أصبح أحد كبار محرّري الصحافة الأشتراكية. وفي ١٨٨٩، ساهم في تأسيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي السويدي الذي ضم الجمعيات اليسارية والنقابات وبعض المجموعات الماركسية والفوضوية. وبعد ذلك، حاول برانتنغ ان يضع النقابات تحت وصاية سياسية. وفي ١٩١٧، حقق انتصاره الأكبر عندما نجح في استبعاد «الشبيبة الاشتراكية الديمقراطية» ذات الاتجاه اليساري المتطرف من الحزب، بعد فترة صراع طويلة بين الذين يؤيدون «النقابوية المستقلة» والذين يؤيدون «المركزية الديمقراطية». وبانتصار برانتنغ انتصر الاتجاه «النقابي الوحدوي» داخل الحزب، ودخلت النقابات، جماعيًا، حزبه. وأراد برانتنغ ايضًا ان يُدخل الاشتراكية الديمقراطية في اللعبة البرلمانية، فأثار ذلك معارضة الماركسيين والفوضويين داخل حزبه، ولكنه استطاع ان يكسب الاكثرية إلى جانبه مقابل أقلية كانت تتقلص باستمرار.

في نهاية القرن التاسع عشر، كانت الصراعات الاجتماعية في احتدام متزايد، إلا ان وصاية الحزب كانت تبعد العمال عن النقابات. فارتفعت الاصوات مطالبة بانشاء هيئة مركزية عمالية مستقلة. عارض برانتنغ هذه المطالب في البداية. إلا انه لم يستطع الحؤول دون قيام المنظمة الوطنية (.L.O) في ١٨٩٨ التي تشكلت من الفدراليات النقابية المستقلة ومن فدراليات الحزب (٥٠ ألف نقابي). ومع ذلك، إستطاع برانتنغ ان يسيطر، من خلال حزبه، على هذه المنظمة النقابية الجديدة. وردّت السلطة على هذه الخطوة باتخاذ تدابير قمعية وأقفل ارباب العمل المصانع، وأدّت المواجهة إلى اضراب عام ١٩٠٩ شارك فيه نحو ٣٠٠ ألف عامل واستمر مدة شهر. ولم يلق قرار المنظمة الوطنية بانهاء الاضراب سوى استياء العمال المضربين: فهبط عدد اعضائها في سنة واحدة من ٢٠٠ ألف إلى ٨٠ ألفًا.

انتخب برانتنغ في ١٨٩٦ أول نائب للحزب عن احياء استوكهولم الشعبية. وبعد ١٩٠٧ أصبح الحزب الاشتراكي الديمقراطي صاحب أكبر عدد من المقاعد في البرلمان.. وابتداء من ١٩٠٩، أرسى برانتنغ القواعد الاصلاحية والانتخابية للاشتراكية الديمقراطية التي راحت تعبىء قواها من اجل تحقيق اهداف محددة، ومن اجل استثمار الدولة البورجوازية وليس من اجل إزالتها. وأصبحت المنظمة الوطنية محكومة بنظام مركزي.

بعد ثورة ١٩١٧ البولشفية، ظهرت في الحزب بوادر عداء للشيوعية، ووصلت الاشتراكية الديمقراطية إلى الحكم عن طريق تكتل مع الليبراليين. وفي ١٩٢٠، أدّى الخلاف بين الطرفين إلى الانفصال. وبعد وفاة برانتنغ، في ١٩٢٥، ظهر جيل جديد قاد الحزب إلى السلطة بدءًا من ١٩٣٢ (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ط١، ج١، ص ٥٠٨).

*** برنـــادوت، الكونـــت فولـــك Bernadotte,F. (١٨٩٥-١٩٤٨)**: شـــخصية سويدية إنسانية، والوسيط الدولي في فلسطين الذي اغتاله يهود من منظمة «أرغون» التي كان يتزعمها مناحيم بيغن (رئيس وزراء اسرائيل بعد نحو ربع قرن من حادثة الاغتيال) انتقامًا منه على اقتراحه تدويل القدس، وذلك في ١٧ ايلول ١٩٤٨ (راجع «اغتيال الوسيط الدولي برنادوت» في باب «معالم تاريخية» من مادة «اسرائيل»، ج١، ص٣٥٢-٣٥٣).

بعد نحو ٤٧ سنة من الاغتيال، أي في ١٤ ايار ١٩٩٥، اقامت اسرائيل احتفالاً في متحف تل أبيب «إحياء لذكرى الكونت برنادوت الذي أنقذ الآلاف من اليهود في نهاية الحرب العالمية الثانية عندما كان رئيسًا للصليب الاحمر في السويد». وفي الاحتفال الذي حضرته مونا سالين نائبة رئيس الحكومة السويدية، ألقى رئيس الوزراء الاسرائيلي شمعون بيريز كلمة «اعتذر فيها عن الاغتيال أملاً في تخفيف التوتر بين اسرائيل والسويد المستمر منذ الاغتيال»؛ ومما قاله بيريز: «ندين بكل شدة اغتيال الكونت برنادوت ونأمل بأن يسهم هذا الاحتفال بمداواة الجروح».

لكن اسرائيل تصرفت إزاء المسؤولة السويدية، سالين، وأثناء زيارة هذه الاخيرة لها، ما تسبّب بأزمة دبلوماسية مع السويد (راجع «النبذة التاريخية»).

*** بيرشون، يوران (١٩٤٩-)**: رئيس وزراء السويد الحالي (١٩٩٧)، ورئيس الحزب الاشتراكي الديمقراطي، خلفًا لرئيس الحكومة والحزب السابق إنغفار كارلسون.

ولد يوران بيرشون في إحدى المدن الصغيرة جنوبي السويد. دخل البرلمان (ريكسداغ) للمرة الاولى في ١٩٨٥، ثم أصبح وزيرًا للتربية في ١٩٨٩-١٩٩٠، عاد وزيرًا للمالية في حكومة كارلسون (١٩٩٤-١٩٩٦)، وكان يشغل هذا المنصب عندما اختير لخلافة كارلسون بدءًا من ربيع ١٩٩٦، ولم تكن له من خبرة حكومية تزيد عن ثلاثة اعوام ونصف عام، وخدمته البرلمانية عن عشرة أعوام. وهو أول زعيم اشتراكي ورئيس حكومة يفتقر للخبرة، وقد وصل إلى القيادة نتيجة وجود أزمات وفراغ في مستوى الزعامة (راجع باب «النبذة التاريخية»). ولقد تبين منذ الشهر الاول لحكومته عجزه الفاضح وأخطاؤه الجسيمة، وأصبح هدفًا للسخرية اللاذعة من سياسيين أو مواطنين واشتراكيين أو محافظين، وكاد أن يُجبر على الاستقالة بسبب تصريحات فجّة طالت سياسته الخارجية. على الصعيد الداخلي، باءت محاولاته للاصلاح الاجتماعي بالفشل طوال العامين الماضيين (١٩٩٦-١٩٩٧). ومع انه تعهد خفض معدل البطالة إلى النصف قبل نهاية ١٩٩٦، فقد اظهرت الاحصاءات الرسمية انها زادت عما كانت عليه عندما اطلق تعهده وقفزت فوق ٨٪. وعلى الصعيد الاقتصادي، تحققت انجازات مهمة إذ تقلص العجز والدين الخارجي وارتفعت الانتاجية وزادت الصادرات، غير ان جميع هذه الانجازات تبين انها تعود إلى خطة اصلاحية وضعتها حكومة الائتلاف اليميني قبل ان تسقط في انتخابات ١٩٩٤.

وكان لاختيار بيرشون مدلولات متصلة بأوضاع الحزب الاشتراكي الديمقراطي الداخلية وأزماته، وباتجاهات الحزب المستقبلية.

يمثل يوران بيرشون التيار الليبرالي المتحرر في الحزب، بل ربما حاز اعتباره من الاقطاب المؤسسين لهذا التيار، وهو من البراغماتيين. وحين كلف حقيبة وزارة المدارس (التربية) في ١٩٨٩، نقل مسؤولية الاشراف على المدارس من الحكومة المركزية إلى البلديات المحلية، ووضع التعليم تحت اشراف الاهالي والمجالس المحلية، وكانت أولى الخطوات على الطريقة الليبرالية.

الملك غوستاف السادس أدولف.

وعندما أصبح وزيرًا للمالية في نهاية ١٩٩٤ ذاع صيته كـ«عدو للاشتراكية» نظرًا إلى الخطط التي اقترحها وطبقها في ميدان التقشف وتوفير الاموال على حساب الرفاهية والمزايا الاشتراكية التقليدية والرعاية الشاملة كما كانت سارية المفعول منذ الخمسينات.

وبيرشون من التيار المؤيد للانضمام للاتحاد الاوروبي. فهو من جنوبي البلاد حيث تتضاءل إلى أقصى الحدود النزعة الانعزالية السويدية التي تبلغ ذروتها في الشمال. وهو من مؤيدي التقارب مع الولايات المتحدة ويدعم سياستها الأطلسية (راجع «النبذة التاريخية»).

*** بيلدت، كارل Bildt, Carl** (١٩٤٩-): راجع أبواب: النبذة التاريخية، السويد جغرافيًا واستراتيجيًا، والاحزاب.

*** سالين، مونا** (١٩٥٧-): سياسية سويدية. دخلت البرلمان منذ ١٩٨٢، ودخلت الوزارة للمرة الاولى في ١٩٩٠. انتخبت في المؤتمر العام للحزب الاشتراكي الديمقراطي (١٩٩٢) سكرتيرة. نائبة لرئيس الحكومة، إنغفار كارلسون، وكانت أبرز المرشحين لخلافته (راجع «النبذة التاريخية» و«الاحزاب»).

*** غوستاف السادس أدولف Gustav VI A.** (١٨٨٢-١٩٧٣): ملك السويد. ولد في استوكهولم، وتوفي في ١٥ ايلول (١٩٧٣) في هلسنغبورغ. ابن الملك غوستاف الخامس والملكة فكتوريا دو باد. يتحدر من المارشال جان باتيست برنادوت، ملك السويد في ١٨١٨ تحت إسم كارل الرابع عشر جان، وأسرته الملكية هي الأسرة الوحيدة التي تعود إلى الامبراطورية النابوليونية. زواجه الاول (١٥ حزيران ١٩٠٥) كان من مارغريت أميرة بريطانيا وإيرلندا التي أنجب منها خمسة أبناء، كبيرهم، غوستاف أدولف دو سويد، قتل في حادث طائرة في ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٧. وابن هذا الامير هو الملك الحالي كارل السادس عشر غوستاف (المولود في ٣ نيسان ١٩٤٧) الذي خلف جده. وتزوج غوستاف أدولف ثانية (في ٣ تشرين الثاني ١٩٢٣) الليدي لويز مونتباتن (الاميرة لويز دو باتنبرغ).

توج ملكًا في ٢٩ تشرين الاول ١٩٥٠. اتخذ له شعارًا لازمه كل حياته: «الواجب قبل كل شيء». دراسته الجامعية جعلته يهتم بالتاريخ وعلم الآثار والاقتصاد السياسي. كثير العمل والتجوال. أظهر فعالية وذكاء نادرين في مهماته الملكية. عرف كيف يتعاون وحكوماته الاشتراكية الديمقراطية التي شكلها تاج إيرلندر وأولاف بالمي.

فكان ملكًا كبيرًا ورجل دولة كبيرًا، واستمر حتى آخر ايامه أمينًا على العهد الذي قطعه على نفسه وعبّر عنه بشعار: «الواجب قبل كل شيء».

*** غيجـر، أرن Geijer,A.** (١٩١١-١٩٧٩): سياسي ونقابي سويدي. ترأس الاتحاد العام للعمل في السويد من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٣. نادى بسياسة تضامن في الأجور، وتقليص الفوارق في تعويضات العمل لجهة رفع الاجور المنخفضة، فكان من أبرز صانعي «النموذج السويدي». كان نائبًا وعضوًا في المكتب الاداري للحزب الاشتراكي الديمقراطي السويدي، وترأس بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٦ «الاتحاد الدولي للنقابات الحرة».

*** فالدين، توربيون Faldin,Th.** (١٩٢٦-): سياسي سويدي. ترأس حزب الوسط في ١٩٧١، ثم رئيس الحكومة خلفًا للزعيم الاشتراكي الديمقراطي أولاف بالمي في ١٩٧٦، وفي ١٩٧٩.

يتحدر فالدين من أسرة فلاحية. عمل في الزراعة وتربية المواشي، متابعًا دراسته في أوقات فراغه. تمكن من ان يصبح نائبًا في ١٩٥٨، وان يلعب دورًا بارزًا في حياة السويد السياسية.

*** كارل السادس عشر غوستاف Carl XVI Gustaf** (١٩٤٦-): ملك السويد منذ ١٩٧٣. وهو من سلالة المارشال الفرنسي برنادوت الذي نصب نفسه ملكًا على السويد في ١٨١٨. أصغر ملك تربع على العرش السويدي. يدفع الضرائب كغيره من المواطنين، ويجري الاتصال المباشر بالمواطنين. أحدث بعض التجديد في التقاليد الملكية. يتعرف الجمهور على افراد الاسرة الملكية من خلال احتفال سنوي وبرامج تبث ليلة رأس السنة: الاميرة فكتوريا، الامير كارل فيليب والملكة سيلفيا وهي من أصل ألماني.

لا يمنحه دستور ١٩٧٥ أية سلطة. فهو لا يرأس مجلس الوزراء، و لم يعد القائد الأعلى للجيوش، و لم يعد يلقي خطابه التقليدي في مناسبة افتتاح الدورات النيابية. فتتلخص مهماته بتمثيل بلاده في الخارج، ويخضع للقرارات الصادرة عن مجلس النواب. فحين قرر المجلس النيابي تغيير قوانين الوراثة الملكية ومنح المرأة حق اعتلاء العرش رضخ الملك بدون مناقشة وهذا يعني ان الاميرة فكتوريا هي التي ستعتلي عرش السويد بعد أبيها.

كانت دراسة الملك كارل السادس عشر غوستاف متنوعة. فبعد تخرجه في جامعة أوبسالا أجرى عددًا من الدورات التدريبية في الشركات والمصارف وفي مدرسة الشوون الخارجية، وظل شهرًا يحضر أعمال الوفد السويدي إلى الامم المتحدة في نيويورك. يهوى الرياضة والصيد. وربما كان تعلقه بالطبيعة وراء قراره بالانتقال من قصر استوكهولم التقليدي إلى قصر دروتينغهولم على مسافة عشرات الكيلومترات من العاصمة.

في ايار ١٩٩٧، كشف عن مرض «عمى الكلمات» يعاني منه الملك وابنه الامير كارل فيليب بفعل الوراثة. وكانت شائعات حول هذا الموضوع بدأت تسري منذ ١٩٧٣. ويسبّب هذا المرض صعوبات في القراءة والكتابة.

تعكس طريقة حياة هذا الملك مع أسرته ومستوى معيشتهم المستوى الراقي جدًا الذي بلغته السويد ديمقراطيًا. فالملك كارل السادس عشر غوستاف يعيش مما يتبقى له من الموازنة المخصصة للملك عيشة المواطن السويدي العادي، بل المواطن السويدي الفقير.

فالمخصصات التي تمنحه إياها الموازنة الحكومية «لا تزيد على ٧٠ مليون كراون (أقل من ١٠ ملايين دولار)، تنفق على موظفي القصر الذين يزيد عددهم على مئتين، وعلى ثمانية قصور، ونفقات رحلات جميع افراد الأسرة والحاشية، وكذلك على استقبال الضيوف والمآدب والولائم

الرسمية، وتعليم الأبناء وتدريب ولي العهد على مهمات الملك. وشكا الملك قبل سنوات من ان المخصصات لم تعد تتناسب وظروفه الشخصية والعائلية إذ تقررت في ١٩٧٤ حين كانت قيمة الكراون ضعف ما هي عليه اليوم، وكان الملك عازبًا. لكن اعضاء البرلمان والوزراء يرفضون مجرد مناقشة هذه القضية، ويطالبون الملك بأن يعاني مثل المواطنين، حسب تعبير وزيرة الشؤون الاجتماعية. وكان عدد من كبار موظفي القصر الملكي شرحوا للصحافة مرات جوانب من معاناتهم وتقشفهم، وقالوا ان القصر يعاني أكثر من أكثر المواطنين فقرًا. وأكدوا انهم اضطروا لشراء أجهزة كومبيوتر مستعملة، والاعتماد على جهاز فاكس واحد لعشرات الموظفين، وعجزوا عن تغيير الستائر القديمة أو السجاد أو الأرائك والمكاتب في دووابن القصر. وذكر هؤلاء ان الملك كارل لجأ في السنوات الاخيرة إلى بيع عقارات واراض من ممتلكات الأسرة لتغطية العجز في موازنة القصر، علمًا ان الدستور يحظر على الملك قبول الهدايا والاقتراض ومزاولة أي عمل» (عن محمد خليفة، «الحياة»، ١٨ نيسان ١٩٩٦، ص١).

*** كارلسون، إنغفار Carlsson,I.** (١٩٣٤-): رئيس الحكومة (السابق) والزعيم السابق للحزب الاشتراكي الديمقراطي.

ولد في مدينة يورروس، ودخل السياسة والوظائف السياسية مبكرًا ومباشرة بعد أن أنهى دراسته في جامعة لوند في قسم العلوم السياسية والاقتصادية (١٩٥٨). فعمل في مكتب رئيس الحكومة تاج إيرلندر بين ١٩٥٨ و١٩٦٠. ونجح في الدخول إلى البرلمان (١٩٦٤). وفي ١٩٦٩، صار وزيرًا للمرة الأولى. وبعد اغتيال بالمي اختاره الحزب ليخلفه في القيادة ورئاسة الحكومة في مطلع ١٩٨٦، واستمر رئيسًا للحكومة حتى ١٩٩١

انغفار كارلسون.

حين خلفه زعيم المحافظين كارل بيلدت. وعاد كارلسون رئيسًا للحكومة في خريف ١٩٩٤ حتى ربيع ١٩٩٦ (راجع «النبذة التاريخية»).

استمر، وهو رئيس للحكومة، يعيش في منزله في ضاحية على مشارف العاصمة، وهو يتألف من أربع حجرات فقط. وفي ربيع ١٩٩٥، أجبرته الشرطة، بعد جدال طويل، على مغادرة منزله والسكن، بصفته رئيسًا للحكومة، في منزل تملكه الدولة في قلب العاصمة، لضرورات أمنية، خاصة وان ذكرى اغتيال بالمي استمر يؤرق الشرطة والمواطنين. ولم يسبق لرئيس حكومة في السويد، ومنذ عشرات السنين، ان أقام في مبنى للدولة ولا استفاد من المال العام لأي منفعة شخصية. واستمرت زوجة كارلسون تعمل مديرة مكتبة عامة.

من مواقفه، على الصعيد الدولي: دعمه للعملية السلمية في الشرق الاوسط وحث

الفلسطينيين والاسرائيليين على الوفاء بوعودهما والتزاماتهما من احل تحقيق تقدم حقيقي وثابت على هذا الطريق؛ ودعوته إلى إقامة لجنة أو هيئة أو مؤسسة دولية ترصد الصراعات واخطار اندلاعها قبل وقوعها؛ واقتراحه إنشاء قوة مدربة وجاهزة دائمًا للتدخل في الصراعات الاقليمية؛ ودعوته إلى تعزيز قدرات مجلس الأمن الدولي وزيادة عدد اعضائه من ١٥ إلى ٢٣ عضوًا وإلغاء حق النقض (الفيتو) المعطى للدول الخمس وإقامة مجلس أمن اقتصادي بدلاً من اللجنة الاقتصادية التابعة للامم المتحدة. وكثيرًا ما أعرب كارلسون عن قلقه من خلو العالم من قيادات قادرة على لجم اسباب التوتر والتصدي للصراعات.

* **نوبل، ألفرد:** راجع «جائزة نوبل» في «معالم تاريخية».

* **همرشولد، داغ Hammarskjold,D.** (١٩٠٥-١٩٦١): سياسي واقتصادي سويدي، ودبلوماسي دولي. ثاني أمين عام للامم المتحدة (١٩٥٣-١٩٦١).

همرشولد (الى يسار الصورة) وتريغفي لي.

ولد في يونكوبنغ. والده هيالمار همرشولد الذي كان رئيسًا للحكومة السويدية من ١٩١٤ إلى ١٩١٧ ورئيسًا لموسسة جائزة نوبل من ١٩٢٩ إلى ١٩٤٧. درس داغ الحقوق والاقتصاد في جامعتي أوبسالا واستوكهولم. ثم علّم الاقتصاد السياسي في جامعة استوكهولم من ١٩٣٣ إلى ١٩٣٦. مساعد وزير المالية في ١٩٣٦، ثم أصبح رئيسًا لمجلس إدارة مصرف السويد المركزي. في ١٩٤٧، بدأ عمله في السلك الخارجي مستشارًا اقتصاديًا لوزارة الخارجية السويدية، إلى ان اصبح في ١٩٥١ وزيرًا للدولة مع صلاحيات نائب وزير الخارجية.

مرّ داغ همرشولد في العديد من المناصب الدولية عبر منصبه كمندوب للسويد في المنظمة الاوروبية للتعاون الاقتصادي وفي مجلس اوروبا. في ١٩٥١، أصبح نائب رئيس البعثة السويدية في الامم المتحدة، إلى ان اصبح رئيسًا للبعثة في ١٩٥٢. وفي ٧ نيسان ١٩٥٣، وكان قد مضى ٥ أشهر على استقالة أول أمين عام لهيئة الامم المتحدة، النروجي تريغفلي، انتخب همرشولد أمينًا عامًا للهيئة لمدة خمس سنوات قابلة للتجديد، ثم أعيد انتخابه بالاجماع في ١٩٥٧ لفترة خمس سنوات أخرى.

بعد انتهاء الحرب الكورية في ١٩٥٣، أصبحت أزمة الشرق الاوسط شغل همرشولد الشاغل. فكان يحاول جاهدًا التخفيف من حدة الصراع العربي-الاسرائيلي ومنع تجدد القتال بين اسرائيل والدول العربية. وواجه همرشولد التصعيد الخطير الذي ساد الموقف في الشرق الاوسط في اواسط الخمسينات، إلا انه فشل في منع تدخل الدول العظمى في شؤون تلك المنطقة، وظهر ذلك واضحًا في العدوان الثلاثي الذي شنته بريطانيا وفرنسا واسرائيل على مصر (١٩٥٦).

كان موقف همرشولد خلال تلك الازمة، التي اعتبرت أخطر ما واجهه خلال عمله أمينًا عامًا

للامم المتحـدة، يتمثـل في وقـف القتـال، وسـحب القوات المعتدية من مصـر. وقـد لعـب همرشـولد، بالتعاون مع السياسي الكندي ليستر بيرسون، دورًا رئيسيًا في تحقيق وقف إطلاق النار، وإنشاء قـوات الطوارىء الدولية التابعة للامم المتحدة، والتي كـان من مهماتها التمركز على خطوط الهدنة ومنع تجدد القتال.

ولعـب همرشـولد دورًا اساسيًا في الازمـة اللبنانية الداخليـة (١٩٥٨)، وعمـل علـى سـحب القوات الاميركيـة الـتي نزلـت في لبنـان بنـاء علـى طلـب رئـيس الجمهوريـة اللبنانيـة آنـذاك كميـل شمعون.

وعند انـدلاع الحـرب الأهليـة في الكونغـو (١٩٦٠)، أنشـأ همرشـولد قـوة الامـم المتحـدة العسكرية من أجل حفظ السلام هناك، الأمر الذي أدانـه الاتحـاد السـوفياتي، وقـد اتهـم السـوفيات القوات الدولية في الكونغو بمساعدة الانفصاليين في كاتانغا، وطالبوا باسـتقالة همرشـولد مـن منصبـه. والجدير ذكره ان هذه القـوات كـانت تتـألف مـن ١٩ ألف جندي تابعين لـ٢١ دولـة، ليسـت بينهـا أي دولة كبرى.

في ١٨ ايلول ١٩٦١، تحطمت الطائرة التي كـانت تقـل همرشـولد في طريقـه لمقابلـة الزعيـم الانفصالي الكونغولي مويس تشومبي؛ وقد سـقطت الطائرة في ندولا (في روديسيا الشمالية التي غـيرت إسمها إلى «زامبيا») وقتل جميع من فيها.

تميز همرشـولد، خـلال عملـه أمينًـا عامًـا للامم المتحدة، بإيمانه بضرورة العمـل الـدولي دون الوقوع تحت تأثير الحكومات، وخاصـة حكومـات الدول الكبرى. وقد عمل طيلـة الفـترة الـتي شـغل فيها المنصب على إنشـاء جهـاز إداري ذي طـابع مركزي يتولى تسيير أعمال المنظمة الدولية، وعلـى اعطاء المجال للامين العام باتخاذ القرارات دون أخذ الموافقة المسبقة لمجلس الأمـن أو الجمعيـة العموميـة، الامـر الـذي دفـع الولايـات المتحـدة والاتحـاد السوفياتي إلى معارضته.

وكان له خلال عمله الدبلوماسي اسـلوب خاص أسماه «الدبلوماسية الهادئة» التي تعتمد علـى المفاوضـات الشـخصية مـع مختلـف الاطـراف دون ضجة أو دعاية. وقد سجّل اسلوبه هـذا اول نجـاح حين عمل على إطـلاق سـراح ١١ طيـارًا اميركيًـا كانوا في الأسر لـدى السـلطات الصينيـة الشـعبية. وقد تم إطلاق سراح الطيارين إثـر زيـارة قـام بهـا همرشـولد إلى بكـين وقـابل خلالهـا المسـؤولين الصينيين، وكانت أول زيارة يقـوم بهـا أمـين عـام للمنظمة الدولية إلى الصين.

وخلّد العالم ذكـرى همرشـولد بعـد وفاتـه بمنحه جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٦١، كمـا نشـر لــه كتــاب في ١٩٦٤ بعنــوان «ملامــح» (Markings)، كشف العديد من خفايا شـخصيته، وبرز فيه اهتمامه العميق بالقضايا الدينية والروحية، وإيمانه المطلق بأن الخدمة المدنية واجـب لا بـدّ مـن تأديته من اجل إحلال السلام في العالم.

أمـا مـا عُـرف بـ«مشــروع همرشــولد» فمرتبط بكون همرشولد، وهو الامين العـام للأمـم المتحدة، أحد الذين عايشوا القضية الفلسطينية عـن كثب وسعوا إلى إيجاد حـل لبعـض جوانبهـا. وقـد التقى بالرئيس جمال عبد النـاصر لأول مـرة في ٢٢ كانون الثاني ١٩٥٦ وطرح أمامه بعـض أفكـاره عن مشكلات الشـرق الاوسـط. وينسـب إليـه في هذا الاجتماع قوله:

«إنـي أحـاول دائمًـا أن أرسـم في ذهـني صورة لكل مشكلة أعالجهـا. ومـن ثـم أحـاول أن أجد مخرجًا عبر هذه الخريطة. ولكن الأمر عسير في هذه الحال لأن المنطقـة وعـرة ومعقـدة. إنـه وضـع متفجـر. إنـي لم استطع بعـد أن أرسـم خريطـة ولكنني أشعر أن الوضع بالغ الخطورة. إنـي أحـذر كل الحذر في محاولتي إيجاد هذا المخرج».

أما الرئيس عبد الناصر فقد أوضح أنه يبـني استراتيجيته في حل مشكلة الشـرق الاوسـط علـى

قرار الامم المتحدة رقم ١٨١ الصادر في ١٩٤٧ والخاص بتقسيم فلسطين، وعلى قرارها رقم ١٩٤ الصادر في ١٩٤٩ والخاص بعودة اللاجئين الفلسطينيين. وأنه سيعمل بالتفاهم مع حكومات الدول العربية على السير من هذا المنطلق في معالجة القضية. وأما الاسرائيليون فقد أبدوا رفضهم الكامل لقراري الامم المتحدة المذكورين. وقد تأكد همرشولد من ذلك خلال لقاءاته المتكررة مع قادتهم عبر السنين.

وفي ١٥ حزيران ١٩٥٩، تقدم همرشولد إلى الجمعية العامة للامم المتحدة بوثيقة عنوانها: «مقترحات بشأن استمرار الامم المتحدة في مساعدة اللاجئين الفلسطينيين: وثيقة صادرة عن الأمين العام». وجاء في هذه الوثيقة الرسمية:

١- توسيع برامج تأهيل اللاجئين وتعزيز قدرتهم على إعالة أنفسهم والاستغناء عن المساعدات التي تقدمها إليهم وكالة الامم المتحدة لاغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى.

٢- توطين اللاجئين في الاماكن التي يوجدون فيها.

٣- مناشدة الدول العربية (المضيفة للاجئين) التعاون مع الوكالة الدولية.

نظر همرشولد إلى مشاريع الوكالة التي دعا إلى توسيعها على انها تمهيد لعملية استيعاب الشعب الفلسطيني وإذابة شخصيته، تلك العملية التي جعلها محور تقريره في ما يتصل باللاجئين.

وعلى الرغم من أن هذه المقترحات لا ترمي مباشرة إلى تسوية الصراع العربي-الاسرائيلي فإنه يتضح من مضمونها انها تهدف إلى دمج الشعب الفلسطيني في المجتمعات العربية التي تعيش فيها عن طريق مشاريع التنمية الاقتصادية وباعتبار اللاجئين طاقة بشرية واقتصادية تحتاج إليها هذه المجتمعات في عملية التنمية. وهذا نموذج غير مباشر لتصفية قضية الشعب الفلسطيني وحقوقه الثابتة والكاملة.

كانت ردة فعل الفلسطينيين قوية ضد همرشولد. وقد تجلت في المؤتمر الفلسطيني الذي انعقد في بيروت في ٢٦ حزيران ١٩٥٩ وحضره مندوبون عن جميع الفلسطينيين في المخيمات وغيرها من أماكن إقامتهم في الاراضي اللبنانية، وممثلون عن جميع هيئاتهم ومنظماتهم. وقد صدر عن هذا المؤتمر بيان رفض مشروع همرشولد ودعوته إلى تذويب الشعب الفلسطيني في اقتصاديات الشرق الاوسط. كما رفض أي مشروع آخر من شأنه ان يحول دون حق الشعب الفلسطيني الطبيعي في وطنه. وفي ١٢ تموز ١٩٥٩، عقد مؤتمر عربي-فلسطيني آخر في صوفر (في لبنان كذلك) أكد الموقف الذي تبناه المؤتمر الاول واستنكر بشدة موقف وكالة الاغاثة وحذرّها من مغبة تبني مشروع داغ همرشولد وتنفيذ توصياته. ولم تبد أي دولة من الدول العربية حماسة لهذا المشروع فطوي وتناساه الزمن (من «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ج٧، ص١٣٥-١٣٧).

* **يارنغ، غونار** (١٩١٧-): سياسي ودبلوماسي سويدي ودولي. اتصلت سيرته بأحداث الشرق الاوسط.

حصل على درجة الدكتوراه في الفلسفة في ١٩٤٣ وعمل استاذًا مساعدًا للدراسات الشرقية في جامعة لوند. في ١٩٤٩، انتقل إلى السلك الدبلوماسي، وتدرج في مناصبه، وعمل بخاصة في عدد من العواصم الشرقية، منها أنقرة وأديس أبابا ونيودلهي وكولومبو. وفي ١٩٥٦، عين مندوبًا دائمًا لبلاده في الامم المتحدة وتولى فترة رئاسة مجلس الأمن. قام بنشاط دولي حين اختير مبعوثًا للامم المتحدة للتوسط بين الهند وباكستان، ثم اختير في تشرين الثاني ١٩٦٧ مبعوثًا خاصًا إلى الشرق الاوسط لمتابعة قرار مجلس الأمن بانسحاب اسرائيل من الاراضي العربية المحتلة. بدأ نشاطه في ١٠ كانون الاول ١٩٦٧ واتخذ قبرص مقرًا له.

سويسرا

بطاقة تعريف

الاسم: «سويسرا» مشتق من «شويز» Schwyz. وشويز إسم أحد الكانتونات التي كانت في أساس إقامة الاتحاد السويسري. وهو واقع في وسط سويسرا. سكانه يتكلمون الالمانية واكثريتهم كاثوليك. الاسم الرسمي: الاتحاد السويسري (الكونفدرالية السويسرية)، لكن الرمز المعتمد للاتحاد مكوّن من الحرفين CH، أي الكونفدرالية الهلفيتية Confederatio Helvetica (راجع «النبذةالتاريخية»).

الموقع: في وسط اوروبا. تحيط بها ايطاليا (وطول حدودها معها ٧٤١،٣كلم)، وفرنسا (٥٧١،٨كلم)، والمانيا (٣٦٢،٥كلم)، والنمسا (١٦٤،٨كلم)، وليشتنشتاين (٤١،١كلم). ويكون إجمالي طول حدود سويسرا ١٨٨١،٥كلم.

المساحة: ٤١٢٩٣،٢كلم م.. وفي سويسرا بحيرات كثيرة، يربو عددها على ١٦٠٠ بحيرة طبيعية و٥٠ بحيرة اصطناعية. وفي البلاد ٤٢ ألف مجرى ماء، أهمها نهر الراين (٣٧٥كلم)، والآر (٢٩٥كلم)، والرون (٢٦٤كلم)، والروس (١٩٥كلم).

العاصمة: برن. أهم المدن: زوريخ، بال، جنيف، لوزان... (راجع باب «مدن ومعالم»).

السكان، اديانهم ولغاتهم: كان عددهم ١،١ مليون نسمة في العام ١٦٠٠؛ و٤،٠٥ مليون نسمة في العام ١٩٣٠؛ و٤،٦٩ مليون في العام ١٩٥٠؛ و٦،٣٧ مليون في العام ١٩٨٠؛ وأصبح عددهم ٦،٨٧ مليون في إحصاء العام ١٩٩١؛ وتشير التقديرات إلى انهم سيصبحون نحو ٧ ملايين نسمة في العام ٢٠٠٠.

يشكل الكاثوليك والبروتستانت الطائفتين الرئيسيتين في سويسرا. نسبة البروتستانت نحو ٥١٪ من مجموع السكان، ونسبة الكاثوليك ٤٦،٥٪. وفي سويسرا نحو ١٩ ألف يهودي،

منهم نحو ١٣ ألف يهودي سويسري؛ ونحو نصف مليون نسمة من طوائف أخرى، منهم نحو ٣٠٠ ألف سويسري (يحملون الجنسية السويسرية).

نجد في العديد من الكانتونات السويسرية تجانسًا دينيًا. فالكاثوليك يشكلون أكثر من ٩٠٪ في سبعة كانتونات، هي: فالي، تيسين، أوري، أونتروالدن-أوبوالدن، نيدوالدن، زوريخ إينزّهودن؛ كما يشكلون على الأقل ٨٥٪ من سكان كانتونين، هما لوسرن وفريبورغ، و٥١٪ على الأقل من كانتونين آخرين، هما غراوبندن وسان غالن. فالمنطقة الشرقية من سويسرا هي كاثوليكية بأكثرها وخاصة في الجزء الجنوبي منها. أما البروتستانت فأعلى نسبة لهم في كانتون برن، وتتراوح نسبهم بين ٧١٪ و٣٩٪ في عدة كانتونات، هي: فود، شافهاوسن، نويشاتل، سولوثرن. أما القسم الغربي من سويسرا فهو في معظمه من البروتستانت.

أما بالنسبة إلى اللغات فهناك اربع لغات مستعملة في سويسرا: الالمانية، الفرنسية، الايطالية، ولغة «الرومنش» (وهي لغة قديمة جدًا).

وتقسم المجموعات اللغوية في سويسرا كالتالي: ٢٠،٢٪ ناطقون بالفرنسية، ٧٤،٤٪ ناطقون بالالمانية، ٤،٠١٪ ناطقون بالايطالية (يشكلون الأكثرية الساحقة في كانتون تيتشينوTicino)، و١٪ ناطقون بلغة الرومنش.

في المنطقة الفرنسية (الفرنكوفونية) التي تدعى روماندي ٨٥،٨٪ هم فرنسيون، و١٢،٦٪ هم من الناطقين بالالمانية، و١٠،٢٪ من الناطقين بالايطالية. أما الأكثرية في كانتون تيتشينو ٨٨،٢٪ فهم من الناطقين بالايطالية، و١،٦ من الناطقين بالفرنسية، و٨،٩٪ من الناطقين بالالمانية. وفي منطقة كانتون غراندنون ٥٩،٩٪ هم من الناطقين بالالمانية، و١٠،٣٪ بالايطالية، و٢٩،٢٪ بلغة الرومنش.

هاجر كثير من السويسريين لسنوات عديدة بحثًا عن مجالات جديدة في الخارج، ولم تكن الزراعة تكفي إلا جزءًا من السكان. وكان هذا أحد الاسباب التي جعلت كثيرًا من الرجال يعملون في الجيوش كمرتزقة. فخدم في ما بين القرن الخامس عشر والعام ١٨١٥ ما لا يقل عن مليوني سويسري في الجيوش الاجنبية، إضافة إلى موجات من الهجرات المدنية نقلت اعدادًا كبيرة من الشعب السويسري إلى بلدان أخرى لفترات طالت أو قصرت. وفي ١٩٨٠، كان هناك ٣٥٥ ألف مواطن سويسري يعيشون خارج سويسرا، ولحوالي نصف هؤلاء جنسية أخرى بجانب جنسيتهم السويسرية. يعني ذلك ان نحو ٦٪ من جميع السويسريين يعيشون حاليًا خارج سويسرا. وبالمقابل، يعيش حوالي ٩٨٠ ألف أجنبي (حوالي ١٥٪ من مجموع السكان) في سويسرا.

الحكم: الدستور المعمول به يعود إلى العام الذي ظهرت فيه سويسرا الحديثة الديمقراطية الفدرالية، أي ١٨٤٨ (أعيد النظر فيه وجرى تعديل عليه في ١٨٧٤). وينص الدستور على وجوب وجود ١٠٠ ألف صوت ناخب لطلب تعديله جزئيًا أو كليًا. عيد سويسرا الوطني في أول آب، ذكرى قسم «غروتلي» (راجع «النبذة التاريخية»).

السلطةالتشريعية في يد الجمعية الفدرالية المكونة من مجلس الكانتونات (٤٦ مقعدًا، مقعدان لكل كانتون، ومقعد واحد لكل نصف كانتون)، ومن المجلس الوطني (٢٠٠ نائب منتخبين لولاية أربعة أعوام). أكبر الكانتونات: زوريخ وله ٣٥ مقعدًا، برن ٢٩ مقعدًا. وأصغرها: أوري،

خريطة تبين جذور الكونفدرالية السويسرية بين ١٢٩١ و١٣٨٨ (السيكلوبيديا اونيفرساليس، ج ١٥، ص ٥١٧).

نيدوالـد، أوبوالـد، غلاريـس وأبـنزل رودس الداخلية، ولكل منها مقعد واحد.

السلطة التنفيذية في يد مجلس من سبعة أعضاء تنتخبهم الجمعية الفدرالية (بمجلسيها) لمدة أربعة أعوام. وهذا المجلس التنفيذي ينتخب رئيس الكونفدرالية ونائبه لولاية من عام واحد. وهناك مقعدان أو ثلاثة مقاعد (من المقاعد السبعة) محفوظة لممثلي الاقليات المتكلمة بالفرنسية والايطالية. أعضاء المجلس متساوون في الحقوق، ولا يتدخل الرئيس إلا بصفته «الاول بين متساوين»، إضافة إلى بعض الاحكام المعطاة له لتمثيل البلاد. وأعضاء المجلس الحكومي من خارج الجمعية الفدرالية، ولهم حق الحضور فيها والمناقشات والمداخلات، لكن دون أي سلطة تقريرية.

توالى على الرئاسة منذ ١٩٧٠: هانس بيتر تشودي (مولود ١٩١٣)، رودولف غنايجي (١٩١٧-١٩٨٥)، ينلّو سيليو (١٩١٤)، روجيه بونفن (١٩٠٧-١٩٨٢)، أرنست بروغر (١٩١٤)، بيار غرابر (١٩٠٨)، رودولف غنايجي (مرة ثانية، وذلك في العام ١٩٧٦)، كورت فورغلر (١٩٢٤)، ويلي ريتشارد (١٩١٨)، هانس هورليمان (١٩١٨)، جورج-أندره شيفالاز (١٩١٥)، كورت فورغلر (مرة ثانية، في العام ١٩٨١)، فريتز هونيغر (١٩١٧)، بيار أوبير (١٩٢٧)، ليون شلومبف (١٩٢٥)، كورت فوغلر (مرة ثالثة، في العام ١٩٨٥)، ألفونس إيغلي (١٩٢٤)، بيار أوبير (مرة ثانية، في العام ١٩٨٧)، أوتو ستيش (١٩٢٧)، جان باسكال ديلاموراز (١٩٣٦)، أرنولد مولر (١٩٣٣)، فلافيو كوتي (١٩٣٩)، رينيه فلبير (١٩٣٣)، أدولف أوجي (١٩٤٢).

لم تُعطَ المرأة حق الاقتراع إلا بدءًا من ١٩٧١ (راجع «معالم تاريخية»).

وفي سويسرا أحزاب كثيرة تمثل مختلف العقائد والتيارات السياسية المعروفة في اوروبا (راجع «معالم تاريخية»).

الكانتونات: تقسم سويسرا، سياسيًا-إداريًا، إلى ٢٠ كانتونًا و٦ أنصاف كانتون، ينص الدستور على انها مستقلة. فهي تضمن الأمن الداخلي والخارجي، وتحمي دساتيرها الكانتونية، وتقيم علاقات دبلوماسية مع الدول الاجنبية، وتقوم بمهمات: الجمارك، البريد، الهاتف والتلغراف، والنقد، وتسلح جيوشها، وتضع قوانين العقوبات والمدني والجزائي، وتشرف على التجارة والسكك الحديدية، وتنظم الاقتصاد المتعلق بالثروة الغابية والصيد واستعمال الطاقات الهيدروليكية، وتتخذ الاجراءات التي تؤول إلى الإنماء الاقتصادي للبلاد (حماية الزراعة مثلاً) وإلى الرفاهية العامة (ضمانات إجتماعية).

وهناك كانتونات تستند ديمقراطيتها بصورة أساسية على «جمعية شعبية سنوية» تسمّى «لاندسغمايند» Landsgemeinde، منها من بدأ هذا التقليد منذ ١٣٠٩. والكانتونات الأخرى تستند على «المجلس الأكبر Kantonsrat»، الذي يجري انتخاب اعضائه كل أربع سنوات، ويمارس صلاحيات السلطة التشريعية في الكانتون، ويعين مسؤولي بعض الوظائف والمهمات ويراقب اعمال الحكومة؛ وإلى جانب هذا المجلس هناك «مجلس الدولة»، وهو أقرب إلى «لجنة تنفيذية» من ٥-٩ أعضاء، ومهمتها تحضير أغلبية مشاريع القوانين.

وفي الاتحاد السويسري ٣٠٢٢ كومونة (بلدية)، أكبرها مساحة كومونة بانيو Bagnes (٢٨٢،٣كلم م.) وأصغرها كومونة ريفاس Rivaz (٠،٣٢كلم م.) الواقعة في كانتون فود. أما أصغرها في عدد السكان فهي كومونة فوموان-لو-جو (٢٠ نسمة) الواقعة ايضًا في كانتون فود.

وفي ما يلي أسماء كانتونات الكونفدرالية السويسرية، مع ذكر تاريخ دخولها إلى الاتحاد، والمساحة، وعدد السكان، واللغة والعاصمة:

- أبنزل Appenzel (مناطق رود الخارجية): دخل الكونفدرالية في ١٥١٣؛ مساحته ٢٤٣،٢كلم م.؛ نحو ٥٤ ألف نسمة؛ لغته الالمانية؛ عاصمته هريسو.
- أبنزل (مناطق رود الداخلية): انضم في ١٥١٣؛ ١٧٢،١كلم م؛ نحو ١٥ ألف نسمة؛ الالمانية؛ أبنزل.
- أرغوفيا Argovie: انضم في ١٨٠٣؛ ١٤٠٤،٦كلم م.؛ نحو ٥٥٠ ألف نسمة؛ الالمانية؛ آرو.
- بال المدينة: انضم في ١٥٠١؛ ٣٧،٢كلم م.؛ نحو ٢١٠ آلاف نسمة؛ الالمانية؛ بال.
- بال الريف: انضم في ١٥٠١؛ ٤٢٨،١كلم م.؛ نحو ألف نسمة؛ الالمانية؛ ليستال.
- برن: انضم في ١٣٥٣؛ ٦٠٤٩،٤كلم م.؛ نحو ١،١ مليون نسمة؛ الالمانية والفرنسية؛ برن.
- فريبورغ: انضم في ١٤٨١؛ ١٦٧٠كلم م.؛ نحو ٢٣٥ ألف نسمة؛ الالمانية والفرنسية؛ فريبورغ.
- جنيف: انضم في ١٨١٥؛ ٢٨٢،٢كلم م.؛ نحو ٤٥٠ ألف نسمة؛ الفرنسية؛ جنيف.
- غلاريس Glaris: انضم في ١٣٥٢؛ ٦٨٤،٦كلم م.؛ نحو ٤٢ ألف نسمة؛ الالمانية؛ غلاريس.
- غريزون (غراوبندن Grisons (Graubunden: انضم في ١٨٠٣؛ ٧١٠٥،٩كلم م.؛ نحو ١٨٤ ألف نسمة؛ الايطالية؛ كوار.
- جورا Jura: انضم في ١٩٧٩؛ ٨٣٧،٥كلم م.؛ نحو ٧٠ ألف نسمة؛ الفرنسية؛ ديليمون.
- نويشاتل Neuchatel: انضم في ١٨١٥؛

٧٩٦،٦كلم م.؛ نحو ١٦٦ ألف نسمة؛ الفرنسية؛ نويشاتل.
-سان غال: انضم في ١٨٠٣؛ ٢٠١٤،٣كلم م.؛ نحو ٤٤٠ ألف نسمة؛ الالمانية؛ سان غال.
- شافهاوس Schaffhouse: انضم في ١٥٠١؛ ٢٩٨،٣كلم م.؛ نحو ٧٥ ألف نسمة؛ الالمانية، شافهاوس.
- شويز Schwyz: انضم في ١٢٩١؛ ٩٠٨،٢كلم م.؛ نحو ١١٧ ألف نسمة؛ الالمانية؛ شويز.
- سولور Soleure: انضم في ١٤٨١؛ ٧٩٠،٦كلم م.؛ نحو ٢٣٨ ألف نسمة؛ الالمانية؛ سولور.
- تيسّن (تيتشينو Tessin (Ticino: انضم في ١٨٠٣؛ ٢٨١٠،٨كلم م.؛ نحو ٤٠٠ ألف نسمة؛ الايطالية، بلّينزونا.
- تورغوفيا Thurgovie: انضم في ١٨٠٣؛ ١٠١٩كلم م.؛ نحو ٢٢٠ ألف نسمة؛ الالمانية؛ فراويفيلد.
- أونتروالد نيدوالد: انضم في ١٢٩١؛ ٢٧٥،٨كلم م.؛ نحو ٣٥ ألف نسمة؛ الالمانية؛ ستانس.
- أونتروالد أوبوالد: انضم في ١٢٩١؛ ٤٩٠،٧كلم م.؛ نحو ٣٢ ألف نسمة؛ الالمانية؛ سارنن.
- أوري Uri: انضم في ١٢٩١؛ ١٠٧٦،٥كلم م.؛ نحو ٣٦ ألف نسمة؛ الالمانية؛ ألتدورف.
- فالي (Wallis): انضم في ١٨١٥؛ ٥٢٢٥،٨كلم م.؛ نحو ٢٧٠ ألف نسمة؛ الفرنسية والالمانية؛ سيون.
- فود Vaud: انضم في ١٨٠٣؛ ٣٢١٩كلم م.؛ نحو ٦١٥ ألف نسمة؛ الفرنسية؛ لوزان.
- زوغ Zoug: انضم في ١٣٥٢؛ ٢٣٨،٦كلم م.؛ نحو ٩٠ ألف نسمة؛ الالمانية؛ زوغ.
- زوريخ Zurich: انضم في ١٣٥١؛ ١٧٢٨،٦كلم م.؛ نحو ١،٢٥٠ مليون نسمة؛ الالمانية؛ زوريخ.
أخيرًا، هناك ثلاثة كانتونات قسمت إلى أنصاف كانتونات: أونتروالد (قسّم منذ انضمامه إلى الاتحاد)، وأبنزل (منذ ١٥٩٧، عقب الاصلاح البروتستانتي)، وبال (منذ ١٨٣٣، عقب حرب أهلية).
الاقتصاد: يعمل نحو ٥،٥٪ من اليد العاملة في الزراعة، ونحو ٣٥٪ في الصناعة (البناء، الآلات، المعادن، الصناعات الغذائية، الكحول، التبغ، الكيمياء، الاقمشة والألبسة، الساعات حيث يعمل في هذا القطاع ٣٪ من مجموع العاملين في القطاع الصناعي، وصناعات أخرى متنوعة)، ونحو ٦٠٪ في الخدمات والتجارة.
نسبة الاراضي الصالحة للزراعة تشكل ٣٩١ ألف هكتار من مجموع مساحة البلاد. الاراضي المزروعة ٢٠ ألف هكتار، المراعي مليون و٦٠٩ آلاف هكتار، الغابات مليون و٥٢ ألف هكتار، المياه (البحيرات والمجاري) ١٥٢ ألف هكتار. وأهم المنتوجات الزراعية البطاطا، قصب السكر، القمح، الشعير، الفاكهة (التفاح، الكرز، الكرمة).
لسدّ حاجاتها من الطاقة، تستورد سويسرا الفحم من المانيا. وهناك مجمعات نووية في بيزنو، موهلبورغ، غوسغن ولايبشتادت. وتستورد النفط والغاز الطبيعي.
الصناعة مزدهرة في سويسرا. فهي تصدر ٣٣٪ من مجموع انتاجها الصناعي: آلات، تجهيزات كهربائية والكترونية، أدوات دقيقة. ومدينة زوريخ أهم مركز صناعي في سويسرا.
تحتل سويسرا المرتبة الاولى في العالم من حيث معدل الدخل الفردي، والثالثة من حيث النشاط المصرفي، وتنفرد بـ«السرية المصرفية». وتحتل

السياحة الأهمية الثانية في الاقتصاد السويسري بعد النشاط المصرفي (نحو ٩ ملايين سائح كمعدل وسطي للسنوات الأخيرة).

يقوم الاقتصاد السويسري أساسًا على مبادىء السوق الرأسمالية الحرة. كما ان التنظيمات الاقتصادية للدولة لا تتمتع بالسيادة بالنسبة إلى الاقتصاد الخاص. وتعتبر سويسرا إحدى الدول المصنّعة تصنيعًا عاليًا في اوروبا.

بين ١٧٩٨ و١٨٣٠ عرفت سويسرا «ثورتها الصناعية»، وكانت صناعات معينة مثل صناعة الساعات والمنتجات الحريرية قائمة منذ وقت سابق، كما ان التجارة الدولية كانت قائمة لبضعة قرون سابقة مما ساعد على تمهيد الطريق للتصنيع السريع. على ذلك فإن الثورة الصناعية في سويسرا كانت إلى حد بعيد عبارة عن مكننة الصناعات الموجودة. فحوالي ثلثي سكان الريف في سويسرا، قبل نهاية القرن الثامن عشر، لم يعودوا يتعيشون من الزراعة وإنما من الحرف والأشكال المهنية التي سبقت الثورة الصناعية، وأخصها صناعة الساعات التي بدأت في القرن السابع عشر في جنيف ثم انتشرت في الوديان العالية في الجورا؛ وصناعة النسيج التي كانت قائمة في شرقي سويسرا (في مقاطعات زوريخ وسان غالن) ثم انتشرت في ما بعد في مناطق أخرى مثل فريبورغ.

وسويسرا، إلى جانب التجارة الدولية، مركز مالي دولي. وبفضل سرية البنوك والعملة السويسرية القوية والاستقرار الداخلي تتمتع البنوك السويسرية بسمعة عالمية تفوق حجم هذا البلد. ويصدق هذا بوجه خاص على الفروع التالية من المالية: إدارة السندات المالية، والاصدارات الجديدة (ويقدر ان البنوك السويسرية تتعامل في ٢٠٪ من كل القروض العالمية و٦٠٪ من القروض الاوروبية)، وتجارة الذهب (تعتبر زوريخ أحد الاسواق الرئيسية لكلا المورّدين الرئيسيين للذهب في العالم وهما جنوب افريقيا وروسيا)، والتجارة في العملة الاجنبية والسندات المالية (تأتي بورصة زوريخ بعد بورصتي نيويورك ولندن)، والصفقات الإئتمانية قصيرة الاجل بين البنوك. ويمكن ايضًا ان نرى التوسع الدولي القوي والمتزايد للبنوك السويسرية من واقع ان رأس المال الأجنبي الذي تديره البنوك السويسرية الرئيسية المتعاملة في ما يقرب من ٧٥٪ من مجموع التعاملات الاجنبية تمثل الآن (متوسط السنوات الأخيرة) ما لا يقل عن ٥٠٪ من بيان ميزانيتها. وتأتي ايضًا شركات التأمين بمبالغ كبيرة من المال الاجنبي إلى داخل سويسرا.

نبذة تاريخية

الجذور: سكن الانسان أرض سويسرا منذ أواخر العصر الحجري القديم (٥٠ الف-٨ آلاف ق.م.). فهناك آثار تدل على ذلك في المغاور الصخرية الواقعة في المناطق غير الجليدية في الجورا والألب. ومع ذوبان الجليد، على مرّ الزمن، أخذ الصيادون يقصدون الاودية ويصعدون الجبال الواقعة في اواسط البلاد (٨٠٠٠-٣٠٠٠ق.م.). ومع الحضارات الزراعية في العصر النيوليتي (٣٠٠٠-١٨٠٠ق.م.)، بدأ المزارعون ومربّو الماشية يؤسسون القرى. وفي العصر البرونزي (١٨٠٠-٧٥٠ق.م.)، الذي صادف اعتدالاً في المناخ، انتشرت أكواخ سكنية كانت تقام على أوتاد خشبية في المستنقعات والبحيرات، كما انتشر السكن في جبال الألب، وبدأت مبادلات تجارية مع مناطق بعيدة. وفي القرن الثاني عشر ق.م.- الثالث عشر ق.م. ظهرت العربات التي تجرها الأحصنة. أما لقى قبور الامراء المكتشفة فتدل على ثمة علاقات وتأثير لحضارات البحر المتوسط. ومنذ القرن الخامس ق.م. بدأت قبائل من السلطيين (Celtes) تقيم في المنطقة؛ كما كان الهلفيون والروراكيون في الجورا يؤسسون قراهم ومدنهم المحصنة، وعرفوا في هذا الوقت الكتابة وسك النقود، في حين زاول الريتسيون (سكان مناطق الألب الشرقية) الرعي.

دخلت سويسرا العصر الروماني (الذي ترك بصمات قوية في تاريخها وحضارتها) في القرن الاول قبل الميلاد، عندما غزا يوليوس قيصر اراضيها (في ٥٨ق.م.) وأوقف هجرة الهلفيين وامتدادهم إلى الجنوب. وهناك اليوم كتابات أثرية محفورة على لوحة في متحف جنيف تمجّد انتصارات القيصر على الهلفيين والريتسيين الذين كانوا يقطنون الاراضي الممتدة بين الألب والراين والجورا. وقد دامت السيطرة الرومانية على الاراضي التي تشكل اليوم الكونفدرالية الهلفية، أو الهلفيتية (C. Hélvétique) نحو اربعة قرون؛ وأنشأ الرومان على طول نهر الراين، أي على طول حدود امبراطوريتهم الشمالية، قلاعًا عديدة، استطاع الأليمون (Alémanes)، وقبائل جرمانية أخرى، من احتيازها واستعمالها عند نهاية القرن الخامس. ثم جاء البورغنديون من ناحية الغرب وسيطروا على المناطق المحيطة ببحيرة ليمان، وتبنوا اللغة الرومانية، في حين فرض الأليمون لغتهم الجرمانية على أغلب البلاد. وقد كان هذا التقسيم في اساس ما سمّي في ما بعد بسويسرا الرومانية وسويسرا الألمية في مرحلة أولى، ثم بسويسرا الفرنكوفونية وسويسرا الجرمانوفية.

في بداية القرن السادس، غزا الفرنكيون (Francs) بدورهم البلاد، واخضعوها لسلطانهم بعد انتصارهم على الأليين والبورغنديين والريتسيين. وقد بدأت المسيحية بالانتشار هناك في عهد الملك كلوفيس، واستمرت بعده تنمو تدريجيًا. وفي ٨٤٣، أي بعد ثلاثة قرون من تحقيق وحدة الفرنكيين، اقتسمت مملكتهم بين احفاد شارلمان. وفي ١٠٣٢، الحقت سويسرا بالامبراطورية الجرمانية المقدسة. ولكن ضعف السلطة الامبراطورية المركزية أثار نزاعات بين الاقطاعيين الهلفيين، في الارياف على وجه الخصوص.

ولادة الكونفدرالية: يرتبط الاستقلال الذي حققته الكانتونات الاولى بالانقلاب العميق الذي عرفته الاوضاع الاوروبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. ففي أعقاب الحملات الصليبية انتعش اقتصاد القارة بانتعاش التجارة ونمت المدن الكبرى، وأخذ الاباطرة الجرمان يسعون إلى الهيمنة على مناطق متوسطية (هي اليوم ايطالية) ويكثفون من المبادلات التجارية مع العالم المتوسطي.

وسويسرا واقعة في طريقهم إلى هناك، وخاصة منطقة كانتون أوري Uri والأودية التي تؤدي إلى البحيرات الاربع والتي بدأت، مع هذه المطامح الجرمانية (الالمانية)، تأخذ أهمية جغراسية (جيوبوليتيكية) متزايدة. وكانت تعيش في مناطق أوري، وشويز Schwyz، وأونتروالد في محيط سارنن (اليوم كانتون أوبوالد) وستانس (اليوم كانتون نيدوالد)، مجموعات رعوية في الغابات معتادة على المبادرات الجماعية في إدارة شؤون حياتها المعيشية.

وفي اوائل القرن الثالث عشر، أصبحت هذه المجموعات التي كانت معروفة باسم «والدشتاتن» Waldstatten تتعرض لضغوطات من أشراف-كونت (comtes) آل هابسبورغ وتخشى على حريتها. فسعت إلى طلب دعم الامبراطور مباشرة وحمايته. فمنح هذا، في ١٢٣١، مقاطعة أوري، وفي ١٢٤٠، مقاطعة شويز، ميثاقًا يجعلهما تحت حكمه المباشر.

لكن رودولف دو هابسبورغ، الذي كان سيّد مقاطعة لوسرن الواقعة عند منفذ غوتارد والمحيطة بمقاطعات المجموعات الرعوية (أوري وشويز)، انتخب امبراطورًا في ١٢٧٣، فبادر لتوه إلى تعيين مأمورين له حكامًا ظالمين على هذه المقاطعات.

وفي تموز ١٢٩١، مات رودولف الاول. فنهض سكان أوري وشويز ونيدوالد يستجمعون صفوفهم، ووقعوا شرعة تحالف في أول آب ١٢٩١، هي الوثيقة التي اعتبرها السويسريون في ما بعد بمثابة «شرعة ولادة الكونفدرالية السويسرية» (أو الهلفيتية، وتترجم إلى العربية احيانًا بـ الهلفية). وجاء الهجوم الذي شنه سكان شويز ضد اراضي دير «أينسيدلن» ذريعة لآل هابسبورغ في النمسا لينفذوا حملة قمعية ضد الأهالي؛ لكن هؤلاء الأهالي الجبليين تمكنوا منهم في معركة مورغارتن Morgarten في ١٥ تشرين الثاني ١٣١٥، وأجبروا آل هابسبورغ على توقيع معاهدة سلام معهم في ١٣١٨.

وقد أثارت جذور هذه الكونفدرالية خيال السويسريين. فحاكوا حولها أساطير عن روادها الأوائل، خاصة منهم «غيوم تل» الذي شارك في «قسم غروتلي» (راجع باب «معالم تاريخية»).

وأعاد السكان (والدشتاتن)، سكان المقاطعات الثلاث، تمتين حلفهم والتأكيد عليه مجددًا في ميثاق برونن ١٣١٥. فبرز سكان مقاطعة شويز على رأس المقاتلين ضد آل هابسبورغ. فاستحقت في ما بعد، ان تخلع إسمها على كامل الكونفدرالية السويسرية. وخلال ٦٢ سنة، أي عند انتهاء العام ١٣٨٨، انضم إلى الكونفدرالية ثمانية كانتونات أخرى، بدءًا بكانتون لوسرن، ثم زوريخ، ثم برن... (راجع «بطاقة تعريف»).

توسع الكونفدرالية في القرن الخامس عشر: الكانتونات الثمانية شكلت نظامًا لم يكن من القوة بحيث يتمكن من صد النمساويين الذين عادوا إلى شن حملات في سمباش Sempach (٩ تموز ١٣٨٦) ونايفل Naefels (٩ نيسان ١٣٨٨).

وغداة الحملة في نايفل، وقع حادث مصيري: مدن ألمانيا الجنوبية التي كانت حليفة للسويسريين منيت بهزيمة كبرى على يد أمراء الامبراطورية (آل هابسبورغ) الذين قضوا على كل رابطة تحالفية في ما بينها، في حين تمكنت الكانتونات السويسرية من الصمود في وجههم. ومن هذا التاريخ، بدأ مصير هذه الكانتونات يتحقق بصورة نهائية ومستقلة عن مصير الامبراطورية. ومذذاك، وصاعدًا، بقيت سويسرا تمثل خصوصية فريدة في اوروبا، خصوصية نظام كوموني (بلدي) في حين ان جميع مناطق اوروبا عرفت الدولة الاقليمية الموحّدة.

الكانتونات الكونفدرالية الثمانية الاولى

عقدت علاقات تحالفية مع جيرانها، بدءًا بالمجموعات التي كانت تسكن مناطق أبنزل، وكذلك إقطاعيات منطقة فالي العشر، وروابط منطقة غريزون الثلاث، ورعايا جنيف وسيون وسان غال، وكونتيات نويشاتل وتوغنبورغ، ومدن مستقلة مثل بال وسولور وشافهاوس وروتويل وموهاوس (وجميعها أصبحت في ما بعد كانتونات أو داخلة في كانتونات).

لم تتوسع الكونفدرالية السويسرية بهذه الطريقة التحالفية فقط، بل كان هناك توسع عسكري ايضًا. فبين ١٤٠٣ و١٤١٦، احتل كانتون أوري منطقة لفنتين (الوادي الأعلى من تسّان) وماغيا وفرسازكا ليتسنى له الاشراف على كامل منطقة غوتارد. وفي ١٤١٥، اجتمعت الكانتونات وحققت هجومًا ناجحًا على أرغوفيا النمساوية وضمتها إليها؛ وفعلت الشيء نفسه بمنطقة تورغوفيا في ١٤٦٠. فأصبحت الكونفدرالية ذات قوة عسكرية مرهوبة الجانب، وأصبح لديها نحو مائة ألف رجل مسلح وفرقة مدفعية حديثة في حينه، وجميعهم بأمرة الديت الفدرالي. وجاءت الكثافة السكانية في الكانتونات لتدفعها إلى ان توقع اتفاقات مع دول أجنبية تؤمن لها بموجبها مرتزقة للقتال في الحروب (وقد قاتل، في تلك الفترة، نحو ٨٠ ألف من أبناء الكانتونات في حروب أجنبية).

في ١٤٣٦، دخل كانتون شويز في نزاع مع زوريخ حول ملكية كونتية توغنبورغ التي كانت بمثابة مفتاح طرق المواصلات باتجاه النمسا. وتحالفت زوريخ مع النمسا، لكن الكانتونات السبعة انتصرت عليها في معركة سان جاك في تموز ١٤٤٣. حصل الامبراطور النمساوي على مساعدة فرنسا التي تمكنت من إنزال الهزيمة بالكونفدراليين في السنة التالية (١٤٤٤). لكن فرنسا عادت وأوقفت حملتها العسكرية ووقعت الصلح معهم؛ ثم عادت زوريخ، بعد نحو عشر سنوات، وأخذت مكانها داخل التحالف الكونفدرالي.

كانت فرنسا، في عهد الملك لويس الحادي عشر، مثلها مثل كانتونات الكونفدرالية السويسرية، قلقة من مطامح شارل المتهور، دوق البورغوند. فأقنع الملك السويسريين بتوقيع معاهدة سلام مع النمسا (١٤٧٤) وبالهجوم على الدوق شارل المتهور ومساعدة حلفائهم في مدينة بال وموهاوس. وسرعان ما اتسع نطاق هذا النزاع، فأصبح يضم سويسرا وفرنسا ومدن الألزاس من جهة، والبورغوند والسافوي ودوق ميلانو من جهة أخرى. وفي ١٤٧٤، تم تحرير الألزاس العليا؛ وفي ١٤٧٥، تمكن البرنيون (سكان كانتون برن) من غزو بلاد الفود VAUD السافوية. وفي حين كان الملك لويس الحادي عشر والامبراطور النمساوي يوقعان معاهدة سلام منفصلة، هاجم شارل المتهور سويسرا وقد أصبحت معزولة. لكن الكونفدراليين السويسريين عادوا وحققوا إنتصارًا في معركة غراندسون (٢ آذار ١٤٧٦) وفي معركة مورات Morat (٢٨ حزيران ١٤٧٦)، ووضعوا حدًا بذلك لكل أحلام البورغوند في الهيمنة على شؤونهم. واحتفظت برن، ومعها فريبورغ، بأراضي الفود والفالي. ودخلت فريبورغ وسولور في الكونفدرالية.

إنتفاضة الكونفدرالية: استمرت سويسرا تحت إسم «رابطة مناطق المانيا العليا»، وإسميًا، جزءًا من الامبراطورية. وفي اواخر القرن الخامس عشر اراد الامبراطور مكسيميليان الاول إعادة الامساك بالكونفدرالية السويسرية والهيمنة عليها فعليًا ايضًا بمساعدة تقدمها له دول جنوبي ألمانيا. وكانت الحرب قد عرفت باسم «حرب السواب» Souabe، والتي انتهت بهزيمة الامبراطور هذه المرة ايضًا في عدة معارك في ١٤٩٩. فوقع الامبراطور «صلح بال» الذي اعترف فيه باستقلال سويسرا.

ودخلت بال وشافهاوس في الكونفدرالية في ١٥٠١، ثم أبنزل في ١٥١٣، وأصبحت الكونفدرالية مكونة من ١٣ كانتونًا تمتد حدودها إلى شمالي الراين.

وساهمت سويسرا، بواسطة مرتزقتها، مساهمة فعالة في حروب ايطاليا وضمت إليها ممتلكات جديدة في منطقة تسان Tessin. وفي ١٥١٠، نجح الكاردينال ماتيو شينر في إقناع الكانتونات بالانضمام إلى الرابطة التي شكلها البابا جول الثاني ضد فرنسا. واجتاحت جيوش الكونفدرالية مناطق جديدة تابعة لميلانو جنوبي جبال الألب. وفي ١٥١٣، وصل السويسريون إلى أوج قوتهم العسكرية وأنزلوا هزيمة بالفرنسيين في معركة نوفار وحاصروا مدينة ديجون. لكن في ١٣ و١٤ ايلول ١٥١٥ تمكن الملك الفرنسي فرنسوا الاول من سحقهم في معركة مارينيان Marignan. وقد سجلت هذه الهزيمة نقطة فاصلة في التاريخ السويسري.إذ توقفت الكونفدرالية، بعدها، من التدخل في الشؤون الاوروبية. وفي ١٥١٦، وقعت مع فرنسا معاهدة صلح دائمة أمّنت لها جزءًا من تسان Tessin. وبعدها اكتفى السويسريون–من الشأن العسكري الخارجي–فقط بارسال مرتزقة من أبنائها إلى خارج الحدود.

منذ ١٥١٩، قام مصلح في زوريخ، هو أولريش زفنغلي بالدعوة للمذهب البروتستانتي اللوثري. وتمكن دعاة هذا المذهب من كسب مدينة برن (١٥٢٨)، وبال وشافهاوس (١٥٢٩). أما غلاريس وأبنزل وسولور فانقسمت بين الطائفتين: البروتستانتية والكاثوليكية؛ في حين ان الكانتونات الثلاثة الاولى، إضافة إلى لوسرن وزوغ، فقد بقيت على المذهب الكاثوليكي. لكن الجدال حول هذا المذهب أو ذاك أدّى إلى حرب أهلية. وبعد معركة كابل (١٥٢٩) اتفق الطرفان على هدنة ما لبثت ان سقطت في ١٥٣١ عندما اندلعت معركة كابل الثانية التي جاءت لمصلحة الكاثوليك. فأصبحت سويسرا تتألف من سبعة كانتونات كاثوليكية (أوري، شويز، أونتروالد، لوسرن، زوغ، سولور وفريبورغ) واربعة برتستانتية (زوريخ، برن، بال وشافهاوس). لكن، بعد سنوات قليلة، توسعت البروتستانتية إلى جنيف ونويشال وفود. وكان كالفن يقيم سلطة تيوقراطية في جنيف من ١٥٣٦ (تاريخ وصوله إلى جنيف) حتى موته في ١٥٦٥. وقد تمكن «الاصلاح المضاد» (الكاثوليكي) من إيقاف المد البروتستانتي. وفي ١٥٦٤، اضطرت برن إلى التخلي عن شمالي جنيف لدوق السافوي. وفي ١١ و١٢ كانون الاول ١٦٠٢ فشلت حملة السافويين ضد جنيف الذين كانوا يودون استرداد «روما البروتستانتية» (أي جنيف) التي كانت تستقبل أفواج الهوغونوت (البروتستانت) اللاجئين.

تجنبت سويسرا الانزلاق في حرب الثلاثين عامًا التي كانت تجتاح المانيا. لكن هذه الحرب شكلت تهديدًا للأوضاع السويسرية، فاندفع المسوولون يعملون على تقوية وضعهم العسكري وإنشاء جيش فدرالي قادر على فرض احترام الأمن الوطني. فجاءت «صيغة ويل الدفاعية» (١٦٤٧) أول صيغة لحياد الكونفدرالية المحمي بواسطة قوات مسلحة وطنية. وفي معاهدة وستفاليا (١٦٤٨) التي أنهت حرب الثلاثين عامًا، حصل المندوب السويسري، ج.ر. وتشتاين على الاعتراف باستقلال الكانتونات.

كان الممثلون البروتستانت أقلية في مجلس الديت. فأثار هذا الوضع الكانتونات البروتستانتية التي فشلت في تحقيق مكاسب عقب حرب أهلية في ١٦٥٦. وفي ١٧١٢، تجددت الحرب، وحصل البروتستانت، في نتيجتها، على حرية المعتقد الديني للكومونات ومحاكمها.

سويسرا الارستقراطية: شكل القرن الثامن عشر فترة سلام خارجي ونمو اقتصادي،

فالصناعة النسيجية في المناطق الشمالية–الشرقية من سويسرا جعلت منها إحدى أولى الدول الاوروبية في اوائل عصر التصنيع. وزاد من المداخيل والازدهار المردود الذي كانت تؤمنه «الخدمة الاجنبية» (المرتزقة) وفوائد البنوك. وجاء تدفق اللاجئين الهوغونوت الفرنسيين، نتيجة إبطال براءة نانت، ليزيد من ظروف النهضة الاقتصادية في البلاد. وترافق هذا الأمر مع الصورة المثالية التي كان يرسمها للبلاد دعاة «الهلفيتية» والحقوق الطبيعية.

في المقابل، كانت ظروف الفلاحين بالغة القساوة. فاندلع عدد من العاميات غداة حرب الثلاثين سنة (١٦٥٣). والكونفدرالية، التي كانت بمثابة تجمع من جمهوريات مستقلة، كانت تحكمها أوليغارشية سلطوية، في ما عدا بعض الكانتونات الاولية حيث نظام الحكم ديمقراطي مباشر. عدد قليل من النبلاء كانوا يمسكون بالسلطة المطلقة، ولا يتركون إلا بعض الحقوق السياسية للبورجوازيين، ويحرمون «السكان» (المتحدرين من المهاجرين) ومواطني الارياف من الحياة المدنية.

في ١٧٢٣، حاول الميجر دافل Davel بث روح الانتفاضة والمقاومة في فود ضد برن. وفي ١٧٢٦، اندلعت اضطرابات دموية ضد الأمير الاسقف لمدينة بال. أما جنيف، حليفة الكونفدرالية (كانت لا تزال خارجها) فكانت بؤرة الافكار البورجوازية التغييرية والمطالبة بمشاركة البورجوازيين في السلطة، ما أدّى إلى تدخلات قمعية من برن وزوريخ والدول الاجنبية في ١٧٠٧ و١٧٦٢–١٧٦٨. وامتدت الحركة المطلبية، والاضطرابات، إلى الطبقة الأدنى في الارياف التي لم يصلها أي حق من الحقوق السياسية. فتمكنت من إنتزاع بعض المكاسب في ١٧٨١، وأعلنت الثورة في ١٧٨٢. لكن الدعم المسلح من فرنسا والسافوي وبرن انقذ الحكومة الأوليغارشية.

الهيمنة الفرنسية: أحدثت الثورة الفرنسية صدى لأفكارها في الكانتونات السويسرية (وكانت قد أصبحت ١٣ كانتونًا). ففي ١٧٩٢، أعلن المواطنون ذوو الأصل الأليماني (alémanique) في بال، قيام نظام الجمهورية في مواجهة أمير المدينة الأسقف. وفي جنيف، قلب البورجوازيون والعامة النظام الأوليغارشي. في ١٧٩٧، ضمت حكومة المديرين الثورية الفرنسية منطقة فالتيلين التابعة لرابطة كانتون غريزون إلى المقاطعة الفرنسية سيسالبين. ولما كانت فرنسا تطمع بالاشراف على بعض ممرات الألب الواقعة في سويسرا والحصول منها على مساهمات مالية، فقد وجدت حجة التدخل من نداءات مهاجرين سويسريين مقيمين في باريس، مثل فريدريك–سيزار دو لا هارب (أحد أبناء كانتون فود) أو نداءات بعض اليعقوبيين، مثل بيار أوشس (أحد أبناء بال)، الذين طالبوا فرنسا بمساعدتهم للتخلص من النير الارستقراطي. وفي ٢٤ كانون الثاني ١٧٩٨، انتفضت المدن الفودية ضد برن وأعلنت الجمهورية الأليمانية التي ما لبثت أن وجدت نفسها تحت احتلال الفرنسيين. بعدها، أخذت جيوش الثورة الفرنسية توسّع من دائرة احتلالها، فوقعت في أيديها، تباعًا، أرغوفيا وتورغوفيا وفالي السفلى، ثم فريبورغ وسولور (٢ آذار ١٧٩٨). قاوم البرنيون (سكان برن) وحققوا فوزًا في مرحلة أولى، ثم عادوا واستسلموا وفتحوا ابواب مدينتهم للغازي الفرنسي (٥ آذار ١٧٩٨) بعد معركة غروهولز. أما كانتونات المناطق الوسطى من سويسرا فقد أبدت مقاومة شرسة في بادىء الأمر وقبل سقوط لوسرن وزوغ. وعلى أثر معركة روتنتورم (٢ ايار ١٧٩٨) استسلم كانتون أوري وشويز وأونترفالد وغلاريس وموهلاوس. أما جنيف وفالي فقد احتلا عسكريًا. وفي ايلول ١٧٩٨، سحق الفرنسيون بقوة انتفاضة نيدوالد؛ وبعدها، أعادوا تنظيم سويسرا، كباقي «الجمهوريات

قراءة تصريح اول كانون الثاني ١٨١٤ معلناً الغاء وثيقة الوساطة التي اقر بموجبها دستور نابوليون الاول، ونهاية الوصاية الفرنسية.

الشقيقة»، وفق النموذج الفرنسي: جمهورية سويسرية مركزية مقسمة إلى دوائر إدارية وتحكمها حكومة مديرين؛ وسكان الجمهورية مواطنون متساوون في الحقوق، وأما السلطة فقد انتقلت إلى طبقة بورجوازية من مالكي الاراضي. لكن الجمهورية الهلفية (السويسرية) بقيت رازحة تحت الاحتلال الفرنسي، محرومة من السياسة الخارجية، منهكة ماليًا وموضوعة تحت ضغط انهيار اقتصادي خطير. ومما زاد في وضعها الحرج ان اراضيها كانت ساحة للمعارك التي دارت بين الفرنسيين من جهة، والنمساويين والروس من جهة ثانية، في محيط مدينة زوريخ وجبال الألب. ولقد استمر السويسريون الموالون للنظام الكونفدرالي في معارضتهم للفرنسيين.

بواقعية السياسي المحنك، فهم نابوليون بونابرت ان سويسرا ليست ناضجة كفاية كي تتقبل النظام المركزي الموحد. فلم يتردد بالتدخل في المعارك التي نشبت بين المركزيين والفدراليين؛ وذلك بأن أمر جيوشه بالانسحاب، وإتاحة الفرصة امام انعقاد مجلس (Consulta) يضم نوابًا سويسريين، في سان-كلود St.Cloud، سارع إلى القبول بدستور جديد حرّره الامبراطور نفسه (نابوليون). وقد أعادت هذه الوثيقة (١٩ شباط ١٨٠٣) الكانتونات السابقة (١٣ كانتونًا) إلى ما كانت عليه من وضع كياني وإداري، وأضافت إليها سان غال وأرغوفيا وتورغوفيا وغريزون وتسان وفود، حيث أصبحت كل واحدة منها تتمتع بوضع الكانتون الكامل. كما أعادت الوثيقة مجلس الديت الكونفدرالي. وهكذا أصبح عدد الكانتونات في الكونفدرالية الهلفية (أو الهلفيتية Hélvétique، الاسم الرسمي الذي ظهر لأول مرة) ١٩ كانتونًا. فعاد الهدوء الداخلي، ومعه عاد النشاط الاقتصادي، وخاصة على صعيد شق طرقات جديدة عابرة جبال الألب. لكن الحصار القاري ضد نابوليون (بزعامة بريطانيا) أعاد المأزق الاقتصادي إلى البلاد، وعاد نابوليون واحتل تسان وضمّ فالي إلى فرنسا (١٨١٠).

في ١٨١٣، اجتاز سويسرا جيشان من الجيوش المتحالفة ضد نابوليون.فعقد مجلس الديت اجتماعًا وألغى وثيقة ١٩ شباط ١٨٠٣ النابوليونية. وفي أول كانون الثاني ١٨١٤، تحررت جنيف من الوصاية الفرنسية. وتمثلت

الكونفدرالية السويسرية في مؤتمر فيينا بمندوبين من الديت ومن الكانتونات. وكان الدور التقريري، داخل الوفد السويسري، لممثل جنيف شارل بيكت دو روشمون الذي، وبعد دخول جنيف في الكونفدرالية، كان ايضًا مندوب سويسرا في مؤتمر باريس وفي مفاوضات ١٨١٦ مع سردينيا. ومنذ ذاك وسويسرا الكونفدرالية تعيش نظامها السياسي والاداري داخل حدودها المعروفة، وكانت قد أصبحت تتألف من ٢٢ كانتونًا مع دخول فالي ونويشاتل وجنيف. وأقيمت مناطق حرة حول المدينة وفي سافوي وفي بلاد جكس Gex، كما ضمنت الدول حيادها.

سويسرا الليبرالية والديمقراطية: بعد ١٨١٥، عادت الارستقراطية وتمكنت من إعادة النظام الذي قضت عليه الثورة الفرنسية. أما الوضع الاقتصادي فكان متوسط الحال حتى ١٨٢٥، وكان لكل كانتون سياسته الجمركية وبريده ونقده، وكان الليبراليون يطالبون باعادة الحريات والمساواة المدنية وتقوية النظام الفدرالي المركزي.

منذ بداية العقد الثالث من القرن (التاسع عشر)، بدأ نوع من نهوض اقتصادي بفعل تقدم الادوات الصناعية وازدهار حركة السياحة. وكان للثورة الباريسية في ١٨٣٠ ان تخلق سلسلة من الانتفاضات في كانتونات: تورغوفيا، ارغوفيا، سان غال، شافهاوس، زوريخ، سولور، لوسرن، برن، فود وفريبورغ، التي استطاعت ان تضع لها دساتير مرتكزة على قاعدة الانتخابات المباشرة والعامة ومنح الحريات الاساسية. وفي بال، رفض سكان المدينة انتفاضة أبناء المناطق الريفية التابعة للمدينة، فانقسم كانتون بال إلى نصف كانتون المدينة ونصف كانتون الريف. وكانت سويسرا تستقبل عددًا كبيرًا من اللاجئين السياسيين، مما تسبّب لها بتوترات مع الدول المجاورة، وخاصة مع فرنسا في ١٨٣٨ في أعقاب لجوء لويس نابوليون بونابرت إليها.

في مواجهة المحافظين، نما تيار راديكالي على قاعدة برنامج تقوية الرابط الفدرالي، والحرية الدينية والتوسع الاقتصادي. وفي ١٨٤١-١٨٤٣، اندلع نزاع في كانتون أرغوفيا بسبب إغلاق الأديرة التي اتهمتها الحكومة بتحريض الكاثوليك ضد الدستور الليبرالي الجديد. وفي كانون الاول ١٨٤٥، شكلت الكانتونات المحافظة الكاثوليكية (لوسرن، أوري، شويز، أونتروالد، زوغ، فريبورغ وفالي) «حلفًا دفاعيًا منفصلاً» (سوندربوند Sounderbund) بقي سريًا. لكن ما إن انكشف هذا الحلف، وانكشف معه دور اليسوعيين، حتى هبت في وجهه معارضة الراديكاليين الذين أوصلهم تحركهم، بزعامة هنري دروي، إلى السلطة في لوزان في ١٤ شباط ١٨٤٥. وفي جنيف، قاد جيمس فازي انتفاضة شعبية في ٧ تشرين الاول ١٨٤٦، وأقام نظامًا ديمقراطيًا. وكان انضمام كانتون سان غال إلى الراديكاليين أن جعلهم الأكثرية في الديت في مواجهة مقاعد الكانتونات المحافظة. فلجأ الديت إلى حل «الحلف الدفاعي المنفصل» (سوندربوند). لكن ممثلي الحلف رفضوا هذا الاجراء وانسحبوا من الديت. وفي ٤ تشرين الثاني ١٨٤٧، تقرر اللجوء إلى السلاح ضد الحلف الانفصالي. فوقعت حرب أهلية لمدة ٢٦ يومًا، وقاد الفدراليين فيها الجنرال غيوم هنري دوفور (من جنيف)، في حين كان أولريخ دو ساليس سوغلو قائدًا للميليشيات الكاثوليكية. وفي ١٤ تشرين الثاني (١٨٤٧) وقعت فريبورغ في أيدي الفدراليين، ثم زوغ، وبعدها لوسرن. ثم ما لبثت الكانتونات الباقية أن أعلنت إعادة انضمامها إلى الكونفدرالية وطردت اليسوعيين من أراضيها. وأعاد الراديكاليون المنتصرون تنظيم سويسرا باصدار دستور ١٢ ايلول ١٨٤٨، الذي جاء بحل أرضى أنصار واخصام الاستقلال الذاتي الواسع

للكانتونات، كما نص على مجلس حكومي فدرالي ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام المباشر، ويكون من مجلس وطني وآخر كانتوني، وحصر الشؤون الخارجية، والجيش، والجمارك، والبريد والنقد بالكونفدرالية.

وغداة ١٨٤٨، دشّنت سويسرا عصرًا من الاستقرار السياسي، بعد ان عرف كانتون نويشاتل نزاعًا بين الجمهوريين الليبراليين وبين الملكيين الذين سحق التدخل الفدرالي حركتهم. وجاء مؤتمر باريس (١٨٥٧) ليسجل تخلي ملك بروسيا عن كل مطلب له بالكانتون (كان كانتون نويشاتل قد سلخ عن بروسيا منذ ١٧٠٧). وفي ١٨٦٠، طالب ليبراليو السافوي الشمالية انضمامهم إلى سويسرا؛ فعالج الامبراطور الفرنسي نابوليون الثالث هذا الامر بمرسوم أصدره يجعل من المنطقة منطقة حرة.

في ١٨٧٤، جرى تعديل على دستور ١٨٤٨ لجهة إقرار توسيع السلطات الفدرالية في الموضوع العسكري، وإدخال حق الاستفتاء الذي جرى إكماله في تعديل ١٨٩١ بحق المبادرة الشعبية في الموضوعات الدستورية. وبعد ١٨٧٠، اهتزت علاقات الكنيسة الكاثوليكية بالدولة بسبب «الازمة الثقافية والتعليمية» التي أسفرت عن غلبة جديدة حققتها السلطة في موضوع التعليم والمناهج المدرسية.

شهدت العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر «الثورة الصناعية الثانية» في سويسرا بفضل انطلاقة السياحة وتطور صناعة الساعات وصناعة الآلات والمواد الغذائية، مما اضطر سويسرا إلى الطلب المتزايد من اليد العاملة الاجنبية.

وبعد ١٨٧٠، بدأ «الاتحاد العمالي السويسري»، الذي يضم الحزب الاشتراكي والنقابات، يطالب بسياسة قائمة على العدالة الاجتماعية. وفي ١٨٧٧، صدر قانون ينظم العمل، ومنذ ١٩١٢ بدأت تصدر تشريعات تتناول الضمانات العمالية. وبعد تأسيس منظمة الصليب الأحمر الدولي، في ١٨٦٤، أخذت تتكاثر المنظمات الدولية التي تتخذ من سويسرا مقرًا رئيسيًا لها. ووضعت الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) التعايش السويسري على المحك، إذ تعاطف قسم من شعبها (العنصر الأليمي) مع دول المحور، وتعاطف القسم الآخر (العنصر اللاتيني) مع الحلفاء. وفي ١٩١٨، حدثت موجة من الاضرابات الثورية تمكن الجيش الكونفدرالي من سحقها. وأكدت معاهدة فرساي على حياد سويسرا. ودخلت سويسرا إلى عصبة الامم التي اتخذت من جنيف مقرًا لها، لكنها عادت إلى حيادها الكامل في ١٩٣٨. بعد ١٩١٩، تقاسم الراديكاليون والمحافظون السلطة. ولم تنج سويسرا من الازمة الاقتصادية العالمية في الثلاثينات؛ لكنها، وعلى رغم حيادها، جهّزت نفسها جيدًا، عسكريًا واقتصاديًا، واستعدت لمواجهة أخطار الحرب العالمية الثانية. ولم تتجرأ المانيا على مهاجمتها أو التحرش بالجيش السويسري الذي كان بقيادة الجنرال هنري غيزان. وطبقت سويسرا اقتصاد الحرب واتبعت خطة واهلن Wahlen التي عملت على تشجيع الزراعة. وعند حلول عام ١٩٤٥ كانت سويسرا في وضع صلب ومتعلقة بنظامها الفدرالي وبحيادها.

أهم أحداث سويسرا منذ نهاية الحرب العالمية الثانية: رفضت سويسرا، بعد تجربة عضويتها الفاشلة في عصبة الامم وبحجة نظامها الحيادي، إجراء استفتاء حول إمكانية دخولها هيئة الامم المتحدة في ١٩٤٥. في ١٩٥٠، انضمت إلى المنظمة الاوروبية للفحم والطاقة. في ١٩٥٩، تبنى كانتون فود مبدأ حق المرأة بالاقتراع، وبعد سنة حذا حذوه كانتون نويشاتل وكانتون جنيف. وفي ١٩٦٠-١٩٦١، تابعت سويسرا انضمامها إلى منظمات اوروبية متخصصة أخرى (كلها

اقتصادية، راجع «اوروبا»، ج ٣)؛ وفي ١٩٦٣، انضمت إلى المجلس الاوروبي.

في ٧ شباط ١٩٧١، جرى استفتاء عام حول حقوق المرأة في الانتخابات والاقتراعات الفدرالية، وجاءت النتيجة بأكثرية الثلثين تقريبًا لصالح هذه الحقوق (كانتونات أوري وشويز وأوبوالد وغلاريس وسان غال وأبنزل أكثرية المستفتين فيها كانت معارضة). وفي ٣٠-٣١ تشرين الاول، شاركت النساء في الانتخابات التشريعية. وفي ٣ كانون الاول، جرى استفتاء حول التبادل الحر للمنتوجات الصناعية مع السوق الاوروبية المشتركة، وكانت النتيجة إيجابية بأكثرية ٥٢،٩٪. فوقعت سويسرا اتفاقياتها مع هذه السوق في ٢٧ تموز ١٩٧٢، وجرى تصديقها في ٣ كانون الاول ١٩٧٢. وفي ٢٠ تشرين الاول ١٩٧٤، جرى استفتاء حول مشروع قانون يهدف إلى انقاص عدد الاجانب في سويسرا خلال ثلاث سنوات من مليون إلى نصف مليون، وجاءت النتيجة رافضة لهذا المشروع. وفي ١٩٧٧، تبنى استفتاء (بأغلبية نحو ٩٧٧ ألف صوت ضد ٥٠٥ آلاف صوت) إخضاع بعض المعاهدات المهمة للاستفتاء. في ٢٤ ايلول ١٩٧٨، أنشىء كانتون جديد هو كانتون الجورا. في ١٩٧٩، رفض استفتاء جعل سن الاقتراع ١٨ عامًا بدلاً من ٢٠ عامًا.

في آذار ١٩٨٠، استفتاء رفض فصل الكنيسة عن الدولة. في ١٤ حزيران ١٩٨١، استفتاء وافق على مشاريع حول المساواة بين الرجال والنساء وحماية المستهلكين. في ١٤-١٦ نيسان ١٩٨٣، زيارة الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران، وهي الزيارة الاولى لرئيس فرنسي منذ ١٩١٠. في ٢٠ ايار ١٩٨٤، استفتاء حول مشروع قانون يحد من السرية المصرفية، ورفض بأغلبية ٧٣٪ من أصوات المستفتين. في ١٢-١٧ تموز ١٩٨٤، زار البابا يوحنا بولس الثاني سويسرا. في ٢ تشرين الاول ١٩٨٤، انتخاب اليزابت كوب (مولودة ١٩٣٦)، من الحزب الراديكالي، مستشارة فدرالية بأغلبية ١٢٤ صوتًا ضد ٩٥ صوتًا نالها منافسها برونو هونزيكر، وكانت أول امرأة تنتخب لهذا المنصب. وأصبحت وزيرة العدل، ثم استقالت في ١٢ كانون الاول ١٩٨٨ (اتهمت بأنها أعلمت زوجها بالتحقيق حول «تبييض» مليون دولار محصلة من تجارة المخدرات)، كما انها تخلت عن منصب نائب رئيس الكونفدرالية (المتوقع في ١٩٩٠)، وصدرت مذكرة ببراءتها في ٢ شباط ١٩٩٠.

وأهم الاستفتاءات (والاستفتاءات هي الأحداث الأهم في تاريخ سويسرا تبعًا لنظامها كما هو معروف) التي جرت منذ ١٩٨٦:

– في ١٣ آذار ١٩٨٦، حول الانضمام إلى الامم المتحدة (رفض بأكثرية نحو ثلثين).

– في ٥ نيسان ١٩٨٧، حول طرح موضوعات اعتمادات التسلح على الاستفتاءات (رفض بأكثرية ٥٩،٤٪).

– في ٦ كانون الاول ١٩٨٧، تخفيض سن التقاعد من ٦٥ إلى ٦٢ سنة للرجال، ومن ٦٢ إلى ٦٠ سنة للنساء (رفض بـ٦٥٪).

– في ٤ كانون الاول ١٩٨٨، حول جعل اسبوع العمل ٤٠ ساعة (رفض بـ٦٨،٥٪).

– في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٨٩، حول إلغاء الجيش (اشترك في هذا الاستفتاء ٦٨٪ من المقترعين، ونسبة الرفض ٦٤،٤٪).

– في ٢٩ نيسان ١٩٩٠، عرائض حول الانضمام إلى المجموعة الاوروبية أظهرت ان ٦٨،٨٪ في الكانتونات الرومنديّة (Suisse Romande) هم من أنصار الانضمام، في حين ان نسبتهم ٣٩،٣٪ في الكانتونات الأليمانية (S.Alémanique).

– في ٢٣ ايلول ١٩٩٠، حول الطاقة النووية (٥٢،٩٪ للابقاء عليها ١٨ كانتونًا من

اصل ٢٦).

– في ٣ آذار ١٩٩١، ٧٢،٨٪ أيّدوا جعل سن الانتخاب، فقط على المستوى الفدرالي، بـ١٨ سنة، بدلاً من ٢٠.

– في تشرين الاول ١٩٩١، دراسة استقصائية أظهرت ان ٥٣،٣٪ من السويسريين يؤيدون الانضمام إلى الاتحاد الاوروبي (المجموعة الاوروبية).

– في ١٨ ايار ١٩٩٢، طلب الانضمام إلى الاتحاد الاوروبي. وفي ٢٦ آب، المجلس الوطني اقترع على معاهدة «الفضاء الاقتصادي الاوروبي»، والاستفتاء الشعبي (٦ كانون الاول) رفضها بأكثرية ٥٠،٣٪.

أظهرت السنوات الاخيرة، وتمحورت حول أربع نقاط:

١– مشكلة البطالة أدت إلى انتعاش وتكثيف «نضال الطبقات»، فتدهور معها المناخ الاجتماعي. وهذا ما أظهرته المفاوضات الشاقة حول الاجور في خريف ١٩٩٥، إذ أضاءت على بداية مسار مفاده ان النزاعات الاجتماعية لن تعود قابلة للحل في سويسرا وفق القواعد التقليدية القائمة على التسوية، ما يترك بصمات قوية على النظام السياسي نفسه.

٢– إن مبدأ الديمقراطية المباشرة، كما هي مطبقة في سويسرا، شكلت عائقًا امام جعل الاقتصاد ديمقراطيًا. فمبادرات من اليسار، كما حول «حق العمل» في ١٨٩٤، أو ضد الازمة في ١٩٣٥، أو في ١٩٧٦، لاقت كلها الفشل. بل على العكس، فإن اللجوء إلى الاستفتاء قد جعل التجديد أصعب سواء في مجال السياسة الاجتماعية أو في مختلف محاولات المراجعة المعمقة للدستور الفدرالي.

٣– أظهرت نتائج الاستفتاءات بوضوح كم هي ضعيفة ارادة السويسريين في الارتباط باتفاقيات دولية والالتزام بقواعد التضامن الدولي.

٤– أظهرت الديمقراطية المباشرة في سويسرا، عمليًا، قلة اكتراثها بحقوق المرأة. فحقها في الانتخاب لم يمنح لها إلا في ١٩٧١ (وبعد هذا التاريخ في بعض الكانتونات. أضف إلى ذلك ان محاولات جعل المساواة بين الجنسين، التي يضمنها الدستور منذ ١٩٨١، لا تزال تصطدم بمعارضة شرسة من البنى الاقتصادية و«بمجتمع مدني» يسيطر عليهما الرجال. فالتمثيل النسائي لا تزال نسبته قليلة جدًا في المنظمات والمؤسسات السياسية. ففي ١٩٩٣، أدّى رفض تعيين السيدة كريستيان برونر (اشتراكية ونقابية من جنيف) في الحكومة الفدرالية إلى موجة من الاحتجاجات والاعتراضات أدّت بدورها إلى الرضوخ والقبول بتعيين السيدة روث دريفوس (من الحزب الاشتراكي السويسري) في الحكومة. وفي «المؤتمر الوطني للنساء» الأخير (١٩٩٦) ارتفعت أصوات كثيرة تطالب بتغيير سياسي جذري. لكن النيوليبراليين هم على رأس معارضي مثل هذا التغيير.

معالم تاريخية

□ **الاحزاب و«الصيغة السحرية»:**

– حزب تحالف المستقلين تأسس في ١٩٢٥. مؤسسه غوتليب دوتوايلر (١٨٨٨–١٩٦٢). وكان الحزب حركة تحمل إسم «ميغروس» وتدعو إلى مبادىء جديدة في البيع المباشر، وتدعم المرشحين المستقلين الذين يؤيدون طروحاته التجارية، قبل ان تتحول إلى حزب قائم بنفسه في ١٩٣٥. يتوزع مناصروه في كانتونات: غريزون، نويشاتل، سولور، تورغوفيا، فود، زوريخ، برن، بال المدينة وبال الريف، أبنزل، شافهاوس، لوسرن، سان غال وأرغوفيا. يعمل لديمقراطية حقيقية وليست شكلية، ويرفع شعار «بيئة، تضامن، حرية». رئيسه مونيكا ويبر.

– الديمقراطيون السويسريون: تأسس في ١٩٦١. يدعو إلى «سويسرا حرة وأمة حية وأكيدة مما تريد، وتعمل على إضعاف الهيمنة الأجنبية». رئيسه رودولف كيلر.

– «ليغا داي تيسينيزي»: تأسس في ١٩٩١. رئيسه جيوليانو بيغناسكا.

– منظمات التقدميين: تأسس في ١٩٧٣. شعاره: «الحياة أفضل من الكسب». برنامجه: طرح مواضيع بدائل. أمينه العام جورج ديغن.

– الحزب الديمقراطي المسيحي: ترجع جذوره إلى ١٨٤٨ عندما أصيبت رابطة «السوندربوند» (محافظون كاثوليك) بهزيمة وكان لها ٨ نواب. في ١٨٨٠، تشكل «الاتحاد السويسري المحافظ»، وفي ١٨٩٤ تحول إلى «الحزب الشعبي الكاثوليكي». وفي ٢٢ نيسان ١٩١٢، أصبح «الحزب الشعبي المحافظ السويسري». وفي شباط ١٩٥٧، «الحزب الدستوري المسيحي الاجتماعي». وفي كانون الاول ١٩٧٠، اتخذ الاسم الحالي «الحزب الديمقراطي المسيحي». مبادئه: الحرية، المسؤولية الفردية والعدالة. شعاره: «التحديات، الجرأة». رئيسه كارلو شميد. عدد أعضائه نحو ٦٠ ألفاً.

– حزب البيئة السويسري: تأسس في ١٩٨٣. ينتشر في أرغوفيا، بال المدينة وبال الريف، برن، فريبورغ، جنيف، غلاريس، جورا، لوسرن، نويشاتل، سان غال، شويز، سولور، تورغوفيا، تسّن، فالي، فود، زارغ وزوريخ. رئيسه فيرينا دينر. عدد اعضائه نحو ٨ آلاف.

– الحزب الانجيلي: تأسس في ١٩١٩. ينتشر في أرغوفيا، بال المدينة وبال الريف، برن، شافهاوس، سولور، سان غال، تورغوفيا وزوريخ. أهدافه: استقلال كل كنيسة بأمورها، وخلق مجتمع شخصاني بوحي من التعاليم المسيحية. رئيسه أوتو زويغارت.

– الحزب الليبرالي السويسري: وريث «الاتحاد الليبرالي الديمقراطي السويسري». تأسس في ١٩٦١. ينتشر في بال المدينة، فود، نويشاتل، جنيف، فريبورغ، بال الريف، فالي، برن وزوريخ. يدافع عن الفدرالية والحرية الفردية، ويعارض كل تدخل تبالغ فيه الدولة. رئيسه، منذ ٢٠ شباط ١٩٩٣، فرنسوا جانيري. عدد أعضائه نحو ١٥ ألفاً.

– الحزب الراديكالي الديمقراطي: بدأ يلعب دوره منذ ١٨٤٨. شكل كتلته في البرلمان الفدرالي منذ ١٨٧٨. في ١٨٩٤، أصبح حزباً وطنياً يضم الاحزاب الكانتونية. ينتشر في جميع الكانتونات ما عدا أبنزل. وسطي، مدافع عن الحريات واقتصاد السوق. شعاراته: «الراديكاليون: من العقل والقلب»، «المزيد من الحرية والمسؤولية والقليل من الدولة»، «الراديكاليون: المتفائلون الواقعيون». رئيسه فرانز شتاينغر، وعدد اعضائه نحو ١٥٠ ألفاً.

– الحزب الجمهوري السويسري: تأسس في ١٩٧١، ملحقاً بحزب «يقظة جنيف» (الذي تأسس في ١٩٦٥). رئيسه فرانز بوغمارتز. حلّ في

٢٢ نيسان ١٩٨٩.

– الحزب الاشتراكي السويسري: وريث المنظمة الوطنية (١٨٨٠) والاتحاد النقابي السويسري الذي تأسس في ١٨٨٨. في ١٠-١٢ كانون الاول ١٩٢٠، حدث فيه انشقاق بسبب رفضه الانضمام إلى الاممية الثالثة. ينتشر في الكانتونات كافة باستثناء أوبوالد ونيدوالد وأوري وأبنزل. يهدف إلى تحقيق الاشتراكية الديمقراطية والاصلاح. شعاراته: «الحزب الاشتراكي السويسري حزب القوة الاجتماعية»، و«حيش أقل لأمن أشمل»، و«نحو أوروبا اجتماعية». رئيسه بيتر بودمان. عدد اعضائه نحو ٤٢ ألفًا.

– حزب العمل السويسري: أساسه انشقاق عن الحزب الاشتراكي في ١٩٢٠، وتحوله إلى الحزب الشيوعي السويسري في آذار ١٩٢١. في ١٩٣٩، طرد الحزب من صفوفه فرع كانتون فود وكانتون جنيف بسبب موقف ليون نيكول من ا لاتحاد السوفياتي. حظر المجلس الفدرالي الحزب بين ١٩٤٠ و١٩٤٥. في تشرين الاول ١٩٤٤، تأسس حزب «الاشعاع» وانتشر في جنيف ونويشاتل وفود وجورا وتسن وبال وبرن وزوريخ. هدفه تطبيق الاشتراكية. شعاره: «حياة أفضل وبصورة مختلفة». رئيسه جان سبيلمان.

– اتحاد الوسط الديمقراطي: كانت دوافع تأسيسه معارضة التبادل الحر. وحمل إسم «الاتحاد السويسري للفلاحين» في ١٨٩٧. في ١٩٣٧، الحزب السويسري للفلاحين والحرفيين والبورجوازيين. في ايلول ١٩٧١، اندمج مع الحزب الديمقراطي. ينتشر في الكانتونات كافة. ويهدف إلى إقامة دولة قوية سياسيًا حفاظًا على الفدرالية. شعاره: «بشجاعة نحو المستقبل». رئيسه هانز أوهلمان. عدد أعضائه نحو ٨٣ ألفًا.

– الحزب الديمقراطي الفدرالي، تأسس في ١٩٩١. رئيسه وُمر شيرير.

– حزب اليقظة (يمين متطرف): تأسس في ١٩٦٤. رئيسه ألكسي بوتكين، وأميناه العامان جاك أندريه وبول باسّر. عدد أعضائه نحو ٥ آلاف.

مثلما كانت ترتبط عبارة «الصيغة السحرية» بنظام سويسرا السياسي الذي يتبدى في ممارسة «مديريه» (نظام المديرين) للادارة، وفي ممارسة حكومية من خلال المجلس الفدرالي (بوندسرات) المكون من سبعة اعضاء متساوين في الحقوق ومنتخبين من المجلسين التشريعيين، هكذا أخذت ترتبط أكثر، منذ ١٩٥٩، بل أصبحت تعني التوزيع المستقر للمقاعد بين الاحزاب السياسية: عضوان لكل من الاحزاب الثلاثة الكبرى، الحزب الراديكالي الديمقراطي والحزب الديمقراطي المسيحي والحزب الاشتراكي السويسري، ومقعد واحد لاتحاد الوسط الديمقراطي. وكان على نظام التوزيع هذا ان يضمن تمثيل القوى الاجتماعية الأهم، وان يساهم خاصة في الحفاظ على «السلم الاجتماعي» بين الرأسمال والعمل.

منذ عقود من الزمن، استمرت موازين القوى داخل البرلمان مستقرة على حال واحد تقريبًا. فبعد انتخابات خريف ١٩٩٥، حصلت الاحزاب الممثلة في المجلس الفدرالي على ٧٤٪ من مجموع الاصوات: ٢١،٨٪ للحزب الاشتراكي، ٢٠،٢٪ للحزب الراديكالي الديمقراطي، ١٧٪ لحزب الوسط الديمقراطي، و١٤،٩٪ لاتحاد الوسط الديمقراطي؛ كما حصلت على ٨٠٪ من المقاعد البرلمانية، وأكثر من ٩٠٪ في مجلس الدول (الكانتونات). والجدير ذكره ان المشاركة الانتخابية في تضاؤل مستمر منذ خمسين سنة، حتى وصلت إلى ٤٢،٣٪ في ١٩٩٥؛ أما المعارضة فتجد في الاستفتاءات طريقًا للتعبير عن نفسها أكثر من الانتخابات. ومما يلاحظ ايضًا ان القوى المحافظة في الاحزاب البورجوازية تصلي الحزب الاشتراكي في الحكومة نارها كي يتسنى لها تنفيذ

برنامجها في «التحديد الاقتصادي»، كما ان انتقادات عنيفة يوجهها اليسار لاتحاد الوسط الديمقراطي المشارك في الحكومة الفدرالية متهمة إياه بالانزلاق أكثر فأكثر نحو الانعزالية واليمين المتطرف.

□ **أموال اليهود في البنوك السويسرية:**

هذا الموضوع: «أموال اليهود في البنوك السويسرية» بدأ يبرز كـ«قضية» حقوقية وتاريخية وسياسية في اوائل ١٩٩٥ عندما تمّ في واشنطن ولندن وبعض دول اوروبا الشرقية فتح أرشيف وثائق الحرب العالمية الثانية بعد خمسين سنة. وانطلق السجال حول الاموال التي قام العديد من اليهود الالمان بإيداعها المصارف السويسرية خوفًا من ان تقوم بمصادرتها السلطات النازية. إن قسمًا كبيرًا من هذه الاموال بقي حيث تمّ إيداعه، ولم يتمكن الاحفاد في ما بعد من استرجاعها نظرًا إلى السرية التامة التي تميز عمل البنوك السويسرية، وبدأت الصحف تتكلم عن «ذهب الهولوكوست» (المحرقة اليهودية)، وبدأ المؤتمر اليهودي العالمي والوكالة اليهودية والحكومة الاسرائيلية بالتحرك من أجل الكشف عن «الاموال النائمة». وبدأت حملة الضغط على الحكومة السويسرية التي يقودها من نيويورك السناتور الجمهوري ألفونس داماتو على رأس لجنة من أجل التحقيق في طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين النازيين وسويسرا. وبعض التجمعات اليهودية قدرت الاموال النائمة في المصارف مع فوائدها منذ تلك الفترة بنحو سبعة مليارات دولار.

لكن قبل ١٩٩٥، أي قبل تفجر «أموال اليهود في البنوك السويسرية» كقضية وكأزمة، ما كان مسارها؟

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أعلنت حكومة سويسرا في ١٩٤٧ أن قيمة ودائع الحسابات المصرفية المتروكة (النائمة) تقدر بـ ٢٠٠ مليون فرنك سويسري. وبعد عشر سنوات من هذا التاريخ أعلنت ان قيمة هذه الودائع حوالي مليون فرنك سويسري. وفي ١٩٦٢، وبضغط من الحلفاء، اقرت الحكومة قانونًا يوجب على المصارف نشر تفاصيل عن المبالغ النائمة فيها من قبل الاجانب واللاجئين أثناء الحرب العالمية الثانية. وعندما أكملت هذه المصارف عملها قالت الحكومة أن هناك ٩٦١ حسابًا متروكًا وان قيمة ودائعها بحدود تسعة ملايين ونصف مليون فرنك سويسري، وأعلنت الحكومة بأن على كل من يعتقد في ان له الحق في تسلم هذه الاموال ان يتقدم بطلب. وقدم الآلاف من الناس طلبات إلى الحكومة ووزع مبلغ ٧ ملايين ونصف على الافراد وأعطي الباقي إلى منظمات يهودية. ولم يرض اليهود على ذلك وقالوا بأن عددًا قليلاً فقط من مجموع ٥٠٠ مصرف قام بهذه العملية ولم تُجرد كذلك حسابات الشركات وان هذا الجرد ترك إلى المصارف ولم يكن باشراف حكومي أو تحت إشراف جهة مستقلة.

وفي الستينات قدمت اسرائيل طلبًا رسميًا إلى الحكومة السويسرية باصدار قائمة بالحسابات المتروكة منذ فترة قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة إلى وقت انتهائها، ثم قدمت طلبًا مرة أخرى في الثمانينات. وفي ١٩٨٧ دفع بنك سويسرا المتحد مبلغ ٤٠ مليون دولار تعويضًا عن الحسابات المتروكة إلى منظمات خيرية. وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي اشتدت المطالبة وزاد الضغط على الحكومة السويسرية في هذه القضية. وكان رئيس المؤتمر اليهودي العالمي إيغر بروفمان من أكثر الناشطين في هذا المجال، وكان هو الذي أثار قضية كورت فالدهايم حول عمله كضابط في الجيش النازي وتجنب محاكمته.

وفي ايلول ١٩٩٥، قابل بروفمان مدراء المصارف السويسرية وعرض عليه هؤلاء مبلغ ٣٠ مليون دولار كتعويض عن الحسابات المتروكة،

لكنه رفض العرض. وسرعان ما توسعت دائرة الحملة، وأخذ اليهود يطالبون ايضًا بالذهب الذي أودعه الحكم النازي في المصارف السويسرية أو الذي اشترته منه كذلك في غيرها من المصارف الأخرى. وقد استندوا في مطالبهم في استعادة المسلوبات الذهبية على وثيقة بريطانية، و«مرجعها الرسمي كما حددته التقارير هو Historans,LRD, No 11، صدرت في شهر ايلول ١٩٩٦. وقد صدرت عن وزارة الخارجية والكومنولث ورقمها التسلسلي ضمن السجلات الملكية البريطانية هو: ISBN 0903359-69-3. وأعادت الوزراة صوغ الوثيقة وتحريرها في شباط ١٩٩٧ لتتضمن آخر المستجدات، أي ان الوثيقة ليست من عمل منظمة غير حكومية يهودية كانت أو غير يهودية، بل وثيقة دبلوماسية مستحدثة مستقاة من السجلات الرسمية البريطانية جمعت بناء على طلب وزير الخارجية بهدف جعلها وثيقة كاملة ومرجعًا لا يخطىء. وليس هناك أي إشارة إلى الوثيقة بأنها قدمت بناء على طلب أو حاجة سياسية رسمية بريطانية أو دولية، أو انها ترد على استفسارات نيابية أو دبلوماسية بريطانية المنشأ» («الحياة»، العدد ١٢٤٤٥، تاريخ ٢٦ آذار ١٩٩٧، ص١٨).

كما أخذت الحملة تطال سويسرا الدولة والحكم. فذكرت بمواقف سويسرا المعادية لليهود عندما أغلقت حدودها في ١٩٣٨ في وجه المهاجرين الذين حاولوا الفرار إليها من المانيا مما عرضهم للاعتقال ومن ثم للابادة. وضربت الحملة اليهودية والصهيونية في عمق السياسة الحالية لسويسرا فاتهمتها بأنها تحولت إلى المركز الاول والأهم في العالم لـ«تنظيف» أموال التهريب والمخدرات وتزوير العملات، كما انها تؤمن المأوى الآمن للاموال التي يختلسها بعض رؤساء وحكام الدول.

و«كالعادة يتصدر الاعلام الاميركي هذه الحملة. ويقدم جهاز المخابرات الاميركية مواد دسمة لاعطاء هذه الحملة صدقية تاريخية من خلال الكشف عن بعض الوثائق الاستخباراتية المتعلقة بالمرحلة الاخيرة من الحرب العالمية الثانية وخاصة لجهة تعقب حركة الاموال المهربة من المانيا عبر سويسرا إلى مصارف دولية في شنغهاي في الصين حتى ليشبونة في البرتغال. وكانت الولايات المتحدة قد نظمت عملية باسم «المنطقة الآمنة» لتعقب حركة هذه الاموال الالمانية المهاجرة... ومصادرتها بحجة انها اموال نازية ينطبق عليها قانون غنائم الحرب» (عن محمد السماك، اعلامي وكاتب سياسي، «النهار»، عدد ٢٢ كانون الثاني ١٩٩٧، ص ١٣).

في ايار ١٩٩٦، وافقت سويسرا على تشكيل لجنة مشتركة مع المجلس العالمي اليهودي للتحقق من الحسابات المصرفية السرية المجمدة مما يشكل اول انتهاك علني لقانون سرية المصارف في سويسرا المعتمد منذ ١٩٣٤ (ينص القانون على الحكم بالسجن على أي مصرف يكشف إسم أي عميل من عملائه). وقد مارست إدارة الرئيس الاميركي بيل كلينتون ضغوطًا كبيرة على سويسرا مما اضطرها إلى الخضوع وقبول تشكيل هذه اللجنة المشتركة. وكانت اللجنة المصرفية في الكونغرس الاميركي قد حذرت في ٢٣ نيسان ١٩٩٦ من ان الولايات المتحدة لا يمكن ان تقبل بمكاسب وارباح يحققها أشخاص معينون من جراء مقتل ستة ملايين يهودي. ففي ٢ ايار ١٩٩٦، أعلنت الموافقة الرسمية السويسرية على تشكيل اللجنة المشتركة، مع الموافقة كذلك على فتح كل سجلات كل المصارف امامها من دون أي استثناء. وكان اول ضحايا هذه الموافقة بنك يونيون سويس، وبنك كريديه سويس ومؤسسة أحذية بالي (وذلك بحجة ان هذه المؤسسة اشترت محلات تجارية كانت السلطات الالمانية صادرتها من اصحابها اليهود). أما على رأس «الضحايا»

فهو النظام المصرفي السويسري. فقد وافق البرلمان السويسري على إنشاء لجنة خاصة للتحقق في سلوك المؤسسات المصرفية السويسرية أثناء الحرب بما في ذلك البنك المركزي. كما وافق على إعادة النظر في قانون سرية المصارف، الأمر الذي يمكن العناصر المكلفة من المجلس اليهودي العالمي من الاطلاع على كل السجلات السرية.

«إنه ابتزاز»، قالها وزير الاقتصاد السويسري جان باسكال دولاموراز، مفجرًا بذلك معارضة سياسية عشية تخليه عن الرئاسة الدورية للكونفدرالية السويسرية مع مطلع ١٩٩٧، وذاهبًا مذهب التساؤل عن وجود مخطط سياسي «لضرب الاستقرار في بلادنا والنيل من سمعتها وصولاً إلى تقويض مركزها المالي في العالم». وسارع السويسريون، حكومة وشعبًا، إلى التضامن معه في مواجهة انتقادات لاذعة وجهها إليه المؤتمر اليهودي العالمي. لكن المأزق كبير، وكذلك الضغط، ودولاموراز نفسه سرعان ما اضطر إلى الاعتذار عن كلامه من الطوائف اليهودية، واعضاء الحكومة الفدرالية انقسموا (في الشهر الثاني من ١٩٩٧) وللمرة الاولى علنًا امام الرأي العام قبل ان يتراجعوا ويعلنوا استعدادهم لانشاء صندوق للتعويض عن المحرقة. وقد شكلت هذه الخطوة تسليمًا ضمنيًا بارتكاب «ذنب تاريخي»، قابلها من الجانب اليهودي والصهيوني سحب التهديد بمقاطعة السوق السويسرية.

وحاول رئيس الوزراء الاسرائيلي بنيامين نتانياهو الذي شارك في المنتدى الاقتصادي العالمي في مدينة دافوس السويسرية (الاسبوع الاول من شباط ١٩٩٧) ان يخفف من الاجواء الملبدة بين الدولتين. فالتقى رئيس الاتحاد السويسري أرنولد كولر واتفقا على معالجة الازمة «في جو من التعاون وليس المواجهة». وبعد أقل من شهر واحد، أي في ٤ آذار ١٩٩٧، أعلن الرئيس السويسري أرنولد كولر ان بلاده قررت إنشاء

وزير الاقتصاد السويسري دولاموراز.

صندوق يصل رصيده إلى ٧ بلايين فرنك سويسري (٤،٧ بليون دولار) لتعويض اقارب ضحايا الهولوكوست (المحرقة). هذا إضافة إلى صندوق آخر أنشأه المصرف المركزي السويسري ويبلغ رصيده ٧٠ مليون دولار لدفع تعويضات فورية إلى من تبقى من الناجين من المحرقة.

واستقبل اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة اعلان الرئيس السويسري بالترحيب معتبرًا انه «نصر مهم للشعب اليهودي». ولم يتوان أحد قادة المنظمات اليهودية عن الاعلان عن الهدف المقبل للحملة اليهودية بقوله «إن الخطوة السويسرية تشكل ضغطًا على دول أخرى مثل السويد واسبانيا وتركيا والبرتغال لتعترف بادوارها خلال الحرب العالمية». وكلها دول تتهمها المنظمات اليهودية بالتعاون مع النازيين في حينه. واعتبر تقرير للحكومة الاميركية صدر في ٧ ايار ١٩٩٧ ان سويسرا اقامت «أوثق العلاقات» مع المانيا النازية خصوصًا بالنسبة إلى كميات الذهب التي اودعها النازيون المصارف السويسرية. ووجه التقرير انتقادات ايضًا إلى السويد واسبانيا والبرتغال وتركيا والارجنتين بسبب علاقاتها مع المانيا النازية خلال الحرب العالمية الثانية.

في ٨ تموز ١٩٩٧، أعلن المحقق المصرفي السويسري هانس بيتر هيني في بيان: «بحلول نهاية

أيار ١٩٩٧، تمّ التعرف في البنوك السويسرية إلى حوالي ١٧ مليون فرنك سويسري من الاموال الراكدة، منها ١٠ ملايين لضحايا المحرقة». وقدرت البنوك السويسرية الحسابات الراكدة (النائمة) وليس تلك التي فتحها يهود فحسب بمبلغ ٣٨ مليون فرنك سويسري. ويقل ذلك كثيرًا عن بلايين الدولارات التي تزعم جماعات يهودية انها اموال لضحايا جرائم النازية تحتفظ بها البنوك السويسرية. لكن في اواخر الشهر نفسه (ايار ١٩٩٧)، أعلنت منظمات يهودية من نيويورك عدم اعترافها ببيان المحقق السويسري ولا بالارقام التي أعطتها البنوك السويسرية للاموال اليهودية الراكدة فيها، وأكدت عزمها على المضي في مقاضاة هذه البنوك. وبدأت، في الوقت نفسه، وسائل الاعلام العالمية تشير إلى ان اجنحة يهودية متفرقة أخذت في الاقتتال سلفًا على حصصها من هذه الاموال، ويلمح بعض هذه الوسائل إلى ان الخطوات السويسرية صحيح أنها ضحت بمبدأ السرية المصرفية من أجل التخفيف من حملة اليهود عليها، إلا انها تنم عن ذكاء هدفه إحداث خلافات داخل اليهود واللوبي الصهيوني.

ومسألة أموال اليهود، من نقد وذهب وغيره، كان موضوع «مؤتمر لندن» الذي انعقد في الاسبوع الاول من كانون الاول ١٩٩٧ لبحث مصير الذهب النازي بضغط من بعض المنظمات اليهودية خصوصًا منظمة Holocust Educational Trust التي أنشئت في بريطانيا في ١٩٨٨ برئاسة اللورد جنر، وحضره ممثلو ٤٢ دولة (وممثل عن الفاتيكان بصفة مراقب) وخمس منظمات يهودية غير حكومية ووفد عن الاتحاد العالمي الروماني (الغجر).

□ **حياد سويسرا وما آل إليه:** إذا كان حياد سويسرا أهم مميزاتها الجيوبوليتيكية، فإنه الأقدم في التاريخ. يعيد المؤرخون بدايته إلى السنة التي أعلن فيها، أي ١٦٧٤. لكنه يعود، مبدئيًا، إلى غداة معركة مارينيان Marignan في ١٥١٥. لكن هذا الحياد لا يعني ان السويسريين قد انتهجوه عن قناعة بعدم جدوى السلاح ونتيجة لمبادىء أو نزعة سلمية، اخلاقية وفلسفية. فهناك أمور مهمة تثبت العكس بينها: أعداد كبيرة من المرتزقة السويسريين كانت تلجأ إليهم الجيوش الاجنبية في حروبها حتى ان مداخيلهم شكلت الرأسمال الضروري لتنمية البلاد الاقتصادية في القرن التاسع عشر، والخدمة العسكرية الاجبارية ومدتها الطويلة نسبة إلى الخدمات العسكرية في كثير من الدول، إضافة إلى ما يكاد يكون معروفًا من أن كل مواطن سويسري يمتلك قطعة سلاح أو أكثر في بيته.

علام يرتكز، إذًا، خيار سويسرا الحياد؟

في ١٢٩١، اتخذ السويسريون لهم ميثاقًا قرّروا فيه رص صفوفهم للدفاع عن الاخطار الخارجية الممثلة بآل هابسبورغ، بافهامهم انهم مستعدون للقتال من جهة، وبأنهم لن يكونوا معتدين عليهم من جهة أخرى. وهذا معناه الحياد المرتبط بالاستقلال وبالدفاع عن الاراضي في الوقت نفسه، أي «الحياد المسلح». فـ«الحياد لا قيمة له إلا إذا توافرت القوة المدافعة عن الاستقلال الذي يعبّر عن الحياد» (أندريه سيغفريد). لذلك، تعطي سويسرا لجيشها مفهومًا لا يميز بينه وبين الامة والديمقراطية. فهو جيش الشعب السويسري.

تخصص سويسرا ١/٥ (خمس) موازنتها للدفاع الوطني، أي أكثر مرتين مما تخصصه للتعليم والابحاث، إضافة إلى أنها تقتطع ٢،٠٪ شهريًا من التقديمات الاجتماعية للخدمة العسكرية. يجندّ كل كانتون وحداته العسكرية ويجهزها ويدربها ويثقف عناصرها بلغته. لكن على الضباط جميعهم، وفي كل الكانتونات، ان يعرفوا لغات البلاد الرسمية: الالمانية، الفرنسية والايطالية. فهو جيش مكون من ميليشيات دائمة الاستعداد عبر مناورات

تجريها دوريًا وضمانًا للأمن الذي يتعلق به السويسريون بقوة. وهذا التعلق بالامن المصحوب بالدفاع المسلّح ينطوي على نوع من الانكفاء على الذات، على نوع من استراتيجية كثيرًا ما يطلق عليها عبارة «استراتيجية القنفذ» التي لا تخلو، أو انها تغذي نزعة «كره الأجنبي» Xénophobie (كثر عدد الاجانب في سويسرا حتى أصبحوا يشكلون ١٦،٦٪ من عدد السكان في ١٩٩١، خاصة في المناطق الحدودية. ولجأت الحكومة إلى إجراءات تحد منهم. وتعرف سويسرا حاليًا موجة من اللاجئين السياسيين إليها من العالم الثالث، وخاصة من الأكراد واليوغوسلاف).

في موضوع الانتساب إلى المجموعة الاوروبية (الاتحاد الاوروبي)، حرص السويسريون على تأمين انتفاعهم من محاسن سوق المجموعة، وكانوا يرفضون دائمًا التخلي عن أي شيء يمس باستقلالهم. فباسم هذا الاستقلال وسياسة الحياد، لم ينضموا إلى أي تحالف سياسي-عسكري ولا إلى الامم المتحدة (وقد جدّدوا هذا الرفض في استفتاء ١٩٨٦).

إزاء المجموعة الاوروبية، وقع السويسريون عددًا كبيرًا من اتفاقيات التبادل الحر معها، كما دخلت سويسرا عضوًا في منظمة «الشراكة الاوروبية للتبادل الحر». لكن في كانون الاول ١٩٩٢، اقترع ١٨ كانتونًا (من مجموع ٢٦) ضد الانضمام إلى «معاهدة الفضاء الاقتصادي الاوروبي» (EEE). وبرز، نتيجة لهذا الاستفتاء، شرخ بين سويسرا الفرنكوفونية التي صوتت لصالح الانضمام وسويسرا الأليمانية التي صوتت ضده. وقد كرّست «معاهدة الفضاء الاقتصادي الاوروبي» رفع الحواجز الجمركية بين دول المجموعة (وكان عددها ١٢) ودول «الشراكة الاوروبية للتبادل الحر» السبع. وجاءت طلبات الانضمام إلى الاتحاد الاوروبي، منذ توقيع «ميثاق الوحدة» الاوروبية، التي تقدمت بها النمسا والسويد ودول اوروبا الشرقية السابقة (هنغاريا، بولندا، تشيكوسلوفاكيا)، لتزيد من واقع «العزلة الاوروبية» لسويسرا التي عرفت انقسامًا بالرأي داخل طبقتها السياسية. فالاشتراكيون ناصروا الانضمام إلى الاتحاد الاوروبي، وعارضه اتحاد الوسط الديمقراطي.

في ٦ كانون الاول ١٩٩٢، رفضت سويسرا (في استفتاء شعبي) مرة جديدة خيار الانضمام إلى الاتحاد الاوروبي. لكن، بعد مرور عام واحد (أي في كانون الاول ١٩٩٣)، أعدت وزارة الخارجية، بالتعاون مع وزارة المالية، تقريرًا برزت فيه خطوط عريضة لتوجه جديد نحو اوروبا وإعادة الحوار مع دول المجموعة الاوروبية وتهيئة الرأي العام لاستفتاء جديد يعلن فيه الشعب كلمة الفصل. وكانت الحكومة دأبت، منذ اول ١٩٩٣، على إجراء الاتصال مع أقطاب بروكسيل (مقر الاتحاد الاوروبي). وقد وافقت دول المجموعة على فتح المفاوضات الثنائية بينها وبين سويسرا حول ١٦ ملفًا من بينها موضوع نقل الترانزيت عبر الاراضي السويسرية، وتنقل الاشخاص، ومشاركة سويسرا في البرامج الاوروبية والابحاث ووصول منتجاتها الزراعية إلى السوق السويسرية، والعوائق الفنية أمام المبادلات ودخول الاسواق العامة... وغيرها.

وبصورة موازية لهذه المفاوضات، أخذت الحكومة السويسرية تجري تكيفًا هيكليًا وتنظيميًا في القوانين والبنى السويسرية تمهيدًا لمرحلة قادمة أصبحت سويسرا مقتنعة (وهي الشريك التجاري الثالث لاوروبا بعد الولايات المتحدة واليابان) بانها المرحلة التي تبدأ بدخولها إلى المجموعة الاوروبية. وهذا التحول كشفه استفتاء الاسبوع الاول من كانون الاول ١٩٩٣، حيث صوّت السويسريون على إدراج ضريبة القيمة الاضافية على صادراتهم بعد أربع محاولات عبّر فيها الشعب

السويسري عن رفضه لهذه الضريبة. كما أخذ يرشح عن الحكومة السويسرية، وللمرة الاولى، تفكير بالاشتراك في وحدات نظامية ضمن قوات حفظ السلام التابعة للامم المتحدة والدخول في تعاون عسكري وتقني مع حلف الاطلسي بعد ان عدلت قانون الجيش وخفضت عدد القوات المسلحة من ٦٠ إلى ٤٠ ألف جندي.

إلام آل حياد سويسرا؟

يمثل التخلي عن الحياد واحدًا من أهم الاتجاهات التي تتشكل في اوروبا في السنوات الجارية حاليًا. ففي الماضي القريب، إبان الحرب الباردة، كانت اوروبا مقسمة إلى شرقية وغربية، وبجوارهما تألفت كتلة ثالثة محايدة تمتعت دولها بثقل مؤثر بسبب احجامها ومواقعها في منطقة الوسط والشمال على الحدود بين المعسكرين. وكانت هذه الكتلة الثالثة المحايدة تضم السويد والنروج وفنلندا وأيسلندا والداغارك والنمسا وسويسرا، تتجمع مع بعضها في منظمة للتعاون الاقتصادي تدعى «منظمة أفتا» التي تقابل السوق الاوروبية المشتركة ومنظمة الكوميكون. وبجانب التعاون الاقتصادي بين دول أفتا كان ثمة تعاون في المسائل الامنية والدفاعية، ولا سيما بين السويد وفنلندا والداغارك على قاعدة راسخة من المفاهيم السياسية المشتركة للعلاقات الدولية.

بعد نهاية الحرب الباردة تعرض «الحياد»، كمفهوم، للذوبان تدريجي. فأخذت دول منظمة أفتا تتخلى عن مفهومها القديم للحياد، بعد ان كانت ترفض الانضمام إلى السوق الاوروبية المشتركة أو الكوميكون أو الحلف الاطلسي حتى ١٩٩٢، موعد انبثاق «الاتحاد الاوروبي». وفي ١٩٩٤، بدأت غالبية دول أفتا تتسابق إلى بروكسيل (مركز الاتحاد الاوروبي) طالبة حجز مقاعد لها في الاتحاد وهو ما رحبت به قيادته وسهلت لها الانضمام. وهكذا اصبحت ثلاث دول (فنلندا والسويد والنمسا) أعضاء منذ مطلع ١٩٩٥. وحاولت حكومة سويسرا الانضمام ايضًا (وكانت الحكومة باشرت منذ ١٩٩٣، كما رأينا، بالاستعداد هيكليًا وتنظيميًا واعلاميًا-اعداد الرأي العام-لهذا الانضمام) لكن الغالبية من سكانها عارضت فبقيت خارج الاتحاد مثلها مثل النروج (وهي عضو أطلسي)، لذلك أصرتا على المحافظة على منظمة أفتا، بينما كانت الدول الاربع الأخرى ترى عدم وجود أي مبرر لاستمرارها.

والمتحمسون لهذا التحول الكبير في «الحياد»، مفهومًا وواقعًا، سواء داخل دول أفتا المتحولة أو في دول الاتحاد الاوروبي، قدموا تبريرًا نظريًا لهذا التحول يقوم على الفصل بين مفهوم الحياد الأمني من ناحية، ومفهوم الحياد الاقتصادي من ناحية أخرى. فكانت هذه الرؤية التوفيقية هي جوهر مفهوم الحياد الجديد للعام ١٩٩٥. وتطور الأمر، في ١٩٩٦، وقدمت تعريفات للحياد تختلف جذريًا عن السابق وتنسف فكرة الحياد من أساسها. وأعقب ذلك اعلان السويد، وبعدها فنلندا والداغارك، عن سلسلة خطوات ومواقف تمثل اقترابًا لا سابق له من الحلف الاطلسي. فبدأت باعلان تأييدها لمبدأ توسيع الحلف في اتجاه شرقي ووسط اوروبا ليستوعب الدول الشيوعية السابقة، ثم بتأسيس تعاون ثنائي مع الولايات المتحدة وهو ما يحدث للمرة الاولى في مضمار الامن والدفاع، ثم بالقبول بمبدأ التعاون الجماعي مع الاطلسي في إطار ما يطلق عليه عبارة «الشراكة من أجل السلام»، ثم باطلاق الحديث عن الانضمام الكامل إلى الحلف. وربما كان افضل مثال لقياس حجم هذا التحول هو موقف سويسرا التي بدأت سيرها باتجاه الاطلسي بسرعة ربما تفوق سرعة الدول الأخرى. ففي ١٠ تشرين الاول ١٩٩٦، صرّح وزير دفاعها أدولف أوغي: «إن عضوية بلادنا في الحلف الاطلسي يمكن ان تصبح حقيقة واقعة في غضون العام المقبل».

□ **السرية المصرفية:** تتمتع البنوك السويسرية بسمعة ذات تاريخ طويل كمكان آمن بالنسبة إلى استثمار الاجانب رؤوس أموالهم. وتعتمد هذه السمعة على قانون الصناعة المصرفية السويسرية عام ١٩٣٤، والذي يعتبر من غير المشروع بموجبه ان يصرح البنك بأي معلومات عن عملائه من دون موافقتهم. واشتهرت سويسرا ايضًا بعمل حسابات مرقمة، ويعني هذا، في التطبيق العملي، ان المستثمرين قادرون على استخدام البنوك السويسرية للمحافظة على السرية التامة لاعتماداتهم المالية، طالما انه ليست هناك أسماء مرتبطة بحساباتهم.

وفي ظل قانون ١٩٣٤، لا يمكن نشر تفاصيل الحسابات إلا عندما تكون هناك اتهامات جنائية باعمال ارتكبت في بلد اجنبي، وتكون هذه الاتهامات سارية المفعول في سويسرا ايضًا. غير انه لسنوات عديدة كانت هناك دلائل قوية على إساءة استخدام قوانين البنوك السويسرية. وفي عام ١٩٧٣، وقعت سويسرا معاهدة مع الولايات المتحدة تنص على السماح برفع قواعد السرية إذا كان يعتقد بأن صاحب الحساب متورط في نشاطات اجرامية. وبعد اربع سنوات تبعت ذلك قاعدة ممارسة جديدة بين البنوك السويسرية، لضمان تحكم أكثر صرامة في التعامل مع الاعتمادات المالية الاجنبية. وجرى تعديل هذه القاعدة، وزاد التشدد في القواعد الخاصة بالحسابات الاجنبية في السنوات اللاحقة. وفي ١٩٧٨، طلب من البنوك، للمرة الاولى، ان تقدم نشرات الموازنة إلى هيئة رقابة.

وعززت هذه الضوابط الموجهة لادارة الاستثمار الاجنبي من سمعة سويسرا كمركز مصرفي آمن، وازدهرت بنوك البلاد، حيث بذلت جهود أكبر لفرض قيود أكثر صرامة على العمليات غير المشروعة. وتلعب البنوك السويسرية، في الوقت الحالي، دورًا هائلاً في اقتصاد البلاد. فأصول كل من «بنك سويسرا المتحد» و«كرديت سويس»، وهما أكبر مصرفين، تصل إلى مبلغ يزيد على إجمالي الناتج المحلي السويسري. غير ان ازمة جديدة، في الفترة الأخيرة، هددت بتشويه صورة البنوك السويسرية. فقد حاول أقارب ضحايا اليهود اثناء الحرب العالمية الثانية في اوروبا فتح الودائع المصرفية التي يعتقدون انها محفوظة في حسابات سويسرية منذ أكثر من خمسين سنة، متهمين البنوك بمحاولة الابقاء على هذه الاموال. وبسبب الضغوط التي واجهتها البنوك، ولأهمية القطاع المصرفي بالنسبة إلى الاقتصاد السويسري، تشكلت لجنة خاصة للبحث في ما إذا كانت البنوك تحقق فوائد من الحسابات الجامدة لضحايا الهولوكوست. وفي محاولة لتبرئة إسمها ألغت البنوك قوانين السرية لتسهيل عمل اللجنة (عن «المشاهد السياسي، بي.بي.سي»، العدد ٧٣، تاريخ ٣-٩ آب ١٩٩٧، ص ٣٩) (وراجع «أموال اليهود في البنوك السويسرية» في هذا الباب «معالم تاريخية»).

□ **الصليب الأحمر:** منظمة دولية. يزيد عدد أعضائها عن مائة دولة، ويبلغ عدد العاملين والمتطوعين فيها ملايين الأشخاص. تأسست في جنيف في ١٨٦٣.

وُلدت فكرة المنظمة في رأس السويسري هنري دونان (١٨٢٨-١٩١٠). قصد، في ١٨٥٩، شمالي ايطاليا ليلتقي هناك الامبراطور الفرنسي نابوليون الثالث وليعرض عليه المظالم التي تتعرض لها مجموعة من المتمولين السويسريين المالكين لأراض في الجزائر. وصادف ان المنطقة التي كان يقصدها كانت مسرحًا لمعارك بين الجيوش الفرنسية-البيمونية من جهة والجيش النمساوي بقيادة الامبراطور فرنسوا جوزف من الجهة الأخرى. وقبل ان يتمكن من الوصول إلى نابوليون الثالث وجد نفسه مجبرًا على البقاء في كاستيلينو **Castiglione** بسبب المعركة الدائرة في سولفرينو **Solferino**. وشاهد هناك الآلاف من الجرحى المتألمين المهملين. فسارع إلى جمع

هنري دونان.

عشرات المتطوعين من أبنـاء المنطقـة، رجـالاً ونسـاء، وبدأوا بتقديم اسعافهم للجرحى من الجنود الفرنسيين والايطاليين والنمساويين على حد سواء.

حفرت مشاهد جرحى هـذه المعركـة عميقًـا في ذاكرة دونان ونفسه. ففي ١٨٦٢، أصدر كتابه بعنـوان «ذكرى سولفرينو» يتمنى فيه إنشاء منظمة من المتطوعين الملتزمين الحياد المطلق في حـال الحـرب وهدفهـم خدمـة الجرحى في وقت الحـرب. وقـد تـرك هـذا الكتـاب أثـره البالغ في أعضاء «جمعية المنفعـة العامـة» في جنيـف الذيـن كلفـوا، في ١٨٦٣، دونـان والقـاضي موينيـه Moynier والجنرال دوفـور Dufour والطبيبـين مونـوار Maunoir وآبيا Apia تأسيس هذه المنظمة. ومن أعمال هذه اللجنـة الخماسية ولدت منظمة «الصليب الأحمر».

وأول مؤتمر للمنظمـة عقـد في جنيـف في ٢٢ آب ١٨٦٤ وحضـره ممثلـون رسميـون مـن ١٦ بلـدًا. وأعقبـت هـذا المؤتمـر التأسيسـي مؤتمـرات أخـرى خرجت باتفاقيات نصت على أعمال الصليب الأحمر وقت الحرب. ونصت هذه الاتفاقيات (أو المعاهدات) الدولية على احـترام حيـاة وكرامـة جرحـى وسـجناء الحرب وسكان الاراضي المحتلة دون تمييز في العرق أو القومية أو الطبقة الاجتماعية أو المعتقدات السياسية أو الدينية. كما فرضت هذه المعـاهدات، وبدقـة، احـترام المتحاربين للمستشفيات العسكرية والعاملين فيها.

ومنـذ ١٨٦٤، بـدأت تتأسـس عـدة جمعيـات وطنية محلية للصليب الأحمر. اجتمعـت هـذه الجمعيـات، في ١٩١٩، وأسست «رابطة جمعيات الصليب الأحمر»، وقررت ان تتخذ مـن جنيـف مقـرًا لهـا، كمـا قـرّرت ان توسع دائرة نشاطها لتشمل، إضافة إلى حـالات الحـرب، الكوارث الطبيعية (الزلازل، الفيضانات...).

أما اللجنة الدولية لمنظمة الصليب الأحمر (خليفـة اللجنة الخماسية المؤسسة) فباتت تتألف، تقليديًا، من ٢٥ عضـوًا مـن الجنسية السويسـرية، ويكـون عليهـا حمـل المبادىء والمثل التي وضعها المؤسسون.

ومن أولى مهام جمعيات الصليب الأحمر الوطنيـة (المحلية) إشراك الشباب في رسالتها الانسانية. وأول تجمـع شبابي عضو في الصليب الأحمر يعـود إلى الحـرب العالميـة الاولى، ومـذذاك أخـذت مثـل هـذه التجمعـات الشـبابية داخل منظمة الصليب الأحمر الدوليـة تـزداد أهميـة، كمـا أخذت بعض البلدان تشجع عليها وتدخل مـوادًا تعليميـة وتثقيفية بشأنها في المدارس.

أما الهلال الأحمر فقد تبنت شعاره تركيا منـذ

جلسة المؤتمر التأسيسي لمنظمة الصليب الاحمر الدولي في جنيف (٢٢ آب ١٨٦٤).

صف للصليب الأحمر في لبنان.

١٨٧٦، وأعقبتها بعد ذلك جميع البلدان الاسلامية. واعترفت منظمة الصليب الأحمر بمنظمة الهلال الأحمر وبشعارها في مؤتمر جنيف ١٩٤٩. والهلال الأحمر أصبح، منذ ١٩٨٦، جزءًا من الحركة الدولية للصليب الأحمر والهلال الأحمر.

وفي عودة إلى المؤسس، هنري دونان H. Dunant، فإنه سليل عائلة بروتستانتية، ولد في جنيف ١٨٢٨. أبدى ميلاً انسانيًا واهتمامًا بمصير التعساء المتألمين منذ نعومة أظافره. جاب ارجاء اوروبا داعيًا لتأسيس الصليب الأحمر حتى تسنى له ذلك. لم يرحمه القدر طيلة سنوات، أعقبت تأسيس المنظمة، عاشها منسيًا بائسًا. لكن في ١٩٠١، نال جائزة نوبل للسلام. مات في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٠ باذلاً قواه، حتى الرمق الأخير، داعية سلام دولي.

□ **غروتلي (قَسَم)**: غروتلي Grutli أو روتلي Rutli، حقل في كانتون أوري، في الطرف الشمالي من الضفة الغربية من بحيرة أوري (الجزء الجنوب الشرقي من بحيرة الكانتونات الاربعة).

الرواية التاريخية الوطنية التي يردّدها السويسريون أن في هذا الحقل، وفي يوم الأول من آب ١٢٩١، التقى أربعة رجال: شتاوفاشر (من شويز)، فورست (من أوري)، ملشتال (من أونتروالد)، وغيوم تل، وأقسموا اليمين على تحرير بلادهم من نير آل هابسبورغ. وبعد المداولة، أقروا طلب مساعدة الامبراطور فريدريك. واعتبرت الذاكرة التاريخية لدى السويسريين هذا اليوم، وهذا القسم، نواة للكونفدرالية الهلفيتية التي لا تزال قائمة.

أما الرواية الاسطورية للبطل غيوم تل التي رددتها اجيال السويسريين، ولا تزال، فتستقي كثيرًا من عناصرها من إجتماع روتلي والقسم الذي ردّده الرجال الاربعة في الاجتماع. فقد استدعى جسلر، ممثل آل هابسبورغ، غيوم تل وطلب منه إعلان خضوعه لسلطة آل هابسبورغ وإلا سيحاكم. ورفض تل الخضوع. وحكم عليه بأن يطلق سهمًا على تفاحة وُضعت على رأس ابنه. وفعل غيوم وأصاب التفاحة، ولكنه قال لجسلر بأنه أعدّ سهمًا آخر كان سيرميه به لو أصاب ابنه مكروهًا. فكبله جسلر بالحديد ورماه في السجن. ولكن البطل أفلت، وقتل جسلر في مكمن أعده في منطقة كسناخت، وأصبح تل أبرز قادة النضال من اجل استقلال بلاده. واصبح يوم الأول من آب عيدًا وطنيًا سويسريًا.

أحد الظرفاء الانكليز ويدعى السير ماكس بيربوم، كتب مرة يقول: «لم تعرف سويسرا في تاريخها سوى بطل واحد، هو غيوم تل، وغيوم هذا بمجرد خرافة». وفي الواقع، ليس هناك من مستند تاريخي يؤكد وجود هذا البطل، علمًا ان تماثيله تملأ الساحات في سويسرا. إنه يجسّد روح الاستقلال وعشق الحرية لدى الشعب السويسري.

حول هذا الموضوع جاء في «أنسيكلوبيديا أونيفرساليس» (ط ١٩٦٨، ج١٥، ص٥١٧): «أوجدت جذور الكونفدرالية السويسرية رواية اسطورية لا تستند على نصوص تاريخية ولا على شهادات موثوقة بل على سجلات كتبت بعد قرنين من الحدث (قسم غروتلي في ١٢٩١). وفي القرن الثامن عشر، غذّت نظريات جان جاك روسو حول الفضيلة والروح الديمقراطية التي يتمتع بها الجبليون مثل هذا الطرح الاسطوري الذي وجد في واقعة قسم اليمين في حقل غروتلي نبعًا لا ينضب من البطولات. وجاءت مذاهب النقد والشك في القرن التاسع عشر لتنكر كل قيمة تاريخية لمثل هذه الاساطير التي يعتبرها الاختصاصيون، حاليًا، بمجرد تعبير عن رواية جماعية».

صورة تمثل «قسم غروتلي» في أول آب ١٢٩١ (عن سجلات ايتزلين، ١٥٠٧، جامعة جنيف).

وصورة أخرى تمثل «قسم غروتلي الحديث» في ١٨٨٧.

مدن ومعالم

* **بـال (بـازل) Bale: في الالمانيـة Basel.** مدينة سويسرية تقع علـى ضفـتي نهـر الرايـن، وفي الزاوية الشمالية من سويسرا، تتاخم مباشرة فرنسـا والمانيا. هي المدينة الوحيدة التي تؤلف كانتونًا بحـد ذاتها، فهي عاصمة نفسها. مساحتها ٣٧كلـم م.، وتضيـق بسـكانها البـالغ عددهـم نحـو ٤٠٠ ألـف نسمة.

على مقربة من المدينـة تقـوم آثـار رومانيـة تـدل علـى أهميـة المدينـة آنـذاك. وقبـل الرومـان سكنها الغاليون والالمان. خضعت لأسقفها إلى يوم ضمت إلى الامبراطورية الجرمانية في القرن الحـادي عشـر. في القـرن الرابـع عشـر، تخلـت عـن سـلطة الاسـقف، وفي ١٥٠٥، دخلـت الكونفدراليـة السويسـرية بعـد ان نصـت في عقـد دخولهـا ألا تتدخل في الخلافات التي تنشب بين الكونفدراليين. وكـان عقـد فيهـا، بـين ١٤٢١ و١٤٤٩، مجمعًـا مسكونيًا (أسـاقفة العـالم المسيحي) وانتخـب بابـا جديدًا.

أخـذت بأفكـار الاصـلاح الديـني، وفي ١٥٢٩ أعلنـت اعتناقهـا البروتسـتانتية، وأخـذت تستقبل اللاجئين إليها من البروتستانت المضطهدين مـن الـدول الكاثوليكيـة المحيطـة بهـا. فنقـل إليهـا اللاجئون البروتستانت الصناعات الجديدة: الحرير، الصباغـة والـورق، مـا اعطاهـا زخمًـا تجاريًـا مهمًـا سهّل لها حياة ثقافية ما زالت تعتز بها حتى اليـوم. وفي ١٨٣٣، انشقت على نفسها بـين بـال المدينـة وبال الريـف، علـى اثـر حـرب أهلية وقعـت بـين سـكانها: مركـز المدينـة الماسـك بصناعـة الحريـر وتجارته كانت تسكنه الفئة البورجوازية التي كانت تتصـرف تصـرف الاسياد إزاء سـكان الاطـراف الريفيين.

ارتبـط إسـم مدينـة بـال بالمعـاهدات الـتي وقعـت فيهـا إبـان حكـم «الكونفنسـيون الترميدورين» (ترميدور هو ا لشـهر الحـادي عشر من السنة الجمهورية الثورية الفرنسية) والتي أنهت، مع معاهدة لاهـاي، التحـالف الاوروبي. فـالتزمت بروسيا، بموجبها، الاعـتراف بالجمهوريـة الفرنسـية مقابل انسحاب الجيوش الفرنسـية مـن الممتلكـات البروسية الواقعة على الضفة اليمنى من نهر الرايـن، وبقائهـا علـى الضفـة اليسـرى. أمـا مـع اسـبانيا، فتنسحب فرنسا من بعض الاراضي الاسـبانية الـتي احتلتها مقابل تخلي اسبانيا عن سان دومنغ (تـاريخ هذه المعاهدات نيسان وتموز ١٧٩٥).

كمـا وترتبـط بـال بعـدد مـن المؤتمـرات الصهيونية التي عقدت فيها: المؤتمر الصهيوني الاول في ٢٩-٣١ آب ١٨٩٧ بحضـور ٢٠٤ مندوبـين يمثـل جـزء منهـم ١١٧ جمعيـة صهيونيـة، ووضـع برنامجًا سارت عليه سائر المؤتمرات التي عقدت بعد ذلـك. المؤتمـر الصهيـوني الثـاني في ٢٨-٣١ آب ١٨٩٨ بحضور ٣٤٩ مندوبًا يمثلون ٩١٣ مجموعـة صهيونية، بحث في كيفية نشر الفكـرة الصهيونيـة. المؤتمر الصهيوني الثالث في ١٥-١٨ آب ١٨٩٩، وتركزت مناقشاته حول تفسـير «مشـروع بـال». المؤتمر الصهيونـي الخـامس في ٢٦-٣٠ كـانون الاول ١٩٠١ بحضور ٣٥٨ مندوبًا (المؤتمـر الرابـع عقد في لندن). ثم عقد في بال ايضًا المؤتمر السادس (١٩٠٣) والسابع (١٩٠٥)، والعاشـر (١٩١١)، والخـامس عشـر (١٩٢٧)، والسـابع عشـر (١٩٣١)، والثاني والعشرون (١٩٤٦). وعقـدت خمسة مؤتمرات صهيونية أخرى في سويسـرا ولكـن في زوريخ ولوزان. أما المؤتمرات الأخـرى فعقـدت خارج سويسرا.

في بال معالم أثرية كثيرة تعود إلى العصـور الوسـطى كمـا إلى القـرن السـادس عشـر والثـامن عشر. أهم هذه المعالم:

- الكاتدرائية، بنيت بـأمر مـن الامـبراطور في اوائل القرن الحادي عشر وبهندسة رومانية، ثـم

بعد خرابها بزلزال اواسط القرن الرابع عشر أعيد بناؤها على الطراز القوطي، وبالحجر الرملي الأحمر، وهو الحجر الغالب في معظم معالم المدينة. في إحدى صالات ساحة الكاتدرائية المربّعة الاضلاع تم انتخاب أحد البابوات.

- «ساحة السوق»، وهي ساحة المدينة، وفيها قصر الحكومة (اوائل القرن السادس عشر)، وهو مركز البرلمان وحكومة الكانتون؛ وبالقرب منه قصر البلدية. وفي شمال غربي الساحة حوض ماء بني في القرن الخامس عشر.

- ثلاثة أبواب من السور، وتعود إلى القرون الوسطى.

- كنائس قديمة عديدة، منها كنيسة الدومينيكان (١٢٦٩)، وكنيسة الفرنسيسكان (القرن الرابع عشر) وتحوي اليوم متحف التاريخ.

- جامعة بال، وهي الجامعة الاقدم في سويسرا ويعود بناؤها إلى العام ١٤٦٠. وبال مركز للكتاب والنشر منذ القرن الخامس عشر. فيها طبع العلامة «أرسم» كتاب العهد الجديد، وفيها درّس الرياضي ليونار أويلر والفيلسوف فريدريك نيتشه.

- متاحفها وصالات العرض نحو الثلاثين. وهي أول مدينة في اوروبا أوجدت متحفًا كرّسته للعامة وذلك منذ ١٦٦٢. أهم متاحفها: متحف الفنون الجميلة الذي يحتوي على لوحات لأشهر الفنانين. المتحف التاريخي، وهو الثاني أهمية في سويسرا بعد المتحف الوطني القائم في زوريخ، ويقوم في كنيسة الفرنسيسكان، ويحوي صنائع ذات أهمية من القرون الوسطى إلى القرن السابع عشر.

وبال مدينة المعارض. ويرجع تاريخ أول معرض في بال إلى ١٤٧١ عندما منح الامبراطور المدينة امتيازًا بمعرضين. أحدهما معرض الخريف الذي ما زال قائمًا حتى اليوم. وأقدم المعارض الحديثة هو «معرض المساطر» الذي وجد منذ ١٩١٦. وهناك المعرض الاوروبي للساعات والجوهرات الذي اصبح، منذ ١٩٧٣، من أهم المعارض العالمية، ومعرض فنون القرن العشرين.

والحديث عن بال لا بد وان يمر بميزة أساسية لها، وهي دورها في الصناعة الكيميائية التي تشتهر بها سويسرا. فسويسرا تنفق حوالي مليارى فرنك سنويًا على الابحاث والتنمية الكيميائية، أي ما يعادل ٥٥٪ من الرصيد الكامل المخصص لجميع حقول هذه الصناعة. وسويسرا تضاهي اليابان وايطاليا بصادراتها الكيميائية التي تمثل ٢٠٪ من مجموع الصادرات. و٣٤٪ من الخريجين الجامعيين والعلميين يعملون في قطاع الصناعة الكيميائية. ونصف العاملين في هذا القطاع يعملون في بال وحدها: ٤٠٪ في المدينة و١٠٪ في ريفها.

* **برن Berne**: في الالمانية Bern. عاصمة الكونفدرالية السويسرية منذ ١٨٤٨، وقاعدة كانتون برن، وتقع قرب منعطف نهر الآر (Aar). تعد مع ضواحيها نحو ٣٥٠ ألف نسمة.

أسست برن في ١١٩١ حول قلعة قائمة ذلك الحين، على بقعة كانت غابة سنديان، وكان نهر الآر خير حصن لها من جهات ثلاث. أما من الجهة الغربية فبني سور لا يزال بابه الرئيسي، ببرجه، من أهم معالم المدينة الأثرية. في القرن الثالث عشر، ضاقت المدينة بسكانها فدفع بالسور غربًا، إذ هناك باب آخر ما زال شاهدًا على ذلك. ثم دفع بالسور غربًا مرة جديدة في القرن الرابع عشر، فبني حيث تقوم محطة للقطار اليوم.

في ١٤٠٥، شبّ حريق هدم المدينة بكاملها. بناؤها كله كان من خشب. اعاد السكان البناء بالحجر الرملي الأخضر، وما زالت برن ذلك الحين قائمة إلى اليوم بشوارعها وساحاتها.

في ١٣٣٩، تجمع أسياد البورغون بموازرة فريبورغ لسحق برن (علمًا ان مؤسس مدينة

أينشتاين.

فريبورغ هـو والـد مؤسس مدينة بـرن)، غـير ان النصر كان لهذه الاخيرة. إذ هبّ لمساعدتها ٩٠٠ مقاتل من الكونفدراليين. عندئذ عقدت مع هـؤلاء حلفًا دائمًا في ١٣٥٣، فحمت ظهرها من الجنوب وادارت وجهها في اتجاه الشمال والغـرب متوسعة على حساب حكام السافوي فأخضعت لها لوزان وجنيف.

بلغت أوج ازدهارها السياسي والعسكري في القرن السادس عشر. وبقيت على ذلك حتى دخول جيوش نابوليون التي استرجعت منها نصف اراضيها. ورغم ذلك بقيت مقاطعة برن حتى الآن ثانية مقاطعات سويسرا من حيث المساحة.

في ١٨٤٨، عندما أعلنت الكونفدرالية السويسرية صيغتها السياسية الحالية، جعلت برن عاصمة لها. وساعدت المقاطعات التي كانت سابقًا تحت حمايتها في اختيارها عاصمة. والجدير ذكره ان الكونفدرالية السويسرية مركبة من ٢٣ مقاطعة (كانتون) لكل منها عاصمتها.

في السنوات الخمسين الأخيرة، زاد حجم المدينة وزادت أهميتها خصوصًا وانها اصبحت مركزًا صناعيًا وتجاريًا لا يستهان بها. انتشرت بيوتها ومصانعها خلف السور ومن الضفة الأخرى للنهر وتحولت المدينة القديمة إلى وسط تجاري مزدهر تزينه القناطر على طول ٦كلم، جاعلة منها أجمل الاسواق التجارية في العالم.

من أهم معالم برن:

– برج الساعة: هو الباب الأساسي للمدينة، يرجع للعام ١١٩١. كان خشبيًا من الداخل، وأعيد بناؤه بالحجر بعد حريق المدينة. ساعته تعود إلى ١٥٣٠.

– قصر البلدية: بني بين ١٤٠٦ و١٤١٧ على الطراز القوطي السائد في ذلك الحين، وذلك بعد حريق المدينة الشهير (١٤٠٥). ومن يومها حتى الآن ما زال قصرًا للبلدية.

– الكاتدرائية: يعود بناؤها إلى ١٤٢١، وهو على الطراز القوطي ايضًا. جرسها الأكبر يزن ١٠٥٠٠كلغ.

– قصر الحكومة الكونفدرالية: هو مركز البرلمان (مجلس الكانتونات ومجلس الشعب) ومركز الحكومة الكونفدرالية. يرجع بناؤه إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

– المتاحف: في برن العديد من المتاحف، منها متحف الفنون الجميلة الذي يضم ألفي عمل فني لبول كلاي؛ ثم متحف التاريخ الطبيعي الذي يحوي حوالي ٢٣٠ ألف تشبيه للحيوانات والطيور، كلها معروضة في إطار طبيعي؛ ومتحف جبال الألب الذي يعطي تأريخًا لتسلقها.

– معالم أخرى: حفرة الدببة التي يعود وجودها إلى القرن الخامس عشر. ومنذ ١٢٢٤ والدب شعار المدينة. وتقول الاسطورة بأن الدوق الذي بنى المدينة كان يصطاد فيها قبل بنائها فقتل هناك دبًا، ثم أعطى إسم الدب للمدينة («بار» في الالمانية).

وبرن مليئة بالكنائس القديمة والحديثة.

أقدمها تعود إلى القرن الثالث عشر وهي ايضًا مليئة بالابنية الأثرية.

وبرن مركز اتحاد البريد العالمي إذ أسس فيها سنة ١٨٧٤، ومركز المكتب المركزي للشحن الدولي بالسكك الحديدية.

فيها عاش أينشتاين بين ١٩٠٢ و١٩٠٩ يوم خرج بنظرية النسبية. وعنها قال: «كانت حقبة سعيدة السنون التي قضيتها في برن» (راجع «موتيه-النموذج على مشكلة الانتماء الكانتوني» في هذا الباب، «مدن ومعالم»).

* **بيين Bienne**: في الالمانية **Biel**. مدينة سويسرية تابعة لكانتون برن، وواقعة على الطرف الشمالي من بحيرة بيين. تعد نحو ٩٠ ألف نسمة مع ضواحيها، ثلثاهم يتكلمون الالمانية ويدينون بالبروتستانتية. تأسست في القرن الثاني عشر، ولا يزال جزء منها يحتفظ بطراز القرون الوسطى: بيوت قديمة ذات قناطر، كنيسة القديس بنوا (القرن الخامس عشر)، متحف شواب. والمدينة مركز صناعي: الساعات، المعادن والصناعة الميكانيكية.

في بحيرة بيين جزيرة صغيرة على إسم «القديس بطرس» اقام فيها جان جاك روسو (١٧٦٥) ووصفها في كتابه «أحلام متنزّه متوحّد».

* **تون Thonne**: في الالمانية **Thun**. مدينة سويسريةتابعة لكانتون برن، وتقع على ضفتي نهر آرو عند خروجه من بحيرة تون. تعد نحو ٨٦ ألف نسمة مع ضواحيها. تأسست في القرن الثاني عشر على يد دوق زهرينغن، ولا تزال أجزاء من المدينة تحمل طراز القرون الوسطى المعماري: قصر زهرينغن-كيبورغ (القرن الثاني عشر) الذي يضم حاليًا المتحف التاريخي، والكنيسة البروتستانتية التي يعود بناؤها إلى القرن العاشر (وكانت كاثوليكية)، وفندق المدينة (القرن السادس عشر). والمدينة شهيرة بمحطتها المناخية، بأجبانها، وبصناعتها الكهربائية وصناعة السيراميك.

* **جنيف Genève**: في الالمانية **Gent**، وفي الايطالية **Ginevra**. مدينة سويسرية. قاعدة كانتون جنيف. تبعد ١٢٧ كلم عن العاصمة برن، وتقع على تلال موزعة على جهتي نهر الرون وحيث تستقبل مياه رافده نهر آر. على الضفة اليسرى، تمتد المدينة القديمة ببيوتها العالية (بيت كالفن، وجان جاك روسو، وف.دو سوسور) وشوارعها الضيقة. تعد نحو ٤٣٥ ألف نسمة مع ضواحيها.

كانت جنيف بين الألف الخامس والألف الرابع ق.م. مدينة عائمة على ضفاف بحيرتها، ترتكز عرازيلها السكنية على أعمدة مغروسة في المياه أو في المستنقعات، ويعيش سكانها على صيد السمك والحيوانات قبل ان يتحولوا إلى الزراعة.

أول ذكر لجنيف في التاريخ كان سنة ٥٨ق.م. وذلك في ايام يوليوس قيصر. فبينما كانت قبائل الهلفاس (سكان سويسرا الاصليين) مدفوعة تحت ضغط القبائل الجرمانية للرحيل جنوبًا، قام يوليوس قيصر، على رأس جنوده، وهدم جسر المدينة الوحيد الذي كان يؤمن الصلة بين ضفتي المدينة. فارتبط تاريخ جنيف بتاريخ جسرها، واصبح هذا الأخير رمز المدينة بعلاقاتها وانفتاحها على العالم.

يقسم تاريخ المدينة إلى أربع حقبات متساوية تقريبًا من حيث عدد سنواتها:

- الحكم الروماني من القرن الاول ق.م. إلى اواسط القرن الخامس، عرفت المدينة خلالها ازدهارًا تجاريًا واقتصاديًا، فبنيت الاحواض وقنوات المياه والقصور العديدة في ريفها، وتضاعف عدد سكانها (من المؤرخين من يقول انه بلغ المئة ألف). وفي هذه الحقبة دخلت المسيحية إلى جنيف، وأول

أسقف رُسم على المدينة كان في العام ٣٧٨.

– أضعفت هجمات البربر (كانت قد بدأت في اواسط القرن الثالث) جنيف، وسقطت في أيديهم. فتعاقبوا على حكمها إلى يوم أصبحت عاصمة مملكة البورغون التي امتدت تخومها حتى البحر المتوسط. وإذ كان ملك البورغون، رودولف الثالث، دون عقب، سلّم مملكته إلى الامبراطورية الرومانية الجرمانية في ١٠٣٤، فسلّمها الامبراطور الجرماني بدوره لا إلى سلالة تحكمها، بل إلى أسقف أمير (وهذا شأن غالبية المدن السويسرية في تلك الحقبة).

– القرون الوسطى شكلت الحقبة الثالثة في تاريخ جنيف، وتميزت بالازدهار التجاري، خصوصًا في نهاية القرن الثالث عشر وطيلة القرن الخامس عشر. فقد كانت سوق جنيف اربع مرات في السنة محطة التجارة الاوروبية، إلى ان قضى على ذلك لويس الحادي عشر، ملك فرنسا، باعطائه امتيازات عديدة لمدينة ليون الفرنسية الواقعة على مقربة من جنيف.

وفي هذه الحقبة، كانت جنيف محط أطماع السافوي المحيطة بها. فأهالي جنيف كانت تتنازعهم إما نزعة الاستقلال المصحوبة بالانعزال أو الفقر، وإما الانتساب إلى السافوي مع الازدهار. فانقسموا إلى قسمين: الملكيون الذين فضلوا الالتحاق بالسافوي، والكونفدراليون الذين اخذوا ينظرون باتجاه المدن والمقاطعات السويسرية. وبدأت جنيف تعقد احلافًا عسكرية مع بعض الكانتونات السويسرية، مثل فريبورغ وبرن. وغالبًا ما كانت هذه الكانتونات تهب لمساعدتها ونجدتها كلما أتاها الخطر من السافوي. غير ان فريبورغ الكاثوليكية تخلت عن حليفتها في النهاية لأن افكار المصلحين البروتستانتيين، فيري وفاريل، بدأت تجتاح جنيف.

– في ١٥٣٦، تبدأ الحقبة الرابعة باعتناق جنيف المذهب البروتستانتي واعلان الجمهورية المستقلة، وذلك بغياب الأسقف الامير الذي ترك المدينة وترك كرسيه شاغرًا. وقد لعب المصلح الشهير، كالفن، دورًا مهمًا في تدبير وتنظيم المدينة، وجعل منها عاصمة دينية جديدة، فأصبحت جنيف للبروتستانت بمقام روما للكاثوليك. فإليها كان يلجأ المضطهدون بسبب مذهبهم الجديد من جميع بلدان اوروبا، ومن معهدها وأكاديميتها كانت ترسل للعالم مبشرين بالمذهب الجديد (البروتستانتية).

غير ان وضع جنيف السياسي والعسكري لم يهدأ. فظلت مطمعًا لحكام السافوي إلى ١٦٠٣، حيث اضطر دوق السافوي، شارل عمانوئيل الاول (بعد محاولاته الامساك بزمام الامور في جنيف) إلى توقيع معاهدة سان جوليان التي يتخلى بموجبها عن كل مطمع له في جنيف. وأخذ الحكم الاستقلالي في جنيف ينتقل، أكثر فأكثر، إلى أيدي طبقة الارستقراطية الموغلة في المحافظة والانعزال. فعرف القرن الثامن عشر بعض الاضطرابات الاجتماعية: ١٧٦٢–١٧٦٨، إدانة كتب جان جاك روسو؛ ١٧٩٢، انقلاب أطاح الارستقراطية وأعلن المساواة بين جميع المواطنين. وفي نيسان ١٧٩٨، احتلت جيوش الثورة الفرنسية جنيف وضمتها إلى فرنسا، فأصبحت قاعدة مقاطعة ليمان. ولم تستعد استقلالها الذاتي إلا في ١٨١٤. وفي ١٨١٥، اختارت جنيف الانضمام إلى الكونفدرالية السويسرية، وكانت احد الكانتونات الثلاثة الأخيرة في الانضمام. ومنذ اواسط القرن التاسع عشر، اخذت جنيف تصبح عاصمة للدبلوماسية العالمية، وهي لا تزال تحتل هذا الموقع العالمي حتى يومنا.

ففي ١٨٦٣، تأسست في جنيف جمعية الصليب الأحمر الدولي، وباتت تضم أكثر من ١٢٠ جمعية وطنية للصليب والهلال الأحمرين، وما يربو على ٢٢٠ مليون عضو. بدأت فكرة هذه الجمعية في رأس هنري دونان. وفي النداء الذي

أطلقه عبر كتابه «تذكار من سولفرينو». وبفضل اربعة من مواطني جنيف تأسست جمعية الصليب الأحمر، وإليها يرجع الفضل الكبير بتوقيع اتفاقية جنيف (١٨٦٤) لتحسين حال جرحى الحرب.

وعدا الصليب الأحمر، هناك المنظمات الدولية العديدة التي اتخذت من جنيف مركزًا لها. أولها، تاريخًا، منظمة العمل الدولية (١٩١٩)، ثم بدأت المنظمات تتكاثر، وعلى رأسها عصبة الامم المتحدة، وهيئة الامم المتحدة. ومما قاله الرئيس الاميركي ولسن بمناسبة اختيار جنيف مركزًا لعصبة الامم: «ليس هناك بلد في العالم كسويسرا في الحياد. فلهذا جعلها القدر لتكون مكان لقاء للشعوب التي تسعى للسلم والتعاون».

ومنذ لقاء ١٨٧٢ بين انكلترا والولايات المتحدة الاميركية لحل مشكلة الألباما، والمؤتمرات العالمية (الحكومية وغير الحكومية) تتلو المؤتمرات. منها: مؤتمر المشاكل والقضايا الآسيوية (١٩٥٤)، مؤتمر الدول الاربع الكبرى (١٩٥٥)، مؤتمر الامم المتحدة من اجل الاستعمال السلمي للطاقة الذرية، (تموز ١٩٥٥، شارك فيه علماء أتوا من ٧٢ بلدًا؛ وقبل وقت قليل من انعقاده، أصدر تسعة من كبار العلماء، بينهم برتراند راسل وأينشتاين، بيانًا تحذيريًا ضد الاخطار النووية)، مؤتمر الامم المتحدة للملاحة (١٩٥٨)، مؤتمر الامم المتحدة لتوقيف تجارب الاسلحة النووية (١٩٦١)، مؤتمر الامم المتحدة لتطبيق العلم في حقل التكنولوجيا (١٩٦٣)، مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية (١٩٦٤)، مؤتمر السلام في الشرق الاوسط (١٩٧٣)، لقاء جيمي كارتر بالرئيس السوري حافظ الأسد (١٩٧٧)، لقاء وزير خارجية الولايات المتحدة سايروس فانس بوزير الخارجية السوفياتي (١٩٧٧)، لقاء الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي حول نشر الاسلحة النووية في اوروبا (١٩٨٣)، مؤتمر الصلح الوطني اللبناني (١٩٨٣)، وغيرها الكثير من المؤتمرات واللقاءات حول الحروب والمشكلات في العالم (كوريا، فيتنام...).

ولعل أهم المؤتمرات الدولية التي عقدت في جنيف في النصف الثاني من القرن العشرين، تلك التي تمخضت عن «اتفاقيات جنيف ١٩٥٤»، و«مؤتمر السلام العربي-الاسرائيلي» ١٩٧٣.

الاول (١٩٥٤)، حضره الفرقاء المعنيون في الصراع في جنوب شرقي آسيا من دول كبرى واطراف محلية، وتوصلوا إلى اتفاقيات حول مستقبل كل من فيتنام ولاوس وكمبوديا، وذلك غداة الانتصار الذي احرزته قوات «فيت منه» بقيادة الجنرال جياب في ايار ١٩٥٤. فبالنسبة إلى فيتنام، نصت الاتفاقيات على إقامة حدود مؤقتة بين المنطقة التي حررتها قوات «فيت منه» وهي فيتنام الشمالية والمنطقة الجنوبية على ان يصار إلى إجراء انتخابات عامة في صيف ١٩٥٦. وبالنسبة إلى لاوس، نصت الاتفاقيات على إعادة توحيد البلاد التي كانت خاضعة لسيطرة ٣ قوات: يمينية ويسارية ومحايدة؛ وإجراء انتخابات عامة في البلاد، تمخض عنها، بعد تأخير، حكومة ائتلافية تحت رئاسة زعيم القوات المحايدة. أما بالنسبة إلى كمبوديا، فقد نصت الاتفاقيات على إجراءات مشابهة أدت إلى سيطرة الامير سيهانوك على مقاليد الحكم.

الثاني (عقد في ٢١ و٢٢ كانون الاول ١٩٧٣) في قصر الامم المتحدة (في جنيف)، واشترك فيه ٨٨ شخصًا يمثلون وفود الامم المتحدة (٧ اعضاء برئاسة كورت فالدهايم، السكرتير العام للامم المتحدة)، وجمهورية مصر العربية (٢٥ عضوًا برئاسة اسماعيل فهمي، وزير الخارجية)، والاردن (١٠ اعضاء برئاسة زيد الرفاعي)، واسرائيل (٨ اعضاء برئاسة آبا إيبان، وزير الخارجية)، والاتحاد السوفياتي (٢٧ عضوًا برئاسة أندريه غروميكو، وزير الخارجية)، والولايات المتحدة (١١ عضوًا برئاسة هنري كيسنجر، وزير

الخارجية)، فيما امتنعت سورية عن حضوره. وكان من أهم مهام المؤتمر فصل القوات العربية-الاسرائيلية على جبهة قناة السويس. وقد صدر على أثره بيان تلاه الامين العام للامم المتحدة، جاء فيه: «بعد مداولات رسمية وغير رسمية، توصل المؤتمر إلى إجماع حول أعماله من خلال تشكيل لجنة عمل عسكرية ولجان عمل أخرى يرغب المؤتمر بأن تشكل في المستقبل؛ وان لجنة العمل العسكرية ستبدأ بمناقشة مسألة فصل القوات، وسترفع لجان العمل توصياتها إلى المؤتمر الذي سيستمر على مستوى السفراء على الاقل... وسيعود المؤتمر إلى الانعقاد على مستوى وزراء الخارجية في جنيف حسبما تقتضي الحاجة في ضوء التطورات». لكن المؤتمر لم يدع للانعقاد مجددًا، فيما أخذت الولايات المتحدة تعمل منفردة على حل النزاع العربي-الاسرائيلي.

أهم معالم المدينة:

- كاتدرائية مار بطرس، بدأ تشييدها في ١١٥٠، وأعيد بناؤها في القرن السادس عشر يوم أصبحت كنيسة بروتستانتية مع الاصلاح. فيها كان يعظ المصلح كالفن بين ١٥٣٦ و١٥٦٤.
- ساحة بورغ دو فور، أقدم ساحة في المدينة.
- قصر العدل المطل على الساحة والذي يعود بناؤه إلى اوائل القرن الثامن عشر.
- الشارع الأكبر، وترجع مبانيه إلى القرن الخامس عشر-الثامن عشر، وقد رُمّم بأكمله. في المبنى رقم ٤٠ منه، ولد جان جاك روسو.
- المتاحف، وأهمها متحف القصر الصغير ويحتوي على لوحات من جميع تيارات الفن الحديث؛ ومتحف خصائص الشعوب في القارات الخمس؛ والمكتبة العامة والجامعية التي تحتوي على مخطوطات وصور لمشاهير جنيف، وكذلك على متحف تاريخ الاصلاح البروتستانتي وعلى متحف جان جاك روسو؛ ومتحف الفن والتاريخ لحوض البحر المتوسط (اليونان، روما، مصر، ما بين النهرين...)؛ متحف آلات الموسيقى القديمة؛ متحف تاريخ العلم؛ متحف الساعات، ويحتوي على مجموعة نادرة من الساعات السويسرية والاوروبية من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين؛ متحف جنيف، يروي تاريخ الطبيعة من تكوين المعادن والبلور إلى ظهور النبات والحيوان.
- أهم خصائص جنيف (رمزها) النافورة التي يبلغ ارتفاعها ١٢٠م بسرعة ٢٠٠كلم/ساعة وبطاقة ١٣٦٠ حصانًا، أي ٥٠٠ ليتر في الثانية. وكذلك جزيرة جان جاك روسو التي كانت بمثابة حصن دفاع المدينة في العصور الوسطى.
- في جنيف مسجد ومؤسسة إسلامية (الجالية الاسلامية في جنيف تعد نحو ٧ آلاف نسمة) وُجدا بمبادرة من الملك السعودي فيصل. وفي المؤسسة متحف ومكتبة ومختبر لغات ومدرسة لتعليم اللغة العربية والقرآن الكريم.

* **زوريخ Zurich**: أكبر مدينة سويسرية. تقع عند ضفاف نهر ليمان ونهر سيهل على الطرف الشمالي من بحيرة زوريخ، وتبعد عن العاصمة ٩٥كلم، وتعد نحو مليون نسمة مع ضواحيها، أغلبهم يتكلمون الالمانية ويدينون بالبروتستانتية.

منذ نحو ٤٠ ألف سنة، زوريخ مغمورة بالجليد الذي تراجع مع الزمن، غير ان أسفل المدينة بقي مغمورًا بالمياه.

في العام ١٥ق.م. بنى فيها الرومان ثكنة عسكرية، ومدّوا جسرًا خشبيًا فوق نهرها. بعد ذلك بأربعة قرون اصبحت المسيحية ديانتها الرسمية. تراجع عنها الرومان في اول القرن الخامس واحتلتها قبائل الفرنكيين في اوائل القرن السابع.

يذكر التاريخ إسم زوريخ في ٩٢٩ لأول مرة. في ذاك الحين أعطيت الحق الجمركي والحق في ان تكون سوقًا تجاريًا. بدأ ملوك المانيا يقيمون

فيها غالبًا، فأصبحت مدينة ملوكية في اواسط القرن الحادي عشر.

في اوائل القرن الثالث عشر كان يديرها مجلسان: مجلس الاشراف ومجلس التجارة. في هذا الوقت، بدأت بعض الأسر تبتني لها بيوتًا وقصورًا بأبراج. وما زالت زوريخ تحوي منها ثلاثة ابراج حتى الآن. في هذا القرن ايضًا (الثالث عشر)، أحيطت زوريخ بسور له سبعة ابواب وتسعة ابراج ظل يحميها إلى اواسط القرن التاسع عشر. وفي هذا القرن (الثالث عشر) دخلتها صناعة الدباغة، الحياكة وصناعة الحرير. وبلغت تجارة الحرير أوجها في ١٣٣٥ حيث لم تكن المدينة تتعدى ٨٥٠٠ نسمة.

في ١٣٥١، قطعت زوريخ عهدًا مع الكونفدراليين السويسريين، ولم يمض قرن واحد على هذا العهد حتى نشب خلاف مع حلفائها دام نحو ٢٠ سنة.

بين ١٥١٩ و١٥٢٨ تحولت زوريخ إلى البروتستانتية بفضل المصلح زفينغلي الذي توفي في ١٥٣١ أثناء معركة ضد السويسريين الكاثوليك.

في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، شهدت المدينة صدور أول صحيفة يومية، وكان عدد سكانها لا يتعدى ١٠٥٠٠ نسمة، كان ربعهم يعملون في النسيج. وسنة ١٨٤٨، أصبحت زوريخ عاصمة مقاطعة سيّدة مستقلة في الاتحاد السويسري. وفي ١٨٧٤، دشّنت فيها كنيسة كاثوليكية ولأول مرة بعد دخول البروتستانتية.

في اواخر القرن التاسع عشر، قام اتحاد ضم زوريخ و١١ بلدية من حواليها، فارتفع عدد سكانها من ٢٨ ألفًا إلى ١٢١ ألفًا. غير ان قمة ارتفاع عدد السكان كانت في ١٩٦٢، إذ فاق العدد الـ٤٤٥ ألفًا.

في ١٨٨٤، شهدت زوريخ أول خط كهربائي لوسائل النقل فيها. وفي ١٩٤٨، اتصلت عبر مطارها بالعالم.

زوريخ عاصمة سويسرا الاقتصادية بفضل ما عرفته من ازدهار اقتصادي تاريخي مستمر. فمنذ القرن الثالث عشر، وتحديدًا يوم فرض رودولف برون، أول حاكم للمدينة، إشراك التجار واصحاب الصناعة في السلطة، وزوريخ تعرف التقدم والازدهار الدائمين. من تجارة الحرير والنسيج، إلى الحياكة، إلى تصنيع آلات الحياكة، إلى صناعة الصلب والميكانيك. فالخط الحديدي، عبر جبال الألب، يوصل الشمال بالجنوب مرورًا بزوريخ. لا بل هي عقدة مواصلات شبكة حديدية توصلها بجميع مدن سويسرا وبجميع العواصم الاوروبية. وهكذا بالنسبة إلى شبكة الطرق المعبدة والمطار.

أهم معالم زوريخ التاريخية:

- الكاتدرائية Grossmunster، بطرازها القوطي، هي رمز المدينة. ترجع إلى القرن الحادي عشر–الثاني عشر بأساساتها وأجزائها القديمة. رسوم النوافذ للفنان جاكوماتي وتعود إلى ١٩٣٠–١٩٣٥.
- كنيسة Fraumunster، وقد شيدت بفضل نساء الأشراف. بعض أجزائها يرجع إلى القرن التاسع–القرن الحادي عشر، وهي على النمط القوطي. على نوافذها أعمال للفنان جاكوماتي (١٩٣٠)، وللفنان شاغال (١٩٧٠).
- كنيسة مار بطرس، وهي كنيسة زوريخ الرعائية. هي الأقدم في المدينة. جزؤها الممتد طولاً هو على نمط القرن الثامن عشر وفي تباين مع البرج ذي النمط الروماني. ساعة البرج هي أكبر ساعة في اوروبا (قياس قطرها ٨،٧م).
- كنيسة ودير أوغسطينوس، يرجع بناؤها إلى ما بين ١٢٧٠ و١٢٨٠. الجزء الممتد طولاً أعيد بناؤه على الطراز القوطي. رسومها الزيتية ترجع إلى اوائل القرن الخامس عشر. في الجزء الجنوبي الغربي تأسست جامعة زوريخ (١٨٣٧–١٨٦٤).

– في زوريخ ٢٠ متحفًا، أهمها: المتحف الوطني الذي تأسس في ١٨٨٠، ويتناول التاريخ الفني السويسري منذ الحضارة الرومانية إلى اليوم. ومتحف الفنون الجميلة، ويحتوي بالخصوص على رسوم من الفن الاوروبي، وأهم الاعمال الفنية فيه لبيكاسو وجاكوماتي. ومتحف ريتبرغ، وهو متحف حديث تأسس في اوائل خمسينات هذا القرن، ويحتوي على أعمال فنية غير اوروبية، خصوصًا من الهند والصين وافريقيا، وعلى مجموعة فنية يابانية ومجموعة سجاد شرقي.

*** سان غال St Gall**: في الالمانية Sankt Gallen. مدينة سويسرية، قاعدة (عاصمة) كانتون سان غال، على بعد ١٢كلم جنوبي بحيرة كونستانس. تعد نحو ١٣٨ ألف نسمة مع ضواحيها. كرسي أسقفي. جامعة للعلوم التجارية. أسست المدينة حول كاتدرائيتها، وأعيد بناؤها في القرن الثامن عشر في موقع الرعية الاسقفية السابق. والكاتدرائية، أحد أهم أعمال الهندسة الباروقية في سويسرا. والمدينة مركز تاريخي للصناعة النسيجية في سويسرا.

يعود أصل سان غال إلى دير أقيم حوالي ٧٢٠ في موقع كان أحد المرسلين الايرلنديين، ويدعى غالوس، قد اتخذه للصلاة والزهد في العام ٦١٢. وهذا الدير أصبح، منذ القرن التاسع، دارًا مهمًا للآداب والفنون. ثم أخذت المدينة تتوسع تدريجيًا حول الدير، ويحكمها رهبانه الذين اصبحوا أمراء في الامبراطورية المقدسة منذ ١٢٠٦. وفي ١٤٥٣، انضم الدير، والمدينة، إلى الكونفدرالية الهلفية. ومع دخول الاصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر، طُرد الرهبان من الدير، ثم عادوا إليه بعد معركة كابيل والسلام الذي تحقق بعدها (Kappel: ١٥٢٩، معاهدة أجازت لكل كانتون ان يكون حرًا في أموره الدينية). وعاد الرهبان وغادروا الدير نهائيًا على أثر وثيقة ١٨٠٣ التي تأسس بموجبها كانتون سان غال وانضم إلى الكونفدرالية.

*** شافهاوس Schaffhouse**: في الالمانية Schaffhousen. مدينة سويسرية، تقع على الضفة اليمنى من نهر الراين. قاعدة كانتون شافهاوس الواقع شمالي البلاد. تعد نحو ٦١ ألف نسمة مع ضواحيها، أكثريتهم يتكلمون الالمانية ويدينون بالبروتستانتية. لا تزال المدينة تحتفظ، باجزائها الغالبة، بطراز القرون الوسطى: ابراج، بيوت قديمة، كاتدرائية رومانية. فيها متحف «زو ألليرهايليجن» (أي «جميع القديسين»). صناعاتها: المعادن، النسيج، والصناعة الميكانيكية الدقيقة.

نمت شافهاوس في محيط دير تأسس في ١٠٥٠. أصبحت مدينة حرة في ١١٩٠، وانتقلت إلى أيدي آل هابسبورغ في ١٣٣٠، وتمكنت من تحرير نفسها في ١٥٠١ لتدخل في الكونفدرالية السويسرية. انضمت إلى المدن التي دعمت حركة الاصلاح البروتستانتي في ١٥٢٩.

*** فريبورغ Fribourg**: في الالمانية Freiburg im Uchtland. مدينة سويسرية، غربي البلاد. قاعدة كانتون فريبورغ. تعد نحو ٨٢ ألف نسمة مع ضواحيها. كرسي أسقفي. جامعة كاثوليكية تأسست في ١٨٨٩. كاتدرائية القديس نيكولا (القرن الثالث عشر–القرن الخامس عشر)، وكنيسة من القرن الثامن عشر. كنيسة ومعهد سان ميشال (القرن السادس عشر). فندق المدينة (القرن السادس عشر). صناعات غذائية، وكيميائية، وكهربائية.

تأسست المدينة في ١١٥٧ على يد أسرة زهرينغن (أسرة أمراء ألمان حكمت مناطق في جنوبي المانيا في القرن الثاني عشر–القرن الثالث عشر). عاشت فترة طويلة من السلام بفضل معاهدة التحالف بين فرنسا (الملك فرنسوا الاول)

وسويسرا التي وقعت فيها في ١٥١٦. في القرن السادس عشر، أصبح كانتون فريبورغ مركز الاصلاح الكاثوليكي (ردًا على الاصلاح البروتستانتي). ثلثا سكان الكانتون يتكلمون حاليًا الفرنسية، والثلث الباقي الالمانية.

في ٥ تشرين الاول ١٩٩٤، تناقلت وسائل الاعلام العالمية إسم فريبورغ بسبب مجزرة اختلط فيها الانتحار الجماعي والقتل أودت بحياة العشرات من أتباع طائفة عرفت بـ«طائفة الهيكل الشمسي» ووقعت في قرية شيري إحدى ضواحي فريبورغ.

موقع مدينة لا شو دو-فون.

* **كوار Coire**: في الالمانية **Chur**؛ في الايطالية Coira؛ في الرومانية (قريبة من الايطالية) Cuera. مدينة سويسرية. قاعدة كانتون غريزون في وادي الراين، وعند مصب نهر بليسّور Plessur. تعد نحو ٦٠ ألف نسمة مع ضواحيها. كرسي أسقفي كاثوليكي. كاتدرائية من القرن الثاني عشر-الثامن عشر. فندق المدينة من القرن الرابع عشر. مركز سياحي مهم. صناعات نسيجية، وغذائية (شوكولا).

كانت تدعى كوريا رايتوروم Curia Rhaetorum في اواخر ايام الرومان، وكانت مقرًّا لأسقفية كاثوليكية في القرن الخامس. وأساقفتها، الذين كانوا حلفاء آل هابسبورغ، تعاقبوا على حكمها من القرن الخامس إلى القرن الخامس عشر حيث أصبحت كوار مدينة مهمة وحرة. ومن القرن السادس عشر حتى الثامن عشر، أصبح تاريخها متطابقًا وتاريخ غريزون، وهو الكانتون السويسري الثامن عشر بموجب وثيقة ١٨٠٣.

* **لا شو-دو-فون La Chaux-De-Fonds**: مدينة سويسرية، واقعة في كانتون نويشاتل، على ارتفاع ٩٩٧م عن سطح البحر. تعد نحو ٥٥ ألف نسمة مع ضواحيها. مركز صناعة الساعات. متحف الساعات ومتحف الفنون الجميلة.

لا شو-دو-فون تعني، أول ما تعني، ميزتها التاريخية والعالمية في صناعة الساعات. فالقرن الثامن عشر، الذي شهد بداية صناعة الساعات

لا شو دو-فون في العشرينات.

بطرق حديثة وإنتاج تجاري، شهد في الوقت نفسه الحركة العمالية وانتشار ظاهرة وحركة الفوضويين (باكونين وكروبوتكين لجأ إلى هذه المنطقة السويسرية) الذين كانوا على رأس محرّكي الحركة النقابية في سويسرا وبثوا افكارًا جذبت اشخاصًا مبتكرين ومبادرين بينهم نخبة من اليهود. ففي هذه المنطقة، حيث لا شو-دو-فون، وأكثر من أي منطقة أخرى شعر السكان بأنهم مواطنون أعضاء في كومونة واحدة.

حريق ضخم أتى على البلدة في ١٧٩٤، وكان عدد سكانها لا يتعدى الـ٤ آلاف نسمة. فأعاد الأهالي بناء بلدتهم على أساس هندسي منظم ومريح بالنسبة إلى جميع ساكنيها آخذين بالاعتبار توسعها المستقبلي.

في القرن التاسع عشر، ونتيجة للازدهار المفاجيء في صناعة الساعات، تضاعف عدد السكان أكثر من عشر مرات. فزاد عدد البيوت بنسبة مائة بيت سنويًا بين عامي ١٨٨٠ و١٩٢٠.

في ١٩٩٤، نالت لا شو-دو-فون جائزة واكّر Wakker من «الرابطة السويسرية للتراث» تقديرًا لها لانجازها ٨٠٠ ابتكار جديد في صناعة الساعات خلال السنوات العشر الأخيرة.

في المدينة، يعيش اليوم نحو ٩٧٠٠ شخص من مختلف الجنسيات: من ايطاليا، من اسبانيا، من البرتغال، من يوغوسلافيا، وغيرها. أما نشاطها الاقتصادي الأساسي فلا يزال صناعة الساعات. في ١٩٦٩، كان ٨٠٪ من سكانها يعيشون، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، من هذه الصناعة. ولكن لأسباب كثيرة، فنية وتكنولوجية وصناعية وعالمية وتجارية، فقدت لا شو-دو-فون ٦ آلاف فرصة عمل في قطاع صناعة الساعات بين ١٩٧٠ و١٩٨٥. لكن المدينة لا تزال الأشهر عالميًا في هذه الصناعة.

* **لوزان Lausanne**: مدينة سويسرية.

قاعدة كانتون الفود **Vaud**. تقع على الضفة اليمنى لبحيرة ليمان، عند اقدام الجورا. تعد نحو ٣١٠ آلاف نسمة مع ضواحيها.

كانت لوزان في ايام الرومان (القرن الاول ق.م.) مدينة تجارة وعبور لوقوعها على ملتقى طرق بين ايطاليا وفرنسا والبحر المتوسط من جهة، والمانيا من جهة أخرى. وهناك آثار رومانية لا تزال قائمة على ضفاف البحيرة في الحي الجنوبي الغربي من المدينة.

في القرن الثالث، انتقلت المدينة إلى قمة مجاورة خوفًا من هجمات البربر الذين كانوا يهددون الامبراطورية الرومانية. وقد سميت هذه القمة بـ«المدينة»، ومنها أخذت تتوسع نزولاً ثم صعودًا إلى قمتين مجاورتين.

من اواخر القرن السادس إلى اواسط القرن السادس عشر كان يحكمها أمير أسقف. وقد جعل منها هؤلاء الأمراء الأساقفة مدينة حرة ولو كانت تابعة لحكم السافوي. وتمكن سكان أحيائها السفلى، وكانوا قد أثروا بسبب ازدهار تجارتهم، ان يشكلوا في اواسط القرن الرابع عشر كومونة مستقلة دامت نحو ١٢٠ سنة.

يوم تاريخي عاشته لوزان عندما التقى البابا والامبراطور لتدشين كاتدرائيتها بعد الانتهاء من بنائها (١٢٧٥)، وتحت سقفها تصالحا بعد عداء طويل.

في الربع الأخير من القرن الخامس عشر، أتى إلى لوزان «دوق الغرب الأكبر»، شارل الملقب بـ«الجسور»، وعقد مع الامبراطور معاهدة حرب ضد السويسريين. بعد ان انتصر هؤلاء على الدوق في معركة مورا، ساروا على لوزان ونهبوها انتقامًا. ورغم علاقة الصداقة التي عقدتها لوزان مع برن وفريبورغ (مدينتان قويتان عسكريًا حينذاك)، استفادت برن من حرب لوزان ضد السافوي، فاحتلت المدينة وضمتها إليها. فعزلت اسقفها الامير وأقامت محله حاكمًا تعينه. وبقيت لوزان

خاضعة لبرن ما يقارب الـ ٢٥٠ سنة (١٥٣٦-١٧٦٨) رغم محاولتي تحرير باءتا بالفشل، خاصة محاولة الضابط دافيل في ١٧٢٣. و لم تتحرر نهائيًا إلا بعد الثورة الفرنسية. وفي ١٨٠٣، وبتأثير من نابوليون، اصبحت لوزان عاصمة كانتون فود ودخلت في الوقت نفسه الاتحاد السويسري. فاندمج تاريخها بتاريخ سويسرا منذ ذلك الحين.

أهم معالم لوزان التاريخية:

- الكنيسة، في وسط الساحة، تعود إلى القرن الثالث عشر، وهي آخر ما تبقى من دير للرهبان الفرنسيسكان.

- الكاتدرائية، طراز قوطي، وتعود ايضًا إلى القرن الثالث عشر.

- متحف المطرانية القديمة، وكان قصر اساقفة لوزان حتى بداية القرن الخامس عشر.

- قلعة سان مير St Maire المبنية في القرن الخامس عشر لتصبح بدورها مركزًا للاساقفة الامراء، ثم مركزًا للحكام المعينين من برن، قبل ان تصبح اخيرًا، وإلى يومنا، مقرًا لحكومة الكانتون. في جهته الجنوبية نصب للضابط دافيل الذي قاد ثورة فاشلة ضد برن التي أعدمته بقطع رأسه (١٧٢٣).

- بين القلعة والكاتدرائية بناء من القرن السادس عشر بنته برن وجعلت منه اكاديمية علوم وكلية لاهوت بروتستانتي، ثم أصبح جامعة لوزان، وما زال يأوي قسمًا من هذه الجامعة حتى الآن.

- المتاحف، وأهمها متحف الفنون الجميلة، ومتحف الفن الخام (أعمال لفنانين هامشيين، منهم السجين، أو المجنون وكل من اختلف عن غيره من الناس)، ومتحف الالعاب الاولمبية، ومتحف التاريخ الطبيعي، ومتحف علم الارض، ومتحف الحيوان، ومتحف تاريخ المدينة، ومتحف فيدي الروماني (يعرض آثارًا رومانية من مدينة لوزان في القرن الاول ق.م).

ارتبط إسم لوزان بعدة مؤتمرات دولية عقدت فيها. نذكر منها «سلم أوشي» في ١٩١٢ بين ايطاليا وتركيا، والمؤتمرين الدوليين في ١٩٢٣ و١٩٣٢، ومؤتمر الصلح اللبناني (١٩٨٤). لكن أهمها مؤتمر ١٩٢٣ ومؤتمر ١٩٣٢.

مؤتمر ١٩٢٢-١٩٢٣، دولي ضم الدول الغربية الحليفة في الحرب العالمية الاولى واليونان وتركيا، انتهى بالتوقيع على معاهدة (معاهدة لوزان) كرست انتصار تركيا في حربها ضد اليونان وإلغاء معاهدة سيفر التي كان الحلفاء قد فرضوها على تركيا واسترجاع هذه الأخيرة لصلاحياتها التي كانت لها قبل الحرب وأهمها: استرجاع تراقيا الشرقية وسيطرتها على منطقة الدردنيل بشرط ان تبقى منزوعة السلاح، وعلى بعض جزر بحر إيجه واقليم أزمير كما نجح الاتراك في إلغاء الامتيازات الاجنبية على اراضيهم ومناطق النفوذ فيها، واتفقوا مع اليونان على تبادل الرعايا.

ومؤتمر لوزان (١٩٣٢) هو ايضًا مؤتمر دولي لحل مشكلة التعويضات الالمانية للحلفاء السابقين. حضره ممثلو الدول الدائنة (بريطانيا، فرنسا، بلجيكا وايطاليا) بالاضافة إلى المانيا. وانتهى المؤتمر إلى اتفاق على ان الشروط الاقتصادية العالمية السائدة جعلت الاستمرار في دفع التعويضات من جانب المانيا مستحيلاً. ومع ذلك فقد قرر المؤتمر ان تدفع المانيا إلى بنك التسويات الدولية الذي تأسس في ١٩٢٤ سندات قيمتها ٣ مليارات مارك الماني بفائدة ٥٪. كما قررت الدول الدائنة إلغاء ديون الحرب فيما بينها، ولكنها توصلت إلى «اتفاق شرف» (جنتلمان) بألا يصدق على «بروتوكول لوزان»، المتضمن ما انتهى إليه المؤتمر من اتفاقات، حتى تكون قد توصلت إلى اتفاق مرض حول ديون الحرب التي تدين بها هذه الدول للولايات المتحدة. وعلى الرغم من انه لم يتم التصديق على «بروتوكول لوزان» مطلقًا، إلا انه أنهى عمليًا المحاولات للحصول على تعويضات أخرى من المانيا. وبهذا

فقد اعتبر «مؤتمر لوزان» في المانيا انتصارًا دبلوماسيًا كبيرًا للمستشار الالماني فرانز فون بابن. وقد لعبت بريطانيا دورًا مهمًا في اقناع الحلفاء بتخليص المانيا من مشكلة التعويضات، لأن ذلك كان يتفق مع مصالحها التجارية في اوروبا. فقد كانت ترى ان تردي حالة المانيا الاقتصادية بسبب التعويضات الباهظة التي تدفعها منذ نهاية الحرب العالمية الاولى اصاب اقتصاد اوروبا كلها بحالة كساد، وحدّ من امكانيات التوسع التجاري البريطاني في القارة.

* **لوسرن Lucerne**: في الالمانية **Luzern**. مدينة في وسط سويسرا. قاعدة كانتون لوسرن. تقع على الطرف الغربي من البحيرة التي تصل أربعة كانتونات ببعضها. تعد نحو ١٨١ ألف نسمة مع ضواحيها.

لا يذكر التاريخ إسم لوسرن قبل سنة ٨٤٠م. قبل ذلك كانت قرية صغيرة تعيش من صيد الاسماك. في القرن الثامن، وبفضل دير رهبان بني فيها، أخذت أهميتها تكبر. غير ان نموها بدأ فعلاً في اواسط القرن الثالث عشر عندما سمحت لها سلالة آل هابسبورغ بايجاد سوق تجارية، وباختيار سلطة محلية تحكمها، وببناء سور يحميها، خصوصًا وان الطرق الجبلية بين شمال ايطاليا وسويسرا الوسطى أصبحت سالكة في ذلك القرن. هكذا أصبحت البحيرة (المشتركة بين اربعة كانتونات سويسرية حاليًا) يومئذ طريقًا للملاحة بين الشمال والجنوب.

في ١٢٩١، اشترى الامارة كونت آل هابسبورغ. غير ان أطماع أهاليها لم تتحمل حكم الأجنبي، فاضطرت ان تعقد حلفًا مع الكونفدرالية السويسرية الناشئة، وكان ذلك في ١٣٣٢.

بين ١٣٨٠ و١٤١٥، عرفت لوسرن أوج ازدهارها. فوسعت الاسوار التي بقيت تحضن المدينة حتى اواسط القرن التاسع عشر.

استمرت على مذهبها الكاثوليكي في عهد «الاصلاح»، واشتركت بحماس في الحروب الدينية. وعندما احتلتها الجيوش الفرنسية في ١٧٩٨، أصبحت، لمدة قصيرة، عاصمة سويسرا. لكن كانتون لوسرن أعيد من جديد في ١٨٠٣. وكان للسياسة الكاثوليكية التي انتهجتها لوسرن في القرن التاسع عشر قد أدت إلى قيام حلف «سوندبوند» (١٨٤٧) وإلى هزيمة المدينة امام الجيوش الفدرالية.

سياسيًا، بقيت لوسرن «جمهورية أشراف» حتى الثورة الفرنسية. وبعد تقلبات عديدة وقصيرة أصبحت في ١٨٤٨ كانتونًا كباقي الكانتونات السويسرية.

في ١٨٣٧، شهدت لوسرن أول مركب بخاري على بحيرتها. وبعد ذلك بنصف قرن تقريبًا شهدت حدثًا جديدًا غيّر وجهتها الحضارية: بناء أول خط حديدي وصل طرف بحيرتها بالطرف الآخر. ففقدت المراكب أهميتها التجارية، لكن حركة السياحة الناشئة حولت لوسرن إلى مركز سياحي ذا أهمية كبرى، ويعود بناء الفنادق الفخمة فيها إلى هذه الحقبة.

رغم نموها ما زالت لوسرن تحافظ على طابعها الوسطوي. من أهم معالمها:

– السور الذي يعود إلى اوائل القرن الخامس عشر بأبراجه التسعة، ولا يزال بالامكان الصعود إلى بعضها.

– البرج المثمن الأضلاع والقائم في وسط النهر، وهو رمز المدينة. كان اولاً برج مراقبة للدفاع عنها، ثم حوى الخزانة والكنز، وبعدئذ استعمل كغرفة تعذيب قبل ان يصبح اخيرًا مكانًا لإحدى الجمعيات.

– جسر الكابيلا الذي يصل ضفتي النهر (نهر روس). وهو جسر مسقف بني في ١٣٣٣ على أعمدة من خشب. تزينه رسوم زيتية تعود إلى القرن السابع عشر.

– جسر المطاحن الذي يعود إلى اوائل القرن الخامس عشر. وهو ايضًا مسقف ومزين برسوم الفنان كاسبار بجيلينجر (عاش في القرن السادس عشر) التي تصور رقصة الموت وقصر الحياة وأباطيل الدنيا.

– نصب الأسد الذي وضع رسمه الفنان الدانماركي برتل تور فالدسن، وبدأ بنحته أورس إيجنشفيلر الذي مات قبل إتمامه، فتابع العمل النحات لوقا أهورن. ووراء هذا النصب قصة قتل الفرنسيين، أثناء ثورتهم الكبرى، في ١٧٩٢، ٧٦٠ جنديًا سويسريًا من الحرس الملكي الفرنسي، بينهم ٢٦ ضابطًا. فقام أحد الضباط الناجين من المذبحة بجمع عشرين ألف فرنك لقيام هذا النصب (بين المتبرعين ملك بروسيا وقيصر روسيا) تذكارًا لشجاعة الجنود السويسريين وأمانتهم. وقد دشن في ١٨٣١. ومنذ ١٩٤٢، وساحة النصب تشهد مهرجانًا سنويًا دوليًا للموسيقى.

– الكنائس، وهي عديدة في لوسرن، كل منها تقدم صورة عن طراز عهدها. أشهرها كنيسة الفرنسيسكان من الطراز القوطي، وكنيسة اليسوعيين من القرن السابع عشر.

– قصر الحكومة (في لوسرن القديمة) يرجع إلى القرن السادس عشر، وهو على طراز فن العمارة المعروف في فلورنسا.

– المتاحف، وأهمها متحف أم رين هوس Am Rhyn Haus، ويعود بناؤه إلى اوائل القرن السابع عشر، ويضم مجموعة من لوحات بيكاسو، أهداها هذا الأخير للمدينة بمناسبة يوبيلها المئوي الثامن. متحف الموسيقار فاغنر، وبناء المتحف كان بيته، وقال مرة: «لا أحد يمكنه ان يجعلني أترك هذا البيت»، الطابق الاول منه هو متحف للآلات الموسيقية. متحف المواصلات الوطني، وهو الوحيد في نوعه في سويسرا والأهم في اوروبا، يقدم وحدات من تاريخ المواصلات البرية والمائية والجوية والفضائية، وكذلك البريدية والهاتفية. متحف تاريخ لوسرن الطبيعي وآثار كانتونها الذي يتعرض لعلم الارض والمعادن والصخور في الكانتون، كما يتعرض للحيوان والنبات والبيئة، ولتحف ترجع إلى الانسان الاول الذي سكن هذه البقاع. وهناك متحف «جنينة الجليد»، وهي بقعة طبيعية في المدينة، اكتشفت في ١٨٧٢ وترجع إلى ٢٠ مليون سنة، يوم كانت لوسرن مغمورة بالجليد، لا بل شاطئًا لبحر كان يغمر جوانبها.

* **لوكارنو Locarno**: في الالمانية Luggarus. مدينة سويسرية، في الطرف الشمالي الغربي من بحيرة ماجور عند أقدام جبال الألب. تعد نحو ٤٧ ألف نسمة مع ضواحيها. بيوتها قديمة. قصر يعود إلى القرن الخامس عشر–السادس عشر. على صخرة تشرف على المدينة يقوم مزار «مادونا دل ساسو» الذي يعود إلى القرن الخامس عشر. مركز سياحي مهم للغاية بفضل مناخ منعش

إحدى جلسات مؤتمر لوكارنو (١٩٢٥).

قلّ نظيره في العالم. مهرجان دولي للسينما.

إرتبط إسم لوكارنو بالاتفاقيات الدولية التي وقعت في ١٩٢٥، ووقعتها بريطانيا وفرنسا وايطاليا والمانيا وبلجيكا بهدف اقرار سلم دائم في اوروبا. وقد جرى التوقيع في اعقاب مؤتمر انعقد في لوكارنو في ٥-١٦ تشرين الاول ١٩٢٥، حضره تشمبرلين (بريطانيا) وبريان (فرنسا) وموسوليني (ايطاليا) وستريسمان (المانيا) وفاندرفلد (بلجيكا). وقد نصت هذه الاتفاقيات على اعتراف متبادل بالحدود بين فرنسا وبلجيكا والمانيا، بضمانة من بريطانيا وايطاليا، وعلى حق الدول الموقعة على هذه الاتفاقيات في اللجوء إلى القوة في حال اقدام المانيا على احتلال منطقة رينانيا المنزوعة السلاح، وعلى اللجوء إلى التحكيم الالزامي بين المانيا وفرنسا وبلجيكا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا في حال نشوب خلاف أو نزاع بين الدول المذكورة. وقد اشترط ستريسمان، لقاء توقيعه على هذه الاتفاقيات، ان يتم الجلاء عن منطقة كولونيا وان تمنح المانيا مقعدًا دائمًا في عصبة الامم. وقد دخلت المانيا عصبة الامم فعلاً في ايلول ١٩٢٦، كما ألغي رسميًا حياد بلجيكا الذي كان قد سبق للملك البجيكي ألبير الاول إدانته في ١٩١٨. وقد طرح وزير الخارجية الفرنسي بارتو، في وقت لاحق، مشروع «لوكارنو شرقية» تهدف إلى إقرار الحدود القائمة في اوروبا الشرقية منعًا لحصول منازعات مسلحة بصددها. بيد ان مشروعه لم يحظ إلا بتأييد عاصمتين أوروبيتين شرقيتين هما براغ وموسكو. ولئن أسفرت مبادرة بارتو عن التوقيع على ميثاق تعاضد مشترك بين باريس من جهة وبراغ وموسكو من جهة أخرى (١٩٣٥)، فقد أعطت هتلر بالمقابل ذريعة كان يبحث عنها للتملص من تطبيق اتفاقيات لوكارنو. فقد احتج هتلر بميثاق التعاضد المذكور ليحتل رينانيا المنزوعة السلاح (٧ آذار ١٩٣٧) موجهًا بهذه الخطوة ضربة قاضية إلى اتفاقيات لوكارنو.

*** موتيه Moutier، «النموذج على مشكلة الانتماء الكانتوني»، بين كانتون برن وكانتون جورا:** موتيه، في الالمانية Munster. مدينة سويسرية تابعة لكانتون برن، وتقع على الضفة اليسرى من نهر بيرس Birse في جورا Jura البرنية. تعد نحو ٩ آلاف نسمة يتكلمون الفرنسية. أهم آثارها كنيسة رومانية تعود إلى القرن الحادي عشر. صناعتها ميكانيكية دقيقة.

كانتون جورا:

يقع شمال غربي سويسرا. نشأ حديثًا (١٩٧٨)، مساحته ٨٣٦كلم م.، وعدد سكانه نحو ٧٢ ألف نسمة يتكلمون الفرنسية وغالبيتهم كاثوليك. قاعدته مدينة ديليمون Délémont (نحو ١٣ ألف نسمة؛ كنيسة القديس مارسيل؛ صناعة الساعات والإسمنت). تربية الماشية هي الثروة الزراعية الأهم في جورا التي تزدهر فيها ايضًا صناعة الساعات.

كانت جورا السويسرية تابعة إلى اسقفية بال منذ القرن العاشر-الحادي عشر، جاعلة منها دولة فدرالية. الاصلاح البروتستانتي طرد اساقفة بال، فاقاموا في بورّنتري Porrentruy حيث عملوا على الاصلاح المضاد (الكاثوليكي)، و لم يفلحوا إلا في مناطق جورا فحافظ سكانها على الكاثوليكية. وانضمت جورا إلى فرنسا في ١٧٩٨. وفي ١٨١٥، ألحق ببرن تعويضًا لها لفقدانها بلاد الفود Vaud. في ١٩٤٧، وقع حادث بسبب اللغة أشعل المشاعر الانفصالية في جورا التاريخية، خاصة في مناطقها الشمالية، ما أدّى في ١٩٧٤-١٩٧٥ إلى تقسيم جورا التاريخية إلى كيانين متساويين تقريبًا. فأصبح هناك كانتون جورا (في الشمال، كاثوليكي)، فيما استمرت مناطق جورا الجنوبية تابعة لكانتون برن.

كانتون برن:

يقع شمالي سويسرا. تبلغ مساحته ٦٠٥١ كلم م.، ويعد نحو مليون نسمة. يجتازه نهر الآر وروافده. يقسم كانتون برن إلى منطقتين كبيرتين: الأوبرلاند في الجنوب (سياحة، تربية ماشية، طاقة كهربائية)، والميتيلاند في الوسط حيث أودية نهري الآر والإيم والممتد من مدينة تون إلى بيين، وهي منطقة تعيش على تربية الماشية وكذلك على الزراعة والصناعة. وكان في السابق قد جرى ضم مناطق من الجورا إلى كانتون برن (في الشمال الغربي، من مدينة بيين إلى مدينة موتيه)، منها ثلاثة أقضية فرنكوفونية. منذ استفتاء ١٩٧٤، لم يعد سكان كانتون برن من الذين يتكلمون الفرنسية يمثلون أكثر من ١٠٪ من إجمالي السكان، والغالبية الباقية يتكلمون الالمانية ويدينون بالبروتستانتية. وبعد انفصال أقضية الجورا الثلاثة وتشكيلها كانتونًا مستقلاً أصبح كانتون برن الثاني بين الكانتونات السويسرية من حيث المساحة (راجع «برن» في هذا الباب).

المشكلة اللغوية (والدينية تاليًا) لم تنته فصولاً بعد. والشاهد من مدينة موتيه ومنطقتها الجوراسية والتي لا تزال تتبع كانتون برن وإن اتخذت شكلاً إداريًا عنوانه «الاقضية الفرنكوفونية في كانتون برن».

فعلى ناصية فندق مدينة موتيه، يرتفع علمان: علم كانتون برن الذي تتبع له المدينة، وعلم كانتون جورا الذي تريد ان تلتحق به. فالمشكلة التي جرى الاعتقاد بأنها حُلت منذ عشرين سنة لا تزال في الحقيقة قائمة، وتهدد بالاتساع وبوقوع اضطرابات بين الفرنكوفون والجرمانوفون في الكونفدرالية السويسرية. ففي آذار ١٩٩٤، اختار تنظيمان يعملان لاستقلال جورا الذاتي: «التجمع الجوراسي» و«الوحدة الجوراسية»، مدينة موتيه ليعقدا فيها مؤتمرهما يعلنان فيه اندماجهما في «حركة جورا الاستقلالية». السكرتير العام للحركة، بيار-أندره كونت، صرّح قائلاً: «إن مطلب التحرير لم ينته بعد. فهناك ثلاثة أقضية فرنكوفونية لا تزال تحت وصاية برن. من هنا سنخوض نضالنا، من الآن وصاعدًا، لاعادة توحيد الجورا».

في عودة إلى التاريخ يتبين ان جورا

الفرنكوفونية كانت إمارة في إطار اسقفية بال لمدة ثمانية قرون. بعدها، ألحقت بكانتون برن بقرار اتخذ في مؤتمر فيينا ١٨١٥. وفي اواخر أربعينات هذا القرن (أي غداة الحرب العالمية الثانية)، عاد الجوراسيون يعلنون ويظهرون، وبحماس، رغبتهم في ان تكون لهم شخصيتهم الجوراسية الفرنكوفونية المستقلة، رافضين الهيمنة المتصاعدة للجرمانوفون الذين يهددون ثقافتهم، ومطالبين بحق إنشاء «كانتون جورا». وفي ٢٣ حزيران ١٩٧٤، جرى استفتاء بين الجوراسيين، أعلنت ثلاثة أقضية فرنكوفونية خلاله رغبتها في إقامة كانتون مستقل، وهي قضاء ديليمون وفرانش-مونتانيو وبورّانتوري التي تعدّ جميعها ٦٥ ألف نسمة. وبعد أربع سنوات ونصف السنة (أي في كانون الثاني ١٩٧٩)، دخل «كانتون جورا» حيّز التنفيذ، أي انه اصبح «كانتونًا مستقلاً وسيدًا» حسب التعبير الرسمي.

ومنذذاك، استمرت الاقضية الجوراسية الفرنكوفونية الثلاثة الأخرى: كورتلاتي ونوفيل وموتيه (وكانت قد صوتت في الاستفتاء على عدم الانفصال) جزءًا لا يتجزأ من كانتون برن. لكن نتيجة هذا الاستفتاء لا يقرّ بها الاستقلاليون الجوراسيون، ويعتقدون ان الاستفتاء كان «خدعة انتخابية». وأكثرية اعضاء مجلس بلدية موتيه هم من المطالبين بالانضمام إلى كانتون جورا، ورئيس البلدية يقول إنهم سيطبقون، في سبيل هذا الهدف، سياسة الخطوة خطوة. أي يبدأون بضم مدينة موتيه إلى كانتون جورا، وينتقلون بعدها إلى المناطق الجوراسية الأخرى، حتى إتمام وحدة «كانتون جورا».

* **مونترو Montreux**: مدينة سويسرية، على ضفة بحيرة ليمان (بحيرة جنيف). تعد نحو ٧٥ ألف نسمة مع ضواحيها. رصيف المدينة يمتد على شاطىء البحيرة وهو من أجمل المنتزهات في سويسرا، ويصل حتى قلعة شيون Chillon التي تعود بعض أسسها إلى ١٢٥٤. زادت هذه القلعة شهرة قصيدة الشاعر الانكليزي، بيرون: «سجين شيون» في مواطن من جنيف يدعى بونيفار، سجنه دوق السافوي في القلعة في القرن السادس عشر مدة ست سنوات، وحرره من بعدها عسكر برن.

سلسلة الجبال الممتدة امام مونترو وعلى علو ٢٤٠٠م. هي الجبال الفرنسية الحدودية. وكازينو مونترو شهير بقاعاته الفسيحة، إحداها تتسع لثلاثة آلاف شخص.

وفي مونترو وقعت «اتفاقية مونترو»، في ٢٠ تموز ١٩٣٦، التي ألغت بنود معاهدة لوزان (١٩٢٣) وسمحت باعادة تسليح مضائق البوسفور والدردنيل في تركيا.

* **نويشاتل Neuchatel**: في الالمانية Neunburg. مدينة سويسرية، على الطرف الشمال الغربي من بحيرة نويشاتل وعند أقدام جبال جورا. قاعدة كانتون نويشاتل. تعد نحو ٧٥ ألف نسمة مع ضواحيها. قصر يعود إلى القرن الثاني عشر-السادس عشر. مركز إداري وجامعي. منتجعات سياحية (رياضة الشتاء). صناعة الساعات، وصناعة ميكانيكية وغذائية، وصناعة التكنولوجيا الدقيقة آخذة في الازدهار.

كانت منطقة نويشاتل جزءًا من مملكة البورغون، ثم ضمت إلى الامبراطورية الجرمانية في القرن الحادي عشر. أعطيت للملك بروسيا في ١٧٠٧. منحها نابوليون للجنرال برتيه، كإمارة، من ١٨٠٦ إلى ١٨١٤، وعادت إلى بروسيا حتى ١٨٤٨، علمًا انها كانت قد انضمت إلى الكونفدرالية السويسرية منذ ١٨١٥، ولم تحصل على استقلالها بصورة نهائية عن بروسيا إلا في ١٨٥٧.

* **وينترثور Winterthur**: مدينة

سويسرية، واقعة في كانتون زوريخ وشمال شرقي مدينة زوريخ، في وادي نهر توس أحد روافد نهر الراين. تعد نحو ١١٧ ألف نسمة مع ضواحيها، ثلاثة اربـاعهم يتكلمون الالمانية ويدينون بالبروتستانتية. فيها متحف للفنون الجميلة، يحتوي على لوحات سويسرية والمانية وفرنسية ونمساوية، يعود بعضها إلى القرن الثامن عشر والتاسع عشر، والبعض الآخر حديث.

المدينة مركز صناعي مهم: صب المعادن، صناعات ميكانيكية ونسيجية.

تأسست وينترثور حوالي سنة ١١٧٥ على يد أسياد (كونتات) كيبورغ وعلى موقع كانت تشغله مدينة فيتودوروم الرومانية القديمة. وأصبحت من ممتلكات آل هابسبورغ في ١٢٦٤، ثم أصبحت تابعة لزوريخ بدءًا من ١٤٦٧.

سيبيريا

نبذة عامة

(مضافة إلى ما ورد في «روسيا»، ج٨، ص٢٠٠ وص ٢١٧-٢١٩).

الاسم و الموقع: «سيبير» Sibir في الروسية. هي القسم الآسيوي من روسيا التي تمتد على كامل المناطق الشمالية من آسيا، من الأورال في الغرب حتى مضيق بيرينغ في الشرق (أي بطول نحو ٧ آلاف كلم)، ومن الاوقيانوس الأركتيكي في الشمال حتى سهوب كازاخستان ومنغوليا في الجنوب (نحو ٣٥٠٠كلم).

المساحة وعدد السكان: ١٢ مليونًا و٧٦٥ ألفًا و٩٠٠كلم م.. تعد نحو ٣٥ مليون نسمة (نحو ٢٠٪ من مجموع سكان روسيا).

جغرافية: سيبيريا غنية جدًا بموادها الاولية، ولها الدور الاول في اقتصاديات روسيا. منذ ستينات هذا القرن وهي تساهم بحصة متنامية في تغذية الاقتصاد الروسي، خاصة لجهة الغاز والنفط، ثم الاخشاب، وبعدها المعادن غير الحديدية. شتاؤها قارس جدًا وطويل، وصيفها حار ولكنه قصير، في ما عدا المناطق الجنوبية حيث تنمو المزروعات، وحيث المدن الكبرى الصناعية. أما الشمال، فالعمل جار فيه، خاصة لجهة حفر المناجم واستغلالها لمصلحة القسم الاوروبي من روسيا.

لقد جرت العادة على تقسيم سيبيريا إلى ثلاث مناطق اقتصادية كبرى من الغرب إلى الشرق: سيبيريا الغربية وتتضمن مناطق كورغان، تيومن، أومسك، نوفوسيبيرسك، تومسك، كيميروفو، أقليم ألتائي وجمهورية ألتائي.وسيبيريا الشرقية وتتضمن اقليم كراسنوارسك، مناطق إيركوتسك وتشيتا، جمهوريات بورياتي وتوفا. وسيبيريا الشرق الاقصى وتتضمن اقاليم خباروفسك والمناطق الساحلية، ومناطق أمور، ماغادن، كامتشاكا وسخالين، وكذلك جمهورية إياكوتي (حاليًا جمهورية ساخا). وإلى هذه المناطق تنضم سيبيريا الأركتيكية.

نبذة تاريخية: في اوائل القرن الثالث عشر، احتل المنغول (المغول) جزءًا كبيرًا من سيبيريا. وفي اواخر القرن الخامس عشر، وفي أعقاب انتزاع خانات «هورد دور» من باتو، حفيد جنكيزخان، تشكلت خانة سيبيريا. وفي ١٥٥٦، خضع خان إيديغير للقيصر الروسي إيفان الرهيب. أما خليفته، الخان كوتشون فقد رفض دفع الجزية للروس الذين سحقوا خانة سيبيريا وأسسوا عدة مراكز وقلاع: تيومن (١٥٨٦)، توبولسك (١٥٨٧)، تومسك (١٦٠٤). وفي اوائل القرن السابع عشر، ضمت روسيا إليها كل سيبيريا الغربية؛ وفي حوالي ١٦٤٥، وصل الروس إلى الساحل الباسيفيكي (أوحولسك). وكان الروس، منذ اوائل توسعهم في سيبيريا يستخدمون مناطقها للنفي (نفي المنشقين السياسيين والدينيين). وأولى الموجات السكنية الكبرى في سيبيريا تزامنت مع شق الطريق العابرة للمناطق السيبيرية (١٨٩١-١٩٠٤)، وخاصة مع إصلاحات ستوليبين Stolypine التي شجعت النزوح إلى هناك (أكثر من ٣ ملايين شخص بين ١٩٠٥ و١٩١٤). ومع قيام النظام السوفياتي في شباط ١٩١٨، قام الاميرال كولتشاك (في ربيع ١٩١٨) بقيادة مجموعات

خريطة تبين توزّع المجموعات الاثنية في سيبريا منذ القرن السابع عشر

(ألسيكلوبيديا أونيفرساليس، ج ١٤، باريس ١٩٦٨، ص ٩٦٥).
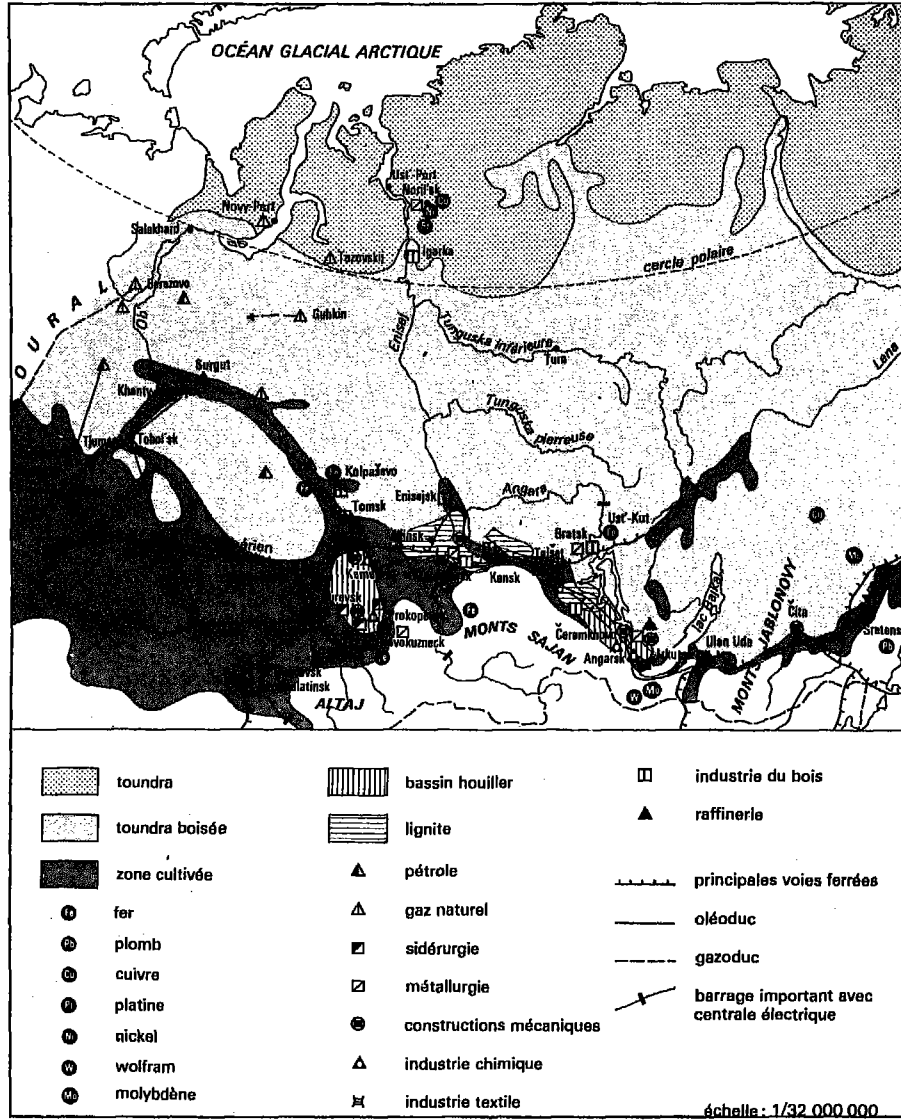
خريطة سيبيريا الاقتصادية (السيكلوبيديا أونيفرساليس، ج١٤، باريس ١٩٦٨، ص ٩٦٧).

لمحاربة السوفيات، وتمكن من استلام السلطة في سيبريا في تشرين الثاني ١٩١٨. لكن السوفيات تمكنوا من هزمه نهائيًا في ١٩٢٠؛ كما عادوا وتمكنوا من طرد القوات اليابانية في الشرق الاقصى (من سيبيريا) في ١٩٢٢. اهتم النظام السوفياتي بانماء سيبيريا، خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، وإقامة مشاريع صناعية ضخمة فيها. لكنها كانت، في ايامهم، مسرحًا لاقامة العديد من السجون وتخيمات النفي والاشغال الشاقة للسياسيين المعارضين (غولاغ).

نظرة سياسية عامة: ثمة اتجاه لدى السيبيريين، لم تثبت بعد قوته (وهو موضوع تحليلات ومناقشات تتناولها وسائل الاعلام العالمية)، يدعو إلى استقلال سيبريا بعد ٤٠٠ عام من حكم موسكو. ودافع هذا الاتجاه سيطرة موسكو (السلطات الاتحادية) على الموارد الهائلة الكامنة في اراضي سيبيريا الشاسعة الممتدة من جبال الاورال إلى بحر اليابان بمساحة تعادل مساحة الصين والهند مجتمعتين. ويعتقد انها اغنى بمواردها المعدنية من أي منطقة أخرى في العالم. وتقدر إحتياطات النفط في اقليم واحد من أقاليمها (إقليم تيومين) بنحو ١٣،٨ بليون طن بالمقارنة مع نحو ١٣،١ بليون طن لدى الكويت مثلاً. ويأتي أكثر من ٥٠٪ من عائدات روسيا من الصادرات من سيبريا.

في شباط ١٩٩٣، عقد زعماء الاقاليم السيبيرية (وعددها ١٩ إقليمًا) اجتماعًا في مدينة تومسك التي تبعد ٥ آلاف كلم عن موسكو، وشكوا من احتفاظ موسكو بالسيطرة الشديدة على كل انتاج مهم، وطالبوا بأن تكون لهم السيطرة على نصيب أكبر من نفط سيبريا وغازها الطبيعي وغيرهما من المنتجات التي تحقق عائدات بالدولارات، فضلاً عن الحق في منح تراخيص التصدير وتحديد حصصه. وكتبت صحيفة «تومسك» (على هامش اجتماع زعماء سيبيريا) انه «على مدى قرون عدة تعرضت سيبريا للنهب من جانب الامبراطورية الروسية (...) و لم تحصل سيبريا قط على مقابل يساوي ما أخذ منها (...) ولقد تحولت سيبيريا إلى مجمع ضخم لانتاج الاسلحة، وهي صناعة يحيط الشك بمستقبلها بعد انتهاء الحرب الباردة. كما انها (سيبيريا) تلوثت بالصناعات ذات الصلة بالطاقة والاسلحة النووية».

ووفرت سيبيريا دائمًا الجزء الأكبر من الصادرات الروسية بدءًا بالفراء في القرن الثامن عشر ثم الحبوب مطلع القرن العشرين وصولاً إلى النفط والغاز والذهب والالماس في السنوات الأخيرة.

وعلى رغم ان الروس يشكلون الغالبية الساحقة من سكان سيبيريا، إلا ان نزعة انفصالية كانت تتبدى هناك بين حين وآخر. ففي ١٧٢١، أمر القيصر بطرس الأكبر باعدام حاكم سيبيريا الامير غاغارين بتهمة النزوع إلى الانفصال. وفي عامي ١٩١٨ و١٩١٩، كانت سيبيريا تخضع لحكم الاميرال كولتشاك الذي قاتل البلاشفة. وفي ١٩٩٠، تشكل حزب صغير أطلق على نفسه إسم «حزب الاستقلال السيبيري».

سيراليون

بطاقة تعريف

الاسم: Sierra Leone، أي «جبل الأسد».

الموقع: على الشاطىء الغربي لافريقيا (طول شاطئها ٤٤٦كلم). تحدها غينيا وليبيريا والمحيط الأطلسي.

المساحة: ٧١ ٧٤٠كلم م..

العاصمة: فريتاون. أهم المدن: كوادو، كينيما، بو، ماكينين (راجع باب «مدن ومعالم»).

اللغات: الانكليزية (رسمية). وهناك لغات القبائل المحلية، أهمها لغة المندي ولغة التمني.

السكان: يبلغ عددهم نحو ٤،٦ ملايين نسمة، ٣١٪ منهم من قبائل المندي، و٢٩،٨٪ من قبائل التمني، و٨،٥٪ من قبائل الليمبا. وهناك نحو ٤٠ ألفًا من الكريول (الكريول هم المولودون من الزيجات بين البيض والسود)، ونحو ٤٥٠ ألفًا من غينيا، ونحو ٢٥ ألف لبناني، والجالية اللبنانية كانت تسيطر (قبل احداث ١٩٩٧ الدموية في سيراليون) على ٦٠٪ من تجارة البلاد. يتوزع السكان، دينيًا، على ٦٠٪ من المسلمين، ٣٠٪ من المسيحيين، و١٠٪ من أصحاب المعتقدات الاحيائية الافريقية.

الحكم: نظام الحكم جمهوري، والبلاد عضو في الكومنولث. الدستور (معلق حاليًا) المعمول به يعود وضعه إلى ٣ ايلول ١٩٩١. البرلمان من ١٢٧ عضوًا، منهم ١٠٥ منتخبين، و٢٢ يعينهم البرلمان الذي جرى حله في ٢٩ نيسان ١٩٩٢. الحزب الوحيد من حزيران ١٩٧٨ إلى ايلول

١٩٩١، هو حزب «مؤتمر كل الشعب» الذي تأسس في ١٩٦٠، ورئيسه جوزف سيدو مومو.

الاقتصاد: تتوزع اليد العاملة: ٦٥٪ في الزراعة (وتساهم بـ٤٠٪ من الدخل العام)، و٥٪ في الصناعة (وتساهم بـ٦٪ من الدخل العام)، ٢٠٪ في التجارة والخدمات (٤١٪)، ١٠٪ في المناجم (١٣٪). أهم المزروعات: الارز، والكاكاو والبن.

يأتي الماس على رأس ثرواتها المنجمية (السابعة في العالم)، وبعده البوكسيت، الحديد ثم الكروم. وتنحصر الصناعة بتصنيع بعض المواد الغذائية.

تعتبر سيراليون من البلدان العشرة الأشد فقرًا في العالم قياسًا على حصة الفرد من إجمالي الناتج المحلي. وتتميز سيراليون بأدنى متوسط عمر بالنسبة إلى الرجال والنساء، إذ يبلغ ٣٩ سنة.

نبذة تاريخية

البرتغاليون والانكليز وتجارة الرق النشطة: كان البحارة البرتغاليون أول الاوروبيين الذين نزلوا إلى المنطقة وتوغلوا فيها منذ اواسط القرن الخامس عشر، وأطلقوا إسم «سيراليون» (جبل الأسد) على البقعة التي تشغلها سيراليون حاليًا.

بين القرن السادس عشر والقرن الثامن عشر، نشطت في المنطقة تجارة الرق، حتى قام أحد المتحررين الانكليز، ويدعى غرانفيل شارب، بتأسيس مستوطنة، في ١٧٨٧، استخدمت كملجأ للرقيق.

في «تاريخ افريقيا» (أحدث كتب التاريخ عن افريقيا وأهمها، وضعته الأونسكو في الانكليزية، وترجم حديثًا إلى العربية ويُصار حاليًا إلى طبعه في بيروت) جاء في الجزء الخاص بتاريخ افريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر، تحت عنوان «تجارة الرقيق»، ص٩٩٤-٩٩٥:

«إلى أي حد ينبغي إبراز تجارة الرقيق في تاريخ افريقيا (ومنطقة الساحل الغربي، حيث تقع سيراليون وغينيا... كانت أهم المناطق الافريقية ازدهارًا في هذه التجارة)، وبعبارة أخرى، لماذا نُعنى كمؤرخين أفارقة بتجارة الرقيق؟ ذلك ان جميع الاعراق تعرّضت للاسترقاق في الماضي. بل إن كلمة رقيق أو Slave مشتقة هي ذاتها من كلمة سلاف Slavs وهم من سكان اوروبا الشرقية. غير ان جميع المجموعات الأخرى استطاعت ان تمحوه من ضمائرها. فاليهود مثلاً كانوا ارقاء في وقت ما، ولكنهم الآن يفسرون استرقاقهم بأنه كان وضعًا خاصًا وفريدًا قدّره الله عليهم. والافارقة يحرصون على المبالغة في أهمية الاسترقاق في تاريخهم إلى حد ان لفظة «عبد» توشك ان تكون مرادفة للفظة «افريقي». وقد

أوضح د.ب. ديفيز D.B. Davis بوضوح جلي في مؤلفيه «مشكلة الاسترقاق في الثقافة الغربية» و«الاسترقاق والتقدم البشري» ان الاسترقاق يشكل ظاهرة كبرى في ايديولوجية العالم الغربي الحديث يتعين علينا ان نحاول فهمها لأنها مصدر قدر كبير من الموقف السلبي تجاه افريقيا والأفارقة.

ويحاول إينيكوري Inikori ان يعطي وزنًا كميًا لدور الأرقاء السود في التقدم الاقتصادي في العالم الغربي. ويعتبر هذا سؤالاً أساسيًا آخر ينبغي ان نواجهه وان نتناوله من جوانبه كافة. وقد ذهب ماركس وأنغلز إلى أنه على الرغم من أن الرق كان وسيظل دائمًا منافيًا لقواعد الاخلاق، فقد كان مع ذلك لازمًا للتقدم الاقتصادي وبالتالي للتقدم الاجتماعي. وذهبا إلى انه لو ان الرق لم يوجد لما وجدت حضارة الاغريق ولا حضارة الرومان. ويقول إينيكوري إن الرق الافريقي كان له أثر حاسم في تطوير النظام الجغرافي–السياسي–الاقتصادي المعني بمنطقة الاطلسي وفي تصنيع اوروبا الغربية. ومن ناحية أخرى، قدّم فرناند برودل F. Braudel في مصنفه «الحضارة والرأسمالية» صورة مختلفة عن تحول الرأسمالية الاوروبية إلى قوة عالمية ابتداء من الاقتصاد المعيشي الذي لا يتغير والذي يمارسه الفلاحون، مرورًا بعالم التجارة، وانتهاء بقصة الكيفية التي تمكن بها عدد قليل من المصرفيين والتجار، عن طريق احتكار التجارة ومضاعفة الارباح إلى أقصى حد، من المعاونة في إرساء مجموعة من الاقتصادات العالمية تركّزت في اوروبا. الأمر الذي مكّن الرأسمالية الاوروبية من بسط سلطتها المتنامية...

ويُستفاد بجلاء من كل الشواهد التي تتوافر لدينا ان عملية تجريد الافريقي من الشخصية الانسانية تزايدت حدة فيما بين ١٥٠٠ و١٨٠٠ نتيجة تزايد الاسترقاق العبودي ابتداء من ١٦١٩.

كذلك أدّت تجارة الرقيق عبر القارات، في المقام الاول، إلى إرساء وجود عالمي للسود وأسفرت عن شتات افريقي ضخم، وخاصة في القارة الاميركية والكاريبي. وفي ذلك يقول هاريس Haris:

«كانت طبيعة هذه التجارة وعواقبها هي التي دفعت الافارقة وخاصة في القارة الاميركية والكاريبي، إلى تنظيم حركات للكفاح من اجل الحرية انتهت عبر السنين إلى ترسيخ الاهتمام الموحّد بتخليص افريقيا وتحرير السود في انحاء العالم كافة. واستمرت العملية رغم قيام الحكم الاستعماري، وربما كانت في واقع الامر أعظم العواقب التاريخية للشتات الافريقي».

ولا مراء في ان ذلك كان اساس حركة الوحدة الافريقية في القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين.

سيراليون مستعمرة الكليزية: في ١٧٩١، أسس الانكليز «شركة سيراليون»، واتخذوا لها مركزًا دعوه فريتاون. واعتبر هذا المركز عاصمة الممتلكات البريطانية في كل انحاء افريقيا الغربية حتى ١٨٧٤، ثم عاصمة سيراليون.

ابتداء من ١٨١٥، أصبحت فريتاون أهم قاعدة بحرية انكليزية على الشاطىء الغربي من افريقيا، وقد استقبلت بين عامي ١٨١٥ و١٨٣٣ نحو ٣٥ ألفًا من الرقيق المعتقين. وقبل هذا التاريخ، أي في ١٨٠٨، كانت سيراليون قد أصبحت رسميًا مستعمرة بريطانية. وفي الربع الاخير من القرن التاسع عشر، رسمت الحدود بين سيراليون وغينيا الفرنسية وليبيريا.

في ١٨٩٦، أعلنت المناطق الداخلية من سيراليون محمية بريطانية. وفي ١٨٩٨، نشبت ثورة في مناطق المحمية بسبب رفع الرسوم والضرائب التي لم تشمل المناطق الأخرى من المستعمرة. وهذا التقسيم بين «محمية» و«مستعمرة» كان عائقًا قويًا امام التوحيد السياسي–الاجتماعي للبلاد: الكريول في المستعمرة اعتبروا رعايا بريطانيين في حين ترك

أبناء المحمية يواجهون مصيرًا مجهولاً.

منذ ١٩٥١، صدرت أربعة دساتير متعاقبة قبل التوصل إلى اتفاق بين المجموعتين من سكان سيراليون أعقبه اعلان الاستقلال في ٢٧ نيسان ١٩٦١. ومع هذا الاستقلال، أصبحت سيراليون عضوًا في الكومنولث يحكمها حاكم عام في فريتاون يمثل الملكة اليزابت الثانية.

النضال ضد الاسترقاق: في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، وإزاء تزايد عدد الرافضين لتجارة الرقيق والدعاة الانسانيين (في انكلترا بشكل خاص: الكواكرز، الانجيليون، وبعض الكتاب، منهم جون ويسلي، آدم سميث، الدكتور جونسون، ويلبرفورس، ماكوالي، وخاصة غرانفيل شارب)، أنشئت بعض المستوطنات لاستقبال العبيد المعتقين، أولاً في سيراليون، ثم في جمهورية ليبيريا وليبرفيل، وفي الغابون. وفي لندن (١٧٧٢)، أعلن اللورد «شيف أوف دجاستس» ان كل عبد يلجأ إلى انكلترا يصبح حرًّا ومتمتعًا بكامل حقوقه. وعلى أثر هذا الاجراء، هرب عدد كبير من السود الذين كانوا يعملون في حقول المستعمرات الانكليزية في اميركا إلى المملكة المتحدة، وازداد تدفقهم إليها بعد ١٧٨٣ عقب هزيمة انكلترا في حرب الاستقلال الاميركية. وبسبب البؤس الشديد الذي عاشه هؤلاء في انكلترا، طرحت على نطاق واسع مشكلة «السود الفقراء» (Black Poors) وأكثر مَن عُرف برفع لوائها الداعية الانساني غرانفيل شارب الذي فكر بانشاء ميناء أمين لهم على ارضهم الافريقية؛ فأسس «شركة خليج سان جورج» لتنظيم إعادتهم إلى هناك (استكمالاً، راجع «فريتاون» في باب «مدن ومعالم»).

في الاستقلال: ظلت الصراعات القبلية متأججة بسبب ما مورس طيلة العهود الاستعمارية من سياسة التمايز بين المناطق والقبائل (قبائل المندي وقبائل التمني) حتى بعد اعلان الاستقلال في ٢٧ نيسان ١٩٦١. لكن رئيس الوزراء السير ميلتون مرغي (وهو مندي) ثم شقيقه السير ألبرت مرغي تمكنا من فرض اجواء الهدوء وأمّنا نوعًا من الوحدة الوطنية حتى ١٩٦٧-١٩٦٨ حين عادت النزاعات القبلية التي أدت إلى وقوع أربعة انقلابات عسكرية، استلم السلطة بعدها مباشرة (١٩٦٨) سياكا ستفنز زعيم حزب «المؤتمر الشعبي» الذي ينتمي معظم أعضائه إلى قبيلة التمني.

وشهد عاما ١٩٦٩ و١٩٧٠ اضرابات واضطرابات داخلية عالجها ستفنز باعتماد القسوة. فأحيل المسؤولون عن الانقلابات الاربعة إلى المحاكمة، وحكم على ٢١ منهم بالاعدام (نيسان ١٩٧٠). وفي ٢٣ آذار ١٩٧١، وقع انقلاب آخر قاده الجنرال بانغورا. إلا ان فشل الانقلاب لم يمنع الرئيس الغيني، سيكوتوري، من إرسال المظليين الغينيين إلى سيراليون لدعم النظام القائم فيها. وبقي هؤلاء في فريتاون حتى ١٩٧٣. ووقع البلدان، في ٣١ آذار ١٩٧٣، معاهدة تحالف بينهما.

الجمهورية: في ١٩ نيسان ١٩٧٣، أعلن عن قيام الجمهورية في سيراليون، وانتخب ستفنز رئيسًا لها مع احتفاظه برئاسة الحكومة. وقررت الجمهورية البقاء في الكومنولث. إلا ان توجهها السياسي عرف تغييرات جذرية. فحلت الجيش واستبدلته بميليشيات مسلحة واعدمت الجنرال بانغورا وضيقت على الصحافة. إلا ان كل هذه الاجراءات لم تمنع قيام محاولة انقلابية جديدة في ٣٠ تموز ١٩٧٤ أثناء زيارة الرئيس ستفنز لرومانيا. فأعلنت حال الطوارىء، وحكم على ١٥ شخصًا بالاعدام، واتخذ النظام مزيدًا من الاجراءات القمعية في إطار أزمة اقتصادية خانقة

هددت البلاد بالمجاعة.

في ٢٦ آذار ١٩٧٦، أعيد انتخاب سياكا ستفنز رئيسًا للجمهورية. حاول ستفنز، دون جدوى، الحصول على مساعدات خارجية للنهوض باقتصاد البلاد، واستقدم ضباطًا كوبيين لتدريب قواته الامنية. ولم تحرك الحكومة ساكنًا لكي توقف موجة العداء التي هبت في وجه الجالية اللبنانية في البلاد (تمسك بالقطاع التجاري في البلاد). كل ذلك والازمة الاقتصادية في تفاقم والنزاعات القبلية في استفحال؛ حتى كان يوم ٢٩ كانون الثاني ١٩٧٧ عندما عمت الاضرابات والمظاهرات الطلابية جميع المدارس. فحصلت أعمال عنف ووقع بعض القتلى، ودمرت منازل ومراكز بعض اركان وهيئات الحزب الحاكم.

عالج ستفنز هذا الوضع بأن دعا إلى انتخابات عامة في ٤ و٦ ايار ١٩٧٧. وجرت هذه الانتخابات وسط اجواء دموية اعادت سيطرة الرئيس وحزبه («المؤتمر الشعبي») على مقدرات البلاد. وتكرست دكتاتورية النظام باعلان الحزب الحاكم الوحيد، وبتشكيل حكومة جديدة في ٢٥ ايار ١٩٧٨.

ما بعد ستفنز: في اول ايلول ١٩٨١، انفجرت أزمة اجتماعية (هيّأ لها الوضع الاقتصادي المتردي)، وأعلنت حال الطوارىء لمدة ستة أشهر عقب فشل المفاوضات مع النقابات التي كانت حددت هذا التاريخ (أول ايلول) لاعلان إضرابها العام. وكان الاتحاد يضم نحو ٢٥٠ ألف عضو، وكان يطالب بتخفيض اسعار المواد الغذائية، ووسائل النقل، وتأمين مساكن شعبية، في حين ان التضخم وصل إلى ٢٠٠٪. اعتقل رئيس الاتحاد، جيمس كابيا (أفرج عنه بعد يومين)، ووقع عدد من القتلى.

لم يهدىء من الاوضاع انتخاب الجنرال جوزف سيدو مومو (مولود ١٩٣٧) رئيسًا للجمهورية في اول تشرين الاول ١٩٨٥، فاضطر إلى اللجوء، بعض الوقت، إلى غينيا. ولم يتمكن مومو، رغم دعم صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، من تحسين الوضع الاقتصادي.

في ٢٢-٢٣ آذار ١٩٨٧، جرت محاولة انقلابية فاشلة، وأعدم ستة من الانقلابيين في ١٩٨٩. في ايار ١٩٩١، قتل المتمردون من «الجبهة الوطنية الليبيرية» بين ٣ آلاف-٥ آلاف من المدنيين، ولجأ نحو ٥٠ ألفًا من الاهالي إلى غينيا. وفي ٤ حزيران ١٩٩١، قُدّم مشروع قانون حول التعددية الحزبية.

موجز صورة الحكم حتى آخر ١٩٩٥:

ظل سياكا ستفنز يحكم سيراليون منذ استقلالها عن بريطانيا في اوائل الستينات إلى وفاته حيث تسلم الحكم عبر انتخابات مدنية قائد الجيش السابق جوزف مومو إلى ان اسقطه انقلاب ٢٩ نيسان ١٩٩٢ قام به ضباط صغار بقيادة الكابتن فالنتين استراسا (مولود ١٩٦٧) الذي اشتهر بكونه راقص ديسكو مميزًا. وكانت البلاد تعاني من حرب أهلية اشعلتها الجبهة الثورية المتحدة منذ بداية ١٩٩٢، وأثرت سلبًا على اقتصاديات سيراليون القائمة على الماس والذهب. وجرى الربط (اعلامًا وتحليلاً) بين ما كان يجري في سيراليون وبين الوضع في ليبيريا المجاورة التي كانت تشتعل فيها حرب ضروس لأكثر من ست سنوات. والربط سببه مصالح اجنبية تستفيد من حال الحرب والفوضى في البلدين وتستغله في تهريب المعادن الثمينة من كلا البلدين.

ونظرًا إلى تطور حال الحرب في سيراليون نتيجة لجوء الجبهة الثورية المتحدة أو من يطلقون على انفسهم «الثوار» إلى العنف، فقد أكثر من ١٠ آلاف شخص حياتهم بينما تشرد أكثر من ثلث سكان البلاد. وفي محاولة لوقف النزيف هناك بعث أمين عام الامم المتحدة، بطرس غالي، ممثلاً

شخصيًا له إلى العاصمة فريتاون هو الدبلوماسي الاثيوبي برهانو دينكا. لكن لا ممثل الامم المتحدة، ولا بعثة منظمة الوحدة الافريقية استطاعوا ادخال الحكومة والثوار إلى حلبة المفاوضات، لأن الثوار لم يكن ميسورًا الوصول إليهم، بل إن اسماء قادتهم ظلت سرًا ولغزًا إلى وقت قريب حين نجح وفد المنظمة الافريقية في الالتقاء بهم في كانون الاول ١٩٩٥، ثم في كانون الثاني ١٩٩٦ في أبيدجان (ساحل العاج)، وعندها فقط ظهر فاي موسى كقائد وزعيم لجبهة الثوار. وكانت محاولات الامم المتحدة والمنظمة الافريقية تهدف إلى الجمع بين الحكومة والثوار والتوصل إلى صيغة مصالحة. إلا ان الأمر كان معقدًا جدًا. إذ حتى عندما قبل (اواخر ١٩٩٥) نظام الكابتن فالنتين استراسا بارجاع البلاد إلى الديمقراطية وأعلن ان ٢٦ شباط القادم (١٩٩٦) سيكون موعدًا لاجراء الانتخابات، استمرت الجبهة الثورية بوصف نظامه بأنه أفسد من النظام الذي سبقه، قائلة إنها ستستمر في القتال، ولن تعترف بنتائج انتخابات شباط.

أهم أحداث ١٩٩٦ و١٩٩٧: في ١٦ كانون الثاني ١٩٩٦، وقع انقلاب «القصر الابيض» قاده الجنرال جوليوس مادا بيو، صديق فالنتين استراسا ونائب رئيس المجموعة العسكرية الحاكمة. وبرّر بيان الانقلابيين حركتهم بضرورة «حماية العملية الانتخابية الجارية ومنع مناورات المحيطين بالكابتن استراسا التي تهدف إلى التلاعب

أول اللبنانيين الواصلين الى مطار بيروت.

بالانتخابات العامة المقرر إجراؤها في نهاية شباط المقبل» (١٩٩٦).

وجرت الانتخابات، لكن غالبية الاحزاب لم تعترف بنتائجها، ووجهت رسائل إلى رئيس الدولة، الجنرال بيو، بهذا الخصوص. وكذلك لم تعترف بنتائجها المعارضة المسلحة (الجبهة الثورية الموحدة). وجرت، بعد نحو اسبوعين، دورة انتخابية ثانية، وأعلن رئيس لجنة الانتخابات، جيمس جوناه، في ١٧ آذار ١٩٩٦، ان مرشح حزب الشعب الحاج أحمد تيجان كباح (مولود ١٩٣٢) انتخب رئيسًا للجمهورية بحصوله على ٥٦،٤٩٪ من الاصوات في مقابل ٤٠،٥١٪ لمنافسه مرشح الحزب الشعبي الوطني الموحد جون كاريفا سمارت (مولود ١٩١٦). ووصل عدد الناخبين إلى مليون و٢٢ ألف ناخب.

في آخر تشرين الثاني ١٩٩٦، وقع الرئيس كباح وزعيم الجبهة الثورية الموحدة فوداي سنكوح، في أبيدجان وفي حضور رئيس ساحل العاج هنري كونان بيدييه، اتفاق سلام يضع حدًا لحرب أهلية استمرت خمسة اعوام.وأبرز ما نص عليه الاتفاق الوقف الفوري للقتال، وتسريح المتمردين ودمجهم في الجيش الوطني أو الادارات الرسمية، وتحويل الجبهة الثورية الموحدة إلى حزب سياسي. ووصف بيدييه هذا الاتفاق بأنه «حدث تاريخي» مشيرًا إلى انه ما زالت هناك حاجة إلى «الصبر وبذل الجهود» من اجل حل المشاكل في سيراليون. وأتى الاتفاق بعد ثمانية أشهر من المفاوضات برعاية ساحل العاج. وكان التمرد بدأ في ١٩٩١ ضد نظام الجنرال مومو الذي أطاحه عسكريون في ١٩٩٢.

في ٢٥ ايار ١٩٩٧، أطاح انقلاب عسكري حكم الرئيس أحمد تيجان كباح الذي فرّ إلى غينيا المجاورة (التي أضحت المنفى التقليدي للرؤساء المخلوعين في سيراليون). وأذاع الانقلابيون بيانًا طالبوا فيه بعودة المبعدين، منهم فوداي سنكوح زعيم الجبهة الثورية الموحدة، والجنرال جوليوس مادا بيو. وأعلن الكومندان جوني بول كوروما تنصيب نفسه «رئيس الدولة ورئيس المجلس الثوري للقوات المسلحة». ووقعت حوادث عنف ونهب. ودانت الولايات المتحدة وبريطانيا الانقلاب، ودخلت قوات نيجيرية، كانت تتولى مع قوات أخرى حفظ الأمن في ليبيريا، محيط مطار سيراليون، وبدأت نيجيريا بممارسة ضغوط كبيرة على الانقلابيين لحملهم على إعادة السلطة إلى الرئيس المدني أحمد تيجان كباح، وذلك انسجامًا مع الموقف الدولي الذي أعربت عنه الامم المتحدة، ثم الاتحاد الاوروبي. وتجاهل زعيم الانقلاب، كوروما، الموقف الدولي وأعلن في اول خطاب سياسي له تعليق العمل بالدستور وحظر الاحزاب السياسية. وفي غضون ثلاثة ايام فقط من الانقلاب، سقط عشرات القتلى في فريتاون، وفي مقدمة من طالتهم الاعتداءات من الاجانب افراد الجالية اللبنانية الذين فقدوا من الممتلكات والاموال ما قدر بمئات الملايين من الدولارات، وعاد المئات منهم إلى لبنان، كما أجلى الجنود الاميركيون الرعايا الاميركيين من البلاد.

بعد أسبوع واحد على الانقلاب، انضمت رابطة الكومنولث إلى المنددين، في افريقيا والعالم، بالانقلاب، مشيرة إلى احتمال القيام بـ«عمل عسكري» اجنبي «لاعادة النظام والديمقراطية» إلى سيراليون.

في ٤ حزيران ١٩٩٧ (أي بعد أقل من اسبوعين من الانقلاب)، قرر مؤتمر قمة منظمة الوحدة الافريقية الذي عقد في هراري (وجاء في بيانه الختامي): «اتفق بالاجماع على التنديد بلا تحفظ أو لبس بانقلاب سيراليون باعتباره انتكاسة خطيرة للديمقراطية في افريقيا، ودعا إلى استعادة النظام الدستوري فورًا». وكان هجوم نيجيري على فريتاون (٢ حزيران ١٩٩٧) حصل على

ضوء أخضر من المجتمع الدولي. وبهذه العمليات كانت نيجيريا تقود قوات المجموعة الاقتصادية لدول غربي افريقيا «إيكوموغ» لاعادة الرئيس المخلوع المنتخب ديمقراطيًا أحمد تيجان كباح. لكن الانقلابيين تمكنوا من الصمود، وبدا الوضع مشوشًا، مما جعل بعض دول المنطقة، ومنها غانا، تدعو إلى إجراء محادثات مع الانقلابيين الذين كانوا يردون بدورهم على انهم على استعداد للتعاون مع أي وفد من مجموعة دول غربي افريقيا.

وتعرض الانقلابيون إلى ضغوطات داخلية (إضافة إلى الخارجية)، من بينها مقاومة مسلحة في الداخل تولاها جنود «الكوبجارو» وهي ميليشيات محلية، ومن بينها اضرابات اعلنتها النقابات وموظفو الخدمة المدنية. وأكثر من ذلك فإن امين عام الحكومة، وهو رجل احتفظ بمنصبه منذ استقلال سيراليون وعبر الانظمة كافة التي مرّت بالبلاد، انتهز أول فرصة وهرب إلى غانا، وفعل الشيء نفسه وزراء كان الانقلابيون قد عينوهم في مناصبهم.

في آخر تموز ١٩٩٧، أعلن وزير الخارجية النيجيري ان المفاوضات بين وفد المجموعة العسكرية الحاكمة في سيراليون و«لجنة الاربعة» المنبثقة عن المجموعة الاقتصادية لدول غربي افريقيا، علقت في أبيدجان، وتم تعزيز الحظر والعقوبات على سيراليون. وقال الوزير في بيانه: «نتيجة لذلك (أي لاعلان قائد المجموعة الانقلابية، جوني بول كوروما، انه لن يسلم السلطة إلى المدنيين قبل سنة ٢٠٠١) لم يعد استمرار المفاوضات مجديًا».

لكن في ٢٣ تشرين الاول ١٩٩٧، أعلنت ليبيريا عدم تأييدها لأي عمل يستخدم القوة لاعادة تنصيب الرئيس أحمد تيجان كباح إلا إذا قررت المجموعة الاقتصادية لدول غربي افريقيا ان ذلك ضروري ووافق مجلس الأمن على الفكرة، كما اقفلت ليبيريا حدودها مع سيراليون. وفي اليوم التالي (٢٤ تشرين الاول)، وافق المجلس العسكري الحاكم في سيراليون على خطة باعادة الحكم إلى كباح بحلول الربيع (١٩٩٨). وتقضي الخطة بعودة كباح على رأس حكومة وحدة وطنية تمثل كل الاتجاهات، والعفو عن قادة الانقلاب، وإفراج نيجيريا عن زعيم الثوار فوداي سنكوح.

الانقلابيون والرئيس أحمد تيجان كباح

(مناقشة): يتهم الانقلابيون رئيس البلاد الشرعي أحمد تيجان كباح (أول رئيس انتخب ديمقراطيًا) بأنه أهمل القوات المسلحة، وبدأ يعتمد على ميليشيات «الكوبجارو»، وانه تجاهل تنفيذ اتفاق أبيدجان الذي أبرمته حكومته مع ثوار الجبهة الثورية التي يقودها العريف سنكوح برعاية رئيس ساحل العاج. وينفي الرئيس كباح هذه المزاعم. لكن الرجل اكتشف في منفاه في غينيا أن اكياس الرز التي وصلت كدعم للقوات المسلحة وعددها ٤٠٠ ألف كيس لم تصل إلى القواعد، واستأثرت بها الرتب العليا، مما يكشف ان الرئيس كان لا يتابع شأن الجيش عن كثب.

ويقال عن الرئيس أحمد تيجان كباح انه نظيف ولا يتقاضى مرتبًا منذ انتخابه لانه اكتفى بالمعاش الشهري الذي يتقاضاه من الامم المتحدة هو وزوجته، حيث كانا يعملان، ويُقال إنه يجنح إلى المثالية بدليل ان قائد الانقلاب كان في السجن، متهمًا بمحاولة انقلابية، وقد رفض الرئيس كباح تقديمه للمحكمة العسكرية مراعاة للجان حقوق الانسان، وأصر على محاكمته عبر محكمة مدنية. ويقول المقربون من الرئيس إنه لو تصرف وفق منطق القانون العسكري لما وقع الانقلاب ضده.

فالذي حدث في سيراليون في نهاية المطاف انقلاب عسكري اعتمد على حفنة مساجين أمدهم العسكريون بالزي العسكري وبالسلاح، و لم يستغرب من نوعية كهذه ان تقوم باستخدام الاسلحة عشوائيًا،وباعتماد السلب والنهب لدرجة

احراق المصرف المركزي. أما تصالحها مع جبهة الاتحاد الثوري المعارضة والتي حملت السلاح منذ ١٩٩١، فقد كان ذريعة لتوطيد أركان النظام، إذ سمح لهؤلاء الثوار المتمردين بدخول العاصمة فريتاون لأول مرة في التاريخ، فأضفوا على الفوضى السائدة ذعرًا وسط السكان الآمنين. وقد أطلق الانقلابيون شائعات بأن نيجيريا تتصرف في الاقليم كقوة ضاربة، وانها قامت بارسال قواتها للتدخل العسكري، وهي مجرد شائعات كاذبة لأن الذي تحرك ضد الانقلاب كان قوات «إيكوموغ» التابعة لمنظمة دول غربي افريقيا، فيما يتصادف ذلك مع رئاسة نيجيريا دورة المنظمة.

وما تتخوف منه افريقيا انها كلما نجحت في اطفاء حريق افريقي، مثلما حدث في ليبيريا المجاورة لسيراليون، عصف بالقارة حريق آخر، مثل الانقلاب هذا الذي سيفرز، آنيًا أم آجلاً، سلبيات تلقي بظلالها على الاقليم كله (عن ابراهيم الضاهر، «الحياة»، ٦ تموز ١٩٩٧).

مدن ومعالم

* **فريتاون Freetown**: عاصمة سيراليون، وإحدى أهم المرافىء الافريقية: كانت قاعدة بحرية مهمة خلال الحرب العالمية الثانية. تعد نحو ٧٥٠ ألف نسمة.

في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وفي إطار طرح الدعاة الانسانيين لمسألة «السود الفقراء» خاصة في بريطانيا، وصل في ٩ ايار ١٧٨٧ أول دفعة من المستوطنين إلى سيراليون مؤلفة من ٣٥٠ رقيقًا سابقًا و٧٠ امرأة بيضاء جرى جمعهن من شوارع لندن حيث كن يعملن بائعات للهوى، وحملتهم جميعًا «شركة خليج سان جورج» التي كان قد أسسها غرانفيل شارب لاعادة الرقيق المعتقين إلى بلادهم الافريقية (راجع «النبذة التاريخية»). ولما لم يكن هناك من استعدادات مسبقة لمساعدتهم على الحياة هناك، فقد كانت السنوات الاولى من حياتهم بالغة الصعوبة. وبعد إقامتهم قرب خليج كرو Kru Bay في شبه جزيرة فريتاون حيث اتخذت المنشأة الاولى هناك إسم «مدينة غرانفيل» (نسبة إلى الداعية الانساني غرانفيل شارب)، وبعدما تعرّضوا لأمراض فتكت بالعديد منهم، قرّر البرلمان الانكليزي تقديم مساعدة إلى «شركة خليج سان جورج»، وأسس، في ١٧٩١، «شركة سيراليون» التي حلت محل الشركة الاولى. وفي شباط ١٧٩٢، انزلت شركة سيراليون أكثر من ألف أسود، استقدمت أكثريتهم من سكوتلندا الجديدة عن طريق انكلترا وكانوا من الجنود المسرحين. وبعد

اتفاق مع الملك نيمبانا (من قبيلة التمني)، قرّرت الشركة ان تبني لهم مدينة، اتخذ لها في ما بعد إسم «فريتاون». هكذا ولدت هذه المدينة في ١٧٩٢ على الضفة الجنوبية من روكيل Rokel، وعلى مقربة من ميناء طبيعي ممتاز. وعلى الرغم من الهدم والخراب الذي لحق بها على يد الفرنسيين أثناء حروب الثورة الفرنسية (١٧٩٤)، فقد نمت واصبحت تتألف من مئات البيوت في ١٧٩٦. وفي ١٨٠٠، وصل ٨٠٠ عبد معتق من جامايكا وانضموا إلى السكان. وفي ١٨٠٧، انتقلت العقارات التي كانت تملكها شركة سيراليون إلى الحكومة البريطانية؛ وفي ١٨٠٨، أعلنت هذه الممتلكات «مستعمرة تابعة للتاج».

ابتداء من ١٨١٥، أصبحت فريتاون القاعدة البحرية البريطانية الاساسية على شاطىء افريقيا الغربية، واستقبلت بين ١٨١٥ و١٨٣٣ نحو ٣٥ ألفًا من الرقيق المعتقين. وهؤلاء، على عكس الدفعات الاولى، لم يكونوا يعرفون شيئًا عن الحضارة الاوروبية و لم تكن اقدامهم قد وطأت الاراضي الاوروبية، إذ استقدموا، بغالبيتهم من مناطق خليج بينن. فأقاموا في جوار فريتاون وعملوا في الزراعة، ثم ما لبثوا أن شكلوا أكثرية سكان فريتاون. وأصبحت مختلف أحياء المدينة تضم بين ٢٠ و٣٠ من الاتنيات المختلفة لا يجمعهم سوى نوع من «سقف انكليزي» (يتعلق بالادارة واللغة وبعض العادات) جعلهم ارفع مستوى بقليل من سكان القارة الاصليين، ما أهّلهم للعب دور مهم (في القرن التاسع عشر) في ادارة منشآت استعمارية بريطانية في الساحل الافريقي الغربي. وخلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، نما عدد السكان رغم موجة الامراض (الهواء الاصفر) التي فتكت بعدد كبير منهم، وأصبحت فريتاون تعد ٣٠ ألفًا في نهاية القرن التاسع عشر، و٤٠ ألفًا في ١٩٢١، في حين كان إجمالي عدد المستعمرة في هذه السنة (١٩٢١) ٨٤ ألفًا.

سيشيل، جزر

نبذة عامة

الاسم: إسم أعطي للجزر في ١٧٥٦ تخليدًا لذكرى المعتمد الفرنسي مورو دو سيشيل.

الموقع: أرخبيل من ١١٥ جزيرة في المحيط الهندي، شمال شرقي مدغشقر وعلى بعد ١١٠٠كلم عنها، و١٦٠٠كلم عن ساحل كينيا.

المساحة: ٤٥٣كلم م..

العاصمة: فيكتوريا (وتقع في جزيرة ماهي، وتعد نحو ٢٥ ألف نسمة).

اللغات: الانكليزية والفرنسية (رسميتان)، فضلاً عن لغة الكريول التي يتكلمها أهالي جزر المحيط الهندي، وهي خليط من الفرنسية والاسبانية واللغات المحلية.

السكان: يعدون نحو ٧٧ ألف نسمة، وتشير التقديرات إلى انهم سيصبحون نحو ٨٥ ألفًا في العام ٢٠٠٠. يدين ٩٢٪ منهم بالكاثوليكية، و٦٪ بالبروتستانتية الانغليكانية. نحو ٨٥٪ منهم يعيشون في جزيرة ماهي (حيث العاصمة).

الحكم: جمهوري. عضو في الكومنولث. الدستور المعمول به صادر في ١٨ حزيران ١٩٩٣. البرلمان من ٢٤ عضوًا، ٢٢ منتخبين واثنين معينين. ولاية الرئيس ٥ سنوات وينتخبه البرلمان.

أهم احزاب البلاد: حزب «جبهة الشعب التقدمية»، تأسس في ١٩٧٨، وبقي الحزب الحاكم الوحيد حتى ١٩٩١.

الاقتصاد: تتوزع اليد العاملة على: ١١٪ في الزراعة، ٢٦٪ في الصناعة، و٦٣٪ في الخدمات. أهم المزروعات الجوز الهندي، وأهم إنتاج زراعي لب النارجيل (لب يعصر من دهن النارجيل، وهو من أشهر السمون النباتية)، والقرفة، والموز. وهناك نشاط ملحوظ في تربية الماشية وصيد الاسماك. ويقصد كثيرون للسياحة في جزر سيشيل لجمالها الطبيعي واعتدال مناخها، حتى أطلق عليها نعوت شاعرية مثل «جزر الحب»، و«لآلىء المحيط الهندي» و«الفردوس

الارضـي». أهـم الصناعــات: الجعــة، التبـغ، الكونسروة، وعصير الفاكهة.

نبذة تاريخية: عرف العرب هذه الجزر منـذ القرون الوسطى (وهناك جزيرة لا تزال تحمل إسمًـا عربيًا وهي جزيرة «الخضرا»)، ولكنهـم لم يقيمـوا فيها. واكتشف المـلاح البرتغـالي فاسكو دو غاما هذه الجزر في اوائل القرن السـادس عشـر. وبقيت خاليـة مـن السـكان حتى جاءهـا الفرنسـيون في اواسط القـرن الثـامن عشـر، وأطلقـوا عليهـا إسـم الفيكونت مورو دو سيشيل، المفتش العـام للمالية في عهـد لويـس الخـامس عشـر، واستقدموا إليهـا الرقيق من مختلف انحاء افريقيا.

في ١٧٩٤، غزاها الانكليز، ونشبت بينهـم وبين الفرنسيين عدة معـارك حتى كـانت معـاهدة باريس، في ١٨١٤، الـتي أعطـت الجـزر لانكلـترا. وبقيت جزر السيشيل، طيلة القـرن التاسـع عشـر، ملحقة بجزيرة موريـس (موريشيوس) الـتي كـانت مستعمرة انكليزية ايضًا. وكان الانكليز يفسـحون المجال لعـدد كبير مـن الأفارقـة الذيـن يفلحـون في الافـلات مـن تجـار الرقيـق للجـوء إلى الجـزر. وفي ١٩٠٣، أصبحـت السيشـيل مسـتعمرة انكليزيـة ذات إدارة خاصة. وفي ١٩٦٦، أدخلت الحكومـة الانكليزية إليها مبدأ الانتخاب، فنشطت علـى اثـر ذلك الحركة السياسية الداخلية الـتي انبعثـت منهـا الدعـوات الاسـتقلالية. وفي ١٩٧٦، حصلـت السيشيل على استقلالها واصبحت جمهورية.

وأول رئيس لها، جيمس مانتشـام، (مولـود ١٩٤٠)، حكـم ١١ شـهرًا و٧ ايـام فقـط. في عهـده، وكنتيجـة مباشـرة للاستعمار الانكليـزي، كـان معـدل الدخـل الفـردي في السيشـيل ٦٥٠ دولارًا في السنة (وكـان عـدد السكان ٦٥ ألفًـا، أصغـر بلـدان القـارة الافريقيـة) وكـان مـن أعلـى مداخيـل افريقيـا. والامـر نفسـه يقـال في نسـبة المتعلمـين وهـي ٦٥٪ بـين الاشـخاص الذيـن

جيمس مانتشام.

تراوحت اعمارهم بين ١٥ و٣٠ سنة كما كـانت الجزر خالية من حمى الملاريا وسواها من الامـراض الـتي سـببت الشـقاء للبلـدان الافريقيـة الأخـرى. وكـان هنـاك انسـجام بـين مواطـني سيشـيل، ومعظمهـم متحـدر مـن المسـتوطنين الفرنسـيين وأرقـائهم الافارقـة. أمـا مانتشـام نفسـه فهـو مـن أصول فرنسية وصينيـة، ودرس الحقـوق في بـاريس ولندن من غـير ان يمـارس المحامـاة. وقـال مانتشـام مرة: «ليس من البطولـة الاسـتيلاء علـى سيشـيل. وفي وسع ٢٥ شخصًا مسلحين بالعصي ان يفعلـوا ذلك».

وحين طار مانتشام إلى لندن في الاول من حزيران ١٩٧٧ لحضور مؤتمر الكومنولـث، ودّعـه رئيس وزرائه فرانـس البـير رينيـه (مولـود ١٩٣٥) على المطار. وبعد ايام أربعة وجه رينيـه قواتـه الـتي تلقـت تدريبهـا علـى أيـدي التـانزانيين إلى محطـة الاذاعة. وانتظروا هناك حتى الصباح البـاكر حـين أعلن رينيه عبر ناطق باسمه انه قلب حكم مانتشـام ولن يسمح له بالعودة إلى سيشـيل. وكـان يفصـل البلاد عن عيـد استقلالها الاول ٢٣ يومًـا. وكـان رينيه يتزعم «حـزب الاتحـاد الشـعبي السيشـيلي». ويدعو هذا الحزب إلى «الاشـتراكية علـى الطريقـة السيشيلية». وبادر رينيه إلى تأميم الاقتصاد جزئيًا، وسجن بعـض الخصـوم السياسـيين وأسـس جيشًـا

يشرف على تدريبه ضباط من تانزانيا. وانتخب رينيه رئيسًا للجمهورية في ٢٦ حزيران ١٩٧٩. واتبع سياسة الانفتاح على كل البلدان. فزار الصين (ايار ١٩٧٨)، وليبيا (تموز ١٩٧٨)، وفرنسا (ايلول ١٩٧٨)، والعراق (١٩٨٠).

في ١٩٨٠، احتفلت سيشيل بالذكرى الثالثة لانقلاب رينيه التي رافقها عرض عسكري في شوارع العاصمة فيكتوريا. وفي ٢٥-٢٦ تشرين الثاني ١٩٨١، موّل مهاجرو سيشيل الأثرياء مجموعة من المرتزقة البيض من جنوب افريقيا لاطاحة نظام رينيه. غير ان المحاولة قضي عليها في المهد. وانكر مانتشام أي علاقة له بذلك الحادث.

في ١٧ آب ١٩٨٢، قام تمرد آخر فاشل، وذهب ضحيته ٧ قتلى و٢٣ جريحًا. وفي ٢٩ تشرين الثاني ١٩٨٥، اغتيل أحد المعارضين في لندن، ويدعى جيرار هوارو. وفي ايلول ١٩٨٦، جرت مؤامرة أخرى لقلب حكم رينيه، لكنها فشلت. وفي حزيران ١٩٩٠، زار السيشيل الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران. وفي ٣ كانون الاول ١٩٩١، وافق الحكم على التعددية الحزبية. وفي تموز ١٩٩٢، جرى انتخاب جمعية تأسيسية، وطرح مشروع دستور جديد على الاستفتاء في ١٥ تشرين الثاني ١٩٩٢ رفض بأكثرية ٥٣،٧٪؛ وأعيد الاستفتاء في ١٨ حزيران ١٩٩٣، فنال الدستور الجديد موافقة ٧٣،٦٪. وقد سبق الاستفتاء الثاني اجتماع ضم الرئيس فرانس البير رينيه وزعيم المعارضة الرئيس السابق جيمس مانتشام.

في ٢٤ تموز ١٩٩٣، أظهرت النتائج الرسمية فوز فرانس البير رينيه في الانتخابات الرئاسية، وهي الاولى منذ حصول البلاد على استقلالها في ١٩٧٦. وحصل رينيه، عضو الجبهة الشعبية التقدمية (الحزب الواحد سابقًا) على ٥٩،٥٪ من الاصوات في مقابل ٣٦،٧٪ نالها الرئيس السابق جيمس مانتشام. وفاز حزب رينيه ايضًا بـ٢١ مقعدًا من اصل ٢٢ كانت شاغرة في الجمعية الوطنية. وقد جرت الانتخابات بعد مرحلة انتقالية دامت ١٨ شهرًا انتقلت خلالها البلاد من نظام الحزب الواحد إلى نظام التعددية السياسية.

من المشكلات التي واجهها رينيه مشكلة النزاع مع لندن حول إعادة جزر فاركوهار، الدابرا وديروش، إلى جمهورية السيشيل، والتي كانت هذه الجزر قد بيعت إلى التاج البريطاني في ١٩٦٩.

شبه الجزيرة العربية

نظرة عامة

يقال لها ايضًا «جزيرة العرب». هي شبه جزيرة واسعة الارجاء في الطرف الجنوبي الغربي من آسيا. يحدها من الشمال الاردن والعراق، ومن الغرب خليج العقبة والبحر الأحمر، ومن الشرق الخليج العربي-الفارسي (البعض، خاصة من الفرنسيين، يقول «الخليج العربي-الفارسي»، الآخرون «الخليج الفارسي»). تبلغ مساحتها ٣ ملايين كلم م.، وتعد بمجموع بلدانها نحو ١٦ مليون نسمة، غالبيتهم الساحقة من العرب.

تاريخيًا:

ثمة نصوص أكادية وعبرية مختلفة تعود إلى القرن التاسع ق.م. تتكلم عن شعب كان يقيم في الصحراء «السورية-الميزوبيتيمية» (Mésopotamie-بلاد ما بين النهرين) وفي المناطق الشمالية-الغربية من شبه الجزيرة العربية يدعى، في الأكادية «عريبي» أو «أريبي» أو أ(ع)ربو، وفي العبرية «عرب». وفي وقت لاحق، ذكرت الحوليات الأشورية عن معارك جرت بينهم وبين «العرب» الذين، رغم هزائمهم، كانوا في حالة تمرد مستمر. بعد ذلك، مارس الفرس بعض النفوذ على المنطقة، وكان في عداد جيش أحد أباطرتهم في العام ٤٨١ق.م. «وحدة عسكرية عربية». وإذا

كان سكان المناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية قد وصلهم بعض التأثر من أحداث الشرق القديم (بابليون، فرس ...)، فإن سكان المناطق الجنوبية، الذين كانوا يتكلمون «لهجات سامية» (العربية)، عرفوا دون شك حضارة خاصة ومختلفة. فدولة «سبأ» يشير إليها نص عبري يعود إلى القرن التاسع ق.م. وفي العام ٢٤ق.م. أرسل القيصر الروماني أوغسطس والي مصر لغزو المنطقة. لكن الحملة فشلت في الوصول إلى هناك.

وكثيرًا ما أبرز المؤرخون المفارقات التي كانت قائمة بين شمالي شبه الجزيرة العربية وجنوبيها. وفي ما يلي ما قاله في ذلك لويس غارديه: «إنها لعديدة تلك المحاولات الرامية إلى وصف ما كان عليه العرب قبل الهجرة، عرب القبائل الرحّل وتجارة القوافل، الذين نقصد بهم هنا عرب شمالي شبه الجزيرة، الذين تنتمي إليهم قبيلة النبي محمد؛ وعرب الجنوب، عرب اليمن السعيد الذين كانوا يعرفون حضارة تأثرت كثيرًا ببيزنطية وبفارس في عصر ملوكها العظام. وقد ظهرت في عدد من ممالكهم مذاهب مسيحية نسطورية أو مونوفيزية (قائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح)، كما ظهرت اليهودية» (L.Gardet, «Les hommes de l'Islam, Paris, Hachette, 1977, p. 30).

كان سكان المناطق الجنوبية من شبه الجزيرة يعيشون من منتجات زراعية متقدمة بفضل تقنيات زراعية عرفوها مثل فلاحة الارض وردمها وحفر قنوات الري. أما في مناطق الوسط، فكانت طريقة الحياة مختلفة، إذ كان السكان (البدو) يعيشون على الرعي، مع بعض الزراعات البدائية في الواحات حيث كانوا يعيشون دائمًا في خطر الغزوات. وكذلك كان العرب يعيشون في المناطق الواقعة على حدود بلاد ما بين النهرين وسورية وفلسطين. وقد تحالفت مملكة النبط العربية (عاصمتها البتراء) مع روما. وقام الامبراطور الروماني تراجان بضمها إلى الامبراطورية في العام ١٠٦ جاعلاً منها «المقاطعة العربية» Provincia Arabia. وقد توصل عرب من سورية (الغابال في ٢١٨؛ فيليب العربي من شهبا في ٢٤٨) من الوصول إلى حكم الامبراطورية الرومانية.

في اواخر القرن الثالث، تمكن اللخميون، وهم فرع من التنوخيين، من بسط نفوذهم على كامل الصحراء السورية، وتحالفوا مع روما، ثم مع الساسانيين، وقد قدّموا حمايتهم للنسطوريين الذين لاقوا اضطهادًا كبيرًا من البيزنطيين. أما الغساسنة (قبائل عربية أخرى) فقد تحالفوا مع بيزنطية (حوالي العام ٥٠٠) واعتنقوا المسيحية المونوفيزية. وقبيل ولادة الدعوة الاسلامية الجديدة، وفي ايامها الاولى، كان هناك في شبه الجزيرة العربية، إضافة إلى أصحاب الديانات التعددية الوثنية، المسيحية المونوفيزية، والمسيحية النسطورية، واليهودية.

في القرن السابع، تمكن النبي «محمد رسول الله» من توحيد القبائل العربية ومن إقامة دولة اسلامية في المدينة. ومنذ تعيين الخليفة الراشدي الرابع والحرب التي استتبعت ذلك، انتقل مركز الحكم-الاسلامي إلى خارج شبه الجزيرة العربية. وكان هذا المركز يعين حكامًا (أمراء) على المدينة وعلى مكة لإدارة شؤون المناطق الغربية من شبه الجزيرة، في حين ان المناطق الشرقية فيها كانت تدار من البصرى. وفي هذه المرحلة، عرفت المدينتان المقدستان، مكة والمدينة، شأنًا عظيمًا، فضمتا المراكز الثقافية والدينية. وفي الحكم العباسي أصبحت بغداد عاصمة العالم الاسلامي. ومع ذلك عرفت شبه الجزيرة بعض الاضطرابات، تمكن خلالها الخوارج (وفروع منهم) من إقامة سلطة مستقلة لهم في منطقة عُمان تمكنوا من الدفاع عنها طيلة أربعة قرون.

في القرن التاسع عرفت مكة والمدينة دعوات ناشطة قام بها انصار الامام علي معترضين على شرعية الخليفة. وشهد القرن العاشر

اضطرابات القرامطة والاسماعيليين الذين عمّت دعواتهم مختلف نواحي شبه الجزيرة. ومنذ اواسط القرن العاشر أخذ شريف مكة يدير شؤون المدن المقدسة وكامل مناطق الحجاز تقريبًا التي كانت تلحق اسميًا بالسلطات الاسلامية لقائمة (الفاطميون، السلجوقيون، الأيوبيون، المماليك). أما اليمن، فقد تمتعت بسلطة مستقلة بين ١٢٨٨ و١٤٤٦؛ وفي ١٥٠٦، أسس شرف الدين يحيى أسرة الإمامة الزيدية التي استمرت تحكم حتى ١٩٦٢. وبعد دخول السلطان سليم الاول مصر في ١٥١٧، سيطر الاتراك العثمانيون على شبه الجزيرة العربية.

في اواسط القرن الثامن عشر، كانت الدعوة الوهابية التي تزعمها محمد بن عبد الوهاب (العودة إلى الاسلام إلى أصوله الصافية) في أساس التغييرات الكبرى التي عرفتها شبه الجزيرة. وأصبح محمد بن سعود كبير المدافعين عن هذه الدعوة؛ وتمكن ابنه، تحت رايتها، ان يخضع نجد ويهاجم الحجاز حيث واجه هناك شريف مكة الهاشمي. فاحتل المدينة المقدسة (١٨٠٣) وبسط سلطته على كامل شبه الجزيرة تقريبًا. لكن السلطان العثماني أوكل والي مصر محمد علي مهمة إعادة السلطة العثمانية في المنطقة. ونجح الجيش المصري بوضع حد لمحاولة الوهابيين الأولى في إقامة دولتهم. فعاد الوهابيون وبنو سعود إلى وسط شبه الجزيرة العربية. وفي اوائل القرن التاسع عشر، لم تتمكن شبه الجزيرة من ان تبقى بمعزل عن التوسع الاستعماري: فأصبحت عدن مستعمرة بريطانية (١٨٣٩)، ووحدها الحجاز بقيت تحت السلطة العثمانية. وفي اوائل القرن العشرين، أعاد عبد العزيز بن سعود تنظيم الحركة الوهابية، فتشكلت حركة «الاخوان» التي كانت قاعدة لعمل مسلح منظم. وأثناء الحرب العالمية الاولى، وقف العرب والاتراك في مواجهة بعضهم البعض، وقد دفع الانكليز العرب إلى هذا الموقف وقدموا لهم الدعم، وكان لهم (الانكليز) مندوب لدى بني سعود (هو هـ.ج.فيلبي)، وآخر لدى شريف مكة حسين بن علي (هو ت.إ.لورنس، «لورنس العرب»). وبعد ذلك، دعم الانكليز في آن واحد الشريف حسين باعلانه ملك العرب، ثم خليفة (١٩٢٤)، وكذلك ابن سعود الذي كان قد تمكن من ضم عسير في ١٩٢٠، وبسط نفوذه على نجد، ومهاجمة الحجاز (وقعت مكة وجدة في يد أبناء سعود في ١٩٢٥. وفي ١٩٣٢، أعلن ابن سعود قيام المملكة العربية السعودية متضمنة الحجاز ونجد وممتلكات أخرى.

شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام
(مناقشات)

لماذا «مناقشات»؟: لأن المنطقة لا تزال «غير مدروسة» تقريبًا. التنقيب فيها حديث العهد (بدأت طلائعه في القرن التاسع عشر)، وقد بدأ يكون مثيرًا جدًا للاهتمام مع ما أعلنته بعثة البحث والتنقيب الدانماركية في الخمسينات من هذا القرن في شرقي شبه الجزيرة وشمالها الشرقيّ من انها تقف على تخوم اكتشافات مثيرة قد تغير جذريًا التصورات السائدة حول مضمون تاريخ شبه الجزيرة.

ولأن هذه التصورات التقليدية الشائعة،

حتى في الاوساط العربية، تقوم على أساس عزلة شبه الجزيرة عن العالم الخارجي وبيئتها الجغرافية (ومناخها) الطاردة للتمركز الحضاري ونموه، فاكتفى سكانها القلائل بنمط حياة البداوة غير المستقر والافتقار إلى الكتابة.

القائلون بالوجود الحضاري قبل الاسلام وإسناداتهم

على صعيد اللقى والمكتشفات: الابحاث التي تمت في العقدين الأخيرين على ساحل الامارات العربية المتحدة ومناطقها الداخلية على اطراف الربع الخالي، وفي البحرين وجزيرة فيلكا الكويتية شمالاً، وفي موقع «قرية» على الطرف الغربي للربع الخالي وموقع «عبار» المدفونة بين رماله، تشير إلى ان شبه الجزيرة كانت، منذ العصر الحجري، حلقة وصل ونقطة انطلاق لحركات النزوح الكبيرة. وتظهر ابحاث البعثات الأثرية في منطقة تمتد من الهند حتى شمالي شبه الجزيرة مواقع حضرية في شبه الجزيرة العربية. يطلق عليها إسم «حضارة العبيد» ترجع إلى اواخر الألف الخامس ق.م. (فخاريات وتماثيل). وفي الألف الرابع ق.م. تعاصرت هذه الحضارة مع حضارة «كولي» و«ملوحا» (جنوبي بلوشستان). أما في الألف الثالث ق.م. فتظهر آثار المجتمعات المستقرة المعتمدة على صيد الاسماك والرعي والزراعة والتجارة في مناطق مثل واحة «البريمي» و«أم النار» والبحرين والكويت وكلها تعاصر حضارة وادي السند الهندية من جهة، والحضارة السومرية من الجهة الأخرى. وتبرز في الألف الاول ق.م. مدن شبه الجزيرة العربية الشهيرة على الساحل الشرقي والمذكورة في المصادر اليونانية والرومانية مثل «ثج» و«الجرعاء» أو «جرها». وفي الآونة الأخيرة أزيح الستار عن مدينة «عبار» الواقعة في مناطق الربع الخالي نفسها.

أما الكتابة المعروفة باسم «الخط المسند» والمنسوبة إلى جنوبي شبه الجزيرة فكانت شائعة في كل مناطقها ووجدت باعداد كبيرة في اماكن متفرقة منها إما على احجار القبور أو على واجهة المنحدرات. وهي كتابة أبجدية مع اختلافات لهجوية طفيفة. وأقدم نصوص مكتشفة من هذه الكتابة يرجع إلى اوائل القرن الألف الاول ق.م. وهناك نصوص اكتشفها أحد الرحالة (ربرترام لويس) حين قطع الربع الخالي ولم يقيض للعلماء دراسة تاريخها.

على صعيد المناخ: هذه النقطة الأساس في النقاش الدائر حول الوجود الحضاري القديم أو عدم وجوده في شبه الجزيرة العربية، وذلك لارتباط المناخ بوجود البيئة المساعدة، أو غير المساعدة، للوجود الحضاري. فاصحاب النظريات القائلة بوجوده متحمسون لإبراز آراء علمية تتحدث عن مناخ مختلف للمناخ المعروف اليوم. فمدينة مثل «ثج» كانت تقوم على ضفاف بحيرة، وكانت «قرية» تقف إلى جانب نهر يجري في وادي الفاو، ولم تكن «عبار» قائمة بين الرمال، بل على ضفاف بحر كبير يحتل ما يدعى الآن الربع الخالي. ولم تكن الغابات والاشجار العالية بعيدة عن هذه الصورة حتى ان احد الباحثين وهو يراقب الجمل لم يجد بدًا من القول إن الجمل من بيئة «السافانا» أي المناطق المشجرة، وانه حيوان يرعى الاشجار بطبيعته، لأن رقبته متوائمة على نحو أفضل للوصول إلى أعلى بدل الانحناء إلى الأسفل. وكان اكتشاف البيوت والمقابر المبنية من الحجر على ساحل الامارات الغربية اكتشافًا من النوع الكامل الذي يسمح بمعرفة حجم السكان وطول الحياة المتوقعة والامراض السائدة، وحجم القطعان والأسراب، ونوعية الطعام والسكن. ففي موقع يدعى «أم النار» اكتشف المنقبون مجتمعًا حضاريًا من عشرين بيتًا مادة بنائها الحجر. وتظهر الأبنية الحجرية ونوعية الحيوانات-عبر تحليل العظام

المتبقية- ان المجتمع كان مكيفًا لمناخ مختلف، وتحديدًا لامطار أكثر غزارة مما يسقط في هذه الايام وهو ما سمح بظهور البحيرات والأنهار والغابات، وسمح بظهور المراكز المتقدمة.

على صعيد الأصل السامي: الهجرات من شبه الجزيرة العربية والعلاقات مع السومريين والآراميين: في بحث العلماء عن موطن الساميين الاول بمنافسة شديدة استقروا على مواطن عدة: بعضهم رشح ارمينيا، والبعض الآخر بلاد ما بين النهرين، وآخرون سورية.

لكن الجمهرة الأوسع من العلماء استقطبتهم النظرية القائلة إن موطن الساميين الاول هو شبه الجزيرة العربية، وانهم هاجروا على شكل دفعات أو موجات بشرية بسبب الجفاف التدريجي الذي ضرب المنطقة. ومعظم العلماء يقرون بأن أقدم تواجد بشري انتقل على شكل موجات إلى خارج حدود المنطقة حدث في شبه الجزيرة، وان أقدم الحضارات الإنسانية مصدرها، من الاقوام التي هاجرت من هذه المنطقة، ولكن هؤلاء العلماء يتحفظون كثيرًا على ذكر أسماء الاقوام ويقصرون إشارتهم على ما اصطلح عليه بالاقوام السامية. ويؤكدون بأن شبه الجزيرة كانت تحفل بالمرافق الحضارية قبل ظهور السومريين عند الاطراف الشمالية منها. فقد عثر علىادوات حجرية من العصور الباليوليثية والنيوليثية في مواضع من المملكة العربية السعودية تمتد من الاحساء (الهفوف) إلىالحجاز، ومن مدائن صالح إلى نجران، مما يؤكد على قدم حضارة وسكن هذه المنطقة. وتشير بعض الدراسات إلى ان الدول القديمة التي قامت في اليمن ارتبطت بعلاقات متصلة مع اقوام جنوبي وادي الرافدين، وبالذات السومريين، وكانت «مجان» (عمان حاليًا) مصدرًا مهمًا للنحاس الذي جلبه السومريون من هناك. واشتهرت ايضًا بحجر الديوريت الاسود المشهور، والذي استخدمه ملوك العراق القديم في صنع تماثيل آلهتهم. ويبدو ان علاقة السومريين بشبه جزيرة العرب لم تقتصر على منطقة واحدة، وقد اعتبر العلماء ان «دلمون» تشكل نقطة اهتمام مبالغًا بها في التراث السومري. وربما تكون «دلمون» (أي البحرين أو قطر أو الامارات) الموطن الاول للسومريين قبل نزوحهم لجنوبي العراق استنادًا إلى ما شغلته من حيز بارز في وثائقهم وانتمائهم الديني، فقد مثلت هذه المنطقة الجنة السومرية الموعودة أو الارض المقدسة والفردوس الذي يتضرعون به.

وعن العلاقات بآراميي «سورية الطبيعية» فقد جرت على وجه الخصوص من خلال «الدور الحضاري الكبير الذي قامت به الاقلية الأدومية- الآرامية التي اختلطت بقبائل الأنباط العربية (التي بدأت تدخل منطقة شرق جنوبي الاردن منذ القرن الثامن ق.م.) فحولتها من شعب بدوي غير مستقر إلى شعب مستقر يعرف الابداع والازدهار. وظهرت عبقرية الفن النبطي في هندسة مدينة البتراء التي تعد إحدى روائع التاريخ العالمي القديم. وبالتالي، لعبت الاقلية الآرامية الدور الأساسي في تربية الأنباط الفكرية، فكتبت للمرة الاولى في التاريخ اللغة العربية النبطية بحرف آرامي. وتطور الخط النبطي-الآرامي واصبح خلال القرن الثالث الميلادي الابجدية المعروفة لدى عرب شمالي شبه الجزيرة العربية. وبعد ذلك تطور هذا الخط إلى الخط الكوفي ذي الزوايا الذي استعمل في كتابة القرآن الكريم» (شفيق ابو زيد، «الحياة»، العدد ١١٧١١، تاريخ ١٥ آذار ١٩٩٥، ص ١٨؛ وراجع ايضًا «سورية»، ج٩ من هذه الموسوعة، ص ٣٣٨-٣٣٩).

علاقات طويلة بين شبه الجزيرة والحبشة قبل الاسلام: البلاد المعروفة اليوم باسم أثيوبيا لم تُعرف عند العرب-قبل الاسلام وبعده-بغير إسم «الحبشة» نسبة إلى إسم قبيلة «حبشت» التي

قدمت من اليمن (مُهرة بحضرموت أو تهامة اليمن) واستقرت في الألف الاول ق.م. في مرتفعات أريتريا ومقاطعة تيغراي في شمالي هضبة الحبشة واشتهرت من ممالكها مملكة أكسوم منذ القرن الاول الميلادي. وأخذ الاوروبيون إسم الحبشة وكتبوه Abyssinia.

الجنس الغالب في الحبشة شبيه عرقيًا بسكان جنوبي شبه الجزيرة العربية. وأكثر أجزاء الحبشة اصطباغًا بالسامية الجزء الشمالي، أي الرقعة التي قامت فيها مملكة أكسوم منذ القرن الاول الميلادي. وإن بني عامر-أكبر المجموعات القبلية في أريتريا-ينتمون إلى أصول عربية، وكذلك قبائل عفر (الدناقل) وساهو القاطنة في شرقي الحبشة حتى ساحل البحر الأحمر، فانها تُرجع أصولها إلى الحجاز واليمن وحضرموت. وكانت مدينة هرر (أو هارار) أهم المدن الاسلامية في الحبشة، ولأهلها صلات عريقة باليمن والعالم الاسلامي.

إن الشعب الذي عبر البحر الأحمر خلال الألف الاول ق.م. للاستيطان في مرتفعات الحبشة الشمالية كان فرعًا من حضارة سبأ التي ازدهرت في اليمن. ويمكن تتبع حضارة سبأ من خلال العملات والنقوش ابتداء من القرن السادس ق.م. وما بعده. ويبدو ان رخاء مملكة سبأ قام إلى حد كبير على تجارة البخور (اللُّبان) والحر والقرفة. وأشادت المصادر اليونانية والرومانية بعمارها ورخائها، ولذلك عُرفت اليمن في القديم باسم «العربية السعيدة» Arabia Felix، واشتهرت بسدّها-سدّ مأرب- الذي اقيم في منتصف القرن الثامن ق.م. لخزن الماء والري. وهو يدل على براعة هندسية وتقنية رائعة. ولا يزال في الجانب الافريقي أسماء أماكن من اصل يمني مثل: سبأ، سحرت، هَوزَن، سراة، مأرب (راجع «اليمن» في جزء لاحق من هذه الموسوعة).

العرب: «ظهرت كلمة «عرب» للمرة الاولى في التاريخ في سنة ٨٥٤ق.م. في نقوش الملك الأشوري شلمنصر الثالث، وهي إسم بعض القبائل التي كانت تعيش في شبه الجزيرة العربية. وظهر ايضًا في ما بعد إسم «هاجر» في نقوش الملك الأشوري تغلات بيلاصر الثالث سنة ٧٢٧ق.م.، وهو يعني إسم بعض القبائل التي تنتمي إلى اسماعيل بن ابراهيم الخليل، ومنطقة وجودها كانت شبه الجزيرة العربية. والنقوش المسمارية الأشورية تذكر ايضًا في سنة ٧٣٨ ق.م. ان «ملكة العرب زبيبة» ارسلت الجزية للملك تغلات بيلاصر الثالث بسبب خضوعها له. ويرد في النصوص الأشورية ان الملك الأشوري أخضع لحكمه في سنة ٧٣٢ق.م. ملكة عربية أخرى هي شمسي. وفي سنة ٧٠٣ق.م. تحالفت «ملكة العرب ياني» مع البابليين ضد الملك الأشوري سنحاريب. والمرجع الثاني لتاريخ العرب هو كتاب التوراة اليهودية الذي تكلم عن «العرب» كقبائل بدوية تعيش بنوع خاص في شبه الجزيرة العربية، ويمتد تواجدها حتى شرقي الاردن وشرق جنوبي العراق. ثم تتعدد المصادر مع الفرس واليونان والرومان الذين حكموا بعض مناطق شبه الجزيرة العربية خلال فترات مختلفة من التاريخ. ويتضح من هذه المصادر ان كلمة «عرب» تعني سكان شبه الجزيرة العربية؛ وجميع الوثائق تصف العرب بأنهم بدو رحل باستثناء بعض القبائل التي استقرت في المدن الكبرى. وبقي العرب قبائل متفرقة تتنازع الماء والكلأ حتى ظهر الاسلام فوحّد أمرهم وجعلهم من أقوى أمم الارض» (شفيق ابو زيد، باحث في جامعة أوكسفورد، «الحياة»، العدد ١١٧١١، تاريخ ١٥ آذار ١٩٩٥، ص١٨).

القائلون بعدم الوجود الحضاري في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام

في حين يُلاحظ الاجماع، بين العلماء والمؤرخين، على الدور الحضاري العالمي الهائل

لشبه الجزيرة العربية الذي بدأه الاسلام مع محمد رسول الله ومعجزة القرآن الكريم، فإن النقاش لا يزال يدور حادًا حول تاريخ شبه الجزيرة السابق على الاسلام، خاصة وان العلم بمختلف فروعه (ومنه العلم الجيني، أو علم الجينات الحديث) لم يقل كلمة الفصل في كثير من الامور التي تتناول الاصول البشرية وأصول الحضارات، خاصة، في ما يعنينا هنا، لجهة التفريق أو وضع حدود الاصول الحضارية بين شبه الجزيرة العربية ومنطقة بلاد الرافدين وسورية (الهلال الخصيب). فاكتفى العلم الجيني، بآخر نظرية له حول أصل البشر، باستعمال عبارة «المنطقة العربية» و لم يحدّد أو يفرّق بين شبه الجزيرة نفسها والمناطق الشمالية منها.

كما يُلاحظ، من جهة ثانية، ان القائلين بعدم الوجود الحضاري في شبه الجزيرة العربية في كل المراحل التي سبقت ظهور الاسلام، إنما يركزون على توصيف المرحلة السابقة مباشرة على الاسلام والموغلة في البداوة المتخلفة، ولا يهتمون كفاية، أو حتى احيانًا يكترثون، بالعناصر التي يوليها القائلون بالوجود الحضاري أهمية، مثل التغير التدريجي للمناخ في داخل شبه الجزيرة وما صاحبه من حرارة وجفاف جعلت المنطقة بيئة طاردة، وباللقى والمكتشفات في مواقع داخلية تشير إلى وجود حضاري، وبالعلاقات مع الطرف الشرقي (الهندي والايراني) والطرف الجنوب الغربي (الساحل الافريقي، وتحديدًا الهضبة الحبشية). كما انهم (القائلون بعدم الوجود الحضاري)، وبغالبيتهم العظمى، يركّزون على اعتبار مناطق ما بين النهرين وسورية مهد الحضارات مستفيدين مما أثبتته الابحاث من تفوق حضاري لشعوبها في التاريخ القديم.

الدكتور عماد شمعون خصّ الموسوعة (وسبق له وساهم في باب «سورية الطبيعية»، ج٩) بدراسة جمعت عددًا من المصادر، وعنونها بالتالي: «الاختلافات الجغرافية والبشرية الحضارية لكل من بلاد شبه جزيرة العرب وبلاد الهلال الآرامي الخصيب». وهذه أهم نقاطها:

– لم تشهد بلاد السريان أي نزوحات بشرية قبل الفتح العربي المسلم، باعتبار بلاد شبه الجزيرة العربية الصحراوية بلاد القحط والفقر. وهذا ما حدا ببدو الجزيرة العربية الرحّل ان يضربوا خيامهم على طول الاطراف الساحلية لصحاري الجزيرة، تمامًا كما هم عليه اليوم. فعلى طول ا لساحل الغربي للخليج (العربي)-الفارسي تتواجد كل من دولة الكويت والبحرين وقطر والامارات وقسم من سلطنة عُمان؛ وعلى طول الساحل قبالة المحيط الهندي تتواجد كل من سلطنة عُمان ودولة اليمن؛ وعلى طول الشاطىء الشرقي للبحر الاحمر تتواجد المملكة السعودية. ويفصل بين هذه الدول العربية من مشرقها حتى مغربها: صحراء الربع الخالي في الجنوب، وصحراء النفوذ في الشمال، وصحراء نجد في الوسط. وكان إذا اضطر العرب إلى النزوح توجهوا باتجاه البحر هربًا من عمق الصحراء ومرّ عيشها.

– معروفة اليوم ضآلة العنصر البشري في شبه الجزيرة العربية... فكيف إذا عدنا إلى ايام الاسلام ا لاولى وما قبلها؟! فتفسير ذلك هو في عدم رغبة الشعوب في الدخول إليها واستيطانها لقلة مواردها ولشبه استحالة الحياة فيها، ومن ثم كثرة الوفيات التي كان يتعرض لها سكانها البدو بسبب المناخ الحارق ومآسي تفشي الامراض وندرة المياه... فالنبي محمد قد خسر والده عن أربعة وعشرين عامًا وهو لم يزل جنينًا، ثم خسر أمه قبل ان يتجاوز السادسة من عمره، ثم خسر هو نفسه ابنه الوحيد عن عمر لم يتجاوز السنتين (عن عبد الغني عبد الرحمن محمد، «زوجات النبي محمد وحكمة تعددهن»، دار المسيرة، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص١١). أضف إلى ذلك شدة التخلف المؤدي ايضًا إلى الهلاك وذلك عبر تناولهم لحوم الحيوانات المائتة وشرب دمائها. الامر الذي

هال النبي، ونزلت الآية: «حرّمت عليكم الميتة والدم...» (سورة المائدة، الآية:٣).

– إن من أغرب المفارقات بداهة ان تكون شعوب الهلال الآرامي الخصيب، رائدة الحضارات في العالم، قد خرجت من شبه جزيرة العرب من دون ان تترك، تخليدًا لذكراها، اثرًا مماثلاً لما ابتدعته في بابل وماري وأوغاريت وصور... إذ كيف لبلاد عربية لم تعرف اثرًا للكتابة على طول بلاد الحجاز وعرضها في كل من مكة والمدينة إلا من بعد ظهور الاسلام، ان تشكّل منطلقًا لشعوب الهلال الخصيب التي عرفت الكتابة قبل عرب الحجاز بأربعة آلاف سنة؟! (هنا يسهب الدكتور عماد شمعون في إظهار الفارق الحضاري بالكلام على المستوى الراقي الذي بلغته شعوب منطقة الهلال الخصيب، وخاصة أصغرها «الفينيقيون»، وعلى مختلف صور الحياة، بالاستناد إلى عدد من المؤرخين).

– ومن أغرب المفارقات ان يكون ابن البادية، الذي قطن على طول السواحل وشطآن البحار و لم يهتد إلى صناعة السفن، في اصل منبت الفينيقيين الذين مخروا عباب البحر بسفنهم واستعمروا القارات!؟. فلو كان للعرب قدرة على صناعة السفن لما أتى الفرس، وهم على الحدود المتاخمة للعرب، إلى ارض كنعان ليستعينوا بأساطيل الفينيقيين.

– وخلو شبه جزيرة العرب من العنصر البشري الكثيف لا يعود مردّه إلى النزوحات المتتالية التي أدّت إلى إفراغ البادية من سكانها. لأن البادية لا تصلح في الأساس لأن تكون موطنًا نموذجيًا يحلم الانسان بالاقامة فيه. وعليه، فما من نزوحات تمت من أو إلى شبه الجزيرة العربية، وبات البحاثة في علم التاريخ وأعمال التنقيبات يستهجنون نظرية مجيء شعوب الهلال الخصيب من شبه الجزيرة العربية، وكأن البلاد المعتدلة المناخ، الغنية بمياهها، ذات التربة الخصبة، هي التي تكون خالية خاوية، فيما ارض القفر هي التي تعج بالبشر لدرجة انها تفيض على غيرها من المناطق المجاورة.

لقد كتب العالم الاميركي وليام فوكسويل ألبرايت، يقول: «مضى ذلك الزمن الذي كنا نحتاج فيه إلى مناقشة النظرية الأريترية حول أصل الفينيقيين». وقد وافق سباتينو موسكاتي الايطالي (عالم الآثار ومدير معهد دراسات الشرق الاوسط واستاذ فقه اللغات السامية وآدابها في جامعة روما) على اقوال العالم الاميركي: «ألبرايت على حق في هذا... فإن تكون الشعب الفينيقي عمومًا قد نتج عن تطور تاريخي في المنطقة الصورية–الفلسطينية، لا عن هجرة شعب جاء من الخارج».

كما أكد فراس السواح (في مؤلفه «الحدث التوراتي والشرق الادنى القديم»، دار علاء الدين، دمشق، ط٢، ١٩٩٣، ص٢٤٧–٢٤٨) أصالة الكنعانيين في موطنهم: «والحق ان أكثر النظريات قربًا من المنطق السليم هي التي لا تقول بقدوم الكنعانيين من منطقة الخليج العربي أو من أريتريا... بل التي تجعل الكنعانيين أصيلين في ارضهم، وترى في مدنهم تطورًا طبيعيًا لمستوطنات العصور الحجرية الأقدم. ذلك ان الكثير من مقار الكنعانيين التاريخيين كانت مستوطنات مزدهرة في عصور ما قبل التاريخ. ولا أدل على ذلك من أريحا وجبيل وأوغاريت»، إضافة إلى ما قاله صارغون الثاني الأشوري في العرب: «هؤلاء هم العرب الذين يعيشون في الصحراء، الذين لا يعرفون الرؤساء ولا كيف يجوبون البحار».

– وعن د. فيليب حتي (في مؤلفه: «تاريخ سورية ولبنان وفلسطين»، و«موجز تاريخ الشرق الادنى»)، نقل د.عماد شمعون أن العرب جهلوا، إضافة إلى جهلهم صناعة السفن وركوبها، بجمل فنون النحت والاعمار لدرجة انهم يوم خرجوا من شبه الجزيرة باسم الاسلام، الدين الجديد، ووصلوا إلى مدينة تدمر حيث شاهدوا منحوتاتها، نسبوا بناءها إلى أعمال الجن... والعرب الذين خرجوا

من شبه الجزيرة اقتبسوا وذابوا بعد التقائهم واحتكاكهم بالشعوب المتحضرة. فعدّلوا في أنماط عيشهم مثل استبدال خيامهم بمنازل من حجر. كما قام معاوية نفسه بإلغاء مختلف الانظمة العربية القديمة التي كانت من بقايا الجزيرة العربية، كنظام الجندية القديم القائم على القبلية، مستبدلاً إياها بأنظمة «عصرية» متبعًا في ذلك نظام الوحدات عند البيزنطيين. وهو الذي عُرف عنه تقليده للبيزنطيين في حياة البلاط. وفي عهد خلافته كان الاسلام يبدو وكأنه قد أشاح ببصره عن الصحراء وراح يتجه نحو الغرب.

أصل البشر في نظرية السجل الجيني الحديثة

تعتبر أحدث نظرية علمية تعتمد الدراسات الجينية شبه الجزيرة العربية والمنطقة الشمالية منها (الهلال الخصيب) موطن أقدم انسان حديث تفرعت منه الهجرات البشرية إلى مختلف ارجاء المعمورة. والنظرية كثيرًا ما تستعمل عبارتي: «عبر شبه الجزيرة العربية» و«المنطقة العربية»، ولا تحسم بين المنطقتين بدقة، ما يمكن ان يعني انها لم تقدم حجة إضافية لأي من «المعسكرين» المتخاصمين حول أقدمية الوجود البشري الحضاري، منطقة ما بين النهرين وسورية (الهلال الخصيب) أو منطقة شبه الجزيرة العربية. ماذا عن هذه النظرية التي تقدم بها عالم الاجناس الايطالي كافالي سفورجا والتي حاول فيها الاجابة على السؤال حول امكانية إعادة التاريخ البشري على أساس الموروث الجيني الحالي.

إن ما يعني المنطقة العربية منها أوجزته «الحياة» (عن محمد عارف، العدد ١٢٢١٧، تاريخ ٧ آب ١٩٩٦، ص١١) بالشكل التالي:

الشجرة الواحدة: العرب والايرانيون والاوروبيون فروع من غصن واحد في شجرة الاجناس البشرية. تفرع الغصن الذي يحمل هؤلاء الاقوام من جذع يضم، إضافة إليهم، البربر والهنود. أثبتت ذلك تحليلات التركيب الجيني المتشابه واللغات المتقاربة لهذه المجموعات البشرية. ويرجح عالم الاجناس الايطالي لويجي كافالي سفورجا ان جميع الاجناس البشرية تفرعت من شجرة واحدة اصلها من المنطقة العربية. ويحتمل ان البشر انتشروا عبر شبه الجزيرة العربية إلى القارات المختلفة قبل نحو ١٠٠ ألف سنة. ويقدم العالم الايطالي في كتابه الذي ترجم من الايطالية إلى الانكليزية وعنوانه: «الشتات البشري العظيم» The Great Human Diasporas أجوبة عن الاسئلة الخالدة حول اصل البشر، من اين جاءوا، وكيف اصبحوا أجناسًا وأقوامًا مختلفين. أكثر الاكتشافات إثارة يتعلق بالزحف البشري العظيم من منطقة الهلال الخصيب الذي حدث بمعدل كلم واحد سنويًا واستغرق آلاف السنوات حتى وصل بريطانيا والبلدان الاسكندينافية. وهل يمكن إعادة كتابة التاريخ البشري على أساس الموروث الجيني الحالي؟

طفل فلسطين: في بحثه عن الجواب قضى كافالي سفورجا، الاستاذ في جامعة ستانفورد في الولايات المتحدة، نحو ٤٠ عامًا في ابحاث شملت علوم الآثار واللغة والانثربولوجيا والتاريخ والسكان والاحصاء. كتابه الحالي (١٩٩٦) الذي يجمع بين استنتاجات هذه العلوم هو واحد من كتب عدة نشرها منذ الستينات وشارك فيها علماء من علوم عدة. يقدم الكتاب مسحًا للعلاقة بين الجينات وعلم الآثار ويثبت ان المعطيات الجينية والأثارية جزء من حكاية واحدة.

يذكر العالم الايطالي ان انواعًا عدة من البشر سبقت الانسان الحالي الذي يطلق عليه إسم «الانسان العاقل» Homo Sapiens. وأقدم السلالات البشرية المعروفة التي تميزت عن القرود

هي سلالة «الانسان الماهر» Homo Habilis الذي تعلم كيف يستخدم الادوات البدائية، لكنه واصل المشي على اطراف اربعة. ويقدر ان «الانسان الماهر» عاش قبل أكثر من بليوني سنة وأقام على الاشجار بصورة اساسية؛ وأعقبه «الانسان القائم» أو المعتدل القامة Homo Erectus الذي يمشي على قدمين. وتطور «الانسان العاقل» عن «الانسان القائم» قبل ما بين ١٠٠ ألف و٢٠٠ ألف سنة. ويذكر العالم الايطالي ان اصل السلالات البشرية من افريقيا وان العثور على بقايا أقدم إنسان حديث في كهف قفزة في فلسطين عزّز النظرية التي تقول ان أصل الانسان الحديث من المنطقة العربية التي انتقل إليها ربما أسلافه من افريقيا. تمثل البقايا جمجمة طفل يبلغ عمره ١٢ سنة ويقدر تاريخها بنحو ١٠٠ ألف سنة.

ذرية «حواء»: الانسان الحديث الذي يطابق تكوينه الجيني البشر الحاليين نتج عن ذرية «حواء» الذين نشأوا ربما في افريقيا أو المنطقة العربية وانتشروا عبر شبه الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب وباقي أجزاء العالم قبل نحو ١٠٠ ألف سنة. هذه الاستنتاجات العلمية تؤكدها الجينات التي يحملها كل انسان في خلايا جسمه وتمثل سجلاً تاريخيًا موثوقًا يحمل آثار ما مرّ من احداث على اجداده منذ «حواء». والجينات هي الأسس الكيماوية للوراثة. ويعتقد ان «الانسان العاقل» نتج عن طفرة جينية حدثت قبل نحو ١٩٠ ألف سنة في بويضة امرأة من سلالة سابقة على البشر الحاليين، يطلق عليها إسم «حواء الافريقية» إشارة إلى أصلها الافريقي. والطفرات الجينية تنشأ عن تغير في تركيب الجينات التي تمثل الشيفرة الكيماوية الموجودة داخل نواة الخلية والتي تحدد كل صفات الكائن الحي. وتنتج الطفرة الجينية مواصفات جديدة يؤدي توارثها إلى نشوء سلالة جديدة.

وتعتبر مادة «ميتوكوندريا» Mitochondria الموجودة في خلايا جسم كل انسان السجل الجيني التاريخي للبشرية. وهي مادة جينية متوارثة لكنها تختلف عن الجينات التي توجد عادة داخل نواة خلية الانسان، وهي تحمل الطاقة التي تشغل الخلية. وتكمن أهميتها «التاريخية» في انتقالها عبر الامهات فقط دون ان تتعرض للتغيرات الجينية. فمعظم الكائنات الحية تنتج عادة عن تزاوج جينات الأب والأم وولادة كائن يحمل نصف صفاته من الأب والنصف من الأم. لكن ميتوكوندريا تنتقل دون تغيير من الام إلى الاطفال الذين يحملون، إذا كانوا من أم واحدة، النوع نفسه من ميتوكوندريا حتى إذا كانوا من أبوين مختلفين.

الهجرات البشرية: تقدم ميتوكوندريا السجل التاريخي الذي يمكن عبره تتبع تواريخ الهجرات البشرية من المنطقة العربية إلى القارات الخمس. وتطابق استنتاجات ابحاث ميتوكوندريا ما توصلت إليه دراسات فصائل الدم وقياسات الجمجمة والامراض واللغة والتنقيبات الآثارية. وعلى خلاف التوقعات فإن النزوح الاول من المنطقة العربية حدث في اتجاه الشرق وليس الشمال أو الغرب. ويشير السجل الجيني إلى ان سكان المنطقة العربية انتقلوا إلى أوستراليا قبل نحو ٦٠ ألف سنة. فالفروق الجينية بين «الأبورجين»، وهم سكان أوستراليا الاصليين وجيرانهم في جنوب شرقي آسيا تمثل نصف الفروق بينهم وبين سكان المنطقة العربية وافريقيا. ويشير السجل الجيني (الميتوكوندريا) إلى ان سكان المنطقة العربية نزحوا إلى الشمال نحو اوروبا في تاريخ لاحق نحو ما قبل ٤٠ ألف سنة. ولا يزال الغموض يحيط تاريخ وصولهم إلى قارتي اميركا الذي يحتمل حدوثه قبل نحو ما بين ١٥ ألفًا و٣٥ ألف سنة.

لكن الفروق بين الاجناس البشرية المختلفة طفيفة جدًا في تقدير كافالي سفورجا، الذي يرى ان الاختلافات بين الافريقيين والعرب والهنود والصينيين والاوروبيين في ملامح الوجه ولون الجلد والعيون خارجية سببها الجينات التي تأثرت بالمناخ. فالناس الذين عاشوا في المناطق الاستوائية والقطبين تكيفوا خلال عملية تطورية استغرقت آلاف السنين مع الظروف المناخية المحلية. وتحت هذه المظاهر الخارجية يوجد تكوين جيني رئيسي واحد للانسان يميزه عن كل الكائنات الحية الأخرى. ولا يزيد عدد الجينات التي تمثل لون الجلد مثلاً عن ٣ أو ٤ جينات من بين أكثر من ١٠٠ ألف جين أساسي.

خريطة الجينات: يذكر كافالي سفورجا ان ابحاثه المشتركة مع علماء من جامعتي بارما وتورين في ايطاليا كشفت عن أدلة جينية ترسم خريطة الزحف السكاني من الهلال الخصيب حتى شمالي اوروبا. وتظهر العلامات الجينية التي تركها الزحف في تكرار وجود جينات معينة في أجسام سكان المنطقة العربية والبلدان الاوروبية. الجين الريصي الموجب مثلاً الذي يرمز له بـRH يتكرر في سكان المنطقة العربية وترسم حركة ظهوراته عبر القارة الاوروبية خريطة الزحف البشري. وفي شمالي القارة الاوروبية يضعف هذا الجين الذي يمثل واحدًا من فصائل الدم وكان اكتشف اول مرة خلال تجارب على قرود الريصي. ويصبح الجين الريصي سالبًا بين سكان منطقة الباسك في اسبانيا ومناطق معزولة أخرى يعتقد انها تضم آخر سكان اوروبا الاصليين.

الشرق الاوسط

دول الشرق الاوسط المعاصر (جورج قرم، «الشرق الاوسط»، بالفرنسية، ١٩٩٣، ص ٢٩).

نظرة تاريخية عامة

التسمية وما تتضمنه: «الشرق الاوسط» تسمية غربية محدثة، كثر استخدامها إبان الحرب العالمية الثانية، وهي تشمل منطقة جغرافية تضم سورية ولبنان وفلسطين والاردن والعراق والخليج العربي-الفارسي ومصر وتركيا وايران (وتتوسع احيانًا لتشمل افغانستان وقبرص وليبيا).

كثيرون، خاصة من القوميين العرب والاسلاميين، يعتبرون ان المقصود من اطلاق هذا المصطلح استبعاد استخدام مصطلحات مثل «المنطقة العربية» أو «العالم العربي» أو «الوطن العربي» بإدخال دول غير عربية عليه. كما ان للمصطلح دلالة على مركزية اوروبا في العالم، فهو «شرق أوسط» بالنسبة إلى موقعها الجغرافي، وليس له ما يبرره في التاريخ، ولا في التركيب القومي والعرقي والحضاري والاجتماعي. فالرابط الوحيد الذي يجمع هذه البقاع هو الموقع الجغرافي.

يعرّف قاموس «وبستر» للقرن العشرين، بنسخته الثانية الصادرة في ١٩٧٢، الشرق الاوسط على أنه: «المنطقة (الجغرافية) التي تشمل العراق، ايران، افغانستان، وفي بعض الاحيان الهند، التيبت، وبورما». ويضيف القاموس معنى آخر لهذا الاصطلاح فيعرّفه على انه يعني ايضًا الشرق الادنى الذي يعرّفه كالآتي: «هو (الشرق الادنى) يشمل إجمالاً البلدان الواقعة بالقرب من الجزء الشرقي من البحر الابيض المتوسط أو إلى الشرق منه متضمنًا جنوب غربي آسيا (تركيا، سورية، لبنان، فلسطين، شرقي الاردن، العربية السعودية، الخ) وفي بعض الاحيان البلقان ومصر».

جورج قرم، الكاتب والباحث الاقتصادي اللبناني، يحدّد الشرق الاوسط بالتالي: «يبدو الشرق الاوسط بمثابة «لوحة مشرقية-عربية» سواء على الصعيد الجغرافي أو الانساني والتاريخي. فهو يمتد على شكل قوس دائرة من طرف سهل الدانوب وسلسلة جبال البلقان في اوروبا حتى صحراء ليبيا، ويتضمن تركيا، ايران، العراق، سورية، لبنان، الاردن، شبه الجزيرة العربية، مصر، وكذلك دولة اسرائيل، أي مجموعة تضم ٢٤٠

مليون نسمة على بقاع مساحتها الاجمالية ٧،٢ مليون كلم م.، حيث تتشابك ثلاث شعوب كبرى: الطورانيون أو الأتراك، الفرس أو الايرانيون، والعرب، الذين تعيش معهم شعوب، أهمها الأكراد والأرمن، وكذلك عدد كبير من المجموعات الدينية التي صمدت وجودًا عبر التاريخ» («الشرق الاوسط»، بالفرنسية، فلاماريون، باريس، ١٩٩٣، ص١٠).

وأخذ استعمال مصطلح «الشرق الاوسط» يتكاثر بشكل لافت بعد انهيار الاتحاد السوفياتي ومؤتمر مدريد، والاتفاقات الفلسطينية (وبعض الدول العربية)_الاسرائيلية، وعمومًا في اللغة الدبلوماسية والسياسية-الجغراسياسية-الاستراتيجية العالمية (خاصة من الجانب الغربي والاسرائيلي)، ما حدا بالكثيرين من القوميين العرب (والاسلاميين العرب وسواهم) إلى التذكير بمغزى مصطلح «الشرق الاوسط» في الأساس؛ وقد أضافوا، في ضوء مستجدات الوقائع السياسية في المنطقة التي جاءت، وتجيء، لمصلحة اسرائيل، ان «الشرق أوسطية إنما تهدف الوصول بنا إلى حضارة مشتركة واحدة مع اسرائيل».

واستخدم «تقرير عن التنمية في العالم»، صادر عن البنك الدولي في ١٩٩٣، مصطلح «هلال الشرق الاوسط» بتقسيمه العالم إلى ثمانية أقاليم ديمغرافية، أكبرها الصين وقوامه ١١٣٤ مليون نسمة، وأصغرها الدول الاشتراكية السابقة في اوروبا وعدد سكانها ٣٤٦ مليونًا، وما بين الاثنين يقف «هلال الشرق الاوسط» الذي يقول التقرير انه يمتد من موريتانيا غربًا إلى حدود الصين في الشرق. ويضم شمالي افريقيا وسائر البلدان

العربية الآسيوية والجمهوريات الآسيوية التابعة للاتحاد السوفياتي سابقًا، ويضم فيما يضم اسرائيل وباكستان وتركيا ومالطا، وبلغ عدد سكانه (في ١٩٩٠) ٥٠٣ ملايين نسمة.

محمود المراغي في «العربي» (العدد ٤٢٣، شباط ١٩٩٤، ص٥٧) لاحظ الامور التالية:

«١- إن الشرق الاوسط وهلال الشرق الاوسط بالتالي يقف كلاهما على رأس جسر يتقاطع مع العروبة. الفكرة تبدو بديلاً للفكرة القومية في الوطن العربي، فبدلاً من تعميق وتكريس العلاقات «العربية-العربية»، فإن المطروح دخول شركاء جدد من غير العرب، وبينما يأتي ذلك كنوع من فك الحصار حول اسرائيل-وهو أمر متوقع على أي حال-فإن الأهم فحص تلك الفكرة، فكرة فتح الحدود، وتوثيق التعاون، وهل يكون من الاصلح اقتصاره على الدول العربية أم يمتد لدائرة أوسع! وفي الحالة الثانية: ما هو الأثر السياسي لهذا الامتداد على الفكرة القومية والروابط القومية العربية؟

٢- ووفقًا لتعريف البنك الدولي لمنطقة هلال الشرق الاوسط نلاحظ ان فصلاً ودمجًا قد حدثا، فقد خلع التقرير الجمهوريات الاسلامية السوفياتية السابقة من موقعها، وخلق لها انتماء جديدًا «اسلاميًا-عربيًا-جنوبيًا»... فهل يكون ذلك هو الرباط الطبيعي... أم هو فك للارتباط القديم مع موسكو وما حولها؟

٣- والسؤال يُثار حول موقع ودور بلدان مثل تركيا-عضو الاطلسي-واسرائيل-القادم الجديد-وايران المناوئة للغرب.

هذه ملاحظات اساسية حول مصطلح جديد طفا على سطح الادبيات السياسية والاقتصادية العالمية في عام شهد صراع المشاريع السياسية والحضارية، أعني عام ١٩٩٣...».

مركز وملتقى الحضارات: في الحوض الميزوبوتامي (بلاد ما بين النهرين) ووادي النيل تأسست أولى المدن في تاريخ البشرية، وكان ذلك في الألف الرابع ق.م. وجاءت الاكتشافات الأثرية الأحدث (في العقود القليلة الأخيرة) لتحدثنا انه في فلسطين وسورية وحوض الفرات كانت التجمعات البشرية الصغيرة التي يعود تاريخها إلى الألف العاشر والألف التاسع ق.م.، كذلك التجمعات القروية ظهرت في الألف السابع ق.م. في الأناضول، كما في الهضاب الايرانية العليا ووادي الفرات. وكان المستوى التقني لهذه الحضارات مثار اعجاب: السيراميك، الفخار، الأواني والأفران. وفي مصر، تشكلت أولى التمركزات البشرية نحو العام ٤ آلاف ق.م. حيث كانت بلاد ما بين النهرين، في القرن نفسه، قد أصبحت مهيأة لـ«الثورة المدنية» التي تميز الحضارة السومرية (مدينة إريدو، وأور، وأوروك، ولاغاش، وأومّا).

وجاء الأغريق بعد ذلك، وبعدهم الرومان، فأضافوا على الحضارة المدنية المصرية والأشورية والبابلية ما عندهم من فنون الهندسة المعمارية. وهذه المدن، وإن لحق بها الدمار بفعل الغزوات الداخلية أو البحرية أو الفيضانات أو الزلازل، عادت وبعثت من جديد على ركامها أو في مناطق مجاورة لمواقعها الأساسية.

بذلك، شكل الشرق الاوسط عقدة لقاء بين شعوب سامية وآرية أو هندو-اوروبية، وكذلك افريقية عبر وادي النيل وبلاد النوبة.

«إن لفظة «سامي» تشير إلى مجموعة لغات متقاربة تتصل جذورها باللغة السومرية وكتابتها الكنعانية. والافتراض الغالب ان غالبية الشعوب التي تتكلم اللغات السامية تعود بجذورها إلى موجات الهجرة القادمة من شبه الجزيرة العربية، وقد اقامت وامتزجت في شعوب حوض الفرات وعلى ساحل سيناء المتوسطي حتى طوروس، أي في المنطقة التي يسميها علماء الآثار «الهلال

الخصيب»، وذلك في مواجهة المناطق الصحراوية أو شبه الصحراوية. وبصورة موازية، جاءت غزوات الشعوب المتصلة بمجموعة اللغات الهندو-اوروبية القادمة من الأورال وآسيا الوسطى لتضفي مزيدًا من التعقيدات على الخليط البشري في المنطقة. وجاءت إما بصورة سلمية أو بالحرب، وكان مركز ثقلها الهضاب الايرانية أو الأناضولية، وانضافت إليها (في القرن الثاني عشر ق.م.) غزوات شعوب البحر التي لا تزال أصولها مجهولة، وهي التي شكلت سكان اليونان وآسيا الصغرى الأناضولية. عندها، دخلت بلاد الهلال الخصيب، ومصر، مرحلة الانحطاط، وأصبحت هيمنة الاغريق، ثم الرومان، ثم الفرس، طاغية لمدة قرون طويلة» (جورج قرم، مرجع مذكور، ص١٦).

وإذا كانت الشعوب ذات الاصول الطورانية أو التركية-المونغولية القادمة من الأورال وجبال ألتائي والناطقة بلغات قريبة من المجموعة اللغوية الفينو-أوغرية لم تظهر في المنطقة إلا بعد قرون طويلة من الموجات السابقة، أي بدءًا من القرن العاشر الميلادي (بعد قيام الاسلام وفتوحاته)، إلا انها تمكنت من السيطرة السياسية على الشرق الاوسط واوروبا البلقانية وافريقيا الشمالية من القرن الخامس عشر حتى اوائل القرن العشرين.

وكذلك، هناك شعوب أخرى تركت بصماتها في الشرق الاوسط: الجرمان والنورمانديون وشعوب اوروبية أخرى إبان الحروب الصليبية. وبعد هذه الحروب، مارست المدن الايطالية الكبرى (خاصة جنوى والبندقية) التي كانت مسيطرة على البحر المتوسط، تأثيرًا كبيرًا، خاصة في مجال الهندسة المعمارية، على طول الشاطىء المتوسطي للشرق الاوسط.

وفي الشرق الاوسط، اليوم، ثلاث مجموعات ثقافية ولغوية كبرى: المجموعة التركية، المجموعة الايرانية والمجموعة العربية. وفي داخل كل منها تعيش تعددية إما دينية أو إثنية-قومية. ولكل منها امتدادات خارج منطقة الشرق الاوسط، خاصة في افريقيا الشمالية والقوقاز وآسيا الوسطى. فالتركوفونية (الناطقون بالتركية) تمتد إلى شعوب عديدة في جمهوريات آسيا الوسطى (السوفياتية سابقًا)؛ ومجال اللغة الفارسية يمتد إلى افغانستان وطاجيكستان؛ وتطال اللغة والثقافة العربيتان كامل شمالي افريقيا وجزءًا من افريقيا السوداء.

١٩١٩: نهاية تاريخ الشرق الاوسط القديم: يمكننا القول إن عالم الشرق الاوسط القديم ينتهي في ١٩١٩، مع انتهاء الحرب العالمية الاولى وانهيار الامبراطورية العثمانية، آخر وريث للبنى السياسية الشرق أوسطية المتراكمة منذ بداية التاريخ القديم (...) كما ان الدول الاوروبية، منذ حملة بونابرت على مصر في ١٧٩٨ حتى اليوم، بدا وكأنها قضت نهائيًا على البنى السياسية التي كانت محصلة تعاقب غير متقطع تقريبًا لامبراطوريات متمركزة في بلاد ما بين النهرين ووادي النيل والهضاب الايرانية وتراقيا والأناضول (...) ففي حين كان الاغريق والرومان قريبين من شعوب الشرق الاوسط ببناهم الثقافية وبتقنياتهم، تدخل الاوروبيون والروس والاميركيون في الشرق الاوسط من منطلق تاريخي وثقافي مختلف جذريًا عن المنطق الذي كانت تعيش في اطاره شعوب المنطقة الاصلية. فمنذ انهيار الامبراطورية العثمانية ومملكة الصفويين في ايران نشب التنافس بين الدول الاوروبية بدافع مصالح كل منها في الشرق الاوسط، ثم سرعان ما وجدت مخرجًا لتنافسها بتنظيمها مختلف اشكال النفوذ الاستعماري فيه وبوضعه تحت وصايتها. فأفلح الغربيون في ذلك، وتمكنوا من قلب جميع البنى الاجتماعية-السياسية في المنطقة.

ويمكن إيجاز مسار التفوق الغربي الاوروبي

الموصل إلى التحكم ببنى الشرق الاوسط السياسية والاجتماعية بذكر النقاط المفصلية التالية:

– انتصار تحالف الاساطيل الاوروبية على الاساطيل العثمانية في ليبانت Lépante (١٥٧١) الذي أعلن بدء أفول الامبراطورية العثمانية.

– هذا التفوق البحري أتاح للبرتغاليين والاسبان، ثم للانكليز والفرنسيين، استعمار اميركا وبعض الشواطىء الافريقية، وإنشاء مراكز تجارية على الشواطىء الهندية. فمع هذا التطور التاريخي المهم جدًا (انتقال مركز الثقل التجاري من البحر المتوسط إلى الاطلسي) لم تعد امبراطوريات الشرق الاوسط محتفظة بالأهمية التي كانت لها في ما سبق، كما لم تعد اوروبا منعزلة وضعيفة، إذ فتحت امامها طريق الاطلسي وقارة جديدة غنية بثرواتها.

– نمو الافكار الاوروبية التحررية، وانتشارها، لعب دورًا قويًا في تقويض البنى الامبراطورية والاقطاعية والقبلية في الشرق الاوسط. وكان للثورة الفرنسية، على وجه التحديد، أثر كبير جدًا على النخب العثمانيين والفرس والعرب. فقامت في عواصم الشرق ومدنه الكبرى حركات احتجاج وتوترات بين الحكام والنخب المدنية.

– بدأ تفكيك الامبراطورية العثمانية، عمليًا، بالدعم الذي قدمته فرنسا لمحمد علي الكبير في مصر الذي انطلق في حملة شرق اوسطية أوصلته إلى ابواب الآستانة. وكاد ان ينجح لولا الضغط الاوروبي الذي أعاده إلى مصر حاكمًا فعليًا عليها (وبعده أبناءه). لكن الديون الاوروبية وضعت مصر تحت الوصاية البريطانية، التي تذرعت بثورة عُرابي باشا (١٨٨٢) لتحتل البلاد.

– ومثلما عمل الانكليز على ضبط اندفاع الفرنسيين في دعم حركة محمد علي في مصر، هكذا ضبطوا اندفاع الروس في دعمهم لليونان الثائرين ضد الامبراطورية العثمانية. لكن ثورات البلقان لم تخمد، بدءًا من انتفاضة رومانيا في ١٨٢٥.

– بين ١٨٤٠ و١٨٦١، مزقت المنافسات الفرنسية-الانكليزية جبل لبنان، وأدت الفتنة بين أهله إلى وضع الجبل، عمليًا، تحت وصاية عثمانية-اوروبية مشتركة.

– تسارع اندفاع روسيا (طيلة القرن التاسع عشر) نحو البلقان والشرق الاوسط بعد ان تمكنت من انتزاع جورجيا وداغستان وأقضية يريفان وناخشيفان الارمنية، وبعد ان وضعت يدها على مناطق واسعة في القوقاز وشبه جزيرة القرم. هنا، سارعت الجيوش الفرنسية والانكليزية إلى التدخل بين ١٨٥٦ و١٨٥٨ في حرب شرسة لايقاف القياصرة التي باتت قوتهم تهدّد الآستانة نفسها.

– الحداثة (أفكار الديمقراطية والتحرر) حملها الاوروبيون وزادوا بها من ضغطهم على الشرق الاوسط الذي بدأت مؤسساته السياسية والاجتماعية حالة من عدم الاستقرار: دستور السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦)، والدستور المعلن في بلاد فارس (١٩٠٦)، ومجرياتهما التي لم تهدىء النفوس. ولم يتوانَ لا الروس ولا الفرنسيون والانكليز عن تسليح الارمن المشتتين منذ القديم في شرقي هضبة الاناضول وكيليكيا.

– في غضون ذلك، وطيلة القرن التاسع عشر، اقام الانكليز لهم نفوذًا سياسيًا وعسكريًا على طول شواطىء شبه الجزيرة العربية. فاحتلوا عدن في ١٨٣٩ وعقدوا معاهدات حماية مع زعماء قبائل الشاطىء الشرقي (الذي دعي «شاطىء القراصنة») ومع زعيم القبيلة المقيمة في شاطىء الصيد الصغير في الكويت (١٨٩٩).

– وجاءت الحرب العالمية الاولى لتفتح، بنتائجها، جميع أبواب الشرق الاوسط امام الفرنسيين والانكليز دون مزاحمة.

التقسيم: خلال الحرب جرى الاتفاق الشهير بين الانكليز والفرنسيين: «سايكس-بيكو» (١٩١٦). وفي ١٩١٧، وعدت الحكومة البريطانية اليهود باعطائهم فلسطين، وكذلك قدّمت وعودها السخية (المعروفة) للعرب...

لكن، سرعان ما وجدت بريطانيا نفسها بعد الحرب عاجزة عن الوفاء بوعودها والتزاماتها المتناقضة تجاه الفرنسيين (بموجب سايكس-بيكو) من جهة، واليهود (وعد بلفور) من جهة ثانية، والعرب (مراسلات حسين-مكماهون) من جهة ثالثة. وحاولت الولايات المتحدة (في مؤتمر الصلح في باريس، ١٩١٩، وخلال السنوات القليلة التالية) مواجهة مطامح فرنسا وبريطانيا، وأصرّت على ارسال لجنة لتقصي حقائق آراء أهالي المنطقة (لجنة كينغ-كرين). فأكدت اللجنة رغبة عرب الهلال الخصيب بدولة واحدة برئاسة ملك هاشمي، وحذّرت من المطامع الصهيونية في فلسطين، ومن مخاطر تقسيم الاناضول بين الارمن والايطاليين واليونان والاكراد. ولم تصغ بريطانيا وفرنسا للسياسة الاميركية، وجرى توقيع معاهدة سيفر في ١٠ آب ١٩٢٠. وكانت الدعاية البولشيفية، في الوقت نفسه، تفضح مناورات الفرنسيين والانكليز ودبلوماسيتهم السرية، وتدعو شعوب الشرق الاوسط إلى الثورة ضد الدول الاوروبية.

وفي غضون ذلك، كان مصطفى كمال أتاتورك، يستجمع فلول الجيش العثماني، ويمنع قيام دولة أرمنية وأخرى كردية وثالثة يونانية (في سميرنا)، فجاء تركيز الفرنسيين والانكليز على المقاطعات العربية حيث دعّموا وجودهم، كما عمل الانكليز والروس على مدّ نفوذهم وسيطرتهم على بلاد فارس، حيث (كما جرى في تركيا على يد أتاتورك) قام الضابط رضا خان بهلوي وأفلح في الوصول إلى السلطة (١٩٢١)، ثم في قلب أسرة قاجار وتتويج نفسه؛ وفي ١٩٣٤، جعل من «ايران» اسمًا رسميًا للبلاد.

وطيلة فترة ما بين الحربين، كانت اهداف الوطنيين والقوميين في منطقة الهلال الخصيب تجابه بعنف حينًا، وبمناورات ووعود احيانًا من جانب الدولتين المنتدبتين (فرنسا وبريطانيا)؛ وكانت مصر تحت الادارة الاستعمارية البريطانية. أما في الحجاز ونجد فقد شجع الانكليز آل سعود على استلام السلطة، فأعلن آل سعود قيام المملكة العربية السعودية في ١٩٢٦.

إنشاء اسرائيل: وأما العامل الأهم في التأثير على مسار منطقة الشرق الاوسط ومصيرها فبدأ ظهوره مع المستوطنات اليهودية الاولى في فلسطين إثر قيام الحركة الصهيونية، بقيادة تيودور هرتزل (١٨٩٧) في اوروبا. وعرفت الصهيونية انطلاقة واسعة مع اعلان وعد بلفور. أما فكرة عودة اليهود إلى فلسطين فتعود إلى ايام حملة بونابرت على مصر حيث بدأت الدبلوماسيتان الفرنسية والانكليزية تطرحانها على نطاق ضيق، ومن دون ان تجد لها صدى حتى في صفوف اليهود. لكن، في اواخر القرن التاسع عشر، بدأ الاوروبيون ينظرون إلى الشرق الاوسط كشعوب لا يمكن فهمها إلا من زاوية المعايير الدينية؛ وعودة اليهود إلى فلسطين بالنسبة إليهم، هي حل ملائم لمشكلة معاداة السامية المتفاقمة لديهم. وجاءت النازية، وبممارساتها، لتزيد من قناعة الاوروبيين في جدوى هذا الحل. أما معارضة العرب ومآسي الفلسطينيين فكان لهما شأن ضئيل في أعين الاوروبيين وحساباتهم قياسًا على عذابات اليهود والهولوكوست. ووجد الانكليز أنفسهم عاجزين، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، عن ادارة مشكلة هم أوجدوها. فأحالوا مسؤولية الحل على الامم المتحدة التي قررت، في ١٩٤٧، تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. فوقعت الحرب بين اليهود والفلسطينيين العرب (لمجريات الاحداث وتطوراتها، راجع مختلف مواد الموسوعة-دول

ومناطق شرق اوسطية-في مكانها من الموسوعة).

من هذا التاريخ (١٩٤٧)، أصبحت احداث الصراع العربي-الاسرائيلي مركز المشهد الشرق اوسطي السياسي العام. ومنذ ١٩٧٩، تداخله مشهد تقريري مصيري آخر جاءت به الثورة الدينية في ايران.

الثورة الدينية الايرانية وإسقاطاتها: جاء وقوع لبنان في حرب أهلية مسلحة ليعكس صعود مختلف أوجه الاصولية في الشرق الاوسط التي بدأت تتململ وتموج منذ هزيمة العرب في حرب ١٩٦٧. وكوسيلة فاعلة ضد التوسع الشيوعي في الشرق الاوسط، شجعت الولايات المتحدة الاميركية المملكة العربية السعودية على تحريك الايديولوجية الاسلامية لاحتواء نفوذ الاتحاد السوفياتي. وقد توجت هذه الجهود بالنجاح مع إنشاء «مؤتمر منظمة الدول الاسلامية» في مكة في ١٩٦٩. وبفضل الوسائل المالية التي وضعتها المملكة ابتداء من ١٩٧٣ ودعم الحكم الاسلامي الباكستاني، أصبحت هذه المنظمة قوة مهمة منافسة لحركة عدم الانحياز التي ذهبت بعيدًا في معارضتها السياسة الاميركية، وكذلك للجامعة العربية التي أصبحت منبرًا معاديًا للامبريالية. والأهداف المعلنة لمؤتمر منظمة الدول الاسلامية كانت الجهاد ضد الالحاد الماركسي، وتأكيد القيم الاسلامية والحث على التضامن بين الدول الاسلامية (راجع «العالم الاسلامي» في الجزء التالي، الثاني عشر).

هذا النجاح دفع السياسة الاميركية إلى تشجيع إقامة سلطة في طهران تكون في يد رجال الدين عندما بدأ نظام الشاه يترنح في ١٩٧٩. وبالفعل، خشيت الدول الغربية من ان تتوصل الاحزاب اليسارية في ايران إلى استلام السلطة خاصة منها الحزب الشيوعي (توده) وحزب «مجاهدين خلق»، فوضعت امكانيات إعلامية هائلة لخدمة دعوات الامام الخميني وهو في منفاه في باريس (وكان قد انتقل إليها من العراق)، فكان الزعيم الكاريسمي الاوحد للمعارضة الايرانية. ولعودته إلى طهران وضعت الحكومة الفرنسية بتصرفه طائرة خاصة وعاملته معاملة رئيس دولة. لكن سرعان ما فاجأ حكم الثورة الاسلامية في ايران المخططات والحسابات الدولية باطلاقه مبادرات وشعارات إسلامية، محليًا وإقليميًا ودوليًا، وبالتفاف جماهيري، بدت معها الدول المخططة (خاصة الولايات المتحدة) وكأنها قد أُخذت على حين غرة.

جاءت ردة فعل الاتحاد السوفياتي سريعة. فدخل افغانستان حيث كان يخشى على النظام الافغانستاني الحليف من السقوط. الولايات المتحدة استمرت تدعم خياريها الأساسيين («السنيين» في مواجهة الثورة الايرانية «الشيعية») السعودية وباكستان. فالاسلام، بخياريه: الأصولي الثوري، والاصولي المحافظ، أصبح، في ظل وهن الاتحاد السوفياتي، المهيمن بقوة على المشهد السياسي والديني للشرق الاوسط. أما الدولة العلمانية فيه، تركيا، فتمسكت بقوة بعلمانيتها؛ وأما الدول الأقرب إلى العلمانية، العراق، سورية، فالأولى اتجهت بسرعة إلى الحرب مع ايران، والثانية إلى الوفاق والتحالف مع ايران (راجع هذه المواد في مواقعها من الموسوعة).

وبعد قليل من انتهاء الحرب الايرانية-العراقية (حرب الخليج الاولى) حتى عاد العراق إلى الحرب وعادت الحرب إليه (بزعامة الولايات المتحدة وقيادتها المباشرة للعمليات العسكرية وبمشاركة أكثر من عشرين دولة وتغطية الامم المتحدة) بسبب (وذريعة) غزو العراق الكويت في ٢ آب ١٩٩٠. فنزل على ارض السعودية ٥٠٠ ألف جندي حاربوا العراق وقصفوا بناه التحتية. وشجع الغربيون ثورة كردية في شمالي العراق أدت إلى توسيع دائرة الانفلات الامني (تمرد شيعي في

جنوبي العراق تمكنت السلطة من إخماده)، كما ان تمركز الجيش الاميركي في العربية السعودية وعلى بعد كيلومترات قليلة من الاماكن الاسلامية المقدسة لم يمر دون ان يترك تململاً عميقًا وهيجانًا حتى داخل العربية السعودية. وعلى جبهة محادثات السلام العربية–الاسرائيلية التي نظمتها الولايات المتحدة (ورعتها ولا زالت) منذ تشرين الاول ١٩٩١، تحققت خطوات لا تزال «هشة»، إذ لا يزال العنف مستمرًا في الاراضي الفلسطينية المحتلة من اسرائيل منذ ١٩٦٧، والحركة الاسلامية «حماس» متصاعدة التأثير، و«حزب الله» في جنوبي لبنان متمسك بالمقاومة الاسلامية المسلحة ضد اسرائيل ويكيل لها ضربات موجعة، وسورية يقوى منطقها (وموقفها) حول «الارض مقابل السلام» يومًا بعد يوم فاضحًا غطرسة اسرائيل وأميركا وسياستها تشهد دعمًا سياسيًا من قوى عربية واسلامية كثيرة وعدد من الدول العربية والاسلامية (ايران، لبنان ومصر وغيرها...)، والعراق عاد يصلّب لهجته (بدءًا من صيف ١٩٩٧ وبعد خطوات تقارب متبادلة ومهمة بينه وبين سورية) إزاء الموقف الاميركي منه رغم الحصار الشديد المضروب عليه من سنوات طويلة.

الشرق الاوسط والحرب الباردة: أي من نهاية الحرب العالمية الثانية حتى حرب الخليج الثانية ١٩٩١، حيث كان الشرق الاوسط خلالها وثيق الارتباط بسياسات القوتين الكبريين، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، لأهميته بمصادره النفطية وبموقعه الاستراتيجي، فبرز الأهم بين بقاع العالم ومناطقه ودوله. فبعد ثلاث مراحل تاريخية من تاريخ الشرق الاوسط: المرحلة العثمانية (انتهت في ١٩١٨)، المرحلة الاوروبية (من ١٩١٨ إلى حرب السويس ١٩٥٦)، مرحلة القوتين العظميين (١٩٥٦–١٩٩١) بدأت المرحلة الاميركية (١٩٩١–).

ينقسم المحللون إزاء تشكيل تطور الشرق الاوسط خلال الحرب الباردة وبخصوص وزن القوى الخارجية والمحلية في هذا التشكيل إلى ثلاث وجهات نظر: الاولى ترى ان القوى الخارجية لعبت الدور الأهم وان القوى المحلية كانت مجرد ادوات في لعبتها؛ الثانية تعطي وزنًا أكبر للقوى المحلية في تشكيل تطوره (الشرق الاوسط)؛ الثالثة، توليفية، وتقول بالدورين معًا وتبعًا لكل دولة من دول الشرق الاوسط على حدة من حيث درجة ارتباطها بالخارج، فيكون هناك تشكل لتطور خاص بكل دولة من دول الشرق الاوسط وإن كان له انعكاسات وتأثير على المنطقة بأسرها، فمفاهيم مثل «انعكاسات» و«تأثيرات» و«عدوى» و«نتائج»... إنما تطال، في عملية تشكل التطور، بقاعًا أوسع من منطقة محدّدة بعينها، فالحري النظر في تشكل تطور كل دولة ومدى تأثيره.

وأصحاب هذه النظرة التوليفية، غير المتحمسين لوضع الحد الدقيق بين التأثيرات الخارجية والمحلية في تشكل تطور الشرق الاوسط إبان الحرب الباردة، يميلون إلى التركيز على ان هذه الحرب (الباردة) حوّلت الانتباه عن المشاكل الضاغطة في المنطقة وجمّدت تطورات ايجابية من حيث انها دفعت دول المنطقة إلى تخصيص القسم الأوفر من مواردها لسباق التسلح بدلاً من الاستخدام المفيد لهذه الموارد. وبالتالي، بحسب ما يقولون، فإن نهاية الحرب الباردة تهيء الاطار المناسب لكي تبدأ دول الشرق الاوسط مواجهة بعض مشاكلها. وواضح ان الفعل المضارع، هنا، «تبدأ»، إنما يشير بوضوح إلى البداية، ثم المسار، مع المرحلة الرابعة (الاميركية) في تاريخ تشكل تطور الشرق الاوسط. وقبل الحديث عن هذه المرحلة (الرابعة) من المفيد إلقاء نظرة على ما طرأ على الشرق الاوسط من تغييرات اجتماعية–اقتصادية جذرية.

التغييرات الاجتماعية-الاقتصادية الجذرية

تمهيد: نظرة عامة

أدّى انفتاح الشرق الاوسط على رؤوس الاموال والتكنولوجيا الاوروبية منذ اوائل القرن التاسع عشر إلى تغييرات جذرية في اجتماع بلدانه واقتصادها. وهذه التغييرات ساهمت بشكل كبير في تغذية عدم الاستقرار السياسي. فدخول رؤوس الاموال الاوروبية طيلة القرن التاسع عشر، خاصة إلى بلاد فارس ومصر سرّعت من مسار الحداثة لكنها أوجدت في الوقت نفسه تململاً اجتماعيًا خاصة في البيئات الفلاحية وأوساط الاغمال الحرفية.

وابتداء من الثلث الأخير من القرن العشرين، جاء النفط ليبدّل من معطيات المشكلة. فصعود القوة المالية والسياسية للأنظمة المحافظة في شبه الجزيرة العربية المدعومة من الولايات المتحدة الاميركية قلّل، ثم سحق نفوذ مجموعات الايديولوجيات الاشتراكية والقريبة منها في المنطقة. حتى ان بلدانًا مثل مصر وسورية أخذت تطبق سياسات اجتماعية واقتصادية منفتحة على المصالح الغربية؛ وكذلك ايران الثورة الاسلامية التي تعلن ايديولوجية الدفاع عن المسحوقين في العالم كانت تحذر دائمًا من المس في بنى الملكيات العقارية المدنية والريفية.

حدود الحداثة الاستعمارية:

مع بدء تغلغل رؤوس الاموال الاوروبية في الشرق الاوسط، كانت شعوبه بالاكثرية الساحقة من السكان، من ابناء الريف أو البدو. كانت نسبة الوفيات مرتفعة جدًا حتى ان عدد السكان بقي ثابتًا فترة طويلة. في اوائل القرن التاسع عشر، كان عدد سكان مصر ٤ ملايين، وايران ٥ ملايين، وتركيا نفسها ٦،٥ ملايين، وسورية والعراق ولبنان وفلسطين مجتمعة ٢ مليون؛ أي ما مجموعه ١٧،٥ مليون نسمة لكل الشرق الاوسط.

وجاء تحسن مستوى الحياة والصحة ليؤدي إلى زيادة ديمغرافية ملحوظة انتقلت من نسبة ١،٥٪ في السنة في بداية القرن العشرين إلى أكثر من ٢٪ في اواسط القرن، لتصبح ٢،٥٪ و٣٪ ابتداء من الستينات. ففي ١٩٦٠، وصل عدد سكان الشرق الاوسط إلى ١١٧ مليونًا، وفي ١٩٩٠ إلى ٢٤٠ مليونًا. وهذه الارقام الديمغرافية هي بذاتها إحدى المؤشرات الايجابية لنهج الحداثة. لكن الفشل المتكرر في التصنيع أدّى بالشرق الاوسط لأن يرزح تحت ثقل الديمغرافية والنزوح المتسارع إلى المدن وغير المسيطر عليه (انفجار المدن).

تحت ضغط نفوذ الدول الاوروبية قامت بلدان المنطقة بتنفيذ مشاريع زادت من قوة كبار ملاك الارض: السدود وشبكات الري التي نمت زراعة القطن وأضعفت زراعات تقليدية أخرى مثل زراعة التوت (تربية دود الحرير التي قضت عليها استيرادات الأقمشة الاوروبية) والطرق الحديدية والبرية التي وسّعت من الموانىء وأهّلتها للتجارة العالمية. ولتحقيق مثل هذه المشاريع الكبرى راكمت الدول الشرق أوسطية، في القرن التاسع عشر، على نفسها الديون خاصة من باريس ولندن، وقدّمت عروضًا استثمارية سخية للشركات الاوروبية: التبغ، المياه، الكهرباء، المرافىء، التلغراف.

النهب الذي رافق مراحل الحداثة الاولى أفاض في تأريخه المؤرخون وفي وصفه عدد كبير من الكتاب الاقتصاديين والاجتماعيين. لكن في الحقيقة لم تكن هذه الصورة هي الصورة الوحيدة عن مرحلة نقل الحداثة الاوروبية إلى الشرق الاوسط. فثمة مقاصد ايجابية كثيرة عبر عنها كتاب كثيرون ايضًا: كوندورسيه Condorcet رأى ضرورة إعادة «هذه المناطق إلى مجدها الغابر»؛ والسان سيمونيون الفرنسيون اختاروا

مصر مركزًا لتحقيق احلامهم في الزراعة والصناعة، ولهم يعود الفضل في مشروع شق قناة السويس التي تربط البحر المتوسط بالبحر الاحمر.

على صعيد التعليم والفكر، فقد طال النخب المدنية عبر المدارس الارسالية خاصة، وظل بعيدًا جدًا عن مدى واتساع الحاجة إليه في المنطقة، ولا يقارن بحركة الحداثة ومدى نجاحها التي طبقتها اليابان في اواخر القرن التاسع عشر (تجربة مائيجي). وسرعان ما وجدت هذه النخب نفسها ممزقة بين تيارين كبيرين: تيار اسلامي أصولي يدعو للكفاح ضد السيطرة الاجنبية، وتيار أمين للامبراطورية العثمانية أو مختلف نماذج القوميات الحديثة (تركية، فارسية، عربية، مصرية، سورية، ارمنية، كردية، لبنانية، مسيحية، الخ...).

عشية الحرب العالمية الاولى، كانت كل من مصر وايران تعد نحو ١٠ ملايين نسمة، وتركيا ١٥ مليونًا. والبلدان الثلاثة كانت تجارتها ناشطة، وكانت تصدر القطن، التبغ، الزيت، القمح، الشعير، الاصواف، التمور... أما صادراتها من الاقمشة والمنتوجات المصنعة فجاءت على حساب منتوجاتها الحرفية والصناعية البدائية، ما أوجد حالة من التململ الشعبي المتصاعد. والحركة الاصلاحية الفارسية تمحورت في بداية القرن حول النضال ضد امتيازات شركات التبغ الاجنبية، وبعد خمسين سنة ضد نظام الامتيازات النفطية (حركة الدكتور مصدق).

أضرار «نعمة» النفط:

الامتيازات النفطية الاولى مُنحت للاوروبيين في بلاد فارس منذ اواخر القرن التاسع عشر. وبعدها، اصبح العامل النفطي هو العامل المهيمن على موجات الاستثمارات الغربية في الشرق الاوسط. وفي اوائل القرن العشرين، اكتشفت آبار جديدة في الموصل. ولم يبدأ الاستثمار النفطي على نطاق واسع في شبه الجزيرة العربية، وخاصة في السعودية والكويت، إلا غداة الحرب العالمية الثانية، هذه الحرب التي تسببت بنوع من «طفرة صناعية» في الشرق الاوسط لحاجة الجيوش المتحاربة إليها.

في ايران، قامت موجة قومية اقتصادية، على يد الدكتور مصدق، هزّت العرش البهلوي وعدّلت من شروط الاستثمار النفطي المعطى للشركات الاجنبية (راجع «ايران»، ج٤، ص١٥١ و٢٢٥). وبعد ثلاث سنوات أي في ١٩٥٦، أمّم الرئيس عبد الناصر قناة السويس، ففجّر قراره هذا المطالب الاقتصادية في جميع ارجاء العالم الثالث. وتعمّمت اجراءات التأميم في مصر، ثم في سورية والعراق. وأخذت المبادلات التجارية لهذه البلدان وجهة الاتحاد السوفياتي ودول الكتلة الاشتراكية، ونما التعاون التقني بينها، خاصة في مجال الصناعة الهيدروليكية والحديدية والاستثمار النفطي. فسارعت الدول الغربية إلى حماية مصالحها الاقتصادية في شبه الجزيرة العربية.

قلب انفجار أسعار النفط العالمية، المرة الاولى في ١٩٧٣ بسبب الحرب الاسرائيلية- العربية، والثانية في ١٩٧٩ بسبب الثورة الايرانية، المعطيات الاقتصادية في الشرق الاوسط. فالموارد المالية المتأتية من قطاع الطاقة تمسك بها بصورة اساسية المملكة العربية السعودية ودولة الكويت اللتان لا يسمح ضعفهما الديمغرافي من امتصاص تلك الكتلة الهائلة من العائدات الجديدة النفطية التي انتقلت من ٤،٢ مليار دولار في بداية السبعينات إلى ٤٦ مليارًا في ا واسطها، وإلى ١٣٥ مليارًا في بداية الثمانينات. هكذا تكون هاتان الدولتان، إضافة إلى الامارات وقطر، قد حصلت بين ١٩٧٣ و١٩٨٥ على أكثر من ألف مليار دولار من العائدات النفطية، علمًا ان مجموع سكان هذه الدول لا يتعدى ١٣ مليون نسمة، أي انها الأضعف ديمغرافيًا بين مجموعة دول الشرق الاوسط.

المساعدات التي توزعها هذه الدول النفطية مهمة جدًا لكن اسقاطاتها السلبية في مشروطيتها: سياسيًا، لابقاء الدولة متلقية المساعدات على خط السياسة الغربية؛ اقتصاديًا، لتفكيك الأنظمة المركزية في الادارة الاقتصادية. وهكذا، تطرأ تغييرات جذرية، مرة جديدة، على البنى الاجتماعية والسياسية في منطقة الشرق الاوسط.

تهميش وهشاشة:

في ١٩٩١، قوّت حرب الخليج من هيمنة البترودولار الاسلامي المحافظ (بترودولار شبه الجزيرة العربية) وكنتيجة للمطامح العراقية التي هدّدت هذه القوة المالية. لكن هذه القوة المضافة للبترودولار على قوته التي عرفها في سنوات ١٩٧٣-١٩٨٥ جاءت مؤقتة ولمدة قصيرة. إذ استمرت قوة اسلامية أخرى (ايران) في منافستها، والنتيجة الابرز لهذا التنافس وقعت على كاهل لبنان أكثر من غيره، الذي شهد نموًا سريعًا لحزب الله في مختلف ارجائه.

المشكلة ان هذا التنافس الاسلامي «المالي» لم يعمل على التصنيع. فواردات الموارد المالية تركزت بين أيدي اعداد قليلة من الناس، ما أدّى إلى إهمال الزراعة (باستثناء سورية)، وحصر الجهود الصناعية في قطاعات مثل مصافي النفط والبتروكيميائيات وتنمية قطاع السياحة وما يستتبعه من منشآت فخمة. وحتى هذه الجهود الصناعية المتمركزة حول البتروكيميائيات اعاقتها الحروب المتكررة والنزاعات وقلة الاستقرار السياسي، وابعدت المستثمرين الاجانب رغم الاعتقاد السائد لدى خبراء الطاقة العالميين من ان منطقة الشرق الاوسط تملك امكانات التحول إلى واحدة من أهم المناطق في العالم لجهة الطاقة الانتاجية في صناعة البتروكيميائيات الأساسية (تحويل منتجات تكرير النفط والغاز الطبيعي إلى مواد كيميائية للاستخدام في انتاج المنتجات الصناعية والصيدلية والزراعية والاستهلاكية).

اصبحت الصناعة في لبنان، حتى ١٩٧٤ على قدر من الاهمية والتنوع وواعدة بمزيد من التقدم. لكن الحرب التي مزقت البلاد اعادتها سنوات إلى الوراء. والصناعة في العراق، التي يمسك بها القطاع العام، أخّرتها الحرب مع ايران، ثم دمّرتها الجيوش الغربية لـ«تحرير الكويت». وفي ايران، تراجعت اندفاعة التصنيع مع السنوات الاولى من الثورة الاسلامية، ثم بسبب الحرب مع العراق. وحدها تركيا استفادت من استقرارها السياسي النسبي في المنطقة، وشجعت على الاستثمارات الغربية في الصناعات المتنوعة، لكن اريافها استمرت في غالبيتها، خاصة في المناطق الشرقية من البلاد (حيث الأكراد) قابعة في فقر مدقع.

هكذا، مع الهبوط السريع والمستمر لمدة طويلة في اسعار النفط بدءًا من ١٩٨٥، عاد الشرق الاوسط ليكون «منطقة ضعيفة جدًا اقتصاديًا». لكن نموه الديمغرافي استمر مرتفعًا وإن سجّل بعض التراجع؛ مبادلاته التجارية هامشية وعجزه في المواد الغذائية كبير، رغم الفائض التركي من هذه المواد والتوازن الزراعي السوري. فعلى إجمالي ألفي مليون دولار هي الصادرات العالمية من المواد الغذائية لا تتعدى حصة الشرق الاوسط ٣٠ مليارًا، منها ١٠،٥ مليارات لاسرائيل و٨،٨ مليارات لتركيا. ومجموع صادرات الشرق الاوسط، بما فيها الصادرات النفطية، لا تتعدى ١٤٢ مليار دولار، أي ٣،٦٪ فقط من الصادرات العالمية، في حين انها كانت قبل سنوات قليلة (أي في بداية الثمانينات) ٢٠٠ مليار.

منذ ١٩٨٥، خسرت بلدان شبه الجزيرة العربية قدرتها على تأمين فوائضها المالية التي اعتادت عليها في السنوات السابقة. فعائداتها النفطية السنوية التي كانت تتخطى ١٣٠ مليار

دولار في بداية الثمانينات لم تعد إلا في حدود ٤٠ مليارًا على عتبة التسعينات. والدخل الفردي الذي كان قد وصل إلى ١٢ ألف دولار في العربية السعودية في ١٩٨٢-١٩٨٣، لم يعد اليوم (١٩٩٢-١٩٩٣) إلا ٧ آلاف دولار، أي اقل من الدخل الفردي في اسرائيل (١١ ألف دولار). أما بالنسبة إلى البلدان الأخرى في الشرق الاوسط فيتراوح بين ٦٠٠ دولار (في مصر) و٢٥٠٠ دولار في ايران. والأمية، لما هم فوق سن الـ١٥ سنة، لا تزال مرتفعة: ٥٢٪ في مصر، ٤٦٪ في ايران، ٤٠٪ في العراق، ٣٥٪ في سورية، ٢٠٪ في تركيا والاردن ولبنان. أما معدل الحياة، ومعدل الوفيات عند الاطفال، فلا يزالا بعيدين جدًا عن المعدل المعروف في البلدان المتقدمة، وحتى في بلدان الشرق الاقصى التي تعرف تصنيعًا مطردًا (الارقام الاحصائية الواردة تحت العنوان الفرعي «تهميش وهشاشة» عن جورج قرم في مؤلفه السالف الذكر).

إن الخط البياني للعصر النفطي في الشرق الاوسط يشير بوضوح إلى الهبوط. وهو في تأمينه، بصورة عامة، زيادة في مستويات العيش المرفّه لشرائح اجتماعية، إنما يعمل على تفاوت كبير بين الطبقات الاجتماعية، وهو تفاوت قد يفضي إلى نتائج أخطر بكثير من النتائج التي ترتبت على أحداث سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية. وثمة ظاهرة خطيرة ايضًا بنتائجها، وتتمثل بهجرة الادمغة الشرق اوسطيين إلى اوروبا وكندا والولايات المتحدة، وما تعنيه من إفقار للكفاءات العلمية والاقتصادية يضرب الشرق الاوسط. يقابل ذلك هجرة اليهود الاوروبيين والروس إلى اسرائيل التي عرفت اندفاعة قوية منذ انهيار الاتحاد السوفياتي.

إن ما يمكن ان يُقال، اخيرًا، إن الشرق الاوسط هو في حالة غليان خافت وعميق. عرف تغييرات ثقافية، ديمغرافية وسياسية دائمة منذ بداية القرن التاسع عشر. ودينامية هذه التغييرات وثيقة الارتباط بتطور أنظمة السلطة على المستوى الدولي، الاوروبية حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، السوفياتية-الاميركية بين ١٩٥٠ و١٩٩٠، والاميركية ابتداء من ١٩٩٠.

أسباب الانحطاط: في اوروبا تقليد ثقافي طويل يحصر تفسيره لانحطاط ثقافة الشرق الكبرى إما بالصفة «السامية» لشعوبه (رينان، غوبينو)، وإما بالاسلام الذي جسّده العرب تارة والاتراك تارة أخرى. أما التحليل الماركسي فكثيرًا ما اعتمد في نظريته على «الطغيان الآسيوي» الذي عرفته امبراطوريات الشرق الاوسط القديمة، أو أحدثها الامبراطورية العثمانية. فالطغيان، والتعصب الديني، و«ثقل» المزاج السامي، وصورة العرب البدو... كثيرًا ما شكلت اساسًا لصورة مجتمعات الشرق الاوسط في الوعي الاوروبي.

لكن هذه الصورة كثيرًا ما يعترض عليها مستشرقون معجبون بالاسلام (ماسينيون، غارده)، أو بالعرب (غوستاف لوبون)، حتى ان بعض الشخصيات، في فرنسا خاصة، لم يترددوا في اعتناق الاسلام (مونتيل، غارودي)، وبعضهم الآخر وجلّهم من جيل العلم الاسلامي في فرنسا (كيبيل، إتيان، كارّي، بورغا، روي...) يريد ان يرى في الديناميكية السياسية للحركات الاسلامية الطريق الوحيد الممكن لعبور الشرق الاوسط إلى الحداثة والتطور بعد فشل تجارب الحداثة السابقة التي كانت متأثرة بالافكار الاوروبية، العلمانية، الديمقراطية أو الماركسية.

ليس هناك ما يصدم المرء أكثر من رؤيته الشرق الاوسط الذي اثبت التاريخ كما أثبتت المكتشفات الأثرية عظمة امبراطورياته المتعاقبة حتى العباسيين وقد أصبح على هذه الصورة المتهالكة الواهنة من التخلف الثقافي والاقتصادي. ولتفسير هذا الانحطاط، اعتقد بعض المؤرخين ان

تغييرات مناخية أتت على القواعد المادية لهذه الحضارات، لكن كثيرين غيرهم يرفضون هذه النظرة ويقولون بأن اتساع الصحاري وقلة الامطار هما الميزة الدائمة للشرق الاوسط منذ التاريخ الموغل في القدم. ويبدو ان جهود الانسان الشرق أوسطي للتخفيف من مضار المناخ قد خفت منذ قرون عديدة، خاصة منذ انحطاط الامبراطورية العباسية، والحملات الصليبية والاضطراب الذي أحدثته في المنطقة، وغزوات المغول الذين قضوا على مدن كانت مراكز ثقافية عالمية مشعة، مثل بغداد ودمشق وطرابلس. وليس هناك من شك ان الهبوط الديمغرافي في الشرق الاوسط، بين القرن الثالث عشر والقرن التاسع عشر، الذي ترافق مع الهبوط الاقتصادي، كانت نتيجته تخلي إنسان هذه المنطقة عن تطويع الطبيعة القاسية والبيئة الصعبة. وإضافة إلى ذلك، فقد جاءت عهود العثمانيين، التي خلفت قروناً من عدم الاستقرار والمواجهات الدينية، لتطمس كل وثبة مبدعة ومجدّدة كانت، حتى ايامهم، تميّز الثقافة الاسلامية.

وبدخولها عصر الاتصال بالعالم الاطلسي وبالشرق الاقصى بفضل تطور تقنيات الملاحة البحرية والتجارة أخذت أوروبا من الشرق الاوسط قاعدة أخرى من قواعد ازدهاره المادي: أي موقعه كعقدة مواصلات تجارية برية بين القارات الثلاث، اوروبا وآسيا وافريقيا. فعلى قدر ما كانت تقنيات المواصلات تتطور كان الشرق الاوسط يغرق في الاختناق الاقتصادي. وجاءت خسارة الامبراطورية العثمانية لسيطرتها على الحركة الملاحية في البحر المتوسط (القرن السابع عشر)، ثم لتراجعها امام القوات الروسية في المناطق الآسيوية، لتزيد من وضعية الاختناق هذه، خاصة في الأناضول وبلاد ما بين النهرين. أما في ما يختص بالحضارة الاسلامية، فقد بدا انها هي الأخرى أدارت ظهرها، في ذلك الوقت، للشرق الاوسط، واتجهت ناحية المحيط الهندي حيث لمعت عدة مراكز إشعاعية في عهد امبراطورية المغول الكبار.

«شرق أوسط فقير وبائس» وقف عليه الرحالة الاوروبيون ووصفوه في القرن الثامن عشر. وكلهم صعقهم المشهد المتناقض: حضارات عظيمة قديمة تشهد عليها الآثار (الأهرامات، نصب الأشوريين، آثار اليونان والرومان والفرس، مساجد هي آية في الجمال تعود إلى العصور الاسلامية الذهبية...) وواقع بائس يشهد عليه وضع السكان والمؤسسات. فأنتج هذا الواقع علاقة غريبة بين اوروبا والشرق الاوسط، علاقة تراوحت بين السحر والانشداد، والنفور والاشمئزاز. والعلاقة نفسها لا تزال حتى اليوم، ولم يُسدل الستار عليها بعد، وإن حلّ الطرف البعيد من الأطلسي (الاميركيون) محل طرفه الأقرب (الاوروبيين).

المرحلة الاميركية وأفق المستقبل

من «عربي» إلى «شرق أوسطي» إلى إمكانيات الممانعة: مع انتهاء مرحلة «الحرب الباردة والشرق الاوسط» بدأت على الفور «المرحلة الاميركية والشرق الاوسط»، أو «الشرق الاوسط في المرحلة الاميركية». وهذه البداية ترافقت مع حادثين كبيرين لا يشيران، بوقائع مسارهما وبخطابهما الدبلوماسي والسياسي، إلى اقل من هيمنة اميركية تكاد تكون تامة على المنطقة: ضرب العراق وحصاره، وبدء مفاوضات السلام الفلسطينية (والعربية)-الاسرائيلية. كما اعقبت هذه البداية، ومباشرة (أي في ١٩٩٢ و١٩٩٣)، حرارة وزحمة الحديث عن شعوب شرق اوسطية، ودول شرق اوسطية، ورجال أعمال شرق اوسطيين... ومؤتمرات (على مستوى القمم، وأدنى وصولاً إلى مؤتمرات متخصصة)

الرئيس الاميركي بيل كلينتون (الى يمين الصورة) ورئيس الوزراء الاسرائيلي اسحق رابين في مؤتمر صحافي في واشنطن (آذار ١٩٩٣).

شرق أوسطية... ولوحظ ايضًا، في الوقت نفسه، انه في حين تختزل «الشرق أوسطية» توجهًا اميركيًا (واسرائيليًا) حيال المنطقة، تثار «المتوسطية» (حوض البحر المتوسط) على نار اوروبية هادئة. وبينما الحديثان (الشرق أوسطي والمتوسطي) يحتلان القسم الاوفر من الخطاب السياسي والدبلوماسي والجغراسياسي والاستراتيجي والامني والاقتصادي الخاص بالمنطقة يُعلن في القاهرة عن افلاس جامعة الدول العربية وقرب توقفها عن ممارسة معظم انشطتها. وهذا الاعلان يدعمه الحجم الضئيل الذي باتت عليه الجامعة في الواقع.

وبهذا تكون المنطقة التي مثلتها الجامعة العربية والتي سميت، حتى عهد قريب، بالمنطقة العربية (أو العالم العربي أو الوطن العربي) قد مرّت خلال خمسين عامًا بثلاث مراحل: مرحلة النظام الاقليمي العربي، وبعدها مرحلة النظام الاقاليمي العربي حين نشأت وتعددت التجمعات الجهوية أو المناطقية (الاتحاد المغاربي العربي، مجلس التعاون الخليجي...) وهي التجمعات التي تسببت-ربما بدون قصد-في إضعاف جامعة الدول العربية. ومن مرحلة النظام الأقاليمي العربي، بدأ الانتقال إلى مرحلة «تلغي» تسمية «عربي» لمصلحة «شرق أوسطي» حيث تندرج الاقاليم العربية في أجزاء جغرافية منفصلة ومتشابكة في آن واحد.

في الصدد هذا يقول جميل مطر (كاتب وخبير سياسي مصري، في «الحياة»، العدد ١١٩٨٠، تاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٩٥، ص١٧):

«جزء كبير من العرب في الاقليم الشرق أوسطي، وبعض هذا الجزء مع جزء آخر في الاقليم المتوسطي. والاقليمان أي الأوسطي والمتوسطي بدآ فعلاً في تأدية وظائفهما وترسيخ قواعدهما. ثم هناك الاقليم الثالث (وبدقة أكثر هو الاقليم الاول) وهو الاقليم العربي، ولكنه الاقليم الذي يبدو ان الجميع انشغلوا عنه بالاوسطية والمتوسطية فقرروا تجميده (الوهن الذي أصاب الجامعة العربية، فوضعت على طريق الزوال) وتفسيخ قواعده وحرمانه من تأدية وظائفه. ثم هناك اقاليم فرعية كثيرة متشابكة مع الاقاليم الأكبر. فهناك اقليم الخليج، وهناك اقليم ناشىء (والاصح القول هناك إقليم يجري الكلام حول نشوئه) في شكل كونفدرالي يضم اسرائيل والاردن وفلسطين؛ وهناك إقليم «الأشقياء» (نسبة إلى تمردهم على الارادة الاميركية) ويضم ايران والعراق وليبيا (...) هذا النظام (الشرق أوسطي) مدين لتراكم مبادىء متناقضة في ثلاث وثائق، كل وثيقة منها مهّدت وشرّعت لقيام نظام إقليمي في المنطقة. أولى هذه الوثائق، بروتوكول الاسكندرية الموقع عام ١٩٤٤ الذي وضع مبادئه وصاغه عرب، فأنشأ جامعة الدول العربية واطلق شرارة النظام الاقليمي العربي (راجع «العالم العربي» في الجزء التالي،

الثاني عشر). أما الوثيقة الثانية، فقد ظهر في شكل كتاب قام بتأليفه شيمون بيريز رئيس وزراء اسرائيل (١٩٩٥)، ولم يشترك في وضع مبادئه أو صياغته عرب، وهو الكتاب الذي دشّن الشرق أوسطية الجديدة. وفي برشلونة (راجع «مؤتمر برشلونة» في «حوض البحر المتوسط»، ج٨، ص٧٤-٧٦) اشترك العرب مع غيرهم في وضع مبادىء وصياغة اعلان ينشىء المنظومة المتوسطية».

اختصارًا، يبدو واضحًا ان المستهدف في «الشرق اوسطية» إنما هو العالم العربي (إقليم الشرق الاوسط الأكبر) في اعتبارها إياه جملة دول وطوائف، بالمعنيين المذهبي والاتني، متجاورة، لا جامع وطنيًا أو قوميًا لها، أي لا جامع لها على صعيد الهوية السياسية. والهدف تشريع ابواب المنطقة امام الولايات المتحدة التي تعمل سياستها على ارساء أسس بنية إقليمية تتمتع فيها اسرائيل بموقع مميز في شبكة من العلاقات تتكون من حاصل موازين القوى بين مختلف الاطراف.

أما ما يثيره بين حين وآخر المحللون المتفائلون بعدم نجاح الشرق أوسطية فإنما يستندون على «وضع خاص في المنطقة يقوم على نظام يتوجب عليه مواجهة مستمرة لتيار الممانعة الثقافية والحضارية في المجتمعات العربية. وهنا تجدر الاشارة إلى ان هذه الممانعة تتنامى يومًا بعد يوم وتأخذ اشكالاً مختلفة يغلب عليها في الوقت الراهن الطابع الاسلامي...» (معين حداد، استاذ في الجامعة اللبنانية، «النهار»، تاريخ ١٨ ايار ١٩٩٥، ص١١). ويستندون كذلك على ما أظهرته ايران من قدرة على هذه الممانعة المتوافرة فيها على كامل المستويات المدنية والسياسية، ويعطون المثل الأوضح وهو في إقدام «الولايات المتحدة، في ٣٠ نيسان ١٩٩٥، على اتخاذ خطوة اريد لها ان تكون حاسمة. إذ أعلن رئيسها بيل كلينتون وفي حضور وزير خارجية اسرائيل شمعون (شيمون) بيريز، عن وقف كل الاستثمارات والمبادلات التجارية مع ايران، مشدّدًا على انه في صدد حشد تأييد عالمي لفرض حظر تجاري شامل عليها. وفي اليوم التالي، اردف وزير الخارجية الاميركي وارن كريستوفر ان هذه الخطوة هي امتحان لزعامة الولايات المتحدة. لكن الرد الاوروبي جاء سريعًا وسلبيًا، فاستبعدت المانيا وفرنسا وبريطانيا وايطاليا صراحة الانضمام إلى هذا الحظر. كما رفضته كندا واليابان وروسيا وتركيا وسائر الدول. ولم يطل الأمر حتى أثار عاصفة من النقد داخل الولايات المتحدة... ولم يكتف الاتحاد الاوروبي برفض الحظر على ايران بل ذهب إلى ابعد من ذلك عندما حذّر الولايات المتحدة من التعرض للمنتجات الاوروبية التي يقتضي تصنيعها استعمال مواد أولية ايرانية» (معين حداد، المرجع المذكور نفسه). وكذلك تبدي كل من سورية والعراق قدرات ممانعة كبيرة للشرق أوسطية رغم الحالة التي باتت فيها سورية تحت ضغط شديد في مواجهة اسرائيل بسبب ذيول مسار مفاوضات السلام العربية-الاسرائيلية، والحالة الصعبة والمعقدة جدًا التي باتت فيها العراق بسبب ذيول حرب الخليج الثانية والحصار الطويل المطبق عليه. ولا ريب ان الموقف الممانع الذي تقفه هاتان الدولتان العربيتان يلقى تأييدًا من قوى وهيئات رسمية وشعبية عربية كثيرة تعبر عنه مواقف وحركات تظهر بين حين وآخر.

الشرق الاوسط في السياسة الاميركية:

ثمة ثابتتان إثنتان لهذه السياسة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية: حماية الامدادات النفطية (أضيفت إليها مصالح اقتصادية أهم مع ازدياد النفوذ الاميركي على جبهة مزاحمته الدول الاوروبية، والاتحاد السوفياتي خاصة بعد انهياره)، والدفاع عن وجود دولة اسرائيل وحمايتها. أما الاعتبارات الأخرى، على أهميتها وتنوعها، فتأتي بعد هاتين الثابتتين ولخدمتهما.

الرئيس اللبناني الياس الهراوي مستقبلاً مارتن أنديك خلال زيارته لبنان بعد سورية وعودته اليها ثانية (كانون الاول ١٩٩٧).

في البداية، دخلت واشنطن الشرق الاوسط بنهج ليبرالي وانتقادي للسياسة الاستعمارية الاوروبية السابقة. وهكذا عوّل الدكتور مصدق في ايران في بداية حكمه على هذه الدعوات الليبرالية الاميركية؛ والأمر نفسه راود قادة ثورة تموز في مصر. لكن، مع اصرار هؤلاء الزعماء على السير ببلادهم نحو التحرر الاقتصادي والسياسي وجدوا نفسهم يصطدمون بالموقف الاميركي العدائي.

وتعمقت الصورة السلبية للولايات المتحدة في الشرق الاوسط مع مساعيها لزج المنطقة في الاحلاف العسكرية (حلف بغداد ثم حلف السنتو) وما جلبته من استقطاب ونزاع حاد بين بلدان الشرق الاوسط. فتبددت الصورة الليبرالية للولايات المتحدة، وتحولت المجابهة للسياسة الاميركية من سمات العملية السياسية في الشرق الاوسط بشكل عام حتى ولو كان هناك استثناءات كانت تذكر بالصورة الايجابية الليبرالية: محاولة ادارة الرئيس جون كينيدي لتغيير الشاه في ١٩٦٣، دفاع الرئيس جيمي كارتر عن حقوق الانسان في ايران ما ساهم بقوة في اضعاف نظام الشاه، وقبلهما موقف الرئيس أيزنهاور من العدوان الثلاثي على مصر في ١٩٥٦.

إن سياسة الولايات المتحدة القائمة على الدعم اللامحدود لاسرائيل وحمايتها يضعها في موقع مجابهة الدول العربية والاسلامية. والخطوط العامة لهذه السياسة في السنوات الاخيرة التي بدأت مع انهيار الاتحاد السوفياتي وانتهاء الحرب الباردة وحرب الخليج الثانية وبدء مفاوضات السلام الفلسطينية (العربية)-الاسرائيلية يمكن استجلاؤها من خلال ما طرحه مسؤولان اميركيان في اواسط ١٩٩٣: الأول، ليس أسبين وزير الدفاع الاميركي في خطابه في ١٤ حزيران ١٩٩٣ الذي ألقاه امام لجنة العمل السياسي الاميركية-الاسرائيلية (إيباك)؛ والثاني، مارتن أنديك مدير شؤون الشرق الادنى وجنوبي آسيا في مجلس الامن القومي الاميركي في بيانه الذي ألقاه امام «معهد واشنطن لدراسات الشرق الادنى» في ٢٠ ايار ١٩٩٣ (ومارتن أنديك هو نفسه الذي زار سورية ولبنان في كانون الاول ١٩٩٧ بصفته مساعد وزيرة الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الاوسط).

وسرعان ما احتل الخطابان، لأهمية مصدرهما، الموقع الاول في لائحة التحليلات التي طالت السياسة والاستراتيجية الاميركية إزاء الشرق الاوسط والتي ملأت وسائل الاعلام العربية والعالمية، ووضعت بشأنها الدراسات والكتب. ومما توافر لنا مما نُشر من الخطابين ومن التحليلات بصددهما، يمكن استخلاص النقاط الرئيسية التالية:

– قسّم أنديك الشرق الاوسط إلى قسمين: الشرق ويضم دول الخليج والعراق وايران وتركيا وجمهوريات آسيا الوسطى المسلمة، والغرب ويضم اسرائيل والدول العربية المعنية بعملية السلام. وفُهم من هذا التقسيم ان أنديك اعتبر بقية العالم العربي ضمن ما يُسمى منطقة شمالي افريقيا (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب وموريتانيا)، أو ضمن منطقة القرن الافريقي (جيبوتي، الصومال، السودان).

– اعتبر ان على الاستراتيجية الاميركية تدعيم «الوضع القائم» Status Quo في كل من قسمي الشرق الاوسط باعتبار ان كلاً منهما يؤثر على الآخر، وذلك بتثبيت الانظمة الحاكمة لمواجهة الراديكالية قومية كانت أم دينية.

– رأى أنديك ان على الولايات المتحدة لعب دور «الشريك الكامل» في دعم عملية السلام في القسم الغربي من الشرق الاوسط لاحتواء التهديدات القادمة من العراق وايران. وهذا الدور يعني «تحمل الاطراف لمسؤولياتها بالاشتراك المباشر في المفاوضات العربية–الاسرائيلية».

– يعطي أنديك لمفهوم «الشريك الكامل» بعدًا يجد اساسه في رؤية عملية السلام ونتائجها. إذ يرى ان السلام لن يتحقق في الشرق الاوسط إلا بانسحاب اسرائيل، وهو أمر ينطوي على تهديد حقيقي لأمنها. لذلك ينبغي على الولايات المتحدة الحفاظ على تفوق اسرائيل النوعي بالتعاون معها في مجال التكنولوجيا المتقدمة، بل وتشكيل لجنة اميركية–اسرائيلية للعلوم والتكنولوجيا.

أما أسبين فأكّد كذلك على دعم اسرائيل والتحالف الاستراتيجي معها لسببين رئيسيين، أولهما نمو التطرف والعنف، وثانيهما انتشار اسلحة الدمار الشامل وخصوصًا السلاح النووي الذي يشكل خطرًا على أمن اسرائيل. لذلك فإن الولايات المتحدة، برأي أسبين، لن تسمح لدول مثل سورية وليبيا والعراق وايران بالاستمرار في مساعيها لتطوير برامجها، وانه «ينبغي ان يقوم المخططون الاميركيون والاسرائيليون بالابقاء على المساعي الرامية لوقف انتشار الاسلحة النووية وجعلها على رأس الاولويات» (ولم يأت أسبين على ذكر امتلاك اسرائيل السلاح النووي).

– في الجزء الشرقي من الشرق الاوسط، تتمثل الاستراتيجية الاميركية في ما أسماه أنديك سياسة «الاحتواء المزدوج» لكل من العراق وايران. وهي سياسة مواجهة، مواجهة العراق بكل الأساليب ومنها استخدام القوة «للامتثال إلى قرارات الامم المتحدة» وتغيير النظام؛ ومواجهة ايران «لتغيير سلوكها» من خلال استخدام الحرب التجارية لمنعها من الحصول على اسلحة استراتيجية، وتدعيم دور تركيا في هذا القسم الشرقي من الشرق الاوسط للحيلولة دون امتداد النفوذ الايراني إلى جمهوريات آسيا الوسطى (راجع، في هذه الموسوعة، كل ما يمت بهذا الموضوع بصلة، أخصه «الحلف الاسرائيلي–التركي»، في «اسرائيل»، «ايران»، «تركيا»، «سورية»).

الشرق الاوسط «الاسرائيلي» في كتاب شيمون بيريز: شيمون (شمعون) بيريز (بيريس) رئيس وزراء (قبل نتانياهو) اسرائيل، ووزير خارجيتها وزعيم حزب العمل الاسرائيلي. وقبلاً، كان بدأ يعمل مع بن غوريون قبل إنشاء اسرائيل وبعدها. كان مديرًا لوزارة الدفاع وأشرف على تسليح جيش الدفاع الاسرائيلي «تزاحال» (تساحال)، وأشرف على البرنامج النووي الاسرائيلي منذ بدايته بعد الايام الاولى لانشاء الدولة.

في كتابه «الشرق الاوسط الجديد» (١٩٩٤) يقدم بيريز نفسه على انه رجل سلام من خلال إطلاقه فكرة اقتصادية في قالب شاعري:

«فنحن نقف على مفترق طرق تاريخي نميز فيه بين طريق ألسنة اللهب والدخان الخانق وانهار الدم، وبين طريق الصحراء المزهرة وصبغ الاراضي المحتلة القاحلة بالخضرة والسير على درب التقدم والنمو والعدالة والحرية». والمفارقة أنه في أوج مفاوضات السلام التي أطلقها مؤتمر مدريد (١٩٩١)، وفي إكثار بيريز لحديث السلام وإصداره كتابه المذكور، ورد في الميزان العسكري ١٩٩٣-١٩٩٤ لمعهد الدراسات الاستراتيجية في لندن ان ميزانية الدفاع الاسرائيلية أصبحت ٧،٣٧ بليون دولار، وأضاف التقرير: «نعتقد ان اسرائيل لديها مائة رأس ذري ووسائل اطلاقها، مثل الصاروخ جيرسكو الاسرائيلي، ولانسي الاميركي؛ وترفض اسرائيل في الوقت نفسه التصديق على معاهدة منع انتشار الاسلحة النووية وتعقد منذ أسابيع صفقة ٥٠ طائرة إف-١٥ البعيدة المدى مع واشنطن...».

ولأن الحرب لا تحل المشاكل، والسلام هو الحل، لكن، كما يقول «ليس على أساس الحلول المنفردة أوالثنائية أو المتعددة بل على أساس التنظيم الاقليمي لخلق أسرة إقليمية ذات سوق مشتركة وهيئات مركزية مختارة على غرار المجموعة الاوروبية باعتماد ركائز اربع: الاستقرار السياسي، الاقتصاد، الامن القومي، والديمقراطية».

الاستقرار السياسي لا يتحقق، برأيه إلا بمقاومة الأصولية. والامن القومي يجب ان يعتمد على نظام اقليمي للرقابة والرصد للسيطرة على التسلح. أما الديمقراطية فلا تحارب بعضها البعض، إنما الانظمة الشمولية هي التي تحارب.

تبقى الركيزة-المحور وهي «الاقتصاد الاقليمي» والانتقال من اقتصاد الحرب إلى اقتصاد السلام. فعلى دول المنطقة، برأيه، تنفيذ المشاركة الاقتصادية وبناء السوق المشتركة «من الآن ودون انتظار الانتهاء من الحلول السياسية»، والتركيز على الانتقال من السباق في مجال استراتيجية التفوق العسكري إلى استراتيجية التعاون الاقتصادي، وبخطة تنفيذ ذلك ثلاثية الأضلاع:

- مشاريع ثنائية أو متعددة القومية (معهد أبحاث الصحراء-مشاريع تحلية المياه-التعاون في الزراعة كما يحدث في مصر).

-كونسـورتيومات Consortiums دوليـة برساميل هائلة (قناة البحر الأحمر والبحر الميت، مشروعات سياحية، موانـيء مشـتركة، تطويـر الطاقة الكهرمائية).

- تخطي الانغلاق القومي إلى مـا فـوق القومي ببناء أربعة أحزمة: نزع السلاح، الحرب على الصحراء، التكنولوجيا الحيوية والمياه، هيـاكل النقـل والاتصـالات والسـياحة لبنـاء الاسـواق والمشاريع المشتركة، مثل: خط بورسعيد-حيفا-بيروت؛ طريق شمال افريقيا إلى اوروبا عبر مصر؛ مناطق حرة في اللاذقية، بيروت، حيفا أو أسـدود، غزة، الاسكندرية، جدة، إيلات... أنـابيب المياه (مشروع أنـابيب السلام)... إلى مـا هنـالك مـن مشاريع شرق أوسطية.

تقويم، مناقشة:

بتقويمه لـ«الشرق الاوسط الجديـد» في «مخيلة» بيريز، حاول أمين هويدي («العربي»، العدد ٤٣٢، تشرين الثاني ١٩٩٤، ص٣٧) تحديد «الاتجاهات الاستراتيجية الخطيرة» التي تحدد إطار الكتاب:

١- يريد ان ينقلنـا مـن النظـام العربـي القومي الـذي نسعى إلى تحقيقه إلى نظام إقليمي تدخل فيه اسرائيل وتركيا، وربما ايران بعـد ذلـك، والمحاولة قديمة بدأت في اوائل الخمسينات .بمحاولة إدخال العرب في أحلاف عسكرية أبرزها حلف بغداد لمواجهة عدو الولايات المتحدة وهو الاتحاد السـوفياتي، ولكـن رفضـت مصـر والسـعودية وسـورية هـذا الاتجاه علـى اسـاس ان الاتحـاد السوفياتي لا يشكل عدوًا لنا ولكـن اسـرائيل هـي التي تشكل العدو.

٢- في ظـل العـدو السـوفياتي كـانت الوسيلة لفرض النظام الاقليمي والابتعاد بنا عن النظام القومي العربي وسيلة عسكرية، ولكـن بعد انتهاء الحرب الباردة اصبحت الوسيلة اقتصادية، فالغرض واحد ولكن اختلفت الوسائل.

٣- يقفز بيريز على المشاكل السياسية فهي ليست سبب عـدم الاسـتقرار، ولكـن المدخـل الاقتصادي للتعاون الاقليمي هو الـذي يعالج كـل الاسباب التي تهدد المنطقة وتجعـل، في الوقـت نفسه، من الاصولية خطرًا يحفّـز علـى النظـام الاقليمي أي أصبح العدو واحدًا بيننا وبينهـم وهـو الاصولية.

٤- يرسـم مشـروعًا كـاملاً للتطبيـع الاقتصادي متجـاهلاً التطبيـع السياسـي؛ وهنـا نتساءل ما الذي يسبق الآخر: التطبيع السياسي بازالة الأسباب الحقيقية للنزاع والصراع أم التطبيع الاقتصادي فـوق الرمال المتحركـة نتيجة لوجود قنابل سياسية متفجرة من الحقوق الضائعة والحدود المخترقة والاراضي المحتلة والشـعب الفلسـطيني المطرود والاماكن المقدسة الموضوعـة تحت الحكـم العسكري؟!.

٥- يتحـدث الكتـاب حديثًـا معقـولاً في المسـائل التي تتعلـق بالدفـاع، وينتهي إلى حلـول عرجـاء مـن طـرف واحـد ترمـي إلى نـزع أي إمكانات لدى العـرب لخوض حروب مستقبلية، والأخطر من ذلك حديثه عن ترتيبات «منع طرف ما من الضغـط على الزر المهلـك»، أي انه يعني احتفـاظ اسـرائيل بالاحتكـار النـووي في مواجهـة عدم تملك الجانب العربي لأي مقدرة نووية.

٦- ويطالب بيريز بعد ذلـك بالشـراكة في التنميـة علـى أسـاس ان يـأخذ ولا يعطي، فنحـن الذيـن لدينـا رأس المـال والعمالـة والميـاه والارض والطاقة والمواد الخـام والسـوق، ورغـم ذلـك فإنه يطالب بشراكة دون إزالة العوائق السياسية الناجمة عن الاستيلاء على الحقـوق تحت التهديـد بتـوازن قوى تقليدي ونووي في صالحه، وليس معنى هـذا إلا الهيمنة.

تصـدّع الشـرق أوسـطية في ١٩٩٦-١٩٩٧: خلال ١٩٩٦، تصدعت فكـرة الشـرق

أوسطية، أو «شرق أوسط جديد» يرتكز على دعائم اقتصادية وسياسية وأمنية وحتى ثقافية وإن برؤى مختلفة ٠ رؤية اميركية ورؤية اسرائيلية-وهما قريبتان جدًا خاصة لجهة مصلحة اسرائيل وحمايتها وضمان تفوقها-ورؤية اوروبية، وعربية...). وذلك بسبب تصاعد التوتر الاقليمي (عمليات «حماس» الانتحارية داخل اسرائيل، وتشديد الحصار الاسرائيلي على الضفة الغربية وقطاع غزة، وعدوان «عناقيد الغضب» الاسرائيلي على لبنان، وتعنت حكومة نتانياهو حتى بالنسبة إلى طروحات سلفه بيريز) وتراجع عملية السلام.

قبل هذان: التصدع والتراجع، كانت اطراف عربية، وخاصة مصر، تشدّد على ضرورة الاسراع ببناء السلام الشامل والمتوازن لتصفية اسباب استمرار العنف وتهديد الامن في الشرق الاوسط. لكن ما أقدم عليه شيمون بيريز نفسه (الذي ظهر معتدلاً ومبشرًا بالسلام وبـ«شرق أوسط جديد») في جنوبي لبنان وارتكابه مذبحة قانا كان بمثابة رسالة إلى الرأي العام العربي بعودة بيريز إلى الأساليب الاسرائيلية المعتادة؛ ما أدّى بمختلف الاطراف العربية إلى إبداء تصلب ساهم ايضًا في تصدع المشروع الشرق أوسطي.

وما لبثت الحكومة الاسرائيلية (نتانياهو)، ببرنامجها وإجراءاتها وقراراتها، ان فاقمت من عوامل التوتر والتصدع والتراجع بوأدها معادلة السلام العربي-الاسرائيلي التي ترتكز، قبل التصدع، على: انهاء الاحتلال الاسرائيلي، ضمانات الامن الاقليمي، إقامة علاقات طبيعية وفقًا لمعاهدة السلام المصرية-الاسرائيلية، ثم اضيف إلى معادلة السلام قيام الدولة الفلسطينية المستقلة، وبناء التعاون الاقتصادي الاقليمي. وكان مسار هذه المعادلة في سياق خيار حزب العمل بزعامة إسحق رابين وبعده شيمون بيريز، وفي مسار ما يقود إليه منطق الاتفاقات الاسرائيلية الفلسطينية منذ اعلان أوسلو. وعلى أساس هذه المعادلة فإن الشرق أوسطية، بمفهومها الواسع ومن منظور اقتصادي، تشمل تفاعلات وعلاقات التطبيع والتعاون والتكامل بين الدول العربية واسرائيل.

لكن برنامج حكومة ليكود، وقد تصرفت عمليًا على اساسه، تضمّن كل ما يعوق تطور التطبيع والتعاون، إذ نص على «ان القدس الموحدة غير المقسّمة هي عاصمة دولة اسرائيل»، وأكدّ على «دعم المستوطنات وإلغاء قرار تجميدها»، وأعلن «معارضة إقامة أية دولة فلسطينية مستقلة»، وطالب باحتفاظ اسرائيل «بمصادر مياهها الحيوية في يهودا والسامرا»، وباستمرار «السيادة الاسرائيلية على مرتفعات الجولان ومواردها المائية».

ورغم اعتراف برنامج الليكود بـ«الحقائق التي خلقتها على ارض الواقع مختلف الاتفاقات»، فقد أكد سعيه إلى «خفض المخاطر الناجمة عن تلك الاتفاقات على مستقبل وأمن اسرائيل»، وهو ما تكشف عمليًا عن عدم تنفيذ الالتزامات الاسرائيلية ومحاولة تفريغها من مضمونها.

وبالنسبة إلى «الشرق أوسطية» يبدو لافتًا في برنامج الليكود خلوه من أية دعوة إلى تعاون اقتصادي اقليمي، كما يكاد الخطاب السياسي لنتانياهو وحكومته ان يكون خاليًا من ذكر الشرق اوسطية بالمفهوم الذي اصبح معروفًا؛ في حين كان خيار حكومة رابين وبعده بيريز (حكومة العمل) هو اندماج اسرائيل في منطقة الشرق الأوسط، وهو الخيار الذي تحقق على اساسه ما تحقق على طريق السلام.

فقادة ليكود، وحلفاؤهم في التيارات اليمينية، رأوا في المشروع الشرق أوسطي خطرًا كبيرًا على اسرائيل من حيث تحويله اسرائيل إلى مجرد دولة شرق أوسطية عادية تدور في فلك الولايات المتحدة. والبديل الوحيد هو في اسرائيل القوية المزدهرة التي يمكن ان تجلب الأمن والاستقرار والازدهار في هذه المنطقة المتقلبة، وان دعم اسرائيل وتطوير اقتصادها وضمان تفوقها العسكري والاقتصادي والتكنولوجي هو وحده الذي يمكنها من فرض النظام الاقليمي الملائم في المنطقة.

إن كلا الطرفين، العمل وليكود، متفقان على المبادىء التي تعطي لاسرائيل الاولوية في كل الاعتبارات والمجالات. ولكنهما يختلفان على استراتيجية تحقيق كل منهما لمبادئه. وفي الصدد هذا جاء في «الحياة» (ماجد كيالي-كاتب سياسي فلسطيني-العدد ١٢٦٧٩، تاريخ ١٦ تشرين الثاني ١٩٩٧، ص ١٧):

«بينما يرى العمل بأن الارض والمساحة والحدود لم تعد لها الاولوية في عصر التطور العلمي والتكنولوجي والصواريخ بعيدة المدى، يصر الليكود على اعتبار ذلك ركنًا اساسيًا من اركان الامن الاسرائيلي، فضلاً عن ان «التنازل» في هذا المجال يعني التخلي عن احد مبررات قيام المشروع الصهيوني. وبينما يرى العمل ان الاقتصاد بات هو العامل الحاسم في قوة الدول وانه يجب الانتقال من عهد الصراع إلى عهد التعايش، ومن عهد الخلاف السياسي إلى عهد التعاون الاقتصادي، يعتبر قادة الليكود بأنه في هذه المنطقة غير المستقرة لا يوجد شيء يضمن استمرار التعايش، وبالتالي لا يمكن المراهنة على علاقات التعاون الاقتصادي. وفي حين يرى العمل ان اسرائيل هي جزء من المنطقة ولكنها جزء متميز فيها، وانه يجب ان تتكيف مع الحقائق الجديدة لتطوير اوضاعها، يعتبر ليكود ذلك محاولة لتهميش اسرائيل وفك روابطها بالدول الغربية.

«إزاء كل ذلك لم يكن مستغربًا ان يقف رئيس الوزراء الاسرائيلي (الأسبق) إسحق شامير (من الليكود) ليقول: «إن اسرائيل هي ٥٠٪ من الشرق الاوسط الجديد» («دافار»، ٢٩ ايلول ١٩٩١)، وذلك في إطار مقاومته الاشارات الاميركية الرامية آنذاك إلى جذبه إلى دائرة المشروع الشرق أوسطي. وفي هذا الاطار ايضًا تصريحات نتانياهو (١٩٩٦-١٩٩٧) المتكررة التي دأب فيها على الهزء بافكار رئيس وزراء اسرائيل السابق شيمون بيريز واعتباره هذه الافكار مجرد احلام، حتى وصل به الامر إلى حدّ نعي فكرة الشرق الاوسط الجديد بقوله: «لا وجود لشيء اسمه الشرق الاوسط الجديد (...) الفكرة التي روج لها زعماء حزب العمل يجب ان تسقط في غياهب النسيان» («معاريف» أواخر آب ١٩٩٧). وفي مقابل ذلك، فإن حزب العمل ما زال يراهن على المشروع الشرق أوسطي. وقد قام بيريز مؤخرًا بتأسيس مركز دراسات خاص في اسرائيل للتعاون الشرق أوسطي».

ومن الأحداث الأبرز على صعيد تعطيل حكومة نتانياهو (الليكود) لمسار الشرق أوسطية، الذي يمكن ان يكون مقبولاً في ما لو أبدت اسرائيل اعتدالاً عمليًا، الاستمرار في السياسة الصهيونية الاستيطانية، حتى انها رفضت استقبال بعثة الامم المتحدة للنظر في هذه المسألة ومآلها الأخير مع مستوطنة «أبو غنيم». ولقد جاء في تقرير الامين العام للامم المتحدة كوفي أنان (تموز ١٩٩٧): «بسبب هذه العقبات التي فرضتها اسرائيل على نطاق البعثة المقترحة لمبعوثي الخاص، وهي عقبات غير مقبولة لدى الامم المتحدة، فإن من دواعي أسفي انه لم يتسن إيفاد مبعوث خاص إلى اسرائيل والاراضي المحتلة في ظروف تمكنني من الوفاء على نحو مرض تمامًا بالولاية التي اناطتها بي الجمعية العامة (...) فاسرائيل لم تقلع عن بناء مستوطنة هار حوما، وانها عززت نشاط الاستيطان في كامل انحاء الاراضي المحتلة؛ والدعم الخارجي للمستوطنات ولهياكلها تواصل بما في ذلك عن طريق الدعم الخاص من شركات اجنبية وافراد اجانب لا سيما في الولايات المتحدة (...) وحادثة مستوطنة ابو غنيم جد خطيرة من حيث عزل القدس عن بقية الضفة الغربية، واعتبارها جزءًا من السياسة المعلنة للحكومة الاسرائيلية المتمثلة في الادماج التام للقدس الشرقية (بوصفها) جزءًا من العاصمة الابدية الموحدة لدولة اسرائيل». وعرض أنان في تقريره الآثار السياسية والديمغرافية والاقتصادية المترتبة على إنشاء هذه المستوطنة، وتخوف من ان يؤدي رفض الحكومة الاسرائيلية الاقلاع عنها إلى انهيار عملية السلام والمزيد من الاضطراب في الاراضي المحتلة.

معالم تاريخية

□ **«الارهاب» (مناقشة)**: (نورد هذا الموضوع في مادة «الشرق الاوسط» لسبب وجيه ومنهجي وهو انه مرتبط-أو أريد له ان يكون مرتبطًا- بجملة أحداث في بلدان الشرق الاوسط بما لا يُقاس ببلدان المناطق الأخرى في العالم. ومن المنطقي وضع موضوع الارهاب في خانة «المناقشة» لحداثته في القاموس السياسي من جهة، ولكثرة الجدل الدائر حوله الذي يعكسه كمّ هائل من الكتابات والدراسات من جهة ثانية. من بينها اخترنا إيراد ما كتبه عبد الحسين شعبان-كاتب حقوقي عراقي-ونشرته «الحياة» في العدد ١٢١٣٣، تاريخ ١٥ ايار ١٩٩٦، ص ١٨):

أصبحت كلمة «الارهاب» مألوفة أكثر من أي وقت مضى وكثيرة التداول في الادب السياسي وفي وسائل الاعلام وبخاصة على المستوى الدولي. وعلى رغم انها دخلت القاموس السياسي بشيء من الجعجعة واستخدمت على نطاق واسع إلا انها أثارت جدلاً ونقاشًا طويلاً، نظرًا لما اكتنف الارهاب من غموض وما اعتوره من مقاصد واغراض وما ترتب عليه من اختلاف وتضاد حد التناقض، وذلك طبقًا للتفسيرات المتباينة لأسبابه وبواعثه وأهدافه وانطلاقًا من الاتجاه السياسي والمنطق الايديولوجي.

ومنذ ان شاعت كلمة الارهاب أريد لها ان تلتصق بالمنطقة العربية، الأمر الذي يستوجب الوقوف عند هذه الظاهرة لتحليل جذورها، خصوصًا وان مؤتمر قمة شرم الشيخ (راجع «قمة شرم الشيخ» في هذا الباب «معالم تاريخية») عكس التناقض في استخدام مفهوم الارهاب الذي اصبح أكثر شيوعًا سواء كان إرهابًا فرديًا أو جماعيًا (جماعة منظمة) أو دوليًا (حكومة، جيش، غزو) وسواء اتخذ شكل عمليات اغتيال أو خطف أو احتجاز أو تفجير (شخصي أو جماعي) أو اقترن بابتزاز سياسي أو قوة عسكرية أو حصار اقتصادي أو غيرها.

استخدم موضوع «الارهاب» و«الارهاب الدولي» كجزء من الصراع الايديولوجي خلال فترة الحرب الباردة وبخاصة في السبعينات. وحسب السيناريو الاميركي، اعتبرت كلير ستерلينغ في كتابها «شبكة الارهاب» ان الحركات الارهابية في العالم كلها متصلة ببيروت، والعاصمة اللبنانية نفسها متصلة بموسكو. وهو ما ذكره شارون في العام ١٩٨٣.

وبحث مؤتمرا معهد جاناثان المنعقدان في تموز ١٩٧٩ وحزيران ١٩٨٤، في القدس وواشنطن، وخصّصا للارهاب الدولي، الوسائل اللازمة لاستخدام الارهاب الدولي ضد «الارهاب الدولي» الأحمر والأسود.

واللافت هو حضور كبار الساسة والايديولوجيين هذين المؤتمرين بينهم الدكتور هنري كيسنجر وهنري جاكسون وروبرت موسى، والأخير رئيس تحرير «الايكونوميست» البريطانية وهو مؤلف كتاب «كتلة الجليد» بالتعاون مع أرنودي بوتيشغرين وبراين كرويزر موسس ومدير المعهد الخاص بدراسة النزاعات الدولية في لندن. وكتاب «كتلة الجليد» هو رواية وثائقية شبيهة برواية «انهيار العام ٧٩» لمؤلفها بول ايردمان والمنشور في نهاية العام ١٩٧٦، إذ أوحت تلك الرواية بطريقة تنبوية باندلاع الحرب العراقية-الايرانية التي اندلعت فعلاً العام ١٩٨٠.

ووفقًا للمنظور الغربي-الاسرائيلي، فإن، مصدر الارهاب واحد، وهو الذي يقف وراء كل المنظمات الارهابية، ابتداءً من منظمة فدائيي المدن (الالمانية) ومرورًا بمنظمة بايدر ماينهوف (الالمانية ايضًا) ومنظمة الالوية الحمراء (الايطالية) والجيش الاحمر (الياباني) والجيش الارمني السري والجيش الجمهوري الايرلندي وانتهاءً بمنظمة التحرير

الفلسطينية (مصدر الشر الرئيسي في الشرق الاوسط) حتى جاءت «الموجة الاسلامية المتطرفة».

وإذا كانت الولايات المتحدة تعتبر «الشيوعية الدولية» مركز الارهاب في العالم، فإن معركتها الايديولوجية، بعد انهيار «المنظومة الاشتراكية» وتفكك الاتحاد السوفياتي قد انتقلت إلى الاسلام السياسي وبتحديد أضيق لما اطلقت عليه «الاصولية الاسلامية». لذلك فإن أول ما يشار إلى الارهاب حاليًا يقفز إلى الذهن «المنطقة العربية-الاسلامية» والمسلمون عمومًا بمن فيهم من هم خارج المنطقة، حيث يشار باصبع الاتهام إليهم عند حدوث أي تفجير أو عمل ارهابي أو اغتيال. فهم «مصدر الشر» والخارجون على القانون ويحملون فايروس الارهاب دولاً وحركات وافرادًا، ضد قيم «العالم الحر» و«الحضارة الانسانية». وهكذا يتم النظر إلى عمليات المقاومة للتخلص من الاحتلال الاسرائيلي باعتبارها جزءًا من «الارهاب الدولي». أما اجتياح لبنان فإنه دفاع عن النفس من أجل «سلامة الجليل»، وبالمقابل فإن مقاومة الغزو ليست سوى ارهاب وعنف طائش يضر بالسكان العزل ويلحق الأذى بهم، إذ إن سقوط جندي اسرائيلي يستحق عقوبة جماعية ونسف للمنازل وابعاد السكان. بل إن الانتفاضة الفلسطينية اعتبرت ارهابًا في حين انها جسدت الوطنية الفلسطينية واستهدفت التعبير عن ارادة المقاومة ضد الاحتلال، وفقًا للكفاح المشروع الذي يقره ميثاق الامم المتحدة وقرارات جمعيتها العامة وقواعد القانون الدولي المعاصر. فقد اتخذت الامم المتحدة قرارًا برقم ٣٠٣٤ في ١٨ كانون الاول ١٩٧٢ فرّقت فيه بين الاعمال الارهابية والنضال العادل والمشروع للشعوب. وجاء في القرار ان الجمعية العامة «تؤكد من جديد الحق الراسخ لجميع الشعوب التي لا تزال رازحة تحت نير الانظمة الاستعمارية أو العنصرية والاشكال الاخرى للسيطرة الاجنبية في تقرير المصير والاستقلال. وتؤيد الطابع الشرعي لنضالها، وعلى الأخص النضال الذي تقوده حركات التحرر الوطني».

وصوتت الولايات المتحدة التي تتبنى اليوم شعار «مكافحة الارهاب» ضد هذا القرار الذي يفرق بين الارهاب والمقاومة. كما صوتت ضد الاعلان الخاص بعدم جواز غزو الاراضي والتدخل في الشؤون الداخلية الذي اتخذته الجمعية العامة في ٩ كانون الاول ١٩٨١ طبقًا للقرار ١٠٣ (الدورة الثلاثون) الذي حاز على تأييد ١٢٠ دولة. ويؤكد هذا القرار على «الامتناع عن اللجوء إلى ممارسة الارهاب كسياسة لدول ضد الدول الاخرى أو ضد شعوب ترزح تحت السيطرة الاستعمارية أو الاحتلال الاجنبي أو تحت نير أنظمة عنصرية وعدم السماح بمنح أية مساعدة أو استخدام أو إبداء التساهل حيال جماعات ارهابية أو مخربين أو اشخاص يقومون بنشاط هدام ضد دولة ثالثة». ولم تعارض سوى واشنطن وتل أبيب القرار الذي صدر عن الدورة الـ٤٢ للامم المتحدة في ايلول ١٩٨٧ الذي يدين اعمال الارهاب الدولي التي تشكل خطرًا على السلام والامن والعلاقات الودية بين الدول. كما حالت دون اصدار قرار يدين عدوان اسرائيل وعناقيد غضبها التي انهالت على رؤوس الشعب اللبناني (نيسان ١٩٩٦).

ماهيّة الارهاب: طرحت قمة شرم الشيخ إشكالية تعريف ماهية الارهاب التي كانت مطروحة قبل ذلك بزمن طويل. فمنذ العام ١٩٣٧ وقف بعض الدول ضد أي اتفاقية تقضي بادانة الارهاب. كما لم تتوصل عصبة الامم، وفي ما بعد الامم المتحدة، إلى توافق بخصوص مفهوم الارهاب. كما لم تدخل اتفاقية جنيف التي وقعتها ٢٤ دولة لـ«منع الارهاب» حيّز التنفيذ، فقد نصت على ضرورة احترام كل دولة مبادىء

القانون الدولي والتعهد بمنع أي نشاط إرهابي ضد دولة أخرى، كما تعهدت الدول الموقعة على الاتفاقية بانزال العقوبة بالذين يقومون بممارسة النشاط الارهابي.

وإذا كان تعريف العدوان قد مر بدورة مشابهة منذ ان طرحت القضية في العام ١٩٣٣ على بجلس العصبة وفي ما بعد عند مناقشة ميثاق الامم المتحدة كذلك في العديد من المؤتمرات الدولية، خصوصًا عام ١٩٥٣، إلا ان الامم المتحدة توصلت إلى اتفاق محدد لتعريف ماهية العدوان في ١٤ كانون الاول ١٩٧٤ حين صدر القرار ٣٣١٤ في الدورة التاسعة والعشرين ونص في مادته الاولى: «إن العدوان هو استخدام القوة المسلحة من جانب دولة ضد سيادة دولة أخرى وحرمة اراضيها واستقلالها السياسي أو بأي شكل آخر يتنافى وميثاق الامم المتحدة». وقد فرق التعريف المذكور بين «ارهاب الدولة» وبين حق الشعوب في «المقاومة».

إن الارهاب هو جميع الاعمال العدوانية التي تستخدم العنف وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية وتلحق ضررًا وأذى بالغين بالسكان المدنيين، سواء كانت اعمال فردية كالاغتيال والخطف والاحتجاز وأخذ الرهائن والقرصنة الجوية أو غيرها، أو ارهابًا تقوم به جماعات بصفة مرتزقة أو مأجورون أو منظمات بهدف إحداث رعب للسكان المدنيين وتعريض حياتهم للخطر، أو الارهاب الذي تقوم به الدول أو الحكومات كالغزو والاحتلال ومصادرة الاراضي والمساس بالسيادة وحق تقرير المصير وغيرها. وقد حددت اتفاقات جنيف الاربعة الصادرة في ١٢ آب ١٩٤٩ والبروتوكولان الصادران عن المؤتمر الدبلوماسي في جنيف ١٩٧٤-١٩٧٧ حول ضحايا المنازعات الدولية المسلحة والمنازعات المسلحة غير الدولية، القواعد الواجب اتباعها إزاء السكان المدنيين، سواء عند الحرب أو السلم وفي المنازعات الدولية وغير الدولية المسلحة التي يعتبر التجاوز عليها «ارهابًا» يلحق الضرر بضحايا خارج دائرة العمليات العسكرية أو الحربية. وتعتبر عمليات «عناقيد الغضب» بمثابة حرب ضد المدنيين حيث تم قصف البنى التحتية كمحطات الكهرباء والطرق والجسور وهي حرب مكشوفة تحول بطلها شمعون بيريز «مهندس السلام» إلى صقر كبير.

وإذا كانت قمة شرم الشيخ استهدفت انقاذ عملية السلام ووضع حد لعمليات الارهاب كما هو معلن، فإن الخطوة الاولى والحقيقية للقضاء على الارهاب هو تحقيق السلام وإزالة العقبات التي تعترض طريقه خصوصًا بحل الاشكالات العالقة، وليس بدمغ الحكومة والاسلام السياسي بالارهاب والتطرف والاصولية. وإذا كانت الصفة الارهابية والمتطرفة والاصولية هي حصيلة فكر ونهج بعض الجماعات في البلدان العربية والاسلامية، فهي لا تقتصر عليها وحدها، بل هي موجودة في المنطقة وخارجها. والتطرف والعنف ليسا سمة لصيقة بالعالم العربي والاسلامي، بل هما موجودان في العديد من الحركات والتيارات الدينية والقومية سواء كانت يهودية أم مسيحية أو غيرها. كما انهما يبرزان في اسرائيل على نحو صارخ وسافر ليس عبر فكر وممارسات جماعات مثل منظمة أرغون وشتيرن والهاغان وحركة كاخ وغوش أمونيم وعين كارم والمنظمة السرية اليهودية وغيرها، ولكن من خلال ممارسات الدولة ذاتها، سواء باتباع سياسة قهر قومي وتمييز عنصري وديني بحق سكان الاراضي العربية المحتلة، إضافة إلى حروبها العدوانية فضلاً عن عشرات المذابح التي ارتكبتها في دير ياسين أو قبية أو كفر قاسم أو مدرسة بحر البقر أو معمل أبو زعبل أو خلال احتلال لبنان ومحاصرة العاصمة بيروت أو بمجزرة قانا وجريمة النبطية أو بممارسة الاعمال الارهابية في جنوبي لبنان بما فيها اختطاف

المواطنين، ومحاولة طمس الهوية العربية لسكان الجولان وغيرها.

وطالما استمر ارهاب الاقوياء فسيكون من المتعذر استئصال «ارهاب الضعفاء» في حين تستمر حقوقهم مهدورة. وستبقى غيوم الشك تلبد سماء السلام، إذ لا يمكن وضع الصقور والحمائم في قارب واحد والابحار بهم وفقاً لقانون القوة وليس لقانون الحق.

□ **«السوق الشرق أوسطية»، مشروعًا اسرائيليًا وأميركيًا وبنكًا دوليًا:** الفكرة تعود إلى تيودور هرتزل وحلمه في إنشاء «كومنولث شرق أوسطي». ومع بدء المسار العالمي الجديد (بعد انتهاء الحرب الباردة) ذي اللغة الاقتصادية الطاغية المتمحورة حول السوق الحرة والتكتلات الاقتصادية الاقليمية والعالمية، قدّم المفوض الاوروبي ماتيوس، في شباط ١٩٩١، إلى المجلس الاوروبي مشروعًا بعنوان «الأمن والتعاون في الشرق الاوسط والمتوسط» يتحدث عن إنشاء نظام شرق أوسطي-متوسطي كإطار جديد لتنظيم التفاعلات الاقتصادية والسياسية لما سمّي بـ«الفضاء الاقتصادي المتوسطي».

بعد ذلك، برز شيمون بيريز أكثر المتكلمين المتحمسين لمشروع السوق الشرق أوسطية. وقدمت افكارًا وتصورات كثيرة، لكن جميعها تقريبًا تنهل من أساس واحد، هو مشروع يعقوب ميريدور الذي وضعه في اواخر ١٩٧٧، أي بعد زيارة الرئيس المصري أنور السادات القدس. وميريدور هو أحد مؤسسي حركة «حيروت» الصهيونية، ووزير الاقتصاد في حكومة مناحيم بيغن ومالك لأحد أكبر أساطيل النقل في العالم. وقد أطلقت صحيفة «معاريف» الاسرائيلية على مشروعه إسم «مشروع مارشال موسع للشرق الاوسط»، ويتضمن النقاط الأساسية التالية:

- يكفل هذا المشروع السلام الدائم في المنطقة.

يشتمل على صندوق مالي ويكون لكل دولة توقع اتفاق السلام في الشرق الاوسط الحق في الاستفادة منه.

- ينصرف الصندوق إلى تمويل مشاريع اقتصادية وعلمية وثقافية.

- تقدم الولايات المتحدة ثلث المبلغ المطلوب، وتقدم المجموعة الاوروبية الثلث الثاني، وكندا واوستراليا والدول الاسكندينافية الثلث الأخير (يستبعد المشروع مساهمة اليابان والدول العربية النفطية رغم انه يفصح عن خطة لتوطين الفلسطينيين في الدول المضيفة).

- المشروع كفيل بدفع الاقتصاد العالمي إلى تحقيق نمو ٤٪ سنويًا (والقضاء على مشكلة البطالة في اوروبا).

يكون الاشتراك في الصندوق طبقًا لعدد السكان والحاجة.

استحاب بعض الاوساط الاميركية لمشروع ميريدور. وتقدم فرانك تشيرش عضو مجلس الشيوخ الاميركي في ١٢ تشرين الاول ١٩٨٧ (أي بعد عشر سنوات من مشروع ميريدور) باقتراح إلى لجنة الخارجية والأمن لتبني مشروع اقتصادي-إنمائي يشمل اسرائيل وجاراتها العربيات. وجاء في ديباجة الاقتراح: «على رئيس الولايات المتحدة ان يبادر إلى دعوة مصر واسرائيل إلى مباحثات مع حكومتنا ومع حكومات دول صناعية غربية أخرى تتعلق بامكانات بلورة مشروع مارشال جديد للشرق الاوسط يؤدي إلى تعاون اقتصادي كامل بين الشعبين الاسرائيلي والمصري وجميع المقيمين في الشرق الاوسط المستعدين للعيش بسلام... وتقوم الولايات المتحدة ودول صناعية أخرى بمهمة اساسية في بلورة هذا المشروع الذي سيكون شبيهًا بالمشروع الذي بلوره جورج مارشال وأدّى إلى إعادة بناء اوروبا اقتصاديًا بعد ان دمرتها الحرب العالمية الثانية».

والبنك الدولي، أحد أبرز الدارسين ومقدمي مشاريع «التداخل والاندماج الاقتصادي في الشرق الاوسط، كان في اواخر ١٩٩٤، نشر تقريرًا في شأن التنمية الاقتصادية والتعاون الاقليمي تضمن ١٨ مشروعًا يمكن ان تساهم في زيادة الاندماج الاقتصادي عبر الحدود إذا تمّ التوصل إلى السلام، بينها دراسة لستة مشاريع تتصل في صورة مباشرة بمسيرة السلام في الشرق الاوسط، منها ثلاثة «ستعجل في عملية اندماج اسرائيل والاراضي الفلسطينية المحتلة والاردن، بينما ستؤدي المشاريع الثلاثة الباقية إلى تسهيل اندماج اقتصاديات المغرب العربي» (طرق وممرات وجسور وشبكة كهرباء تربط بين اسرائيل والدول العربية المجاورة، خط أنابيب لنقل الغاز بين بلدان المغرب العربي واوروبا، استكمال شبكة طرق دول المغرب العربي التي تربط عواصم ومدن المغرب والجزائر وتونس وليبيا وموريتانيا).

هكذا راحت فكرة «التعاون الاقليمي» (و«السوق الشرق أوسطية») تنمو من هرتزل إلى ميريدور، إلى تشيرش، إلى بيريز، إلى خبراء البنك الدولي وغيرهم العديدين، وعلى رأس المتحمسين الاسرائيليين والاميركيين. كما راحت كل الدراسات والمشاريع بصددها تنطلق من فكرة سياسية واستراتيجية اساسية من ان تحقيق «السلام» (بالنسبة إلى الاسرائيليين والغربيين عمومًا) و«السلام العادل» (بالنسبة إلى العرب) في منطقة الشرق الاوسط سيجعل منها منطقة جذب لرؤوس الاموال ا لاجنبية التي احتجبت عنها في الفترة الماضية بسبب الحرب.

□ **قمة شرم الشيخ، «المؤتمر الدولي لصانعي السلام»:** شرم الشيخ منتجع مصري على خليج العقبة، منه اندلعت حرب ١٩٦٧ بين العرب واسرائيل بعدما اعلنت مصر تقييدها الملاحة في خليج العقبة، واتخذت قرارًا بسحب القوات الدولية التي كانت متمركزة في سيناء ومن ضمنها منطقة شرم الشيخ لمواجهة تهديدات اسرائيلية وجهها رئيس الوزراء الاسرائيلي ليفي أشكول لسورية وتضمنت التلويح بالتقدم لاحتلال دمشق وإسقاط الحكم القائم فيها (راجع «حوض

قمة شرم الشيخ: في الوسط رئيس الدولة المضيفة (مصر) حسني مبارك، الى يمينه رئيس الولايات المتحدة الاميركية كلينتون، والى يساره الرئيس الروسي يلتسن.

البحر الأحمر»، ج٨، ص٥٩).

في ١٣ آذار ١٩٩٦، انعقد في شرم الشيخ مؤتمر دولي حضره ٢٩ رئيس دولة (أبرزهم)، إلى جانب رئيس مصر المضيفة حسني مبارك، الرئيس الاميركي بيل كلينتون، ورئيس الوزراء الاسرائيلي شيمون بيريز، ورئيس السلطة الفلسطينية ياسر عرفات، ورئيس تركيا سليمان ديميريل، ورئيس روسيا الاتحادية بوريس يلتسن، ورئيس فرنسا جاك شيراك، والمستشار الالماني هيلموت كول، ورئيس الوزراء البريطاني جون ميجور، والملك المغربي الحسن الثاني، والامير سعود الفيصل ممثلاً الملك السعودي فهد بن عبد العزيز... ودعيت سورية لحضور المؤتمر لكنها غابت) عقب تفجيرات أربعة حدثت داخل اسرائيل، إثنان منها في القدس والآخران في كل من عسقلان وتل أبيب، أوقعت حوالي ٦٠ قتيلاً وأكثر من ١٥٠ جريحًا مستخدمة «قنابل بشرية» يفخخ بها الافراد انفسهم بأحزمة مفرقعات.واهتزت لها اسرائيل واجتاحها الهلع ووضعت الساسة الاسرائيليين في مأزق حقيقي، فقطعوا المفاوضات الجارية على كل الجبهات، واقفلوا قطاع غزة واراضي الحكم الذاتي الفلسطيني.

كان الفاصل بين توجيه الدعوة لقمة شرم الشيخ وقبولها وانعقاد المؤتمر لا يتعدى ايامًا ثلاثة. وهذا تجاوب غير مسبوق في تاريخ العلاقات الدولية. كما ان اجتماعاته ومشاوراته لم تستغرق أكثر من خمس ساعات صدر في نهايتها بيان، في ما يلي نصه الرسمي العربي الصادر عن «الرئاسة المشتركة لقمة صانعي السلام»:

«اختتمت قمة صانعي السلام أعمالها. وقد عقد هذا الاجتماع في الوقت الذي تواجه فيه عملية السلام تهديدات خطيرة، وكان للقمة ثلاثة أهداف اساسية: تعزيز السلام، دعم الامن، محاربة الارهاب. وعليه، فإن المشاركين يعربون عن دعمهم الكامل لعملية السلام في الشرق الاوسط وعزمهم على ان تستمر هذه العملية من اجل تحقيق سلام عادل ودائم وشامل في المنطقة. ويؤكدون عزمهم على تعزيز الامن والاستقرار ومنع أعداء السلام من تحقيق هدفهم الاول وهو تدمير الفرص الحقيقية للسلام في الشرق الاوسط.

ويؤكدون إدانتهم الشديدة لكل اعمال الارهاب بكل اشكالها النكراء مهما كانت دوافعها وأيًا كان مرتكبوها بما في ذلك الهجمات الارهابية الأخيرة في اسرائيل،ويعتبرونها دخيلة على القيم الاخلاقية والروحية لكل شعوب المنطقة. ويعيدون تأكيد عزمهم على الوقوف بكل حزم ضد هذه الاعمال، ويحثون كل الحكومات على الانضمام لهم في هذه الادانة وهذه الوقفة إزاء تلك الاعمال الارهابية.

ولتحقيق هذه الاهداف قررنا:

– دعم الاتفاقات الاسرائيلية–الفلسطينية واستمرار عملية المفاوضات وتدعيمها سياسيًا واقتصاديًا وتعزيز الوضع الامني للطرفين مع إيلاء اهتمام خاص للحاجات الاقتصادية القائمة والحالية للفلسطينيين.

– دعم استمرار عملية المفاوضات من اجل تحقيق تسوية شاملة.

– العمل سويًا لتعزيز الامن والاستقرار في المنطقة بتطوير إجراءات فعالة وعملية للتعاون ومزيد من المساعدات.

– دعم وتنسيق الجهود من اجل وقف اعمال الارهاب على المستويات الثنائية والاقليمية والدولية لضمان مثول مرتكبي هذه الاعمال امام العدالة ومساندة جهود كل الاطراف للحيلولة دون استغلال اراضيهم للاغراض الارهابية، ومنع المنظمات الارهابية من ضم أعضاء إلى صفوفها وتدبير السلاح والحصول على التمويل.

– بذل أقصى الجهد لتحديد مصادر تمويل هذه الجماعات والتعاون في وقف ضخها، وتوفير التدريب والمعدات وأشكال الدعم الأخرى

للاطراف التي تتخذ خطوات ضد الجماعات التي تستخدم العنف والارهاب لتهديد السلام والامن والاستقرار.

– تشكيل مجموعة عمل مفتوحة لكل المشاركين في القمة لاعداد توصيات حول أفضل الاساليب لتنفيذ فقرات هذا البيان من خلال الجهود القائمة وتقديم تقرير للمشاركين في خلال ثلاثين يومًا» (انتهى بيان القمة).

وانصبت الآراء حول أغراض المؤتمر على: إنقاذ عملية السلام بعدما أوشكت على الدخول في النفق المظلم وما في ذلك من تأثير على الاستقرار المنشود في منطقة تزخر بالمصالح الاميركية، وإنقاذ اسرائيل بعد تفجير الموقف الداخلي وسيادة حالة من الذعر نتيجة للاعمال الاستشهادية (الموصوفة بالارهابية) الفلسطينية–العربية–الاسلامية وخشية استفحالها، وتشكيل جبهة عالية لمقاومة الارهاب (راجع «الارهاب» في هذا الباب «معالم تاريخية»).

الجدير ذكره انه بعد أقل من شهر واحد من «قمة شرم الشيخ» بدأت عملية «عناقيد الغضب» الاسرائيلية ضد لبنان التي دامت ١٦ يومًا (خلالها ارتكب الاسرائيليون «مجزرة قانا»، راجع «لبنان» في جزء لاحق من الموسوعة)، واعتبرت إحدىٰ ابرز الظواهر التي أعقبت القمة، والتي بدا معها ان اسرائيل التي حاولت تصويب الانظار صوب حركة «حماس» و«الجهاد» و«حزب الله» والحصول على «مباركة دولية» حول ما سمي بـ«مكافحة الارهاب» خصوصًا بعد تصاعد عمليات المقاومة والعنف في الجنوب اللبناني والشريط المحتل وفي الاراضي الفلسطينية المحتلة، كانت تستعد لمواصلة «عملياتها هي في ضرب الارهاب» مستندة إلى نتائج قمة شرم الشيخ بتوظيفها لصالحها.

☐ **مسيحيو الشرق الاوسط:** من أكثر الموضوعات الشرق أوسطية طرحًا ونقاشًا. أهم الاعمال الصادرة بشأنه حتى الآن، كتاب ضخم (٩٧٥ صفحة من الحجم الكبير) بالفرنسية، مؤلفه دبلوماسي فرنسي إسمه جان–بيار فالونيه، وعنوانه: «حياة وموت مسيحيي الشرق» J.P. Valognes, «VIE ET MORT DES CHRETIENS D'ORIENT», ed. Fayard, Paris, 1994.

يبدي المؤلف تشاؤمًا حول مصير مسيحيي الشرق، في المقدمة (وفي تفاصيل نقاط كثيرة): «هل يأخذ الاستئصال النهائي للمسيحيين شكل المأساة الاضافية؟ ان الكثير من السوابق المؤلمة لا تسمح باستبعاد هذه الامكانية. لكن الارجح انهم سيختنقون من دون ضجة عبر نزيف صامت لا مجال لايقافه. فمن خريجي الجامعات الذين يتابعون علومهم في الخارج إلى مزارعي الاناضول الذين يهاجرون جماعيًا إلى اوروبا أو أوستراليا، هنالك تعبير واحد: رفض المجتمع المسيحي الشرقي في جميع مكوناته حياة الخمول والظلم والضياع اللاحقة بالاقليات الدينية في ارض الاسلام. فالعالم الذي ولدوا فيه لا يرذلهم بل يحرمهم من امكانية التفتح والازدهار. أليس هذا سببًا كافيًا للرحيل، خصوصًا انهم قادرون على الاندماج بسهولة في اماكن أخرى؟».

حالةالتراجع «المؤدية إلى الزوال» ليست اسبابها كلها موضوعية متصلة بالاكثرية المسلمة. فثمة اسباب ذاتية متصلة بما تعانيه «الكنائس في الشرق الاوسط من تخلف كبير لجهة مواكبة المشاكل العصرية التي تواجه رعيتها وهي في غالبيتها في مرحلة ما قبل المجمع الفاتيكاني الثاني بكثير، حتى الكاثوليكية منها. فلا تجديد ليتورجي ولا إعداد للكهنة ولا أجوبة حول اسئلة الشباب الذين لا يتوقعون منها إلا خدمات الزواج والدفن... وهي منطوية في أغلب الحالات على تقاليدها الظاهرية وعلى تراتبية هرمة ومحافظة...».

وفي مواضيع أخرى، يشير المؤلف إلى نقاط

«تفاؤلية» تدلل على امكانية الاندماج والثبات والدور. فيعدد مجموعة من العناصر، أولها «إمكان المسيحيين الشرقيين الادعاء بأن وجودهم سابق للاسلام»، وأنهم «استمروا في المشرق بدون انقطاع»، كما أنهم «أكدوا باكرًا جدًّا خصوصيتهم الثقافية السامية تجاه نمط التفكير الهيلليني وتمسكهم بتقاليد سريانية وقبطية في مواجهة الامبريالية السياسية والدينية لبيزنطية»، كذلك فإنهم يختلفون عن الغربيين اليوم ويشكلون «فرعًا من فروع الثقافة العربية-الاسلامية يتكلمون لغتها ويعيشون قيمها الآتية من ماض قبلي لم تغير فيه المسيحية ولا الاسلام. ويتلاقى أتباع الديانتين في موقف شبه واحد من الوجود، لجهة تداخل الديني بالدنيوي. وللمسيحيين دور إيجابي أدّى، ويمكن ان يؤدي، خدمات كبيرة للعالم العربي-الاسلامي ألا وهو قدرتهم على التكيف مع الحداثة».

ماذا، بإيجاز، عن أهم محاور الكتاب، المعتبر أهم مرجع، حتى الآن، عن مسيحيي الشرق الاوسط تاريخًا وواقعًا؟

يفصّل الكتاب في ظهور المسيحيين في الشرق الاوسط بدءًا من ولادة المسيحية «في احضان اليهودية»، ثم انفصالها عنها وخروجها من فلسطين نحو سورية وآسيا الصغرى حيث تلتقي بالآرامية والاغريقية، لتصل بعد هذا اللقاء إلى اوروبا. ففي القرن الثالث أصبحت أجزاء مهمة من مصر وفلسطين وسورية وآسيا الصغرى وبلاد الرافدين مسيحية. واعتنق الارمن في نهاية القرن ذاته (الثالث) الدين الجديد، ثم حذت شعوب القوقاز حذوهم. وحين غدت المسيحية دين الامبراطورية الرومانية بدأت الانشقاقات والانقسامات تتوسع في داخلها، فكان أولها انفصال الكنيسة الغربية عن الشرقية متأثرة بافكار القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠) الذي يعتبر أب المسيحية اللاتينية.

من المحاور التاريخية ايضًا: دور المسيحيين (الذي يكاد ينحصر فيهم) في نقل التراث الثقافي القديم، وخبرتهم الادارية وفنهم المعماري، الذين أغنوا فيه العالم الاسلامي خلال قرون عدة، حتى كانت النهضة الثقافية فكانوا في أساسها مدافعين عن التفكير العلماني والتعايش الايجابي بين الاديان و«ما انضمام بعضهم إلى صفوف الاحزاب القومية العلمانية إلا نتيجة منطقية لايمانهم بامكان تحقيق هذه الغاية».

وفي المحور الذي يسميه المؤلف «التحديات» يأتي «الانحسار الديمغرافي» لمسيحيي الشرق الأكثر سخونة لمدلولاته الحسية عن تناقصهم التدريجي المتسارع والمؤدي إلى الزوال في ما لو استمر.

انتشرت المسيحية في منطقة الاناضول بسرعة. فالرسول بولس ارتحل إليها في اعوام ٤٥ و٥٢ و٥٧ لنشر دعوة الانجيل. وعلى رغم المعارضة القوية التي لاقاها بالاخص من السكان المتأثرين باليهودية، فإن جهوده ما لبثت ان أعطت ثمارها، وبالتحديد بعد سقوط القدس (أورشليم) في عام ٧٠ في يد القائد الروماني. ولم يكن القرن الرابع قد انتهى بعد حتى كان معظم مناطق آسيا الصغرى معتنقًا الدين المسيحي وتابعًا لبطريرك القسطنطينية.

ومع اندحار البيزنطيين امام السلجوقيين، كان هناك، كما يبدو، نوع من الانسجام في العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في آسيا الوسطى. ويذكر ماركو بولو الذي مرّ بها في القرن الثالث عشر ان عدد المسيحيين كان لا يزال أكثر بكثير من عدد السلجوقيين. ويظهر ان الارمن ازدادوا عددًا في تلك الفترة نتيجة هجرة سكان القوقاز واستقرارهم في الاناضول. وكان دخول المسيحيين آنذاك في الاسلام يتم بطريقة تلقائية نوعًا ما ومن دون ضغط مباشر من السلطات الاسلامية هناك، إلا ان نسبة المسيحيين تقلصت وخاصة بعد

الانهيار الكامل للامبراطورية البيزنطية، ولم يعد عددهم يتجاوز ٤٠٠ ألف من مجموع سكان الاناضول البالغ آنذاك ٥ ملايين.

وكانت الاناضول، من بين كل بلدان الامبراطورية العثمانية، تضم أكبر نسبة من المسيحيين. فكان فيها، منذ قرن واحد فقط ما يقرب من أربعة ملايين مسيحي (مليوني ارمني، ومليون ونصف مليون يوناني وحوالي نصف مليون أشوري وكلداني وسرياني)؛ أما في ايامنا فلا يزيد عددهم عن خمسة وعشرين ألفًا، وحتى هذا العدد في تناقص مستمر.

وثمة عامل مهم كان له دور أساسي في مآسي مسيحيي الشرق الاوسط وتناقصهم يجمع عليه المؤرخون ويؤكده الكتاب المذكور، ويتصل بدور الدبلوماسية الاوروبية: «فأوروبا أخذت تتوغل بين مسيحيي الشرق منذ القرن السادس عشر ولم تنقطع عن استغلال مشاعرهم موزعة الوعود هنا والآمال هناك دون العمل على تحقيقها. فخلق ذلك عند سلاطين آل عثمان هاجسًا تحول بمرور الزمن، ومع التدهور المتعاظم في جسم الرجل المريض، إلى سياسة معادية ومدروسة تدفع بالناس وتقودهم بمشاركة الجيش، أو مساندتهم، إلى المجازر ضد المسيحيين» (الموارنة على يد الدروز، الآشوريون على يد الأكراد، الارمن على يد الاتراك).

أما أقباط مصر فيشكلون أكبر المجموعات المسيحية عددًا في بلدان الشرق الاوسط. كان عددهم يتناقص حتى القرن الرابع عشر حيث استقر عند نسبة حوالي ١٠٪ من مجموع السكان. إلا ان هذه النسبة بدأت تقل من جديد للعديد من الاسباب، منها تطور الاصولية الاسلامية.

إلا ان مسيحيي اسرائيل والاراضي المحتلة يبقون الأكثر تعرضًا للمخاطر. ورغم صعوبة تقدير عددهم بشكل واضح فإن تقلصه لا شك فيه. وفي دراسة وضعتها البطريركية اللاتينية ان ٢٢٪ من مسيحيي اسرائيل والاراضي المحتلة ينتظرون فرصة مواتية للرحيل.

في العراق، تراجعت نسبة المسيحيين خلال اربعين سنة من ٦ إلى ٣٪ من السكان؛ وفي الاردن من ٩٪ في العام ١٩٦٧ إلى ٥٪ في ١٩٨٥؛ بينما سقطت هذه النسبة في مدينة القدس من ٥٠٪ في العام ١٩٤٨ إلى ١٠٪ اليوم (١٩٩٤).

إن ثمة هجرة مسيحية مستمرة منذ نحو قرن «لا يحد منها إلا الصعوبات العملية العائدة إلى صعوبة الحصول على التأشيرات». أما نسبة المهاجرين في مختلف الكنائس الشرق اوسطية: ٦٠٪ من الآشوريين الارثوذكس، ٥٠٪ من الارمن والروم الكاثوليك، وما بين ٥٠ و٨٠٪ من الموارنة. أما أدنى نسبة هجرة فهي لدى السريان ٦٪، والاقباط ٥٪.

□ مؤتمرات اقتصادية شرق أوسطية:

اربعة مؤتمرات عقدت جميعها في عواصم عربية (الدار البيضاء، عمان، القاهرة والدوحة). المؤتمران الاولان جاءا على مستوى القمة ووجهت الدعوات فيهما باسم «القمة الاقتصادية»، في حين وجهت الدعوات في المؤتمر الثالث والرابع باسم «المؤتمر الاقتصادي». ذلك ان المؤتمر الثالث (القاهرة، ١٩٩٦) لم يتحمس لحضور نتانياهو الذي كان ينتقد بعنف المنتديات الاقتصادية للشرق الاوسط وشمالي افريقيا، معتبرًا ان اندماج اسرائيل في الجسم الاقتصادي العربي سيضعف مركزها التجاري ويعيق تطورها الصناعي؛ على عكس ما كان عليه الامر في اسرائيل في عهد رابين، وبعده بيريز الذي هندس مشروع التعاون الاقليمي وسوّقه في قمة الدار البيضاء (١٩٩٤). فخرجت في هذه القمة فكرة التعاون الاقليمي والشرق أوسطية إلى حيّز الوجود، كما خرج من قمة عمّان (١٩٩٥) بنك التنمية.

وكرد على تصلب نتانياهو، تراجع العرب بدورهم عما كانوا قد حققوه من خطوات سابقة باتجاه «الشرق أوسطية» في قمتيها الاولى والثانية (الدار البيضاء وعمان)؛ فلم يخرج مؤتمر القاهرة بشيء، ولم يتم البت في أهم آليات التعاون الاقليمي الثلاث، وهي: المجلس الاقليمي للاعمال ومنظمة السياحة الاقليمية (ممتا)، علاوة على البنك المجمّد اصلاً بسبب عدم دفع الولايات المتحدة حصتها في رأس المال.

وإزاء هذين التراجعين، الاسرائيلي والعربي، قررت واشنطن مضاعفة تدخلها مع الدول المعنية. فاستقبل الرئيس الاميركي أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني وأعرب عن تشجيعه لكل خطوة تقوم بها قطر لعقد قمة الدوحة الاقتصادية ولمقاومة حملات إلغائها أو تأجيلها. وكذلك اعتبرت وزيرة الخارجية الاميركية، مادلين أولبرايت، خلال زيارتها المنطقة قبل ايام من انعقاد مؤتمر الدوحة ان هذا المؤتمر هو أبرز أولويات التحرك الاميركي.

وفي ١٦-١٨ تشرين الثاني ١٩٩٧، عقد مؤتمر الدوحة (في قطر)، وهو المؤتمر الاقتصادي الرابع للشرق الاوسط وشمالي افريقيا، واتخذ له شعار: «خلق مشاركة جديدة للقطاع الخاص والعام لنمو التجارة والاقتصاد ما بعد عام ٢٠٠٠»، وحضرته ٩ دول عربية فقط، وأكبر الوفود الرسمية المشاركة كانت من الاميركيين والاسرائيليين والروس والاردنيين والالمان واليابانيين والبريطانيين والهولنديين، كما حضرته ٩٥٠ مؤسسة دولية.

وقبل انعقاد مؤتمر الدوحة بنحو ستة أشهر (ربيع ١٩٩٧)، أي مع الاعلان عن فشل مفاوضات السلام على جميع المسارات، ظهرت في صحف بيروت ودمشق والقاهرة حملة عنيفة تطالب قطر بضرورة إلغاء القمة الاقتصادية، أو الاتفاق على تأجيلها احتجاجًا على إجهاض عملية السلام من قبل نتانياهو. وبرزت سورية أكثر الدول العربية معارضة للمؤتمر (وسورية ولبنان لم يحضرا المؤتمرات الثلاثة السابقة)، وغابت كذلك مصر والعربية السعودية. والمفاجأة كانت في غياب المغرب الذي أعرب عن يأسه من مساعي التسوية مع رئيس وزراء اسرائيلي (نتانياهو) يرفض أي سلام مع العرب. فكان لقرار الملك المغربي الحسن الثاني وقع الصدمة في واشنطن وتل أبيب لأنه يعتبر المشجع الاول للسلام العربي-الاسرائيلي في المنطقة، ولأن المؤتمر الاقتصادي الاول عقد في بلاده كمظهر من مظاهر الامتنان والشكر لدوره.

وجاء «إعلان الدوحة»، في ختام المؤتمر، متضمنًا النقاط الاساسية التالية:

– تحقيق سلام «عادل ودائم في الشرق الاوسط على اساس صيغة مدريد المتمثلة في مبدأ الارض مقابل السلام، والقرارين ٢٤٢ و٣٣٨» (جوبهت بمعارضة الوفد الاسرائيلي).

– التصميم على دعم الاتفاقات التي تمّ التوصل إليها بين الفلسطينيين والاسرائيليين، وأهمية تنفيذها بدقة وسرعة من قبل كل الاطراف؛ و«خلق كل الظروف الضرورية كي ينعم كل الاطراف بالسلام والازدهار والامن من اجل تعزيز الأداء الاقتصادي للمنطقة برمتها».

– التزام المشاركين عقد المؤتمر الاقتصادي الخامس العام المقبل (١٩٩٨) على ان يعلن مكانه خلال الاجتماع السنوي للمنتدى الاقتصادي العالمي في دافوس آخر كانون الثاني المقبل (١٩٩٨).

– عرض المشاركون المؤسسات التي دعت إليها المؤتمرات السابقة (الدار البيضاء، عمان والقاهرة). وتم الترحيب بالتقدم الذي أحرز في شأن إقامة اتحاد السياحة والسفر لمنطقتي الشرق الاوسط والمتوسط في تونس، كما تم تأكيد أهمية بنك التعاون والتنمية الاقتصادي للشرق الاوسط وشمالي افريقيا الذي سيقام في القاهرة. وقد تمّ حض الدول التي لم تنته بعد من اجراءات المصادقة والتمويل على إتمام تلك الاجراءات على وجه السرعة لتمكين البنك من الشروع في العمل عام ١٩٩٨.

- ستواصل الامانة التنفيذية للشرق الاوسط وشمالي افريقيا في الرباط العمل في الفترات الفاصلة بين المؤتمرات. كما عرض المشاركون انشطة سكرتاريا لجنة متابعة مجموعة عمل التنمية الاقتصادية الاقليمية التي أنشئت في عمان طبقًا لاعلان عمان والتي بدأت نشاطها الرسمي عام ١٩٩٦.

من كلمات الوفود، كلمة الوفد الاميركي الذي اعتبر «الاصولية هي التهديد الرئيسي في المنطقة؛ وكلمة شيمون بيريز (الوفد الاسرائيلي) الذي قال «إن السلام يتطلب تنازلات (...) لا يمكن ان نحتفظ بدولة يهودية إذا لم تكن إلى جانبها دولة فلسطينية».

أما الدول العربية التسع التي حضرت المؤتمر فهي، إلى قطر: الكويت، سلطنة عمان، الاردن، اليمن، تونس، موريتانيا، جزر القمر وجيبوتي. وعدد جلسات المؤتمر ٣٩ تحدث فيها ٢٠٠ شخصية سياسية ورجل اعمال. وقال وزير الدولة القطري للشؤون الخارجية، أحمد بن عبد الله آل محمود، في مؤتمر صحافي، إن قطر لم توقع أي اتفاق مع اسرائيل خلال المؤتمر، وإن بلاده وقعت خلال الايام الثلاثة للمؤتمر عقودًا تجاوزت قيمتها اربعة بلايين دولار.

الجدير ذكره، اخيرًا، ان المنتدى الاقتصادي في دافوس (سويسرا) ومجلس العلاقات الخارجية في نيويورك هما صاحبا فكرة هذا النوع من المؤتمرات الاقتصادية، وان غالبية المحللين الاقتصاديين العرب تناولوا هذا الموضوع بالنقد وباثارة الشبهات حول مراميه. إذ لم يُعرف عن منتدى دافوس الموجود منذ ربع قرن انه حقق أي تقدم اقتصادي لأي بلد، وإنه يعمل على إحلال الاقتصادي محل السياسي والوطني والقومي تسهيلاً لإدماج اسرائيل في الجسم الاقتصادي العربي وفي معادلة البترول العربي.

□ **المياه في الشرق الاوسط:** في تقرير البنك الدولي المنشور في ١٠ آب ١٩٩٥ في واشنطن ان «القرن المقبل سيشهد نقصًا خطيرًا في المياه التي هي، في شكل عام، عامل جيوستراتيجي بين أكثر من دولة، كما هو الوضع في الشرق الاوسط (...) والنقص في مياه الشفة بات ظاهرة بنيوية مرتبطة بتطورين يشهدهما العالم اليوم، الكثافة السكانية في المدن وتطور الزراعة المروية (...) وشمال افريقيا والشرق الاوسط هما المنطقتان الأكثر معاناة من نقص المياه نتيجة الاوضاع الجغرافية والسكانية، إذ توصل الخبراء إلى الخلاصة التي تؤكد تراجع حصة الفرد الواحد من المياه بنسبة ٨٠٪ في حقبة زمنية لا تتجاوز عمر الفرد الواحد».

على هذا التقرير علّق روجيه كان في جريدة «لوموند» (تاريخ ١٦ آب ١٩٩٥) بقوله: «إن إعادة توزيع المياه في الشرق الاوسط ستكون واحدة من المشاكل الشائكة التي لا بد من إيجاد حل لها لتحقيق سلام إقليمي. ويمكن للمياه، عوض ان تكون سببًا للنزاع، ان تشكل رافدًا للتعاون بين دول الشرق الاوسط. فتقاسم الموارد المائية والمياه الجوفية موضع اهتمام كل دول المنطقة. وهذا الامر الأساسي كان وراء تكليف مجموعة عمل لمناقشة موضوع المياه في إطار المحادثات المتعددة الاطراف. وجاء ذلك فور البدء بمسيرة السلام (توقفت منذ ربيع ١٩٩٦ ولم تُستأنف بعد) ورغبة في إقامة تعاون اقليمي في المنطقة».

فالمشكلة المائية المطروحة بين اسرائيل والفلسطينيين تتناول النسبة الواجب اعتمادها في توزيع المياه بين ٥ ملايين اسرائيلي و٢،٤ مليون فلسطيني في الارض المحتلة. وتلجأ اسرائيل إلى الاستفادة في ثلث استهلاكها من مياه الشفة من المياه الجوفية الموجودة كليًا أو جزئيًا في الضفة الغربية.

أما المشكلة بين اسرائيل والاردن فقد حلت مرحليًا، وفق معاهدة السلام التي وقع عليها البلدان في ٢٦ تشرين الاول ١٩٩٤. وتعهدت اسرائيل بتزويد الاردن سنويًا بـ٥٠ مليون متر مكعب تشكل حصة الاردن من مياه نهر اليرموك، وتعهدت تل أبيب المساهمة في إشغال هدفها تزويد المملكة بـ١٠٠ مليون متر مكعب إضافية سنويًا (راجع «اسرائيل»

و«الاردن» في الجزء الاول، و«حوض نهر الاردن» في الجزء الثامن من الموسوعة؛ وراجع كذلك، للمؤلف،ملحق «المياه» في كتابه «سورية المعاصرة، مشهد تاريخي وسياسي عام»، ١٩٩٧).

أما في مرتفعات الجولان المحتلة، فهناك أكثر من ١٧٠ مصدر مياه تشكل عنصر نزاع بين اسرائيل وسورية. فمياه الجولان تزود اسرائيل بـ٣٠٪ من حاجتها إلى مياه الشفة، وقد لجأت المعارضة اليمينية في اسرائيل (الليكود) إلى هذا السلاح لرفض اعادة الجولان إلى سورية (راجع «سورية»، الجزء العاشر؛ وكذلك ملحق «المياه» في كتاب «سورية المعاصرة، مشهد تاريخي وسياسي عام»، مرجع سالف الذكر).

والنزاع المائي يطاول ايضًا دولاً أخرى في الشرق الاوسط: تقاسم مياه الفرات بين سورية والعراق وتركيا (المراجع المذكورة)، وتوزيع مياه النيل بين مصر والسودان ومختلف دول حوض النيل (راجع «حوض نهر النيل»، ج٨)، فضلاً عن المشاكل التي يمكن ان تواجهه الدول التي تشكو من الجفاف في منطقة الخليج.

☐ **الميثاق الروسي: «ميثاق العمل والسلوك لتحقيق الامن والسلام في الشرق الاوسط»:** هو الميثاق الذي أعلنه، بهذا العنوان، وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف في القاهرة في ختام جولته الشرق أوسطية (أواخر تشرين الاول ١٩٩٧). تضمن الميثاق ١٢ بندًا، أهمها:

– لا ضمان للأمن الثابت والكامل في المنطقة من دون تسوية سلمية على جميع المسارات التفاوضية وفي إطار عملية مدريد للسلام.

– ضرورة الأخذ في الاعتبار اشتراك دول المنطقة المعنية مباشرة أو بشكل غير مباشر بالنزاع لضمان أمن المنطقة كونه لن يتحقق في إطار جغرافي محدود (هذه الاطراف، بحسب بريماكوف، ايران وتركيا ودول شمالي افريقيا والخليج العربي).

– الدعوة إلى امتناع دول المنطقة عن انتاج اسلحة الدمار الشامل أو امتلاكها والعمل على اقامة منطقة خالية من هذه الاسلحة في الشرق الاوسط.

– الدعوة إلى خفض الموازنات العسكرية وتخصيص الاموال لاغراض التنمية والتعاون الاقليمي والمتعدد الاطراف.

– الاحترام المتبادل ومن دون شروط للدين والثقافة وحرية العبادة لجميع الديانات وضمان وصول الحجاج إلى القدس وغيرها من دون عراقيل.

– معالجة قضية اللاجئين (من دون ان يسمّي بريماكوف الفلسطينيين أو غيرهم) في إطار القضايا الانسانية.

– ضرورة تطوير التعاون الاقتصادي الاقليمي لجهة التوصل إلى منظومة اقتصادية متكاملة في الشرق الاوسط.

– خروج حكومة اسرائيل الحالية (برئاسة نتانياهو) عن الاتفاقات التعاقدية والتفاهمات التي توصلت إليها الحكومة الاسرائيلية العمالية السابقة.

– نبذ التحالفات والتجمعات الاستراتيجية (في إشارة إلى العلاقات التحالفية الاسرائيلية-التركية).

ولا يختلف عرض ما تبقى من السياسات الروسية إزاء القضية الفلسطينية والعلاقات بين دول المنطقة وموضوع الارهاب عن تلك السياسات الغربية وخصوصًا الاوروبية.

في إطار اعلان هذا الميثاق وجولة بريماكوف على دول المنطقة، ابرزت اسرائيل مقولة كانت ترددها من «ان علاقات التعاون وخصوصًا العسكرية بين ايران وروسيا هي الأخطر على اسرائيل في الوقت الراهن»، وان ذلك سيؤدي إلى تغيير الشرق الاوسط إذ ستتحول ايران إلى دولة اقليمية كبرى، وبالتالي ضعضعة التفوق الاسرائيلي المطلق في الشرق الاوسط.

شيشانيا

(راجع «إيتشكيريا الشيشانية»، ج٤، ص١٠٧-١٢٣؛ و«روسيا»، ج٨، ص٢١٤-٢١٧. واستكمالاً لما ورد في هذين الموضعين من الموسوعة، نورد التالي):

في الاصول والتاريخ القديم: تعرّضت شيشانيا (أو الشيشان) لغزوات مختلف الامبراطوريات التي قامت في المنطقة أو وصلت إليها في فتوحاتها. وهذا يعود لخصوصية البلاد من حيث غناها بالمعادن من جهة، ومن جهة ثانية لطبيعتها الجغرافية، التي جعلت منها على الدوام جسرًا يربط بين آسيا واوروبا. وكانت قبائل الشيشان تنتشر منذ القرن العاشر ق.م. في المنطقة الواقعة بين نهر ترك غربًا والكابارداي (القابارداي) شمالاً وجبل أندي وسلسلة جبال القوقاز (القفقاس) شرقًا ويفصلها عن داغستان من جهة الجنوب نهر أقاطاش.

قسم من المؤرخين يقولون ان أصول شعب الشيشان تعود إلى السلالة الطورانية الذين وفدوا إلى تخوم آسيا الغربية قبل التاريخ ومنها وصلوا إلى القوقاز مستقدمين معهم صناعة الحديد والبرونز والقصدير.

وآخرون يقولون ان سكان القوقاز الاصليين هم من السلالة الآرية، وكذلك سكان الهند وغربي آسيا وسكان اوروبا الاقدمون.

أما هيرودوت (ابو التاريخ) فيقول إنه عندما كان يجول في بلاد «القولميذ-اللازكيين» في داغستان رأى بين أهالي تلك البلاد وفي القوقاز بعض الناس من سود الوجوه فدهش من ذلك، فعمد إلى البحث والتدقيق في أصولهم فتبين له ان هؤلاء يمتد أصلهم إلى المصريين القدماء وذلك بدليلين: سواد بشرتهم، والختان (إذ من الثابت ان الفراعنة كانوا يختتنون منذ قديم الزمان). ويؤكد بأن المصريين في عهد الفرعون رمسيس الثاني وصلوا في حروبهم إلى جنوبي القوقاز. ولدى عودة رمسيس إلى بلاده ترك هناك حامية من المصريين، وهؤلاء السود من نسلهم. ويعزز نظرية هيرودوت اكتشاف بعض النقود المصرية وعليها النقوش الهيروغليفية، وكذلك بعض النواويس في حوض نهر ريون. وثابت لدى مؤرخي المنطقة (الشراكسة منهم على وجه الخصوص) ان رمسيس الثاني معروف في تاريخهم باسم «ساؤوسريس» وان الشراكسة يجلونه.

ويرى الباحثون الروس ان الشراكسة الذين استوطنوا المنطقة (سواحل بحر أزوف الشرقية وسواحل البحر الأسود وحوض نهر قوبان) يعودون بأصولهم إلى سلالة السومريين الذين غزوها في القرنين السابع والثامن ق.م. (قبلهم غزاها اليونانيون). وبعد السومريين جاء الفرس في عهد قوروش ودام حكمه للقوقاز من ٦٥٠ إلى ٥٢٩ ق.م.، وأعقبهم الصينيون بقيادة الامير أورليان في العام ٣٥٠ق.م. واحتلوا شمالي

القوقاز، بينما استولى الرومان على جنوبي القوقاز ومن ضمنه دولة الكرج (جورجيا). وفي القرن الميلادي الثاني، نهضت مجددًا مملكة الفرس في عهد الأسرة الساسانية التي وصلت في فتوحاتها إلى القوقاز. ودام حكم الفرس الساسانيين إلى حين نهوض قبائل الهون (الاتراك) وتشكيل دولتهم، واتجهوا إلى ساحل الخزر وانحدروا منه إلى جورجيا ومنها إلى جنوبي القوقاز وارمينيا ودام حكمهم إلى العام ٦٢٤. ودائمًا كان سقوط الكرج (جورجيا) يعني سقوط مناطق القوقاز كافة.

وأخيرًا، ثمة اساطير لا تزال مروية على لسان الشراكسة من أبناء المنطقة، تدعمها احيانًا نظريات لمؤرخين منهم، تقول إنهم من سلالة العرب، وإنهم من قبيلة قريش، وإن جدهم الأكبر «فاخ تسوء» أو «علي العرب الشامي» وفد إلى القوقاز من دمشق قبل آلاف السنين وقد أحيوا الكتابة بالحرف العربي في داغستان في العهد القيصري، واستمروا بذلك حتى ١٩٢٥ أي بعد ثورة البلاشفة بثماني سنوات.

المسار التاريخي وصولاً إلى الامام شامل في القرن ١٩ وما بعده حتى إعلان الاستقلال وحروب الانفصال ١٩٩٤-١٩٩٦: (راجع المرجعين المذكورين في مقدمة هذه المادة).

أصلان مسخادوف رئيسًا للجمهورية:

بعد تكريس مبدأ الاستقلال بموجب اتفاقية ٣١ آب-أول ايلول ١٩٩٦) (راجع «روسيا»، ج٨، ص٢١٦-٢١٧)، اخذت البلاد تعيش، عمليًا، حياة الانتخابات الرئاسية. وجرت هذه الانتخابات في ٢٧ كانون الثاني ١٩٩٧، وانحصرت بين ثلاثة مرشحين: سليم خان ياندربييف، رئيس شيشانيا والأقرب إلى زعيم شيشانيا ورمزها الاستقلالي جوهر دودايف (الذي أعلنت وفاته في ٢١ نيسان ١٩٩٦)؛ وأصلان مسخادوف، رئيس الاركان الشيشاني قائد قوات المقاومة ومفاوض الوزير الروسي ألكسندر ليبيد على الاستقلال والذي توصل معه إلى اتفاقية ٣١ آب-أول ايلول ١٩٩٦؛ وشامل باسايف، أحد كبار قادة المقاومة و«الرجل الاسطورة» في نظر الكثيرين من الشيشانيين و«الارهابي الاول» في نظر الروس.

عرفت الانتخابات إقبالاً حماسيًا وفاز بها مسخادوف بحصوله على ٦٨٪ من الاصوات، في حين احتل باسايف المرتبة الثانية (٢٥٪ من الاصوات) فأعلن انصاره عن رغبتهم تشكيل حزب باسم «الحرية». واعتبر فوز مسخادوف فوزًا لسياسة الاعتدال وتوكيلاً له لاستكمال المفاوضات مع الروس من اجل التوصل إلى وضع نهائي لجمهورية الشيشان، داخل الفدرالية الروسية

مسخادوف (الى يسار الصورة) ونائبه فاخا أرسنوف، وخلفهما الرئيس الانغوشيتي رسلان أوشيف، والكسندر ليبيد (الى يمين الصورة) بعد قراءة الفاتحة عقب قسم مسخادوف يمينه الدستوري (شباط ١٩٩٧).

أو خارجها، دون ان يكون خاضعًا لضغط قوي، أو دون ان يكون في موقع هش في الداخل. وأبرق له الرئيس الروسي مهنئا، ولوحظ ان البرقية خلت من إشارة إلى ان جمهورية الشيشان جزء من روسيا الاتحادية.

في ١٢ شباط ١٩٩٧، أدّى مسخادوف في العاصمة غروزني (استبدل سليم خان ياندربييف إسمها إلى إسم «قلعة جوهر» تيمنا باسم جوهر دودايف) اليمين الدستورية، وأقسم على المصحف قائلاً: «أقسم بتعزيز استقلال دولة شيشانيا واحترام الدستور والقوانين والدفاع عن حقوق الشيشان الذين قاتلوا من اجل الحرية خلال السنوات الـ ٣٠٠ الأخيرة». وتعهد العمل على رفعة الجمهورية التي تقطنها غالبية مسلمة ومكافحة موجة الجريمة التي تجتاحها. وقال، في ما كان المدعوون (٥٠٠ شخص) يهتفون «الله أكبر»، ان من «واجب كل فرد منا ان يحقق حلم اجدادنا وأبطالنا الذين سقطوا في الحرب (...) حلم حياة حرة مستقلة». ثم أدّى ألف مقاتل قسم الولاء للرئيس الجديد. وكان مسخادوف كولونيلاً سابقًا في الجيش السوفياتي قبل ان ينضم إلى قوات المقاومة الانفصالية ويقودها ضد القوات الروسية التي ارسلت في ١٩٩٤ للقضاء على الحركة الانفصالية. وكان استقال من الخدمة في ١٩٩٢ تلبية لنداء وجهه جوهر دودايف إلى الضباط الشيشانيين للعودة إلى بلادهم. وتولى مسخادوف رئاسة هيئة اركان المقاومة وقاد أهم عملياتها وآخرها الاستيلاء على العاصمة غروزني في آب ١٩٩٦. ورأس الوفد الشيشاني المفاوض مع روسيا، ووقع مع الجنرال ليبيد اتفاق السلام، واعتبر «مفاوضًا عنيدًا ومرنًا في آن».

أحداث السنة الاولى من عهد مسخادوف (١٩٩٧): على الصعيد الداخلي بدأ مسخادوف يواجه وضعًا أمنيًا صعبًا نتيجة لتحول الشيشان في سنوات الحرب إلى ميدان لعمليات خطف واحتجاز رهائن، والمطالبة بدفع مبالغ كبيرة لاطلاقهم أو مبادلتهم بأسرى شيشانيين، وقد حدث معظمها خارج شيشانيا في مناطق مجاورة ومني بالفشل.

ومع بدء ولاية مسخادوف، تفاقمت هذه الظاهرة. فالمشكلات الاجتماعية في الجمهورية لم تتح بعد الفرصة للشبان الذين لا يتقنون سوى استخدام «الكلاشنيكوف» ولم يعرفوا مقاعد الدراسة كي يندمجوا في المجتمع كأفراد منتجين. ويعاني البطالة حوالي ثلث السكان، منهم نحو ربع مليون في العاصمة غروزني، ولا تدفع رواتب التقاعد والاجور، أو تُدفع متأخرة كثيرًا لأن موسكو، التي تكاد مصدر التمويل الوحيد، تبدي ترددًا في دعم جمهورية لا تخفي هدفها وهو الانفصال النهائي عن روسيا الاتحادية. وفي كانون الثاني وشباط ١٩٩٧، تركزت عمليات الخطف على احتجاز رهائن أجانب لمبادلتهم بفدية مالية، ومن بين هؤلاء تسعة صحافيين أثار احتجازهم ضجة عالمية.

وفي محاولة للامساك بالوضع، قرر مسخادوف (٢ نيسان ١٩٩٧) تعيين القائد الميداني المعروف، والمرشح لرئاسة الجمهورية، شامل باسايف، نائبًا أول لرئيس الحكومة ومسؤولاً عنها في حال غياب رئيس الجمهورية الذي يتولى الاشراف على مجلس الوزراء. وقد رأى كثيرون ان مثل هذا القرار سيثير اعتراضات واسعة من موسكو التي تصف باسايف بـ«الارهابي الاول» لقيادته عملية الاستيلاء على مدينة بوديونوفسك واحتجاز رهائن ومصرع زهاء ١٥٠٠ شخص في اشتباكات جرت آنذاك.

وعلى صعيد متقاطع ما بين الوضع الداخلي، الأمني خصوصًا، والوضع الخارجي المتعلق في الدرجة الاولى بالعلاقات مع روسيا، أقدمت السلطات الشيشانية، في حزيران ١٩٩٧،

على تنفيذ عملية امنية واسعة النطاق لمكافحة الاجرام وفرض النظام شارك فيها أكثر من ٣ آلاف من قوات الامن، وأطلق على العملية إسم «درع النظام». وواكبتها عملية أخرى أطلق عليها إسم «الرهائن»، شارك فيها ٣٠٠ شخص، وخصصت لتحديد اماكن احتجاز الرهائن واطلاقهم، كان بينهم ٥ صحافيين يعملون في التلفزيون الروسي. وقد أشرف مسخادوف شخصيًا على العمليتين.

وكان مسخادوف مهّد لهذه العملية بقراره حلّ ما يسمى «جيش الجنرال دودايف» الذي يقوده سليمان رادوييف الذي اشتهر بتدبير عملية مسلحة («ارهابية») كبيرة في قزلار وبيرفومايسك خلال حرب الاستقلال؛ وهو لا يزال يعارض المصالحة مع روسيا ومعاهدة السلام التي وقعها مسخادوف مع الرئيس الروسي بوريس يلتسن (ايار ١٩٩٧) والتي تنص على إرجاء بت الوضع النهائي للشيشان حتى العام ٢٠٠١.

كما كان مسخادوف شرع بتنفيذ تدابير إحلال السلام بعد لقائه مع رئيس وزراء روسيا تشيرنوميردين حيث بحث معه في اتفاق ضخ نفط بحر قزوين الذي رأى مسخادوف ان هذا الاتفاق يجب ان يكون اتفاقًا ثلاثيًا يضم روسيا وأذربيجان وشيشانيا. لكن موسكو كانت لا تريد بعد ان تنظر إلى غروزني باعتبارها شريكًا متكافئًا في محادثات دولية وطرفًا من اطراف القانون الدولي.

معاهدة السلام (شيشانيا-روسيا): في ١٢ ايار ١٩٩٧، وصل مسخادوف إلى موسكو وعقد لقاءين مع الرئيس الروسي يلتسن. وبنتيجة المفاوضات بينهما وقعا معاهدة مؤلفة من خمس مواد، هذا نصها:

«إن الطرفين المتعاقدين الساميين، رغبة منهما في إقامة علاقات وطيدة متكافئة ومتبادلة المنفعة، اتفقا على ما يأتي:

١- التخلي إلى الابد عن استخدام القوة أو التهديد باستخدامها عند حل أي قضايا يُختلف عليها.

٢- إقامة علاقاتهما طبقًا لمبادىء واحكام القانون الدولي المتعارف عليها، وفي هذا السياق يتعاون الطرفان في مجالات تعينها اتفاقيات محددة.

٣- المعاهدة اساس لعقد معاهدات واتفاقيات لاحقة تتعلق بمجمل قضايا العلاقات بين الجانبين.

يلتسن ومسخادوف يوقعان «الوثيقة التاريخية».

٤- المعاهدة محررة في نسختين لكل منهما مفعول قانوني مكافىء للآخر.

٥- المعاهدة الحالية يسري مفعولها يوم توقيعها».

وصف الرئيس الروسي هذه المعاهدة بأنها «وثيقة تاريخية تنهي مجابهة استمرت ٤٠٠ سنة»، في ما قال مسخادوف ان إبرامها يعني «هزيمة حزب الحرب».

وعلى رغم ان المعاهدة لا توجد فيها مادة تتحدث عن «الوضع النهائي» للعلاقات، و لم تتضمن نصًا صريحًا باستقلال شيشانيا، فإن عنوانها «معاهدة السلام ومبادىء العلاقات بين روسيا الاتحادية وجمهورية إيتشكيريا الشيشانية» يوحي بأن موسكو اعترفت عمليًا بتكافؤ الطرفين ووافقت على اعتماد مفهوم «إيتشكيريا» الذي يعتبره الشيشانيون تسمية لدولتهم المستقلة. كما ان تأكيد الرئيسين على ان مدة المجابهة بين بلديهما هي ٤٠٠ سنة يعني اعتراف يلتسن بأن الشيشانيين لم يكونوا في أي فترة من تاريخهم جزءًا من روسيا الامبراطورية أو السوفياتية. وهذا بند أساسي كانت غروزني تطالب به لتثبيت حقها التاريخي في الاستقلال. إذ إن الشيشانيين، خلافًا لكثير من شعوب شمالي القوقاز، لم يوقعوا أي وثيقة تنص على انضمامهم إلى روسيا وخاضوا ضدها حروبًا متواصلة كان آخرها بدأ في اواخر عام ١٩٩٤ وتوقف صيف ١٩٩٦. وأدت الحرب الاخيرة إلى مصرع ١٠٠-١٢٠ ألف شخص وتدمير الاقتصاد والبنى الاساسية للجمهورية الشيشانية، ولكن الجيش الروسي لم يتمكن من تحقيق الانتصار رغم انه زج بوحدات بلغ تعدادها ٣٢٠ ألفًا، واستخدم الطيران والصواريخ ضد مجموعات من المقاتلين راوح عددهم الاجمالي بين ١٥ و٣٠ ألفًا. وبتوقيع المعاهدة، يكون يلتسن قد اعترف ضمنًا بمسؤولية روسيا عن تعويض الخسائر المادية التي قدّرها الشيشانيون بـ١٥٠ بليون دولار.

وكذلك عقد اتفاق اقتصادي (وقعه مسخادوف ورئيس الوزراء الروسي فكتور تشيرنوميردين) واتفاق مالي بين البنك المركزي الروسي والبنك الوطني الشيشاني، تبقى جمهورية شيشانيا بموجبه ضمن منطقة التعامل بالروبل.

ما بعد المعاهدة: لم تتضمن هذه الوثيقة اشارة إلى «الوضع النهائي» للعلاقات بين الجانبين، وهو موضوع كانت ارجأته اتفاقية الهدنة الأولى (راجع «روسيا»، ج٨، ص٢١٤-٢١٧) إلى عام ٢٠٠١. ولكن الروس والشيشانيين يقدمون تفسيرات مختلفة لفترة السنوات الفاصلة التي نصت عليها اتفاقية الهدنة. فخلافًا لموسكو التي تؤكد ان الموضوع «مرحّل» (خاضع للمرحلية) بالكامل، يقول الشيشانيون ان الاتفاقية تشير إلى انه سوف يحسم «قبل انتهاء عام ٢٠٠١»، ما يترك هامشًا للمناورة و«التعجيل». وإلى ذلك الحين تصر روسيا على ان جمهورية الشيشان لم تمنح حق الانفصال، وتهدد أي دولة تعترف بها بعقوبات تصل إلى حد قطع العلاقات الدبلوماسية. ومع ذلك، وافقت موسكو، في اوائل حزيران ١٩٩٧، على تحويل جزء من ديون الجمهوريات والمقاطعات الروسية ودول الاتحاد إلى الجمهورية الشيشانية، في خطوة اعتبرتها غروزني «قرارًا سياسيًا بالغ الأهمية» يشكل اعترافًا غير مباشر بالشيشانيين كطرف دولي. كما وقع الجانبان، الروسي والشيشاني، محضرًا يسمح لشيشانيا بـ«إقامة اتصالات مباشرة» مع اعضاء اسرة الدول المستقلة (باستثناء أوكرانيا) والجمهوريات والمقاطعات الروسية لاستيراد مواد صناعية واستهلاكية.

أما الشيشانيون فيتبعون تكتيك «الزحف الاستقلالي الهادىء». فوقعوا معاهدة مع تتارستان، وثمة محاولات لعقد اتفاقات مع كازاخستان ودول البلطيق. وكان مسخادوف أجرى اتصالات على

مستوى رفيع في السعودية وأعلن عن نيته زيارة عدد من دول الشرق الاوسط. وفي آخر تموز (١٩٩٧) وصل مسخادوف، في «زحفه الاستقلالي»، إلى اتخاذه قرار تعليق المفاوضات مع موسكو إلى ان تقر خطة لاعمار الجمهورية وطالب باقامة علاقات دبلوماسية بين موسكو وغروزني، وكلف لجنة المفاوضات إعداد مسودة معاهدة لاقامة علاقات دبلوماسية مع روسيا وفتح سفارتين في موسكو وغروزني. وقابل الرئيس الروسي، يلتسن، هذا «التصعيد الاستقلالي»، بمرونة، وأعلن في ١٩ آب ١٩٩٧، عن نيته «رفع مستوى استقلال وسيادة وحرية الجمهورية الشيشانية». لكن هذا الكلام السياسي ما لبث ان لاقى تدعيمًا في المجال الاقتصادي وتراجعًا في المجال السياسي. فبعد نحو ثلاثة اسابيع (أي في ٨ ايلول ١٩٩٧)، حققت موسكو وغروزني اختراقًا مهمًا بتوقيعهما اتفاقًا لنقل النفط الأذربيجاني عبر الاراضي الشيشانية، في ما ظهر توتر على الصعيد السياسي مع التحذير الذي اطلقه رئيس الوزراء الروسي من أن «مصيرًا مظلمًا» ينتظر من يحاول «التطاول على وحدة الاراضي الروسية». ومع ذلك، فإن المفاوضات التي كان مسخادوف أعلن توقيعها قبل أشهر قليلة استؤنفت (في ايلول ١٩٩٧)، وأعلن عن ان روسيا دفعت خلال الأشهر الثمانية الاولى من هذا العام (١٩٩٧) ١٨٠ مليون دولار للجمهورية الشيشانية.

في ١٨ آب ١٩٩٧، التقى مسخادوف الرئيس الروسي يلتسن في موسكو وعرض عليه مشروع معاهدة جديدة ترفع مستوى درجة استقلال شيشانيا على ضوء اعلان الرئيس الروسي نية رفع مستوى استقلال شيشانيا. وخلال اجتماع القمة هذا تم اطلاق سراح الصحافيين الروس الذين ظلوا في الأسر الشيشاني أكثر من مئة يوم.

وبعد يومين من هذا الاجتماع، ترأس يلتسن اجتماعًا لمجلس الامن القومي لمناقشة الوضع في القوقاز، وقال إن هذه المنطقة «ما برحت تنطوي على خطر الانفجار»، وان الفترة الاخيرة أظهرت «عددًا من المؤشرات الجديدة التي يمكن ان تقوض السلام (...) وتهدد أمن روسيا»، ومن بينها «النزاع في جمهوريتي أوسيتيا وإنغوشيتيا والوضع في داغستان والعلاقات مع الشيشان (...) والقوقاز منطقة تتقاطع فيها مصالح دول عديدة (...) ومواقع روسيا بدأت تضعف هناك فيما الاميركيون بدأوا التغلغل وتحدثوا دونما خجل عن ان هذه منطقة تهم مصالحهم (...) واية تسوية للوضع فيها يجب ان تتماشى مع مصالح أمننا الوطني (...) وهناك ضرورة ملحة لعقد معاهدة شاملة مع جمهورية الشيشان».

تصاعد اللهجة الاستقلالية والاسلامية وبدء اتجاه نحو اميركا: في تطور مهم ولافت أعلن أصلان مسخادوف من تركيا (حيث كان يمضي إجازته مع عائلته في منتجع أنطاليا في الاسبوع الاول من تشرين الثاني ١٩٩٧): «حصلنا على استقلالنا والآن نعلن نظامًا جديدًا لبلادنا. انها ستصبح جمهورية الشيشان الاسلامية (...) في البروتوكول الذي وقعناه أكّد الروس انهم لن يحاربونا مرة أخرى ولكننا لا نزال لا نثق بهم (...) إذا ارادت روسيا ان تواصل دسائسها لعرقلة استقلالنا فإننا مستعدون لحرب أشد ضراوة. نحن نعرف ان روسيا تتعامل بوجهين» (نقلاً عن وكالة «الاناضول» التركية الرسمية).

من جهة أخرى، عاد حديث الاختراق الاميركي لمنطقة القوقاز، الذي حذّر منه يلتسن، ليكون محور أنباء زيارة مسخادوف للولايات المتحدة (الاسبوع الثاني من تشرين الثاني ١٩٩٧). وقد عبّرت موسكو عن استيائها من موافقة الولايات المتحدة على استقبال الرئيس الشيشاني، لأنه «صحيح ان شيشانيا ستمنح وضعًا

خاصًا لكنها ستبقى جزءًا من روسيا الاتحادية». ومن أنباء الزيارة ما يفيد مراعاة الولايات المتحدة الاميركية لهذا الوضع، إذ كانت واشنطن «اشترطت على الوفد الشيشاني ان يقدم جوازات سفر روسية لوضع سمة دخول إلى الولايات المتحدة»، وكذلك تأكيد بعض المراجع الروسية ان «مسخادوف لن يلتقي القيادة السياسية الاميركية وان زيارته ذات طابع خاص»، في حين قالت مراجع أخرى إن «الزيارات الخاصة غالبًا ما تستغل لمناقشة قضايا جدية».

وكانت موسكو حذرت مرارًا من انها ستتخذ إجراءات تصل إلى حد قطع العلاقات الدبلوماسية مع الدول التي تعترف باستقلال شيشانيا. ومصادر رسمية فيها أكدت ان قانونًا فدراليًا سيصدر في ١٩٩٨ يحدّد «وضعًا خاصًا» لشيشانيا؛ وان القانون «سيدفن إلى الأبد آمال الطامحين» إلى فرض حرب قوقازية جديدة، وان الجمهورية الشيشانية «كانت وستبقى جزءًا من الاتحاد الروسي».

في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٩٧، عاد مسخادوف إلى بلاده، بعد جولته التي شملت الولايات المتحدة، وصرّح انه «حقق اختراقًا فاق كل التوقعات»، وذكر انه دخل الولايات المتحدة بسمة دبلوماسية، ولم يحدّد المسؤولين الذين حاورهم في واشنطن، لكنه قال إن «موضوع الاستقلال لا يقبل حلولاً وسطًا وقد حسمنا أمرنا إلى الأبد (...) ولا ننوي التراجع».

في أول يوم من سنة ١٩٩٨، كلّف مسخادوف النائب الاول لرئيس الوزراء شامل باسايف تشكيل حكومة جديدة.

بين التاريخي والثقافي

(الباحث الشيشاني المختص في الدراسات الاسلامية سعيد عثمان يحيى، نشرت له «الحياة»، تيارات، العدد ١٢٤٧٦، تاريخ ٢٧ نيسان ١٩٩٧، ص١٢، المقال التالي):

إثر الفتح العربي لدربند جنوبي داغستان اصبحت هذه المدينة مركزًا انتشر منه الدين الاسلامي في شمالي القوقاز. ورغم ان بلاد الشيشان مجاورة لهذه المنطقة فإن الاسلام لم يصبح الدين السائد فيها إلا في اواخر القرن الثامن عشر حيث قاد الشيخ منصور دعوة ضد الوثنية والعادات المنافية للشريعة، إلى جانب تبشيره بعناصر مستوحاة من الطرق الصوفية.

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر أسس الشيخ شامل «دولة الامامة» في الشيشان وداغستان واقام نظامًا للحكم وصفه الباحثون بأنه «ثيوقراطية عسكرية-قبائلية» معتمدًا على تعاليم الطريقة النقشبندية الواسعة الانتشار آنئذ. وبعد انكسار شامل وأسره في الحرب القوقازية الاولى تزايد عدد انصار الطريقة القادرية، فيما انتقل نفوذ النقشبندية من الشمال الجبلي إلى الجنوب الشيشاني السهلي حيث يسكن الشيشانيون والمسيحيون الروس. ومنذ ذلك الحين ساد اعتقاد بأن النقشبنديين «موالون لروسيا» فيما ظل القادريون «خارج القانون» في عهد الامبراطورية والحكم السوفياتي.

وفي مطلع النصف الثاني من القرن التاسع عشر بشّر الشيخ القادري الحاج كونتا كيشييف بافكار ترفض العنف والحرب، ووجدت تلك الافكار تربة صالحة بعد الحرب القوقازية. ودعا الشيخ إلى مساعدة الفقراء وشجب الترف والانصراف إلى التعبد، وكان عمليًا أول من ادخل حلقات الذكر.

ولكن تعاظم نفوذه حدا بروسيا إلى اعتقاله عام ١٨٦٤ وترحيله عن المنطقة، وفي ما بعد اضفى مريدوه على دعوته طابعًا سياسيًا ونادوا بالجهاد ضد روسيا القيصرية وقاموا بانتفاضة في ١٨٦٥ بقيادة الامام قازا أكميرزايف ولكنها قمعت بقسوة وبسرعة من القوات الروسية.

وشهدت الشيشان انتفاضة أخرى في ١٨٧٧ بقيادة الحاج علي بك الذي أسر مع الكثيرين من مريديه، وردًا على سؤال المحققين عما إذا كان يعترف بذنبه حيال روسيا قال: «نحن مذنبون امام الله والشعب الشيشاني لأننا لم نفلح في إقامة قوانين الشريعة والحرية الالهية».

وبفعل القمع الذي مارسته السلطات القيصرية لم يتكون مركز ديني موحّد بل تعددت حلقات المريدين التي كانت تلتقي في ظروف شبه سرية.

وقد يكون من اسباب شيوع التصوف في الشيشان كونه يتلاءم مع التقاليد الاثنية للجبليين الذين ينتمي كل منهم إلى «تيب» وهو رابطة تعتمد التقسيم الجغرافي أكثر من العائلي.

وبعد وصول البلاشفة إلى الحكم عام ١٩١٧ طرأت تحولات جذرية على «الخارطة» الدينية في شمالي القوقاز. فقد ألحقت سياسة «الالحاد الاقتحامي» التي اتبعها الشيوعي ضررًا هائلاً بالثقافة الروسية للشيشانيين، وما زالت آثار هذا الضرر محسوسة حتى اليوم.

وبعد انتهاء الحرب الاهلية في روسيا (١٩٢١) وقمع حركة سكان شمالي القوقاز اتبع البلاشفة سياسة ملاحقة وقمع رجال الدين المسلمين وأتباعهم. وفي ١٩٢٣ ألغيت المحاكم الشرعية، وجرت خلال السنتين التاليتين حملة لتجريد السكان من السلاح. وتحت ذريعة تصفية «اوكار العصابات» في الجبال جرى اعتقال آلاف من رجال الدين وقتل ونفي الكثيرون منهم. وتكررت حملة «التطهير» في الشيشان في ١٩٢٨ ولكن تحت حجة محاربة «التخريب الاقتصادي». وفي ١٩٣٠، انتفض الشيشانيون ولكن قيادتهم توصلت إلى هدنة مع السلطات التي اعلنت العفو العام، بيد انها اغلقت المدارس الدينية وهدمت الكثير من المساجد. وزاد في الطين بلّة الانتقال إلى السيريليتسا (الابجدية السلافية) ما حرم المؤمنين امكان قراءة القرآن والكتب الدينية المدونة بالحروف العربية.

وأدت هذه العوامل مجتمعة إلى «انزواء» الدين واقتصاره على مظاهر طقوسية فردية، وما برح الفراغ الفقهي في الجمهورية قائمًا حتى اليوم، حيث ان السلطات الرسمية والدينية أخذت في السنوات الأخيرة تعتمد اساسًا على نشاط المؤسسات الخيرية ومنظمات الدعوة الأجنبية.

ولكن الشيشانيين، منذ الانفتاح الغورباتشوفي، حصلوا على حرية المعتقد الفعلية وبدأوا عمليًا إحياء الدين. واتخذ ذلك مظاهر جماهيرية «شارعية» ما حدا بوسائل الاعلام الروسية إلى الحديث عن تصاعد الاصولية الاسلامية. بيد ان الاصولية، بمعناها المتطرف والمغالي والدموي ليس لها وجود في الشيشان، رغم ان عمليات إحياء الدين والتطهر الاخلاقي في المجتمع لا مناص منها.

وفي الوقت الراهن يجمع قادة الجمهورية على المناداة بتطبيق احكام الشريعة بل تجري محاولات لتسيير الحياة المدنية عبر محاكم شرعية. ولكن لم تتكون بعد في جمهورية الشيشان التربة اللازمة لذلك. وتجدر الاشارة إلى وجود زهاء

٢٠٠ ألف مواطن غير مسلم يشكلون نسبة تصل إلى ١٥-٢٠٪ من مجموع السكان. لذا فإن السلطات الشيشانية ستلجأ إلى «التوازي» أي اعتماد المحاكم المدنية والشرعية، وإن كان ذلك يقتضي عملاً تمهيديًا طويلاً والاستناد إلى واحد من المذاهب الاساسية والأرجح ان يكون المذهب الشافعي.

وهنا تجدر الاشارة إلى ان المجتمع الشيشاني قام، تقليديًا، على اساسين تنظيميين: «التيب» و«الورد». والتيب رابطة تقوم على القرابة والوحدة الجغرافية ولكن الهجرات الداخلية ألغت عمليًا العامل الجغرافي وأصبح أفراد التيب الواحد موزعين في مختلف أنحاء الجمهورية.

أما الطرق الصوفية فإنها في وعي الشيشانيين تذكر بالتيب ولكن على اساس ديني وليس احتماعيًا، إذ إن الإنتماء إلى طريقة لا تحدده علاقات القرابة. ولذا فإن افراد تيب واحد بل حتى عائلة واحدة قد ينتمون إلى أوراد مختلفة، ورغم ذلك فإنهم في حياتهم اليومية يضعون مصالح التيب في المقدمة. ولا تشارك التيبات والأوراد في الحياة السياسية، إلا ان هناك قضايا محورية اجتمعت حولها الغالبية مثل فكرة الاستقلال.

وخلال السنوات الأخيرة، منذ اعلان استقلال الشيشان من جانب واحد وخاصة بعد بدء الحرب، ظهرت بوادر نشوء جيل جديد من الشبان الذين لم يتلقوا تعليمهم في المدارس السوفياتية بل انتسب الكثيرون منهم إلى مدارس دينية ثم تعلموا في الجامعة الاسلامية أصول الفقه والشريعة واللغة العربية. وأوفد أكثر من ٣٠٠ شيشاني للدراسة في مصر وتونس وليبيا والسعودية والباكستان وتركيا وسورية والاردن.

وتفتح في مختلف أنحاء الجمهورية دورات كثيرة لقراءة القرآن وتعلم اللغة العربية. وبدأت في الصدور صحيفة «فجر الاسلام» باللغة الشيشانية ويبث التلفزيون المحلي مواعظ دينية لمدة ساعة كل يوم جمعة. ونجد في كل صحيفة ركن «الاسلام» كما صدرت كراسات لتعليم المواطنين اصول الدين والفرائض. و لم تكن هذه العمليات خاضعة لسيطرة السلطة أو الهيئات الدينية الرسمية، ما أدّى إلى دخول افكار جديدة وبدء محاولات للتأثير في وعي الناس، وهذا ينطوي على خطر مجابهات على اساس ديني.

إن اعتماد نظام جديد للتنظيم الاحتماعي في الجمهورية له جانب سياسي ايضًا. فمن المستبعد ان توافق موسكو على سريان قوانين مخالفة للتشريعات الفدرالية في الجمهورية التي ما زال الكرملين يعتبرها جزءًا من روسيا. ولذا لا نستبعد ان تحاول موسكو تصوير المستجدات في الحياة الشيشانية على انها «ظاهرة خطرة» تخل بالتوازن المسيحي-الاسلامي. وفي حال استجابة الدول الأخرى للضغوط والايحاءات الروسية، فإن جمهورية الشيشان سيكون مكتوبًا عليها ان تمر بمرحلة شبيهة بتلك التي عاشتها زمن الحرب: أي ان الهياكل الرسمية للدولة تلتزم الصمت فيما يقتصر الدعم على المنظمات الاحتماعية (انتهى مقال سعيد عثمان يحيى. راجع ايضًا «قديروف، أحمد»، في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

إضافة: بعد نحو ثلاثة اسابيع من نشر هذا المقال الذي يذكر فيه كاتبه عبارة «... وهذا ينطوي على خطر مجابهات على اساس ديني...»، نقلت وسائل الاعلام (وعلى مدى ثلاثة ايام) أنباء سقوط عدد من القتلى والجرحى في اشتباكات عنيفة بين مسلحين من الصوفيين وعدد من أبناء السنة السلفية في جمهورية داغستان، وقد شارك في هذه الاشتباكات نحو ألف شخص، وكانت بدأت في أثناء مراسم دفن اختلف الجانبان على طريقة إجرائها. وذكر مجلس الافتاء في روسيا، في بيانه،

ان الحادث يمكن ان تكون له «عواقب بعيدة المدى» على الاسلام في روسيا، وانتقد «الطموحات غير المحدودة لبعض المجموعات المسلمة التي تميل إلى فرض افكار غربية». واستمر الوضع متوترًا في منطقة الاشتباك (قضاء بويناق في جمهورية داغستان) لأيام عديدة.

زعماء، رجال دولة وسياسة

* **باسايف، شامل** (١٩٦٥-): زعيم شيشاني وأحد أكبر قادة المقاومة الشيشانية الذي غدا بطلاً قوميًا و«إمامًا» تيمنًا بالامام شامل (قائد ثورة الجبليين القوقاز ضد القيصرية في القرن التاسع عشر) بعد ان أرغم الروس على الجلوس إلى طاولة المفاوضات عقب العملية الناجحة التي قادها في مدينة بوديونوفسك الروسية وهو على رأس ٢٠٠ مقاتل عجز عن تصفيتهم آلاف من عناصر الوحدات الخاصة التابعة للمخابرات والدفاع والداخلية وجهاز حماية الرئيس الروسي بوريس يلتسن، والرجل الاول في حكومة الرئيس أصلان مسخادوف.

ولد شامل باسايف في قضاء فيدينو (جنوب شرقي شيشانيا). انتسب إلى معهد مسح الاراضي (طوبوغرافيا) في موسكو في ١٩٨٥، حيث لم يعرف عنه انه اصبح «قائدًا طلابيًا ولكنه عرف باتزانه وهدوئه وصار حكمًا يفصل بين زملائه المتخاصمين ولكنه لا يشاركهم الحفلات الصاخبة ولا يقرب الكحول. عرف عنه ولعه بكرة القدم وقرض الشعر ومساجلة الاساتذة الذين

شامل باسايف.

يدرّسون الماركسية-اللينينية وإصراره على ان تقرير المصير هو حق مطلق للشعوب» (جلال الماشطة، «الحياة»، التيارات، ٢ تموز ١٩٩٥؛ ومن المرجع نفسه نستكمل هذه المادة حول شامل باسايف).

لم يعرف أحد كيف استطاع شامل باسايف الحصول على متفجرات وقنابل يدوية جلبها إلى «البيت الابيض» (مقر البرلمان الروسي، وقد شارك شامل في حوادثه التي وقعت في ١٩٩١ تأييدًا للرئيس يلتسن-راجع «روسيا»، ج٨). وربما كان شامل، بعد مشاركته هذه، عاد إلى وطنه في ١٩٩١، منتشيًا بعبارة يلتسن الشهيرة الموجهة إلى الجمهوريات: «خذوا من السيادة ما

استطعتم ان تهضموا». وشارك باسايف في الانتخابات الرئاسية الشيشانية، ولكن فوز جوهر دودايف فيها لم يؤد إلى قطيعة بين الرجلين، بل أصبح شامل من المقربين إلى الرئيس الجديد الذي توسم في منافسه قدرات تنظيمية وعسكرية سرعان ما ظهرت بجلاء في أبخازيا. فقد شارك باسايف ضمن مجموعة من القوقازيين وآخرين في معارك خاضها الأبخاز من اجل الاستقلال عن جورجيا، وأصبح خلال فترة قصيرة قائدًا معروفًا ونائبًا لوزير الدفاع في ابخازيا.

ومن المفارقات ان باسايف كان آنئذ حليفًا للروس الذين ساندوا الأبخاز ضد الجورجيين الرافضين للتعامل مع موسكو. وأشار عدد من المراقبين إلى ان عمليات الأبخاز كانت تجري باشراف ضباط من المخابرات العسكرية الروسية ويلمحون إلى احتمال وجود «قنوات سرية» بين باسايف والمخابرات مذاك.

وسربت موسكو أنباء عن تعاون باسايف مع «جهات» باكستانية وذكر انه تلقى تدريبًا خاصًا في معسكرات تمولها مخابرات الباكستان. لكن احدًا لا يعرف اين تعلم باسايف فنون حرب العصابات العصرية.

وعند عودته إلى شيشانيا غدت «الكتيبة الأبخازية» التي ضمت شيشانيين قاتلوا معه في جورجيا من أهم التشكيلات العسكرية واستخدمها دودايف لأغراض متعددة ومنها تصفية عصابات السطو على القطارات المارة من روسيا إلى أذربيجان. وتصدى باسايف بحزم لعصابات فرضت اتاوات على السكان المحليين وارعبتهم وخاض معركة حاسمة ضد رسلان لابازانوف الموصوف بأنه عراب المافيا الشيشانية والذي حصل في ما بعد على رتبة عقيد في الجيش الروسي لمشاركته في القتال ضد دودايف.

وحصل شامل باسايف على رتبة مماثلة أثر معركة غروزني التي كانت «الكتيبة الأبخازية» خلالها من أهم التشكيلات التي صمدت في العاصمة الشيشانية ثم انسحبت إلى «المثلث الاستراتيجي» وقاتلت بضراوة قبل صدور قرار التراجع إلى سفوح الجبال في قضاء فيدينو موطن باسايف. وأدّى القصف الجوي والمدفعي الروسي على المنطقة إلى مصرع زوجة شامل الأبخازية أنديرا التي لم تكمل عامها الثامن عشر وولده الرضيع ادريس وشقيقه وأختيه وعدد من اقاربه.

ورأى عدد من المعلقين الروس في ذلك دافعًا حرّك لدى شامل روح الثأر من الروس وحفّزه على القيام بعملية بوديونوفسك. إلا ان باسايف كان جاهر قبل مصرع اقاربه بنواياه «نقل المعركة إلى اراضي روسيا»، وقال إنه لم يعد يقوى على رؤية الطائرات الروسية وهي تنقض على القرى الشيشانية وتقتل العزل.

والغريب ان الكثيرين من رهائن عملية مدينة بوديونوفسك تحدثوا بتعاطف شديد مع باسايف وأكدوا انه عاملهم «معاملة طيبة»، وكان المقاتلون يقتسمون كسرة الخبز مع الاطفال والجرحى. وقالت امرأة خرجت من جحيم مستشفى بوديونوفسك ان «الشيشانيين حمونا والروس اطلقوا النار علينا». وما أكد هذه الرواية اتصال هاتفي بين باسايف وتشيرنوميردين (رئيس الوزراء الروسي) الذي نقله التلفزيون على الهواء والذي أظهر عدم التزام الضباط الروس اوامر القيادة السياسية بوقف اطلاق النار على المستشفى. وقد يكون باسايف اول «ارهابي» يطلب المغفرة من الضحايا. فبعد انتهاء العملية انحنى امام الروس المختطفين وكرر «سامحوني» ثلاث مرات مؤكدًا انه كان «مكرهًا لا بطلاً».

ولئن كانت عملية بوديونوفسك فاتحة لمفاوضات قد تؤدي (وأدت فعلاً) إلى وقف الحرب فإنها من جهة اخرى اطلقت من القمقم عفريتا تصعب السيطرة عليه. ولم تلتفت موسكو في حينه إلى تحذيرات جوهر دودايف من ان استمرار الحرب

سيقود إلى انفلات وربما أفقده السيطرة على زمام الامور. ومن الأكيد ان شامل باسايف أصبح مكافئًا لدودايف إن لم يعد متفوقًا عليه وصار إسمه اسطورة يتغنى بها الصبيان الشيشانيون مرددين مقولته الأثيرة «ليس المهم ان تموت... المهم كيف تموت».

* **دودايف، جوهر:** (راجع «إيتشكيريا الشيشانية»، ج٤، ص١١٣-١١٥). استمر نبأ وفاته (١٩٩٥) سرًا، والناس بين مصدّق وغير مصدّق، إلى أن أعلن رسميًا في نيسان ١٩٩٦. وفي حزيران ١٩٩٧، قال مفتي الشيشان أحمد قديروف (راجع «قديروف، أحمد» في هذا الباب «زعماء، رجال دولة وسياسة») إن زوجة الزعيم الشيشاني الراحل جوهر دودايف، الروسية الأصل، زارت غروزني ثم غادرتها إلى الخارج «ولا أعرف اين هي الآن. أما ابنها أصلان الذي جرح خلال المعارك فهو حاليًا في غروزني. وهناك أنباء عن عودة أقرباء دودايف وأفراد أسرته إلى العاصمة». وحمّل قديروف الروس مسؤولية قتل دودايف الذي قال إنه دفن قرب قرية روشينشو في الجبال وان «مكان الجثمان سيبقى سرًا على رغم الاقاويل التي يروجها الروس، ومن بينهم الجنرال ليبيد الذي قال ان دودايف حي يرزق (...) وسمعته شخصيًا يؤكد على التلفزيون انه شاهد دودايف يخرج في شوارع موسكو، وهذا مضحك». وبرّر المفتي عدم الكشف عن المكان الذي دفن فيه دودايف برغبة اشقاء الزعيم الراحل الاربعة، وقال: «في نيسان الماضي (١٩٩٧) أقمنا ذكرى سنوية بمناسبة استشهاده وفيها وعد الرئيس أصلان مسخادوف بإقامة ضريح وصرح حول قبره، إلا ان أقرباءه وخصوصًا اشقاءه الاربعة رفضوا ذلك، وقالوا لا نريد الكشف عن موضع دفنه أو إقامة ضريح فوق قبره بل بقاء المكان على حاله».

* **قديروف، أحمد:** مفتي جمهورية الشيشان الاسلامية. كان يشغل قبل حرب الاستقلال منصب نائب مفتي جمهورية الشيشان محمد حسين آل سبيكو الذي خرج إلى كازاخستان بعد شهرين من اندلاع حرب الاستقلال (١٩٩٤) معلنًا عبر التلفزيون انه يعارض الحرب ولا يعتبرها جهادًا. وقال قديروف، لـ«الحياة»، (٢٠ حزيران ١٩٩٧) التي التقاه مندوبها في العاصمة الأذربيجانية في طريق عودته من تركيا، إنه «بعد ثلاثة أشهر من اندلاع الحرب خرج الناس وطلبوا مني في آذار ١٩٩٥ ان أصبح مفتيًا عامًا للجمهورية، وكنا آنذاك في منطقة قدينور في الجبال».

وفي حديثه، تكلم عن الدعم التركي لبلاده، وخصوصًا من حزب الرفاه الذي سيعمل على تمويل مسجد ومجمع إسلامي في العاصمة غروزني. وعن ايران انها كانت خلال الحرب مؤيدة للسياسة الروسية، وعن الزعيم الراحل جوهر دودايف (راجع «دودايف، جوهر» في هذا الباب).

وعن «المجاهدين العرب» قال: «عددهم كان قليلاً... لم يتجاوز الخمسين وهم أتوا من مختلف البلدان: من السعودية والاردن وباكستان وطاجيكستان وحتى من أوكرانيا (...) لا أعرف كم كانت نسبة القتلى بينهم لكني دفنت بيدي إثنين منهم...».

وعن الشريعة والتربية واللغة العربية: «صارت لدينا محكمة شرعية وننوي بمشيئة الله ان يكون دستورنا الجديد مستمدًا من القرآن (...) ولا سبيل امام الروس إلا الاتفاق معنا (...) وان جمهورية إيتشكيريا الشيشانية تنوي الشروع ابتداء من السنة الدراسية المقبلة في تعليم اللغة العربية (...) وهناك الكثيرون من شبابنا ممن يدرسون في السعودية ومصر وتركيا والاردن وسورية ...».

* **مسخادوف، أصلان:** راجع «أصلان مسخادوف رئيسًا للجمهورية» وما تلاه في مطلع هذه المادة.

الصحراء الغربية

بطاقة تعريف

الموقع: شمال غربي افريقيا. يحيط بها المغرب والجزائر وموريتانيا والمحيط الاطلسي.
المساحة: ٢٨٦ ألف كلم م.. وتنقسم إلى قسمين: شمالي ويدعى الساقية الحمراء ومساحته ٩٢ ألف كلم م.؛ وجنوبي ويسمى وادي الذهب ومساحته ١٩٤ ألف كلم م..
العاصمة: العيون وتقع في أقصى الشمال (راجع «مدن ومعالم»). وأهم المدن سمارا الواقعة في القسم الشمالي وعدد سكانها نحو ٩ آلاف نسمة، وداخلا (شنيروس سابقًا، ايام الاستعمار الاسباني) الواقعة في القسم الجنوبي وتعد نحو ٧ آلاف نسمة.
ثمة حائط ضخم في اقصى الشمال للحماية من هجمات البوليساريو يعيش في جانبه الشمالي نحو ٢٢٠ ألف نسمة يضاف إليهم نحو ١٢٠ ألف عسكري.

اللغات: العربية بصورة أساسية، تليها الاسبانية.
السكان: أشار إحصاء ١٩٧٦ إلى ان تعدادهم بلغ ٧٢ ألفًا و٤٨٧ نسمة؛ وبلغ في ١٩٨٩ نحو ١٧٠ ألفًا؛ لكن جبهة البوليساريو حدّدت العدد بمليون نسمة، منهم ٤٠٠ ألف في المناطق الواقعة شمالي موريتانيا، و٢٥٠ ألفًا في منطقة طان-طان وطرفاية (وهناك حوالي ٨٠ ألفًا-١٠٠ ألف في مخيمات اللاجئين في المغرب، و٤٧ ألفًا في مخيمات مدينة تيندوف). والسكان جميعهم مسلمون.
ولا يزال يعتبر عدد سكان الصحراء الاصليين موضع خلاف في الوقت الحاضر (١٩٩٧)، وقد كان إحدى العقبات الكبرى التي تعترض سبيل إجراء استفتاء عام في الصحراء بمقتضى مشروع السلام الذي أعدته الامم المتحدة في العام ١٩٨٨.

الحكم: يدير المغرب الشؤون الادارية. لكن مع ثورة البوليساريو أقيمت «الجمهورية العربية الصحراوية» في المنفى برئاسة محمد عبدالعزيز (منذ ١٦ تشرين الاول ١٩٨٢)، وقد اعترف بها ٧٢ بلدًا، غالبيتها عادت وسحبت اعترافها في السنوات الأخيرة. والوضع لا يزال في حالة التجاذب بين المغرب والبوليساريو ويعرف تداخلاً إقليميًا (دول الاتحاد المغاربي) ودوليًا، ومساع للحل.

الاقتصاد: أرض البلاد الصحراوية وافتقارها إلى الماء وقسوة مناخها جعلت معظمها غير صالح للزراعة. وكان مصدر الثروة الرئيسي لدى سكانها الرحل قبل عهد الاستعمار هو تربية الماشية والاستفادة من تجارة القوافل بين أقطار المغرب العربي شمالاً ودول وسط وغربي افريقيا جنوبًا.

يوجد في الصحراء الغربية موردان مهمان هما الصخور الفوسفاتية الهائلة ذات الجودة العالية ومصائد الاسماك الوفيرة قرب ساحلها المطل على المحيط الاطلسي التي تستفيد منها اساطيل الدول الاجنبية ولا سيما الاسطول الاسباني. وتحتوي المنطقة على مخزونات معدنية مهمة أخرى (الحديد، البوتاس)، كما ان بعض الشركات قد نقب عن النفط ولم يعثر، حتى الآن، على كميات تجارية.

اكتشفت مخزونات الصخور الفوسفاتية في بوكراع على مسافة ١٠٠كلم إلى الجنوب الشرقي من العاصمة العيون في ١٩٤٧ خلال الاحتلال الاسباني للمنطقة، وقامت شركة اسبانية باستخراج الفوسفات بين ١٩٧٢ و١٩٧٥. وقبل بدء الحرب الصحراوية التي اندلعت عندما تنازلت اسبانيا عن الصحراء الغربية للمغرب وموريتانيا في ١٩٧٥، كان إجمالي الانتاج قد بلغ مليونين و٦٠٠ ألف طن سنويًا؛ وكان من المتوقع ان تتضاعف تلك الكمية اربعة أضعاف خلال السنوات الخمس التالية لتلك السنة. وقد نقص الانتاج عندما تمّ تخريب الحزام الذي كان ينقل الصخر الفوسفاتي إلى الساحل في السنوات الاولى من الحرب الصحراوية. إلا ان الانتاج استؤنف في ١٩٨٢، ويتحكم فيه المغرب في الوقت الحاضر.

ويعد وجود الفوسفات أحد أهم أسباب اهتمام المغرب بالصحراء الغربية. ولقد أصبح لدى المغرب ثلثا مخزون العالم من هذه المادة الاولية بالنظر إلى انه يتحكم في مخزونات الفوسفات في بوكراع، بالاضافة إلى مخزونات الصخور الفوسفاتية الكبيرة في المغرب ذاته. ومن المعادن المهمة الموجودة في الصحراء الغربية الحديد الذي يوجد في أغراشه في أقصى الجنوب. وهناك الملح وحجر الكُحل والنحاس والنيكل والكروم والبلاتين والمنغنيز واليورانيوم. وكانت أكثر من عشرين شركة عالمية قد حصلت خلال العهد الاسباني على امتيازات للتنقيب عن النفط بعدما أجرت اسبانيا عملية مسح لطبقات الارض. ولم تنشر نتائج عمليات التنقيب التي جرت، إلا ان الشركات ظلت مهتمة بالصحراء، ولا سيما قرب ساحل العيون وإلى الشمال مباشرة من تلك المنطقة قرب ساحل طرفاية في جنوبي المغرب.

نبذة تاريخية

قبل الاستعمار الاسباني: يرجّح المؤرخون ان بداية تاريخ الصحراء الغربية تعود إلى وصول عدد من القبائل الليبية الرحل إليها. وكانت الصحراء قد خضعت، منذ الفتح الاسلامي، في ٦٨٢، للنفوذ السياسي المغربي (المراكشي). ولكن المغرب اضطر إلى التراجع نحو حدوده في نهاية القرن الخامس عشر عندما أصبح مهددًا شمالاً بالغزو الاسباني، وشرقًا بالغزو التركي، وكذلك بغزو البرتغاليين الذين بدأوا يوجهون نشاطهم نحو افريقيا بحثًا عن طريق إلى الهند. وقد كانوا أول شعب أوروبي يصل إلى ساحل الصحراء في ١٤٣٦، وأطلقوا على المنطقة إسم «وادي الذهب».

الاستعمار الاسباني: كانت إسبانيا قد تمكنت من السيطرة على حزام ساحلي ضيق في المنطقة منذ ١٤٩١. لكن استعمارها بدأ في ١٨٨٤-١٨٨٦ عندما تمكن إميليو بونيللي من الاستيلاء على وادي الذهب (Rio de Oro) حيث أنشأت اسبانيا فيه، في ما بعد، مدينة فيلاشنيروس (التي اصبحت تدعى دخلا بعد الاستقلال)، واتخذت منها عاصمة للاقليم. وقد أعلنت اسبانيا استيلاءها على منطقة الصحراء في مؤتمر برلين (١٨٨٤-١٨٨٥) الذي انعقد للتنسيق بين الدول الاستعمارية في افريقيا. ولم يستقر الامر لاسبانيا إلا في العام ١٩٣٤، عندما اعترف الفرنسيون للاسبان بمنطقة احتلالهم. ومنذ ذلك الوقت أصبحت منطقة سيدي أفني، وطرفاية، والعيون، ومستعمرة وادي الذهب على الشاطىء الاطلسي، تابعة لاسبانيا.

نحو الاستقلال: كانت برزت، منذ بداية هذا القرن (القرن العشرون)، مقاومة شعبية للاستعمار الاسباني قادها الشيخ سيدي ماء العينين الذي يعتبر من أبرز القادة الدينيين والسياسيين الذين ظهروا في الصحراء الغربية في هذه الفترة (توفي ١٩١٠، وكان من أعظم امراء الصحراء الغربية وأكثر العلماء جاهًا وتأليفًا؛ تزوج على التوالي ١١٦ زوجة أنجب منهن ٦٨ ولدًا وبنتا).

وفي بداية الخمسينات، ظهر أول تهديد حقيقي للوجود الاسباني في الصحراء. فقد حارب، إلى جانب الصحراويين، جيش التحرير المغربي، وظهرت المطالب الاقليمية للمغرب الذي رفع دعوى على اسبانيا امام محكمة العدل الدولية في ١٩٥٧. وكذلك موريتانيا، فقد كانت تطالب بالصحراء. أما الجزائر فطالبت بحق تقرير المصير للشعب الصحراوي. كل ذلك من ضمن تحرك مشترك للدول الثلاث ضد اسبانيا، وهو ما أدّى- إلى جانب ضغوط أخرى-إلى إعلان الجنرال فرنكو، في ١٩٧٣، موافقته على استقلال الاقليم.

وفي ١٤ ايلول ١٩٧٥، أجريت مباحثات في مدريد بين اسبانيا وموريتانيا والمغرب، انتهت بموافقة اسبانيا على تصفية الاستعمار في الصحراء في ٢٨ شباط ١٩٧٦ بشكل نهائي، مع احتفاظ اسبانيا بحق إقامة قواعد عسكرية على شاطىء الصحراء، وحق الصيد في مياهها الاقليمية، والحصول على ٦٠٪ من فوسفات منطقة بوكراع الصحراوية. كما اتفقت الدولتان، المغرب وموريتانيا، على تقسيم الاقليم بموجب اتفاقية عقدت بينهما لتخطيط الحدود.

الاستقلال: إلا ان هذه الخطة المغربية-الموريتانية-الاسبانية اصطدمت بمقاومة كل من الحكومة الجزائرية وأهالي الصحراء الغربية ممثلين في جبهة البوليساريو (مختصر إسم «جبهة تحرير الصحراء ووادي الذهب»). فقد أعلنت الجزائر رفضها الاتفاقية، كما أعلنت ان الاطار الوحيد
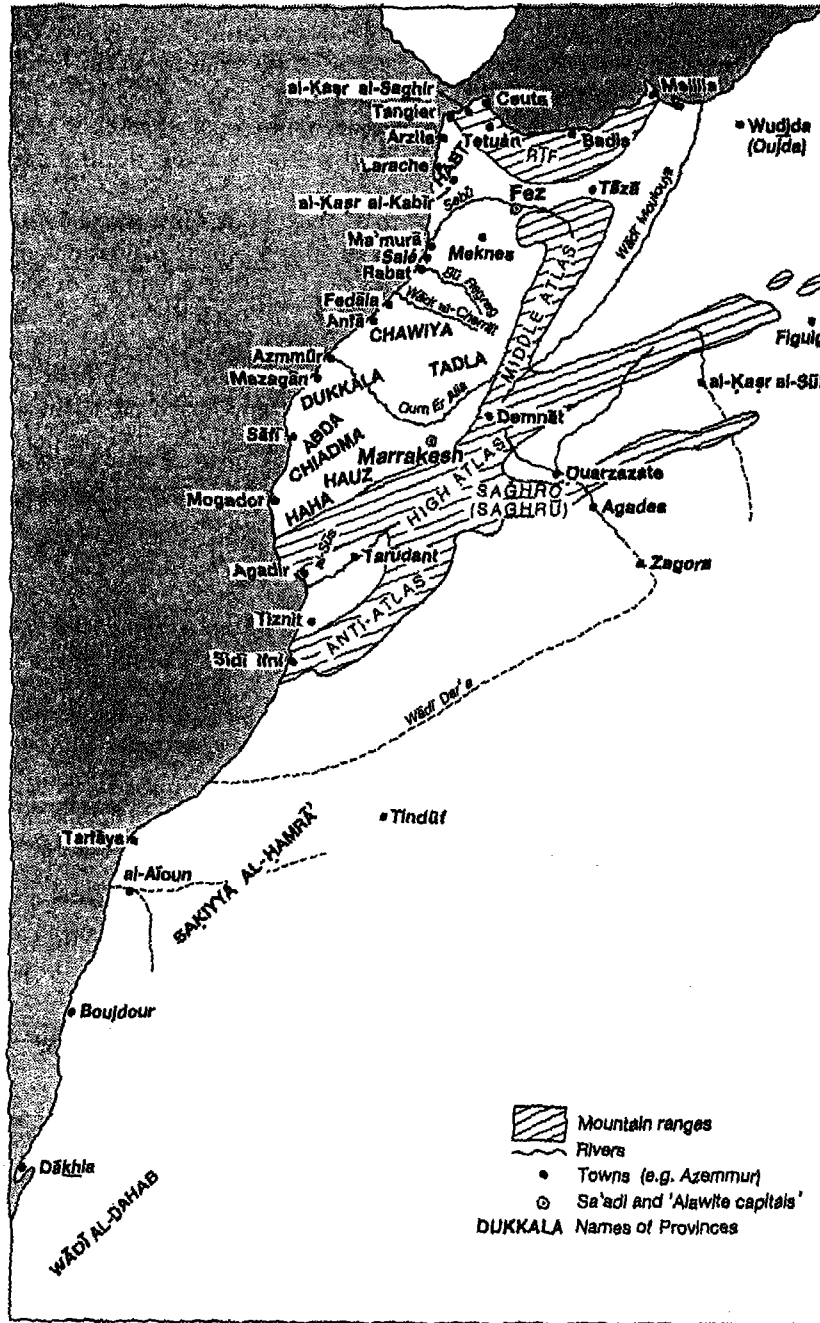
خريطة مراكش في القرنين السادس عشر والسابع عشر (عن كتاب «تاريخ افريقيا»، بالفرنسية، الاونسكو، يُعمل حالياً على تعريبه وطبعه ونشره في بيروت).

لتصفية الاستعمار في الصحراء يبقى داخل الامم المتحدة وعلى اساس حق تقرير المصير. وفي ٢١ تشرين الاول ١٩٧٥ قرر الملك الحسن الثاني توجيه مسيرة شعبية هائلة لتحرير الصحراء أطلق عليها إسم «المسيرة الخضراء» ضمت حوالي ٣٥٠ ألف مواطن، سلاحهم الوحيد مصاحف القرآن والايمان بعدالة قضيتهم. وكانت تلك المغامرة في الواقع مدروسة، إذ كان الجنرال فرنكو على فراش الموت ولن تجازف اسبانيا باطلاق النار على شعب أعزل. وأخيرًا قبلت اسبانيا بارجاع الصحراء إلى المغرب وموريتانيا، وبعقد اتفاق ثلاثي بهذا الشأن في ١٤ تشرين الثاني ١٩٧٥. ومن جهتها، أعلنت جبهة البوليساريو، في ٢٧ شباط ١٩٧٦ قيام «الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية» على الاراضي التي تسيطر عليها. وبدأت بتركيز عملياتها العسكرية ضد الموريتانيين الذين واجهوا صعوبات كثيرة في الاستمرار بتحالفهم مع المغرب ومواجهة ثوار البوليساريو. وقد أدّى هذا الوضع إلى إطاحة الرئيس الموريتاني مختار ولد داده، ومجيء الحكم العسكري الذي وقع اتفاقًا مع الجزائر في آب ١٩٧٩، والذي أعلنت فيه موريتانيا انه لا مطالب لها في الصحراء، وخروجها من دائرة الصراع، وإلغاء تحالفها العسكري مع المغرب.

كان الرد المغربي على ذلك هو قرار الملك المغربي الحسن الثاني بضم الجزء الذي كانت تسيطر عليه موريتانيا إلى المغرب. فازدادت عمليات البوليساريو على المواقع المغربية، وتحولت من مجرد مناوشات محلية صغيرة إلى معارك عنيفة (مثالها هجوم تشرين الاول ١٩٧٩، عندما اضطر الجيش المغربي إلى التخلي عن موقع دفاعي بارز في منطقة «محبس»).

الصحراء في إطار المغرب المعاصر: راجع باب «معالم تاريخية».

ما حققته البوليساريو على المستوى السياسي: حقق تحالف البوليساريو-الجزائر بعض الانجازات على المستويين السياسي والدولي: قرارات قمة ليبرفيل، وهافانا، ولجنة تصفية الاستعمار في الامم المتحدة. وفي ٥ آب ١٩٧٩، وقعت جبهة البوليساريو في الجزائر اتفاقية سلام نهائية مع موريتانيا اعترفت فيها الأخيرة بـ«الحقوق الوطنية لشعب الصحراء، وتعهدت بتسليم منطقة تيريس الغربية إليها، وهو الجزء الذي كانت موريتانيا تسيطر عليه منذ ١٩٧٥. كما نجحت البوليساريو في الحصول على تأييد عدة دول.

أما جامعة الدول العربية فقد مرّ موقفها، في هذه الفترة، بمرحلتين أساسيتين: الأولى، عندما كانت قضية الصحراء تمثل قضية عربية بين قضايا تصفية الاستعمار، فقد كان دور الجامعة العربية يتركز في اصدار القرارات التي تطالب الحكومة الاسبانية بضرورة الانسحاب من الصحراء. والثانية، اقتصر دور الجامعة على الوساطة بسبب تحول قضية الصحراء إلى بؤرة صراع بين المغرب والجزائر وموريتانيا.

وأما منظمة الوحدة الافريقية فقد لعبت دورًا محدودًا في حل تلك المشكلة. وقد صدر عنها عدة قرارات تدعو لوقف القتال وإجراء استفتاء الشعب الصحراوي لتقرير مصيره. وكان اطراف الصراع يفضلون الالتجاء إلى هيئة الامم المتحدة للنظر في القضية. وحتى ١٩٨١، كان هناك ٣٥ دولة افريقية تعترف بجبهة البوليساريو (وصل عدد الدول المعترفة بها، في ما بعد، إلى ٧٢ دولة)، وكانت تحتاج إلى خمس دول أخرى حتى تصبح عضوًا كاملاً في منظمة الوحدة الافريقية.

في آب ١٩٨١، اجتمعت «لجنة السبعة» (غينيا، كينيا، مالي، نيجيريا، سيراليون، السودان وتنزانيا)، المكلفة من منظمة الوحدة الافريقية إيجاد حل لمشكلة الصحراء، في نيروبي بحضور الملك المغربي الحسن الثاني، والرئيس الجزائري الشاذلي

بن جديد، في محاولة لايجاد الحل المستعصي منذ اندلاع النزاع الصحراوي في خريف ١٩٧٥. وقد قرّرت اللجنة ان تشرف بنفسها على استفتاء حول حق تقرير المصير للصحراويين، بمساعدة من قوات السلام الافريقية وقوات الامم المتحدة. لكن الاستفتاء لم يجر، والمعارك استمرت بين الجيش المغربي والبوليساريو التي تمسكت بمطلبها القاضي بفتح مفاوضات مباشرة مع السلطات المغربية.

وتحاشت منظمة الوحدة الافريقية دعوة «الجمهورية الصحراوية» لحضور اجتماعاتها كي لا تزيد من حدة الخلافات بين أعضائها. وبالفعل، وللمرة الاولى في تاريخ منظمة الوحدة الافريقية، لم يتمكن المجلس الوزاري للمنظمة من الانعقاد (تموز ١٩٨٢) بسبب مشكلة عضوية «الجمهورية الصحراوية». وفشله أدّى كذلك إلى عدم انعقاد القمة الافريقية في ليبيا (آب ١٩٨٢). وعلى اثر فشل مساعي التسوية، قررت البوليساريو تصعيد حربها ضد المغرب، كما قررت تخليها عن حضور القمة الافريقية، وأجرت (في تشرين الثاني ١٩٨٢) تعديلات حكومية حيث عينت محفوظ علي بيضا رئيسًا للوزراء في «الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية» (راجع «بوليساريو» في باب معالم تاريخية).

القمة المغربية-الجزائرية: وصلت «قضية الصحراء الغربية» ومعها «الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية»، وجبهة «البوليساريو» إلى مفترق مصيري مع انعقاد القمة المغربية-الجزائرية في ٢٦ شباط ١٩٨٣. وهذه القمة (العاهل المغربي الحسن الثاني والرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد) هي الاولى منذ قطع العلاقات بين البلدين في آذار ١٩٧٦ نتيجة الخلاف على الصحراء الغربية التي قرر المغرب ضمها إليه في تشرين الثاني ١٩٧٥. وعلى رغم ما جرى من حديث حول القمة من انها ربما أفلحت في الاتفاق على صيغة «تجميد سياسي» للمشكلة، خاصة وان البوليساريو رحّبت بالقمة، فإن المناوشات العسكرية استمرت، واستمرت معها تصريحات الجزائريين من انهم ليسوا في وارد التفاوض نيابة عن البوليساريو.

عودة إلى التصعيد العسكري والسياسي:

شهد تشرين الاول ١٩٨٤ قتالاً عنيفًا للمرة الاولى منذ قبل سنتين بين ثوار البوليساريو والجيش المغربي في منطقة زاك شمال شرقي الصحراء. وقبيل انعقاد القمة العشرين لمنظمة الوحدة الافريقية في أديس أبابا (تشرين الثاني ١٩٨٤) اعترفت نيجيريا

الى يمين الصورة العاهل المغربي الحسن الثاني، والى يسارها الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد.

بالجمهورية الصحراوية التي تمثلت في مؤتمر القمة برئيسها محمد عبد العزيز وبصفتها العضو الخمسين في المنظمة. احتج المغرب على عضوية الجمهورية الصحراوية وانسحب من المنظمة احتجاجًا، وجمّدت زائير عضويتها موقتًا تضامنًا مع المغرب. وبعد نحو اسبوعين اعترفت يوغوسلافيا بالجمهورية الصحراوية استنادًا على قبولها في قمة منظمة الوحدة الافريقية، فرد المغرب وقطع علاقاته مع يوغوسلافيا. وكان المغرب انجز في العام نفسه (١٩٨٤) الحائط الثالث والخمسين بطول ٣٢٠كلم في منطقة زاك (٨٠ ألف جندي مغربي).

في ٣٠ آب ١٩٨٨، وافق المغرب والبوليساريو على خطة سلام تقدمت بها الامم المتحدة: وقف اطلاق النار واستفتاء الصحراويين حول تقرير مصيرهم. وفي ٤ كانون الثاني ١٩٨٩، التقى الملك الحسن الثاني وقيادة البوليساريو، لكن المناوشات العسكرية استمرت. وفي كانون الثاني ١٩٩٢، تأجل الاستفتاء إلى موعد غير محدد.

موضوع تحديد الهوية والاحصاء: كان الأساس وحجر الزاوية في موضوع تحديد هوية الصحراويين هو الإحصاء السكاني الذي أجرته اسبانيا في الصحراء الغربية عام ١٩٧٤، وهو الاحصاء الذي يحدد سكان المنطقة بـ٧٤ ألف مواطن صحراوي. وكان طبيعيًا ان يضاف إلى هذا العدد نسبة معقولة من الاشخاص الذين ولدوا في الصحراء الغربية خلال السنوات اللاحقة (وصولاً إلى التسعينات ومحاولات الحل عبر احصاءات جديدة اقترحتها مساعي الحل، راجع في ما بعد). و لم يلبث هذا الإحصاء «الاسباني» حتى دب الخلاف حوله. فالبوليساريو اعتبرته انه أقل من الواقع السكاني في الصحراء الغربية، وزعمت ان العدد كان يقارب المليون نسمة، وهو ما ردّ عليه المغرب بأن البوليساريو تدخل في هذا الزعم اعدادًا من المهاجرين غير الشرعيين جاءوا إلى الصحراء من الدول الافريقية المجاورة. فعادت البوليساريو وأقرت باحصاء ١٩٧٤ مع إضافة نسبة ما بين ١٠٪ أو ١٥٪ من مجمله، وهم الذين ولدوا في الصحراء الغربية منذ ١٩٧٤.

أما المغرب، فقد شكك ايضًا باحصاء ١٩٧٤، وأورد العديد من الحجج والبراهين مستندًا إلى ما ورد في مقدمة الاحصاء نفسه ومن وثائق اسبانية تؤكد ان آلاف الصحراويين قد اضطروا إلى مغادرة الاقاليم الصحراوية عام ١٩٥٨ بعد المجازر التي ارتكبتها القوات الاسبانية والفرنسية في ما عرف آنذاك باسم «عملية المكنسة»، وان هؤلاء الفارين لجأوا إلى شمالي المغرب قبل إجراء هذا الاحصاء الذي لم يشملهم بينما هم صحراويون لهم الحق في التصويت في أي استفتاء يجري في الصحراء. وقدّم المغرب قوائم تضم ١٢٠ ألفًا. وقد سلّم بمبدأ عدم شرعية إحصاء ١٩٧٤ مشروع الامين العام للامم المتحدة، دي كويلار، الذي وافق عليه الجميع في ١٩٩١.

وعندما بدأت عمليات تحديد الهوية استقدم المغرب هؤلاء الهاربين من سكان الصحراء وأقام لهم الخيام ووسائل المعيشة في مناطق العيون وسمارة والداخلا (الداخلة)، الأمر الذي رفضته البوليساريو وثارت عليه زاعمة ان أي استفتاء يجري على هذا الأساس هو استفتاء لا يخص شعب الصحراء، بينما تمسك به المغرب في حزم، حتى بعد ان حاول الدكتور بطرس غالي (الامين العام الجديد للامم المتحدة) ان يقرّب بين وجهتي النظر باقتراح حل وسط يأخذ في اعتباره عدة معايير كثبوت تسجيل الراغبين في المشاركة في الاستفتاء وتسجيلهم في لوائح الاحصاء الاسباني ١٩٧٤، وان يثبت تحدر طالب التسجيل من أب ولد في الصحراء، أو ان يكون من عائلة صحراوية معروفة اقامت في

الصحراء مدة ست سنوات متصلة أو إثنتي عشرة سنة متقطعة. إلا انه لم يقدر هذا الحل الوسط ان يجد مجالاً للتطبيق لتمسك الطرفين، المغرب والبوليساريو، بوجهتي نظرهما.

أهم الأحداث بدءًا من ١٩٩٣

في ١٩٩٣: عضو مجلس العموم البريطاني (حزب المحافظين) سيريل تاونسد، ومايك واطسون (حزب العمال) واللورد ريديسديل (مجلس اللوردات)، زاروا مواقع جبهة البوليساريو المتناثرة في جنوب غربي الجزائر في ٦-٨ تشرين الاول ١٩٩٣؛ وتباحثوا مع عدد من المسؤولين في «الجمهورية الصحراوية» على رأسهم رئيس جبهة البوليساريو محمد عبد العزيز و«رئيس الوزراء والوزراء». «ثمة نزاع على العدد الحقيقي لسكان المخيمات الاربعة المتفرقة، غير اني، وبعدما تحدثت في هذا الشأن إلى مسؤولي بوليساريو ودبلوماسيين في الجزائر، اعتقد انها تضم ١٧٥ ألف شخص (...) يتعين على الرجال حتى سن الستين الخدمة بعيدًا عن المخيمات وفي الجيش في المناطق التي تعتبرها بوليساريو الصحراء الغربية المحررة وتبلغ مساحتها نحو ٣٠٪ من جملة اراضي الصحراء، كذلك المنطقة الواقعة شرقي حائط الصحراء الكبير، وهو حاجز رملي كبير بناه المغاربة ويحمونه جيدًا بالرجال والألغام واجهزة الرادار. وتقر البوليساريو بأنها لن تتمكن من إلحاق الهزيمة بخصم أفضل منها عتادًا وعدة، وهو الجيش المغربي، لكنها تستطيع ان تجعل بقاء افراده في الصحراء الغربية محفوفًا بالمخاطر. وهكذا فثمة جمود يطوق الازمة (...) إن الشعب الصحراوي يعيش حياته لكنه، أسوة باللاجئين الفلسطينيين، يتحدث إلى ما لا نهاية عن العودة إلى وطن ذات يوم. وعلى رغم انشقاق بعض كبار مسؤولي بوليساريو منهم (وزير خارجيتها السابق) ابراهيم حكيم، إلا ان الشعب الصحراوي متمسك بمواقفه (...) وهو حريص على زيادة الانجاب، ولا شك ان عدد افراده متزايد. وقد تمكن الصحراويون من الحصول على مساندة كبيرة من جانب كل من منظمة الوحدة الافريقية والجمعية العامة للامم المتحدة. ويبلغ عدد الدول التي تعترف ببوليساريو ٧٤ دولة. لكن المملكة المتحدة (بريطانيا) لا تعترف بها ولا تعترف ايضًا بأحقية المغرب في اراضي ذلك الاقليم. وكان مجلس الامن تبنى في وقت سابق هذا العام (١٩٩٣) قراره الرقم ٨٠٩ ودعا فيه الامين العام للامم المتحدة بطرس غالي إلى تكثيف مساعيه لحل المشكلة العالقة في شأن هوية الناخبين الصحراويين، وذلك على أثر القلق الذي نجم عن تأخير اجراء الاستفتاء الذي سيحدد مستقبل الاقليم. وقد زار الامين العام وممثله الخاص صاحب زاده يعقوب خان المنطقة في حزيران ١٩٩٣. وعقد المغرب والبوليساريو اجتماعًا على اثر ذلك في مدينة العيون (تموز ١٩٩٣) في أجواء معقولة» (سيريل تاونسد، «الحياة»، العدد ١١٢١٧، تاريخ ٣٠ تشرين الاول ١٩٩٣، ص١٣).

في ايلول ١٩٩٣، أجرى رئيس البوليساريو، محمد عبد العزيز، تعديلاً على حكومته أهم ما جاء فيه تعيين ابراهيم غالي في وزارة الدفاع، وهو يعتبر من المتشدّدين إزاء المغرب وإزاء مساعي الامم المتحدة لايجاد حل للنزاع. وبعد نحو شهر، أعلن في نيويورك فشل ممثل الامين العام للامم المتحدة في مسألة الصحراء الغربية صاحب زادة يعقوب خان في عقد جولة ثانية من المحادثات المباشرة بين المغرب وجبهة بوليساريو. كما أعلن في الرباط ان وزير الخارجية المغربي الدكتور عبد اللطيف الفيلالي ابلغ الامين العام للامم المتحدة ان بلاده لن تتفاوض مع البوليساريو.

في ١٩٩٤: في الاسبوع الاول من كانون

الثاني، زار وزير الداخلية الفرنسي شارل باسكوا مدينة العيون وسط ترحيب من المغرب وخيبة من البوليساريو. وكانت الحكومة الفرنسية رفضت، قبل نحو شهر، الاستجابة لطلب البوليساريو عقد لقاء في باريس يجمعها مع المغرب. وكانت تقارير فرنسية تتحدث عن فقدان البوليساريو لامتيازاتها العسكرية والسياسية منذ ان نجح المغرب في بناء الجدران الامنية في اواسط الثمانينات.

وبعد نحو اسبوع، جال صاحب زادة يعقوب خان (ممثل الامين العام للامم المتحدة) في عواصم البلدان المعنية لتحريك خطة الامم المتحدة لتنظيم الاستفتاء في حزيران (١٩٩٤). وكانت بعثة «المينورسو» التابعة للامم المتحدة التي تراقب اطلاق النار تفاءلت بامكان البدء في تسجيل السكان في قوائم المقترعين قبل نحو ثلاثة أشهر. إلا ان هذه المهمة لم تبدأ في انتظار الاتفاق على تحديد المعايير النهائية للسكان المشاركين في الاقتراع، والبدء في هذه العملية في وقت واحد، في المحافظات الصحراوية الواقعة تحت نفوذ المغرب وفي مراكز تجمع البوليساريو جنوبي الجزائر وشمالي موريتانيا.

في آذار، قام وزير خارجية المغرب الدكتور عبد اللطيف الفيلالي بجولة شملت عواصم الدول الاعضاء في مجلس الامن لدعم تنفيذ خطة الامم المتحدة لاجراء استفتاء تقرير المصير. وجاءت هذه الجولة بعد بدء لجنة تابعة للامم المتحدة تسجيل السكان المتحدرين من اصول صحراوية في قوائم المقترعين.

قرار مجلس الامن والموقف الاميركي: في ٣٠ آذار (١٩٩٤)، تبنى مجلس الامن بالاجماع القرار ٩٠٧ الذي أيّد فيه عزم الامين العام، بطرس غالي، على ان يواصل جهوده لتحقيق التعاون من جانب الطرفين. وطلب إلى الامين العام ان يقدم تقريرًا إلى المجلس في موعد لا يتجاوز ١٥ تموز (١٩٩٤) عن التقدم في أعمال لجنة تحديد الهوية. ووافق على الاجراء في الخيار «باء» من تقرير الامين العام الذي يتعين على لجنة تحديد الهوية

قادة البوليساريو. في الصف الامامي محمد عبد العزيز الذي يضع النظارات.

بموجبه ان «تنجز تحليل كل الطلبات الواردة وتشرع في تحديد هوية وتسجيل الذين يحق لهم الاشتراك في الاستفتاء في حلول ٣٠ حزيران (١٩٩٧) على اساس الاقتراح التوفيقي المقدم من الامين العام، وصلاحيات لجنة تحديد الهوية والاحكام ذات الصلة في خطة التسوية». وحض قرار مجلس الامن على «التقيد الصارم بالجدول الزمني للخيار «با» المحدد في الفقرة ٢٤ من تقرير الامين العام بهدف اجراء الاستفتاء في نهاية ١٩٩٤». وأعرب المجلس عن «بالغ قلقه إزاء استمرار الصعوبات والتأخير في عمل لجنة تحديد الهوية». ودعا إلى التعاون التام مع الامين العام وممثله الخاص ولجنة تحديد الهوية في الجهود الرامية إلى تنفيذ خطة التسوية التي قبلها الطرفان، المغرب وبوليساريو.

وأصدرت الحكومة الاميركية بيانًا شدّد على أهمية الانتهاء من تسجيل الناخبين قبل ٣٠ حزيران (١٩٩٤)، وجاء فيه ان «الحكومة الاميركية تحض الطرفين على التعاون مع الامم المتحدة لتحقيق هذا الهدف».

وتوقف البيان الاميركي عند الفقرة (من قرار مجلس الامن) التي تدعو الامين العام إلى اقتراح ما ينبغي إدخاله من تعديلات على الدور والمستوى الحاليين لبعثة الامم المتحدة في الصحراء الغربية خلال الأشهر الثلاثة المقبلة. وانطوى البيان الاميركي على التهديد بسحب دعم الولايات المتحدة لعملية الامم المتحدة في الصحراء. ونص على ان «إرادة الامم المتحدة ليست بديلاً عن ارادة الاطراف» (بعد وقت غير طويل، بدأ المسؤول الاميركي-وزير خارجية سابق-جيمس بايكر وساطة اميركية في النزاع الصحراوي).

وأيد المغرب قرار مجلس الامن، واتهم الجزائر والبوليساريو بعرقلة جهود الامم المتحدة، واعتبر (في أجواء التحضير للقمة الافريقية في تونس، قمة منظمة الوحدة الافريقية) ان اعترافات الدول (حوالي ٧٢ دولة) بـ«الجمهورية الصحراوية» خطأ قانوني وسياسي لا بد من تصحيحه، وعين الملك المغربي الدكتور الفيلالي رئيسًا للحكومة المغربية. وزار الملك الاسباني موريتانيا في تحرك يبقي التأثير الاسباني في المنطقة، خاصة وان اسبانيا لا تزال تحتل سبتة ومليلة.

وفي القمة الافريقية (تونس، حزيران ١٩٩٤)، برز تصعيد للخلاف بين المغرب والجزائر بشأن خطة الحل الدولي في الصحراء. ولم تنجح زيارة ممثل الامين العام للامم المتحدة المنطقة في تفعيل أسس ومعايير الاستفتاء (تموز ١٩٩٤)، ولا زيارة الامين العام بطرس غالي ولقاؤه العاهل المغربي وزعيم البوليساريو (تشرين الثاني ١٩٩٤). وانتهى العام، ومعه الموعد المقرر لإجراء الاستفتاء وتحديد هوية الصحراويين وتقرير مصيرهم، من دون اتخاذ الامم المتحدة لأي إجراء عملي ومقبول من الاطراف المعنية على هذا الصعيد، سوى تأجيل الموعد إلى تشرين الاول ١٩٩٥.

في ١٩٩٥: لكن الامين العام للامم المتحدة عاد، في اول نيسان ١٩٩٥، واقترح موعدًا جديدًا هو الشهر الاول من ١٩٩٦، بهدف الحصول على دعم دولي أفعل لانهاء النزاع الصحراوي وفق معايير جديدة لاستفتاء الصحراويين وتحديد هويتهم. إلا ان البوليساريو، على لسان مصطفى بشير، الرجل الثاني فيها ومنسّقها في خطة الامم المتحدة، اتهم بعثة المينورسو المكلفة الاشراف على الاستفتاء «انها تعمل في الظلام»، وهدّد بمعاودة البوليساريو حمل السلاح في حال فشل ا لامم المتحدة، وجدّد طلب إجراء مفاوضات مباشرة مع المغرب. وعزا المراقبون هذا التصعيد في موقف البوليساريو إلى تخوفها من ان لا تأتي عمليات الاحصاء التي تجريها المينورسو لمصلحتها، فانسحبت في حزيران

(١٩٩٥) من عملية تسجيل الناخبين في الاستفتاء حول استقلال الاقليم أو اندماجه مع المغرب.

لكن في ١٣ تموز (١٩٩٥)، غيرت البوليساريو موقفها وقررت استئناف مشاركتها «بعدما جدّد مجلس الامن في ٣٠ حزيران (١٩٩٥) تفويض بعثة الامم المتحدة في الصحراء» (من بيان أرسلته من مقرها في تيندوف في جنوب غربي الجزائر). واستمرت الاتهامات المتبادلة بعرقلة خطة السلام الدولية بينها وبين المغرب. لكن الجانبين استمرا يحترمان منذ ايلول ١٩٩١ وقفاً لاطلاق النار تشرف عليه بعثة الامم المتحدة.

في آب (١٩٩٥)، عقدت البوليساريو مؤتمرها التاسع في تيندوف، وانتخبت قيادة جديدة من ٣٣ عضواً، واستمر محمد عبد العزيز الرجل الاول في الجبهة وفي «الجمهورية الصحراوية»، وهدّد، في حديث نشر في الجزائر، باستئناف الحرب ضد المغرب إذا استمر في «عرقلة» عملية السلام، واتهم الامم المتحدة بـ«مسايرة» الرباط. وبعد نحو اسبوعين من المؤتمر، أعلنت «وزارة الاعلام الصحراوية» في بيان اصدرته في الجزائر ان محفوظ علي بابيا رئيس وزراء «الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية» التي اعلنتها جبهة البوليساريو في الصحراء الغربية، شكل حكومة جديدة من ١٤ وزيراً احتفظ فيها وزير الدفاع ابراهيم غالي بمنصبه.

ونتيجة لاستمرار الاطراف في مواقفها وتعثر عملية الاستفتاء، مدّد مجلس الامن لبعثة الصحراء «مينورسو»، وقرّر إجراءات لتسريع تنفيذ الخطة.

في ١٩٩٦: في كانون الثاني، تزايد الحديث عن منشقين داخل البوليساريو يعودون إلى المحافظات الصحراوية الخاضعة لنفوذ المغرب؛ وفي شباط، عن تزايد الوساطات بين المغرب والبوليساريو، وعن تلويح الامم المتحدة بالتخلي عن خطة استفتاء تقرير المصير. وبمناسبة الذكرى العشرين لضم المحافظات الصحراوية، وجّه المغرب انتقادات للدول الغربية والجزائر بسبب موقفها من جبهة البوليساريو وأكد عدم تخليه عن الصحراء (اواخر شباط-اوائل آذار).

وبسبب عدم إحراز أي تقدم، علّقت (في ايار) الامم المتحدة عمليات تحديد هوية السكان المتحدرين من اصول صحراوية، «إذ ظهر جليًا ان الخلاف القائم بين المغرب والجزائر انعكس سلبًا على جهود الامم المتحدة (كانت الجزائر استدعت، في آذار، ٧٠ ألف احتياطي واقدمت المغرب على حشود متبادلة، ... من دون ان يعني ذلك أي تراخ في النية على ضمان تنفيذ خطة التسوية».

وفي اواخر تموز، عاد الوسيط الدولي الجديد، اريك جونسون، الذي عيّن خلفاً لصاحب زادة يعقوب ممثلاً للامين العام بطرس غالي، ليحرك مساعي التسوية بجولة في المنطقة. كما كان نزاع الصحراء ضمن المحادثات التي اجراها رئيس جنوب افريقيا نلسون مانديلا، الذي كان يعتزم (قبل نحو أربعة أشهر) الاعتراف بالجمهورية الصحراوية، مع عدد من قادة الدول الافريقية، وفي مقدمهم الرئيس الجزائري اليمين زروال والرئيس التونسي زين العابدين بن علي والرئيس الموريتاني والزعيم الليبي وزعيم البوليساريو، كما اجرى اتصالاً هاتفيًا مع العاهل المغربي. وبدا ان هذه المشاروات جعلت الرئيس مانديلا يعاود النظر في قرار الاعتراف بالجمهورية الصحراوية، خاصة وان العلاقات فاقمت من توترها بين المغرب والجزائر.

وفي اواسط آب، أكد زعماء قبائل صحراوية ومنشقون عن جبهة البوليساريو تشبثهم بالانتساب إلى المغرب، في تجمع حاشد في مدينة الداخلا، جنوبي المحافظات الصحراوية، لمناسبة ذكرى انضمامها إلى المغرب في صيف ١٩٧٩. وفي تشرين الثاني، وقعت مواجهات مسلحة

محدودة على الحدود المغربية-الجزائرية.

تراجع الاعترافات الدولية: حتى بداية ١٩٩٦، كانت تعترف بـ«الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية»، التي تساندها الجزائر، ٧٠ دولة معظمها أعضاء في منظمة الوحدة الافريقية. وانسحب المغرب من المنظمة في ١٩٨٤ احتجاجًا على قبول «الجمهورية الصحراوية» عضوًا فيها. وظل مقعد المغرب شاغرًا منذ ذلك الحين.

في صيف ١٩٩٦، حضّ ديفيد تشارلز كاناو رئيس وزراء الكونغو (برازافيل)، بعد ان قطعت بلاده روابطها بـ«الجمهورية الصحراوية»، الدول الافريقية على ان تعيد النظر في اعترافها بجبهة البوليساريو والجمهورية الصحراوية. وقد وجّه هذه الدعوة اثناء زيارته الرسمية للمغرب (ايلول ١٩٩٦)، وقال ما كان المسؤولون المغاربة يرددونه: «الاعتراف بالجمهورية العربية الصحراوية لا يحل نزاع الصحراء الغربية بل في الواقع فانه أدّى إلى انقسامات خطيرة داخل منظمة الوحدة الافريقية. وحان الوقت لنقول إن الاعتراف بها كان خطأ سياسيًا».

وكذلك علّقت البيرو اعترافها بـ«الجمهورية الصحراوية». وأعلنت جمهورية ساو تومي برنسيب قرارها سحب اعترافها بها «بعد بحث عميق لكل جوانب قضية الصحراء حرصًا على تيسير خطة تقرير المصير». وكذلك، إلى الكونغو والبيرو وساو تومي برنسيب، فعلت بوركينا فاسو وسان لويس وغينيا الاستوائية وجزر سليمان (سالومون).

ومن اللافت، في موضوع الاعترافات الدولية وبدء مسلسل سحب هذه الاعترافات ان الجزائر، المعتبرة المساند الاول لجبهة بوليساريو في نزاعها مع المغرب، لم تعترف دبلوماسيًا بـ«الجمهورية الصحراوية». وقد صرّح منشقون

جيمس بايكر.

قياديون عن الجبهة ان الجزائر ابلغتهم مرات عدة انها «لا ترغب في إقامة دولة صحراوية».

في ١٩٩٧، وساطة جيمس بايكر: في الشهر الاول، تحدثت أنباء عن تفاقم الصراع داخل البوليساريو لأسباب سياسية وتنظيمية متصلة باتهامات يتبادلها بعض قادتها حول «الثراء غير المشروع». وفي آخر الشهر (كانون الثاني)، أعلن الامين العام الجديد للامم المتحدة كوفي أنان الذي خلف بطرس غالي: «ندرس من جديد حضورنا في الميدان ونحاول ان نرى على المستوى الدولي أي مبادرة أخرى يمكن اتخاذها، كما أننا نفكر إن كان من المناسب توجيه طلب لبلدان أخرى للعمل بجانبنا للخروج من المأزق». (وبعد أقل من ثلاثة أشهر بدأت مبادرة الوسيط الاميركي، وزير الخارجية السابق جيمس بايكر).

وفي نيسان، بدأ بايكر تحركه، ممثلاً للامين العام للامم المتحدة، بزيارة المغرب، ثم الجزائر، ثم تيندوف (مقر قيادة البوليساريو).

وفي ١١ حزيران، بدأت في لندن محادثات مغلقة بين الاطراف المعنية بأزمة الصحراء (المغرب، بوليساريو، الجزائر، موريتانيا) برعاية بايكر. وعقدت جولة جديدة في ليشبونة في ٢٢ حزيران. ثم استؤنفت المحادثات في لندن من جديد (تموز) قال على أثرها بايكر: «أنا سعيد بأننا توصلنا إلى اتفاق في شأن اقتراحات ردم الهوة التي قدمناها في ليشبونة»؛ وأوضح ان الجانبين قبلا اقتراحاته التي طرحها في اجتماعات العاصمة البرتغالية. وحضر مفاوضات لندن بين المغرب والبوليساريو وفدان من موريتانيا والجزائر بصفة مراقب. وأشاد بايكر بالتفهم الذي أبداه المغرب والبوليساريو والجزائر.

وفي آخر آب، عقدت الجولة الرابعة من المفاوضات في ليشبونة (جولتان في لندن وجولتان في ليشبونة حتى هذا التاريخ) برعاية بايكر ايضًا الذي أعلن ان الطرفين نجحا في تذليل بعض الصعوبات وتجاوز بعض الخلافات، بخاصة في ما يتعلق بتحديد مراكز تجميع قوات الطرفين والسماح بعودة اللاجئين واطلاق الأسرى. وأعلن ان الاجتماع المقبل (الجولة الخامسة) سيعقد في الولايات المتحدة بين ١٣ و١٤ ايلول (١٩٩٧)، و«ستكون آخر محاولة للتوصل إلى اتفاق شامل قبل انتهاء بعثة الامم المتحدة المكلفة اجراء الاستفتاء في الصحراء في نهاية ايلول».

وقبل بدء الجولة الخامسة في هيوستن (ولاية تكساس الاميركية) بنحو اسبوع، أعلن سفير ليبيريا في الرباط سحب بلاده اعترافها بـ«الجمهورية الصحراوية» والتزامها دعم خطة الامم المتحدة لتنظيم الاستفتاء. وجاء ذلك في سياق عام يشهد تقدمًا مغربيًا على المستويين الافريقي والعالمي، يقابله تراجع جزائري بسبب الازمة الداخلية المستفحلة في الجزائر.

في ١٤ ايلول بدأت جولة هيوستن، ودائمًا برعاية بايكر الذي أعلن، بعد يومين، عن تحقيق «تقدم رئيسي جوهري» في المحادثات، وعن ان «المحطة المقبلة تعتمد على مجلس الامن في نيويورك»؛ وأوضح ان في حال البدء اليوم في تنفيذ ما تمّ الاتفاق عليه فإن المدة التي سيستغرقها التحضير للاستفتاء ستتراوح بين ١٠ شهور و١١ شهرًا. ولم يكشف أي طرف عن مضمون الاتفاق، لكن تفاؤلاً حذرًا ساد عواصم البلدان المعنية على اساس ان بايكر حقق، في هيوستن ما كان يبدو، حتى وقت قريب، امرًا مستحيلاً، حين نجح في الحصول على توقيع طرفي النزاع على ثلاث اتفاقيات هي بمثابة الركيزة للاستفتاء المرتقب، لصلتها المباشرة بالاجراءات المنظمة له، لا سيما استئناف عملية تحديد هوية المقترعين التي كان الامين العام السابق الدكتور بطرس غالي قد أعلن عن موتها في ٨ ايار ١٩٩٦. وقد عزا البعض هذا النجاح إلى جنسية (الاميركية) الوسيط الدولي هذه المرة.

مَن هم المستفتون؟: بعد جولة هيوستن والاتفاقيات التي أسفرت عنها حدّد الامين العام للامم المتحدة كوفي أنان السابع من حزيران ١٩٩٨ موعدًا لبدء الفترة الانتقالية التي تسبق تنظيم الاستفتاء في الصحراء الغربية المقرر في ٦-٧ كانون الاول ١٩٩٨. لكنه رهن، في تقرير قدمه إلى مجلس الامن، إحراز التقدم في المساعي المبذولة بمعاودة استئناف أعمال لجنة تحديد الهوية في بداية كانون الاول ١٩٩٧ على نحو ما اتفق عليه المغرب والبوليساريو في محادثات لندن وهيوستن، وكذلك بتنفيذ جميع الاحكام الواردة في خطة التسوية التي تلزم تعاونًا شاملاً مع مجلس الامن.

أما اتفاقيات هيوستن فلم يُعلن بعد (وقد مرّ عليها نحو شهرين ونصف الشهر) عنها إلا بعض العناوين العامة: في ١٦ ايلول ١٩٩٧، توصل الجانبان، المغرب والجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء وريو أورو-ساقية الذهب- («البوليساريو») إلى اتفاق لاطلاق خطة السلام

في الصحراء الغربية، وتبادل المسجونين، وتحرير الموقوفين السياسيين، والسماح بعودة اللاجئين، وتنظيم الاستفتاء حول نظام هذا الاقليم المتنازع عليه منذ أكثر من عشرين عامًا (استقلال أو ضم للمغرب) في كانون الاول ١٩٩٨.

السؤال-المفتاح هو المتعلق بالضبط بهؤلاء المستفتين أو المقترعين. فلم تعلن بعد عن آلية محدّدة ومرتكزة على معايير معينة لإجراء هذا الاستفتاء.

الشهرية الفرنسية «لوموند ديلوماتيك» (تشرين الثاني ١٩٩٧، ص٩) كتبت تقول: «يقدر جيمس بايكر عددهم (المقترعين) بأكثر بكثير من الـ٨٠ ألفًا. ومن جانبه، محفوظ علي بايبا، رئيس وزراء الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية والموقّع على اتفاقيات هيوستن، يعتبر ان العدد هو تقريبي فقط (...) في ١٩٩٥، كان عدد الاشخاص المقدّر لهم ان يقترعوا يقارب ٢٣٠-٢٥٠ ألفًا إذا اضيف لهم عدد المهاجرين الصحراويين في الجزائر وموريتانيا وجزر الكناري واسبانيا وفرنسا (...) وإذا كان المغرب غير متأكد من ان الاستفتاء سيكون لمصلحته، فهل سيبادر إلى إلغائه؟ يعتبر جورج جوفي (أحد أكبر خبراء المنطقة والمدير الحالي لقسم دراسات الشؤون الدولية في المعهد الملكي في لندن) ان من الصعب جدًا تصور المغرب، المستفيد الأكبر من ضعف الجزائر بسبب أزمتها الداخلية، متسامحًا في كل ما يخص مطالبه في الهيمنة الاقليمية».

تقديرات خطة الامين العام للامم المتحدة كوفي أنان تتوقع ان تستغرق عودة اللاجئين ١٤ شهرًا (بدءًا من ٧ كانون الاول ١٩٩٧، الموعد المتوقع للبدء في تنظيم الاستفتاء) والحملة الانتخابية للاستفتاء ٣ اسابيع، والكلفة الاجمالية لمهام بعثة الامم المتحدة (المينورسو) ١٢٩ مليون دولار.

وسترتكز عملية تحديد الهوية إلى المعايير الخمسة المصادق عليها والتي تشمل السكان المسجلين في الاحصاء الاسباني لعام ١٩٧٤، واعضاء كل قبيلة صحراوية أو «فخذات» هذه القبائل الذين كانوا يعيشون في المنطقة خلال الاحصاء، والاقارب من أصول وفروع عائلات الاشخاص المنتمين إلى إحدى الفئتين السابقتين، وكذلك الاشخاص من أب صحراوي ولد في المنطقة، وكل شخص متحدر من قبيلة صحراوية أقام في المنطقة مدة ٦ سنوات متوالية أو ١٢ سنة بشكل متقطع.

في ٣ كانون الاول ١٩٩٧، بدأت اعمال لجنة تحديد الهوية لتسجيل السكان المتحدرين من أصول صحراوية في قوائم اقتراع الاستفتاء الصحراء الغربية. وقد وصل لهذه الغاية وفد الامم المتحدة يرأسه روبرت فرانسيس كينلوك الذي عهد إليه الامين العام كوفي أنان رئاسة لجنة تحديد الهوية. وفي اواخر الشهر (كانون الاول ١٩٩٧) أعلنت مصادر الامم المتحدة عن صعوبات تواجه لجنة تحديد الهوية متعلقة بلوائح التسجيل التي تقدم إليها.

معالم تاريخية

□ **«ارض بلا صاحب»**: راجع «الصحراء امام محكمة العدل الدولية» في هذا الباب، معالم تاريخية.

□ **«بوليساريو»**: (جبهة تحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب): البيان الاول لهذه الجبهة صدر في ١٠ ايار ١٩٧٣، وصيغ بعبارات واسلوب اليسار، القومي والأممي، الذي كان معروفًا وقتئذ، كما جاء متأثرًا بنمط الثورة الاشتراكية الجزائرية كمثال يقتدى به.

في البداية كانت هناك مظاهرات في طان-طان (١٩٧٢) تطالب بالسلاح لتحرير الصحراء. وعندما تمّ قمعها أخذت تتشكل مجموعات من شباب طان-طان وأخرى من الشباب الموريتاني في تيندوف وبشار؛ ومن هذه المجموعات بدأت البوليساريو بقيادة الولي مصطفى السيد الذي لقي مصرعه في نواكشوط وهو يقود معركة عسكرية في ٩ حزيران ١٩٧٦. وبدأ تأييد الجزائر ودعمها للبوليساريو. ومعظم من التحقوا بها كانوا في سن الشباب وكانوا متأثرين بالافكار اليسارية، خاصة تلك التي كانت سائدة في فرنسا (١٩٦٨). الرئيس الاول للبوليساريو، الولي مصطفى السيد، كانت عنده خلفية اسلامية، وتعلم في جامعة الرباط واختلط بعناصر من اليسار المغربي، استاذه كان «البارودي» وهو استاذ مشهور من سورية، وبعض اساتذة الولي هم اعضاء في البرلمان المغربي.

في البدايات الاولى للبوليساريو كانت الفكرة الأساسية مقاومة الاستعمار الاسباني، ولم يكن هناك تفكير في الانفصال عن المغرب، بل كانت البوليساريو مجرد امتداد للنشاط اليساري في المغرب.

لكن الذي حدث هو ان قوى متعددة وجدت كل واحدة منها في هذه الحركة ما يمكن ان يحقق مصالحها: اسبانيا كانت تحاول ان تسيطر على الحركة وتخضعها من خلال الحزب الشيوعي الاسباني، وكانت قد حاولت من قبل من خلال انشاء الحزب الوطني الصحراوي، كما كانت تعمل على تعميق القطيعة مع المغرب من خلال جهد إعلامي مكثف. والجزائر كانت، لأسباب كثيرة، أكثر القوى قدرة على استقطاب البوليساريو. فأين مصلحة البوليساريو ومشروعها الانفصالي في إقامة دولة صحراوية مستقلة؟

يقول مصطفى البوه الملقب بـ«البرزاني» وأحد قادة البوليساريو والمسؤول الايديولوجي فيها سابقًا: («العربي»، العدد ٤٠٣، حزيران ١٩٩٢، ص١٠٩-١١٠):

«طبعًا، هذا سؤال مهم، وكنا نناقشه كثيرًا وطويلاً. فمن ناحية كنا بدأنا نشعر بأن إنشاء دولة صغيرة الحجم لا تملك مقومات الدولة ستكون هدفًا للمطامع، كما ان اعتبار الصحراء مبررًا لخلق كيان خاص يمكن ان يؤدي مستقبلاً إلى ان يفكر الصحراويون في الجزائر بالمنطق نفسه، وهذا ما كان يسعى إليه الاستعمار في الماضي من خلال ما كان يعرف بالظهير البربري لتقسيم دول شمالي افريقيا كلها إلى عرب في الشمال وبربر أو طوارق في الجنوب الصحراوي. ولكن هذا وضح لنا في ما بعد. فلم يكن من السهل ان ندرك في سنوات الشباب الباكر ان الجزائر نفسها لا تفكر في انه من الممكن ان تكون هناك دولة صحراوية مستقلة استقلالاً حقيقيًا، وربما كانت تفكر في مجرد دويلة تابعة أو في الاقل-وهذا هو الارجح-في خلق مشكل دائم للمغرب حتى لا يتطور إلى المطالبة بحقه التاريخي في تيندوف وفي غيرها من الاقاليم الغنية بالبترول والمعادن والتي ضمتها فرنسا للجزائر ايام ان كانت تظن انها ستبقى إلى الأبد جزءًا من فرنسا.
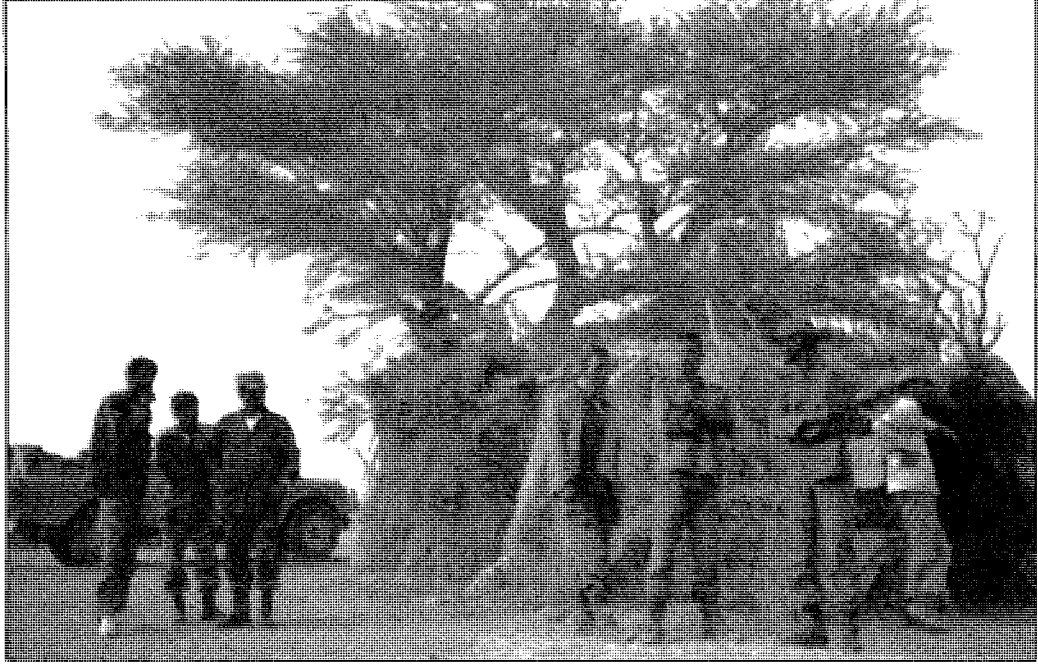
مقاتلون من البوليساريو.

سجن للبوليساريو في منطقة تيندوف.

«هذا التفكير بدأ يظهر في بداية الثمانينات، وبشكل عام يمكن القول إنه ظهر تياران في قيادة البوليساريو، تيار يجمع القادمين من الصحراء المغربية: سمارة والعيون والداخلا، وتيار يضم القادمين من موريتانيا وجنوبي الجزائر. الاول يرى ان وجود دويلة صغيرة في عصر الكيانات الكبيرة هو نوع من الانتحار السياسي وان المصلحة هي في دعم فكرة المغرب الكبير وان هذا يتحقق اولاً من خلال الانضمام للمغرب الذي شهد تطورًا كبيرًا في الآونة الأخيرة. وفي النهاية وصلنا إلى الطلاق مع المجموعة الأخرى، فقد استقال عشرة اعضاء من المكتب السياسي الذي يضم ٢١ عضوًا واستقال معهم حوالي ٥٠ من الأطر العاملة، مديرين جهويين ودبلوماسيين ومديري شرطة، وازدحمت السجون بالمعتقلين، وبدأ التشقق في القيادات...

«باستثناء الجزائر لم تعترف دولة عربية بالبوليساريو؛ حتى ليبيا التي كانت تدعم البوليساريو لم تعترف بالجمهورية الصحراوية، والذين اعترفوا بها من الدول الافريقية إنما فعلوا ذلك تحت ضغط من الجزائر ونشاط الدبلوماسية الجزائرية القوي» («العربي»، العدد ٤٠٣، حزيران ١٩٩٢، ص١٠٩-١١٠).

بعد مصرع الولي مصطفى السيد (١٩٧٦)، استلم زعامة البوليساريو محمد عبد العزيز، ولا يزال يجدّد له حتى الآن (اواخر ١٩٩٧)، ويحتل منصب رئيس «الجمهورية الصحراوية» المعلنة من طرف واحد، ويقيم في الجزائر. ينتمي إلى قبيلة «الرجوبات»، وهي إحدى اكبر قبائل الصحراء. وكان والده اختار المغرب للاقامة فيه منذ ١٩٥٦ وشارك في جيش التحرير (راجع النبذة التاريخية، و«الصحراء في إطار المغرب المعاصر» في هذا الباب، معالم تاريخية).

أما عن سيرة مؤسس البوليساريو وأول أمين عام لها مصطفى السيد (المعروف ايضًا بمصطفى سيد العوالي)، فقد ولد لأسرة بدوية قرب مدينة تيندوف في صحراء الجزائر عام ١٩٤٨، أو نحو ذلك. ومع اضطراب الحياة البدوية هناك بسبب موجة الجفاف الشديد والقتال الذي اندلع بين جيش التحرير المغربي واسبانيا، نزحت اسرة العوالي إلى طان-طان في منطقة تكنا التي تنازلت عنها اسبانيا للمغرب في ١٩٥٨. وبدأ تعليمه في المدارس المغربية حيث فاز بمنح دراسية أهّلته لمواصلة دراساته في المعاهد العلمية في مراكش وتارودانت. وفي قاعات الدراسة التقى بعدد من الطلاب الصحراويين الآخرين، وأصبح بعضهم من رفاقه في حركة بوليساريو في ما بعد. وفي ١٩٧٠، التحق مصطفى سيد العوالي بكلية الحقوق في جامعة محمد الخامس في الرباط، وأظهر اهتمامًا بالعمل السياسي. ومنذ ذلك التاريخ بدأ حملته للدفاع عن حقوق الصحراويين، سالكًا اولاً طريق إقناع الاحزاب السياسية المغربية بتأييد «القضية الصحراوية». وحين خاب أمله في موقف هذه الاحزاب، شرع برفقة عدد من الطلاب الصحراويين في تنظيم حركة تكافح من اجل تحرير الصحراء. وفي ١٩٧١، قام مصطفى سيد العوالي برحلة استطلاعية إلى مدينة العيون (عاصمة الصحراء «الاسبانية») لتقدير الوضع السياسي. بعد ذلك بعام واحد ترك دراسة القانون وكرّس اهتمامه لتأسيس البوليساريو وكسب الدعم من حكومات الدول المجاورة. انتخب امينًا عامًا لحركة البوليساريو في أول مؤتمر عقدته في ١٩٧٣، وأعيد انتخابه في المؤتمر الثاني (١٩٧٤) حين أعلن رسميًا هدف الاستقلال التام للصحراء. يقول مصطفى سيد العوالي إن وزير الخارجية الاسباني تعهد في مباحثات أجراها مع مندوبي البوليساريو في ايلول ١٩٧٥ بمنح الصحراء الغربية استقلالها، مقابل الاحتفاظ بالمصالح الاسبانية في قطاعي الفوسفات والثروة السمكية. ويضيف ان موريتانيا قدمت

تعهدات مماثلة مقابل تشكيل اتحاد فدرالي مع الصحراء. وحين أعلن اتفاق مدريد الخاص بتقسيم الصحراء بين المغرب وموريتانيا عام ١٩٧٥، اعتبرت البوليساريو انها راحت ضحية الخيانة، وشنت حرب مقاومة مع التركيز بصفة خاصة على موريتانيا. لكن العوالي قضى نحبه برصاص القوات الموريتانية في حزيران ١٩٧٦ لدى عودته من غارة جريئة توغل فيها رجاله حتى العاصمة الموريتانية نواكشوط (هذه السيرة الذاتية للعوالي عن ستيفن دوسون، مجلة «المشاهد السياسي، بي.بي.سي» العدد ٩٠، تاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٩٧، ص٣٨).

□ الصحراء أمام محكمة العدل الدولية (بصفة إستشارية): عقب قرار اسبانيا (١٩٧٤) إجراء استفتاء في الصحراء، احتجت الدولة المغربية مباشرة معتبرة ان الصحراء كانت تابعة للمغرب قبل وقوعها تحت السيطرة الاسبانية. غير ان الجزائر ايدت القرار الاسباني بدعوى الدفاع عن حق الشعب الصحراوي في تقرير مصيره. أما موريتانيا، فلم تعترض صراحة على قرار الاستفتاء، لكنها في المقابل طالبت بحقوقها في منطقة الجنوب الصحراوي، واتفقت سرًا مع المغرب على نوع من التقاسم بحيث تكون الساقية الحمراء من نصيب المغرب، ووادي الذهب لموريتانيا.

طلب المغرب عرض القضية على محكمة العدل الدولية. ولما رُفض طلبه لجأ إلى الامم المتحدة. فاتخذت هيئة الامم (١٣ كانون الاول ١٩٧٤) قرارًا باحالة القضية على محكمة العدل بصفة استشارية، وطلبت من اسبانيا تعليق الاستفتاء (أيد القرار ٨٨ صوتًا وامتنع ٤٣ عن التصويت من بينها الجزائر واسبانيا).

كان على المحكمة ان تبحث في مسألتين: الاولى تتعلق بمعرفة إذا كانت الصحراء الغربية، لحظة احتلال اسبانيا لها، «أرضًا بلا صاحب». الثانية متعلقة بنتيجة الاولى إذا جاءت الاجابة سلبية، فتكون المسألة الثانية معنية بتحديد طبيعة الصلات الحقوقية التي تربط الصحراء بالمملكة المغربية وموريتانيا. والتأمت المحكمة على الفور بعد أن جرى جدال حول شرعية التئام المحكمة وتمثيل بعض الاطراف في الهيئة المجتمعة، إذ وافقت المحكمة على تمثيل المغرب ورفضت طلب موريتانيا بأن تتمثل، كما احتجت اسبانيا على صلاحية المحكمة وأهليتها للبت في الموضوع. وردّت المحكمة بأن عملها لا يهدف إلى إنهاء النزاع بين دولتين بل إلى السماح لهيئة الامم بممارسة وظيفتها كما يلزم في شأن عملية نزع الاستعمار عن الصحراء.

بالنسبة إلى المسألة الاولى («أرض بلا صاحب»)، تبنى الرأي الاسباني، مثله الرأي الجزائري، الصيغة المذكورة، أي ان الصحراء كانت ارضًا بلا صاحب، ولم يكن هناك من دولة مارست سيادتها على هذه المنطقة في الفترة التي حصل فيها الاستعمار، ولا يحق بالتالي لأي دولة ان تزعم سيادتها في مرحلة نزع الاستعمار، بل يعود القرار إلى السكان المحليين.

أما الرأي المغربي والموريتاني فكان، على العكس، لا يعتبر الصحراء «أرضًا بلا صاحب» لحظة حصول الاستعمار، وينبغي بالتالي ان تعود قانونيًا إلى اصحابها السابقين على تاريخ الاستعمار.

اهتمت المحكمة الدولية بتعيين اللحظة التاريخية التي ينبغي الرجوع إليها لمعرفة إذا كانت الارض بلا صاحب. فاعتبرت العام ١٨٨٤، أي لحظة استعمار اسبانيا للصحراء، بمثابة المرجعية الزمنية للبحث والنقاش؛ وعليه، لا يعود مهمًا ان تكون الصحراء قد خضعت أم لا للسيادة المغربية في العهود السابقة كما حصل مثلاً في زمن المرابطين وغيرهم.

من المفيد ان نشير هنا إلى ان عبارة «أرض بلا صاحب» Terra Nullius جرى استخدامها في

القرن التاسع عشر، بحسب توضيحات محكمة العدل الدولية، كتقنية حقوقية متعلقة بالاحتلال باعتباره نمطًا قانونيًا معترفًا به ويسمح لدولة من الدول بحيازة ارض وممارسة السيادة عليها. ولكن كي يتم ذلك في صورة شرعية ينبغي توفّر عدد من الشروط، في مقدمها ان تكون الارض غير مأهولة بالسكان او ان تكون مأهولة بـ«قبائل أو شعوب لا تتمتع بأي تنظيم اجتماعي وسياسي». وتبين بعد البحث والتداول ان الصحراء تضم مجموعات بشرية منظمة في قبائل تخضع لسلطة رؤسائها وزعمائها، وان هؤلاء عقدوا اتفاقيات مع الهيئات الاسبانية المسؤولة بحيث يكون وادي الذهب متمتعًا بالحماية الاسبانية، فإن المحكمة خلصت إلى القول بأن الارض لم تكن بلا صاحب. فجاءت هذه الخلاصة في مصلحة الرأي المغربي والموريتاني.

وعليه، بدأت المحكمة في بحث المسألة الثانية المتعلقة بتحديد طبيعة الصلات الحقوقية بين الصحراء وبين المملكة المغربية وموريتانيا. وكانت وجهة النظر المغربية تشدّد على ان هذه الصلات قديمة جدًا، وعلى ان الصحراء خضعت للسيادة المغربية طوال قرون عدة. وأسندت ذلك بوثائق تاريخية إضافة إلى عامل التواصل الجغرافي.

غير ان المحكمة الدولية رفضت اعطاء هذه الحجج قيمة قانونية قاطعة وقررت ان تتفحص عن كثب طبيعة العلاقات في الفترة التي احتلت فيها اسبانيا الصحراء وفي الفترة السابقة مباشرة على هذا الاحتلال. فرأت المحكمة ان الدولة المغربية الشريفية كانت مؤسسة على الرابطة الدينية القائمة على مبايعة السلطان أكثر مما هي قائمة على فكرة الاقليم الموحد. ورأت كذلك، وفقًا للتعريفات التي حددتها، ان المغرب كان ينقسم إلى قسمين: الاول يعرف باسم «بلاد مخزن» الخاضعة بالفعل للسلطان، والثاني يعرف باسم «بلاد سبا» التي كانت تخضع للسلطة الروحية للسلطان، إلا ان السلطة الفعلية تعود إلى زعماء محليين تختارهم القبائل. ولما كانت منطقة الجنوب المغربي تعد ضمن «بلاد سبا» فإن المحكمة الدولية راحت تتساءل إذا ما كانت هذه الوضعية تجعل الصحراء جزءًا حقيقًا من المملكة الشريفية. وخلصت المحكمة إلى ان المغرب «لم يمارس نشاطًا دوليًا فعليًا وقاطعًا على الصحراء الغربية». ولكن المحكمة لحظت في الوقت ذاته وجود صلة حقوقية قائمة على المبايعة بين السلطان وبعض سكان الصحراء من قبائل البدو. ورأت المحكمة، من ناحية ثانية، انه ليس هناك علاقة حقوقية بين موريتانيا وبين الصحراء.

بعد هذه الاستنتاجات انتهت المحكمة إلى القول بغياب صلات حقوقية من شأنها ان تعدل القرار ١٥١٤ القاضي بنزع الاستعمار الاسباني عن الصحراء وتطبيق حق تقرير المصير لسكان المنطقة المتنازع عليها.

استقبلت اسبانيا والجزائر هذا الرأي بترحاب، علمًا انه جاء بصيغة تسمح لكل طرف بادراجه في منطق وجهة نظره (من حسن الشامي، «الحياة»، العدد ١١٨٤٠، تاريخ ٢٣ تموز ١٩٩٥، ص١٣؛ وراجع كذلك «المسيرة الخضراء» في هذا الباب «معالم تاريخية»).

□ الصحراء في إطار المغرب المعاصر:

وجد المغرب نفسه في ١٩١٢ يقع تحت سيطرة اسبانيا وفرنسا معًا، ويوقع معهما مرغمًا «معاهدة الحماية». وكانت طنجة تعتبر منطقة دولية (تخضع لعدة دول). وبموجب هذه المعاهدة، كان من نصيب اسبانيا جبال الريف في الشمال والصحراء في الجنوب، في حين احتلت فرنسا ما كان يُسمّى «المغرب النافع» (نسبة إلى عدم منفعة اسبانيا من الجزء الذي احتلته قياسًا على المنفعة التي تجنيها فرنسا من الجزء الذي تحتله) وهي الارض التي تقع بين جبال الأطلس والسهول الخصبة الممتدة إلى المحيط.

استمر هذا الوضع (مفعول معاهدة التقاسم هذه) حتى ١٩٥٦ حين وقّع المغرب مع فرنسا أولاً (في آذار) ثم مع اسبانيا (نيسان) اتفاقية لإلغاء معاهدة الحماية.

وخلال هذه المدة (١٩١٢-١٩٥٦) كانت اسبانيا في بدايتها تنسحب من امبراطوريتها الاستعمارية في أميركا اللاتينية غربًا والفيليبين شرقًا، ثم شهدت سقوط النظام الملكي فيها واعلان الجمهورية، ثم فترة اضطراب كبيرة وحروب اهلية نجح فرانكو في نهايتها في ان يعود إلى سبانيا انطلاقًا من المغرب الذي كان وجوده فيه من قبل من اجل إخماد ثورة عبد الكريم الخطابي في الريف، واستقر له الأمر في اسبانيا بعد مواجهاته الدامية مع الجمهوريين في اسبانيا.

أما فرنسا فكانت قد استقرت قبل قرابة نصف قرن في الجزائر وكانت تطمح إلى بسط هيمنتها على الشمال الافريقي كله لتجعل منه الفضاء الخلفي لفرنسا.

في هذا الاطار، ولدت حركة المقاومة الوطنية المغربية ونمت وتطورت. لكن ثمة خلافات كانت تعصف في داخلها نتيجة لوقوع مناطقها تحت سيطرة دولتين متنافستين من جهة، ولإغداق هاتين الدولتين، بمختلف أنظمة حكمهما، الوعود للزعماء الوطنيين من جهة أخرى.

وبالرغم من التجزئة التي فرضت على حركة المقاومة الوطنية، فقد كانت تحرص دائمًا على الالتفاف حول رموز وحدتها ووحدة الاراضي الوطنية. مثل التفافها في أحداث نفي الملك محمد الخامس (٢٠ آب ١٩٥٣) الذي كان موجودًا في الجزء الذي تحتله فرنسا. فقد انفجرت الثورة في كل أنحاء المغرب، وتكتل الشعب كله حول حزب الاستقلال، وقام الشيخ محمد الأخضف وزعماء بقية القبائل الصحراوية التي تخضع للحكم الاسباني بالامتناع عن دفع الضريبة للسلطات الاسبانية، والامتناع عن تسلم مختلف اوراق الحالة المدنية إلا إذا كانت ممهورة بخاتم محمد الخامس.

وقبل هذه الاحداث بنحو عقد ونصف العقد (أي في ١٩٣٨) قدم حزب الاصلاح الوطني الموجود تحت حكم الاحتلال الاسباني مذكرة لهذه السلطات بالتزامن مع مذكرة تقدمت بها الحركة الوطنية (حزب الاستقلال) في الجنوب للسلطات الفرنسية، وقد جاء في مذكرة حزب الاصلاح «إننا مغاربة مسلمون، لغتنا الرسمية هي العربية، وإن المغرب بسائر مناطقه وحدة لا تتجزأ... ونريد ان يكون عملنا موحدًا في جميع جهات المغرب...».

وكانت جميع الاحزاب السياسية في المغرب قد مدّت جذورها في الصحراء الغربية، وأسس علال الفاسي (رئيس حزب الاستقلال) صحيفة خاصة إسمها «صحراء المغرب»، كما أكد في العديد من كتبه تصوره الخاص لوحدة التراب المغربي حيث يقول: «منذ نشأت وأنا أؤمن بأن وطني يحد جنوبًا بالسنغال، وشرقًا بالجزائر وغربًا بالمحيط الأطلسي، وشمالاً بالبحر الابيض المتوسط، وان الساقية الحمراء ووادي الذهب وسبتة ومليلة كل ذلك اجزاء اقتطعها الاستعمار من بلادنا بالاسلوب نفسه الذي جزّأ به طنجة وطرفاية وآيت بعمران وإيفني، وان هذا العمل الاستعماري لا يغير شيئًا من حقيقة الواقع المغربي، أي لا يجعل هذه الاماكن غير مغربية وسكانها غير مغاربة؛ آمنت بهذا لا عن دليل بحثت عنه واقتنعت به، ولكن بالشعور نفسه الذي يجعل المرء يؤمن بأبيه وأمه وفصيلته التي تؤويه ومدينته التي ولد فيها».

وكانت واقعة نفي الملك محمد الخامس (١٩٥٣) إيذانًا بتطور جديد في حركة المقاومة المغربية، حيث تصاعدت وتيرة المقاومة المسلحة متمثلة في جيش التحرير المغربي الذي ضم عناصر من كل مناطق المغرب، وأدت إلى عودة الملك من منفاه وإلغاء اتفاقية الحماية (١٩٥٦).

وخلال ١٩٥٧، نجح جيش التحرير المغربي في تحرير مناطق كثيرة في الجنوب الصحراوي مثل السمارة وطرفاية وطان-طان وطرفة بوجدور، وانسحبت القوات الاسبانية إلى داخل مدينة إيفني.

في ١٩٥٨، كانت فرنسا، بعد هزيمة العدوان الثلاثي على مصر (عقب تأميم قناة السويس)، وانفجار الثورة الجزائرية، والخوف من تلاحم جيش التحرير المغربي مع جيش التحرير الجزائري، في حاجة إلى عمل حاسم لتتفرغ لجبهة الجزائر. فنسقت مع اسبانيا في عملية عسكرية شهيرة أطلق عليها إسم «إيكوفيون» ونجحت من خلالها في تشتيت جيش التحرير المغربي وبدأت مرحلة جديدة. ففي الوقت الذي أعيد فيه إقليم طرفاية إلى المغرب، تمّ اعلان الساقية الحمراء ووادي الذهب (الصحراء الغربية) «الاقليم ٥١» الاسباني (الخاضع لسلطة فرانكو). ونجح المغرب في استرداد إقليم إيفني في ١٩٦٩ بالطرق الدبلوماسية مستفيدًا من قوة التوجه العالمي الذي برز بعد الحرب العالمية الثانية في إطار الامم المتحدة لتصفية الاستعمار، ومن الاعتراف المسبق المنصوص عليه في اتفاقية إلغاء الحماية مع اسبانيا. لكن مشكلة الصحراء الغربية (الساقية الحمراء ووادي الذهب) بقيت معلقة تنتظر الحل. وثمة متغيرات برزت في الستينات ومنتصف السبعينات، سواء في الاطار العربي أو الافريقي أو العالمي، وخلقت كيانًا انفصاليًا وذراعًا مسلحًا له:

– فقد كانت الحرب الباردة دافعًا مهمًّا لتأجيج مثل هذه الاحداث في بقاع كثيرة من العالم.

– وكانت الجزائر قد حصلت على استقلالها عن فرنسا في ١٩٦٢، ثم حدث اشتباك مسلح بين المغرب والجزائر في ١٩٦٣ بسبب الخلاف على ترسيم الحدود بين الدولتين. وكانت فرنسا قد حاولت ان تجري اتفاقًا مع المغرب على هذه الحدود في اثناء احتلالها للجزائر، ولكن المغرب رفض ان يتم الاتفاق النهائي على الحدود في غيبة اصحاب الحق واصحاب الارض، ولأن فرنسا من ناحية أخرى كانت قد اقتطعت أجزاء من المغرب (إقليم تيندوف) وضمتها للجزائر في وقت كانت ترى فيه ان الجزائر ستبقى دائمًا قطعة من فرنسا ولأن الاجزاء التي اقتطعتها كانت غنية بالمعادن الاستراتيجية ومن أهمها الحديد.

– وكان ما كتبه ألبرتو أرتاخو وزير خارجية اسبانيا في ١٩٥٨ في بحث تحت عنوان «الصحراء سوق المستقبل» وتحدث فيه عن وجود مخزون هائل من الثروات المعدنية (مليارا طن من الفوسفات) تحت رمال الصحراء الغربية، وظهور الفوسفات فعلاً في بوكراع في الستينات، ما أثار شهية الدول ومطامعها.

– وكان العديد من الاقطار العربية والافريقية التي حصلت على استقلالها حديثًا متأثرة، سلبًا أو إيجابًا، بتيارات الحرب الباردة وإيديولوجياتها. ما جعلها تقف إلى جانب «كيان صحراوي» ترى في طروحات دعاته في جبهة «بوليساريو» الصحراوية سندًا لها.

– فكانت البوليساريو أهم هذه المتغيرات، وجاءت تعبيرًا عن وجود جيل جديد من الشباب نشأ في الصحراء الغربية في تلك الفترة وسط مناخ من العزلة عن المغرب كانت تفرضه اسبانيا، بينما كان الموقف في الماضي مختلفًا رغم وجود الاستعمار حيث كانت المشاركة قائمة بين الشمال والجنوب في تحمل تبعات الاستعمار وتبعات المقاومة.

جاءت هذه المتغيرات والتطورات لتجعل من الصحراء المغربية «قضية» تواجه المغرب باسم «قضية الصحراء الغربية». ورغم ان المغرب يعتبر الصحراء ارضًا مغربية مئة في المئة لا حاجة فيها لاستفتاء على تقرير مصير أو لوساطات دولية وان النزاع «مصطنع سياسي» ومتشابك ومتعدد وجوه المداخلات الأجنبية، فقد تعاطى مع المشكلة بكثير من الدبلوماسية الهادئة و«التعقل». وهذه الكلمة «التعقل» استعملها وزير الداخلية المغربي إدريس البصري في وصفه لموقف جبهة البوليساريو من إجراء الانتخابات في مدينة العيون وغيرها من مناطق الصحراء الغربية. والبصري هو الشخص الذي وضع فيه الملك الحسن الثاني ثقته ليكون مسؤولاً عن ملف الصحراء، وليترأس الوفد المغربي إلى المفاوضات التي جرت في الولايات المتحدة برعاية الوسيط الدولي، وزير الخارجية الاميركي السابق، جيمس بايكر، وتمّ فيها الاتفاق على قضية الاستفتاء المزمع إجراؤه في الصحراء بين سكان الصحراء لمعرفة ماذا يريدون، الانفصال عن المغرب او الانضمام إليه. وكان رئيس وفد البوليساريو الوزير الأول الصحراوي محفوظ علي بابيا (راجع النبذة التاريخية).

□ «المسيرة الخضراء» وعلاقات المغرب–موريتانيا: في ١٦ تشرين الاول ١٩٧٥، أعلن الملك المغربي الحسن الثاني ان محكمة العدل الدولية أعطت الحق لوجهة النظر المغربية إزاء الصحراء (راجع «الصحراء امام محكمة العدل الدولية» في هذا الباب، «معالم تاريخية»). وقرر تنظيم مسيرة حاشدة عرفت بـ«المسيرة الخضراء»، وضمت قرابة ٣٥٠ ألف مغربي ساروا إلى منطقة العيون.

في اليوم التالي، طلبت اسبانيا عقد جلسة لمجلس الأمن. فانعقد في ٢٠ تشرين الاول (١٩٧٥)، وأصدر بعد يومين قرارًا يدعو إلى

إدريس البصري.

الاعتدال وإحكام العقل. بيد ان الملك الحسن الثاني أعطى أوامره في ٥ تشرين الثاني إلى المتظاهرين كي يدخلوا إلى منطقة الصحراء، الأمر الذي دفع مجلس الأمن إلى ان يطلب من المغرب إيقاف المسيرة على الفور. ولما كان المغرب عازمًا على عدم تحدي القرارات الدولية، لم يتوغل المتظاهرون بعيدًا في منطقة الصحراء، وتوقفوا على مسافة ١٠كلم من الخطوط الاسبانية، فلم تحصل أي مجابهة. ثم بدأت المفاوضات بين المغرب واسبانيا وموريتانيا، واسفرت عن توقيع اتفاق ثلاثي في ١٤ تشرين الثاني ١٩٧٥، أعلنت فيه اسبانيا عن استكمال نزع الاستعمار عن الصحراء. وأنيطت ادارة المنطقة بمجلس مؤقت تشارك فيه البلدان الثلاثة إضافة إلى اعضاء الهيئة المحلية المعروفة باسم «الجماعة» والتي تألفت برعاية اسبانيا.

وبموجب هذا الاتفاق بدأت القوات المغربية تحل تدريجيًا محل القوات الاسبانية، ودخل ٤ آلاف جندي مغربي إلى العاصمة الصحراوية

(العيون) في ١١ كانون الاول ١٩٧٦؛ وصار الشمال الصحراوي في يد المغرب، والجنوب في يد موريتانيا.

لكن سرعان ما بدأت مرحلة جديدة من النزاع، قطباه الأساسيان المغرب والجزائر، بعد ان ضاعفت هذه الأخيرة دعمها لجبهة البوليساريو التي اعتبرت الاتفاق الثلاثي لاغيًا، ثم أعلنت (في ٢٧ شباط ١٩٧٦) استقلال الجمهورية الصحراوية، وباشرت عمليات مسلحة ضد الجيش المغربي والقوات الموريتانية. وتحت ضغط هذه العمليات عدلت موريتانيا من اتفاقها مع المغرب، وعقدت (في آب ١٩٧٩) اتفاق «سلام نهائي» مع البوليساريو، أعلنت فيه بأنها ليس لها مطامع اقليمية في الصحراء.

أدّى هذا الاتفاق إلى قيام المغرب بقطع علاقاته الدبلوماسية مع موريتانيا، ثم إلى إعلانه ان كل المناطق الصحراوية باتت جزءًا من المملكة الشريفية. لكن وساطة سعودية بينهما أثمرت اتفاقًا في الطائف (٢٨ حزيران ١٩٨١) أعلنت فيه موريتانيا التزامها موقفًا حياديًا، كما تعهد كل من المغرب وموريتانيا بأن يمنع أي جهة من استخدام اراضيه ضد الطرف الآخر. إلا ان موريتانيا عادت وبدلت موقفها من جديد وأعلنت في ٢٧ شباط اعترافها بالبوليساريو وبالجمهورية الصحراوية بصفتها دولة قائمة. وكان الاضطراب السياسي والدبلوماسي الذي وسم الموقف الموريتاني مترافقًا مع تصاعد حدة المواجهة العسكرية بين البوليساريو التي حصلت على أسلحة متطورة (من الجزائر وليبيا)، وبين القوات المغربية. واعتمد الجيش المغربي استراتيجية جديدة فاقام سورًا لحماية المثلث الصحراوي (سمارا، بوقراع، بوجدور) ولحماية دخلا كذلك، بحيث يمكن مواصلة استخراج المعادن من المنطقة (استكمالاً، راجع النبذة التاريخية).

□ **نزاع الصحراء والاتحاد المغاربي:** إيان بلاك، أحد الصحافيين الخبراء في «بي.بي.سي» B.B.C. البريطانية لخصّ انعكاس هذا النزاع على بلدان الاتحاد المغاربي في مجلة «المشاهد السياسي» (العدد ٩٠، تاريخ ٣٠ تشرين الثاني ١٩٩٧، ص٣٦) بالتالي:

لم تصادف الوحدة المغاربية نجاحًا، مثلما تبدّد حلم الوحدة العربية الأشمل، والأسباب متشابهة. ومع ان هدف الوحدة ظلّ رمزًا سياسيًا قويًا، فإن حقائق الأمر الواقع منذ انتهاء عهد الاستعمار أظهرت ان الدول تضع استقلالها الوطني في المقام الاول مع تباين انظمتها السياسية ما بين المغرب التي تعيش في ظل النظام الملكي وليبيا التي تتبع النظام الجماهيري.

وهناك عوائق تاريخية تحول دون تحقيق الوحدة المغاربية منها التوتر الطويل الأمد في العلاقات المغربية-الجزائرية الذي تفاقم في السنوات الأخيرة بسبب المشكلات الداخلية المعقدة في الجزائر، وعجز القادة عن العمل معًا بروح التعاون، واستمرار الأزمة في الصحراء الغربية، والتوجهات المتباينة للغاية في السياسة الخارجية لدول المنطقة، والعزلة الدولية الطويلة التي اصابت ليبيا من جراء حادثة تفجير طائرة الركاب الاميركية فوق بلدة لوكربي الاسكتلندية.

هذه كلها صعاب وقفت عائقًا امام اتحاد المغرب العربي الذي يضم الجزائر والمغرب وتونس وليبيا وموريتانيا، وشلت حركته منذ تأسيسه في ١٩٨٩.

وقد شدّدت الاتجاهات الدولية منذ انتهاء الحرب الباردة على اتاحة حرية الحركة للافراد والسلع. لكن لم يطرأ إلا تقدم ضئيل على صعيد تحقيق هذه الاهداف في المغرب العربي، على الرغم من ان اتحاد دوله وضع لنفسه مشروعات كثيرة بموجب اتفاقيات وقعتها الدول المعنية.

والنزاع الطويل بشأن مستقبل الصحراء

الغربية هو حاجز لا يستهان به امام تحقيق الوحدة المغاربية. ومع إنه حدث بعض التقدم في المباحثات التي أجريت اخيرًا تحت رعاية الامم المتحدة، والتي توصلت فيها الاطراف إلى إجراء استفتاء لتحديد مصير هذه المستعمرة الاسبانية السابقة، فما زالت مواقف الجزائر والمغرب متباعدة. ومن رأي بعض الخبراء ان الوحدة الاقليمية لهذه المنطقة الجغرافية المتماسكة قد تتضرر في حالة تأسيس جمهورية صحراوية مستقلة، لأن الهدف المعلن لاتحاد المغرب العربي هو إزالة الحواجز بين الدول وليس إقامة حواجز جديدة. و لم تكن العوامل الدولية في صالح نجاح الوحدة المغاربية ايضًا. ففي حين يسعى اتحاد المغرب العربي إلى التحاور مع الاتحاد الاوروبي، في محاولة لدعم قدراته التفاوضية، نجد ان اوروبا فضلت التعامل مع الدول المغاربية كل على حدة. كما أصرت المفوضية الاوروبية على تكريس عزلة ليبيا التي ما زالت ترزح تحت وطأة عقوبات مجلس الأمن الدولي بسبب حادثة لوكربي. وهذه قضية كانت سببًا في دق أسفين بين الدول المغاربية بعدما التزمت دول الاتحاد الأربع الأخرى بهذه العقوبات (وراجع «اتحاد المغرب العربي»، ج١، ص٩٠-٩٦، ودول هذا الاتحاد في مواقعها من الموسوعة).

□ الوسطاء الدوليون ومشكلة

الاستفتاء: كان جيمس بايكر رابع وسيط دولي، خلال تسع سنوات، يسعى إلى تطبيق خطة التسوية التي اعتمدتها الامم المتحدة عندما صادق مجلس الأمن الدولي في ايلول ١٩٨٨ على الخطة المقدمة من الأمين العام للامم المتحدة آنذاك خافيير دي كويلار الذي بادر، بعد نحو شهر فقط، إلى تعيين هيكتور إيسبيل (الأوروغواي) كأول ممثل خاص له في النزاع الصحراوي.

انتقل إيسبيل إلى المنطقة في جولة استطلاع ميدانية في كانون الثاني ١٩٨٩ أجرى خلالها محادثات مع المسؤولين المغاربة والجزائريين وقادة البوليساريو في تيندوف قبل ان يعود إلى نيويورك ليقدم استقالته من هذا المنصب بسبب ارتباطاته العائلية التي جعلته لا يقوى على الابتعاد عن مونتيفيديو لمدة طويلة.

وفي خضم الاستعدادات لتأليف بعثة «المينورسو» التابعة للامم المتحدة والمكلفة إجراء الاستفتاء في الصحراء، سارع الامين العام نفسه، دي كويلار، في كانون الثاني ١٩٩٠، إلى تعيين السويسري جوهانز مانز ممثلاً شخصيًا مكلفًا بالصحراء، الذي أدلى بتصريحات أغضبت الرباط معتبرة إياها غير محايدة. فسحبته بلاده سويسرا من هذه المهمة بتعيينه في منصب دبلوماسي آخر.

الوسيط الثالث، صاحب زاده يعقوب خان، وزير الخارجية الباكستاني السابق. وقد تولى منصبه كممثل للأمين العام (بطرس غالي) في آذار ١٩٩٢. فبذل جهودًا كبيرة لحل المسائل المتعلقة بتفسير وتطبيق معايير تحديد هوية الأشخاص المؤهلين للمشاركة في الاستفتاء باعتبارها عنصرًا أساسيًا يتوقف عليه كل تقدم محتمل في تنظيم الاستفتاء. وفي نهاية ايار ١٩٩٢ أعلن الأمين العام، استنادًا إلى هذه الجهود، عن تشكيل لجنة تحديد الهوية برئاسة إيريك يانسون.

منذ ذلك الوقت ظل المغرب وبوليساريو يتبادلان الاتهامات حول مسؤولية التأخير في إنجاز لجنة تحديد الهوية لعملها، وبالتالي تجميد خطة التسوية، حيث تمسكت البوليساريو بالاحصاء الاسباني لعام ١٩٧٤ الذي حدّد سكان الصحراء بـ٧٤ ألف شخص تقريبًا، بينما طالب المغرب بإضافة حوالي ١٢٠ ألفًا من الصحراويين الذين لم يشملهم ذلك الاحصاء على أساس معايير خمسة وردت في الاقتراح التوفيقي للأمين العام في كانون الاول ١٩٩١.

وظلت عملية تحديد الهوية متوقفة، وتعثر تنظيم الاستفتاء، وتقلص عدد افراد بعثة المينورسو،

وسحب ٢٠٠ من المراقبين العسكريين الدوليين، وتقلصت الموازنة المخصصة للبعثة بنسبة النصف تقريبًا، إلى ان قرر الأمين العام الجديد كوفي أنان، في آذار ١٩٩٧، تعيين جيمس بايكر وسيطًا جديدًا (الوسيط الرابع) لتحريك خطة تسوية النزاع في الصحراء.

بدأ بايكر بزيارة المنطقة، وحدّد لنفسه على اثرها، عامًا واحدًا للنجاح في مهمته. وحقق إجراء مفاوضات مباشرة بين المغرب والبوليساريو طالت أربع جولات، آخرها جولة هيوستن التي أسفرت عن توقيع المغرب والبوليساريو إتفاقية هيوستن (راجع النبذة التاريخية)

مدن ومعالم

* **«بوليساريو لاند»، «جمهورية في ثلاثة بلدان ومخيمات»:** على بعد ٢٣كلم جنوبي مدينة تيندوف الجزائرية تبدأ «بوليساريو لاند» التي تقيم عليها «الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب–بوليساريو» «جمهوريتها» وتشمل أجزاء من اراضي الحمادة الجزائرية القاحلة، وشريطًا من الصحراء الغربية يمتد من الحدود الشمالية الشرقية إلى أقصى نقطة في الجنوب بمحاذاة حزام الدفاع الذي اقامه المغرب حول ما سماه «الصحراء النافعة» على امتداد ٢٥٠٠كلم.

ويقيم المواطنون المدنيون لـ«جمهورية» البوليساريو في أربعة مخيمات رئيسية تتخذ أسماء الولايات الاربع التي تتألف منها الصحراء، وهي: العيون، الداخلا، أوسرد، السمارة. وينقسم كل مخيم إلى دوائر وأحياء تعكس التقسيم الاداري في الأقليم. واختير للمكاتب الحكومية مركز قريب من تيندوف لضمان خدمات الماء والكهرباء والهاتف. ويرابط المقاتلون في المناطق الصحراوية الخارجة عن سيطرة المغرب. وتعيش المخيمات، التي تضم نحو ١٦٥ ألفًا حسب مصادر «وزارة الداخلية الصحراوية»، حال تململ وضيق بحياة اللجوء والعيش تحت الخيم منذ ٢٠ سنة ولا ينفي المسؤولون في بوليساريو ذلك. وتشجع الاغراءات التي يقدمها المغرب–وهي اغراءات تؤكدها الحال المزدهرة نسبيًا في العيون والمناطق الأخرى من الصحراء حيث وجود السلطة المغربية–على الخروج من هذه المخيمات (عن «الوسط»، العدد ١٩٨، تاريخ ١٣ تشرين الثاني ١٩٩٥، ص٣٥؛ وراجع المادتين التاليتين: «الرابوني»، و«العيون»).

* **الرابوني:** مقر جبهة البوليساريو ورئيس «الجمهورية الصحراوية» وأعضاء الامانة الوطنية (٣٣ عضوًا) واعضاء الحكومة ومؤسسات الأمن العسكري وقيادة الجيش والهلال الأحمر ومكتب التنسيق مع بعثة الامم المتحدة المكلفة الاستفتاء في الصحراء (مينورسو)، أي انها عاصمة «الجمهورية الصحراوية».

تقع الرابوني على بعد ٢٥كلم شمالي مدينة تيندوف الجزائرية، والطريق التي تربط بينهما هي الطريق الوحيدة المعبدة في منطقة الحمادة (حيث الحدود الدولية بين المغرب والجزائر وموريتانيا ومالي والنيجر).

وفي حين ان مدينة تيندوف التي تعود في بنائها إلى الشيخ محمد المختار بن الأعمش منذ ١٨٧٥، قد ظلت مقصد الطلبة والفقهاء والعلماء حتى عمدت السلطات الفرنسية، في ١٩٢٠، إلى تحويل اتجاه القوافل التجارية عنها، فإن الرابوني كانت عبارة عن بئر ماء أقامت القوات الفرنسية فوقها حوضًا لتجميع المياه وجلبها إلى مدينة تيندوف ومراكز تجمع القوات العسكرية.

على بعد ٧٥كلم من الرابوني تقع مناجم الحديد

أحد الاحياء الحديثة في مدينة العيون.

ثانوية الحسن الثاني في العيون.

إحدى مدن الصفيح في العيون ايام الاستعمار الاسباني.

المعروفة بـ«غارة الجبيلات»، وهي مناجم يفترض، في ضوء اتفاقات بين المغرب والجزائر، ان يستغلها البلدان كحل لتجاوز خلافاتهما حول الحدود. وتعتبر مدينة أغادير المغربية أقرب نقطة لنقل حديد هذه المناجم إذا ما شرع في استغلالها.

حول الرابوني أقامت البوليساريو أربعة مخيمات تضم سكان «الجمهورية الصحراوية»، وفيها ثلاث مدارس مركزية، وسبعة معتقلات أهمها وأشهرها «سجن الرشيد» على بعد ٣٢كلم من الرابوني و٥٧كلم من تيندوف.

وأطلقت الجبهة على هذه المخيمات أسماء مدن الصحراء. فالمخيم الأول أطلق عليه إسم «السمارة». والسمارة مدينة صحراوية بناها الشيخ ماء العينين بوصفه خليفة للسلطان عبد العزيز، وشارك في بنائها البناؤون الذين ارسلهم السلطان إلى هناك مع ما يحتاجونه من مواد وتجهيزات. ويبعد مخيم السمارة ٢٤كلم عن الرابوني. وهناك مخيم العيون (نسبة إلى عاصمة الصحراء المغربية «العيون»)... وحياة سكان هذه المخيمات على درجة كبيرة من البؤس، أقساها إجراءات رجال أمن البوليساريو وحكومتها الساعين وراء كل «مشكك» أو «مفكّر بالهرب» إلى حيث إغراءات العمل والعيش في بيوت في مدينة العيون أو سواها في الصحراء المغربية (عن «الحياة»، العدد ١٢٦١٣، تاريخ ١١ ايلول ١٩٩٧، ص٧).

*** العيون:** كبرى مدن الصحراء المغربية (الصحراء الغربية) وعاصمتها ورمز وحدتها وتابعيتها المغربية منذ مسيرة الـ٣٥٠ ألف مغربي الخضراء (راجع باب «معالم تاريخية») التي أعقبتها خطة تنمية شاملة للصحراء المغربية تركّز على المدن الثلاث الكبرى: «العيون» و«سمارا» و«الداخلا».

العيون القديمة لم يبق منها سوى بعض المباني التي كان يسكنها الاسبان وقد تحول بعضها إلى فنادق ودور حكومية. أما معسكرات الجيش الاسباني فيحتلها الجيش المغربي الآن. وأما الأهالي في ايام الاستعمار الاسباني فكانوا يعيشون في أحياء من الصفيح، وقد أزيلت كلها وبنيت مكانها أحياء جديدة بيوتها ذات قباب وطراز يناسب الجو الحار في الصحراء.

مناجم الفوسفات في بوكراع تبعد نحو ١٠٠كلم إلى الجنوب من المدينة. ويأتي الفوسفات الخام إلى مصنع الفوسفات في المدينة عن طريق شريط متحرك. والمصنع أنشأه الاسبان في ١٩٧٠. وبعد المسيرة الخضراء واسترجاع الصحراء المغربية اصبح المكتب الوطني للفوسفات يمتلك ٦٥٪ من هذا المصنع والباقي للاسبان؛ وأصبح جميع العاملين فيه من المغاربة، سواء من العيون أو من باقي المدن المغربية.

أما ميناء المدينة فلا يزال قيد الانجاز، وهو جزء من خطة ترمي إلى انجاز ستة موانيء على ساحل الاقاليم الصحراوية (ميناء كل ٢٠٠كلم، أي في طرفاية والعيون وبوجدور والداخلا والعركوب والكويره).

تبرز العيون، اليوم، كمدينة جديدة تنبعث على أنقاض واحة منبسطة على طول الضفة اليسرى للساقية الحمراء فوق هضبتين متجاورتين، بعدما قامت بوظيفة مربط لجيوش الادارة الاستعمارية الاسبانية وموظفيها. ومع الخصائص الحضرية التي أخذت تتوافر فيها، برز لأول مرة طابعها البحري على رغم بعدها عن ساحل الاطلسي بنحو ٢٠كلم، إذ ساهم التطور العمراني في إقامة أحياء كبرى جديدة، وربط بين الوحدات السكنية، وتوسيع شبكات الطرق. ففي السابق لم تكن شبكة الطرق الصحراوية تمتد أكثر من ٧٠كلم من الطرق المعبدة، في حين كانت بقية الطرق غير صالحة. أما الآن فهناك ٦ آلاف كلم من الطرق المعبدة في إطار مشروع كبير للمواصلات عبر الصحراء (عن «العربي»، العدد ٤٠٣، حزيران ١٩٩٢، ص١١٢-١١٥؛ و«الوسط»، العدد ١٩٧، ٦ تشرين الثاني ١٩٩٥، ص٢٧).

الصحراء الكبرى

نظرة عامة

الموقع وخصائص: تمتد الصحراء الافريقية الكبرى، وهي أكبر صحاري العالم، من البحر الأحمر شرقًا (من صحراء مصر) إلى المحيط الأطلسي غربًا (إلى موريتانيا)، ومن سواحل ليبيا شمالاً إلى منخفض تشاد جنوبًا، بمساحة ٧ ملايين كلم م.، أي حوالي ربع مساحة القارة الافريقية.

لسطح الصحراء عدة أشكال تضريسية: -بحار الرمل التي تغطي مساحات كبيرة في الصحراء، وخاصة عند الحدود بين مصر وليبيا، والجزائر وموريتانيا؛ -الكثبان الرملية المعروفة باسم «العروق» Ergs؛ -الصحاري الحجرية، وهي عارية من كل غطاء رملي، ومعروفة باسم «الحمادة»، -الجبال القديمة، وهي بقايا جبال من الطور الجيولوجي الاول، تحوّلت إلى كتل هضبية، أبرزها جبال الاحجار (الهاجار) في صحراء الجزائر، وتيبيستي في جنوبي ليبيا.

الثروات الاقتصادية: الينابيع والمجاري المائية قليلة جدًا، تتركز في الواحات وعند أطراف الصحراء. لذلك يتجه اهتمام دول هذه الصحراء إلى استغلال المياه الجوفية وحفر الآبار الأرتوازية. ودلّت الابحاث الجيولوجية على وجود ثروات معدنية وفحمية هائلة، بالاضافة إلى مواردها التقليدية المعروفة من الزراعة والرعي وللبادلات التجارية. وأهم ثرواتها المستثمرة حاليًا: النفط في ليبيا والجزائر، والحديد والفوسفات في موريتانيا والصحراء الغربية، والذهب في بوركينا فاسو، وهناك ايضًا اليورانيوم والنحاس وغيرهما.

السكان: يبلغ عددهم نحو ٣٩ مليون نسمة، معظمهم يعيش حياة قبلية متنقلة أو شبه مستقرة. وفي الصحراء مجموعتان عرقيتان: الأولى، شمالية وهي مجموعة العرب والبربر (دول الاتحاد المغاربي)، والثانية، جنوبية وهي المجموعة الزنجية المعروفة في افريقيا السوداء (في المناطق الجنوبية من الصحراء). وقد نجح الشماليون، بحكم تفوقهم الحضاري، من إجتياز الصحراء نحو الجنوب عبر طرق تجارية منتظمة، لذا يغلب على الصحراء الكبرى طابع الحضارة الشمالية، ويظهر ذلك في النواحي الاجتماعية (الدين واللغة والتقاليد)، وفي النواحي الاقتصادية (التجارة والزراعة والرعي). يعتبر الطوارق (راجع «أزواد»، ج٢، ص١٧٣؛ و«بلاد الطوارق»، ج٥، ص٢٢٨) أسياد الصحراء الكبرى، وهم يمارسون تربية الإبل والماعز، وينظمون قوافل التجارة بين شمالي الصحراء وجنوبيها.

تنتشر اللغة العربية في غالبية مناطق الصحراء الكبرى، وبخاصة ليبيا وموريتانيا والتشاد، ويعتنق معظم سكان الصحراء الديانة الإسلامية.

نبذة تاريخية: (راجع بلدان ودول الصحراء، كلاً في موقعها من الموسوعة).

الجفاف التدريجي الذي كانت تتعرض له المنطقة بدءًا من الطورين الجيولوجيين الأخيرين، والمستمر بعدهما، أدّى إلى انكفاء السكان الاصليين السود باتجاه مناطق مجاورة أكثر رطوبة، مثل وادي النيل، ونهر النيجر، وبحيرة تشاد. وقد جاء هذا الانتقال متزامنًا مع بدايات العصر النيوليتي والزراعة في هذه المناطق. ومع بداية عصرنا التاريخي، أُدخل الجمل وأدخلت زراعة النخيل إلى هذه المناطق، ما أتاح للبربر ان يصبحوا أسياد المنطقة ويسيطروا

على طرق القوافل التجارية الاولى فيها.

المعرفة الحديثة بالصحراء مستندة إلى اكتشافات الاوروبيين لها في القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين. وعلى رأس هؤلاء:

– هنريك بارث، وهو مستكشف وجغرافي ألماني، استكشف، بين ١٨٥٠ و١٨٥٥ مناطق في شمالي افريقيا ووسطها ووصل حتى تومبوكتو (مدينة في مالي حاليًا).

– رينه كايي، مستكشف فرنسي، نزل أولاً في السنغال (١٨١٦)، ومنها احتاز، في ١٨٢٨، إلى تومبوكتو فكان أول فرنسي يزور هذه المدينة.

– هوغ كلابرتون، رحّالة اسكوتلندي، احتاز المناطق الواقعة بين طرابلس الغرب وبحيرة تشاد (١٨٢٢–١٨٢٣).

– هنري دوفيريه، مستكشف فرنسي، استكشف الصحراء الجزائرية حتى فزان، ونشر كتابه «طوارق الشمال» (١٨٦٤).

– بول فلاتّرس، ضابط ومستكشف فرنسي، زار الجزائر بعد حرب ١٨٧٠، وقاد بعثتين بهدف بناء طريق عابرة الصحراء. قتله الطوارق أثناء عمل البعثة الثانية التي تاه افرادها في الصحراء.

– شارل أوجين فوكو، مبشر ومستكشف فرنسي، انتهى به الأمر إلى ان يصبح ناسكًا في الصحراء. قتله السنوسيون (١٩١٦). ألّف عددًا من الكتب.

– فرنان فورو، مستكشف فرنسي، شارك في عدة رحلات استكشافية في جنوبي الجزائر بهدف دراسات علمية، ثم اجتاز الصحراء والسودان والتشاد ووصل إلى الكونغو. في ١٩٠٦، عين حاكم جزيرة مايوت وجزر القمر. وفي ١٩٠٨، وضع خريطة للمناطق الشمالية من الصحراء.

– فرنسوا جوزف أميدي لامي، ضابط ومستكشف فرنسي، قاد مع فورو الحملة العسكرية التي احتازت المناطق من المتوسط حتى تشاد (١٨٩٩–١٩٠٠). عاصمة تشاد، نجامينا، كانت تحمل إسمه، وتدعى فورت لامي.

– غوستاف ناشتيغال، مستكشف ألماني، انطلق من طرابلس الغرب في ١٨٦٩، ووصل إلى فزان، ثم تيبيستي، ثم بورنو، ثم منطقة بحيرة تشاد. عاد إلى اوروبا في ١٨٧٥، ونشر كتابه «الصحراء والسودان» (١٨٨٠)، وعين قنصل المانيا في تونس (١٨٨٢)، وكُلّف مهمة نزع سلاح المناطق التي كانت المانيا كسبتها في افريقيا الغربية.

نحو كيان إقليمي: في ايلول ١٩٩٧، اجتمع في طرابلس الغرب (ليبيا)، وزراء دول الصحراء الكبرى، من ليبيا والنيجر ونيجيريا والتشاد ومالي وبوركينا فاسو ومصر والسودان وتونس، وأقروا مشروع اتفاق يهدف إلى إقامة تكامل اقتصادي واجتماعي بين شعوب المنطقة وتعزيز امكاناتها البشرية والاقتصادية.

وفي الاسبوع الاول من شباط ١٩٩٨، عقد اجتماع قمة (في طرابلس ايضًا) ضم ثماني دول هي: ليبيا والسودان وتشاد والنيجر ومالي وبوركينا فاسو ومصر وتونس، أطلق على نفسه إسم «تجمع دول الساحل والصحراء» وهدف إلى إقامة «تعاون فعال ومثمر لمواجهة تحديات القرن المقبل»، واختار الزعيم الليبي معمر القذافي رئيسًا للدورة الحالية للتجمع، والمدني الازهري لمنصب الامين العام للتجمع.

ونظم اللقاء بناء على طلب الزعيم الليبي بهدف «دراسة المشاكل التي تهم دول المنطقة تمهيدًا لتعزيز تعاونها وتحقيق وحدة القارة الافريقية لمواجهة مختلف التحديات».

في الكلمة الختامية للقمة التي ألقاها الرئيس السوداني عمر البشير: «أكملنا التوقيع على إقامة مجموعتنا الوليدة (...) أنجزنا هذا العمل التاريخي لمصلحة شعوبنا لتنطلق مشروعاتنا التنموية والاقتصادية والاجتماعية والامنية لهذا التجمع الذي يضم أكثر من ١٣٠ مليون نسمة ويغطي بقعة مهمة في افريقيا، في زمن يصعب فيه التعامل بين الكيانات الصغيرة فهو زمن الكيانات الكبيرة».

من «الحياة»، العدد ١١٩٨٩، ١٩ كانون الاول ١٩٩٥، ص ١٨.

صربيا

بطاقة تعريف

كانت صربيا بين ١٩٤٥ و١٩٩١ إحدى الجمهوريات اليوغوسلافية الست، الأكبر مساحة والأكثر سكانًا. وفي نيسان ١٩٩٢، شكلت مع مونتينيغرو (الجبل الأسود)، عقب تفكك الاتحاد اليوغوسلافي، «جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية» التي لم تنل اعترافًا دوليًا بها.

الموقع: في وسط منطقة البلقان.

المساحة: ٨٨٣٦١كلم م.، منها ٥٥٩٦٨كلم م. لجمهورية صربيا نفسها، والباقي للمناطق والمقاطعات ذات الحكم الذاتي. يحتل حوض الدانوب ٨٤٪ من إجمالي مساحة البلاد.

العاصمة: بلغراد. وأهم المدن: فروسكا غورا، درداب، درينا، تارا (راجع مدن ومعالم).

السكان: عددهم نحو ١٠،٥ ملايين نسمة. كان عددهم في إحصاء شباط ١٩٩١ قد بلغ ٩ ملايين و٧٩١ ألفًا و٤٧٣ نسمة؛ منهم ٦٥٪ من الصرب، و١٧،٢٪ من الألبان، و٣،٥٪ من الهنغاريين، و٢،٤٪ من المسلمين، و١،١٪ من الكروات، و١،٤٪ من الجبليين (سكان مونتينيغرو، الجبل الأسود)، و١،٤٪ من الرومان. ولجأ إليها في العام ١٩٩٢ نحو ٨٠٠ ألف، غالبيتهم من البوسنة–الهرسك، ونحو ٢٥٠ ألفًا من اللاجئين غير الشرعيين.

الحكم: نظام الحكم جمهوري. الدستور المعمول به صادر في ٢٨ ايلول ١٩٩٠. رئيس الجمهورية ينتخب بالاقتراع العام وعلى دورتين. البرلمان من ٢٥٠ نائبًا. وتنضوي داخل الاتحاد جمهورية الجبل الأسود، ومقاطعات كوسوفو وفوجفودين وسنجق نوفي بازار (راجع الأبواب المخصصة لها).

وأهم الاحزاب: الحزب الاشتراكي (الشيوعي سابقًا)، والحزب الراديكالي (قومي متطرف)، وحزب تآلف المعارضة، والحزب الديمقراطي.

الاقتصاد: أهم المزروعات قصب السكر والذرة والقمح. الثروات المعدنية: المانيسيت، الفحم، النحاس، القصدير، الزنك، الغاز الطبيعي.

الحصار الاقتصادي الذي قررته الدول الاغنى في العالم (٢٤ دولة) في ١١ تشرين الثاني ١٩٩١ استهدف صربيا في الدرجة الأولى (لأسباب سياسية)، ما أدّى إلى انتعاش السوق السوداء.

نبذة تاريخية

قديمًا وحتى الحرب العالمية الاولى: في القرن الميلادي الاول كان أول ظهور لقبائل الصرب المقيمين شمال غربي القوقاز، وقد تميزوا بكونهم مختلفين عن مجموعة الشعوب الهندو-أوروبية، ويتكلمون لغة «ألارودينية» تنتمي إلى مجموعة لغات شعوب الفان (نسبة إلى بحيرة فان Van).

في أواخر القرن الرابع، أقاموا في منطقة الساكس الممتدة بين نهري إلب Elbe وسال Saale، وأسسوا هناك دولة. وفي القرن السابع-الثامن خضعوا لسلطة ملوك الفرنجة (الفرنكيين). وفي العام ٦٣٨، بدأ قسم منهم ينزح باتجاه تيساليا Thessalie، ثم دخل مناطق (في صربيا الحالية) درينا، ليبينيكا، بيفا وليبليان، لاب وجبال رودنيك، وكانت هذه المناطق خاضعة للامبراطورية البيزنطية.

في القرن التاسع، وفيما الصراع على أشده بين بيزنطية والبلغار، شكلت القبائل الصربية إمارة امتدت بين نهر ليم وجبل رودنيك، وحكمتها بين ١١٦٦ و١٣٧١ الأسرة الصربية «نيما نيتش»، وأصبحت مستقلة بعد موت الامبراطور البيزنطي إيمانويل كومّين، وتوسعت اراضيها، في عهد الامير ستيفان نيمانيا (١١٦٨-١١٩٦) حتى شملت زيتا، بيرو وكوسوفو. وفي ١٣٤٦، توّج ملكها، ستيفان دوشان «امبراطور الصرب والاغريق» واتخذ سكوبيا عاصمة له، واصبحت هذه الدولة القوة الاولى في البلقان.

في ٢٠ حزيران ١٣٨٩، أصبحت مناطق صربية واسعة خاضعة للاتراك بعد معركة كوسوفو، واكتملت سيطرة الاتراك على كامل المنطقة إثر دخولهم بلغراد في ١٥٢١.

في ١٧١٨-١٧٣٩، احتلت النمسا المناطق الشمالية من صربيا. وبين ١٧٨٧-١٧٩١، ثار الصرب في وجه الاتراك يدعمهم النمساويون والروس، و لم تهدأ الثورة إلا بتوقيع

لوحة للفنان باجا جوفانوفيك تمثل صرباً هاربين ولاجئين بعد هزيمتهم امام الاتراك (عن «لوموند ديبلوماتيك»، عدد تشرين الثاني ١٩٩٧، ص١٥).

معاهدة سلام سفيتشتوفو من قبل النمسا، ثم روسيا، واستكملت بمعاهدة إياسي مع تركيا التي تعهدت فيها بالعفو عن الثوار. وفي ١٨٠٤، عادت الثورة ضد الاتراك، وقادها جورجي بيتروفيتش (الملقب «كارا-جورجي» أي جورج الأسود، وكان تاجر خنازير) الذي نجح في دخول بلغراد (١٨٠٦)، وعيّن في كانون الاول ١٨٠٨ أميرًا للصرب. لكن في ١٨١٢، توقفت روسيا عن دعم الثوار الصرب بموجب معاهدة بوخارست التي وقعتها مع تركيا. فعادت بلغراد وسقطت من جديد في يد الاتراك (١٨١٣)، ولجأ جورجي بيتروفيتش إلى النمسا.

لكن في السنة نفسها (١٨١٣) قاد ميلوتش أوبرينوفيتش (مربّي خنازير وأمّي) ثورة أخرى ضد الاتراك. ولدى عودة جورجي بيتروفيتش («كارا-جورجي») إلى صربيا، قبض عليه ميلوتش وقطع رأسه وأرسله «هدية» إلى السلطان العثماني. وحصل ميلوتش على حكم ذاتي واسع يشمل أربع ولايات (أو نواحي) من صربيا، وانتخب اميرًا لصربيا، ووافقت الجمعية الوطنية الصربية على ان تكون إمارته وراثية. وفي ١٨٣٠ اعترفت المعاهدة الروسية-التركية بامارته الوراثية في إطار السلطنة العثمانية. وفي ١٨٣٥، صدر أول دستور لصربيا. وفي ١٣ حزيران ١٨٣٩، تنازل ميلوتش عن عرش الامارة على اثر خلاف بينه وبين «سكوبيتشينا» (الجمعية الوطنية) لابنه البكر ميلان الثالث الذي ما لبث ان قضى نحبه. فجاء بعده شقيقه ميشال الذي انفجرت في وجهه ثورة أطاحته (١٨٤٢)، وعينت مكانه ألكسندر ابن جورجي بيتروفيتش (كاراجورجيفيتش) الذي تمكن من الحصول على اعتراف الاتراك به. وفي مؤتمر باريس (١٨٥٦)، حصلت صربيا على ضمانة دولية لوضعها كإمارة مستقلة استقلالاً ذاتيًا.

ضباط أعضاء في منظمة «الكف الاسود» يجهزون على الملك الكسندر.

بعد عامين (١٨٥٨)، عاد ميلوتش أوبرينوفيتش وتمكن من السلطة من جديد ومن اعتراف الاتراك به. وفي ١٨٦٠، خلفه، بعد وفاته، ابنه بالتبني ميلان الرابع الذي استمر ملكًا تحت الوصاية حتى بلوغه سن الرشد في ١٨٧٢. وفي ١٨٧٥، تزوج من ناتالي كيتشكو، ابنة أحد الضباط الروس؛ وفي ١٨٧٧، هزم في معركة ضد الاتراك.

اعترف مؤتمر برلين (٣ آذار ١٨٧٨) باستقلال صربيا التي كسبت ايضًا منطقة نيس، بيرو وفرانيه. لكن النفوذ النمساوي كان يتزايد عليها. وفي ١٨٨٢، توج ميلان ملكًا عليها؛ وخاض في ١٨٨٥ حربًا ضد بلغاريا وهُزم بها، وفي ١٨٨٩، أُجبر على الاستقالة، فخلفه إبنه ألكسندر أوبرينوفيتش الاول الذي اقام حكمًا بوليسيًا. قتله، وزوجته وبعض الوزراء، أعضاء في منظمة «الكف الأسود» في ١٠ حزيران ١٩٠٣ (تذكر المراجع أن أعضاء هذه المنظمة كانوا من الضباط الليبراليين بقيادة الضابط دراغوتين ديميتريفيتش أبيس). فاعتلى العرش بيار كاراجورجيفيتش الذي كان قد تزوج من الاميرة زوركا دو مونتينيغرو (الجبل الأسود).

استند الملك بيار، بصورة كاملة تقريبًا، على دعم روسيا له. وفي ١٩١٢، اندلعت حرب البلقان الأولى التي وقفت فيها صربيا وبلغاريا والجبل الأسود واليونان صفًا واحدًا ضد تركيا. وفي ١٩١٣، اندلعت حرب البلقان الثانية: صربيا والجبل الأسود واليونان وتركيا ورومانيا ضد بلغاريا، وانتهت بمعاهدة بوخارست التي ضمت صربيا بموجبها كوسوفو وميتوهيجا وشمالي ووسط مقدونيا. وفي ٢٨ حزيران ١٩١٤، وقعت عملية اغتيال وريث عرش النمسا الشهيرة في سارايفو التي كانت فتيل اندلاع الحرب العالمية الاولى. وفي ١٥ كانون الاول ١٩١٥، دخلت الجيوش الالمانية والنمساوية والبلغارية إلى صربيا، فغادرت الحكومة الصربية بلغراد إلى كورفو عن طريق ألبانيا (راجع «بازيك، نيكولا» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

من «مملكة الصربيين والكرواتيين والسلوفينيين» إلى «مملكة يوغوسلافيا»: في اول كانون الاول ١٩١٨، جمع الحلفاء المنتصرون في الحرب زعماء السلوفينيين والكرواتيين، وجاءوا بهم إلى بلغراد. وفي لقاء صوري لساعات عدة فقط مع ممثلي مملكة صربيا التي كان قد توحّد المقدونيون وسكان الجبل الأسود (مونتينيغرو) معها قبل ذلك، أعلن المجتمعون قيام «مملكة الصربيين والكرواتيين والسلوفينيين»، وبايعوا ملك صربيا بطرس الاول ملكًا على هذه المملكة. و لم يرد ذكر للبوشناق (المسلمين البوسنيين) في الدولة الجديدة، لأن هذا الاتحاد في المملكة الوليدة هو إتحاد قومي (أو «اتحاد قوميات»)، والمسلمون هم إما صرب أو كروات، كما هي حال الارثوذكس والكاثوليك.

وفي مطلع ١٩٢٩، تغير إسم الدولة إلى «مملكة يوغوسلافيا» على أساس انها الأمل الذي سعى إليه السلاف الجنوبيون (يوغو: جنوب؛ سلافيا: الاقوام السلافية). وفي إطار هذه المملكة، بدأت تتراجع أهمية الصرب وهيمنتهم.

تراجع هيمنة الصرب: إن مملكة صربيا التي كانت قد تأسست على ضفتي الدانوب حيث تقع عاصمتها بلغراد، اعطت لنفسها هدفًا قوميًا اساسيًا: تحرير جميع الصرب الذين كانوا يرزحون تحت النير العثماني، خاصة في المناطق الغربية منها، أي في البوسنة والهرسك، وفي الجنوب، أي في حوض مورافا، وكذلك استعادة الاقليم الذي كان يشكل جزءًا منها في القرون الوسطى قبل ان يعمل العثمانيون على توطين ألبان فيه، وهو إقليم كوسوفو. وبدأ هذا الهدف يعرف زخمًا متصاعدًا منذ اوائل القرن العشرين، خاصة وان حدة الخلافات كانت بدأت تخف بين جناحي الصرب: أنصار أسرة كاراجورجيفيتش وأنصار أسرة أوبرينوفيتش الملكيتين.

توصلت صربيا إلى كسب الاقاليم الجنوبية تدريجيًا طيلة القرن التاسع عشر وإبان حروب البلقان في ١٩١٢-١٩١٣، لكنها لم تتمكن من ذلك غربًا، أي باتجاه البوسنة والهرسك حيث يشكل الصرب أكثر من ٤٠٪ من السكان. إذ تسنى للامبراطورية النمساوية-الهنغارية ان تستغل ضعف الامبراطورية العثمانية وتحتل «موقتًا» البوسنة والهرسك، ثم تضمهما في ١٩٠٨؛ ما أثار حفيظة الصرب وجعل التوتر متصاعدًا في المنطقة حتى وصل إلى ذروته مع حادثة ساراييفو (اغتيال الارشيدوق فرديناند، وريث عرش النمسا) واندلاع الحرب العالمية الاولى. وكان الروس يدعمون صربيا، الأرثوذكسية والسلافية، ووسيلتهم لتوسيع انتشار نفوذهم باتجاه البحر المتوسط.

بعد الحرب العالمية الاولى، أعلن عن قيام دولة «يوغوسلافيا» التي تضمنت، بشكل رئيسي، شعبين يتكلمان لغة واحدة لكن كلاً منهما يعتنق معتقدًا دينيًا مختلفًا: الكروات الكاثوليك والصرب الأرثوذكس. وكانت الحدود بينهما، إلى حينه، هي حدود امبراطوريتين، النمساوية والعثمانية. والمملكة التي جمعت الكروات والصرب والسلوفانيين (في ١٩١٩) في مملكة اتحادية ودعيت ابتداء من ١٩٢٩ بـ«يوغوسلافيا» الذي كان يفترض بها تذويب مفهوم «الدولة المستقلة» أو إضعافه عند أقل تقدير لمصلحة الدولة الاتحادية. إلا ان صربيا تمكنت من إعادة إنتاج بُناها الخاصة داخل هذا الاطار الاتحادي: أسرة كاراجورجيفيتش الملكية، تنظيم مركزي، المهمات والوظائف السياسية والعسكرية العليا يمسك بها الصرب بصورة أساسية. كذلك الكروات، فإن قواهم واحزابهم السياسية الرئيسية عارضت الحل الفدرالي، ما أدّى إلى حالة من الفوضى العامة أدّت بدورها إلى نظام دكتاتوري ملكي في ١٩٢٩ صمد حتى آب ١٩٣٩ حيث بوشر بحل فدرالي

أعطى هامشًا عريضًا من الاستقلال الذاتي لكرواتيا.

أثناء الحرب العالمية الثانية والاحتلال النازي للبلاد تحمل الصرب العبء الاساسي من المقاومة الوطنية الهادفة إلى التحرير وإلى إعادة إقامة المملكة اليوغوسلافية. فبرزت حركة «تشيتنيك» Tchetnik (من تشيتا Tcheta، وتعني «شركة الجنود» التي بدأت منذ ١٩٠٣ نضالها ضد الأتراك، ثم في فترة ما بين الحربين)، وهي منظمة شبه عسكرية (ميليشيات) قومية متطرفة، عجزت، بسبب تطرفها هذا، عن الامتداد إلى شعوب يوغوسلافيا الباقية باستثناء وجود لها ظهر في الجبل الأسود «مونتينيغرو» الذي يسكنه شعب قريب جدًا من الصرب.

وعلى عكس التشيتنيك، قامت «حركة الأنصار»، بقيادة شيوعية وبزعامة جوزف تيتو، على اساس عمل جبهوي يضم مختلف شعوب يوغوسلافيا. ثم جاء التاريخ الرسمي ليوغوسلافيا الشيوعية ليعطي الفضل الاول في التحرير لحركة الانصار متجاهلاً دور التشيتنيك حينًا، ومتهمًا إياهم بالتطرف والنزعة الملكية والتعاون مع المحتل احيانًا أخرى. هكذا، عملت الفترة الشيوعية على ترسيخ فكرة ان الأمة الصربية لطالما كانت تحدوها نزعة الهيمنة التي سوف يكون بمقدورها، في حال نجاحها، ان تجعل من يوغوسلافيا مجرد واجهة لـ«صربيا الكبرى».

«صربيا ضعيفة، يوغوسلافيا قوية»: إن التجربة السابقة لشيوعيي البلدان اليوغوسلافية في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية جعلتهم، وهم يخوضون مقاومتهم أثناء هذه الحرب، يضعون تصورًا لـ«يوغوسلافيا فدرالية من ثمانية كيانات» يصعب على النزاع الصربي-الكرواتي المزمن ان يجد في إطارها مناخًا ملائمًا لإعادة انتاجه من جديد.

وبعد الحرب، حقق تيتو هذا التصور، وقامت يوغوسلافيا ذات الكيانات الثمانية الاتحادية، ووجدت صربيا نفسها مقلصة الحدود بالنسبة إلى الحدود التي كانت عليها في ١٩١٨: انتزعت منها مقدونيا التي أصبحت كيانًا قائمًا بذاته داخل يوغوسلافيا؛ وإذا كانت صربيا قد كسبت فويفودينا، إلا ان هذه الأخيرة شكلت مقاطعة ذات حكم داخلي مستقل، وكذلك الامر بالنسبة إلى كوسوفو. فكانت القناعة الغالبة لدى الصرب بأن تيتو تقصّد إضعاف صربيا عملاً بالمبدأ القائل: «صربيا ضعيفة، يوغوسلافيا قوية».

وبالفعل، إن الحدود الادارية التي وضعها تيتو لصربيا في ١٩٤٥ جعلت نحو ثلث مجموع الصرب خارجها. فلم يكن هناك سوى ٤،٨ مليون صربي في صربيا، والباقون في مقاطعة فويفودينا المستقلة استقلالاً داخليًا (١،١ مليون صربي، أي ٥٤٪ من مجموع سكانها)، وفي مقاطعة كوسوفو (٢٠٩ آلاف، أي ١٣٪ من مجموع سكانها)، وفي كرواتيا الغربية (٥٣٠ ألفًا، أي ١١،٥٪ من مجموع سكانها)، وفي البوسنة-الهرسك (١،٣ مليون صربي، أي ٣٢٪ من مجموع سكانها).

لم يُظهر الصرب اعتراضًا على هذا التقسيم الفدرالي، إذ إن القوانين الفدرالية أمّنت المساواة في الحقوق والواجبات بين مختلف مواطني جمهوريات ومقاطعات الاتحاد. لكن المشكلة بدأت تطل برأسها ابتداء من ١٩٧٤، تاريخ صدور تعديلات دستورية أخذت بمزيد من الخطوات في المنحى الكونفدرالي، مثل إعطاء مقاطعتي فويفودينا وكوسوفو حقوقًا اقتصادية أوسع وأهم من السابق، ومثل دعم سلوفينيا وكرواتيا لمطالب الألبان (في مقاطعة كوسوفو الصربية) ضد رغبة السلطات الصربية.

مذكرة ١٩٨٦: أكاديمية في شكلها

سياسية قومية في مضمونها: أول تململ جدي ومهم ومعلن للصرب عكسته مذكرة الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون في ١٩٨٦. رفضت هذه المذكرة الاجحاف اللاحق بالصرب نتيجة توزيعهم غير العادل، وتاليًا استحالة الأداء الحكومي في صربيا مشيرة بصورة أساسية إلى الصعوبة الحقيقية الناتجة عن تطبيق دستور ١٩٧٤ الذي أعطى لمقاطعتي فويفودينا وكوسوفو صلاحيات شبه مساوية لتلك المعطاة للجمهوريات في الاتحاد، علمًا ان صربيا وحدها بين سائر جمهوريات الاتحاد تتضمن مقاطعات لها حكمها الذاتي. ثم ان هذه المشكلة، بحسب المذكرة، أصبحت أكثر حدية ابتداء من ١٩٨١ بسبب مطالبة الألبان برفع كوسوفو من مستوى المقاطعة إلى مستوى الجمهورية، ما أدّى إلى خلق توترات بين الألبان والصرب في المقاطعة.

الكاتب والاستاذ الجامعي اللبناني د.فريدريك معتوق تناول هذه المذكرة في بحثه في التأثير الايديولوجي الغالب على التأثير الاقتصادي في نشوب الحرب الأهلية، فقال بصددها («جذور الحرب الأهلية»، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩٤، ص١٥-١٧):

«فعندما مات الماريشال تيتو عام ١٩٨٠، كان الدّين الخارجي اليوغوسلافي قد بلغ ١٨ بليونًا من الدولارات، والعجز في الميزان التجاري كان يبلغ حينذاك ايضًا ثلاثة بلايين دولار. أما معدل النمو الاقتصادي فكان قد بلغ مستوى الصفر.

«لكن هذا الوضع الاقتصادي المأسوي لم يكن كافيًا لاشعال الحرب الاهلية علمًا ان العديد من المراقبين السياسيين الاوروبيين كانوا قد تنبأوا باندلاعها في يوغوسلافيا لمجرد وفاة الماريشال تيتو.

«لم يبدأ نضوج الحرب الاهلية الفعلي إلا بعد ست سنوات من تاريخ وفاة تيتو (أي في ١٩٨٦) مع وضع المذكرة الأيديولوجية الصربية الاولى، و لم تشتعل الحرب فعليًا إلا بعد عشر سنوات، أي في ١٩٩٠.

«ما هي المذكرة؟ هي وثيقة وضعها صربيون للتنظير للحرب ضد الاثنيات الأخرى. حول هذه المذكرة يقول لنا ميخائيل تشيرنوبرنيا، وهو وزير سابق للتصميم في الجمهورية الصربية، يقطن حاليًا في بريطانيا، ما يلي (نقلاً عن كتاب وضعه الوزير المذكور بعنوان: Le Drame Yougoslave, Rennes, éd. Apogée, 1992, pp. 86-88).

«المرحلة الاولى لنهوض الوعي القومي الصربي بدأت مع قيام تجمع من المثقفين الصرب شرع في إبداء سلسلة من الافكار حول اللغة والثقافة والتاريخ والموقع الاقتصادي (للشعوب الخاضعة لغير ارادتها). وكان يشارك في هذا التجمع عدد من أعضاء اكاديمية العلوم والفنون الصربية. وقد نشر هذا التجمع نتيجة أبحاثه عام ١٩٨٦ تحت عنوان «مذكرة حول وضع صربيا في يوغوسلافيا».

«علينا ان نتوقف مطولاً عند مضمون هذه المذكرة، يتابع تشيرنوبرنيا. فما الذي قدمته؟ في الواقع، وعلى رغم ان هذه المذكرة كانت قد صيغت في أكاديمية العلوم الصربية، إلا انها لم تكن تشكل وثيقة علمية بكل معنى الكلمة. بل كانت مجرد برنامج سياسي قائم على عدد من الانتقادات حول مكانة صربيا في يوغوسلافيا.

«في مقدمتها، كانت المذكرة تشير إلى خطورة وضع الامة الصربية الخاضعة لعدوانية عامة في البلاد، ولا تلبث ان تؤكد على ارادة دفينة كانت تمارسها يوغوسلافيا كدولة اتحادية، منذ ١٩٤٥، تقضي بابقاء صربيا في وضعية متخلفة، للانتقام من هيمنة الصرب على الجبهة العسكرية بين الحربين العالميتين.

«وتختم المذكرة كلامها باستخلاص ان الموقف الانتقامي للجمهوريات الأخرى داخل

الاتحاد ضد صربيا لم يخفّ و لم يضعف أبدًا على مرّ السنين بل ازداد شدّة. ومن هنا ضرورة رفع شعار، درج كثيرًا في ما بعد، يقول إن صربيا ربحت الحرب ولكنها خسرت السلام. وقد شكلت هذه المذكرة صاعق التفجير للوضع برمته».

الجدير ذكره ان اكاديمية العلوم والفنون الصربية (مقرها بلغراد) تضم حاليًا ٣٠ عضوًا. تأسست بعد استقلال صربيا التام عن السلطة العثمانية في ١٨٦٦ باتحاد جمعيات قومية عدة ثقافية وعلمية لتنظيم جهة استشارية للدولة.

إلا ان نشاطها العام يؤكد انها كانت دائمًا تتجاوز نظامها الأكاديمي الأساسي من منطلق مسؤولية اعضائها بصيانة القومية الصربية والحفاظ على ديمومة مآثرها، ما خلا فترة حكم تيتو الذي ارغمها بقانون صدر في ١٩٤٧ على حصر عملها في مجالات العلوم الطبيعية والرياضيات والتكنولوجيا والطب والأدب واللغة والفنون التشكيلية والموسيقية.

وعندما عرضت الأكاديمية وثيقتها (المذكرة، ١٩٨٦) على العديد من القادة الشيوعيين كان سلوبودان ميلوشيفيتش أكثرهم ترحيبًا بها وكان حينذاك عضوًا في هيئة رئاسة رابطة شيوعيي صربيا (الحزب الشيوعي الصربي)، وطلب دعمه من قبل اعضاء الأكاديمية لقاء تبني اهدافها على مراحل.

القوميون الصربيون في السلطة: تركت البيروسترويكا (راجع «الاتحاد السوفياتي»، ج١) أثرها داخل الرابطة (الحزب) الشيوعية اليوغوسلافية، وخاصة في صربيا حيث انبرى سلوبودان ميلوشيفيتش يعلن، في خطبه القومية، إدانته للسياسة «الكرواتية» التي كان يتبعها تيتو طيلة عهده. وأصبح ميلوشيفيتش، في خريف ١٩٨٧، رئيسًا للحزب الشيوعي الصربي، ثم رئيسًا للجمهورية الصربية. هكذا أعيدت السلطة إلى القوميين الصربيين وإن كان ذلك، وفي البداية، في إطار من الالتزام الشيوعي. وفي آذار ١٩٨٩، جرى تعديل للدستور قلّص إلى حد كبير من سلطات الحكم الذاتي للمقاطعات، كما أجرت السلطات في حزيران (١٩٨٩) احتفالات كبرى ذات دلالات مهمة في الذكرى المئوية السادسة لمعركة كوسوفو التي خاضها الصرب ضد الاتراك، كما اتخذت إجراءات استثنائية، في ١٩٩٠، كان من حقها تهميش ألبان كوسوفو سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا. وفي كانون الاول ١٩٩٠، فاز الشيوعيون (وكانوا قد بدّلوا إسم حزبهم، فأصبح الحزب الاشتراكي) في الانتخابات التعددية الاولى.

انتهج ميلوشيفيتش سياسة تعمل على الابقاء على الاتحاد اليوغوسلافي لكن مع إعادة تنظيم نظامها المركزي؛ لكنه فشل في الاتفاق مع جمهوريات الاتحاد الأخرى التي كانت تخشى عودة الهيمنة الصربية. فتفككت يوغوسلافيا بدءًا بالانفصال الذي أعلنته كل من سلوفينيا وكرواتيا في حزيران ١٩٩١، وتبعتهما مقدونيا في ايلول، ثم البوسنة-الهرسك في تشرين الاول. وصربيا نفسها لم تكن بمنأى عن هذا المدّ الانفصالي، إذ أعلن مسلمو السنجق (راجع الموسوعة، ج٩، ص١٦٤) استقلالهم الذاتي، وألبان كوسوفو استقلالهم، وإن لم يأخذ هذان الاعلانان طريقهما إلى التنفيذ بصورة فورية.

في المقابل، دعمت صربيا ثورة صرب كرواتيا وصرب البوسنة-الهرسك الذين أعلنوا عن رفضهم تحويل الحدود الادارية التي رسمها تيتو إلى حدود دولية للدول الجديدة التي يعيش فيها صرب اقتطعت مناطق تواجدهم عن الوطن الأم. وهذا الدعم الذي قدمته صربيا لصرب هذه البلدان اعتبرته الدول، باستثناء روسيا واليونان، كارهاب وعدوان، وانبرت هيئة الامم المتحدة، في ايار ١٩٩٢، لفرض حصار تجاري على صربيا، عادت وأكدته في ايار ١٩٩٣. وكان الرئيس الصربي

سلوبودان ميلوشيفيتش، يحاول عبثًا، قبيل ايار ١٩٩٣، إقناع صرب البوسنة القبول بخطة فانس-أوين للسلام (راجع «البوسنة»، ج٥، ص٣٥٤-٣٨٣).

أعيد انتخاب ميلوشيفيتش رئيسًا للجمهورية في كانون الاول ١٩٩٢، وفاز حزبه بأكبر عدد من المقاعد في انتخابات كانون الاول ١٩٩٣ التشريعية. لكن المعارضة بدأت تقوى رغم الانشقاقات في صفوفها.

«صربيا الكبرى»: عبارة أطلقها القوميون الصرب منذ ١٩٣٧ وفي إطار مشروعهم القاضي بـ«التطهير العرقي» في كوسوفو؛ وفي إطار بناء دولة صربية تضم جميع صرب يوغوسلافيا. كان تيتو معاديًا لها وعمل على تقطيع أوصالها. بعد انهيار يوغوسلافيا، عادت «صربيا الكبرى» تطرح من جديد ومن مختلف القوى القومية، وعلى رأسهم الرئيس ميلوشيفيتش الذي يرى ان دولة صربيا الكبرى يجب ان تضم إلى صربيا، صرب البوسنة-الهرسك وكرواتيا، والاحتفاظ بجميع اراضي صربيا الحالية أي الجبل الأسود ومناطق الاقليات القومية: مسلمي السنجق وألبان كوسوفو ومجريي فويفودينا. وهذا الهدف يكاد يجمع عليه جميع الصرب، بمن فيهم المعارضون لميلوشيفيتش، وان وجد بعض الاختلاف فهو يطال وسائل الوصول إليه. والحق التاريخي الذي تستند إليه الدعوة إلى «صربيا الكبرى» هو الحق بالارض التي كانت تقوم عليها مملكة صربيا قبل التوسع العثماني في المنطقة نهاية القرن الرابع عشر.

صربيا في السنوات ١٩٩٣-١٩٩٧:

١٩٩٣: استأثر الوضع الاقتصادي بالاهتمام في «جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية» (صربيا والجبل الأسود) نتيجة لمرور شهور طويلة على تطبيق العقوبات الدولية على الجمهورية بسبب موقفها الداعم لصرب البوسنة. وقد أثرت هذه العقوبات كثيرًا في المجالات الاقتصادية والاجتماعية، إذ جعلت نسبة التضخم تبلغ حدًا رهيبًا وصل إلى ٢٨٦٥٪ خلال عام واحد، وجعلت نحو ٧٠٪ من مواطني يوغوسلافيا (الصرب وجبل الأسود) يعيشون على حافة الفقر. فكلفت هذه العقوبات «يوغوسلافيا» حتى آخر ايار (١٩٩٣) نحو ٢٠ بليون دولار، وانخفض الناتج القومي مقدار ١٢ بليون دولار، والتصدير والاستيراد بنسبة ٩٠٪ بالمقارنة مع عام ١٩٩٢، ولم يبق من مجال امام البلاد سوى تنمية الانتاج القائم على المواد الخام المحلية وتطوير سوقها الداخلية والاهتمام بزراعتها وصناعاتها إضافة إلى المواد التي يحتاج إليها قطاع البناء. ولجأت الحكومة الاتحادية إلى إجراءات تشديد العقوبات على المضاربات التجارية وفرض أقسى حالات التقشف.

في ١٩٩٤-١٩٩٥: تميز هذان العامان بمحاولات الرئيس الصربي ميلوشيفيتش فك الحصار والعزلة الدوليين المضروبين على بلاده من خلال انتهاجه سياسة معارضة وإدانة صرب البوسنة إلى حدّ قطع علاقات صربيا معهم واتهامهم بأنهم «مجرّد عصابات وتجار حروب لا ضمير لهم» (آب ١٩٩٤)، داعيًا إياهم إلى القبول بخطة السلام الدولية.

ووقف الرئيس الاتحادي (جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية، من جمهوريتي صربيا ومونتينيغرو-الجبل الأسود) زوران ليليتش (الذي كان ميلوشيفيتش قد اختاره لهذا المنصب خلفًا لدوبريتسنا تشوسيتش) إلى جانب ميلوشيفيتش في هذا الموقف، وأكد كل ما قيل عن الصرب البوسنيين من جرائم «التطهير العرقي وقتل الأبرياء وتدمير ساراييفو وتجارة الحرب والقضاء على فرص

السلام والسوق السوداء والاضرار بمصالح الشعب الصربي والتسبب في معاناة سكان جمهوريتي الصرب والجبل الأسود».

لكن هذه الانتقادات أثارت قادة الكنيسة الأرثوذكسية الصربية (مقرها بلغراد)، فأصدروا بيانا ندّدوا فيه بالحصار الذي أعلنته جمهوريتا الصرب والجبل الأسود ضد الصرب البوسنيين، واعتبروا مواقف قيادة بلغراد متعارضة مع الأخوة الصربية. لكن لهجة الكنيسة الصربية خفّت بعد ان اجتمع رئيسها البطريرك بافلي بالرئيس ميلوشيفيتش، وبقي السبب سرًّا، ودارت التكهنات بأن ميلوشيفيتش تمكن من إفهام البطريرك بحقيقة ما يصبو إليه. من هذه التكهنات ان ميلوشيفيتش اراد، من خلال موقفه هذا من صرب البوسنة، ان يظهر بمظهر المعتدل تمهيدًا لدخوله في الحل الدولي للحرب في البوسنة؛ وان دخوله المباشر في اللعبة سيؤدي إلى ترسيخ احتلال الصرب لنحو ٧٠٪ من اراضي البوسنة-الهرسك، إضافة إلى تجنب اتخاذ قرارات مهمة لصالح مسلمي البوسنة. وقد جاءت الاسابيع التالية لتشهد، في اتفاقية دايتون، بصدقية هذه التكهنات إلى حد كبير.

وبالفعل، فقد رُفع الحصار الدولي عن صربيا نتيجة لهذا الموقف الذي اتخذه رئيسها من صرب البوسنة. لكن الشهر الأخير من ١٩٩٥ شهد، على الصعيد الداخلي، تصاعدًا في حدة الازمة بين ميلوشيفيتش والمعارضة، وسارت في بلغراد مظاهرات ضخمة بعد رفض القضاء التراجع عن قرار إلغاء الانتخابات البلدية في الدوائر التي فاز فيها مرشحو المعارضة. وقد ترافقت حركة احتجاج المعارضة (دامت نحو اسبوعين) مع تصاعد الضغط الدولي على السلطات الصربية عبر دعوة واشنطن المؤتمر الدولي لمراجعة عملية السلام في البوسنة، وتبنيها، في الوقت نفسه، لبيان يندد بقمع السلطات الصربية حركة الاحتجاج على إلغاء الانتخابات، ويلوّح باعادة العقوبات الدولية التي كانت مفروضة على بلغراد.

في ١٩٩٦: في ٢٣ آب، تمّ في بلغراد التوقيع على وثائق التطبيع الكامل للعلاقات بين يوغوسلافيا الاتحادية (صربيا والجبل الأسود) وبين جمهورية كرواتيا. كما وقع الطرفان على اتفاقية لتبادل التمثيل الدبلوماسي بينهما بعد تجاوز آثار الحروب التي نشبت بين الصرب والكروات خلال السنوات الخمس الأخيرة والتوصل إلى حلول توفيقية للمشاكل المتشعبة التي خيمت على العلاقات بينهما منذ انهيار يوغوسلافيا. وبموجب هذا الاتفاق اصبح الصرب في منطقة سلافونيا الشرقية جزءًا من كرواتيا (راجع «صرب كرواتيا» في باب لاحق).

وفي ٢٣ تشرين الاول (ودائمًا، كنتائج للسلام الذي اقرته اتفاقية دايتون في البوسنة)، اجتمع في باريس الرئيسان: الصربي ميلوشيفيتش، والبوسني بيكوفيتش، وبحثا في تطبيع العلاقات بين بلديهما، كما اجتمعا إلى الرئيس الفرنسي جاك شيراك.

على الصعيد الداخلي، تمثل المحور السياسي البارز في الانتخابات البرلمانية والبلدية (النصف الثاني من ١٩٩٦) في يوغوسلافيا الاتحادية (صربيا والجبل الأسود) التي شارك فيها ٤٩ حزبًا وتكتلاً سياسيًا ذات نزعات قومية في غالبيتها. لذا فإن الصراع بينها تراوح بين المزايدات في تحقيق الاهداف المتوارثة وبين العداء الشخصي للرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش وزوجته ميرا ماركوفيتش وتكتلهما الذي يجمع بين الشيوعيين القدامى والجدد في إطار يسار موحد.

ورافقت العملية الانتخابية (١٧ تشرين الثاني) اضطرابات عنيفة، وفازت المعارضة في ١٥ من اصل ١٨ مدينة رئيسية. لكن السلطات تذرعت بحصول تزوير لالغاء هذه النتائج ونظمت

انتخابات جديدة قاطعتها المعارضة، وبنتيجتها لم يعد للمعارضة سوى سبع مدن كبرى. فبدأت موجة من الاحتجاجات والتظاهرات (مصحوبة احيانًا بأعمال عنف) تعم المدن الصربية ضد ميلوشيفيتش مطالبة إياه بالاعتراف بنتائج الانتخابات الاولى التي فازت بها المعارضة. وبرز في حركة المعارضة زعيم حزب النهضة الجديدة فوك دراشكوفيتش كزعيم مناوىء وبديل للرئيس ميلوشيفيتش.

وانقضت سنة ١٩٩٦ على استمرار حركة المعارضة في خروجها إلى الشوارع في المدن (لليوم الاربعين على التوالي)، وفي مقدمها الطلاب والمثقفون، وعلى اتجاه نظام ميلوشيفيتش نحو عزلة داخلية خطيرة أنذرت بتفكك الاتحاد اليوغوسلافي (صربيا والجبل الأسود)، خاصة وان برلمان جمهورية الجبل الأسود استعد إلى اصدار قرار يدعو فيه الرئيس الصربي إلى احترام نتائج الانتخابات البلدية التي فازت فيها المعارضة. خاصة وأن محكمة الاستئناف في جمهورية صربيا اعترفت (اواسط كانون الاول) بفوز المعارضة بغالبية المقاعد في مجلس إحدى البلديات الست عشرة التي تتكون منها العاصمة بلغراد، ناقضة بذلك قرار ميلوشيفيتش ومسلطة الاضواء على أعمال غير قانونية يقدم عليها.

في ١٩٩٧: بدأت هذه السنة باستمرار حركة المعارضة في تمردها على الرئيس ميلوشيفيتش، وامتدت هذه الحركة إلى بعض وحدات الجيش. فأعلن أكثر من ٦٠ ضابطًا مظليًا في فيلق مدينة نيش (٢٠٠كلم شرقي العاصمة) انهم وجّهوا تحذيرًا علنيًا إلى النظام الحاكم بأن أي محاولة لاستخدام جيش يوغوسلافيا الاتحادية في قمع المتظاهرين سيؤدي إلى انشقاق وصدامات داخل المؤسسة العسكرية. واعتبرت المعارضة ذلك «علامة واضحة على قرب انتهاء عهد التسلط والاستبداد في صربيا». وأعقب ذلك بيان اصدرته قيادة الجيش (٨ كانون الثاني) وجاء فيه ان الجيش اليوغوسلافي لن يتدخل في المواجهة الجارية بين المعارضة والرئيس ميلوشيفيتش، وسارعت واشنطن إلى دعم الجيش في موقفه هذا، كما جمّدت علاقاتها الرسمية والتجارية مع بلغراد، كما كانت اوروبا من جهتها تضغط في الاتجاه نفسه. فأذعن ميلوشيفيتش وأعلن انه سيتجاوب مع بعض مطالب المعارضة. لكن المعارضة ردّت بأنها ترفض «منحنا حقوقنا بالتقسيط»، إلا انها تخلت عن هدفها الذي كانت أعلنته قبل نحو شهر (أي في كانون الاول ١٩٩٦) والقاضي بإزاحة ميلوشيفيتش عن الرئاسة. وبدا، في اواخر كانون الثاني (١٩٩٧) ان الطرفين، المعارضة والرئيس، تصرفا بحذر تجنبًا للمصادمات الدموية، واختارا إرجاء تحقيق الاهداف إلى الانتخابات الرئاسية والبرلمانية في جمهورية صربيا التي ستجري بصورة اعتيادية خلال ١٩٩٧، والتي لا يحق لميلوشيفيتش الترشيح للرئاسة فيها بناء على مقتضى الدستور بعد ان أمضى دورتين متتاليتين رئيسًا. وفي آخر كانون الثاني، رحبت المعارضة بتصريح رئيس يوغوسلافيا الاتحادية (صربيا والجبل الأسود) زوران ليليتش أثناء وجوده في جمهورية الجبل الأسود وطلب فيه «الاحترام الكامل لارادة الناخبين في صربيا وتسليم المعارضة حقها في جميع الاماكن حيث فاز مرشحوها، وحل الازمة القائمة وفق تقرير اللجنة الاوروبية التي ترأسها رئيس الوزراء الاسباني السابق فيليبي غونزاليس وتوجيه مساعي الجميع نحو تعزيز اقتصاد البلاد» (اللجنة الاوروبية هي لجنة تحقيقية تابعة لمنظمة الأمن والتعاون في اوروبا، وكانت تنظر في الاوضاع الصربية).

مع ذلك، استمر التوتر وتصاعد إلى مرحلة من العنف شهدت محاولة اغتيال زعماء المعارضة الصربية (٣ شباط). وبعدها بيوم واحد، اعترف

ميلوشيفيتش بنتائج الانتخابات البلدية (التي جرت في اواسط تشرين الثاني ١٩٩٦)، وتعهد أقطاب المعارضة (أثناء زيارتهم باريس في ٦ شباط) وقف الاحتجاجات فور إقرار البرلمان فوز أنصارهم في الانتخابات. وقد اقر البرلمان هذا الفوز بعد نحو اسبوع واحد، وأوقفت المعارضة المظاهرات والاحتجاجات (استمرت من إلغاء نتائج انتخابات اواسط تشرين الثاني ١٩٩٦ إلى اواسط شباط ١٩٩٧، وبشكل يومي).

زعماء المعارضة الثلاثة، الأبرز بينهم فوك دراشكوفيتش، الذي يرأس حزب النهضة الصربية الجديدة، وزوران جينجيتش وفيسنا بيشيتش، التقوا في لندن (٢٧ شباط) بالامير المطالب بعرش صربيا ألكسندر كاراجورجيفيتش، ابن الملك بيار الثاني الذي أقصي بعد اعلان الجمهورية في اعقاب انتصار الشيوعيين بعد الحرب العالمية الثانية. ووجه دراشكوفيتش الدعوة للأمير لزيارة بلغراد في أجواء الاعلان عن انتصار المعارضة في الانتخابات المحلية، كما أكد موقفه المعلن قبل خمس سنوات بأنه يرغب في إجراء استفتاء عام في يوغوسلافيا الاتحادية (صربيا والجبل الأسود) للوقوف على رأي الشعب بخصوص عودة النظام الملكي «الذي بمقدوره وضع حد للأحداث المعيبة التي خيمت على البلاد منذ سقوط الملكية». وكان الامير ألكسندر جاء إلى بلغراد بدعوة من دراشكوفيتش أثناء تظاهرات خريف ١٩٩٢، لكنه ما لبث ان عاد إلى مقره في لندن بعدما تأكد من عدم وجود الدعم الشعبي الكافي لعودة النظام الملكي. وتوقع كثيرون ان استفتاء شعبيًا حول عودة النظام الملكي في الظروف الراهنة لن يسفر عن نتيجة إيجابية، خاصة وان المعارضة ليست متحدة في هذا الشأن، إضافة إلى ان الامير الكسندر لا يجيد التكلم بالصربية لأنه ولد وعاش في لندن ووالدته يونانية وزوجته اسبانية، ما يجعله غير مستوف لشروط الشخصية القومية التي تناسب توجهات الصرب.

ميلوشيفيتش من رئاسة صربيا إلى رئاسة الاتحاد: في ١٥ تموز (١٩٩٧)، انتخب سلوبودان ميلوشيفيتش رئيسًا ليوغوسلافيا الاتحادية (صربيا والجبل الأسود)، وهو المنصب الذي شغر بانتهاء ولاية رئاسة زوران ليليتش. وكان ميلوشيفيتش المرشح الوحيد لهذا المنصب إثر اتفاق الحزب الاشتراكي الصربي الذي يتزعمه ميلوشيفيتش مع حزب الديمقراطيين للجبل الأسود الحاكم اللذين يتمتعان بأكثرية مقاعد البرلمان الاتحادي المكون من مجلسين على ترشيحه. وكان الاتحاد اليوغوسلافي أسس في صيف ١٩٩٢ من جمهوريتي صربيا ومونتينيغرو (الجبل الأسود) بعد انهيار يوغوسلافيا السابقة. وأصبح ميلوشيفيتش ثالث رئيس للاتحاد بعد دوبريتسا تسوشيتش وزوران ليليتش. وعلى رغم ان السلطات الرئيسية على النطاق الداخلي وفق الدستور هي من صلاحيات رئيسي صربيا والجبل الأسود، إلا ان أهمية الرئيس الاتحادي تأتي باعتباره ممثلاً للدولتين الاتحاديتين في المجال الخارجي إضافة إلى كونه رئيسًا للقوات المسلحة للدولة. وجاء انتقال ميلوشيفيتش إلى رئاسة يوغوسلافيا بعدما تعذر عليه الاستمرار في رئاسة صربيا لأنه بقي في هذا المنصب لولايتين متتاليتين، وهو أقصى ما يسمح به دستور صربيا. وتسلم رئيس برلمان صربيا دارغان توميتش منصب رئيس جمهورية صربيا بالوكالة وفق الدستور إلى حين إجراء انتخابات رئاسية.

إن أهم تحرك أقدم عليه ميلوشيفيتش في الأشهر الثلاثة الاولى من ولايته الاتحادية مرتبط إلى حد كبير بطلب الحلف الاطلسي منه بالمساعدة في تنفيذ اتفاق دايتون للسلام في البوسنة، وذلك بزيادة ضغطه على صرب البوسنة لكي يتعاونوا في المؤسسات المشتركة والانتخابات البرلمانية والتخلي عن مواجهتهم مع المسؤولين الدوليين... في البوسنة. كما تركزت محادثات وفد الاطلسي مع ميلوشيفيتش على حقوق الاقليات القومية في

صربيا والجبل الأسود. وأوضح الوفد ان حلف الأطلسي يعارض انفصال إقليم كوسوفو أو أي جزء آخر من اراضي صربيا انطلاقًا من مبدأ عدم تغيير الحدود من طرف واحد، لكنه شدّد على ضرورة ان تعترف «يوغوسلافيا بحقوق الألبان في كوسوفو لأن الوضع المضطرب الحالي في هذا الاقليم يثير مشاكل خطيرة في المنطقة بأسرها».

وبالفعل، وبعد نحو سبعة اسابيع من لقائه وفد الحلف، أعلن ميلوشيفيتش (٢٥ تشرين الاول)، بالتخلي عن متشددي صرب البوسنة، ودعا إلى تنحية زعيمهم مومتشيلو كرايشنيك من عضوية هيئة رئاسة البوسنة-الهرسك. وفي ٥ تشرين الثاني، وقّع مع رئيس الوزراء الألباني اتفاقًا لتطبيع العلاقات بينهما للمرة الاولى منذ ١٩٤٨ عندما حلّت القطيعة آنذاك بين البلدين نتيجة الصراعات العقائدية (تيتو وأنور خوجا). وأعلن بعد ذلك عن لسان ميلوشيفيتش ان ألبانيا «اعترفت بأن قضية كوسوفو هي من شؤون يوغوسلافيا الداخلية وسوف يجري حلها على أسس سياسة المساواة القومية بشكل عام».

انتخابات ايلول ١٩٩٧: تميزت هذه الانتخابات الرئاسية والبرلمانية بتصاعد التأييد لغلاة المتشددين. اشترك فيها ٩١ حزبًا وتكتلاً سياسيًا. وجاء الحزب الاشتراكي والتحالف اليساري بزعامة ميلوشيفيتش في المرتبة الاولى، وتلاه الحزب الراديكالي الصربي (متطرف)، ثم حزب النهضة الصربية الجديدة. وانحصرت معركة انتخابات الرئاسة، في دورتها الثانية باثنين هما: زوران ليليتش (الاشتراكي) وفويسلاف شيشيلي (الراديكالي).

وجرت الدورة الثانية في موعدها (٥ تشرين الاول)، فحصل فويسلاف شيشيلي على نحو ٥٢٪ من الاصوات في مقابل ٤٨٪ لمنافسه زوران ليليتش. لكن اللجنة الانتخابية العليا قررت اعتبار العملية الانتخابية لاغية لأن نسبة الاقبال لم تتجاوز ٤٩٪ من عدد الناخبين المسجلين (حوالي ٧،٢٥ ملايين)، أي اقل من نسبة الـ٥٠٪ المطلوبة قانونيًا. وأشارت اللجنة إلى انه يتعين إعادة الانتخابات الرئاسية بعد ثلاثة أشهر. وكان الألبان في كوسوفو والمسلمين في السنجاق قاطعوا الدورة الانتخابية الثانية بنسبة ٩٩٪. وعلى رغم ان هذه المقاطعة وجهت أساسًا ضد نظام ميلوشيفيتش إلا انها جاءت في مصلحته بعدما جعلت فوز خصمه الراديكالي شيشيلي غير دستوري (بالنسبة إلى انتخابات جمهورية الجبل الأسود-مونتينيغرو- شريكة صربيا في الاتحاد اليوغوسلافي الجديد، راجع الباب الخاص بالجبل الأسود تاليًا).

وبعد حوالي شهرين من فشل هاتين العمليتين الانتخابيتين وبقاء صربيا خلالها من دون رئيس منتخب، عاد الناخبون إلى صناديق اقتراع الرئيس في ٦ كانون الاول ١٩٩٧. وتنافس على المنصب سبعة مرشحين، أبرزهم ثلاثة: ميلان ميلوتينوفيتش (وزير الخارجية اليوغوسلافي الحالي، (١٩٩٧) مرشح اليسار المتحد الذي يضم احزاب الاشتراكي واليسار والديمقراطية الجديدة، وهو ائتلاف يتزعمه ميلوشيفيتش)، وفويسلاف شيشيلي رئيس الحزب الراديكالي، وفوك دراشكوفيتش رئيس حزب النهضة الصربية الجديدة. وكذلك كان الاقبال على الانتخاب متدنيًا، خصوصًا في صفوف المسلمين في السنجق والألبان في كوسوفو (كما في الانتخابات السابقة). وفي ٢٣ كانون الاول ١٩٩٧، أعلن عن فوز ميلوتينوفيتش برئاسة جمهورية صربيا بنحو ٦٠٪ من الأصوات، وحصل منافسه شيشيلي على نحو ٤٠٪.

الجبل الأسود
(مونتينيغرو)

جمهورية مونتينيغرو هي الجمهورية الثانية المتبقية، مع جمهورية صربيا، من الاتحاد اليوغوسلافي السابق، والتي تشكل مع جمهورية صربيا «الاتحاد اليوغوسلافي» الجديد.

الاسم: ظهر إسمها، أول ما ظهر، في أواخر القرن الثاني عشر، مشتقًا من إسم جبل «لوفشين» Lovcen، الذي يطلق عليه ايضًا إسم «كرنا غورا» Crna Gora، أي «الجبل الأسود».

الموقع: جنوب شرقي صربيا. تطل على البحر الادرياتيكي، فتشكل بذلك المنفذ الوحيد للاتحاد اليوغوسلافي على البحر.

المساحة: ١٣٨١٢كلم م..

العاصمة: بودغوريتسا Podgorica، وكانت تدعى قبلاً تيتوغراد، وعدد سكانها نحو ١٢٥ ألف نسمة.

السكان: يبلغ عددهم نحو ٧٥٠ ألف نسمة. منهم ٦٢٪ من السكان الأصليين (المونتينيغريين)، و١٤،٦٪ من المسلمين/ و٦،٦٪ من الألبان، و٤،٢ من اليوغوسلاف (ما يزالون يحتفظون ببطاقة هوية «يوغوسلافيا») و٩،٣٪ من الصرب، و١٪ من الكروات، و٢،٤٪ من جنسيات أخرى.

الحكم: نظام جمهوري. مجلس رئاسي يتناوب اعضاؤه الرئاسة، وأربعة نواب رئيس، والجميع يُنتخبون بالاقتراع الشامل والمباشر. البرلمان من ١٢٥ نائبًا. وأهم الاحزاب: الحزب الديمقراطي الاشتراكي (الشيوعي سابقًا)، والتحالف الليبرالي، والحزب الصربي الراديكالي، والحزب الاشتراكي الديمقراطي الاصلاحي.

الاقتصاد: نحو ٢٥٪ من إجمالي مساحة الاراضي صالحة للزراعة. وأهم المزروعات القمح والكرمة والزيتون. الثروات المعدنية: البوكسيت، القصدير، الزنك والفحم. وهناك ثروة حرجية (أخشاب) مهمة. كان الجبل الأسود يساهم (في ١٩٩١) بنحو ٣،٤٪ من إجمالي صادرات يوغوسلافيا وبـ٤،١٪ من إجمالي الدخل القومي. أماكن البلاد السياحية: الشاطىء (على الأدرياتيكي)، وحدائق ومحميات بلدات بيوغرادسكا غورا (٦ آلاف نسمة)، دورميتور (٣٤ ألف نسمة)، ولوفشين (٣ آلاف نسمة).

نبذة تاريخية: في القرن الثالث ق.م.-الثاني ق.م. كانت قبائل إيلليرية تسكن المنطقة. في العام ١٦٨، اصبحت تحت سلطة روما. وفي ٢٩٧، كانت البلاد جزءًا من دولة دلماسيا العليا، وبعد القضاء على سلطة روما، اصبحت تابعة للامبراطورية الرومانية الشرقية، ثم لبيزنطية. في اواخر القرن السادس، بدأت تفد إليها القبائل السلافية. وفي القرن الحادي عشر، بدأت ترتسم فيها دولة سلافية تحمل إسم «زيتا» Zeta التي خضعت نحو ثلاثين سنة لسلطة أمير سلافي يدعى فلاديمير (حكم من ٩٧٠ إلى ١٠١٦). لكن الامبراطور صموئيل المقدوني ما لبث ان اجتاح المنطقة وضم زيتا لبيزنطية. وفي ١٠٣٥ قام تمرد قمعه البيزنطيون، لكنهم لم يتمكنوا من التمرد الثاني في ١٠٤٢، فاستعادت زيتا حريتها وامتدت اراضيها. في ١١٨٩، أخضعها ملك الصرب ستيفان نيمانيا، وبعد نحو قرن ظهر لأول مرة إسم «تسيرنا غورا»، ومنه مونتينيغرو (الجبل الأسود) كدلالة على إسم البلاد الذي اصبح متداولاً بدلاً من «زيتا». وبين ١٣٦٠ و١٤٢١، أي بعد تفكك الامبراطورية الصربية، ظهرت أسرة بلشيتش (تعود إلى الأشراف الفرنسيين من أسرة «بو» Baux) كأقوى أسرة في البلاد. ثم عاد الصرب وضموها إليهم بين ١٤٣٩ و١٤٩٩. في ١٤٧٩-١٤٨١، احتلها الاتراك، وفي ١٤٩٩، فقدت استقلالها، لكنها استعادت استقلالاً ذاتيًا (في اطار الامبراطورية العثمانية) بين ١٥١٤ و١٦٩٧. وفي هذه السنة الأخيرة، انتخب دانيلو بتروفيتش نيغوش أميرًا-مطرانًا، واستمر ورثته في الحكم حتى ١٨٦٠؛ وتمكنوا، في ١٧١١ من عقد حلف مع القيصر الروسي بطرس الأكبر ضد الاتراك، كما تمكن بيار نيغوش الثاني، في ١٨٤٢، من ترسيم حدود بلاده مع النمسا دون تدخل من الاتراك؛ وكذلك نجح دانيلو نيغوش الثاني من رد هجوم الاتراك في ١٨٥٢. وبعد سنة، عاد الاتراك وشنوا حملة على البلاد تمكن الجيش النمساوي من صدها. وفي ١٨٥٩، عينت لجنة دولية حدود مونتينيغرو. وفي ١٨٦٢، احتل عمر باشا جزءًا من البلاد، ثم أوقفه تدخل الدول الاوروبية، لكن معاهدة عقدت، تمّ الاعتراف بموجبها بالسيادة التركية على البلاد. وفي مؤتمر برلين (١٨٧٨)، اعترفت تركيا باستقلال مونتينيغرو باضافة الشريط المطل على الادرياتيكي إليها. وفي ١٨٩٦، تزوجت هيلانة، ابنة أمير مونتينيغرو نيكولا نيغوش الاول، فيكتور عمانوئيل أمير نابولي (ثم ملك ايطاليا بدءًا من ٢٩ تموز ١٩٠٠). وفي آب ١٩١٠، توج نيكولا ملكًا على الجبل الأسود. وفي ١٩١٤، دخل الحرب

إلى جانب الصرب ضد النمسا. وفي ١٩١٦، غزت النمسا البلاد، ولجأ الملك إلى فرنسا. وفي ١٣ تشرين الثاني ١٩١٨، صوّتت الجمعية الوطنية ضد النظام الملكي، وأعلنت ضم الجبل الأسود إلى صربيا التي كان جيشها منتشرًا في البلاد.

الجبل الأسود في إطار يوغوسلافيا: في ١٣ تشرين الثاني ١٩١٨، صوّتت الجمعية الوطنية في الجبل الأسود على إلغاء النظام الملكي، وأعلنت ضم البلاد إلى صربيا التي كان جيشها منتشرًا في البلاد. وصدر، في العام نفسه (١٩١٨) مرسوم يقضي بالحاق كنيسة الجبل الأسود الأرثوذكسية بكنيسة صربيا. وفي الاسبوع الاول من العام ١٩١٩، نشبت معركة بين أنصار الاستقلال وبين أنصار الصرب، تدخل فيها الجنرال الفرنسي فينيل لمصلحة الصرب وأوقف رموز الاستقلاليين. وفي ١٩٢٢، ضم خليج كوتور (جزء من دلماسيا، مقاطعة مملكة كرواتيا) إلى الجبل الأسود (راجع «صربيا»، سابقًا، بالنسبة إلى أهم التطورات اللاحقة).

في ٢٠ آب ١٩٨٨، سار في العاصمة تيتوغراد (بودغوريتسا) نحو ٢٠ ألف متظاهر ضد الوضع المستجد في إقليم كوسوفو. وتجدّدت المظاهرات واتسعت في الشهر التالي. فاستقالت الحكومة المحلية. ونتيجة لاستمرار الوضع على توتره، وتصاعده، في الشهر الاول من ١٩٨٩ (نحو ٨٠ ألف متظاهر) استقالت القيادة الجماعية للحزب الشيوعي في الجبل الأسود، وحلّ مجلس النواب، وانتخب (في ٩ نيسان) نيناد نوتشين ممثلاً للجبل الأسود في مجلس رئاسة يوغوسلافيا، وسُمح (في تشرين الاول) باعادة رفات الملك نيكولا الاول (من سان ريمو في ايطاليا). وفي اول آذار ١٩٩٢، جرى استفتاء عام لسكان الجبل الأسود حول بقائهم في الاتحاد اليوغوسلافي، واشترك فيه ٦٦٪ من الذين يحق لهم التصويت، فنال خيار البقاء في الاتحاد ٩٥،٩٤٪ من الاصوات. أما المقاطعون (٣٣،٩٦٪ من الاصوات) فتوزعوا بين أحزاب المعارضة، والألبان والمسلمين.

وانفصال الجبل الأسود، هل يلوح في الأفق؟: لم تمر شهور قليلة على هذا الاستفتاء إلا وبرزت مؤشرات تفيد باتساع التذمر بين السكان حول جدوى بقائهم في الاتحاد مع جمهورية صربيا، وبحدوث انقسام شديد في صفوف الحزب الاشتراكي الديمقراطي الحاكم في الجبل الاسود، يمثله من جهة رئيس الجمهورية مومير بولاتوفيتش المؤيد لاستمرار ما بقي من يوغوسلافيا (أي الاتحاد اليوغوسلافي الذي يضم صربيا والجبل الاسود)، ومن جهة ثانية رئيس الوزراء ميلو جوكانوفيتش الذي يحبذ إعادة النظر في طبيعة الاتحاد.

من جهة أخرى، أعلن (في تشرين الثاني ١٩٩٣) رئيس الحزب الليبرالي في الجبل الاسود (وهو الحزب الذي يقود حركة الانفصال ويدعو إلى الاستقلال التام)، سلافكو بيروفيتش، ان «بقاء الجبل الاسود في اتحاد مع الصرب العدوانية هو عبء ثقيل لا يمكن ان نتحمله». كما أعلن، في الوقت نفسه، انه زار نيويورك مع وفد من الاحزاب المطالبة بالاستقلال، واجتمعوا مع الأمين العام للامم المتحدة بطرس غالي، والتقوا في لندن المسؤولين في وزارة الخارجية، و«وجد الوفد تعاطفًا وتأييدًا لاستقلال الجبل الاسود».

وثمة مؤشر آخر ومهم، أن كنيسة الجبل الأسود الأرثوذكسية انفصلت ايضًا (١٩٩٣) عن الكنيسة الصربية، وذلك في أجواء تظاهرات مطالبة بالاستقلال عمّت مدن الجبل الأسود، من بينها مدينة تسيتيني التي كانت عاصمة مملكة الجبل الأسود المستقلة قبل ١٩١٨، واختيرت اخيرًا مقرًا لرئاسة الكنيسة.

والجدير ذكره ان هذا الاتجاه الانفصالي متصل إلى حد كبير بتردي الاوضاع الاقتصادية، والحصار الدولي، ومشاكل الحرب مع البوسنة.

في اواخر حزيران ١٩٩٧، انتخب سلوبودان ميلوشيفيتش رئيسًا للاتحاد اليوغوسلافي خلفًا لزوران ليليتش (راجع ما سبق عن صربيا). قبيل انتخابه، أراد ميلوشيفيتش ان يجري انتخابه ليس فقط من قبل مجلسي البرلمان الفدرالي (النواب والشيوخ)، بل ايضًا بالانتخاب الشعبي، وذلك تمهيدًا لتعديلات دستورية تقوّي من صلاحيات رئاسة الاتحاد. رفض نواب الحزب الاشتراكي المونتينيغري (وكانوا في الأساس من أنصاره) إجراء تعديلات دستورية تتيح له هذا الامر. وانفجرت بسبب ذلك أزمة مؤسسات بين صربيا والجبل الأسود (مونتينيغرو).

في استفتاء آذار ١٩٩٢، أظهر سكان الجبل الأسود رغبتهم في ان تصبح بلادهم «دولة سيّدة وشريكة لصربيا في إطار الفدرالية اليوغوسلافية». وقد ألحّ رئيس الوزراء ميلو جوكانوفيتش على هذه السيادة التي «تعلق بها السكان واعتادوا على هوية لها الكثير من الامتيازات».

أثناء الحرب ضد كرواتيا، شُنّ الهجوم على مدينة دوبرنيكا انطلاقًا من اراضي الجبل الأسود الذي خسر العديد من أبنائه في معركة بلفلاكا. ونما تيار قوي بين سكان الجبل الاسود يدعو إلى السلام ويرفض الحرب، حتى ان الحكومة الفدرالية اضطرت إلى اتخاذ قرار بمنع مشاركة المتطوعين المونتينيغريين في الجيش الفدرالي بالعمليات الحربية الدائرة. أما الذين شاركوا في الحرب من أبناء الجبل الأسود فكان ذلك على مسؤوليتهم الشخصية، واعتبروا كمرتزقة في صفوف الميليشيات الصربية. ونجحت حكومة الجبل الأسود، إلى حد كبير، في تطهير العاصمة بودغوريتسا (تيتوغراد سابقًا) من العناصر الصربية، خاصة في الاجهزة الامنية. كما عملت جاهدة على تثبيت الانتماء إلى المواطنية المونتينيغرية لدى الأقليات الألبانية والمسلمة، ولدى الكاثوليك الذين لم يعودوا يقولون بأنهم «كروات إنما مونتينيغريون كاثوليك...».

ولكن، ورغم هذا التيار الذي غذّاه ومثله رئيس الوزراء ميلو جوكانوفيتش، فإن تصور الانفصال صعب للغاية بسبب علاقات القربى القومية والتاريخية الوثيقة جدًا بين الصرب والمونتينيغريين؛ حتى ان الشعار الأبرز لجوكانوفيتش نفسه هو: «نعم ليوغوسلافيا، لكن لا ليوغوسلافيا ميلوشيفيتش...». فهناك، تاريخيًا، خمس قبائل كبرى يشكل تحالفها الجانب الأهم من تاريخ مملكة الجبل الأسود: قبيلة نارهي وقبائل فازويفيتشي في شمالي البلاد، وقبائل بييلو بافلوفيتش، وكلها على علاقة إتنية قريبة من الصرب، وقد كان من أبنائها عدد كبير من ميليشيات التشيتنيك الصربية خلال الحرب العالمية الثانية، وقدّمت عددًا آخر في حرب صرب البوسنة، وبرز عدد من المونتينيغريين كقادة للقومية الصربية، منهم رادوفان كاراجيتش، زعيم «جمهورية صرب البوسنة» السابق.

وجاءت انتخابات ١٩ تشرين الاول ١٩٩٧ الرئاسية في الجبل الأسود لتؤشر على كثير من الامور في أفق مصير هذه الجمهورية. فالمتنافسان فيها: رئيس الجمهورية مومير بولاتوفيتش (مولود ١٩٥٦) ورئيس الوزراء ميلو جوكانوفيتش (مولود ١٩٦٢)، المتلازمان منذ المنظمات الشيوعية الشبابية ايام الدراسة، واللذان هيمنا على مقاليد الحكم معًا في الجبل الأسود إثر قيادتهما لانتفاضة شعبية عام ١٩٩٠ بتحريض من ميلوشيفيتش، ارغمت كبار المسؤولين غير كاملي الطاعة للصرب على الاستقالة. لكن الخلافات دبّت بينهما وتعمقت، فانشطر حزبهما الديمقراطي الاشتراكي (الشيوعي سابقًا) إلى تيارين متنازعين ووصل ذروة الصراع في حملة انتخابات الرئاسة (١٩ تشرين الاول ١٩٩٧) ونتيجتها: فوز جوكانوفيتش بفارق ٥٣١٢ صوتًا، ورفض بولاتوفيتش هذه النتيجة.

محور الخلاف الأساسي يتعلق بالموقف من الاتحاد اليوغوسلافي الجديد (الذي يضم الجبل الأسود إلى صربيا). أحدهما يجد ان ضمان استمرار الاتحاد يتوقف على تبني التغييرات الدستورية التي تزيل البنود التي أتاحت تحقيق اهداف الانفصاليين السابقين، وتجمّع هذا الفريق حول بولاتوفيتش، وهو يضم الباقين على افكارهم الشيوعية إضافة إلى نحو ١٠٠ ألف من أبناء الجبل الأسود المقيمين في صربيا والسكان الذين يعتبرون قوميتهم صربية.

ويقف في الفريق المقابل (بزعامة جوكانوفيتش) ذوو المطامح القومية الذين تذمروا من عدم مجاراة الجبل الأسود للجمهوريات الأخرى في خيار الاستقلال عن يوغوسلافيا السابقة إضافة إلى اقليات المسلمين والألبان والكروات الذين يشكلون نحو ٢٥٪ من مجموع السكان ويشعرون بأنهم على طرفي نقيض مع الصرب «الذين لا يتخلون عن رغبة التسلط على الآخرين المتأصلة عندهم وراثيًا».

ولأن الفرق بين الفائز جوكانوفيتش والخاسر بولاتوفيتش كان ضئيلاً فإنه بعث القناعة بأن ما حصل سببه موقف الأقليات، وهو ما أدّى إلى توجه عشرات آلاف المتظاهرين المحتجين على النتيجة الانتخابية نحو جنوب شرقي العاصمة بودغوريتسا حيث ضاحية توزي التي يسكنها الألبان (المسلمون والكروات) والبوشناق المسلمون وفي حوزة الكثيرين منهم الأسلحة النارية والجارحة، وهم يرددون بغضب هتافات تدعو إلى «معاقبة الغرباء الحاقدين عملاء الاجانب وبقايا الاتراك الذين يقفون ضد رغبات شعب الجبل الأسود (...) ولولا تدخل الشرطة السريع لحدثت مذبحة عرقية رهيبة» (محمد خليفة، «الحياة»، العدد ١٢٦٦٥، تاريخ ٢ تشرين الثاني ١٩٩٧، ص١٢).

وعلى رغم هزيمته في الانتخابات التي لا يعترف بها، فإن من حق بولاتوفيتش البقاء رئيسًا للبلاد حتى ٥ كانون الثاني ١٩٩٨ إكمالاً لولايته الحالية، ما يوفّر له متسعًا من الوقت لمنع تسلم خصمه الرئاسة. واستمرت مظاهرات انصاره، ووضع الجيش الاتحادي في حالة الاستنفار في جميع قواعده في البلاد.

ومن جانبه، واصل جوكانوفيتش التأكيد على فوزه للحفاظ «على هوية شعب الجبل الأسود واستقلال

قراره»، ومن دون ان يستبعد امكانية الانفصال. وفي ١٥ كانون ١٩٩٨، جرى تنصيب جوكانوفيتش رئيسًا في عاصمة الملوك التاريخيين للجبل الأسود مدينة تسيتينيي الواقعة جنوب غربي العاصمة الحالية بودغوريتسا التي تواصلت فيها التظاهرات الصاخبة في محاولة لمنع جوكانوفيتش من استلام منصب الرئاسة.

الرأي الغالب لدى مراقبي الاوضاع في الجبل الأسود يتركز حول صعوبة اتخاذ مسار الاحداث وجهة انفصالية واضحة، أو الوصول إلى انفصال الجبل الأسود فعليًا. ذلك ان صربيا كانت دائمًا تسعى إلى ضم هذا الممر الحيوي ومنفذها الوحيد إلى الادرياتيكي منذ انطلاقتها الجديدة في القرن التاسع عشر، وتحقق ذلك عام ١٩١٨ عندما قضت على النظام الملكي فيه وأنهت استقلاله. وإضافة إلى ذلك، صلات القربى القومية القائمة بين الصرب ونسبة كبيرة من سكان الجبل الأسود، واعتماد الجبل الأسود في جميع متطلبات سكانه الغذائية على صربيا لخلوه من اراضي صالحة للزراعة.

سلافونيا الشرقية وصرب كرواتيا، فويفودينا، السنجق وكوسوفو

سلافونيا الشرقية: (راجع الموسوعة، ج٩، ص١١٤-١١٦).

كان صرب سلافونيا الشرقية قد وافقوا، في تشرين الثاني ١٩٩٥، على إعادة المناطق التي يسيطرون عليها إلى كرواتيا بعد محادثات اشرف عليها السفير الاميركي لدى زغرب (عاصمة كرواتيا) بيتر غالبرايت والمبعوث الدولي تورفالد شتولتنبيرغ (الأجواء السائدة كانت أجواء محادثات إتفاقية دايتون الشهيرة التي أنهت الحرب في البوسنة). وهذا الاتفاق وضع حدًا لمواجهة كان استئنافها شديد الاحتمال بين الانفصاليين الصرب في سلافونيا الشرقية والقوات الكرواتية بعدما كان الجانبان دفعا بحشودات عسكرية ضخمة إلى خطوط التماس.

وفي ٢٣ آب ١٩٩٦، تمّ في بلغراد (عاصمة صربيا وجمهورية يوغوسلافيا الاتحادية: صربيا والجبل الأسود) التوقيع على وثائق التطبيع الكامل للعلاقات بين يوغوسلافيا الاتحادية وبين جمهورية كرواتيا، وعلى وثائق تبادل التمثيل الدبلوماسي بينهما. واعتبر الصرب في منطقة سلافونيا الشرقية انهم اصبحوا جزءًا من كرواتيا بموجب هذا الاتفاق.

ويذكر ان سلافونيا الشرقية هي آخر مناطق جمهورية كرواتيا التي بقيت تحت سيطرة الصرب قبل هذا الاتفاق الذي نص انها ستبقى مدة وجيزة إنتقالية تحت إدارة الامم المتحدة. وقد أتى هذا الاتفاق (والاعتراف الكامل بين بلغراد وزغرب) بعد ثلاثة اسابيع من الاجتماع الذي تم في اثينا بين الرئيسين الصربي سلوبودان ميلوشيفيتش والكرواتي فرانيو توجمان والذي تمّ فيه الاتفاق على تطبيع مجمل العلاقات بين بلديهما.

صرب كرواتيا: هم الصرب الذين استوطنوا إقليم كراينا الكرواتي بصورة اساسية. ومع اعلان كرواتيا استقلالها في ١٩٩١ عن يوغوسلافيا السابقة رفض زعماء الاقلية الصربية في هذا الاقليم الخضوع للسلطة الكرواتية وطلبوا الانضمام إلى يوغوسلافيا الحالية (صربيا والجبل الأسود). قبلت كرواتيا بأن يتمتع هذا الاقليم بنوع من استقلال إداري نسبي، لكنها رفضت بقوة أي انتقاص من سيادتها. فكانت أحداث دامية في الاقليم تطورت إلى معارك قبل ان يستتب الأمر في المنطقة نتيجة لاتفاق دايتون.

إلى متى يعود وجود الصرب في كراينا؟

الرقعة الأوسع التي وصل إليها وشغلها الصرب كانت ايام ملكهم دوشان في اواسط القرن الرابع عشر. ولكنها مع ذلك لم تصل إلى اقليم كراينا، و لم يسكن

صرب اراض كرواتية إلا بدءًا من القرن السادس عشر عندما استقدم ملوك اوروبيون مجموعات منهم إلى كرواتيا والمجر باعتبارها مجموعات محاربة تقف على الحدود العثمانية لمناوشة الجيش العثماني واستنزافه. إذ كان انتصار العثمانيين في معركة موهاكس (١٥٢٦) نذير خطر كبير وموشك اهتزت منه خوفًا عروش الملوك الاوروبيين. فأيقن الملك فرديناند الاول، ملك المجر، ان الدفاع عن فيينا واوروبا يبدأ من البلقان. فأخذ يستقدم قبائل صربية كانت تعيش في الجبل الأسود وصربيا إلى مملكته التي كانت تضم كرواتيا، وراح يغدق عليهم الارزاق لكي يتحالفوا معه خصوصًا وان أعدادًا كبيرة منهم انضمت للجيوش العثمانية. واستجاب لعروضه آلاف الصربيين، ولعب الاساقفة الأرثوذكس دورًا كبيرًا في إقناع رعاياهم بالالتحاق بالجيوش المجرية بعد حصولهم على تعهد من فرديناند بأن تتمتع تجمعات الصرب داخل الاراضي المجرية-الكرواتية بسلطة دينية وادارية مستقلة تحت زعامتهم. وكان الهدف من إلحاح هؤلاء الاساقفة على الحصول على هذا التعهد حماية الهوية الأرثوذكسية من سلطة الكنيسة الكاثوليكية للامبراطورية الرومانية المقدسة.

اقام عشرات الالوف من الصرب في حاميات عسكرية وقلاع كبيرة على امتداد الحدود الدانوبية للدولة المجرية-الكرواتية طبقًا لخطة فرديناند. ونجحوا في مناوشة العثمانيين وإنزال خسائر كبيرة فيهم، كما كان العثمانيون احيانًا يشنون حملات عليهم ويشتتون شملهم، وكانت تشفع بهم وتخفف من آلامهم وساطات الكرسي البطريركي الأرثوذكسي في بلغراد التي كانت متعاونة مع العثمانيين في العهد العثماني في البلقان.

استمر خلفاء فرديناند، ملوك الامبراطورية النمساوية-المجرية، برعايتهم لـ«صرب الحدود». فأجروا تنظيمهم في فرق جديدة وزودوهم بالسلاح الحديث وضاعفوا امتيازاتهم وأعفوهم من الضرائب. فتمكن هؤلاء الصرب (صرب كرواتيا والمجر، «صرب الحدود») من لعب دور حاسم في إلحاق الهزيمة بالجيوش العثمانية وطردها من اراضي المجر إلى داخل البلقان في معركة موهاكس الثانية (١٦٨٧). وبعدها بعام واحد، تمكنت الجيوش النمساوية-المجرية من استرداد بلغراد نفسها من العثمانيين، وظلت في ايديهم سنوات عدة قبل ان يسترجعها العثمانيون من جديد.

وإضافة إلى حروبهم البرية، تمكن الصرب من بناء اسطول صغير (في القرن السابع عشر) مارسوا بواسطته القرصنة في الادرياتيكي انطلاقًا من جنوب غربي كرواتيا. وكان هدفهم الأساسي سفن جمهورية البندقية التي كانت ترتبط بعلاقات واسعة مع العثمانيين.

تجذرت مستوطنات الصرب وتجمعاتهم (داخل المجر وخاصة داخل كرواتيا) مع الوقت، وسمح لهم باقامة سلطة ذاتية فيها وصارت بفضل المعاهدات القديمة مع اباطرة آل هابسبورغ أقاليم مميزة ذات كثافة صربية لا يخالطها سوى نزر يسير من أهل البلاد الأصليين. ولم يتغير الوضع إلا بعد زوال الوجود العثماني عن اراضي المجر والنمسا ورومانيا، وانعدمت الحاجة للصرب في القتال. بل انقلب الدور، بدءًا من القرن التاسع عشر، إذ اصبحوا يثيرون المشاكل للسلطات النمساوية-المجرية مستقوين بالدعم الروسي. وبعد استقلال صربيا في ١٨٧٧، بفضل الغزو الروسي، بدأ صرب كرواتيا والمجر ينادون بالارتباط بالدولة الأم. وأخذت المجر وكرواتيا، في سياق سلسلة جديدة من الاضطرابات المتداخلة، تحاول التخلص من بقايا المستوطنات الصربية لاستعادة أرضها. في هذا السياق كانت الاضطرابات الأخيرة في سلافونيا الشرقية وإقليم كرايينا، ونجاح كرواتيا في حل المشكلة على أساس السيادة الكرواتية على اراضيها التاريخية (١٩٩٥-١٩٩٦، كما ورد أعلاه).

لكن المنطقة (سلافونيا الشرقية) شهدت خلال الشهرين الأخيرين من سنة ١٩٩٧ حوادث عنف متصاعدة (اعتداءات صرب على مخافر كرواتية) في وقت تستعد الادارة الدولية لانهاء مهمتها هناك وتسليم المنطقة إلى جمهورية كرواتيا مطلع ١٩٩٨.

فويفودينا Vojvodine: مقاطعة ذات حكم ذاتي في إطار جمهورية صربيا. تحتل المنطقة الشمالية من صربيا، وحدودها هي حدود صربيا الشمالية مع كرواتيا والمجر ورومانيا. مساحتها ٢١٥٠٦كلم م.. عدد سكانها نحو ٢،٢٥ مليون نسمة، نحو ٥٨٪ منهم من الصرب، و١٧٪ من المجريين، و٨٪ من اليوغوسلاف، و٣،٧٪ من الكروات، و٣،٢٪ من السلوفاك، و٢٪ من الرومانيين، و٢،٢٪ من المونتينيغريين، و١٪ من الروتانيين. عاصمتها نوفي ساد Novi Sad التي تعد نحو ٢٧٥ ألف نسمة. ثرواتها: اراضي زراعية تبلغ مساحتها نحو ١،٧ مليون هكتار، وتزرع بالقمح، والذرة، وقصب السكر، ودوار الشمس، والبطاطا والتبغ؛ وهناك حقول ومراعي تربى فيها المواشي. تنتج نحو مليون برميل نفط، و٦٤٦ مليون م

مكعب من الغاز الطبيعي في السنة. ونوفي ساد منطقة صناعية مهمة.

استردتها النمسا من العثمانيين في اواخر القرن السابع عشر، وأسكنت فيها مستوطنين (من صرب وغيرهم) استقدمتهم من مختلف مناطق اوروبا الوسطى، الأمر الذي يفسّر التنوع القائم اليوم في سكانها. ضمت إلى صربيا في ١٩١٨. وفي ١٩٤٥، اصبح العنصر الصربي طاغ على السكان بعد طرد نحو نصف مليون الماني وإحلال صرب من البوسنة والهرسك محلهم. وازداد عددهم كذلك إثر نزوح أعداد أخرى من المناطق نفسها (المناطق الصربية في البوسنة-الهرسك) بسبب الحرب التي بدأت في ١٩٩١-١٩٩٢.

السنجق: (راجع الموسوعة، ج٩، ص١٦٤-١٦٦).

كوسوفو Kosovo: مقاطعة صربية في جنوبي البلاد وعلى حدود مقدونيا وألبانيا. مساحتها ١٠٨٨٧كلم م.. عدد سكانها نحو ٢،٣٠٠ مليون نسمة، منهم نحو ٨٣٪ من الألبان (كانوا ٦٠٪ في العام ١٩٤٥)، و١٠٪ من الصرب، و٣٪ من المسلمين، و١٪ من المونتينيغريين، و٢،٢٪ من الرومانيين، و٠،٨٪ من الاتراك. يتكلمون الألبانية واللغة الصربية-الكرواتية. ثرواتها: تبلغ مساحة الاراضي الصالحة للزراعة نحو ٦٠٠ ألف هكتار، ٦٩٪ مزروعة، و٣١٪ مراع. أهم المزروعات: القمح، الذرة، الشعير، دوار الشمس، قصب السكر. أهم المناجم: النيكل، الزنك، القصدير، البوكسيت، الكروم، المانغنيز. أكثر من ٤٠ ألفًا من البان كوسوفو هاجروا إلى اوروبا الغربية سعيًا وراء العمل.

قديمًا، استوطنتها قبائل إيلليرية (أو تراقية)، التي يتحدر منها الألبان. وفي القرون الوسطى استوطنتها كذلك قبائل صربية، وأصبحت، في ١٣٤٦، مقرًا لبطريرك الكنيسة الأرثوذكسية الصربية، واستمرت كذلك حتى ١٤٦٣، ثم عادت إليها الكرسي البطريركي في ١٥٥٧ واستمرت حتى ١٧٦٦. في ١٣٨٩، سيطر عليها الاتراك.

في ١٨٨٠، أقيمت في البلاد أول حكومة ألبانية مؤقتة. وفي ١٩١٨، ضمت إلى «المملكة اليوغوسلافية». في ١٩٦٨، تقدم ألبان قوميون بطلب رفع بلادهم كوسوفو من مستوى مقاطعة في الاتحاد إلى مستوى جمهورية فدرالية. وفي ١٩٧٤، منحها الدستور اليوغوسلافي استقلالاً إداريًا واسعًا. وفي ١٩٨١، عاد السكان الألبان للمطالبة بنظام جمهوري لكوسوفو، ووقعت اضطرابات وأعمال عنف (٩ قتلى)، وبدأ السكان الصربيون يغادرون كوسوفو إلى مناطق أخرى من صربيا. في ١٩٨٨، تظاهر الصرب والمونتينيغريون في كوسوفو ضد المسار الذي من حقه ان يجعل كوسوفو إقليمًا ألبانيًا في ما

خريطة نشرها الالبان تشير الى المناطق التي يعتبرونها من حقهم.

خريطة التقسيمات الحالية للمنطقة.

استمر الوضع على حاله. فردّ الألبان بتظاهرات أخرى في برشتينا، عاصمة كوسوفو، طيلة ١٩٨٨-١٩٨٩. فأعلنت حالة طوارىء جزئية، وحلّ برلمان كوسوفو.

من أول القرارات التي اتخذها سلوبودان ميلوشيفيتش عند تسلمه رئاسة الجمهورية الصربية إلغاء نظام المقاطعة المستقلة اداريًا وذاتيًا الذي كانت تتمتع به كوسوفو منذ ١٩٧٤، ونشر الجيش الصربي عند حدودها وفي داخلها، وتوقيف الآلاف من سكانها الألبان والتحقيق معهم، وقتل العشرات منهم. فأخذ الألبان منذ ١٩٩١-١٩٩٢، ينظمون مجتمعًا خاصًا بهم، له رئاسته وحكومته وبرلمانه ومدارسه وجامعاته، بقيادة وتوجيه ابراهيم روغوفا الذي كان يستحثهم على السلام وعدم تحدي بلغراد ومواجهتها. ومع ذلك، أعلن ألبان كوسوفو الاستقلال من جانب واحد، وفتحوا بعثة تمثلهم في تيرانا.

بعد اتفاقية دايتون، حاول ألبان كوسوفو الاستفادة من المناخات التي احدثتها هذه الاتفاقية في المنطقة. فعقد روغوفا اتفاقًا مع الرئيس ميلوشيفيتش في ٢ ايلول ١٩٩٦ يقضي باعادة فتح المدارس والجامعات في كوسوفو مقابل مقاطعة الألبان للانتخابات اليوغوسلافية (وقد استفاد ميلوشيفيتش فعلاً من هذه المقاطعة). لكن الجانب الصربي لم ينفذ مضمون هذه التسوية، فاندلعت مظاهرات الطلاب في اوائل تشرين الاول ١٩٩٧، وقمعتها الشرطة بقسوة. وكان المتطرفون الصرب في بلغراد يدعون إلى تقسيم كوسوفو، شرقية تكون جزءًا لا يتجزأ من صربيا، وغربية تكون مستقلة أو تُضم إلى ألبانيا.

هذا المأزق استفاد منه معارضو روغوفا ليظهروا عدم جدوى دعواته السلمية وحل المسائل بالاتفاق مع بلغراد. وكانوا قد شكلوا «جيش تحرير كوسوفو» لاجراء القطيعة التامة عسكريًا مع بلغراد.

ومع تصاعد التوتر، أجرى وفد يضم ١٣ عضوًا من الولايات المتحدة والاتحاد الاوروبي محادثات مع المسؤولين الصرب وممثلي الاحزاب الألبانية في برشتينا عاصمة كوسوفو (اواخر ايلول ١٩٩٧). والمحادثات جاءت على قاعدة «عدم السماح باستقلال كوسوفو وانفصالها عن يوغوسلافيا الحالية». لكن «جيش تحرير كوسوفو» السري، صعّد عملياته ضد الصرب ومؤسساتهم في الاقليم، واستخدم الصرب لقمعها عربات مصفحة وطائرات، فيما رفضوا مشروعًا اوروبيًا لمنح كوسوفو وضعًا اداريًا خاصًا. ومع بداية ١٩٩٨، وسّع الألبان عملياتهم العسكرية، وتبنى «جيش تحرير كوسوفو» مسؤولية ثلاثة انفجارات في جمهورية مقدونيا المجاورة، وجاء في بيانه الذي وزعه في بريشتينا (٨ كانون الثاني ١٩٩٨) ان «الهجمات توخت توجيه إنذار نهائي إلى السلطات المقدونية لدفعها إلى الاسراع في إعطاء السكان الألبان في مقدونيا حقوقهم ووقف تنسيقها الأمني مع حكومة صربيا الموجه ضد الحركة الوطنية الألبانية» (راجع العنوان الفرعي «مؤتمر دولي في بون حول البوسنة» في الباب التالي: «جمهورية صرب البوسنة»).

كوسوفو مشكلة تاريخية: في ايام العثمانيين، وجد أبناء كوسوفو الألبان (وهم المتحدرون من القبائل الإيلليرية الاصلية في البلاد والذين كانوا على خلاف دائم مع القبائل السلافية التي شرعت منذ القرن الثامن بمغادرة مناطق شرقي جبال الاورال في موجات متعاقبة نحو اراضي جنوب شرقي اوروبا، لتتوزع فيها تحت أسماء الصرب والكروات والسلوفينيين والمقدونيين والبلغار)، وجدوا، اذن، متنفسًا لهم ودخلوا الاسلام بشكل شبه جماعي، وصاروا جنود الاتراك في المنطقة، وتمتعوا بقوة لا يُستهان بها.

ومع تراجع السيطرة العثمانية بدءًا من اواسط القرن التاسع عشر، حاول الألبان إستباق المخاطر المقبلة؛ فأعلنوا في حزيران ١٨٧٨ تأسيس تنظيم باسم «الجامعة الألبانية» بهدف توحيد الولايات الألبانية وفق نظام الحكم الذاتي في إطار السلطنة العثمانية. وظلت اسطنبول تقاوم هذه المطالب بشدة حتى وافقت في النهاية في ١٩١٢ لكن بعد فوات الأوان.

في حروب البلقان ١٩١٢-١٩١٣، حاول الصرب الهيمنة على القسم الأكبر من الفراغ الحاصل نتيجة هزيمة العثمانيين وتراجعهم من المنطقة. لكن مؤتمر لندن (١٩١٣) الذي انعقد لبحث الوضع الاوروبي الجديد من دون اكتمال كل من خريطتي «صربيا الكبرى» و«ألبانيا الكبرى»، إذ قرّر تقسيم الاراضي ذات الغالبية من السكان الألبان إلى نصفين متساويين تقريبًا، أحدهما دولة ألبانيا التي تمّ الاعتراف باستقلالها وحدودها التي لا تزال قائمة، وإقليم كوسوفو الذي أدخله المؤتمر في حوزة بلغراد باعتباره «مهد الامجاد الصربية» (الملك الصربي دوشان أعلن نفسه قيصرًا في العام ١٣٤٦ وجعل قاعدة حكمه في مدينة بريزرين الواقعة جنوب غربي عاصمة كوسوفو الحالية برشتينا؛ وكذلك كانت مدينة بيتش إلى الغرب من برشتينا مركز رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية الصربية التي لا يزال قسم كبير من مبانيها واديرتها باقية حتى اليوم ويعتبرها الصرب أهم

مزاراتهم الدينية والقومية).

فمع هذا المؤتمر (مؤتمر لندن، ١٩١٣) بدأ الصراع الألباني-الصربي في مرحلته الحديثة. بدأ الصرب يوزعون اراضي كوسوفو على المستوطنين الصربيين وفق قوانين «إستعادة الممتلكات»، وغادرت مجموعات من ألبان كوسوفو إلى ألبانيا وتركيا.

وبانتصار الشيوعيين في كلا البلدين، يوغوسلافيا وألبانيا، في ١٩٤٥، جرت محاولات لاقامة اتحاد كونفدرالي بينهما. لكن هذه المحاولات توقفت بانسحاب يوغوسلافيا من الاطار السياسي والعقائدي الشيوعي المؤيد لستالين وبقاء ألبانيا فيه (١٩٤٨). وتركز الخلاف بين ألبلدين على إقليم كوسوفو. ففي حين انتهج تيتو سياسة تشجيع الألبان على البقاء في كوسوفو، راحت ألبانيا تشجعهم على العودة إلى «الوطن الأم»؛ ما أدّى إلى تظاهرات عنيفة في ارجاء الاقليم (١٩٦٨) طالبت بـ«تشكيل جمهورية كوسوفو ضمن إطار يوغوسلافيا منفصلة عن جمهورية صربيا»، اعتبره النظام اليوغوسلافي شعارًا مرحليًا لتحقيق أهداف انفصالية لاحقة.

وبعد مداولات واسعة حول وضع كوسوفو، اقر الدستور الجديد (١٩٧٤) حلاً وسطًا يقضي بمنح كوسوفو حكمًا ذاتيًا واسعًا لكن من دون ترقيتها إلى درجة الجمهورية، ما أوجد تناقضًا، وصعوبة بالغة، في تطبيقات الاحكام الدستورية والقانونية.

وثارت معارضة صربية، واستقال عدد كبير من القادة الشيوعيين الصرب، وفصل عدد من كبار الضباط الصرب الذين اتهموا بتدبير محاولة انقلابية، وأبعدت يوفانكا زوجة تيتو، وهي صربية، إلى منفى في جزيرة في البحر الأدرياتيكي بتهمة التواطؤ مع الانقلابيين، وظلت هناك حتى وفاة تيتو (٤ ايار ١٩٨٠).

بعد وفاة تيتو، عاد الخناق الصربي ليطبق على أعناق البان كوسوفو، خاصة وان الوثيقة الأكاديمية الصربية (راجع النبذة التاريخية سابقًا) أولت اهتمامًا متميزًا لما وصفته بـ«خطورة الحالة في كوسوفو»، وحضت الصرب على الاسراع في «القضاء على العدوان الصارخ الذي تقوم به المنظمات الألبانية الانفصالية» (راجع ما ورد تحت العنوان الفرعي السابق «كوسوفو»).

«جمهورية صرب البوسنة»

هي إحدى جمهوريات «اتحاد البوسنة-الهرسك» الثلاث: صربية، كرواتية، مسلمة، الذي اتفق عليه بموجب اتفاقية دايتون (١٩٩٥). وصرب البوسنة يتكاثف عددهم في المناطق المحاذية لصربيا حيث يشكل نهر درينا Drina (أحد روافد نهر الساف، وطوله ٣٦٤كلم) الحدود بين صربيا والبوسنة-الهرسك.

البوسنة، سبع سنوات من الأزمة: (راجع «البوسنة»، ج٥، ص٣٥٤-٣٨٣). في ما يلي قائمة بتواريخ أهم الأحداث:

١٩٩١: في ١٥ تشرين الاول، أعلنت البوسنة-الهرسك استقلالها، بعد سلوفينيا وكرواتيا ومقدونيا.

١٩٩٢: في ٢٩ شباط، ٦٢،٨٪ من البوشناق (البوسنيين) أيّدوا الاستقلال. وفي نيسان، اعترف الاتحاد الاوروبي بهذا الاستقلال، وبدأت قوات صرب البوسنة محاصرة سراييفو. وفي ١٥ ايار، استعد مجلس الأمن الدولي لارسال قوات السلام الدولية (فوربرونو) إلى البوسنة-الهرسك، وأصدر قرارًا بضرورة ايقاف المعارك في البلاد، وفرض حظرًا تجاريًا ونفطيًا وجويًا على صربيا ومونتينيغرو (الاتحاد اليوغوسلافي الجديد).

١٩٩٣: في ٢ كانون الثاني، قدّم سايروس فانس

واللورد دافيد أوين، رئيسا المؤتمر الدائر حول يوغوسلافيا السابقة، خطة تقسيم البوسنة إلى عشر مقاطعات.

١٩٩٤: في أول آذار، توصــل الكــروات والمسلمون، عقب اجتماعــاتهم في واشــنطن، إلى إنشــاء كونفدرالية كرواتية-مسلمة في البوسـنة والهرسـك. وفي ٥ تموز، تبنّت مجموعة الاتصـال (الولايـات المتحـدة، روسـيا، المانيا، فرنسا والمملكة المتحـدة) خطـة حـل جديـدة تعطـي ٥١٪ مـن الاراضـي للكـروات والمسـلمين و٤٩٪ لصـرب البوسـنة الذيـن كـانوا يسيطرون علـى ٧٠٪ مـن اراضــي البوسـنة-الهرسك.

١٩٩٥ (اتفاقيــة دايتــون): في ١٣ شــباط، اصـدرت محكمـة العـدل الدوليـة في لاهـاي، ولأول مـرة، حكمها بادانة ٢١ صربيًا متهمين بجرائـم ارتكبـت في مخيـم أورماسـكا. وفي ١٦ حزيـران، وبعـد خطــف ميليشـيات صرب البوسـنة عنـاصر مـن القـوات الدوليـة، أنشـأ مجلـس الأمن الدولي قوة متعددة الجنسيات للتدخـل السـريع لدعـم قوات السلام الدولية (فوربرونو). وفي تموز، شنت قـوات صرب البوسنة اعتداءات علـى «مناطق الأمـن» الدوليـة في البوسنة، وسقطت بأيديها مدينتي سربرنيكا وزيبا، وكـانت مدينة غورازد قبل سـقطت بـايديهم قبـل أشـهر قليلـة. وفي آب، أعاد الجيش الكرواتي سيطرته الكاملـة علـى كرايينـا. وفي ٢١ تشرين الثاني، استجاب الرؤساء الثلاثـة: الصربي والكرواتـي والبوسـني، للانـذار الامـيركي، ووقعـوا إتفاقيـة دايتون التي وردت خطوطهـا الاساسـية في معـاهدة بـاريس الموقعة في ١٤ كانون الاول (١٩٩٥).

أهم بنود اتفاقية دايتون: تقسيم البوسنة، الاعتراف

تقسيم اتفاقية دايتون للبوسنة (المصدر: وزارة الخارجية الفرنسية، عن «لوموند ديبلوماتيك»، عدد كانون الثاني ١٩٩٦، ص ٣).

بجمهوريات يوغوسلافيا السابقة، انتشار قوات حلف شمالي الاطلسي، انتخابات في البوسنة خلال تسعة أشهر، انتخابات رئاسية في البوسنة قبل نهاية ١٩٩٦، واخيرًا عودة اللاجئين إلى ديارهم.

واعتبر، في حينه، ان هذه الاتفاقية وضعت أسس إقامة سلام دائم في البوسنة من خلال تقسيمها إلى مناطق نفوذ صربية وكرواتية ومسلمة كما ورد في الخريطة التي رسمها الرئيس الكرواتي توجمان، وحصل صرب البوسنة بموجبها على ما يقارب ٤٢ مدينة وغالبيتها في المناطق المهمة التي توجد فيها مراكز صناعية، وكان الوجود الصربي في ١٥ مدينة من هذه المدن قليلاً قبل حرب البوسنة والغلبة السكانية لـ١٣ مدينة منها للمسلمين، ومدينتين للكروات.

أما عاصمة البوسنة، سارايفو، فلم تجعلها إتفاقية دايتون كلها ضمن سلطة المسلمين، إذ ترك للصرب مناطق واسعة منها في جنوبي وغربي أليجا، إلى بلدتي ترنوفوا، وكان المسلمون يشكلون فيها قبل الحرب ٧٠٪ من مجموع السكان، وبالي التي يشكل المسلمون فيها ٣٠٪ قبل الحرب.

اعتبرت اتفاقية دايتون افضل الحلول الممكنة لإيقاف نزيف الدم. إلا انها من وجهة عامة لم تقدم السلام العادل والدائم والشامل في البوسنة خصوصًا والبلقان عمومًا لأن اطراف النزاع الموقعين عليها لم تتوافر لديهم القناعة ببنودها. واستمر الصرب البوسنيون معارضين للاتفاقية على رغم ما حصلوا عليه من اراضي واعتراف دولي بهم. ولم يوافقوا عليها إلا بعد ضغط مارسته حكومة صربيا في بلغراد.

وتواصل التطبيق العملي لاتفاقية دايتون (طيلة عام ١٩٩٦) بالتركيز على تثبيت خطوط تقسيم الاراضي وترسيخ الفصل العرقي من خلال عمليات التوطين الصربي في شرقي البوسنة ومنع السكان من العودة إلى ديارهم في الشمال في عودة عمليات التطهير العرقي في محيط مدينة بانيالوكا. وفي غضون ذلك، كان التوتر لا يزال يسود العلاقات داخل الاتحاد الفدرالي البوسني. وحذّر رئيس الاتحاد (آذار ١٩٩٦) كريشمير زوباك من تجدد الحرب إذا فشلت صيغة الاتحاد بين المسلمين والكروات. وفي إطار هذه الخلافات قام وفد من الاتحاد الاوروبي باستطلاع الوضع في مدينة موستار التي شهدت توترًا بين الجانبين، لتقرير الخطوات المستقبلية بخصوص استمرار الادارة الاوروبية للمدينة أو التخلي عنها إذا اتضح ان المساعي لم تعد مجدية في اقناع الطرفين البوسنيين بالعيش المشترك.

١٩٩٦: في ٢٠ كانون الثاني، حلّت قوات الحلف الاطلسي محل قوات الامم المتحدة (فوربرونو) في البوسنة. وفي ١٩ آذار، أعيد توحيد سارايفو، وكان قد غادرها عدد كبير (عشرات الآلاف) من سكانها الصرب. وفي ٧ ايار، بدأت المحكمة الدولية لجرائم الحرب في يوغوسلافيا السابقة أولى جلساتها بمثول المتهم الصربي دوشان تاديتش الذي واجه ٣٤ تهمة تتعلق بممارساته الاجرامية في معسكرات الاعتقال الصربية عام ١٩٩٢، فيما أكد المنسق الاميركي للسلام في البوسنة ان واشنطن تعتبر بقاء كل من رادوفان كاراجيتش وراتكو ملاديتش في منصبيهما بمثابة خرق لالتزام جمهورية الصرب في البوسنة تجاه عملية السلام.

في ايار، نقل رادوفان كاراجيتش قسمًا من صلاحياته كزعيم لصرب البوسنة إلى نائبته بيليانا بلافيتش فيما كان يشتد الصراع في صفوف قيادة صرب البوسنة وفي أعقاب تهديدات من أوساط دولية (خاصة من واشنطن) باعادة فرض العقوبات على بلغراد ما لم ينفذ رئيس صربيا سلوبودان ميلوشيفيتش تعهداته بازاحة

لاجئة مسلمة الى مدينة توزلا (١٩٩٦).

كاراجيتش. وفي ١٩ تموز، تخلى كاراجيتش عن كل مهماته كرئيس لـ«جمهورية صربيا» البوسنية **Republika Srpska**، وخلفته فيها نائبته بيليانا بلافيتش.

في ١٤ ايلول، فازت الاحزاب القومية في الانتخابات التشريعية والرئاسية في البوسنة-الهرسك، وجرى تأجيل الانتخابات البلدية لسنة واحدة. وفاز الرئيس البوسني عزت علي بيكوفيتش بهيئة الرئاسة البوسنية بتقدمه على منافسيه الصربي والكرواتي. وفي ٣ تشرين الاول، اجتمع في الإليزيه (باريس) الرئيسان ميلوشيفيتش وبيكوفيتش واتفقا على اقامة علاقات دبلوماسية بين صربيا والبوسنة-الهرسك.

في ٣٠ تشرين الثاني، اصدرت محكمة العدل الدولية حكمها بسجن مجرم الحرب دراجن أردموفيتش (كرواتي انتسب إلى الميليشيات الصربية) ١٠ سنوات لمشاركته المباشرة في قتل عدد من السكان المدنيين المسلمين في مدينة سريبرينيتسا في شرقي البوسنة بعد استيلاء الصرب عليها في تموز ١٩٩٥.

وفي ١٦ كانون الاول، حرّك الحلف الاطلسي قوة جديدة من قواته للعمل في البوسنة بمشاركة جنود ألمان.

١٩٩٧: في ٢٨ شباط، وبعد مواجهات دموية حول مصيرها، وُضعت مدينة بريشكو تحت ادارة خاصة، مثلها مثل مدينة موستار.

في تموز، قوّت رئيسة صرب البوسنة بيليانا بلافيتش من موقعها بتعهدها محاربة الفساد والوقوف ضد رموزه وضد الرئيس والزعيم السابق كاراجيتش وهدّدت بحل برلمان جمهورية صرب البوسنة، وتلقت دعمًا من الجيش، وتأييدًا دوليًا خصوصًا من الامم المتحدة وفرنسا.

في ٦ آب، وعقب تجميد العلاقات بين الولايات المتحدة والبوسنة-الهرسك، التقى الرئيسان الكرواتي توجمان، والبوسني بيكوفيتش، وأعادا اطلاق الفدرالية الكرواتية-البوسنية المسلمة، واتفقا على تعيين ٣٣ سفيرًا من البوسنة-الهرسك، وعلى تسهيل عودة اللاجئين.

في آخر آب، استقبلت الجمهورية الصربية البوسنية، بلافيتش، المبعوث الاميركي إلى البوسنة، روبرت غيلبارد، في مقرها في مدينة بانيالوكا (بانيالوقا)، وبعد ساعات هدّدت خصومها المتشددين من الصرب، وعلى رأسهم كاراجيتش، بالعقاب بمجرد انتهاء الصراع في البلاد. كما دان غيلبارد خصومها بشدة.

في ايلول، جرت انتخابات محلية (بلدية) في البوسنة أظهرت نتائجها تراجع الاحزاب القومية في بلديات مهمة وفشل واقع التطهير العرقي والتهجير. وأشرفت على هذه الانتخابات «منظمة الأمن والتعاون في اوروبا».

في تشرين الاول، استسلم عشرة من المتهمين الكروات البوسنيين بجرائم الحرب، ونقلوا إلى مقر محكمة العدل الدولية في لاهاي، ما جعل الضغوط تتكثف على الزعماء الصرب للإقتداء بنظرائهم الكروات. وفي يوم نقل المتهمين الكروات إلى لاهاي، وصل غيلبارد (المبعوث الاميركي إلى البوسنة) إلى بلغراد واجتمع مع الرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش «مطالبًا بأن يقتدي بالرئيس الكرواتي توجمان فيما يتعلق بالمتهمين الصرب، وفي المقدمة رادوفان كاراجيتش والقائد العسكري لصرب البوسنة الجنرال راتكو ملاديتش، وإلا تعرض لمزيد من العزلة والعقوبات الدولية». وفي الوقت نفسه، استبعد قيام قوات حلف الاطلسي العاملة في البوسنة بعملية لاعتقال المتهمين الصرب، نظرًا إلى ما تنطوي عليه من مخاطر على الجنود القائمين بها، إضافة إلى تأثيرها السلبي على الانتخابات المبكرة التي دعت إليها الرئيسة بيليانا بلافيتش في جمهورية صرب البوسنة.

في ٢٢ و٢٣ تشرين الثاني، جرت الانتخابات البرلمانية المبكرة في جمهورية صرب البوسنة، تنافس فيها ٢٧ حزبًا وتكتلاً سياسيًا و١٨ مرشحًا مستقلاً على المقاعد الـ٨٣ في برلمان صرب البوسنة. ودخلت المنافسة ٦ أحزاب بوشناقية (مسلمو البوسنة) وكرواتية. وكانت الرئيسة بلافيتش دعت إلى هذه الانتخابات من أجل عزل المتشددين من أنصار كاراجيتش المتهم بارتكاب جرائم حرب. وبدا دعم دولي واضح لبلافيتش في هذه الانتخابات ولنهجها المعتدل. لكن النتائج الأولية (النتائج النهائية تقرر عدم إعلانها قبل ١٠ كانون الاول ١٩٩٧) أعطت ارقامًا تدل على فوز المتشددين بـ٦٠٪ من مجموع المصوتين (نحو ٦٠٪ ايضًا) وهم بذلك يمكنهم التكتل للامساك بالسلطة المقبلة بجبهة واسعة وليس بحزب واحد كما كان الحال حتى الآن عندما كان الديمقراطي (كاراجيتش) ينفرد بالحكم. وأجمع المحللون ان هذه النتائج جاءت كردة فعل للصرب على سياسة الرئيسة بلافيتش المعتمدة على جهات أجنبية، خاصة واشنطن، وأن أشد ما يمقته الصرب هو ان يستعين فريق منهم عند صراعاتهم الداخلية بجهة أجنبية.

وبالفعل، أعلنت البعثة الاوروبية التي أشرفت على هذه الانتخابات ان الاحزاب الصربية المتشددة حصلت

على ٤٨ مقعدًا من مجموع الـ٨٣ مقعدًا. وحصل الحزب الديمقراطي (الذي يتزعمه كاراجيتش) على ٢٤ مقعدًا، والحزب الراديكالي (يتزعمه فويسلاف شيشيلي) على ١٥ مقعدًا، والحزب الاشتراكي (يتبع للرئيس الصربي سابقًا والاتحادي حاليًا سلوبودان ميلوشيفيتش) على ٩ مقاعد، وحزب تحالف الشعب الصربي الديمقراطي (تتزعمه الرئيسة بيليانا بلافيتش) على ١٥ مقعدًا، فيما حصل حزب الديمقراطيين الاشتراكيين الصرب على مقعدين، والاحزاب المسلمة على ١٨ مقعدًا.

١٩٩٨: في ٣١ كانون الثاني، أدت حكومة صرب البوسنة (٢٠ وزيرًا) اليمين الدستورية أمام برلمان صرب البوسنة (٨٣ نائبًا) في مدينة بانيالوقا. ورئيس هذه الحكومة هو ميلوراد دوديك الذي أوضح، فور نيله الثقة، أن حكومته تضع قضية مصير مدينة برتشكو في المقام الاول بين مهماتها الآنية. وفي الوقت نفسه، أفاد منسق عملية السلام كارلوس ويستندورب ان مجيء ميلوراد دوديك إلى رئاسة حكومة جمهورية صرب البوسنة وفّر مجالاً أكبر ليكون قرار لجنة تحديد مصير برتشكو في صالح الصرب «نظرًا إلى تعاون الحكومة الجديدة الجيد مع المجتمع الدولي والتزامها الكامل تنفيذ بنود اتفاق دايتون للسلام بما في ذلك تلك المتعلقة بمدينة برتشكو» (راجع «دوديك، ميلوراد» في باب زعماء، رجال دولة وسياسة).

برتشكو: وبرتشكو مدينة كانت ذات غالبية من السكان المسلمين قبل الحرب لكن الصرب نفذوا فيها تطهيرًا عرقيًا، وبسبب النزاع الشديد عليها بين المسلمين والصرب وضعها اتفاق دايتون موقتًا داخل الكيان الصربي ريثما يتم حسم وضعها النهائي من قبل لجنة تحكيم دولية. وتقع برتشكو شمال شرقي البوسنة، وهي مهمة للصرب لأنها تربط اراضيهم في شمال غربي البوسنة مع مناطقهم الشرقية بينما يشكل موقعها المنفذ الوحيد للمسلمين على نهر سافا.

مؤتمر دولي في ساراييفو: بدأ في ٣ شباط ١٩٩٨ في العاصمة البوسنية ودار حول عودة النازحين إلى ديارهم في العاصمة بهدف إعادة المدينة إلى سابق عهدها كمدينة متعددة الاعراق. وأشرفت على تنظيم المؤتمر المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للامم المتحدة، ويحضره المبعوث الاميركي روبرت غيلبارد، والمنسق المدني لعملية السلام ويستندورب، ويشارك فيه رئيس هيئة الرئاسة البوسنية علي عزت بيكوفيتش ورئيسة صرب البوسنة بيليانا بلافيتش. وعرضت في المؤتمر سجلات مفوضية اللاجئين التي أظهرت أنه غادر سارايفو منذ توقف الحرب ١٢٠ ألف صربي و٢٥ ألف كرواتي، في حين رجع حوالي ٥ آلاف صربي وألفي كرواتي وعدد قليل من اليهود. ولا يزال حوالي مليون و٣٠٠ ألف نازح ينتشرون في مدن وقرى لم يكونوا فيها اصلاً، نتيجة انتقالهم إلى المناطق الخاضعة لأعراقهم في أنحاء أخرى من البوسنة، في حين لا يزال خارج البوسنة من اللاجئين حوالي ٧٠٠ ألف بوسني في الدول الاوروبية واميركا وكندا واوستراليا، و٨٠٠ ألف في مناطق يوغوسلافيا السابقة.

جنسية مزدوجة: في ١٣ كانون الاول ١٩٩٧، وقّع العضو الصربي في هيئة الرئاسة البوسنية مومتشيلو كرايشنيك في بلغراد مع وزير الخارجية اليوغوسلافي ميلان ميلوتينوفيتش اتفاقًا، يسمح لصرب البوسنة بالحصول على الجنسية اليوغوسلافية بصورة مزدوجة مع جنسية الكيان الصربي في البوسنة-الهرسك. وجاءت هذه الخطوة عشية الدورة الحاسمة من الانتخابات الرئاسية في صربيا (٢١ كانون الاول ١٩٩٧) التي يتنافس فيها ميلوتينوفيتش مرشحًا من الحزب الاشتراكي وحلفائه اليساريين (يتزعمهم ميلوشيفيتش)، وفويسلاف شيشيلي الراديكالي القومي المتطرف.

ورأى المسؤولون البوسنيون ان كرايشنيك لم يكن مخولاً التوقيع على مثل هذا الاتفاق «الذي يتعارض مع اتفاق دايتون»؛ وان بلغراد وبالي (معقل المتشددين الصرب في البوسنة) «ستدفعان ثمنًا باهظًا نتيجة هذا الاتفاق خصوصًا وان مومتشيلو كرايشنيك كان على وشك ان يطرد من هيئة الرئاسة لأربعة أخطاء خطيرة سابقة ارتكبها، من بينها توقيعه اتفاقًا للعلاقات الخاصة مع بلغراد في وقت سابق من هذا العام (١٩٩٧)، الأمر الذي قوبل بادانة دولية شديدة».

مؤتمر بون حول البوسنة: عقد في ٩-١٠ كانون الاول ١٩٩٧، وحضره أكثر من ٥٠ دولة وحوالي ٢٠ منظمة دولية. وتقدم الحضور أعضاء مجلس رئاسة اتحاد البوسنة-الهرسك: علي عزت بيكوفيتش (جمهورية البوشناق المسلمين)، وزوباك ومومتشيلو كرايشنيك (جمهورية كروات البوسنة وجمهورية صرب البوسنة). وفي خطاب افتتاح المؤتمر دعا وزير الخارجية الألماني كلاوس

كينكل يوغوسلافيا إلى التفاوض مع الاقلية الألبانية في كوسوفو بدلاً من استخدام العنف. وقال: «لا أحد يريد نزع كوسوفو عن بلغراد، لكن لا بد من التفكير بايجاد حكم ذاتي للمنطقة». ورد ممثل يوغوسلافيا بشدة على كينكل معتبرًا كلامه تدخلاً في شؤون يوغوسلافيا الداخلية. وأضاف ان موضوع كوسوفو ليس جزءًا من اتفاق دايتون الذي هو وما آلت إليه الاوضاع في البوسنة موضوع هذا المؤتمر (مؤتمر بون).

وأنهى المؤتمر أعماله باعلان وثيقة تضمنت نتائج المفاوضات والاتفاقات التي وقعت عليها الاطراف المعنية بالأزمة البوسنية. وانسحب الوفد اليوغوسلافي من الجلسة الختامية رافضًا التوقيع على الوثيقة السياسية لتضمنها فقرة تشير إلى قضية كوسوفو ووضع الاقلية الألبانية في يوغوسلافيا. وتضامن معه ممثلو الصرب البوسنيين.

وأعلن وزير خارجية المانيا، كينكل، ان الدول المشاركة في المؤتمر، وكذلك الولايات المتحدة وروسيا، أصرت على ان تتضمن الوثيقة الختامية فقرة عن كوسوفو. وعرض لنتائج المؤتمر، فقال إن أعضاء مجلس رئاسة اتحاد البوسنة والهرسك اتفقوا على إصدار جوازات موحدة وقانون للجنسية، (ذلك يتضمن موافقة البرلمان البوسني)، وان المؤتمر قرر زيادة صلاحيات المفوض الدولي لاعادة إعمار البوسنة بشكل يمكنه من اتخاذ القرارات اللازمة في حال اختلفت الاطراف المتنازعة في موضوع ما. وحذّر كينكل أي طرف من عدم التجاوب مع اتفاق دايتون وعملية السلام: «إن من يشارك في تحقيق الاهداف الموضوعة ينال المساعدة، ومن يرفض يخرج نفسه من الحلقة». وطالب الاطراف بتسليم الاشخاص المطلوبين إلى محكمة لاهاي الدولية، و«ان من يمتنع عن ذلك سيتعرض لعقوبات اقتصادية». وشنت وسائل الاعلام الرسمية في بلغراد هجومًا عنيفًا على الحكومة الالمانية بسبب إدراج قضية كوسوفو في الوثيقة الختامية لمؤتمر بون، ووصفتها بأنها «راعية للارهاب ومخططة للتوترات».

في كلمة تقويمية سريعة أن مؤتمر بون شكل بدء مرحلة جديدة في مسار القضية البوسنية، إلى حدّ دعاه الكثيرون بأنه «دايتون-٢». لقد راعى هذا المؤتمر مصالح الدول الخمس التي تتمتع بصفة «مجموعة الاتصال»: الولايات المتحدة رسّخت استمرار هيمنتها على القرار الدولي، والمانيا ارتاحت لتخلصها من عبء نحو نصف مليون لاجىء بوسني وألباني في اراضيها، وفرنسا وبريطانيا أمّنتا حضورهما في أمور البلقان، وروسيا أمكن لها مواصلة دور الاتحاد السوفياتي مع الأخذ في الاعتبار المستجدات الدولية.

بالنسبة إلى صرب البوسنة، فقد أصبحوا، بانسحابهم من المؤتمر، في حلّ مما لا يناسبهم من قراراته. وكانوا انسحبوا احتجاجًا على عرض قضية كوسوفو في المؤتمر.

ويذكر ان التوزيع العرقي في البوسنة قبل الحرب اعتمادًا على النسب المئوية، كان يعطي المسلمين ٥٠، والصرب ٣٣، والكروات ١٧. وقد راعى اتفاق دايتون هذا التوزيع ووافق على البنود الخاصة بوحدة البوسنة-الهرسك، وعلى تمثيل في مؤسسات الدولة المشتركة يتناسب مع طبيعة الوجود السكاني. إلا ان مؤتمر بون جرّد المسلمين من أي ميزة توفر لهم التمتع بصفة العرق الغالب، وجعلهم في مستوى واحد مع الصرب والكروات، وطرفًا ضمن ثلاثة فرقاء متساوية الحقوق والواجبات.

* **بانيالوكا (بانيالوقة)**: عاصمة جمهورية صرب البوسنة منذ استيلائهم عليها في بداية الحرب البوسنية (١٩٩٣). وقبل هذه الحرب، كان طابع المدينة إسلاميًا، وكان يحيط بها حزام يسكنه الكروات والصرب.

بدأ ازدهارها في ظل الدولة العثمانية بشكل ملحوظ بعد سنة ١٥٢٨، وبلغت الأوج في ١٥٦٣ حين أصبحت ثغرًا من ثغور الاسلام على الجبهة الغربية، ثم مقرًّا للوالي العثماني فرحات باشا صوقوللي الذي عين «سنجق بك» للبوسنة في سنة ١٥٧٤. وبقيت مقرًا للولاة حتى ١٦٣٩.

استولى عليها النمساويون في ١٦٨٨، واعادها العثمانيون في ١٧٣٧، واستمر ازدهارها إلى ان اصبحت سنجقًا بوسنيًا في ١٨٥١. احتلها النمساويون-المجريون في ١٨٧٨. وتمكنت القوات النمساوية-المجرية من قمع ثورة سكانها المسلمين، وبقيت في يد الامبراطورية النمساوية-المجرية إلى ١٩١٨، فضمت إلى «مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين».

في المدينة عدد كبير من الآثار والمساجد والمدارس الاسلامية، قضى صرب البوسنة على معظمها منذ استيلائهم عليها.

مشروع أوروبي: «إتحاد بلقاني» (مناقشة)

تحت عنوان «بعد يوغوسلافيا، البحث عن اتحاد جديد»، كتب جميل روفائيل («الحياة»، العدد ١٢١٦٥، تاريخ ١٦ حزيران ١٩٩٦، ص١٢):

مهما كانت طبيعة الظروف التي أدت إلى قيام يوغوسلافيا واهدافها وملابساتها، فإنها واصلت مسيرتها كدولة مرموقة حتى التحولات التي حدثت في اوروبا مطلع التسعينات، إذ شرعت الدول المترعمة لهذه القارة إلى تفكيك الوحدة اليوغوسلافية من خلال تصعيد تناقضاتها الداخلية واستغلال محاولات إعادة الهيمنة الصربية وتأجيج النزعات الانفصالية السلوفينية والكرواتية، و لم يجد وزير الخارجية الالماني كلاوس كينكل حرجًا في التصريح علنًا بأن بلاده ساعدت بوسائل شتى في تحقيق استقلال كرواتيا، ورغم ذلك لم يجرؤ أحد على تحميل المانيا وحليفاتها مسؤولية الإبادة والكوارث التي نتجت عن الخطوات التي نفذها ممثل كرواتيا في آخر هيئة رئاسية يوغوسلافية ستيبي ميسيتش الذي كان يرد علنًا «أنا آخر رئيس جمهورية ليوغوسلافيا لأن نهاية هذه الدولة أصبحت محتومة». علمًا ان ميسيتش ظل الشخص الثاني في القيادة الكرواتية حتى تنازع مع الرئيس توجمان قبل نحو سنتين.

ووفق المعلومات القليلة التي توافرت فإن جولة رئيس اللجنة الاوروبية جاك سانتير ومندوب ايطاليا التي تترأس بلاده الدورة الحالية للاتحاد الاوروبي لامبرتو ديني يومي ٧ و٨ حزيران ١٩٩٦ في سارايفو وزغرب وبلغراد وسكوبيا، استهدفت حض هذه العواصم على الدخول في اتحاد كونفدرالي بلقاني يضم ايضًا تيرانا على أساس «تطوير علاقات التعاون الاقليمي وحسن الجوار بين دول يوغوسلافيا السابقة وجارتها ألبانيا وبما يؤدي إلى استتباب الاستقرار ومسايرة العالم المتحضر وتحقيق التعاون مع الاتحاد الاوروبي».

واللافت للانتباه ان سلوفينيا قد أعفيت من دخول الاتحاد المقترح ووقعت اتفاقًا للتعاون مع الاتحاد الاوروبي الذي وصفها بأنها «حققت نتائج رائعة في الطريق نحو اوروبا». والحقيقة ان السلوفينيين هم تاريخيًا وثقافيًا ولغويًا على بعد كبير من الاقوام السلافية الجنوبية الأخرى. ولذا ظلوا يعتبرون وجودهم في يوغوسلافيا وقتيًا على رغم المزايا الكبيرة التي وفّرها لهم هذا الوجود بحيث حصلوا على اقتصاد متقدم مع ان الموارد الطبيعية والاراضي الزراعية في بلادهم ليست ذات شأن؛ وذلك نتيجة تحولها إلى القاعدة الصناعية الرئيسية في يوغوسلافيا بفضل وجود مواطنها ادوارد كارديل في المركز القيادي الثاني بعد الكرواتي يوسب بروز تيتو.

ووفق المعلومات المتوافرة فإن قادة الكروات والصرب والألبان أعربوا عن موافقتهم المبدئية على المشروع الاوروبي الخاص بالاتحاد البلقاني بينما عارضه بشدة المسلمون البوسنيون والمقدونيون. ومع انه لا توجد تصريحات رسمية حول المواقف، إلا انه تردد بأن المسلمين يجدون فيه ترسيخًا لتقسيم البوسنة بين كرواتيا وصربيا، في حين يخشى المقدونيون ان يفقدوا معظم السيادة الوطنية التي حصلوا عليها بفضل الاستقلال وذلك بسبب صغر بلادهم مساحة وسكانًا وفقرها وتنوعها الاثني. لكن الاتحاد الاوروبي الذي اعتاد سياسة الترغيب والترهيب تجاه المشكلة اليوغوسلافية، حذر في اجتماعه (١٠ حزيران ١٩٩٦) في لوكسمبورغ الذين لا يستجيبون لدعوته، وأعلن «ان ثمن رفض التعاون سيكون باهظًا من النواحي الانسانية والسياسية والاقتصادية لان الاتحاد الاوروبي لا يمكنه الاستمرار في تقديم الدعم المالي للدول التي تهدد تصرفاتها في إفشال مساعي الاتحاد، لأن التعاون بين هذه الدول ليس خيارًا بل هو ضرورة، ولا مجال لأي تقرب فردي بالنسبة لدول يوغوسلافيا السابقة من الاتحاد الاوروبي».

واعتمادًا على توضيح جاك سانتير فإن لا مبرر لإبداء المخاوف بحجة احتمال تجديد الدولة اليوغوسلافية السابقة المنهارة «لأن اسلوب الاتحاد الاوروبي في العلاقات مع دول هذه المنطقة (البلقان) ليس اقتراحًا لأي اتفاق بين هذه الدول، بل هي محاولة للمساهمة في اقامة منطقة استقرار وتعاون في جنوب شرقي اوروبا. وكدليل على ان المشروع ليس عودة يوغوسلافيا فإنه يشمل ألبانيا ويستبعد سلوفينيا، وسيواصل الاتحاد مساعيه في هذا الشأن مع السلطات البوسنية الجديدة التي ستسفر عنها الانتخابات».

حقيقة ان فكرة الاتحاد الكونفدرالي البلقاني ليست جديدة. فقد سبق واقترحها علنًا الرئيس الأندونيسي سوهارتو منذ سنتين (١٩٩٤) حين كانت بلاده تترأس حركة عدم الانحياز، وقصد من أجلها سارايفو وزغرب، كما عرضها مبعوث خاص عنه على الرئيس الصربي ميلوشيفيتش. وقيل في حينه ان الاقتراح يلقى دعم الولايات

المتحدة وروسيا واوروبا، وإضافة إلى ذلك فقد طرحت فكرة الاتحاد البلقاني في اوقات سابقة منذ مطلع القرن الحالي كسبيل لحل مشاكل المنطقة، وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية كاد ان يتحقق جزء من هذا المشروع بالاتحاد بين يوغوسلافيا وألبانيا لولا التطورات التي حصلت عام ١٩٤٨ نتيجة الخلافات العميقة بين تيتو وستالين.

ويبدو ان الولايات المتحدة تؤيد المشروع الاوروبي الجديد في البلقان، وانها وافقت على ان يكون التنفيذ بيد الاوروبيين، وفق ما آلت إليه الامور من تقاسم الادوار في الساحة البلقانية، لكن ما يزال غير واضح ما إذا كان تكثيف الجهود من اجل هذا الاتحاد، في هذا الوقت بالذات حيث تمر القضية البوسنية بمرحلة حاسمة، قد جاء في سياق مخطط متواصل الحلقات بدأ بتدمير يوغوسلافيا السابقة وتحطيم قدرات شعوبها السياسية والاقتصادية ومنع المسلمين من التحكم بالبوسنة-الهرسك، أم انه صحوة اوروبية بعد التيقن من ان الشكل الذي آلت اليه يوغوسلافيا غدا غامض العواقب ولا ينسجم مع آمال المخططات السابقة. وفي كل الاحوال يبقى التساؤل، إلى ان تنجلي الخفايا، عن السبب الذي جعل «الغيارى» الاوروبيين يتجاهلون تنظيم يوغوسلافيا على أسس واقعية جديدة قبل خمس سنوات، ومن دون حدوث ما حصل من مآس دامية!.

مدن ومعالم

* **برشتينا Pristina**: عاصمة مقاطعة كوسوفو. تعد نحو ٢١٠ آلاف نسمة (بحسب آخر إحصاء رسمي جرى في ١٩٨١)، اكثريتهم الساحقة من الألبان. فيها عدد كبير من الجوامع والمراكز الاسلامية. حرف يدوية. صناعات متنوعة. مناجم الليتيت ومحطات حرارية وكهربائية في الضواحي.

* **بلغراد Belgrade**: في اللغة الصربية-الكرواتية Beograd التي تعني «المدينة البيضاء». عاصمة جمهورية صربيا، وعاصمة جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية (صربيا والجبل الأسود)، ومقر البطريركية الصربية الأرثوذكسية. تعد نحو ١،٢٢٥ مليون نسمة.

قلعة عثمانية قديمة (كالمغدان Kalemegdan) تقوم على هضبة تطل على مشهد طبيعي واسع الأرجاء، بما فيه منطقة إلتقاء نهري الدانوب والساف.

جامعة. مرفأ نهري. مركز صناعي وتجاري.

يعود تأسيس المدينة إلى قبائل السلط (Celtes)، ثم أصبحت قاعدة رومانية. كانت تابعة لامبراطورية الصرب في القرن الرابع عشر، وللمجر في القرن الخامس عشر. سيطر عليها العثمانيون (سليمان الثاني) في ١٥٢١. استعادها النمساويون منهم مرتين: الاولى بين ١٧١٨-١٧٣٩، والثانية بين ١٧٨٩-١٧٩١. وتمكنت صربيا من الفوز باستقلالها الذاتي في ١٨١٥، وبقيت فيها حامية تركية حتى ١٨٦٧. أصبحت بلغراد عاصمة المملكة الصربية في ١٨٧٨. احتلها النمساويون من ١٩١٥ إلى ١٩١٨. وفي ١٩٤١، احتلها الجيش الالماني (بقيادة فون كلايست)، وحرّرها أنصار تيتو (الشيوعيون) في تشرين الاول ١٩٤٤ بمساعدة جيوش الماريشال تولبوخين.

كان عدد سكانها ١٠٠ ألف في القرن السابع عشر، وتراجع حتى أصبح نحو ١٠ آلاف في بداية القرن التاسع عشر، ثم عاد وتصاعد إلى ٨٢ ألفًا في العام ١٩١٠، ما يفسّر التاريخ المضطرب الذي عاشته المدينة. وجاء نموها السكاني والصناعي الحالي بدءًا من انتهاء الحرب العالمية الاولى، وبدأ توسعها على الضفة اليسرى من نهر الساف بعد الحرب العالمية الثانية.

* **بودغوريتسا Podgorica**: إسمها السابق تيتوغراد (من ١٩٤٥ إلى ١٩٩١). عاصمة مونتينيغرو (الجبل الأسود). تعد نحو ١٢٥ ألف نسمة. عرفت نهضة اقتصادية مهمة بين ١٩٤٥ و١٩٨٠.

* **نوفي ساد Novi Sad**: مدينة صربية. عاصمة مقاطعة فويفودينا. تقع على الدانوب. تعد نحو ١٨٢ ألف نسمة. تقابلها بلدة بتروفردان Petrovaradin (نحو ١٢ ألف نسمة) التي تضم قلعة نمساوية قديمة، والتي تتصل بنوفي ساد بجسر فوق الدانوب. مرفأ نهري ومركز صناعي (صناعات غذائية وميكانيكية).

زعماء، رجال دولة وسياسة

*** بازيك، نيكولا Pasic,N. (١٨٤٥-١٩٢٦):**
(عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ط١، ج١، ص٤٧٢-٤٧٤):

رجل دولة صربي وأحد مؤسسي مملكة صربيا وكرواتيا وسلوفينيا (ورد «سلوفاكيا» بدل سلوفينيا، في المرجع المذكور، وهو خطأ) التي اتخذت إسم «يوغوسلافيا» في ما بعد. ومؤسس الحزب الراديكالي القومي في صربيا عام ١٨٨١. لعب دورًا سياسيًا مهمًا في ظل عرش أوبرينوفيك وعرش جورجيفيك. جاءت حروب البلقان (١٩١٢-١٩١٣) والحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) كي تبلور أفكاره حول القومية الصربية المنفتحة، لكن إصراره على السيطرة الصربية في الدولة المتعددة القوميات التي أنشأها زرع بذور نزاعات محلية ما لبث ان خفت حدتها بعد توحيد يوغوسلافيا، الذي تمّ بعد وفاته بوقت طويل.

درس بازيك الهندسة في بلغراد وجاء اهتمامه بالليبرالية المعاصرة والمؤسسات الديمقراطية نتيجة تأثره بالفوضوي الروسي ميخائيل باكونين. وبعد عودته إلى صربيا (١٨٧٣) انضم إلى المجموعة الاشتراكية التي كان يقودها ماركوفيتش، لكن اشتراكه في الحروب ضد تركيا (١٨٧٦-١٨٧٨) قاده إلى تغيير تفكيره السياسي. دخل البرلمان كزعيم للمعارضة في ١٨٧٨. وعين رئيسًا للوزراء أول مرة في ١٨٩١. ورافق الملك ألكسندر أوبرينوفيك كوزير للخارجية في زيارة لروسيا في ١٨٩٢، حيث اقام علاقات شخصية وسياسية قوية مع النظام القيصري. وقد عين وزيرًا صربيًا في بطرسبورغ في ١٨٩٣. لكنه استقال احتجاجًا على عودة الملك السابق ميلان إلى صربيا في ١٨٩٤.

في ١٨٩٩، عندما جرت محاكمة أعضاء الحزب الراديكالي بتهمة محاولة اغتيال الملك ميلان، أدلى بازيك باعترافات مذلة ورّط فيها العديد من رفاقه السابقين. ثم ترك البلاد مختارًا وعاد إليها بعد تنازل ميلان عن العرش. وفي ١٩٠٣، بعد الانقلاب الدموي الذي أعاد عرش كاراجورجيفيك بشخص الملك بطرس الاول، عمل بازيك على تثبيت الحزب كسند رئيسي للنظام الجديد، وكقوة دافعة في السياسة الصربية، واتسمت وسائله-للمحافظة على زعامته-بالقسوة والانتهازية. وفي ١٩٠٤، عين رئيسًا للوزراء، ووزيرًا للخارجية مرة أخرى، وأبدى براعة فائقة في مقاومة المحاولات النمساوية-الهنغارية لفرض غرامة حربية على صربيا. عين في كلا المنصبين من ايار ١٩٠٦ حتى حزيران ١٩٠٨؛ غير انه كان يشغل منصبًا حكوميًا ثانويًا في تشرين الاول ١٩٠٨ عندما انفجرت ازمة دولية كبرى بسبب ضم النمسا وهنغاريا لمقاطعة البوسنة-الهرسك. أعيد تعيينه رئيسًا للوزراء في تشرين الاول ١٩٠٩، واستبدل في ١٩١١ بأكبر منافس سياسي له، ميلان ميلوفانوفيتش. وبالرغم من تعاونه مع هذا الأخير في إقامة حلف مع بلغاريا وهوالحلف الذي انبثقت عنه في ما بعد العصبة البلقانية فإن محاولات السياسيين الشباب والعديد من القادة العسكريين لازاحته عن منصبه كرئيس للحزب لم تتوقف إلا بموت ميلان ميلوفانوفيتش المفاجيء. وقد تسنى لبازيك ان يقود صربيا في حربين رابحتين، الاولى ضد تركيا (١٩١٢) والثانية ضد بلغاريا (١٩١٣).

بعد اغتيال الارشيدوق فرديناند على يد شاب حزبي وطني في سارايفو (٢٨ حزيران ١٩١٤)، كان موقف بازيك ليّنًا للغاية في التعامل مع الشروط القاسية للإنذار النمساوي-الهنغاري الموجه إلى صربيا، ولكنه لم يستطع تفادي اعلان الحرب. في ظل هذه الاوضاع، لعب بازيك بذكاء علىالمشاعر القومية المحتدمة، لتحويل حرب الصرب باتجاه حلمه الخاص في تحرير كل الصربيين وحتى السلافيين الجنوبيين في النمسا-هنغاريا. وعارض بشدة معاهدة لندن السرية التي وعدت فيها روسيا وفرنسا وبريطانيا العظمى ايطاليا بكثير من المقاطعات السلافية الجنوبية. وأجبرت هزيمة صربيا على يد النمسا والمانيا، في ما بعد، حكومة بازيك والجيش على الانسحاب إلى كورفو في شتاء ١٩١٥. وقد أضعف سقوط النظام القيصري في روسيا (١٩١٧) من موقف بازيك، وأرغمه مؤقتًا على التخلي عن اتجاهه الوحدوي الصربي المتشدد، واضطر إلى لتفاوض مع لجنة ترومبيك اليوغوسلافية، وهي هيئة من السلافيين الجنوبيين المنفيين من النمسا-هنغاريا، تتخذ من لندن وباريس مقرًا لها. كانت النتيجة صدور اعلان كورفو في تموز ١٩١٧، الذي وضع الخطوط العريضة للدولة يوغوسلافيا بعد الحرب. وعندما وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها، بدأ بازيك يعلن ان صربيا-كونها القوة السياسية والعسكرية المسيطرة بين السلافيين الجنوبيين-تملك وحدها حق التعامل مع الحلفاء، إلا انه اضطر في ما بعد للانضمام إلى ممثلين عن اللجنة اليوغوسلافية وعن المجلس الوطني الذي شكل في زغرب،

وعن المعارضة الصربية، وذلك في جنيف في ١٩١٨.

ومهما يكن من أمر، فقد تمّ التوصل، في ما بعد، إلى تسوية توحد بين الصرب والمقاطعات السلافية الجنوبية بشكل مملكة تضم الصربيين والكرواتيين والسلوفينيين. ولكن بازيك فشل كليًا في فهم الفارق الجوهري بين صربيا المتجانسة وتعقيدات المملكة الجديدة، التي أصبحت تضم عدة قوميات مختلفة. وبقي يعتبر الكرواتيين والسلوفينيين والمقدونيين والمسلمين البوسنيين، مجرد صربيين يعتنقون ثلاثة أديان (الأرثوذكسية، الكاثوليكية، الاسلام) ويحملون عدة أسماء.

وقد استطاع بازيك، عبر البرلمان، عندما أعيد تعيينه رئيسًا للوزراء في ١٩٢١، أن يفرض دستورًا موحدًا يثبت فعليًا السيطرة الصربية الموجودة تحت قناع إنشاء أمة متجانسة، ويؤسس نظامًا مركزيًا قويًا ويقضي على المقاطعات المستقلة. وفي ١٩٢٥، أجبر بازيك على حل البرلمان، ولكنه استطاع إعادة تأمين اكثرية واتخاذ إجراءات عنيفة ضد خصومه. وعندما وجهت الانتقادات لاتجاهه المتنامي نحو المركزية والتوحيد، من قبل حلفائه السابقين، اضطر بازيك إلى الاستقالة في آذار ١٩٢٦.

*** بلافيتش، بيليانا Plavsic,Bliana**

(١٩٣٠-): رئيسة جمهورية صرب البوسنة الحالية. ولدت في مدينة توزلا شمالي البوسنة من عائلة ثرية. وبعد ان أكملت دراستها الابتدائية والثانوية في سارايفو، دخلت كلية علم الإحياء (كان والدها دكتورًا في البيولوجيا) في زغرب، وأكملت دراستها العليا في تشيكوسلوفاكيا والولايات المتحدة الاميركية. وبعد حصولها على شهادة الدكتوراه عادت إلى سارايفو أستاذة في جامعتها، ثم عميدة لكلية علوم الإحياء فيها، وكانت من القلائل، بين اساتذة الجامعات، الذين لم ينتموا إلى «رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف». وبعد اطلاق حرية تنظيم الاحزاب في يوغوسلافيا السابقة (١٩٩٠) انضمت إلى الهيئة المؤسسة لـ«الحزب الديمقراطي الصربي» إثر إلحاح من زميلها الاستاذ في كلية الفنون نيكولا كوليفيتش، الذي لم يكن هو الآخر شيوعيًا وشكل معها العضو الصربي الثاني في هيئة الرئاسة البوسنية قبل الحرب. رفضت ترك سارايفو عند اندلاع الحرب في ٦ نيسان ١٩٩٢، ثم تعذر عليها بعد ذلك المغادرة وبقيت سجينة دارها إلى ان احتجز صرب ضاحية أليجا، بناء على أوامرها، قافلة باصات تابعة للصليب الأحمر الدولي كانت تنقل اطفالاً مسلمين خارج

بيليانا بلافيتش.

البوسنة، واشترطوا للافراج عنها وصول بلافيتش بأمان إلى الضاحية لتوعز بمواصلة القافلة مسيرها. وهكذا كانت آخر عضو في القيادة الصربية يترك سارايفو في ٢٠ ايار ١٩٩٢ وكانت قد انسحبت من هيئة الرئاسة البوسنية مع بداية الحرب (نيسان ١٩٩٢). وكانت هي وصربي آخر (نيكولاي كوليفيتش، الذي انتحر في آذار ١٩٩٧) يمثلان الصرب في هذه الهيئة.

التزمت نصرة رئيس الحزب الديمقراطي الصربي رادوفان كاراجيتش كلما ظهر تنافس أو مزايدة في المناصب منذ الخلاف مع أول رئيس لحكومة الاتحاد اليوغوسلافي (الجديد، أي الذي يضم صربيا ومونتينيغرو) ميلان بانيتش (الصربي، الاميركي الجنسية) اواخر ١٩٩٢، ثم الرئيس الصربي سلوبودان ميلوشيفيتش (الذي كثيرًا ما كان يردّد ان المكان الطبيعي لبلافيتش هو مستشفى المجانين). وتقديرًا لثباتها معه، اختارها كاراجيتش لمواصلة نهجه عندما ازدادت المطالبة بابتعاده عن مسرح الاحداث الرسمية بسبب اتهامه بجرائم الحرب. فكانت مرشحة الحزب الديمقراطي الصربي الحاكم لرئاسة جمهورية صرب البوسنة.

في الاول من حزيران ١٩٩٧، عقدت بلافيتش اجتماعًا مغلقًا مع وزيرة الخارجية الاميركية مادلين أولبرايت في بانيالوكا. وعلى أثره بدأت بلافيتش تبدي اعتدالاً في سياستها، وتهاجم كاراجيتش وما تسبّب به من فضائح وفساد. لكنها سرّبت في تصريحاتها أقوالاً تفيد عن عدم جدية الحلف الأطلسي في اعتقال كاراجيتش، بل ربما وفّر له سبل الفرار (راجع «كاراجيتش، رادوفان» في هذا الباب، زعماء، رجال دولة وسياسة).

لكن اعتدالها «الاميركي» هذا تسبّب في طردها من صفوف الحزب الديمقراطي الصربي. فردّت بالدعوة إلى الانتخابات التي جاءت ايضًا بنتائج ليست في مصلحتها (راجع باب «جمهورية صرب البوسنة»).

* جوكانوفيتش، ميلو Dukanovic,Milo (١٩٦٢-): رئيس جمهورية مونتينيغرو (الجبل الأسود) الحالي (١٩٩٧). ولد في مدينة نيكشيتش وسط الجبل الأسود. والده (رادوفان) حقوقي عمل فترة طويلة قاضيًا، وهو الآن رئيس المحكمة الدستورية للجبل الأسود، ووالدته موظفة تدرّجت في وظائف إدارية حكومية. تخرّج ميلو جوكانوفيتش في كلية الاقتصاد في العاصمة بودغوريتسا عام ١٩٨٦، واصبح من قادة منظمات الطلبة والشباب الشيوعية، ما وفّر له الفرصة (في ١٩٨٨) ليقود مع رفيقه مومير بولاتوفيتش (الرئيس السابق لجمهورية الجبل الأسود) تظاهرات صاخبة في الجبل الأسود بتحريض من ميلوشيفيتش الذي كان رئيسًا لرابطة شيوعيي صربيا، أسفرت عن استقالة جميع المسؤولين الحكوميين وسيطرة الرفيقين الشابين على رابطة شيوعيي الجبل الأسود، ومن ثم خليفتها الحزب الديمقراطي الاشتراكي، وفوز بولاتوفيتش برئاسة جمهورية الجبل الاسود في انتخابات ١٩٩١ وتسلم جوكانوفيتش منصب رئيس الحكومة، ليكونا من أبرز المطيعين لميلوشيفيتش أثناء صراعات يوغوسلافيا السابقة وانهيارها، وبقاء جمهورية الجبل الاسود وحيدة في اتحاد مع صربيا.

فشلت محاولات الرئيس بولاتوفيتش خلال ١٩٩٧ في إقالة رئيس وزرائه جوكانوفيتش، على رغم اتهاماته له بالإثراء غير المشروع وتسليم افراد عائلته المراكز الحساسة في الدولة ومنهم والده رادوفان (رئاسة المحكمة الدستورية) وأخته أنّا (رئيسة محكمة العاصمة) وأخوه ألكسندر (مسؤولية تجارة الوقود).

يتزعم جوكانوفيتش التيار المناهض لاندماج الجبل الاسود في صربيا، ويقف معه رئيس برلمان الجبل الاسود سفيتوزار ماروفيتش وعدد من قياديي الحزب الديمقراطي الحاكم. أما التيار الآخر الداعي إلى مزيد من الوحدة مع صربيا فيتزعمه بولاتوفيتش، وتدعمه بطبيعة الحال السلطات الصربية (راجع باب «الجبل الاسود»).

* جيلاس، ميلوفان Djilas,M. (١٩١١-): سياسي ومفكر شيوعي صربي. ولد في قرية من أعمال الجبل الاسود (مونتينيغرو). بعد ان أتم دراسته الجامعية في الفلسفة في جامعة بلغراد، انضم إلى الحزب الشيوعي. (١٩٣٢) الذي كان محظورًا، وسجن لمدة ثلاث سنوات. أصبح منذ ١٩٤٠ عضوًا في المكتب السياسي للحزب. وفي ١٩٤١، رقي إلى رتبة جنرال، وترأس وفدًا عسكريًا

ميلو جوكانوفيتش

يوغوسلافيًا إلى موسكو، وكان أول قائد يوغوسلافي يقابل ستالين. وعندما شب النزاع (تيتو-ستالين) في ١٩٤٨، تميّز جيلاس بعنف هجماته على التسلط الستاليني السوفياتي.

في ١٩٥٣، بدأ جيلاس يشكك بصوابية الخط الذي يتبعه الحزب الشيوعي، وبصوابية الماركسية نفسها، وبمسألة دكتاتورية الحزب معتبرًا اياها مرحلة مضى عليها الزمن، كما راح ينتقد بشدة الامتيازات التي يتمتع بها قادة النظام. وفي كانون الثاني ١٩٥٤، إثر اجتماع استثنائي للجنة المركزية جُرِّد جيلاس من كل وظائفه ومسؤولياته الرسمية في الحزب والدولة (وكان رئيسًا للمجلس النيابي الفدرالي)، وبعد أشهر قليلة فُصل من الحزب بسبب «انحرافه البورجوازي»، وحكم عليه بالسجن ٣ سنوات (١٩٥٥)، ثم أُعفي عنه، ثم أعيد إلى السجن. وكان لم يزل مسجونًا عندما ظهر في نيويورك، في ١٩٥٧، كتابه الشهير «الطبقة الجديدة». وعلى أثر ذلك حكم عليه بالسجن لمدة سبع سنوات، إلا انه أُفرج عنه قبل انتهاء المدة، أي في ١٩٦١. بعد ذلك بقليل وُضع في الاقامة الجبرية لمدة خمس سنوات بتهمة «إفشاء اسرار الدولة» من خلال كتاب جديد له نُشر في الخارج تحت عنوان

«أحاديث مع ستالين»، ثم أعفي عنه مجددًا في ١٩٦٦. واقام في بلغراد وتقاضى من الدولة راتبًا تقاعديًا، أما ما يكتبه فقد كان يُنشر في الخارج. ومن جملة مؤلفاته دراسة قيّمة عن نجيغوس (١٨١٣-١٨٥١)، أعظم شاعر سلافي.

* **دوديك، ميلوراد (١٩٥٩-):** رئيس حكومة جمهورية صرب البوسنة الحالي (بدءًا من ١٧ كانون الثاني ١٩٩٨). ولد في لاكتاشي الواقعة شمال شرقي بانيالوكا، وهي مدينة ذات جذور صربية عريقة، سكانها نحو ٣٠ ألف نسمة، يشكل الصرب ٨٥٪ منهم والكروات ١٠٪ والمسلمون ٥٪. وكان دوديك رئيسًا منتخبًا لمجلسها المحلي حتى اختياره رئيسًا للحكومة.

أكمل دوديك دراسته الابتدائية والثانوية في لاكتاشي، والجامعية في بلغراد حيث تخرج من كلية العلوم السياسية سنة ١٩٨٣. كان عضوًا في رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف. وفي ١٩٩٠ تحول إلى التكتل الشيوعي الذي تزعمه رئيس الوزراء اليوغوسلافي آنذاك أنتي ماركوفيتش (كرواتي) باسم «اتحاد القوى الاصلاحية» الذي انبثقت عنه بعد انهيار يوغوسلافيا السابقة الاحزاب الاشتراكية الديمقراطية اليسارية القائمة حاليًا في مناطقها المختلفة.

وعند اندلاع الحرب البوسنية في نيسان ١٩٩٢ كان دوديك عضوًا في البرلمان البوسني المنتخب في ١٩٩٠ وانسحب منه مع غالبية النواب الصرب الذين شكلوا أول برلمان خاص بهم، ووقف إلى جانب إنشاء «الجمهورية الصربية» من طرف واحد قبل ان يعترف بها اتفاق دايتون في اواخر ١٩٩٥، لكنه لم ينضم إلى الحزب الديمقراطي الحاكم بقيادة كاراجيتش، وإنما تزعم فريقًا من نواب اتحاد القوى الاصلاحية الذين تحولوا إلى مستقلين. وعندما وضعت الحرب أوزارها شكل الحزب الاشتراكي الديمقراطي معتبرًا إياه منفتحًا على اوروبا واميركا.

حكومته الحالية لا تضم قوميين متشددين ولا أي مسلم في صفوفها رغم تأييد النواب المسلمين (١٨ نائبًا) له، وحمل برنامجها المعلن أهدافًا مهمة، في مقدمتها: وحدة شعبية وأرضية كاملة، مكافحة الجريمة والمحسوبية، تحقيق نهضة تنموية واسعة واستمرار بقاء مدينة برتشكو المتنازع عليها مع المسلمين ضمن سيطرة الصرب.

اعتبر المسؤولون الدوليون في البوسنة (ومعهم الدول التي تتحدث باسم المجتمع الدولي في القضية البوسنية) أن دوديك هو «المعتدل الذي يتوجب تأييده». فسارع البنك الدولي إلى منح جمهورية صرب البوسنة قرضًا بمبلغ

ميلوراد دوديك.

١٧ مليون دولار كدفعة أولى من مجموعة مساعدات تصل إلى ٦٥ مليون دولار.

* **شيشيلي، فويسلاف Seselj,Vojslav** (١٩٥٤-): زعيم الحزب الراديكالي الصربي (قومي متطرف). ولد في سارايفو. انخرط في التنظيمات الشيوعية خلال دراسته فيها، وقبل تخرجه في كلية الحقوق (عام ١٩٧٦) التي نال منها ايضًا (في ١٩٧٩) شهادة الدكتوراه عن أطروحته «مساهمة فكر تيتو في الرد الماركسي على النزعات العسكرية والفاشية وأنظمة الحكم الاستبدادي»، ما أهّله ليعمل مساعد استاذ في الجامعة نفسها (في سارايفو) حتى اعتقاله عام ١٩٨٤ والحكم عليه بالسجن ٨ سنوات بسبب «انتقاداته العنيفة في محاضراته ومؤلفاته لاسلوب التطبيق الشيوعي في يوغوسلافيا». لكنه غادر السجن بعد ٢٢ شهرًا بموجب عفو خاص بعد ان أوشك على الموت إثر اضرابه عن الطعام ٤٢ يومًا، وقيام حملة واسعة في أنحاء يوغوسلافيا تطالب بالافراج عنه بقيادة الأديب الصربي دوبريتسا تشوسيتش الذي انتخب صيف ١٩٩٢ أول رئيس ليوغوسلافيا الاتحادية (صربيا والجبل الاسود) وأقيل بعد سنة بقرار من البرلمان الاتحادي بناء على اقتراح من شيشيلي (وكان قد اصبح نائبًا) «لاخطائه الكبيرة ومساومته أعداء الصرب». وقد علق تشوسيتش على ذلك بقوله «فاق شيشيلي ما هو متوقع من أسوأ ناكر للإحسان». وبرر شيشيلي ما اقدم عليه بقوله: «اعتبر

فويسلاف شيشيلي.

تشوسيتش دائمًا والدي الروحي ولا أريد ان يخدعه الآخرون لتلويث سمعته».

تخلى شيشيلي عن أفكاره الشيوعية نهائيًا وهو في سجن سارايفو وتبنى طروحات أقصى التطرف القومي الصربي، على رغم ان بعض المصادر يرجّح بأنه كرواتي الأصل إستنادًا إلى إسمه العائلي، ويلاحظ انه يتجنب الجواب المباشر حين يُسأل عن أصله القومي.

امتهن شيشيلي التأليف السياسي المتميز بالاثارة بعد مغادرته السجن، ما وفّر له تأمين متطلبات حياته، من دون حاجته إلى العودة إلى التدريس، وفاق عدد كتبه الخمسين. وبعد انتقاله نهائيًا إلى بلغراد عام ١٩٨٨ وجد الاجواء مناسبة لاستئناف نشاطه السياسي، فأقام علاقات وثيقة مع الأكاديميين القوميين ودعاة رفع «المظالم الصربية» وفي المقدمة الاديب فوك دراشكوفيتش (وهو من البوسنة ايضًا) الذي اختاره شاهدًا في زواجه، وأشرفا معًا على تأسيس حزب النهضة الصربية الجديدة؛ إلا ان شيشيلي اعتبر، بعد فترة قصيرة، ان هؤلاء الرفاق ليسوا صربيين كما يريد. فتركهم ونشر كتابًا، على شكل محاورة، يتهم دراشكوفيتش بـ«ضعف الوعي القومي»؛ وعمل على إحياء حركة التشيتنيك (المنظمة القومية الصربية التي حاربت قوات تيتو أثناء الحرب العالمية الثانية)، وقدم طلبًا في ١٩٨٩ لتأسيس حزب باسمها، إلا انه رفض استنادًا إلى قوانين جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية الاتحادية (التي لم تكن انهارت بعد)، فغيّر إسم الحزب إلى «الراديكالي الصربي» مع الاحتفاظ بمبادىء الحركة، وحصل على الإجازة القانونية، واتخذ لنفسه لقب «قائد التشيتنيك».

تحالف شيشيلي مع سلوبودان ميلوشيفيتش، الذي اتخذه لسانًا سليطًا وسوطًا عنيفًا ضد خصومه. لكن الرجلين ما لبثا ان انقلبا إلى خصمين لدودين منذ ١٩٩٤، واعتبر شيشيلي ان ميرا ماركوفيتش حرّضت زوجها ميلوشيفيتش للوقيعة بينهما انطلاقًا من التزاماتها الشيوعية. فنشر كتابًا هاجمها بعنف تحت عنوان «لدغات الأفعى الحمراء» يقول فيه إن «ميلوشيفيتش سعى إلى تقليدي في الشفاء من الشيوعية لكن ميرا منعته» وانه يخشى ان يتمكن الاميركيون من تدمير ميلوشيفيتش بعد ان ابتعد عن الراديكاليين.

بالنسبة إلى أحداث الجبل الأسود، يعتبر شيشيلي رئيس وزراء الجبل الاسود جوكانوفيتش مرتدًا على وحدة الاتحاد اليوغوسلافي، وانه ينبغي دحره بالقوة. ويعتبر خصمه بولاتوفيتش انه «يسعى إلى مزيد من التحالف المصيري مع الصرب».

بالنسبة إلى ألبان كوسوفو، يدعو شيشيلي الصربيين إلى الزواج المبكر وإنجاب الاطفال بكثرة «أسوة بالألبان في كوسوفو الذين يسعون، بالزيادة السكانية، إلى القضاء على الصرب». وأثناء انهيار يوغوسلافيا السابقة عرض على قادة الجيش تحريك ١٠ آلاف مقاتل من حملة مبادىء التشيتنيك إلى زغرب «لترويضها»، وقصف المفاعل النووي في سلوفينيا «لتأديبها»، وتهديد الفاتيكان والنمسا بشن الحرب عليهما ما لم تتوقفا عن «محاولات إذلال الصرب».

وفي البوسنة، اتُهمت ميليشياته بارتكاب أشدّ الفضائح، وتردد انه مطلوب من المحكمة كمجرم حرب. لكنه يقول: «اقترحت مرات عدة ان أذهب إلى لاهاي متحملاً جميع مصاريف سفري، لكنهم رفضوا إعطائي تأشيرة دخول إلى هولندا»؛ ويؤكد انه إذا مثل أمام القضاة فإن ميلوشيفيتش سيقف إلى جانبه في قفص الاتهام. وكان شيشيلي مؤيدًا دائمًا لسلطة رادوفان كاراجيتش «لأنه يقود صرب البوسنة وإن لم يكن حازمًا وقويًا كما ينبغي».

يحلو لشيشيلي ان يبدي إعجابه، في مختلف المناسبات، بكل من الروسي فلاديمير جيرينوفسكي والفرنسي جان ماري لوبن، وكانا ضيفيه في بلغراد مرات عدة حيث احتفى بهما في تجمعات جماهيرية صاخبة.

تجلى صعود نجم شيشيلي من خلال اتساع دائرة حزبه في برلمان صربيا، من مقعد واحد عام ١٩٩٠ إلى ٧٣ في ١٩٩٣ فـ٨١ نائبًا في الانتخابات الاخيرة (١٩٩٧)، بينما خرج هو من جولة الاقتراع الرئاسية الثانية منتصرًا على المرشح الذي اختاره الرئيس الاتحادي سلوبودان ميلوشيفيتش وحزبه الاشتراكي رئيس يوغوسلافيا الاتحادية السابق زوران ليليتش. وكاد شيشيلي ان يصبح رئيس صربيا لولا إلغاء العملية الانتخابية برمتها لأن عدد المقترعين كان اقل بقليل من المقاطعين (جميل روفائيل، «الحياة»، العدد ١٢٦٥١، تاريخ ١٩ تشرين الاول ١٩٩٧، ص١١؛ وراجع «النبذة التاريخية»).

*** كاراجيتش، رادوفان Kardzic,R.:** (راجع «البوسنة»، ج٥، ص٣٦٥-٣٨٣؛ والنبذة التاريخية في «صربيا» في هذا الجزء، وكذلك باب «جمهورية صرب البوسنة»، وهذا الباب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

في صيف ١٩٩٧، وبعد تخليه عن رئاسة «جمهورية صرب البوسنة»، ازداد الضغط الدولي على سلطات جمهورية صربيا وجمهورية صرب البوسنة لتسليمه، كمجرم حرب، إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي، في حين أن آخر الأنباء عنه كانت تشير إلى انه مقيم في مدينة بالي. لكن «معلومات إعلامية توافرت، ربما سربتها مخابرات اميركية، منها ان كاراجيتش غادر إلى قرية مسقط رأسه في الجبل الاسود، أو انتقل إلى دير أرثوذكسي في صربيا، وأخرى انه أرسل مبعوثين إلى أديرة اليونان المعزولة في الجبال لإمكان إقامته فيها» (جميل روفائيل، «الحياة»، العدد ١٢٥٦٧، تاريخ ٢٧ تموز ١٩٩٧، ص١٢).

*** كرايشنيك، مومتشيلو (١٩٤٥-):** عضو مجلس رئاسة اتحاد البوسنة ممثلاً جمهورية صرب البوسنة، بعد ان تركت بيليانا بلافيتش هذا المنصب لتصبح رئيسة جمهورية صرب البوسنة. والعضوان الباقيان في مجلس رئاسة اتحاد البوسنة هما: علي عزت بيكوفيتش (عن المسلمين)، وكريجمير زوباك (عن الكروات).

ولد مومتشيلو كرايشنيك في سارايفو. يحمل شهادة ماجستير في الاقتصاد. قضى حياته العملية في المناصب الرفيعة في المقر الرئيسي لشركة «أينيرغواتفيست» الصناعية الضخمة في سارايفو. لم يكن عضوًا في رابطة الشيوعيين اليوغوسلاف. اعتقل خلال عمله في الشركة لمدة ٩ أشهر بسبب تهمة حول اختلاسات مالية، فتعرف

مومتشيلو كرايشنيك.

في السجن على رادوفان كاراجيتش الذي كان معتقلاً آنئذ بتهمة مشابهة.

يوصف بالرجل «الهادىء البارد الاعصاب». الوسطاء الدوليون يطلقون عليه لقب «مستر نو» أي «السيد لا» لأنه كثيرًا ما يجيبهم بـ«لا»، ويسود الاعتقاد بأنه المسؤول عن فشل خطة فانس وأوين (وهي أول خطة وضعت لتقسيم البوسنة وإنهاء الحرب) التي كان كاراجيتش قد وقعها في أثينا في ١٩٩٣.

*** ليليتش (جينجيتش)، زوران Lilic,Zoran** (١٩٥٢-): زعيم الحزب الديمقراطي في صربيا. ولد في مدينة شاماتس (شمالي البوسنة، وهي مسقط رأس الرئيس البوسني علي عزت بيكوفيتش)، وأنهى دراسته الابتدائية والثانوية فيها، وانتقل إلى بلغراد حيث انضم إلى رابطة الشيوعيين (الحزب الشيوعي اليوغوسلافي بزعامة تيتو) وتخرج من كلية الفلسفة في ١٩٧٤. وبسبب نزاعه مع قادة التنظيم الشيوعي الطلابي على الزعامة، غادر إلى المانيا (الاتحادية في حينه، أي المانيا الغربية) وانضم إلى التجمعات الفوضوية الثورية التي كانت قائمة آنذاك، وسكن في كومونات طلابية حتى حصل على الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٧٩، وكانت أطروحته حول «المشاكل الصعبة التي تواجه النظرية النقدية في المجتمعات السياسية». بعد ذلك، عاد إلى صربيا وعمل محاضرًا في جامعة نوفي ساد (عاصمة مقاطعة فويفودينا)، ثم حصل على وظيفة مدرّس في كلية الفلسفة في بلغراد، وترجم كتبًا عدة تدور كلها حول

«اليسار» في الالمانية إلى الصربية. وهو صاحب جريدة «تلغراف» الاسبوعية التي تصدر في بلغراد.

بعد إطلاق حرية النشاط الحزبي في يوغوسلافيا السابقة عام ١٩٩٠، شارك في تاسيس الحزب الديمقراطي. وفي السنة ذاتها انتخب نائبًا في برلمان جمهورية صربيا عن بلدية فراتشار في بلغراد. وفي ١٩٩٢، صار عضوًا في القيادة العليا للحزب الديمقراطي ثم رئيسًا له في ١٩٩٤، لكن بعد صراع مع رئيس الحزب السابق أدّى إلى انقسام الحزب إلى ثلاثة تنظيمات.

أيّد ليليتش الرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش وجعله هذا الأخير مبعوثه الخاص لحل الخلافات في مقدونيا ودول بلقانية أخرى. فتردّد، منذ ١٩٩٤، ان ميلوشيفيتش يعده ليكون رئيسًا لوزراء صربيا على رغم ان حزبه الديمقراطي يأتي في المرتبة الرابعة في تسلسل الاحزاب البرلمانية بعد الاشتراكي والنهضة والراديكالي. وتعاون ليليتش لبعض الوقت مع زعيم الحزب الراديكالي فويسلاف شيشيلي الذي اقترفت ميليشياته جرائم في البوسنة. وله ايضًا علاقات وثيقة مع قيادة الحزب الديمقراطي الصربي في البوسنة الذي يتزعمه رادوفان كاراجيتش.

لكن ليليتش غيّر من خطه السياسي منذ منتصف ١٩٩٦، وشكل جبهة معارضة لخوض الانتخابات البلدية والبرلمانية الاتحادية مع كل من زعيم حزب النهضة الصربية الجديدة فوك دراشكوفيتش، ورئيسة الاتحاد المدني فيسنا بيشيتش؛ ولفت الانتباه العالمي نحوه في خضم التظاهرات الصاخبة التي امتدت أكثر من أربعين يومًا (اواخر ١٩٩٦- اوائل ١٩٩٧) احتجاجًا على إصرار السلطات على إلغاء نتائج الانتخابات البلدية (جميل روفائيل، «الحياة»، ٨ كانون الاول ١٩٩٦؛ وراجع «النبذة التاريخية»).

* **ملاديتش، راتكو** (١٩٤٢-): جنرال وزعيم صربي بوسني. القائد العام لقوات صرب البوسنة في الحرب البوسنية الأخيرة التي اندلعت عقب انهيار يوغوسلافيا الاتحادية.

اتهم بالكثير من أعمال العنف والقتل والابادة، ولم ينفِ مثل هذه الاتهامات بل كان في احيان كثيرة يتباهى بها في احاديث صحافية: «أمرت باطلاق اول قذيفة مدفع على سارايفو، وظللت أمعن النظر طويلاً من موقع متقدم لأتأكد من مدى فاعليتها في القتل والتدمير، وما أحدثته من ألسنة النيران وأعمدة الدخان». إسمه «راتكو» يعني «رجل حرب»، وقبل ان ينهي عامه الاول، أي في ١٩٤٣، قتل المتطرفون الكروات «الأوستاش» والده وكثيرين من أقاربه.

تخرج في الكلية العسكرية اليوغوسلافية، وعين ضابطًا في حامية مدينة سكوبيا عاصمة مقدونيا حيث ظل هناك نحو ٢٠ عامًا حتى بدأت يوغوسلافيا بالانهيار. منحه الرئيس الصربي، سلوبودان ميلوشيفيتش، في اواخر ١٩٩١، رتبة جنرال وأوكل إليه قيادة قوات الجيش اليوغوسلافي التي كانت بدأت الحرب مع الكروات في منطقة سلافونيا الشرقية (شرقي كرواتيا)، فأدّى مهمته بنجاح وتمكن من حماية كل مناطق الصرب هناك واقتطاعها عن جمهورية كرواتيا التي كانت تتأهب لاعلان استقلالها. ثم اختاره ميلوشيفيتش قائدًا لفيلق كنين (عاصمة منطقة كراينا ذات الغالبية الصربية في جنوبي كرواتيا)، في وقت كان الجيش اليوغوسلافي يحاول منع جمهورية كرواتيا من الاستقلال، ويشن الصرب في كراينا حربًا لفصل منطقتها عن كرواتيا. وعند اندلاع الحرب في البوسنة ووصول قوات الامم المتحدة لحماية الصرب في كراينا، استدعي ملاديتش لقيادة قوات الصرب في البوسنة، بما فيها من وحدات الجيش اليوغوسلافي والميليشيات الصربية المختلفة.

كان يُشاع إبان حرب البوسنة، بوجود خلافات بين رادوفان كاراديتش (القائد الصربي السياسي لهذه الحرب) وبينه، في شأن القصف والتهجير والتطهير العرقي وإعاقة مهمات الامم المتحدة وضرب مواقع القوات الدولية. لكن الوقائع أثبتت أن هذا الأمر إنما كان من قبيل توزيع الادوار، بدليل ان الرجلين أصبحا مطلوبين إلى محكمة العدل الدولية كمجرمي حرب.

* **ميلوتينوفيتش، ميلان** (١٩٤١-): رئيس جمهورية صربيا الحالي ولد في بلغراد. التقى ميلوشيفيتش مع بدء دراستهما في كلية الحقوق في جامعة بلغراد (١٩٦١). وعندما أصبح ميلوشيفيتش عضو اللجنة القيادية لرابطة الشيوعيين في الكلية، وفّر مجالات التقدم لصديقه ميلوتينوفيتش الذي ارتقى اول منصب سياسي في حياته وهو في العشرين من العمر، حين اصبح عضو لجنة العلاقات الخارجية في اتحاد الشبيبة الاشتراكية اليوغوسلافية. وواصل علو شأنه الحزبي والحكومي بعد تخرجه من كلية الحقوق في ١٩٦٥ بما ينسجم مع بروز نجم رفيقه ميلوشيفيتش. فأصبح رئيسًا لمنظمة الشيوعيين في بلدية فراتشار (وسط بلغراد) ونائبًا في البرلمان ووزيرًا

للتربية والتعليم في حكومة جمهورية صربيا.

في اواخر ايام يوغوسلافيا السابقة (١٩٨٩) تم تعيين ميلان ميلوتينوفيتش سفيرًا لدى اليونان، وهو منصب دبلوماسي مهم بالنسبة إلى سياسة بلغراد في الاوقات جميعًا، ظل يشغله حتى ١٥ آب ١٩٩٥ عندما اختاره الرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش ليكون وزيرًا للخارجية خلفًا لصديقه الآخر فلاديسلاف يوفانوفيتش الذي عينه مندوبًا ليوغوسلافيا (اتحاد صربيا والجبل الاسود) في الامم المتحدة. ثم أصبح ميلوتينوفيتش عضوًا في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الصربي.

يعرف ميلوتينوفيتش بعدم ثباته على موقف سياسي معين، وإلى حد يمكنه التصريح من دون حرج بشكلين متناقضين لقضية واحدة في يوم واحد، كما حصل مثلاً، في مسائل التعاون مع محكمة جرائم الحرب في لاهاي وتقرير رئيس الوزراء الاسباني السابق فيليبي غونزاليس حول الانتخابات المحلية في صربيا الذي اعتبره صباحًا «بناءً»، ثم انتقده مساءً «لما ساده من تخبط وعدم الاطلاع على حقيقة الامور». ويشير المراقبون إلى ان هذه هي إحدى خصاله التي اكتسبها من «الدروس البليغة التي أخذها عن موجّه دربه ميلوشيفيتش».

وسجل ميلوتينوفيتش يحتوي على الكثير من «النقاط السوداء»، منها مشاركته في «حملة التطهير الواسعة» التي أجريت منتصف السبعينات لطرد «الرجعيين المشاغبين» الاساتذة والطلبة في كلية الفلسفة في جامعة بلغراد، كما ان المعلومات تشير إلى ضلوعه بصفقات تجارية شكلت فضائح أثناء وجوده سفيرًا في أثينا بينها توسطه في بيع أربع طائرات «كانادير» يوغوسلافية خاصة باطفاء الحرائق لليونان.

يتكلم ميلان ميلوتينوفيتش الانكليزية والفرنسية بطلاقة. اصبح رئيسًا بصورة رسمية اعتبارًا من ٢٩ كانون الاول ١٩٩٧ عندما أدّى اليمين الدستورية امام نواب البرلمان الصربي ولمدة خمس سنوات. وكان رشحه لرئاسة صربيا تكتل اليسار الذي يضم احزاب الاشتراكي واليسار المتحد والديمقراطية الجديدة باقتراح من «موجّهه وصديقه» الرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش، بعد أن أخفق مرشح اليسار السابق زوران ليليتش في التفوق على منافسه الراديكالي فويسلاف شيشيلي.

وتسود القناعة على نطاق واسع في صربيا، إضافة إلى قناعة المراقبين المحليين والاجانب، بأنه لولا التجاوزات وحشو صناديق الاقتراع بالاوراق غير الشرعية لصالح

ميلان ميلوتينوفيتش.

ميلوتينوفيتش، لما تمكن من تحقيق الفوز.

وخلال الحملة الانتخابية تكلم ميلوتينوفيتش كثيرًا عن «صيانة الوجود الصربي والبوسنة وكوسوفو والبلقان والعلاقة مع اوروبا والمجتمع الدولي ومقاومة الضغوط الساعية إلى إذلال الصرب وتدمير شملهم». لكنه ظلّ يصوغها بالعبارات التي يستخدمها ميلوشيفيتش في القضايا ذاتها. والأمر الجديد المهم الذي سينجزه في رئاسته هو إبعاد «كارثة» شيشيلي عن رئاسة صربيا خلال الاعوام الخمسة المقبلة. ولعله الدافع الذي جعل وزير خارجية ألبانيا باسكال ميلو يرحب بانتخابه، وان يصفه بـ«العامل المهم في تخلي بلغراد عن نهج العنف» (عن جميل روفائيل، «الحياة»، العدد ١٢٧٢٦، تاريخ ٤ كانون الثاني ١٩٩٨، تيارات).

*** ميلوشيفيتش، سلوبودان Milosevic,S.**

(١٩٤١-): الرئيس الاتحادي الحالي ليوغوسلافيا (صربيا ومونتينيغرو) ورئيس جمهورية صربيا سابقًا وزعيم الحزب الاشتراكي (الشيوعي الصربي سابقًا).

أصله من صرب الجبل الاسود (مونتينيغرو). كان والده رجل دين ارثوذكسيًا ومعاديًا للشيوعية في منطقة

سلوبودان ميلوشيفيتش.

الحدود مع البوسنة-الهرسك، وعندما اشتدت قوة وحدات الانصار الشيوعيين (بزعامة تيتو) في تلك المنطقة أثناء الحرب العالمية الثانية، اضطر للرحيل مع عائلته، واختار مدينة بوجاريفاش إلى الشرق من بلغراد بنحو ٨٠ كلم، إلا انه انتحر بعد فترة قصيرة حين امتد نشاط الانصار إلى هذه المدينة ايضًا، وترك عائلته في فقر مدقع. وهنا، ولد سلوبودان (١٩٤١).

أتمّ دراسته الابتدائية والثانوية متفوقًا، لكنه منطويًا على نفسه. انخرط في تنظيم الشبيبة الاشتراكية مبكرًا وبرز فيه كقائد طلابي. واصبح عضوًا في رابطة الشيوعيين وهو طالب في ثانوية بوجاريفاش. وواصل دراسته في كلية الحقوق في بلغراد، حيث اختير رئيسًا للجنة الايديولوجية في الجامعة.

بعد تخرجه، لم يمارس المحاماة، وإنما اتجه نحو وظائف الدولة في المجالات الاقتصادية. فعمل مستشارًا اقتصاديًا لمحافظ بلغراد، ونائب مدير عام لشركة تسويق النفط والغاز، ورئيس اتحاد مصارف بلغراد، ثم موظفًا في فروع المصارف اليوغوسلافية في لندن لمدة اربع سنوات.

ووجد ميلوشيفيتش ضالته في ارتقاء الدرجات الحزبية العالية عندما تعرف على ميرا ماركوفيتش، الدكتورة في العلوم الاجتماعية والاستاذة في جامعة بلغراد، والتي كانت عائلتها في حينه مؤثرة جدًا لوجود العديد من افرادها في أعلى مراكز الحزب والحكومة والدولة. فتزوجها، وأصبح بعد فترة قصيرة رئيسًا لشيوعيي بلغراد وعضوًا في اللجنة المركزية لرابطة الشيوعيين الصرب ورئيسًا للجنة الاقتصادية فيها، ثم عضو هيئة رئاستها، ثم رئيسًا لها في ١٩٨٧.

وعلى الرغم من ان هذا المنصب كان يقتضي ان يخضع لتوجيهات هيئة رئاسة رابطة الشيوعيين التي كانت أعلى سلطة في الدولة، فإن ميلوشيفيتش شرع يتجاهل مواقفها. فكان يعدها ثم يخالف وعده غير آبه بالانتقادات الصادرة من اعضائها الذين كانوا ما يزالون من رعيل تيتو (المتوفي منذ ١٩٨٠). وقد أرضى تصرفه هذا قطاعًا صربيًا واسعًا وجعل إسمه ينتشر جماهيريًا.

استغل ميلوشيفيتش وثيقة الاكاديمية الصربية (راجع «النبذة التاريخية») وعرض نفسه كمنفّذ لها. وبدأ في إبراز زعامته من كوسوفو حيث مشكلة مطالب الأكثرية الألبانية، فطمأن الأقلية الصربية هناك بقوله لهم: «اطمأنوا لن يستطيع أحد بعد اليوم ان يرفع يده ويضربكم، إنكم أصل كوسوفو».

وسرعان ما انتشرت هذه الكلمة في أرجاء صربيا، وغدت قولاً مأثورًا إلى جانب صوره التي ظهرت في الشوارع ودخلت البيوت والمكاتب وهي تزيح صور تيتو، مما وفّر له الذريعة لاتخاذ المزيد من الخطوات «التي ترفع الحيف عن الصرب». فقام الصرب ومؤيدوهم، بمباركة علنية منه، بانتفاضة في كل من جمهورية الجبل الاسود وإقليم فويفودينا ذي الحكم الذاتي في صربيا، أدت إلى عزل كبار المسؤولين فيهما وفرض قيادة جديدة في كل منهما مؤيدة لميلوشيفيتش. ولكنه لم يتمكن من إثارة انتفاضة مماثلة في كوسوفو مما جعله يعمد، مطلع ١٩٨٩، إلى إصدار دستور جديد لجمهورية الصرب يلغي منطقتي الحكم الذاتي (كوسوفو وفويفودينا). وقد استخدم الألبان كل قوتهم لمنع فرض الدستور، إلا انه تمت الموافقة عليه من قبل السلطات اليوغوسلافية العليا حينذاك، بعد ان شهدت بلغراد تجمعًا ضم أكثر من مليون شخص هدّدوا بالزحف على كوسوفو.

واعتبر قادة الجمهوريات الاخرى، وخاصة سلوفينيا وكرواتيا ان ميلوشيفيتش يعمل «لاعادة هيمنة

الملكية الصربية ويفرض نفسه خليفة تيتو». واشتدت الخلافات وظلّ هو متمادياً في نهجه. وبقدر ما حظي من تأييد الصرب فإنه لقي معارضة من غيرهم الذين وصفوه بأنه «أبو المشاكل». وشرعت قيادات سلوفينيا وكرواتيا بالعمل على ترسيخ المؤسسات الذاتية الحزبية والحكومية في الجمهوريتين، الأمر الذي اعتبر في حينه بداية انهيار «جمهورية يوغوسلافيا الاشتراكية الفدرالية» مع تحميل ميلوشيفيتش مسؤولية ذلك، وانتشرت الدعوة بسرعة بين القوميات لمجابهة المد الصربي بتعزيز وجودها وزيادة الالتزام باستقلاليتها.

في هذه الأثناء، أواخر ١٩٨٩، تمّ السماح بالتعددية الحزبية وبرزت على الساحة الاحزاب القومية. وانتخب ميلوشيفيتش رئيساً لجمهورية صربيا، وشكل حزباً جديداً على أرضية رابطة شيوعيي صربيا باسم «الحزب الاشتراكي» الذي تبنّى خطاً قومياً، إضافة إلى النهج الاشتراكي العالمي.

وميلوشيفيتش لا يخفي انه يسعى إلى صربيا الكبرى التي تعني بمفهومه جمع كافة الاراضي ذات الغالبية من السكان الصرب في دولة واحدة (راجع العنوان الفرعي «صربيا الكبرى»، في النبذة التاريخية).

ولتحقيق سياسته لا يترك أي عائق امامه حتى ولو كان حليفاً، ولكنه لا يستعمل العنف بل الطرق «الديمقراطية». وهو صلف وحازم في تعامله. زوجته ميرا ماركوفيتش رفضت الوقوف معه في التحول عن الشيوعية، وانضمت إلى العدد القليل من أعضاء الرابطة الذين عارضوا تحويل الرابطة الشيوعية إلى الحزب الاشتراكي (١٩٩١)، واعادوا تنظيمها باسم «تجمع اليساريين اليوغوسلاف» من دون إجراء تغييرات جوهرية في أسسها، سواء بشموليتها لجميع اراضي يوغوسلافيا السابقة أو وفائها لخط النظام والدولة الذي انتهجه تيتو، وانتخبت ميرا عضواً في هيئة رئاسة التجمع (جميل روفائيل، «الحياة»، تيارات، العدد ٣٨؛ و«الحياة»، تاريخ ٣٠ حزيران ١٩٩٦؛ وراجع النبذة التاريخية ومختلف الأبواب والموضوعات التي تقع احداثها في السنوات العشر الأخيرة، حيث يبرز الرئيس سلوبودان ميلوشيفيتش في قلب هذه الاحداث إن لم يكن صانعها).

الصومال

بطاقة تعريف

الاسم: جمهورية الصومال الديمقراطية. دعاها المصريون القدماء «أرض البونت» Punt، والرومان «أرض العطر والطيب»، والعرب «أرض الأغيار» أو «الأغراب» وايضًا «أرض الصومال، و«صو» و«مال» تعني باللغة الصومالية «إذهب واستدرّ الحليب» (من الماشية لتقديمه للضيوف)، كما تعني «شعب غني بالماشية».

الموقع والمساحة: في منطقة القرن الافريقي. مساحته ٦٣٧٦٥٧كلم م.. مساحة الصومال الايطالي (سابقًا) ٤٦٢٥٣٩كلم م.، والصومال البريطاني (سابقًا) ١٧٦١١٨كلم م.. يبلغ طول حدود الصومال ٢٥٠٠كلم (١٥٤٠ مع إثيوبيا، و٧٠٠ مع كينيا، و٨٠ مع جيبوتي)، وطول شاطئه ٣٢٠٠كلم (على المحيط الهندي).

العاصمة: موقاديشو. أهم المدن: كيسماو، هارغيزا، بربره، مركا، بوركو، بيداوه (راجع «مدن ومعالم»).

اللغات: الصومالية والعربية (رسميتان)، والايطالية والانكليزية.

السكان: بلغ عددهم في إحصاء ١٩٩١ (آخر إحصاء) ٧،٦٩١ مليون نسمة. وتشير التقديرات إلى انهم لن يتعدوا ٨ ملايين نسمة في العام ٢٠٠٠. نحو ٧٥٪ منهم ما يزالون يعيشون حياة البداوة. نحو ٩٩،٥٪ منهم مسلمون سنيون (راجع «الاسلام والحركات الاسلامية في الصومال» في «افريقيا»، ج٢، ص١٩٢) والأقلية القليلة جدًا المتبقية (٠،٥٪) موزعة بين

مسلمين شيعة، وكاثوليك (نحو ٢٠٠٠ شخص من اصل ايطالي) وإحيائيين (الاحيائية، معتقد افريقي أصلي).

الحكم: جمهوري ديمقراطي، بموجب الدستور الصادر في ٢ كانون الاول ١٩٨٤، وقد حلّ محله (بصفة مؤقتة) دستور ٦ تشرين الاول ١٩٩٠. تقسم البلاد، اداريًا، إلى ١٥ منطقة ووضع إداري خاص بالعاصمة موقاديشو، وإلى ٦٤ قضاء. الجمعية العمومية (البرلمان) من ١٧١ عضوًا منتخبين، و٦ معينين. هذا الوضع الدستوري جرى تعليقه فعليًا مع اندلاع الحرب الاهلية عقب وفاة الرئيس سياد بري.

الاقتصاد: الصومال أحد أفقر البلدان العشرة في العالم. ٨٢٪ من اليد العاملة في الرعي والزراعة. والمناطق الزراعية لا تغطي سوى ٢٪ من مساحة البلاد، وأهم زراعتين: الذرة الصفراء والذرة البيضاء. أما الثروة الحقيقية فتكمن في تربية الماشية: الجمال، الماعز والاغنام التي تصدر إلى العربية السعودية بشكل أساسي وتشكل ٨٥٪ من مجموع الصادرات الصومالية. كان الاعتقاد السائد انه لا وجود للثروات المنجمية في البلاد. لكن بعد تصريح الرئيس سياد بري (آذار ١٩٨١) عن «اكتشاف كميات جيدة من معدن الأورانيوم في الصومال»، بدأ الحديث عن وجود مناجم لم تستثمر بعد: الحديد، القصدير، المنغنيز، الجيبس، الاورانيوم والنفط.

نبذة تاريخية

في الاصول: يميل المؤرخون إلى الاعتقاد بأن احداد الصوماليين أتوا من شبه الجزيرة العربية بين القرن السابع والقرن التاسع. والرواية التاريخية التي ما يزال يتناقلها الصوماليون تعكس اعتزازهم بانتسابهم إلى القبائل العربية، وبالأخص قبيلة قريش، كما يفخرون بأنهم يشكلون مجتمعًا موحدًا بالدين والتقاليد واللغة، وإن كان هناك لهجات عدة محلية. وهذه الميزة غير متوافرة في البلدان الافريقية التي تضم، في معظمها، عدة اتنيات ولغات متنوعة.

عن السفر التاريخي المهم، «تاريخ افريقيا»، (الذي وضعته الأونسكو في السنوات الأخيرة، وساهم مؤلف هذه الموسوعة في تصحيح ترجمته العربية وهي قيد الطبع في بيروت حاليًا-١٩٩٧- وفي عدة أجزاء) ننقل بعض الفقرات (في الجزء الخاص بـ«افريقيا من القرن السادس عشر إلى القرن الثامن عشر»، ص٧٩٧-٧٩٨) التي تستكمل هذا العنوان الفرعي، «في الاصول»:

ثمة اتفاق عام على ان الموطن الاصلي للصوماليين كان يقع في شمالي المنطقة التي يعيشون فيها اليوم. وقد انتشروا من هذه المنطقة، ابتداء من القرن الحادي عشر على الأرجح، في اتجاه الجنوب والغرب. ويتحدث الجغرافيون العرب، ابتداء من

القرن الثالث عشر، عن المستوطنات الصومالية في منطقة ميركا، إلى الجنوب من المدينة التي تعرف اليوم باسم موقاديشو. ولما كان الصوماليون رعاة رحّلاً، قد دفعتهم الزيادة السكانية إلى البحث عن مراع جديدة في اتجاه المرتفعات الاثيوبية، ومن المرجح انهم بلغوا الحافة الشرقية لهضبة هرر حوالي سنة ١٥٠٠، ما أتاح لهم الاتصال بالدول الاسلامية فيها. وتفيد الأسماء وبيانات الانساب التي تركها كاتب الحوليات شهاب الدين، انهم اضطلعوا بدور مهم في مساندة الامام أحمد غران في جهاده.

وحتى اليوم فإن الأثر الحافز والموحد للتأثير العربي-الاسلامي الذي مارسته المدن الواقعة على الساحل الشمالي والشرقي لبلاد الصومال والدول الاسلامية في جنوب شرقي اثيوبيا (عدل، دوارو، وغيرهما) كان أكبر على الصوماليين منه على أي شعب آخر من شمال شرقي افريقيا. وأصبح الإسلام عامل توحيد في الحضارة الصومالية مما يتعارض بشدة مع تأثيره على شعوب كوشية أخرى تربطها بالصوماليين وشائج ثقافية، مثل الأورومو والهدية. وكانت شدة إيمان الصوماليين تعزز باستمرار من جانب الدعاة الذين تدفقوا من الجزيرة العربية. وأصبح هؤلاء هم الأولياء الصالحين للشعب الصومالي وآباءه المؤسسين، ومنهم اسماعيل الجبرتي الشهير الذي انحدر من صلبه كثير من أبناء الصومال.

وقد أعطى التأثير العربي-الاسلامي للصوماليين إحساسًا بالتفوق الحضاري وعزّز من قدرتهم على تمثّل غيرهم من الجماعات التي تمت إليهم بالقرابة في المنطقة الشاسعة الواقعة بين أوغادين وبحيرة توركانا. وكانت قد تكونت هنا، من قبل مجيء الاسلام، سلسلة كاملة من الجماعات العرقية المختلفة، تنتمي أساسًا إلى اللغة والحضارة الكوشية وتعتمد جميعها على أنشطة تربية الماشية. ويبرهن وجود الرنديلي على اشتراك الصوماليين في هذه العملية قبل هجراتهم الكبرى نحو الشمال الشرقي والجنوب الغربي. ومن المشكوك فيه ان يكون زنوج، ربما من البانتو، قد سكنوا هذه المنطقة يومًا ما.

الاستعمار: في القرن السابع عشر والثامن عشر، كان التنافس على أشده على مرافىء الساحل الصومالي بين أئمة عُمان ومسقط وبين البرتغاليين. فالبحار البرتغالي الشهير فاسكو دي غاما أعطى وصفًا مستفيضًا لموقاديشو التي كانت مرفأ مهمًا جدًا باستقباله السفن من الهند والصين (وقبل ذلك، أي في القرن السادس عشر، كان هذا المرفأ تحت ادارة أو ملكًا لعائلة من الأشراف المسلمين هي آل مظفر).

يبدأ التاريخ الحديث للصومال مع الاستعمارين الانكليزي والايطالي بين ١٨٨٠ و١٨٩٠. وقبل هذا العقد من القرن الماضي، وتحديدًا في ١٨٥٥، كان المستكشف الانكليزي بورتن Burton قد نزل في منطقة بربره. ثم بسط الانكليز نظام حمايتهم عليها. وورث المصريون (في عهد الخديوي اسماعيل) الاتراك، وبسطوا نفوذهم على ما تبقى من الساحل الشمالي للصومال، في حين أقام الفرنسيون في خليج تاجورة (جيبوتي). وعندما أخضع الانكليز مصر (١٨٨٢) نالوا بالطبع حصتها من الساحل الصومالي، واقاموا، منذ ١٨٨٧، المحمية البريطانية أو «صوماليلند». ومن جهتهم، وضع الايطاليون أقدامهم في أريتريا، وأحكموا سيطرتهم على مناطق الداخل بعد سلسلة من الحملات العسكرية.

محمد عبد الله حسن: (ابتداءً من هذا العنوان الفرعي وصولاً، بالسياق التأريخي إلى العام ١٩٨١، مرجعه الأساسي: «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٣، ط١، ج٣، ص٦٧٢-٦٧٨؛ والمادة،

«الصومال» كان قد كتبها في المرجع المذكور مؤلف هذه الموسوعة).

لم تمر سنوات قليلة حتى اصطدم الاستعماران الانكليزي والايطالي بثورة الزعيم الديني محمد عبد الله حسن، المعروف بجرأته النادرة، وقد أطلق الانكليز عليه لقب «الملاّ المجنون».

ولد محمد عبد الله حسن في ١٨٦٤ في منطقة أوغادين. حجّ إلى مكة المكرمة وهو بعد شاب يافع، ثم انتسب إلى إحدى الجمعيات الدينية المسماة «الصالحية». بشّر بضرورة عودة الاسلام إلى أصالته وصفائه، وحارب القدرية، وجاهد في سبيل توحيد الصوماليين، وفرض على أتباعه اعتمار عمامة الدراويش البيضاء، وحرّم عليهم القات والتبغ، وحذا حذو المهدي في السودان باعلانه الحرب المقدسة ضد الانكليز في ١٨٩٩. وكان هذا الاعلان بداية حرب ضروس امتدت عشرين سنة كاملة. وبعد سلسلة من المعارك ضد الانكليز والايطاليين، وأحيانًا ضد الاثيوبيين، انتزع محمد عبد الله حسن حق السيادة على مناطق وادي نوغال ضمن نظام الحماية الايطالية بشرط عدم تجدد العمليات العسكرية. ولكن، ما لبثت الانتفاضة ان نشبت من جديد بزعامته في ١٩٠٨، فأجبر الانكليز على الإنكفاء حتى الساحل. وفي ١٩١٣، أنزلت قواته هزيمة بالقوات الانكليزية التي كان يقودها الكولونيل كورفيلدو الذي قتل أثناء المعركة.

استمرت مقاومة محمد عبد الله حسن سبع سنوات أخرى، وأجرى مع الاتراك وامبراطور اثيوبيا (ليدجي يسوع المعروف عنه انه اعتنق الاسلام وفقد من جراء ذلك عرشه) حلفًا مؤقتًا خلال الحرب العالمية الاولى ليتفرّغ للانكليز والايطاليين.

واستطاع ونستون تشرشل، باصداره الامر باستعمال الطيران الحربي، ان ينال من الزعيم الصومالي الذي تعرضت منطقته للقصف الشديد (١٩٢٠)، ونجا من الموت، إلا ان قواته العسكرية أصيبت بانهيار كامل، فلجأ إلى اثيوبيا حيث وافاه الاجل على أثر مرض (١٩٢١).

بعد ذلك عمل الانكليز والايطاليون على تسوية أوضاعهما الاستعمارية ورسم حدود مناطقهما في الصومال. واستمر الوطنيون في مناهضة الاستعمار، وتعرّض الحاجي فرح عمر (راجع «زعماء، رجال دولة وسياسة»)، وهو مثقف وأحد تلامذة غاندي وأتباعه إلى الاعتقال والسجن عدة مرات على يد الانكليز.

وفي ١٩٣٤، وقع حادث حدودي في منطقة وال-وال، سرعان ما تطور إلى مجابهات عسكرية بين الايطاليين والاثيوبيين، ما لبث الايطاليون ان استخدموها، في ١٩٣٦، كمبرر لاجتياح اثيوبيا. فأعلن موسوليني، على الأثر، قيام «افريقيا الشرقية الايطالية» والتي تضم أريتريا-اثيوبيا-الصومال. وتوسعت حدود مقاطعة الصومال حتى شملت أوغادين ومناطق الهود Haud.

في الحرب العالمية الثانية وبعدها، مشروع «الصومال الكبير»: في ١٩٤١، وضعت جميع اراضي «افريقيا الشرقية الايطالية» (أريتريا-اثيوبيا-الصومال) تحت الادارة البريطانية على أثر هزيمة ايطاليا في اثيوبيا. وفي ١٩٤٦ (بعد الحرب وانتصار الحلفاء)، تشكلت لجنة رباعية (بريطانيا، فرنسا، الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة) للنظر في مصير المستعمرات الايطالية السابقة. وفي السنة نفسها، اقترح وزير الخارجية البريطاني، أرنست بيفن، انشاء «الصومال الكبير» الذي يضم تحت الوصاية البريطانية الصومال الايطالي السابق والصومال البريطاني والساحل الفرنسي وأوغادين وهود، وكذلك المناطق الحدودية المحاذية لكينيا. إلا ان هذا المشروع جوبه بمعارضة شديدة من أطراف

اللجنة الآخرين ومن اثيوبيا التي كانت تطالب بأوغادين والهود، ولكنه لقي دعم أحد التشكيلات السياسية الاولى في الصومال، وهو «نادي الشبيبة الصومالية» الذي تأسس في موقاديشو عام ١٩٤٣، والذي أصبح يُعرف بـ«جامعة الشبيبة الصومالية» عام ١٩٤٧. وفي ١٩٤٨، ضُمّت أوغادين إلى اثيوبيا. وفي ١٩٤٩، قررت هيئة الامم المتحدة وضع الصومال الايطالي سابقًا تحت الوصاية الايطالية لمدة عشر سنوات، يعترف عند انتهائها باستقلال البلاد.

الاستقلال والوحدة: جرت أول انتخابات عامة، في ١٩٥٦، أكدت فوز «جامعة الشبيبة الصومالية» التي شكلت أول حكومة وطنية برئاسة عبد الله عيسى. وما لبثت هذه الحكومة ان اصطدمت بمعارضة تشكيل سياسي آخر مقرّب من مصر هو «جامعة الصومال الأكبر» الذي كان يتزعمه الحاجي محمد حسين. وكان إلحاق الهود باثيوبيا، عام ١٩٥٤، قد أثار موجة من الاعتراضات في الصومال البريطاني. وقد تأطرت هذه الاعتراضات في تشكيل حزب سياسي معارض بزعامة مايكل ماريانو دعي «جبهة الاتحاد الوطني». وفي ١٩٥٧، أسست بريطانيا مجلسًا تشريعيًا في الصومال البريطاني كانت تعين جميع أعضائه. وتحت تأثير الضغط المتزايد من اجل الوحدة مع الصومال الايطالي، اعترفت لندن باستقلال الصومال البريطاني قبل ايام قليلة من انتهاء مدة الوصاية المقررة. وتحققت الوحدة فورًا بين الصوماليين (وهو مثل فريد في تاريخ التحرر من الاستعمار)، واندمجت الجمعيتان التشريعيتان، وانتخب عبد الله عثمان رئيسًا للجمهورية، وعبد العزيز علي شرمايكة رئيسًا للوزراء، وهما من قادة «جامعة الشبيبة الصومالية»، واصبح محمد ابراهيم عقال، رئيس وزراء الصومال البريطاني سابقًا وزعيم «جامعة الصومال الوطنية» وزيرًا للدفاع، وعبد الله عيسى وزيرًا للخارجية. وبذلك بدأ تاريخ الصومال المستقل.

ديمقراطية برلمانية لعقد واحد من الزمن (١٩٥٧-١٩٦٧): منذ الايام الاولى للاستقلال عادت قضية «الاراضي المنسلخة» (أوغادين، هود، المقاطعة الشمالية على حدود كينيا، وما عُرف بعد ذلك بـ جيبوتي...) لتطرح من جديد. ففي ١٩٥٩، جاء محمود حربي، الزعيم القومي للساحل الصومالي الفرنسي (جيبوتي) الذي كان قد قال «لا» للاستفتاء الذي دعا إليه ديغول في افريقيا الفرنسية، جاء ليقيم في موقاديشو بعد ان أقام مدة في القاهرة. وفي آب ١٩٦٠، زار وفد يمثل صوماليي المقاطعة الشمالية على حدود كينيا مدينة نيروبي ليطالب بانضمام إقليمهم إلى الصومال. إلا ان الوفد لم يلق أذنًا صاغية. وفي ١٩٦١، وقع أول حادث حدودي مع اثيوبيا، وذلك بعد قليل من توقيع الصومال لاتفاق عسكري مع الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسورية). وعشية اعلان استقلال كينيا، في ١٩٦٣، توترت علاقات الصومال مع لندن التي رفضت ضم الاراضي التي يطالب بها الصومال. فسارع الصومال إلى قطع علاقاته الدبلوماسية مع بريطانيا. وفي ١٩٦٤، تجدّدت حوادث الحدود مع اثيوبيا، مما زاد في حدة التوتر بين البلدين. وكان الصومال البلد الوحيد الذي رفض مبدأ القبول بالحدود الموروثة عن الاستعمار في المؤتمر التأسيسي لمنظمة الوحدة الافريقية الذي عقد في العاصمة الاثيوبية في ١٩٦٣. وفي الانتخابات التشريعية التي جرت في آذار ١٩٦٤، أجمعت الاحزاب الثلاثة (جامعة الشبيبة الصومالية، الحزب الوطني الصومالي الذي يتزعمه ابراهيم عقال، وحزب الاتحاد الديمقراطي الصومالي) على النضال من أجل تحقيق «الصومال الكبير». وقد صادف موعد الانتخابات المذكورة اتفاق وقف النار بين أديس

أبابا وموقاديشو بتوسط من السودان. وبعد تشكيل حكومة جديدة برئاسة عبد الرزاق حاجي حسين، أمين عام «جامعة الشبيبة الصومالية»، جرت سلسلة من التسويات والمساومات، وصاحب ذلك تدهور في الوضع البرلماني عامة، مما دفع برئيس الحكومة الجديد لأن يضمّن برنامجه «النضال ضد الفساد»، وقيام إدارة فعّالة.

على صعيد السياسة الخارجية، التزمت الحكومة الجديدة متابعة سياسة عدم الانحياز التي ترجمت عمليًا بتعاون وثيق مع الاتحاد السوفياتي خاصة على الصعيد العسكري، إذ بدأت موسكو تسلّح الجيش الصومالي، بالاضافة إلى إنشاء بعض المشاريع الاقتصادية كبناء مرفأ بربره الجديد، وبعض المصانع في موقاديشو وسواها من المدن. إلا ان الحكومة استطاعت ان تحافظ، إلى حد، على التوازن بين الشرق والغرب. فتلقت مساعدة اميركية لتحسين مرفأ كيزيمامو وتجهيزات لقوات الشرطة وتدريبها من قبل الولايات المتحدة وجمهورية المانيا الفدرالية وايطاليا. ويعود تقارب الصومال مع الاتحاد السوفياتي، إلى حد كبير، إلى دعم الولايات المتحدة العسكري لاثيوبيا. أما في ما يتعلق بالعلاقات مع فرنسا، فقد عملت موقاديشو على مسايرة باريس خوفًا من ان تندفع الحكومة الفرنسية نحو تأييد المطالب الاثيوبية في جيبوتي، وفي الوقت نفسه لم تتردد عن استقبال حركات تحرير جيبوتي ضد الاستعمار الفرنسي. وكان على موقاديشو ايضًا ان تأخذ بعين الاعتبار موقع فرنسا الأساسي في السوق الاوروبية المشتركة التي وقّع الصومال معها اتفاقية تبادل باعتباره مستعمرة ايطالية سابقًا، على نحو المستعمرات الفرنسية والبلجيكية السابقة، وبموجب اتفاقية ياونده.

اقترع المجلس النيابي ضد حكومة حسين في ١٩٦٧، وعين أحد قادة جامعة الشبيبة الصومالية، محمد ابراهيم عقال، على رأس الحكومة. اتسم عهده بتوقيع اتفاق مع كينيا نتيجة وساطة زامبيا، وباعادة العلاقات الدبلوماسية مع لندن، وبتقارب مع الغرب توّجه بزيارته إلى واشنطن مباشرة بعد حرب حزيران ١٩٦٧.

وفي الانتخابات التشريعية لعام ١٩٦٩، خرج حزب جامعة الشبيبة الصومالية منتصرًا ولكن بدرجة اقل من السابق. كما اشترك في هذه الانتخابات ٢٧ تنظيمًا سياسيًا نال بمجموعه ٥١ مقعدًا. وتحالفت كل هذه التنظيمات (باستثناء تنظيم واحد) مع الحزب الحاكم (جامعة الشبيبة الصومالية)، وكفل ابراهيم عقال بقاءه على رأس الحكومة.

نظام جنرالات اليسار، محمد سياد بري:

في تشرين الاول ١٩٦٩ (أي بعد بضعة أشهر من هذه الانتخابات) اغتال أحد رجال الشرطة رئيس الجمهورية الدكتور عبد الرشيد علي شرمايكة (الذي كان قد انتخب في ١٩٦٧). وبعد خمسة ايام، قام انقلاب عسكري وانتقلت السلطة إلى الجيش الذي بادر إلى حلّ جميع الاحزاب، وأصبح قائده، الجنرال محمد سياد بري رئيسًا لمجلس قيادة الثورة، والجنرال محمد عينشه، رئيس هيئة الاركان، نائبًا له.

ما لبث النظام الجديد ان انتهج سياسة يسارية على الصعيدين الداخلي والخارجي. فأمّم معظم الشركات والمصالح الاجنبية، واقام علاقات جيدة مع الدول الاشتراكية، وفي مقدمها الاتحاد السوفياتي، وقطعت الولايات المتحدة مساعداتها للصومال، كما شهد عام ١٩٧١-١٩٧٢ انفراجًا واسعًا في علاقات الصومال بالدول المجاورة. وبقيت العلاقات وثيقة بين الصومال وايطاليا على الرغم من الانتقادات الحادة التي وجهتها الصحافة الايطالية لسياسة التأميمات الجارية في الصومال. وذهبت الحكومة الصومالية إلى حد إقرار تعليم اللغة الايطالية (التي توقف تعليمها في وقت سابق) عقب زيارة قام بها للصومال وزير الخارجية

الايطالي ألدو مورو. والميزة الكبرى التي طبعت السياسة الخارجية الصومالية في تلك الأثناء توقيع دول وسط شرقي افريقيا، في موقاديشو في ١٩٧١، «بيان موقاديشو» الذي دعا إلى مواصلة الكفاح المسلح في افريقيا الجنوبية، ومعارضتها الشديدة لكل سياسة هادفة لاجراء حوار مع نظام جنوب افريقيا العنصري.

وفي السياسة الداخلية، واجه النظام، في سنواته الاولى، عدة محاولات لضربه. ففي ١٩٧٠، اعتقل علي كورشل، قائد الشرطة السابق، واتهم بالتآمر لمصلحة ابراهيم عقال. وفي ١٩٧١، اعتقل نائب الرئيس، عينشه، بتهمة تدبير انقلاب عسكري، فحوكم ونفذ به حكم الاعدام في ١٩٧٢. وفي ١٩٧٣، اطلقت الحكومة سبيل ١٨ من القادة السابقين، بينهم الرئيس السابق عثمان، ورئيس الوزراء السابق حسين.

على صعيد السياسة الإنمائية، باشر محمد سياد بري، منذ استلامه السلطة، تنفيذ برنامج اصلاحي وإنمائي، ومثل بذلك تجربة اشتراكية لم تعهد القارة السوداء مثيلاً لها. إلا ان هذه التجربة لم تمكّن الصومال، وهو من أفقر بلدان العالم، من أن يستغني عن المساعدات الخارجية حتى قيل «إن الصومال مقبرة المساعدات الاجنبية». وكان من ابرز معوقات التخطيط الاقتصادي والإنماء التوزيع السكاني بحيث ان هناك نحو ٧٥٪ من مجموع السكان لا يزالون يعيشون خارج الدورات النقدية (بحسب تقرير لدول السوق الاوروبية المشتركة).

وبالرغم من هذه المعوقات الكبرى حققت السلطات نجاحات مهمة في شتى القطاعات الاقتصادية، وعلى وجه الخصوص في القطاع الزراعي، واستطاعت ان تقضي على العجز في الموازنة العامة ابتداء من ١٩٧١، كما انها نجحت في التخفيف من حدة كارثة الجفاف التي أصابت البلاد بين ١٩٧٣ و١٩٧٥ باتخاذها إجراءات حولت عشرات آلاف البدو إلى مزارعين وفلاحين.

الحرف اللاتيني ومحو الأمية: على الصعيد الثقافي اتخذت الحكومة، في ١٩٧٢، قرارًا يقضي باستعمال الحرف اللاتيني في كتابة اللغة الصومالية. وكان هناك، قبل هذا التاريخ محاولات عدة لاستعمال الحرف العربي. كما أجرى عثمان كناديد محاولة أخرى باختراعه حرفًا خاصًا سمي «صومالي» الذي تبناه حزب «جامعة الشبيبة الصومالية» منذ ما قبل الاستقلال، ولكنه فشل. وبعد اختيار الحرف اللاتيني مباشرة قامت الحكومة بحملة مكثفة لمحو الامية (٩٠٪ من السكان كانوا أميين) لم تعرف قارة افريقيا مثيلاً لها. فأقفلت جميع المدارس والمعاهد للعام الدراسي ١٩٧٤-١٩٧٥، وأرسلت الاساتذة والطلاب في عرض البلاد وطولها لتعليم السكان القراءة والكتابة.

ولم يكن النظام يتردد في إعلان إخلاصه للاشتراكية العلمية كما تفهمها موسكو، ولكنه في الوقت نفسه، كان يستوحي التجربتين الصينية والكوبية، وكان للمثقفين اليساريين الايطاليين تاثير خاص على الضباط الصوماليين الشباب الذين كانوا يتهافتون على الصحيفة الايطالية الاشتراكية الماركسية «أفنتي» Avanti.

حقوق المرأة ورجال الدين: لم تمر هذه القفزات دون مصاعب واجهها نظام الجنرال سياد بري. فعلى أثر خطاب ألقاه بري في كانون الثاني ١٩٧٥ وأعلن فيه ضرورة إعادة النظر في التشريع الصومالي بحيث تتكرس حقوق المرأة، قام بعض رجال الدين (العلماء) المحافظين بحملة مركزة في الجوامع تستهدف النظام والاصلاح المعلن. فتحركت السلطات وجابهت العلماء بعنف وقسوة، فالقت القبض عليهم، ونفذت بهم حكم الاعدام.

وفي اواسط ١٩٧٦، اجتاز نظام محمد سياد بري مرحلة جديدة على طريق الماركسية-اللينينية بتبنيه لنظام الحزب الواحد، «الحزب

الاشتراكي الثوري الصومالي» الذي حلت قيادته، وعلى رأسها رئيس الدولة محمد سياد بري، محل المجلس الاعلى لقيادة الثورة. وكان الصومال قد تقدم، منذ ١٩٧٤، بطلب الانضمام إلى جامعة الدول العربية. فوافقت الجامعة ودخل عضوًا فيها في السنة نفسها.

أوغادين وحربها: يطلق إسم أوغادين على المنطقة الواقعة في الجنوب الشرقي لإثيوبيا (مساحة أوغادين نحو ٢٠٠ ألف كلم م.) وتشكل حاليًا الإقليم الخامس في جمهورية اثيوبيا الديمقراطية الاتحادية، ويشتق إسمها من عشيرة أوغادين، أكبر العشائر الصومالية وأكثرها غلبة، وسكانها صوماليون، قدر عددهم في الثمانينات بين نصف مليون ومليون نسمة. لم تستغل الموارد الطبيعية في أوغادين حتى الآن، ويشاع ان هناك عددًا من الاكتشافات النفطية يعود تاريخها إلى الثلاثينات حين باشرت شركة سينكلير الاميركية أعمال التنقيب، كذلك باشرت عدة شركات أخرى أعمال الاستكشاف في مناطق شتى من أوغادين، لكن لم يتأكد الكشف عن أي احتياطات ذات بال. ومع ذلك عُثر على حقل غاز كبير يستغل الآن. وتتناقل الشفاه أنباء العثور على أحجار كريمة ومعادن أخرى، ولكن ليس بكميات كبيرة تبرر استغلالها.

كانت اثيوبيا قد استولت على أوغادين في عهد توسعها الامبراطوري في أواخر القرن الماضي في أعقاب فتح الامبراطور مينيليك مدينة هرر (١٨٨٧). وكان آنذاك يسعى إلى استباق التوسع الاوروبي الاستعماري في المنطقة. ولم يكن الهدف من التوسع الاثيوبي في أوغادين هو الاستيطان فيها، كما كان الحال في منطقة هرر، وإنما السطو على القطعان التي كان الصوماليون يربونها في هذه الاراضي الرعوية.

وكانت هذه الغارات الاثيوبية، جنبًا إلى جنب مع الزحف البطيء لحركة الاستعمار البريطاني من ناحية والايطالي من ناحية أخرى، هي التي رسمت الحدود في أوغادين. فالحاميات الاثيوبية لم تتمركز في المنطقة إلا حين تهددتها القوات الايطالية في الثلاثينات، قبل ان تجتاح هذه القوات الاراضي الاثيوبية بين ١٩٣٥ و١٩٣٦. وبعد هزيمة الايطاليين (١٩٤١) فرضت بريطانيا سيطرتها على المنطقة بكاملها، وقوبلت بالتجاهل مطالب الصوماليين بتوحيد كل الاراضي الصومالية. وفي ١٩٤٨، ضمت معظم مناطق أوغادين إلى اثيوبيا، وسلّم ما تبقى في ١٩٥٤. فولّد هذا الامر نزاعًا صوماليًا-اثيوبيًا حول أوغادين (راجع «اثيوبيا»، ج١،ص١١٠-١١١؛ و«أوغادين»، ج٤، ص٦٧-٦٩).

أخذت منظمة الوحدة الافريقية تسوية هذا النزاع على عاتقها في مؤتمر القمة (أديس أبابا، ايار ١٩٧٣)، إلا ان هذا المؤتمر لم يتوصل إلى حل نهائي. وبعد استقلال جيبوتي شهدت منطقة القرن الافريقي (الصومال، اثيوبيا، أريتريا، جيبوتي) صراعًا عسكريًا وسياسيًا عنيفًا تركز حول منطقة أوغادين، وقد بلغ ذروته طوال ١٩٧٧. وفي ١٩٨٨، توصل البلدان إلى اتفاقية تنص على تخفيف الوجود العسكري على الحدود دون ان تتناول جوهر النزاع.

مع سقوط امبراطور اثيوبيا أخذ أركان النظام الصومالي يفكرون في ان الفرصة اصبحت سانحة امام مطالب الصومال الاقليمية واستعادة بعض اراضيها السليبة. فعمد محمد سياد بري إلى تقوية علاقات الصومال بموسكو، وعقد معها معاهدة صداقة في تموز ١٩٧٤، ومنح البحرية السوفياتية قاعدة في بربرة أثارت حفيظة الولايات المتحدة.

وبدأ الصومال حملة المطالبة بـ«الاراضي المنسلخة» مع باريس عندما طلب من فرنسا منح جيبوتي استقلالاً كاملاً، وعرفت العلاقات بين

البلدين، الصومال وفرنسا، فترات من التوتر الشديد. ففي آذار ١٩٧٥، اختطفت عناصر من «جبهة تحرير الساحل الصومالي» (جيبوتي) سفير فرنسا، جان غوري في العاصمة الصومالية. وأذعنت باريس لمطالب الخاطفين وأطلقت بعض قادة الجبهة الذين كانوا معتقلين في جيبوتي مقابل اطلاق سفيرها.

ونتيجة لتعاقب بعض الحوادث الامنية الموجهة ضد المصالح الفرنسية والرعايا الفرنسيين (منها في جيبوتي نفسها)، اضطرت باريس إلى قلب تحالفاتها في جيبوتي فتخلت عن حليفها الاول رئيس الوزراء علي عارف العفاري، ثم منحت جيبوتي استقلالها في تموز ١٩٧٧، فانتخبت هذه اول رئيس لها هو حسن غوليد الذي ينتمي إلى قبيلة العيسى.

لكن الصومال، كانت أهدافه الرئيسية مركّزة على أوغادين الذي كان قد جرى ضمه إلى اثيوبيا. فبدأت «جبهة تحرير الصومال الغربي»، يدعمها الجيش الصومالي، تقوم بعمليات عسكرية ضد الوجود الاثيوبي، وتسيطر تدريجيًا على اراضي الاقليم مستفيدة من انهماك الجيش الاثيوبي في معاركه على جبهة أريتريا، ومن خلافات قادته. وفي آذار ١٩٧٧، دعا الرئيس الكوبي فيدل كاسترو، الذي كان يقوم بجولة في افريقيا إلى مؤتمر سري يضم، بالاضافة إليه، سياد بري ورئيس الدولة الاثيوبي الجديد منغيستو هايلي مريام. وعقد الاجتماع في عدن، واقترح كاسترو على الرئيسين الخصمين حل خلافاتهما باقامة اتحاد (قد تنضم اليمن الجنوبية إليه لاحقًا). فرفض الرئيسان هذا الحل. وفي ايار ١٩٧٧، قام منغيستو بزيارة لموسكو. وبعد هذه الزيارة، أخذ الاتحاد السوفياتي يبدّل من مواقفه وتحالفاته في المنطقة مفضلاً اثيوبيا بكثافتها السكانية وأهميتها الاستراتيجية على الصومال. كما بدأت تصل إلى اثيوبيا إمدادات عسكرية سوفياتية كبيرة وفرق من الجيش الكوبي.

وفي غضون ذلك، كانت جبهة تحرير الصومال الغربي («الصومال الغربي» بالنسبة إلى الصومال، و«أوغادين» بالنسبة إلى اثيوبيا) والجيش الصومالي يتابعان تقدمهما في أوغادين، في حين طرد محمد سياد بري الخبراء السوفيات العاملين في الصومال وقطع علاقاته الدبلوماسية مع كوبا. وفي بداية ١٩٧٨، انقلب الموقف لمصلحة الاثيوبيين، وبدأ الصوماليون في التقهقر من أوغادين وسط نداءاتهم للعواصم الغربية والعربية المحافظة. ووجهت الولايات المتحدة انذارًا للاتحاد السوفياتي بأن احتياح الصومال يعني تدهورًا خطيرًا في الوضع الدولي. إلا ان موسكو وأديس أبابا كانتا تؤكدان ان ليس بنيتهما تخطي اقليم أوغادين وعبور الحدود إلى الصومال.

المعارضة، صمود نظام سياد بري وتوجهه الجديد: بعد شهر من تراجع القوات الصومالية عن أوغادين، حاولت مجموعة من الضباط الصوماليين القيام بانقلاب عسكري، لكنهم فشلوا وألقي القبض عليهم، وأعدم بعضهم. وقام رئيس الدولة بزيارات متعددة إلى العواصم الغربية، وإلى بكين، في محاولة لتعويض المساعدات السوفياتية له. إلا انه لم يتلقّ مساعدة عسكرية إلا من المملكة العربية السعودية. وكان على الحكم في الصومال ان يواجه وضعًا اقتصاديًا واجتماعيًا متأزمًا نتيجة لحربه الخاسرة في أوغادين، ورغم نجاحه في كثير من الجوانب. واستمر في الوقت نفسه يدعم جبهة تحرير الصومال الغربي في عملياتها العسكرية داخل أوغادين. كما استمر (لسنوات تالية) في التمسك بخط الماركسية-اللينينية نظريًا وفي الداخل، وانتهاج سياسة تحالف مع الولايات المتحدة في الخارج.

ففي كانون الثاني ١٩٧٩، أعاد المؤتمر الاستثنائي لـ«الحزب الاشتراكي الثوري الصومالي» الحاكم تأكيده للخيار الاشتراكي، في

حين أشار الجنرال سياد بري إلى رغبته في إعادة العلاقات طبيعية مع الاتحاد السوفياتي. ووافق المؤتمر على مشروع دستور يتمسك بنظام الحزب الواحد، ولكنه ينص على انتخاب رئيس الجمهورية وجمعية تشريعية قبل نهاية السنة المذكورة.

إلا ان هذا الاتجاه الجديد للنظام لم يوهن من عزيمة المعارضة الصومالية العاملة من أديس أبابا. فأنشأت، في شباط ١٩٧٩، «جبهة الانقاذ الصومالي» التي اندمجت في «جبهة العمل الديمقراطي» المكونة من انصار المحاولة الانقلابية التي جرت في نيسان ١٩٧٨.

عودة إلى التوتر وبدء الانزلاق نحو الثورة ثم الحرب الأهلية: في صيف ١٩٨٠ عادت الحشود العسكرية على الحدود الصومالية-الاثيوبية والاتهامات المتبادلة حول الهجمات عبر تلك الحدود. وقد جاء هذا التوتر في إطار مجموعة من العوامل والمتغيرات أبرزها بالنسبة إلى الصومال:

– تفاقم الازمة الاقتصادية تحت ضغط لجوء أعداد كبيرة من سكان أوغادين عبر الحدود إلى الصومال.

– موافقة الصومال على منح تسهيلات للاميركيين، إذ إن الصومال كان أحد البلدان التي عملت الادارة الاميركية على تأمين تسهيلات فيها لقواتها، وذلك في إطار الجهد الذي بذلته لتعزيز وجودها العسكري في منطقة المحيط الهندي وبحر العرب وجنوب غربي آسيا ولتعزيز قدراتها على التدخل في تلك المنطقة في أعقاب الثورة الاسلامية في ايران والتدخل السوفياتي في أفغانستان؛ لكن الاميركيين، وبعد أن أصبحوا في موقع قوي بعد ان تمكنوا من تأمين تسهيلات لقواتهم في كينيا وعمان، خففوا من مساعداتهم للصومال، وتجاوزوا طلبها بعقد حلف دفاعي ودعم مطالبتها باقليم أوغادين.

– استمرار الاتحاد السوفياتي في إلقاء ثقله إلى جانب النظام الاثيوبي، فضلاً عن مصلحته في تفاقم المصاعب أمام النظام الصومالي قبل ان يتمكن الاميركيون من تثبيت وجودهم في الصومال.

في مقابلة صحافية جرت في آذار ١٩٨١، صرّح الرئيس محمد سياد بري ان بلاده طلبت الانضمام إلى «مجلس تعاون الدول الخليجية»، إلا ان الردّ جاء سلبيًا. واعترف بان الولايات المتحدة طلبت منحها تسهيلات في الصومال، وانه تمّ توقيع «اتفاقية تخدم مصالح الطرفين» إلا انه أنكر صحة الأنباء التي تتحدث عن وجود احتمال كبير في ان تكون موقاديشو أحد مراكز تنسيق عمليات قوات التدخل السريع الاميركية في الشرق الاوسط.

وعلى رأس المعارضة الصومالية تأتي «جبهة الانقاذ الصومالية» التي زار أمينها العام العقيد عبد الله يوسف احمد، بيروت في آخر آذار ١٩٨١ حيث صرّح بقوله إن الجبهة دخلت مرحلة تفجير الثورة المسلحة ضد نظام سياد بري في الصومال، وان مجموعات كبيرة من الجيش الصومالي ومعها اسلحتها الخفيفة تدفقت إلى معسكرات جبهة الانقاذ. وكانت الجبهة قد أعلنت، في بيانات سابقة، مسؤولياتها عن عمليات عسكرية قامت بها داخل الصومال.

وقد استفاد المعارضون من الاستياء في صفوف سكان المنطقة الشمالية (منذ الاستقلال، والسلطات والوظائف الكبرى والمصالح الاقتصادية بيد الجنوبيين) وركّزوا نشاطاتهم السياسية والعسكرية فيها. وفي آذار ١٩٨٣، عقدت هذه المعارضة (الجبهة الديمقراطية للانقاذ) مؤتمرها الاول، وانتخبت لجنة مركزية من ٢٤ عضوًا، ولجنة تنفيذية من ٩ أعضاء برئاسة العقيد عبد الله يوسف أحمد.

على صعيد علاقات النظام الخارجية، وقد كان معزولاً إلى حد كبير، طغى خلال ١٩٨٤ الاعتدال والاستعداد لحل سلمي لمشاكله مع

اثيوبيا، علمًا ان قوات اثيوبية كانت لا تزال داخل الاراضي الصومالية. ومع مصر، جرت زيارات متبادلة، وحاولت مصر التوسط بين البلدين المجاورين، الصومال واثيوبيا، في «القرن الافريقي الاستراتيجي».

سقوط سياد بري: في ٢٣ كانون الاول ١٩٨٦، أعيد انتخاب محمد سياد بري رئيسًا للدولة (وكان المرشح الوحيد) بأغلبية ٩٩،٩٣٪ من الاصوات (نتائج رسمية). وبعد أقل من شهر واحد، بدأت سلسلة من الحوادث الأمنية في العاصمة وغيرها من المدن باختطاف ١٠ أطباء فرنسيين من الجمعية الانسانية العالمية «أطباء دون حدود» (أفرج عنهم بعد أقل من اسبوعين)، كما بدأ الآلاف من الصوماليين ينزحون باتجاه اثيوبيا وجيبوتي (معدل ألف نازح يوميًا، خاصة في شهر آب ١٩٨٨). وفي ١٩٨٩-١٩٩٠، ازدادت حدة الاضطرابات (وتمردت وحدات من الجيش) في العاصمة ذهبت بالآلاف من الضحايا. وحاول بري معالجة الوضع (بعد فوات الأوان) برفع شعار الديمقراطية، فسمح بتعدد الاحزاب (٢٤ كانون الاول ١٩٩٠)، وعين رئيسًا جديدًا للحكومة. لكن بعد نحو شهر واحد، أي في ٢٧ كانون الثاني ١٩٩١، استولى المتمردون على قصره، ولجأ هو إلى بوروميا (في جنوبي البلاد)؛ وأصبح علي مهدي محمد رئيسًا للدولة. وسقطت بربره وكيسماو في يد المتمردين، ودائمًا في إطار حوادث دموية ذهبت بأرواح الآلاف من الصوماليين. وفي ايار (١٩٩١)، أعلنت «جمهورية أرض الصومال» (صوماليلند) في الشمال، وفي تشرين الثاني (١٩٩١)، أطيح بالرئيس علي مهدي محمد، وتصعدت عمليات الحرب الأهلية التي طالت مختلف أرجاء البلاد، وزادت من مآسيها مجاعة ضربت نحو ١،٥ مليون صومالي، وبدأت فرنسا بارسال معونات غذائية، أعقبتها الولايات المتحدة بعملية اطلقت عليها تسمية «إعادة الأمل». وبين ١٤ و٢٩ ايلول ١٩٨٢، وصلت أول دفعة من قوات الامم المتحدة (القبعات الزرقاء).

١٩٩٢-١٩٩٥: التدخل الدولي وعملية الامم المتحدة لحفظ السلام: (راجع القرن الافريقي في «افريقيا»، ج٢، ص١٨٨-١٨٩، وص١٩٤-١٩٨).

بين نزول القوات الدولية في ٢٩ كانون الاول ١٩٩٢ وانسحاب آخر دفعة منها من مطار موقاديشو في ٣ آذار ١٩٩٥، ٥٦ شهرًا قضتها هذه القوات على الارض الصومالية، جنّدت على مداها قوات من ٣٣ دولة من مختلف القارات وتكلفت في مجملها أكثر من بليوني دولار، وخسرت ما يزيد على ١٣٠ جنديًا دوليًا في أكبر عملية تدخل عسكري من جانب الامم المتحدة منذ نشأتها.

بدأت عملية الامم المتحدة في أجواء تفاؤل دولي بنجاح القوات الدولية في احلال السلام في الصومال، وانتهت بصورة درامية، إذ نفضت يدها منه وانسحبت من دون ان تتمكن من تحقيق مصالحة بين الزعماء المتحاربين، وعلى رأسهم فارح عيديد وعلي مهدي. وأعاد الكتاب والمحللون، في حينه، أسباب هذا الفشل إلى السياسة الاميركية:

فقد بدأ التدخل العسكري الدولي في الصومال بقرار من الرئيس الاميركي جورج بوش أعلنه قبل شهور قليلة من تركه السلطة، ثم التدخل العسكري الاميركي، تحت مظلة الامم المتحدة، متخذًا إسمًا براقًا هو «إعادة الأمل» في الصومال مهّدت له وسائل الاعلام العالمية بما عرضته من مآس بلغت حد موت ألف مواطن صومالي يوميًا.

بعد بوش، بدا واضحًا ان إدارة الرئيس الجديد، كلينتون، لم تعد متحمسة لوجود قواتها

وجه الحرب الاهلية الصومالية.

في الصومـال. فاستجابت بسـرعة لانتقـادات الكونغرس الاميركي في اعقاب مقتل ١٧ من الجنود الاميركيين في الصومـال أثناء المواجهة مع قوات الجنرال عيديـد (تشرين الاول ١٩٩٣)، وانسحبت القـوات الاميركيـة مـن عمليـة «يونوصوم-٢» (وهو إسم عملية قوات الامم المتحدة في الصومال) في آذار ١٩٩٤.

وخلال هـذه الفـترة (١٩٩٢-١٩٩٤)، أدّت الهيمنة الاميركية على عملية التدخل هـذه إلى حدوث العديد من الانشقاقات بين اجنحة القوات الدولية، وبخاصة من جانب القـوات الايطاليـة والفرنسية اللتين كان وجودهمـا، ثـم انسحابهما، مجرد رد فعل للتدخل العسكري الاميركي لحماية مصالحهما في القرن الافريقي، واللتين داومتـا على انتقـاد إنسـياق العمليـة الدوليـة وراء الادارة الاميركيـة، إضافـة إلى الصراع على قيـادة هـذه العملية بـين البيت الابيض من جانب، واجهزة الامم المتحدة من جانب آخر. فانعكس كل ذلـك على تخبط القوات الدولية في أداء دورها، وفقـدت صدقيتهـا وحيادهـا في نظـر الصومـاليين، وكذلـك الرأي العام العالمي.

وبرغم انسـحاب القـوات الاميركيـة أولاً، ثم الغربية، ثم العربية بعدهما (باستثناء مصـر) من المشاركة في عملية «يونوصوم-٢» استمرت هـذه العمليـة في تنسيق قـائم بـين قيـادة الامـم المتحـدة وقوات دول العـالم الثـالث (الأفريقيـة والآسيوية) المشاركة فيها، وذلك حتى قرار مجلس الأمـن رقـم ٩٥٤ تـاريخ ٤ تشـرين الثـاني ١٩٩٤ القـاضي بانهاء العمليـة في موعـد اقصـاه ٣١ آذار ١٩٩٥. وقد تضمن هذا القرار رسالة سياسية لقادة وزعماء الفصائل المتحاربة في الصومال بأن المنظمة الدوليـة قد نفذ صبرها «من الألاعيب السياسـية، لا سيما بعد أن أنهت عملية الامم المتحدة مهمتها في إنهـاء المجاعة في الصومال».

وعقـب إتمام الانسـحاب (آذار ١٩٩٥)، أعلنت منظمات الاغاثة الدولية (٨ منظمات تابعـة للامم المتحدة، و٢٣ منظمة انسانية أخرى) رفضها استئناف أعمالها في الصومـال «بسـبب تدهـور الاوضـاع الامنيـة». وكـانت القـوات الدوليـة نجحت، في الجـانب الانسـاني والغوثـي، في تـأمين

صومالي يمزق باسنانه العلم الاميركي خلال تظاهرة في موقاديشو (ايلول ١٩٩٣).

وصول المساعدات الدولية في كل أنحاء الصومال، وانهاء المجاعة (فتكت بنحو ٣٥٠ ألفًا خلال ١٩٩١-١٩٩٢)، وتوفير الأجواء لعودة المزارعين إلى ممارسة نشاطهم، واستئناف بعض الاعمال التجارية وفتح بعض المطارات والموانىء.

أما الحرب الأهلية، فقد رست، بعيد انسحاب القوات الدولية، على انهاك لقوات الزعيمين المتقاتلين، فارح عيديد وعلي مهدي، وحدوث انشقاقات في صفوف كل منهما بعدما اتضح ان كلا منهما تحركه مطامعه الشخصية ورغبته في الانفراد بحكم الصومال من دون برنامج سياسي واضح. وجاء انسحاب القوات الدولية ليفرّغ القوى المتحالفة بزعامة عيديد من الهدف الذي كان عيديد يجمع به مشاعر الصوماليين المناهضة للاميركيين وللتدخل الاجنبي. فأدّى هذا الانسحاب إلى اختفاء صورته كبطل قومي (الصورة التي اكتسبها اثناء مواجهته للقوات الاميركية في ١٩٩٣). واصبحت جميع الفصائل المتحاربة غير قادرة على تصفية خصومها عسكريًا أو سياسيًا، خاصة وان القبائل كانت آخذة في تنمية سلطاتها على حساب الفصائل-الميليشيات المتقاتلة، وتحقق نوعًا من المصالحة القبلية بانضمام قبائل وفروع لها في مناطق نفوذ كل منها. واقترنت هذه السلطات القبائلية بتشكيل ادارات مناطقية في شكل لجان قبلية يساندها مجلس شعبي. فالمصالحات بدأت تتم (بعد انسحاب القوات الدولية، ربيع-صيف ١٩٩٥) على نطاق اقليمي وليس على نطاق قومي من دون السعي إلى الانفصال، وتلتزم كلها بوحدة الصومال. ويعني هذا الوضع ان موقاديشو لم تعد هي المركز الوحيد للحياة السياسية في الصومال. بل إن مراكز اخرى اقليمية أخذت في النمو والتطور، سياسيًا واقتصاديًا، لتشكل نواة لادارات اقليمية وقوى سياسية جديدة. خاصة وان مناطق الشمال كانت تشتكي دائمًا، ومنذ الاستقلال، بحصر السلطات والوظائف والمصالح بالعاصمة وبأبناء الجنوب (راجع باب «زوال الدولة، مناقشة»).

في حزيران ١٩٩٥، أطاح «المؤتمر الصومالي الموحد» الجنرال محمد فارح عيديد من رئاسة المؤتمر الذي ينتمي إلى «التحالف الوطني الصومالي»، وهذا التحالف كان يتزعمه عيديد نفسه. وانتخب المؤتمر عثمان حسن الملقب بـ«عاتو» خلفًا له. وكان معظم المجتمعين المنتخبين من قبيلة هبرجدر، وهي قبيلة عيديد. واتهم «عاتو» (وكان مموِّلاً لآلة حرب عيديد في السابق) عيديد بـ«إعاقة الجهود الدولية لانقاذ الصوماليين».

في ١٩٩٦: في أول سنة ١٩٩٦، حدّد الأمين العام للامم المتحدة بطرس غالي، في تقريره عن الصومال، شرط تحقيق مصالحة وطنية بين الزعماء المتنازعين لمواصلة المساعدات الدولية إلى هذا البلد. واعتبر ان الوضع في الصومال يسوده «ركود موهن» وإحباط بسبب عدم تمكن زعماء الفصائل من الاتفاق في ما بينهم وعدم تشكيل حكومة وحدة وطنية للبلاد.

يستعطونه قطعة الحلوى التي يحملها، وهو جندي ايطالي من قوات الامم المتحدة.

جنود من المارينز الاميركيين يمرّون بـ«قاطع طريق» صومالي كانوا قد القوا القبض عليه.

شهد كانون الثاني قتالاً ضارياً بين ميليشيات الجنرال عيديد، الذي نصب نفسه رئيساً للصومال، وبين قوات خصمه، مموله السابق، عثمان علي حسن «عاتو» الذي تحالف مع منافس عيديد في شمالي موقاديشو رئيس «التحالف لانقاذ الصومال» علي مهدي محمد. وكان هذا القتال (في كانون الثاني) حلقة في سلسلة من المعارك بين هذه القوى طوال السنة، وأدت إلى قتل وجرح مئات من الطرفين إلى جانب عدد كبير من المدنيين.

في حزيران، وسّع الجنرال عيديد «حكومته» التي صارت تضم ٩٣ وزيراً في الشطر الجنوبي من موقاديشو، وحاول السيطرة على الشطر الشمالي من المدينة. فقاد، في آب، ميليشياته، وأصيب بجروح بليغة خلال إحدى المعارك مع خصومه، ما أدّى إلى وفاته. ونصّبت «حكومته» (غير معترف بها) نجله حسين «رئيساً» للصومال خلفاً لوالده. وكان حسين عيديد (مولود ١٩٦١) خدم في مشاة البحرية الاميركية (المارينز) وشارك مع القوات الدولية التي دخلت الصومال في ١٩٩٣، وتولى مهمة الاتصال بين القوات الاميركية وبين والده.

لم يغير رحيل الجنرال عيديد من الاوضاع المتردية، بل زادها سوءاً، وتواصلت المعارك بين عيديد وخصوم والده، ولم تنتج مؤتمرات عدة للمصالحة عقدت في نيروبي وأديس أبابا في تحقيق أي تقدم نحو المصالحة.

وانتهت سنة ١٩٩٦ على متابعة اجتماعات قادة الفصائل الصومالية، بمن فيهم حسين عيديد وعلي مهدي وعثمان عاتو، في منطقة قرب أديس أبابا في محاولة جديدة لإنهاء خلافاتهم، في حين كانت الميليشيات التابعة لهم لا تزال تتقاتل في موقاديشو.

١٩٩٧: في اول شباط، أنهت الفصائل الصومالية (٢٦ فصيلاً) اجتماعات دامت مدة شهرين ونصف الشهر في أديس أبابا أسفرت عن اتفاق زعماء الفصائل، باستثناء فصيل حسين عيديد والاتحاد الاسلامي وجمهورية ارض الصومال (ابراهيم عقال) الذين تغيبوا عن المفاوضات، على تشكيل مجلس وطني للانقاذ تنبثق عنه هيئة رئاسة جماعية تعد لتشكيل حكومة وحدة وطنية انتقالية وإجراء انتخابات حرة. وهذه الاجتماعات هي التي أطلق عليها إسم «مؤتمر سودري» (بلدة اثيوبية قرب أديس أبابا). وبرّر حسين عيديد عدم مشاركته في هذا المؤتمر، خلال زيارته القاهرة (اواسط نيسان ١٩٩٧)، حيث التقى د.عصمت عبد المجيد أمين عام الجامعة العربية، بأنه (أي عيديد) يرفض حل المشاكل الصومالية والتعاطي معها خارج الاراضي الصومالية، وأكّد استعداده الاشتراك في مؤتمر بوصاصو (على الساحل الشمالي للصومال) الذي دعت إليه الفصائل الصومالية يوم ١٠ حزيران ١٩٩٧. وكان مؤتمر سودري شكل نقطة بداية لمحاولات تصالحية جادة على عكس جميع اللقاءات السابقة سواء داخل الصومال أو خارجها. وجاءت اللقاءات اللاحقة بين عيديد وعلي مهدي (في صنعاء والقاهرة) تكملة أخرى لمؤتمر سودري.

أما مؤتمر بوصاصو، فقد جرى تأجيله من اللجنة التنفيذية لمجلس الانقاذ لاسباب «منها عدم الحصول على المبالغ التي تعهدت بعض الدول العربية تأمينها لتغطية نفقات المؤتمر واتاحة الفرصة لمصالحة بعض الأطراف التي لم تشارك في سودري».

في اواخر تموز، زار المبعوث الخاص للامم المتحدة، عصمت كتاني، أديس أبابا ونيروبي حيث التقى قادةالفصائل الصومالية. واعتبرت زيارته ناجحة، وتزامنت مع رسائل بعثت بها الولايات المتحدة إلى قادة الفصائل وإلى رئيس الوزراء الاثيوبي اشادت فيها بمؤتمر سودري.

واعتبر أمين عام الامم المتحدة كوفي أنان، في تقريره (١٨ ايلول) ان التطورات «تثير الآمال في ان الاطراف الصومالية ربما تكون وصلت في نهاية المطاف إلى مرحلة تجري فيها مشاورات جادة من اجل السلام».

تسارع خطوات المصالحة بدفع أميركي:

في أواخر ايلول ١٩٩٧، تناقلت وسائل الاعلام ان الادارة الاميركية في صدد تبني «مواقف حازمة» ضد من يعيق مؤتمر مصالحة للفصائل الصومالية، وأبلغت قيادة هذه الفصائل ان «لواشنطن مصالح حيوية في استقرار الصومال متعلقة بالموقع الاستراتيجي الذي يربط البحر الأحمر بالمحيط الهندي على سواحل يزيد طولها عن ٣ آلاف كلم، إضافة إلى وجود ثروة معدنية مثل الاورانيوم بكميات وافرة وكذلك اكتشاف شركات اميركية في مقدمها «شيفرون» وجود كميات من البترول». يضاف إلى ذلك إمكان تشكيل قوة عسكرية صومالية تعمل ضمن قوات حفظ السلام الافريقية التي تدربها القوات الاميركية في كل من السنغال ومالي وأوغندا واثيوبيا وملاوي، وإمكان تفعيل دور مصر بتنسيق مع الولايات المتحدة في تحقيق مصالحة بين علي مهدي وحسين عيديد للاعداد لمصالحة شاملة قد يشترك فيها ابراهيم عقال رئيس جمهورية أرض الصومال.

«اعلان القاهرة»: شهد كانون الاول ١٩٩٧ محادثات بين مختلف الفصائل الصومالية في القاهرة رعاها وزير الخارجية المصري عمرو موسى، وأسفرت عن توقيع «اعلان القاهرة» (٢٢ كانون الاول ١٩٩٧)، فجاء مضمونه غير مختلف كثيرًا عن الاتفاقات السابقة إذ نصّ على تبني نظام فدرالي وتشكيل حكومة انتقالية وطنية موحدة وعقد مؤتمر شامل للوفاق الوطني في بيداوه يُنتخب عبره مجلس رئاسي. فهو عبارة عن تقاسم قبلي للسلطة، يمنح كلاً من القبائل الرئيسية حكمًا ذاتيًا في مناطقها في إطار نظام فدرالي ومجلس رئاسي مركزي يضم ١٣ ممثلاً لهذه القبائل.

أشاد مجلس الأمن الدولي بهذا الاعلان، ورحّبت به منظمة الوحدة الافريقية، وكذلك الاتحاد الاوروبي الذي أعرب عن «ارتياحه لكون هذا الاتفاق أكد رغبة ممثلي الفصائل في الحفاظ على الصومال دولة مستقلة». وحدها اثيوبيا رفضته متذرعة بأنه لا يضم كل الفصائل والقبائل الصومالية فضلاً عن غياب ممثل عن «جمهورية أرض الصومال» في الشمال. فعملت الدبلوماسية المصرية على احتواء هذا الرفض، وصرّح وزير الخارجية المصري عمرو موسى أن هذا الاعلان «خطوة مهمة جمعت اطراف سودري واطرافًا اخرى لم تشارك في سودري (أي جماعة حسين عيديد) وتجرى اتصالات مع اثيوبيا لتوضيح ما قد يكون غامضًا لها».

والجدير ذكره ان هذا الاتفاق (إعلان القاهرة، ٢٢ كانون الاول ١٩٩٧) جاء بعد عشرات الاتفاقات السابقة، بدءًا من اتفاق موقاديشو، في ١٩٩٣، عندما وقف الجنرال محمد فارح عيديد وعانق غريمه علي مهدي محمد برعاية مبعوث الرئيس الاميركي إلى الصومال روبرت أوكلي؛ وبعد أشهر، مزّق الجنرال اتفاقه مع علي مهدي محمد وهاجمه، مرورًا باتفاقات ومبادرات كل من اليمن واثيوبيا وأريتريا ومصر وايطاليا والسعودية وكينيا وجيبوتي، وصولاً إلى «اعلان القاهرة» الحالي حيث وقف حسين عيديد (نجل الجنرال محمد فارح عيديد) وعانق غريم والده علي مهدي محمد في القاهرة وتحت انظار وزير الخارجية المصري عمرو موسى.

يبقى ان من بين المشاكل الاساسية في «اعلان القاهرة» غياب ممثلين عن «جمهورية ارض الصومال». فرغم ان الاتفاق-الاعلان دعا إلى التفاوض مع المسؤولين في هذه «الجمهورية»، إلا

ان رئيسها، محمد ابراهيم عقال، شدّد على رفضه الدخول في أي حكومة موحدة للصومال، وطالب بالاعتراف بدولته المستقلة. وإلى جانب هذا الموقف كان انسحب من اجتماعات القاهرة اثنان من الزعماء القبليين هما العقيد عبد الله يوسف والجنرال أدن عبد الله نور.

التعليقات على «إعلان القاهرة» أجمعت على أهمية ان تتوقف موجات العنف والقتل المستمرة منذ سبع سنوات في الصومال، حيث كفّ الناس تمامًا عن العيش حياة طبيعية، إضافة إلى ما نزل بهم من كوارث طبيعية. فمع بداية الحرب (١٩٩١) عرفت البلاد أسوأ موجة جفاف وتصحر عرفتها المنطقة، وبعد ست سنوات (تشرين الاول-تشرين الثاني ١٩٩٧) اسوأ فيضانات مرت على الصومال منذ مطلع الخمسينات.

ومن الجدير التذكير به، أخيرًا، انه لا توجد (حتى الآن، آخر ١٩٩٧) حكومة مركزية معترف بها دوليًا في الصومال منذ الاطاحة بسياد بري في ١٩٩١. فانقسمت الصومال منذ ذلك الحين إلى مناطق تحكمها الفصائل على أساس قبلي.

مؤتمر بيداوه: كان «إعلان القاهرة» حدد موعد انعقاد هذا المؤتمر في مدينة بيداوه الصومالية في ١٥ شباط ١٩٩٨ لتشكيل أول حكومة مركزية في البلاد منذ انهيار نظام سياد بري في ١٩٩١. لكن قبل ثلاثة ايام من موعد المؤتمر أعلن علي مهدي محمد ان مؤتمر بيداوه ألغي «لأسباب لوجيستية»، أي بسبب حال الطرق والجسور التي تضررت بالفيضانات خلال الأشهر الأخيرة، ولأن «المال الكافي غير متوفر لهذا المؤتمر»؛ في حين نقلت وسائل الاعلام عن ناطق باسم الفصائل الـ٢٦ من أديس أبابا قوله «إن فشل هذا الاجتماع يعود إلى رفض زعيم الحرب حسين محمد عيديد احترام الاتفاقات المعقودة في القاهرة، من بينها التزام عيديد سحب قواته من مدينة بيداوه في منتصف ليل ٥ شباط».

من جهة أخرى، استمر رئيس «جمهورية ارض الصومال» محمد ابراهيم عقال في إعلان رفضه المشاركة في هذا المؤتمر. وأعلن في ٩ شباط ١٩٩٧، إبان زيارته لباريس أن «الجمهورية» المعلنة من جانب واحد مستعدة للاكتفاء موقتًا بـ«حكم ذاتي معترف به» على غرار الحكم الذاتي الذي يتمتع به الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة. والتقى عقال، في باريس، موظفين كبارًا في وزارة الخارجية الفرنسية وشخصيات سياسية فرنسية، منها وزير الداخلية السابق شارل باسكوا. وقبل باريس، زار عقال ايطاليا واجتمع فيها مع وزير الدولة للشؤون الخارجية رينو سيري. وكان عقال زار ايضًا اثيوبيا حيث التقى سفراء الولايات المتحدة وايطاليا ومصر واريتريا.

زوال الدولة
(مناقشة)

كتب د. فردريك معتوق، كاتب واستاذ جامعي لبناني في مؤلفه «جذور الحرب الأهلية، لبنان-قبرص-الصومال البوسنة» (دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٤، ط١، ص١١٨-١٣٢) بحثًا بعنوان «الصوملة: زوال الدولة»، قسّمه إلى ثلاثة عناوين فرعية: من الدولة إلى العشيرة؛ جذور اهتراء الدولة وبناء السلطة على حساب الدولة. وفي ما يلي مقتطفات منها:

من الدولة إلى العشيرة: تتميز أبرز خصائص الصوملة (الحرب الأهلية في الصومال بالمقارنة مع حروب أهلية في بلدان أخرى، أبرزها لبنان، قبرص، البوسنة) بالتدمير المنهجي الذي اصاب الدولة بعد فرار محمد سياد بري في ٢٧ ايار ١٩٩١، إثر دخول مقاتلي حركة مؤتمر الصومال الموحّد إليها واستيلائها على السلطة.

فبعد هذا التاريخ توقفت نهائيًا الخدمات العامة في البلاد وغادر الدبلوماسيون العاصمة واحتلت السفارات وغادر الموظفون المؤسسات الرسمية جميعها... ولم تهتم الفصائل المتحاربة بتقديم بديل عن الدولة السابقة.

ففي حين عنت اللبننة (الحرب الأهلية في لبنان) استقواء الميليشيات الطائفية على الدولة من دون تغييب جوهري لهذه الأخيرة حيث بقي المجتمع المدني حيًّا يرزق ولو على اساس تحركات محجمة، فإن الصوملة أخفت كل معالم الدولة. لم يدافع احد عن الدولة في الصومال وعن حقّها في الوجود، في حين ان حق الدولة في لبنان كان مصونًا والمطالبة بعودة الشرعية اصبحت تطلق شعبيًا وعلنًا اعتبارًا من ١٩٨٥ بعد نشوب حروب الميليشيات في ما بينها وضمن المنطقة الواحدة.

ومقارنةً ايضًا مع البلقنة والقبرصة، فإنهما عنتا ترسيمًا جديدًا للحدود بغية إنشاء دولة ذاتية، خاصة، ومن لون إثني وثقافي واحد.

فاللبننة والقبرصة والبلقنة تختلف عن الصوملة في كون أسس مجتمعاتها للمدنية متبلورة نسبيًا، وفي ان نسيجها الاجتماعي والسياسي يجعل من أفق الصراع صراعًا على الدولة ومن اجل السيطرة عليها وعلى اجهزتها أو صراعًا من اجل انشاء بديل مفترض لها على قسم من ارض الوطن السابق، في حين ان الصوملة عنت القضاء على الدولة والعودة إلى رحم العشيرة الأم.

ومفهوم الخدمة العامة غاب كليًا عن اعمال المتصارعين على السلطة في الصومال وأضحى أفق الحرب الأهلية يقف برمته عند حدود العمل العسكري الميليشياوي والانتاج الايديولوجي العشائري حيث ان القوى التي تسيطر على العاصمة موقاديشو وعلى إذاعتها تنتمي كلها إلى عشيرة واحدة هي عشيرة الهوية، اختلف في ما بعد فخذان منها على الغنيمة فاقتسماها وشطراها إلى شطرين: فخذ هبرجدر-سعد الذي ينتمي إليه محمد فارح عيديد وفخذ عقبال الذي ينتمي إليه علي مهدي محمد الذي نصبه أعيان قبيلته المناهضة لسياد بري رئيسًا مؤقتًا، فثارت ثائرة محمد فارح عيديد الذي كان يتعقب الرئيس الأسبق سياد بري في جنوبي البلاد والذي كان يعتبر ان رئاسة الصومال من حقه دون سواه.

«وبنهاية عام ١٩٩٢، صار الصومال عمليًا مجزءًا إلى خمسة أجزاء منفصلة عن بعضها البعض كلية. فالشمال يخضع للحركة القومية التي اعلنت انفصاله، والمحافظات الشرقية والوسطى تحت سيطرة جبهة الخلاص الديمقراطي والعاصمة وما حولها تحت السيطرة المتنازع عليها لحركة المؤتمر. أما باقي المناطق الجنوبية والجنوبية الغربية فتتوزع بين الحركة الوطنية ومركزها كيسماو، والحركة الديمقراطية ومقرها بيداوه. وهذا بالاضافة إلى قوات سياد بري ومركزها بارديرا. وليس لهذه التكتلات السياسية والعسكرية سلطة فعلية ادارية، أو مؤسسات تدير بها شؤونها. كما انها لا تمتلك رؤية سياسية أوبرامج للاصلاح السياسي. وهي في أساسها تعبيرات عن قبائل كبرى. ومع ذلك فلا تخلو كل فصيلة من انشقاق طولي يعكس مصالح وتوازنات مختلفة لفروع القبيلة. ويعبّر الصراع في ما بينها عن صراع على السلطات والامتيازات، دون الاكتراث بالمصالح القومية للصومال ومستقبله» (عن نجوى أمين الغوّال، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، العدد ١١٢، نيسان ١٩٩٣، ص٢١٠).

جذور إهتراء الدولة، وبناء السلطة على حساب الدولة: بدأ الصراع السياسي في الصومال منذ أول سنة للاستقلال (تموز ١٩٦٠). فقد عمل حزب وحدة الشباب الصومالي، الجنوبي المنشأ والهوية، على دفع أحد أبرز أعضائه إلى رئاسة الحكومة. ثم تمّ اختيار موقاديشو في الجنوب كعاصمة للبلاد واستأثر الجنوب بـ٦٧٪ من مجموع مقاعد البرلمان. وأسندت أهم الوزارات إلى جنوبيين، وكذلك القيادة العليا للجيش والشرطة.

طرفا الحرب الرئيسيان

مجموعة الاثني عشر: علي مهدي محمد

١- المؤتمر الصومالي الموحد، هو الفصيل الذي انشق رئيسه الجنرال محمد فارح عيديد وتولى زعامته علي مهدي محمد ويترأسه حاليًا محمد قنبري ألرح بعد ان تولى مهدي رئاسة المجموعة المتحالفة، ويضم قبيلة الأبغال وهي فرع من قبيلة الهوية.

٢- الجبهة الديمقراطية لانقاذ الصومال، فصيل لقبيلة الدارود من القبائل الرئيسية، وتشكل فرع القبيلة مجيرتن أساس هذا الفصيل الذي يقوده الجنرال محمد أبشر موسى والعقيد عبد الله يوسف وهما من الشخصيات الصومالية القوية.

٣- الجبهة الوطنية الصومالية، وتمثل قبيلة مريحان التي ينتمي إليها الرئيس السابق محمد سياد بري، وكانت الجبهة تشكل حماية للرئيس سياد بري حتى بعد نهاية حكمه ويقودها الجنرال عمر حاجي.

٤- الحركة الوطنية الصومالية وتمثل قبيلة الأوغادين أحد فروع الدارود. يقودها الجنرال آدم غبيو والجنرال محمد سعيد حرسي الشهير بالجنرال مورغان وزير دفاع محمد سياد بري وأقوى رجالات حكومته.

٥- الاتحاد الوطني الصومالي الديمقراطي، يقوده علي اسماعيل عيدي قير وهو من الشخصيات الصومالية المقبولة وله سند عشائري قوي تمثله قبيلة المكاسي أحد فروع قبيلة الدارود.

٦- الحركة الديمقراطية الصومالية تمثل قبيلة رحنوين ولهذه الحركة مواقف تبدو مستقلة عن مجموعتي علي مهدي وعيديد ولكنها رسميًا تصنف ضمن مجموعة الأثني عشر ويرأسها عيدي موسى مايو.

٧- الحزب الصومالي المتحد من شمال الصومال، لكنه ضد الانفصال المعلن ويمثل قبيلة دولباهنتي وهي فرع لقبيلة الدارود وهو حزب تاريخي قديم يرأسه حاليًا محمد عيدي حاشي ويضم عددًا من قادة المجموعة الاثني عشر أمثال عوض عشرة وعبد الله طاهر خالد.

٨- التحالف الديمقراطي الصومالي، يمثل قبيلة غدابورسي التي تتبع لقبيلة الدر المعروفة، يرأسه محمد حشرة ويوجد فروع من القبيلة ضمن مجموعة عيديد.

٩- الجبهة الصومالية المتحدة، تمثل قبيلة عيسى ومعظم اهلها في جيبوتي. يرأسها حاليًا عبد الرحمن دعاله.

١٠- الاتحاد الصومالي الوطني، يمثل مجموعة سكان مدينة موقاديشو، وأعضاؤه ليسوا من أصول صومالية إنما هم تجمعات ايرانية وهندية وخليجية عاشت في موقاديشو منذ قرون، دخلوا العمل السياسي والعسكري اضطرارًا ويقوده الدكتور محمد راجس.

١١- منظمة ميوكي الافريقية الصومالية، تمثل قبائل البانتو الافريقية التي هاجرت إلى الصومال منذ مئات السنين ويعمل أفرادها في الزراعة واضطروا لتطوين تنظيم باسمهم يرى الصوماليون ان فيه خطرًا كبيرًا كونه قام على أساس عرقي، لكن له غالبية ساحقة وسط السكان الصوماليين، يراسه حاليًا الشيخ برو عيديو، ويعتبر موليد محمود من أبرز قياداته وهو رياضي مشهور.

١٢- الحركة الوطنية لجنوب الصومال، فرع لقبيلة الدر، كانت من الدعائم الرئيسية لمجموعة عيديد قبل ان ينشق رئيس الحركة العميد عيدي وينضم إلى مجموعة علي مهدي.

مجموعة التحالف الوطني الصومالي: محمد فارح عيديد

١- المؤتمر الصومالي الموحد، هو الفصيل الخاص بالجنرال محمد فارح عيديد بعد انشقاقه. يمثل قبيلة هبرجدر، أحد فروع الهوية.

٢- الحركة الوطنية الصومالية برئاسة الكولونيل أحمد عمر جيس الرجل الثاني في التحالف الوطني بعد عيديد، وتمثل الحركة مجموعة قبائل الاوتمادين احد فروع الدارود.

٣- الحركة الوطنية لجنوب الصومال، تمثل قبيلة الدر المعروفة، ذات ثقل سكاني، يرأسها عبد العزيز شيخ يوسف الذي خلف شقيقه عبد الكريم الذي سقط برصاص قوات الامم المتحدة في ١٢ تموز ١٩٩٣.

٤- الحركة الديمقراطية الصومالية، تمثل قبائل الدقل والميرفل، وهي قبائل خارج مجموعة القبائل الرئيسية الثلاث: الهوية والدارود والدر، يقودها حاليًا محمد نور عليو.

٤- اتحاد الجذور الصومالية، تجمع جديد ظهر في الفترة الاخيرة ولا يتبع لمجموعتي علي مهدي وعيديد ويضم مجموعة من المثقفين الصوماليين الذين يمثلون كل القبائل ويرون انهم البديل الوحيد لحال الفوضى والخراب، يرأسه أحمد محمد موسى ومعظم قياداته من الصوماليين العاملين في الخارج ولا يحظى بأي اعتراف من الفصيلين الرئيسيين.

(المرجع: «الوسط»، العدد ١٠٠، تاريخ ٢٧ كانون الاول ١٩٩٣، ص٣٠).

هكذا اتى الاستقلال بأولى بذور الفتنة التي زرعها الايطاليون والبريطانيون في الصومال قبل مغادرتهم البلاد؛ كما حصل في قبرص ولبنان وأنغولا وموزمبيق والسان سلفادور وغواتيمالا وهندوراس وكمبوديا وفي جميع البلدان الصغيرة التي أخلاها الاستعمار على مضض في الخمسينات والستينات من هذا القرن، فإن الأهلين خضعوا للّعبة المدسوسة في حياتهم السياسية وعملوا على تعميقها بدل العمل على استئصالها. فغرق لبنان في اللعبة الطائفية التي رعاها الانتداب الفرنسي في كل من لبنان وسورية، وغرق القبارصة في اللعبة الاتنية التي زرعها الاستعمار البريطاني قبل منح جزيرة أفروديت استقلالها، وغرق الصومال في لعبة الصراع بين الجنوب والشمال التي هي لعبة خطرة جدًا لصراع بين عشائر الجنوب وعشائر شمالي البلاد لم يكن يدرك مدى خطورته في ذلك الحين إلا أخصائيو الأنتروبولوجيا في المخابرات البريطانية والفرنسية والايطالية بالنسبة إلى البلدان المذكورة.

ففي الصومال، كما في لبنان وقبرص، عمل أصحاب الامتيازات على تعميق الهوة بينهم وبين اخوانهم في البلاد على أساس زيغ في الرؤية العامة.

وبدل ان يعمل الطرف الحاكم في الصومال على ردم الهوة بين الجنوب والشمال انكبّ على تعميقها بإسناد غالبية الوظائف وامتيازات التجارة، عبر مرفأ ومطار موقاديشو، إلى منتفعين من فئة واحدة تنتمي بمعظمها إلى عشائر الجنوب وافخاذها وبذلك أفسدت اللعبة السياسية في البلاد.

كان في الامكان، لو توافر الوعي الشعبي الكافي بين الصوماليين واللبنانيين والقبارصة وسواهم من الشعوب الصغيرة التي ابتليت بالحروب الاهلية، ان لا يتم الخضوع، جماعيًا، للهدية المسمومة، ولكن قلّة الوعي السياسي على صعيد عامة الناس كما على صعيد زعمائهم السياسيين، وطمع الاستفادة من الفرصة المتاحة، سمحت لجيل واحد، في جميع هذه البلدان، ومن فئة واحدة، بالاستفادة والانتفاع، وأدّت بالجيل اللاحق، بكامل فئاته، إلى الهلاك وخسارة الاوطان.

لذلك فالبلدان الصغيرة، إبان خروجها من تحت إبط الانتداب، بقيت صغيرة في معظمها ولم تعمل على استئصال الامراض المزروعة في جسمها بل تركتها تنمو واستمتعت بها وتكلم حكامها الفصحاء عن «خصوصيات محلية» وعن «فرص متاحة» إلى أن جرفت الحروب الأهلية معظم هذه البلدان الصغيرة، في القارات كافة، ما عدا نيكاراغوا، حتى الآن.

مارس أهل الجنوب الصومالي، المنضوون تحت لواء الحكم، الامتياز علنًا، مطلع الستينات تحت مظلة عبد الرشيد علي شرمايكة، ومارسوها خفية وتسترًا مع سياد بري منذ مطلع السبعينات حتى مطلع التسعينات.

كادت الحرب الاهلية ان تنشب في الصومال في ١٥ تشرين الاول ١٩٦٩ إثر اغتيال شرمايكة وإبّان تصاعد الغضب الشعبي، إلا ان انقلابًا عسكريًا سريعًا وسلميًا وضع حدًا للامر وتمخض عن إنشاء «المجلس الاعلى للثورة» بقيادة محمد سياد بري أعاد من الشباك ما تمّ إخراجه من الباب. واستأثر الجنوبي سياد بري بالسلطة أكثر من ذي قبل وعيّن أبناء عشيرته وعشيرة أخواله في المراكز الحسّاسة وتمّ تطهير الادارة رويدًا رويدًا من العناصر الشمالية. فباسم الثورة وباسم الاشتراكية عمل حكم سياد بري على تعميق الخلاف في نفوس ابناء البلد الواحد، وازدادت المسافات بين طرفي المجتمع في الصومال، فأصبح الشمالي يشعر أكثر وأكثر بالغبن اللاحق به وازداد غرور أهل الجنوب، إلى ان اصبحت اليوم حقيقة، حيث اعلنت الحركة الوطنية الصومالية في شمالي البلاد قيام «جمهورية أرض الصومال» **Soumaliland** في ايار ١٩٩١.

كانت ردة الفعل الشعبية الاولى في الصومال بابتعاد الناس عن السياسة لعلمهم بزيف اللعبة وبتمويه الحقائق (كما حصل منذ سنوات في بلدان اوروبا الاشتراكية)، ثم انقلب هذا الموقف إلى حقد مبطن وشعور بالغبن كبير في اوساط الشماليين، فانفصل هؤلاء معنويًا عن دولتهم وعادوا إلى وعيهم العشائري كبديل دافىء لخيبة آمالهم السياسية (كما عاد أبناء البلدان الاشتراكية في اوروبا الشرقية سابقًا إلى الانتماء الديني أو إلى أحضان الانتماء الاتني).

فالامور، ظاهريًا، كانت ممسوكة، ولكن هروب النفوس من الدولة التي لم تكن تمثل بالعدل مصالح الجميع تعمق في الصومال مع أول محاولة انقلاب، عام ١٩٧٨، إثر هزيمة حرب أوغادين مع أثيوبيا، والتي قادها ضباط ينتمون إلى عشيرة مجيرتين. ثم ازداد الحقد الشعبي عندما وقّع سياد بري على اتفاق سلم مع أديس أبابا مما سمح له باستفراد كل المجموعات الصومالية الشمالية المناهضة له والتي كانت قد لجأت إلى اثيوبيا، والانتقام الوحشي والأعمى من الرجال والنساء والاطفال دونما روادع اخلاقية أو انسانية، بعد نيسان ١٩٨٨. فالعصبية التي كانت تحرّك افكار

واعمال سياد بري كانت افكار وعيه العشائري. ومناهضة عصبية أهل الحكم تصاعدت على أساس حرمان عشائر الهوية والاسحاق والجيرتين من السلطة لصالح تحالف عشيرة الدارود الكبرى الذي كان يضم أفخاذاً كالماريجان ودولباهنتي والأوغادين.

والمشكلة الكبرى ان الصومال دخل، بعد طرد سياد بري من الحكم، في بحر الصراعات الفخذية بدل الصراعات العشائرية. وهذا الصراع أشّر إلى استحالة توحيد البلاد ما لم يتدخل طرف خارجي يعيد إليها اللحمة.

جمهورية أرض الصومال

(استكمالاً لما ورد في «أرض الصومال، جمهورية»، ج١، ص١٩٨-٢٠٤).

تعريف: يتألف سكان شمالي الصومال، حيث تقوم جمهورية ارض الصومال، من قبيلة اسحاق وهي أكبر القبائل في المنطقة وأكثرها نفوذاً. وإلى جانبها، هناك قبائل غدابورسي ودولبهانتي وورارسانغيلي وعيسى. وباستثناء قبيلة اسحاق، لا تؤيد القبائل الأخرى استقلال «ارض الصومال» عن بقية الصومال. ولم تنل هذه الجمهورية، حتى اليوم (ربيع ١٩٩٨)، اعتراف أي من الدول في العالم.

و«أرض الصومال» منطقة شبه صحراوية وغير قادرة على توفير الغذاء لسكانها بسبب قلة الموارد الزراعية وانتشار مزارع صغيرة تعتمد على الامطار. ويعتمد السكان في الأساس على الماشية، وقد أذيع في ١٩٩٥ انها صدرت ما قيمته حوالي ١٠٠ مليون دولار من المواشي إلى دول الخليج، كما ان هناك تجارة ناجحة بينها وبين جيبوتي.

مهد الحركة الوطنية: كانت المناطق الشمالية في الصومال مهد «الحركة الوطنية الصومالية». احتفلت باستقلالها عن بريطانيا في ٢٦ حزيران ١٩٦٠. وبعد أقل من اسبوع واحد اتحدت مع المناطق الصومالية الجنوبية التي

«جمهورية» أرض الصومال، و«دويلة» شمال شرقي الصومال، في المناطق الشمالية من الصومال.

نالت استقلالها عن ايطاليا في أول تموز (١٩٦٠). لكن سرعان ما بدأت هذه الوحدة تثير استياء الشماليين بعدما أعطي أول رئيس للدولة الموحدة، عبد الله عثمان (من الجنوب)، منصب رئيس الوزراء والحقائب الوزارية الرئيسية إلى الجنوبيين. وفي ١٩٦٣، نفّذ ضباط شماليون محاولة انقلابية فاشلة.

عرفت مدينة هرغيسا (عاصمة الشمال، «جمهورية ارض الصومال») الصحيفة الوطنية الاولى «الصومال» التي أصدرها محمود جامع أوردوح في

١٩٤٨، وكانت تعبر عن واقع الحركة الوطنية وحملت لواء الدعوة إلى الاستقلال والوحدة، وتبنت البرنامج الوطني لـ«الجبهة الوطنية الصومالية» التي تأسست في ١٩٤٦، ثم تحولت في ١٩٥٠ إلى «الرابطة الوطنية الصومالية» بعد زيارة الوفد الأزهري المصري لمنطقة القرن الافريقي في ١٩٥٠.

وفي ١٩ تشرين الاول ١٩٥٨، صدرت صحيفة «قرن افريقيا» ناطقة باسم حزب الرابطة الوطنية الصومالية، وهي امتداد لصحيفة «الصومال»، وطبعت الأعداد الـ١٧ الاولى منها في عدن، ثم اشترى الحزب مطبعة في ١٩٥٩ وكانت اول مطبعة تدخل البلاد. ولعبت «قرن افريقيا» دورًا مهمًا في كشف المؤامرات الاستعمارية ضد وحدة الشعب، وتبنت الدفاع عن قضايا الاستقلال والوحدة وحاربت القبلية واهتمت بمتابعة قضايا التحرر الوطني في افريقيا.

وفي ١٩٥٨، شهدت مدينة هرغيسا صدور أول صحيفة تحمل شعارات اشتراكية هي صحيفة «الصراحة» التي عرفت بأنها صحيفة الطبقات الفقيرة، وكان يرأس تحريرها عبد العزيز الشيخ اسماعيل ومحمد عجة علي، وتحولت في ١٩٥٩ إلى ناطقة باسم حزب الاتحاد الصومالي. وتوالت إصدارات الصحف، في الشمال والجنوب (وخاصة في العاصمة موقاديشو) بعد الاستقلال والوحدة.

الانفصال: تزايدت نقمة الشماليين بعدما أطاح سياد بري الحكومة المدنية واعتقل المثقفين من قبيلة اسحاق وفرض حظرًا خاصًا على قطاع الاعمال في الشمال. وسلّح سياد بري القبائل الأخرى واللاجئين من أوغادين لمحاربة قبيلة اسحاق. ولم تنجح قبيلة اسحاق في اطاحة سياد بري إلى ان بدأ «المؤتمر الصومالي الموحد» الذي يخضع لهيمنة قبيلة الهوية تمرده في المناطق الوسطى من البلاد الذي انتهى باسقاط النظام.

وكان محمد ابراهيم عقال أول رئيس وزراء لـ«ارض الصومال» قبل التوحيد. وفي ١٩٦٧، اصبح رئيس وزراء «الجمهورية الصومالية» إثر انتخابات ديمقراطية. لكن الجنرال محمد سياد بري أطاح حكومته في ١٩٦٩ إثر اغتيال الرئيس الصومالي عبد الرشيد علي شارمايكة في منطقة لاسانود، واعتُقل عقال ووزراؤه لمدة ست سنوات في سجن لاباتان جيراو. وبعد الافراج عنه، أصبح عقال سفير الصومال لدى الهند ورئيس غرفة التجارة. وكان عقال يحظى بتقدير على المستوى الشعبي كرجل دولة صومالي. إلا ان مكانته ضعفت عقب تورطه في مواقف ضد وحدة الصومال بالاضافة إلى دوره في النزاع القبلي.

أما منافسه عبد الرحمن أحمد علي (تور) فقد كان حاكمًا اقليميًا سابقًا، وسفيرًا لفترة طويلة. انضم إلى الحركة الوطنية الصومالية، واصبح رئيسها في ١٩٩٠، ثم رئيسًا لجمهورية ارض الصومال الانفصالية. شارك في اجتماعات قادة التنظيمات السياسية التي عقدت في جنوبي موقاديشو للتهيئة لمؤتمر السلام الذي رعاه التحالف الوطني الصومالي بزعامة الجنرال محمد فارح عيديد. وكان عبد الرحمن أحمد سحب خطته القائمة على سياسة التقسيم وتعهد بتأييد وحدة الصومال إثر اجتماع مع الجنرال عيديد في أديس أبابا في العام ١٩٩٤.

في اوائل ١٩٩٤ (كانون الثاني) أعلن رئيس «جمهورية ارض الصومال» محمد ابراهيم عقال (وهو الرئيس الثاني بعد عبد الرحمن أحمد علي الملقب بـ«تور») ان المؤسسات السياسية الجديدة لـ«الجمهورية» اكتملت أخيرًا على الشكل التالي:

-محمد ابراهيم عقال رئيسًا للجمهورية ورئيسًا للحكومة التي تضم ١٢ وزيرًا وسبعة نواب وزراء.

- أحمد عبدي حابسدي رئيسًا للمجلس التشريعي (البرلمان) الذي يضم ٧٥ عضوًا.

- الشيخ ابراهيم مطر رئيسًا لمجلس الشيوخ الذي يضم ٧٥ عضوًا.

ولم تعترف أي جهة دولية بهذه الجمهورية.

في آب ١٩٩٤، طرد عقال رئيس بعثة «عملية الامم المتحدة الثانية في الصومال (يونوصوم-٢) واعضاء البعثة، بعدما اتهمهم بالتدخل في الشوون الداخلية لـ«الجمهورية». وفي آخر الشهر نفسه زار عقال القاهرة واجتمع مع أمين عام الجامعة العربية الدكتور عصمت عبد المجيد الذي نُقل عنه انه رفض طلب عقال اعتراف الجامعة بـ«الجمهورية».

وفي تشرين الثاني ١٩٩٤، أعلن عن معارك دارت بين أنصار عقال وانصار الرئيس السابق تور في العاصمة هرغيسا. والسبب الرئيسي عودة تور عن قرار الانفصال لمصلحة وحدة الصومال وتشبث عقال به. وتجددت المعارك في كانون الاول (١٩٩٤)، وفي نيسان ١٩٩٥ حيث أدّت المعارك إلى انسحاب المنظمات الانسانية ما أسفر عن نقص في المواد الغذائية والمياه والادوية، واضطر

آلاف الاشخاص إلى النزوح هربًا من المعارك. والرجلان، عقال وتور، ينتميان إلى قبيلة اسحاق التي تشكل الأكثرية بين سكان شمال غربي الصومال.

وتواصلت المعارك بينهما في ١٩٩٦ وفي مناطق عدة من البلاد. وشكل عقال حكومة جديدة. ومرّ على «الجمهورية» ست سنوات من دون ان تعترف بها أي من الدول.

في تشرين الثاني ١٩٩٧، أعلن عن تقرير تلقته القاهرة حول وفد من حكومة «جمهورية ارض الصومال» زار اسرائيل قبل نحو ثلاثة اسابيع برئاسة وزير خارجية «الجمهورية» محمود صالح نور، وان هذه الزيارة جاءت تتويجًا لاتصالات بدأت منذ قبل عام بين عقال وحكومة اسرائيل وبترتيب من اعضاء في الكونغرس الاميركي اصحاب العلاقة مع بعض الشركات المتعددة الجنسية لديها مصالح في شمالي الصومال.

وحول موقف «الجمهورية» من الاتفاق الأخير بين الفصائل الصومالية، راجع العنوان الفرعي «اعلان القاهرة» في آخر النبذة التاريخية.

دويلة شمال شرقي الصومال: (راجع «شمال شرقي الصومال، دويلة»، ج١، ص٢٠٤).

هذه الدويلة، التي أعلنت في شباط ١٩٩٣، وترأسها آنذاك أحد أعيان قبيلة مجيرتين بوقر عبد الله بوقر موسى، عصفت بها خلافات قبلية وجمّدت عملها.

لكن، في تشرين الاول ١٩٩٤ اعادت «الجبهة الديمقراطية لانقاذ الصومال» التي يتزعمها اللواء محمد أبشر موسى إحياء هذه الدويلة. وتعتبر الجبهة الديمقراطية الاطار الجامع لقبيلة مجيرتين، وقامت لجنتها المركزية بتعيين «مجلس أمناء» للدولة الجديدة والذي يعمل بمثابة مجلس وزراء برئاسة الدكتور محمد عمر جامع، وهو وزير وسفير سابق في عهد الرئيس سياد بري. وأعلن اللواء محمد أبشر موسى باسم كل من الجبهة الديمقراطية لانقاذ الصومال وأعيان قبيلة مجيرتين موافقته على تركيبة «مجلس الامناء» الذي «يعد برنامج عمل ودستور لادارة شؤون الدولة الجديدة».

وتضم «دولة شمال شرقي الصومال» ثلاثة أقاليم، هي: مُدق وعاصمته غالكعيو، ونُغال عاصمته غُروي، وباري الشرقية عاصمته بوصاصو.

مدن ومعالم

* **بربره Berbera:** مدينة في شمالي الصومال، على خليج عدن، وعلى بعد ١٣٥٠كلم عن العاصمة موقاديشو. تعد نحو ٧٥ ألف نسمة. مركز تجاري لتصدير الجلود بصورة خاصة. صيد الأسماك. كانت فيها قاعدة بحرية سوفياتية بين ١٩٧٥ و١٩٧٧ وأصبحت اميركية بدءًا من ١٩٧٩. قضت الحرب الأهلية على كامل المدينة تقريبًا.

* **بيداوه Baydhabo:** مدينة صومالية واقعة في جنوب غربي الصومال. اطلق عليها الصوماليون تسمية «مدينة الموت» خلال المجاعة التي فتكت بهم عامي ١٩٩١ و١٩٩٢، وبلغ عدد الموتى جوعًا في بيداوه أكثر من ألف شخص يوميًا وعلى مدى ايام طويلة خلال ١٩٩٢، فيما دمرت الحرب الأهلية المرافق الاساسية فيها. لكنها، في ١٩٩٣-١٩٩٤، شكلت المثال الأبرز على نجاح الجهود الدولية في مواجهة المجاعة، إذ بذلت الوحدة الهندية في «عملية الامم المتحدة الثانية في الصومال» (يونوصوم-٢) ما وسعها لمواجهة المجاعة، حتى أصبحت المدينة تسمّى «مدينة البهجة». فكانت الوحيدة بين المدن الصومالية التي تعمل فيها الكهرباء ٢٤ ساعة في اليوم، ونشطت فيها ١١ مدرسة. لكن استمرار الحرب وانسحاب القوات الدولية أعادا المدينة إلى جحيم الحرب، مثلها مثل باقي مدن ومناطق الصومال.

* **موقاديشو Mogadiscio:** عاصمة الصومال. على المحيط الهندي. تعد نحو ٩٠٠ ألف نسمة. مرفأ. أهم
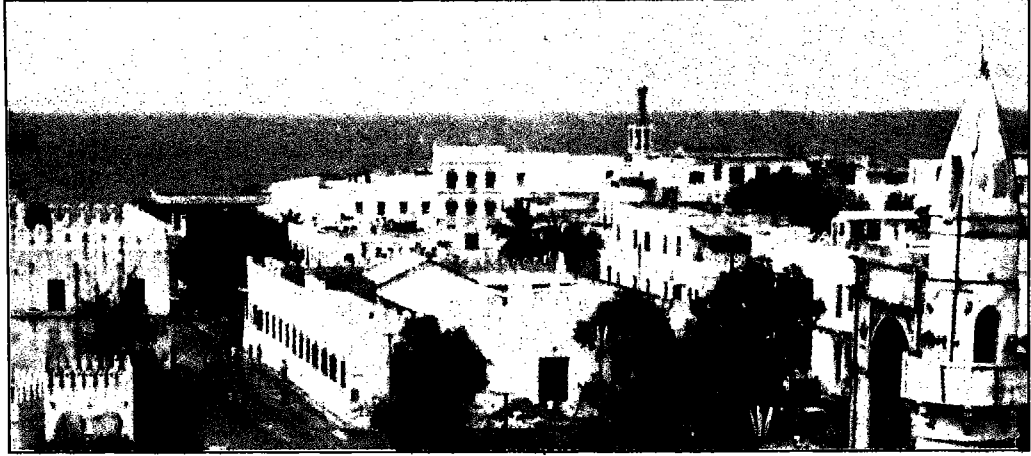
جانب من منطقة ميناء موقاديشو في الستينات.

الخط الاخضر الذي فصل شطري موقاديشو في الحرب الاهلية.

مركز تجاري في البلاد. صناعات مواد البناء. مصفاة نفطية. أكثر المدن الصومالية تضررًا من الحرب الاهلية الحالية.

لم يعثر المؤرخون بعد على تاريخ محدد لتأسيس موقاديشو. تتحدث وثيقة باتي (Chronique de Paté) عن عدد كبير من العرب، الذين ينتمون لقبيلة كانت تعيش قرب مدينة «الهزة» El Haza على الخليج الفارسي قرب البحرين، ابحروا على سفن ثلاث وهاجروا بقيادة سبعة أشقاء رفضوا الانصياع لمظالم سلطان تلك المدينة، ونزلوا على ساحل العجم حيث أسسوا مدينة موقاديشو (Les Mémoires de l'Afrique, p. 166).

* **هرغيسا Hargeisa**: مدينة في شمالي الصومال. تبعد ١٤٠٠ كلم عن العاصمة موقاديشو. تعد نحو ٩٥ ألف نسمة. كانت عاصمة الصومال البريطاني. وكادت الحرب الأهلية ان تقضي عليها كليًا في ١٩٩١. ومع ذلك اعتبرت عاصمة «جمهورية أرض الصومال» الانفصالية.

زعماء، رجال دولة وسياسة

*** حسين عفرة قوليه (١٩٢٠-):** عسكري وسياسي صومالي ومن أركان نظام سياد بري. ولد في محافظة البور، وينتمي إلى قبيلة الهوية من عشيرة أبغال. أنهى دراسته الثانوية في موقاديشو، وبعد ان عمل فترة في التجارة انخرط في سلك الشرطة في ١٩٤٣. وفي ١٩٥٤، أرسل إلى أكاديمية الشرطة في روما، ثم عين عقيدًا لدى تخرجه فيها وعودته في ١٩٥٥. بين ١٩٦٠ و١٩٦٤، عمل مرافقًا لرئيس الجمهورية عبد الله عثمان. تابع دورة تدريب في أكاديمية الشرطة في واشنطن في ١٩٦٥، وزفع إلى لواء مفرزة، ثم عين قائد هيئة أركان في ١٩٦٦.

كان مساعد آمر الشرطة عند وقوع انقلاب ٢١ تشرين الاول ١٩٦٩ (سياد بري). عين وزيرًا للداخلية، ثم اصبح في ١٩٧١ النائب الاول لرئيس المجلس الثوري مكان الجنرال خورسيل الذي أبعد عن السلطة، اصبح النائب الاول لرئيس الجمهورية محمد سياد بري، وكان بعده مباشرة في كل ما يختص بالشؤون الرئاسية، والرجل الثاني في المكتب السياسي وفي اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الثوري الصومالي (أسس في اول تموز ١٩٧٦ أثناء انعقاد مؤتمر تأسيسي ضم ٣ آلاف مندوب عينهم الحكام العسكريون للمقاطعات الـ١٥ التي تؤلف البلاد، فاجتمعوا في الأكاديمية العسكرية في موقاديشو وانتخبوا ٧٤ عضوًا يؤلفون اللجنة المركزية و٥ أعضاء للمكتب السياسي وأمينًا عامًا للحزب هو الرئيس محمد سياد بري).

اعتبر قوليه مقربًا من السياسة الغربية في نظام سياد بري. وهو معروف بتضلعه في التاريخ المعاصر، وبأنه حجة في اللغة الصومالية.

*** حسين عيديد:** راجع النبذة التاريخية.

*** عبد الرحمن أحمد علي (تور):** راجع باب «جمهورية أرض الصومال».

*** عبد الرشيد شارمايكه (١٩١٩-١٩٦٩):** رئيس سابق لجمهورية الصومال. ولد في هاراديري في إقليم أوبيا شمالي الصومال. تلقى تعليمه الأولي في مدرسة لتحفيظ القرآن، ثم التحق (١٩٣٢) بمدرسة حكومية في موقاديشو. اشتغل بعدها في وظيفة حكومية لمدة عام، ثم تركها ليتولى إدارة بعض أعماله الخاصة. في ١٩٤٤، اشتغل موظفًا حكوميًا وكانت بريطانيا متولية ادارة الصومال. وعندما وضع الصومال تحت وصاية الامم المتحدة التحق بمدرسة الادارة السياسية في موقاديشو وحصل على «ديلوم الادارة السياسية» في ١٩٥٢. وفي ١٩٥٣، سافر إلى ايطاليا لاستكمال دراسته في معهد الاقتصاد والقانون وعاد في ١٩٥٤. ثم التحق بجامعة روما حيث حصل على الشهادة العليا في العلوم السياسية.

عمل بنشاط في عصبة شباب الصومال (جامعة الشبيبة الصومالية) منذ نشأتها في ١٩٤٤. انتخب عضوًا في الجمعية التشريعية الصومالية في ١٩٥٩ عن مقاطعة جارودو. اختير أول رئيس لحكومة الصومال عقب الاستقلال مباشرة في تموز ١٩٦٠ حتى ١٩٦٤. وفي حزيران ١٩٦٧، انتخب رئيسًا للجمهورية خلفًا للرئيس عبد الله عثمان، وانتهج سياسة حسن الجوار مع كينيا واثيوبيا في محاولة لحل مشكلات الحدود سلميًا بعد فترة من الصدام المسلح. اغتيل في ١٥ تشرين الاول ١٩٦٩، وبعد اسبوع استولى الجيش على السلطة (سياد بري).

*** علي مهدي محمد:** زعيم صومالي. أحد الأطراف الرئيسيين في الصراع الصومالي. يرأس حاليًا (١٩٩٧) مجلس الانقاذ الصومالي إلى جانب تزعمه لمجموعته القبلية التي تضم ١٢ فصيلاً. وكان خلف الرئيس السابق محمد سياد بري رئيسًا موقتًا للصومال بموجب مقررات مؤتمر جيبوتي حول الصومال الذي اتفقت خلاله ست حركات صومالية رئيسية على انتخابه رئيسًا موقتًا للبلاد وكلفته تشكيل حكومة مصالحة وطنية. لكن الجنرال عيديد انشق عن المؤتمر ورفض هذا الحل، واصبح هو وعلي مهدي طرفي الحرب الاهلية الرئيسيين في البلاد (راجع النبذة التاريخية، و«محمد فارح عيديد» في هذا الباب، زعماء، رجال دولة وسياسة). وقد وجد علي مهدي، بتزعمه الحالي لمجلس الانقاذ الصومالي والذي يضم ٢٦ فصيلاً،اعترافًا اقليميًا ودوليًا جعله رقمًا مهمًا في المعادلة الصومالية.

*** فرح عمر،الحاج (١٨٦٤-١٩٤٨):** زعيم وطني صومالي ناضل ضد الاستعمار البريطاني وأسس أول حزب سياسي حديث في بلده.

بدأ حياته العامة موظفًا في الادارة الاستعمارية في ١٩١٠، لكنه ما لبث ان اصطدم بالسلطة البريطانية وراح

عندها يدعو الناس إلى الامتناع عن دفع الضرائب احتجاجًا على القمع الاستعماري، فما كان من البريطانيين إلا ان أدخلوه الجيش برتبة نقيب. إلا انه استقال بعد سنتين وانخرط في العمل السياسي. وفي العشرينات، نفوه إلى عدن، مخافة «عدوى» الفكر الوطني. وفي منفاه هذا، اسس الحاج عمر «الجامعة الاسلامية الصومالية» مناديًا باستقلال بلاده.

في بداية الثلاثينات، زار الهند حيث التقى المهاتما غاندي. وتبنى في ما بعد فلسفة غاندي وأخذ يرفع العرائض إلى السلطات البريطانية يحتج فيها على تصرفات الادارة.

اعتقل مجددًا في الاربعينات ونفي إلى جزيرة قرب عدن حيث ساءت صحته، غير انه ظل يوجّه العرائض إلى ملك بريطانيا تعبيرًا عن مطالب شعبه. عاد إلى الصومال بعد الافراج عنه. لكنه توفي بعد فترة وجيزة (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ج٤، ص٤٩١).

*** محمد ابراهيم عقال:** راجع النبذة التاريخية، وباب «جمهورية ارض الصومال».

*** محمد سياد بري (١٩١٩-١٩٩٥):** عسكري وسياسي صومالي. ولد في محافظة لوغ في منطقة جوبا العليا، وينتمي إلى قبيلة داروت (أو دارود) وعشيرة مارهان. تيتّم وهو في سن العاشرة، وحصل تعليمه الابتدائي في لوغ، وانخرط في صفوف الشرطة عندما حلّ البريطانيون محلّ الايطاليين في البلاد (١٩٤١). حاول ان يتعلم على نفسه وينمّي معارفه أثناء تعيينه معاون ضابط في موقاديشو. وعندما غادر البريطانيون البلاد في ١٩٥٠ كان قد وصل إلى أعلى رتبة منحت إلى صومالي وهي مفتش في الشرطة.

في ١٩٥٢، اختاره الايطاليون ليتابع دروسًا في الأكاديمية العسكرية في روما، ولدى عودته إلى الصومال رفّع إلى رتبة ملازم، واستمر في تحصيله الشخصي وتعلم اللغات الايطالية والانكليزية والعربية والسواحلية. ثم اصبح عقيدًا وقائدًا للشرطة حتى ١٩٦٠، وهو العام الذي أعلن فيه استقلال الصومال وإنشاء جيشه، فأصبح نائب قائد الجيش بعد وفاة الجنرال داود في موسكو (١٩٦٤). وفي ١٩٦٥، رفّع إلى رتبة عميد، وفي ١٩٦٦ أصبح رئيس الاركان.

محمد سياد بري.

استولى سياد بري على السلطة في انقلاب عسكري قاده في تشرين الاول ١٩٦٩. تبنى الاشتراكية العلمية كمنهج للحكم في ايلول ١٩٧٠، وأنشأ الحزب الاشتراكي الثوري الصومالي في ١٩٧٦ برئاسته. كما رأس مجلس قيادة الثورة المؤلف من ٢٥ عضوًا أعدم ثلاثة منهم وطرد ١١ آخرين. الغى جميع الاحزاب وحلّ الجمعية الوطنية (البرلمان) والمحكمة العليا، ووعد بإجراء انتخابات، لكن وعده لم ينفذ رغم انه أمضى ٢١ عامًا على رأس السلطة.

بدأ سياد بري ماركسيًا يحاول تطبيق «الاشتراكية العلمية» في مجتمع قبلي مسلم. فأعطى السوفيات (في ١٩٧٤) قاعدة عسكرية بحرية في ميناء بربره الاستراتيجي على البحر الأحمر، كانت أهم وأكبر قاعدة عسكرية في المنطقة، ووقع مع الاتحاد السوفياتي، وقتذاك، معاهدة صداقة وتعاون ودفاع، وأمّم كل المؤسسات الخاصة. وجرت أول محاولة لتغيير نظامه عبر رجال الدين في ١٩٧٥ فأعدم عشرة علماء واعتقل ١٣ آخرين.

في ١٩٧٧، خاض سياد بري حربًا ضد أثيوبيا لاستعادة إقليم أوغادين فاحتل ٩٠٪ من اراضي الاقليم قبل ان يتخلى عنه السوفيات لمصلحة حليفهم الجديد في المنطقة الكولونيل منغيستو هايلي مريام الذي كان يحكم أثيوبيا. فردّ سياد بري بقطع علاقات بلاده مع الاتحاد السوفياتي وتحول إلى الولايات المتحدة التي وقّع مع حكومتها اتفاقًا سياسيًا وعسكريًا واقتصاديًا عام ١٩٨٩. وحصلت

واشنطن بموجب الاتفاق على تسهيلات عسكرية في بربره وموقاديشو. لكن الولايات المتحدة تخلت عنه بدورها في العام نفسه، كذلك فعلت دول غربية عدة بسبب انتهاكه حقوق الانسان وممارسة القتل والتعذيب ضد شعبه ظاهرًا، في حين ان السبب الحقيقي هو ان بلاده فقدت أهميتها الاستراتيجية مع انهيار الاتحاد السوفياتي.

وعندما كانت قوات المعارضة الصومالية تحاصر مقر سياد بري في قصره الرئاسي «فيلا صوماليا» منتصف كانون الثاني ١٩٩١، نُقل عنه قوله: «عندما أتيت إلى موقاديشو كان فيها طريق واحد مهّده الايطاليون، وإذا أرغموني على التنحي، فسأترك لهم المدينة كما تسلمتها (...) لقد وصلت بواسطة السلاح ولن أتركها إلا بقوة السلاح».

وغادر سياد بري موقاديشو في ٢٦ كانون الثاني ١٩٩١ في دبابة مثلما دخل إليها قبل ٢١ عامًا. ولم يخلفه أحد حتى اليوم (ربيع ١٩٩٨) في رئاسة البلاد، إذ تواصلت الحرب القبلية فيها.

في ٢ كانون الثاني ١٩٩٥، أعلنت السلطات النيجيرية وفاة محمد سياد بري إثر أزمة قلبية تعرّض لها قبل اسبوعين في منفاه في العاصمة النيجيرية أبوجا. وكان لجأ إلى نيجيريا في ١٩٩٢ واقام في أبوجا. وقد نقل إلى لاغوس اثر إصابته بالنوبة القلبية وفارق الحياة فيها (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ج٦، ط١، ١٩٩٠، ص٨٧؛ وعن «الحياة»، ٣ كانون الثاني ١٩٩٥، ص١).

*** محمد عبد الله (١٨٦٤-١٩٢١):** راجع النبذة التاريخية.

*** محمد علي سمنتار (سمنتار) (١٩٣٩-):**
عسكري وسياسي صومالي ومن أركان نظام سياد بري. يعود بأصله إلى قبيلة تومال (أغلب افرادها من الحطابين).

تلقى دروسه في الارسالية الكاثوليكية في موقاديشو، وتابع تحصيله في مدرسة المشاة بين ١٩٥٤ و١٩٥٦، وخدم فيها حتى ١٩٦١، ثم دخل في الجيش برتبة نقيب. في ١٩٦٣، تابع دورة تدريب في ايطاليا في معهد سيسانو العسكري ثم شارك في الحملة ضد اثيوبيا في أوغادين العام ١٩٦٤. وفي تموز ١٩٦٥، رقي إلى رتبة عقيد، وغادر الصومال إلى الاكاديمية العسكرية السوفياتية ليتابع هناك دروسه العسكرية حتى تموز ١٩٦٧. عين مديرًا للرياضة في تموز ١٩٦٩، ثم رئيسًا في هيئة الاركان ومسؤولاً عن تدريب المجندين. بعد انقلاب ٢١ تشرين الاول ١٩٦٩، عين رئيسًا للجنة التربية الوطنية ثم رئيسًا لمكتب المراقبة. وفي كانون الاول ١٩٦٩، عاد إلى الاتحاد السوفياتي من جديد. وفي ايار ١٩٧٠، رفع إلى رتبة جنرال، وأصبح في تموز ١٩٧١ النائب الثاني لرئيس المجلس الثوري الاعلى (سياد بري) ووزير الدفاع، وفي كانون الاول ١٩٧٤ اصبح رئيس لجنة الأمن.

أقام علاقات ممتازة مع الخبراء العسكريين السوفيات في الصومال وساعدهم بقوة في ادخال الماركسية بين رفاقه في السلاح وساعد في دعم التعاون بين موقاديشو وموسكو. لكنه انقلب على الاتحاد السوفياتي لوقوفه إلى جانب اثيوبيا واصبح من أبرز دعاة التحالف مع الغرب والولايات المتحدة. وقد عرف ايضًا بعلاقاته القوية مع المملكة العربية السعودية.

النائب الثاني لرئيس الجمهورية محمد سياد بري، والرجل الثاني في المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الثوري الصومالي ووزير الدفاع وقائد الجيش، فاعتبر الخليفة المنتظر لمحمد سياد بري، وقد تولى بهذه الصفة مهام الرئاسة في ١٩٨٦ إثر إصابة سياد بري بجروح بالغة في حادث سيارة.

*** محمد فارح عيديد (١٩٣٤-١٩٩٦):**
عسكري وسياسي صومالي وأبرز قادة الحرب الأهلية الصومالية منذ اندلاعها مع إطاحة سياد بري في ١٩٩١ حتى وفاته في ١٩٩٦.

ينتمي إلى فرع (أو فخذ) هيرجدر-سعد من قبيلة هوية. ولد في بلدة بلدوين في اقليم وسط الصومال. ترعرع في مدينة جالكعيو في الاقليم نفسه (مركز قبيلة الهوية وفروعها الاساسية في العاصمة موقاديشو).

في ١٩٥٩، وبعد انتهائه من الدراسة الثانوية، بدأ محمد فارح حسن (ملقب بـ«عيديد») نشأته العسكرية، فأنهى تعليمه الجامعي وتدريبه في وحدات الشرطة، كما أنهى دورة أمنية في أكاديمية عسكرية في روما. وبين ١٩٦٣ و١٩٦٦، تعلم الدبلوماسية كمتدرب خلال دراسته العسكرية في أكاديمية فرونز الروسية لتدريب الضباط الأجانب، ثم عاد إلى موقاديشو ليتسلم قيادة جهاز العمليات العسكرية، ثم قيادة الجيش في هرغيسا حتى ١٩٦٨.

كان صديقًا لمحمد سياد بري. وعندما كان هذا يخطط لانقلابه في ١٩٦٩، طلب من عيديد المشاركة معه

محمد فارح عيديد.

علي مهدي محمد

محمد ابراهيم عقال.

حسين عيديد.

عبد الله ابراهيم.

في تنفيذ الخطة، لكن الأخير رفض بدبلوماسية، فلم يقتنع سياد بري برفضه، ورغم ذلك سلّمه رئاسة الوكالة العسكرية في موقاديشو، ثم عينه قائدًا عسكريًا للمنطقة الوسطى في الصومال حتى ١٩٧٧. وعندما اندلعت الحرب الصومالية-الأثيوبية للسيطرة على إقليم أوغادين (١٩٧٧-١٩٧٨)، نقله إلى القصر الرئاسي المعروف بـ«فيلا صوماليا» وعينه مستشارًا عسكريًا له كي يبقى قريبًا منه. لكن زميل عيديد وصديقه الجنرال عبد الله يوسف حاول الانقلاب على سياد بري، الأمر الذي اثار الشكوك بعيديد، فعينه سياد بري سفيرًا في الهند بين ١٩٨٤ و١٩٨٩.

في ١٩٨٩، عاد عيديد إلى المنطقة الوسطى في الصومال، وشارك في ١٩٩٠ في تاسيس «المؤتمر الصومالي الموحد» المعارض لسياد بري، إلى ان استطاع في كانون الثاني ١٩٩١ اطاحته بالتحالف مع الحركة الوطنية الصومالية التي تهيمن عليها قبائل اسحاق في الشمال، ومع

حركة الوطنيين الصوماليين التي تسيطر عليها قبائل الأوغادين في الجنوب الغربي.

وفي ما كان عيديد يطارد سياد بري الذي فرّ إلى جنوبي البلاد، عيّن رجل الاعمال الصومالي علي مهدي محمد نفسه رئيسًا مؤقتًا للصومال، وهو ينتمي، مثل عيديد، إلى قبيلة «هوية»، لكنه من أحد الفروع الأساسية فيها، فرع أبغال، وأبناء هذا الفرع هم من سكان موقاديشو الأصليين، في حين ان عيديد من أبناء فرع ثانوي يسكن الريف والأطراف. وبذلك نشب صراع دموي على السلطة بين أنصار الرجلين.

حظي عيديد بشعبية واسعة عندما اتخذ موقفًا عدائيًا من القوات الدولية معتبرًا إياها قوات احتلال تسعى إلى إعادة استعمار الصومال، ضاربًا بذلك على الوتر الوطني الذي يُذكّر الصوماليين بفترة الاستعماريين الايطالي والبريطاني. لذلك لقي تأييدًا من مواطنيه عندما قتلت قواته ٢٣ جنديًا باكستانيًا من قوات حفظ السلام الدولية في موقاديشو (حزيران ١٩٩٣) لدى محاولتهم احتلال مقر الاذاعة. واتسعت شعبيته بين اوساط قبيلته هبرجدر–سعد عندما اتخذ مجلس الامن قرارًا بمطاردته واعتقاله، وصار الشخص المطلوب الرقم ١ لدى الامم المتحدة التي عرضت جائزة مالية لمن يعتقله. وردّ هو بعرض جائزة مالية لمن يعتقل ممثل الامم المتحدة في الصومال آنذاك الجنرال الاميركي جوناثان هاو. وعندما حاولت قوات «رانجرز» الاميركية للعمليات الخاصة تنفيذ قرار الامم المتحدة واعتقال عيديد، شنت عشرات الغارات الليلية و لم تتمكن منه، بل ان قواته أسقطت طائرتي «بلاك هوك».

واعتبر عيديد فشل الامم المتحدة وانسحابها نصرًا له. فنصّب نفسه، في حزيران ١٩٩٥، رئيسًا موقتًا على البلاد، لكن خصومه لم يعترفوا به، كما لم يعترف بحكومته المجتمع الدولي. وهكذا تكرس القتال بين الفصائل الصومالية المختلفة وعلى رأسها فصيل عيديد وفصيل منافسه علي مهدي محمد.

وفي نيسان ١٩٩٦، عين عيديد حكومة من ٩٠ وزيرًا، لم تجد اعترافًا لا من الداخل ولا من الخارج. وكان تشكيل تلك الحكومة سببًا مباشرًا للخلاف بين عيديد وممموله وحليفه عثمان حسن عاتو، وانفصال الأخير عنه ليتحالف مع علي مهدي. ومنذ ذلك الحين اصبحت قوات الجنرال عيديد في حال دفاع بعد فقدانها لكثير من اراضيها عسكريًا. وفي آخر المواجهات في العاصمة موقاديشو التي يسيطر عيديد على نصفها الجنوبي بينما يسيطر علي مهدي وعاتو على شطرها الشمالي، في ٢٤ تموز ١٩٩٦، اصيب الجنرال في بطنه وكتفه، وأخضع للعلاج على يد طبيب ايطالي لكنه توفي ليلة ٢ آب ١٩٩٦.

بعد ايام، عين «التحالف الوطني الصومالي» إبنه حسين عيديد خلفًا له في زعامة التحالف (راجع النبذة التاريخية).

الصين

بطاقة تعريف

الاسم: ثمة اختلاف على مصدر، أو جذور إسم «الصين» وما يعنيه:

- «كين» Qin (تشن Tch'in)، وهو إسم السلالة الاولى التي حكمت الصين.
- «كاتاي» Cathay، وهو الإسم الذي أطلقه ماركو بولو على البلاد، وكان إسم إحدى قبائل المنغول.
- الصين Chine، أو «زونغيو» في اللغة المحلية، وتعني «بلاد الوسط».

الموقع والمساحة: في شرقي آسيا. مساحتها ٩٥٧١٣٠٠كلم م.، (الثالثة في العالم). مسافة أبعد نقطتين بين الغرب والشرق ٥ آلاف كلم، وأبعد نقطتين بين الشمال والجنوب ٥ آلاف و٥٠٠كلم. طول حدودها البرية ٣٢ ألف كلم، وحدودها البحرية ١٨ ألف كلم (باستثناء شواطىء ٥ آلاف جزيرة تابعة لها).

العاصمة وأهم المدن: بكين (العاصمة)، شانغهاي، تيانجين، شنيانغ، ووهان، شنغتو، نانكين... (راجع «مدن ومعالم»). في ١٩٩٠، كان في الصين ١٢٤٥٠ مدينة، بينها ٣٠ مدينة يفوق عدد سكان كل منها المليون نسمة.

اللغات: لغة الهان، والهان هم الاتنية الغالبة في الصين (٩٢٪ من مجموع السكان)، هي من مجموعة لغات التائي والتيبيتية-البورمانية. بقيت اللغة القديمة ثابتة في كتابتها منذ نحو ألفي سنة، إلى أن طرأ عليها بعض التبسيط منذ ١٩٥٠. ومن هذه اللغة تتفرع لهجات محكية في مناطق مختلفة من الصين. وقد جرى إدخال الحرف اللاتيني على اللغة الصينية. فأصبح هناك: لغة الويد Wade (إنكليزية مستعملة في تايوان)، لغة الإيفيو Efeo (المدرسة الفرنسية للشرق الاقصى)، ولغة البينيين Pinyin (الأكثر انتشارًا في الصين الشعبية).

الاديان: أقر دستور ١٩٨٢ حرية المعتقد الديني. لكن الحزب الشيوعي الصيني استمر على إلحاده ودعوته للإلحاد معتبرًا ان الاديان ليست سوى

نتاج القمع الطبيعي والاجتماعي الذي خضع له الانسان، وتمثل مفاهيم معكوسة للعالم ولّدتها ظروف تاريخية معينة كانت البشرية خلالها عاجزة عن إدراك القانون الموضوعي للطبيعة والمجتمع.
أكبر الأديان الصينية البوذية والتاوية وقد اندمجا في الكونفوشيوسية التي هي في الحقيقة أقرب إلى الفلسفة منها إلى الدين. وقد تحولت الكونفوشيوسية، منذ القرن الرابع عشر، إلى دين شعبي، يختلف في بعض طقوسه بين منطقة وأخرى، والقاسم المشترك الأساسي بينها تكريم الأجداد إلى درجة العبادة. ولكل من البوذية والتاوية إكليروسها.
أتباع الكونفوشيوسية يبلغون نحو ١٨٥ مليون نسمة (١٥٣ مليونًا بوذيين، و٣٢ مليونًا تاويين). وهناك نحو ٣٥ مليون مسلم بحسب الاحصاءات الرسمية؛ لكن المصادر الاسلامية، في داخل الصين وخارجها، ترجح أن العدد يقرب الـ ١٠٠ مليون مسلم _دخل الاسلام الصين في القرن السابع عن طريق التجار العرب ومن خلال طريق الحرير وعبر مرافىء غانغدونغ وفوجيان؛ وفي القرن الثالث عشر، عرف الاسلام توسعًا كبيرًا مع فتوحات جنكيزخان). في ١٩٩٠، أقفلت السلطات ٥٠ مسجدًا ومنعت بناء ١٠٠ مسجد.
دخلت المسيحية الصين في القرن الثامن عن طريق راهب سوري، إسمه أولاين، اقام في شانغان. وأول أسقف صيني هو غريغوريوس ليو.
بعد ١٨٤٠ (حرب الأفيون)، ازداد عدد المسيحيين في الصين بصورة واسعة وسريعة. ففي ١٩٠٠ بلغ عددهم مليون كاثوليكي، من بينهم ٧٢٩ كاهنا أبيض و٤٠٩ صينيين، وبلغ عدد الكنائس ٣٩٣٠ كنيسة، والمدارس ٢٩١٢ مدرسة. وفي ١٩٤٨، اصبح هناك نحو ٣ ملايين وربع المليون كاثوليكي. وفي السنوات الاولى من الحكم الشيوعي، بدأت السلطات باضطهادهم. عددهم الحالي بين ٣،٥-٦ ملايين نسمة. المسيحيون البروتستانت يفوق عددهم بكثير عدد الكاثوليك، وتشير بعض التقديرات إلى ان عددهم يبلغ نحو ٤٥ مليونًا، وكان كل من الزعيمين صن يات صن وتشيانغ كاي تشيك بروتستانتيًا.
تؤكد المصادر التاريخية وجود اليهود في كيفنغ (مقاطعة في هينان الصينية) في ايام حكم أسرة الهان (٢٠٦ق.م.-٢٢٠ بعد الميلاد). وفي القرن التاسع عشر، كان وجودهم محصورًا في المرافىء المفتوحة وفي منشوريا. وفي ١٩٣٩ كان عددهم ٣٠ ألفًا، وهبط في ١٩٥٦ إلى ٤٠٠ فقط؛ وفي ١٩٥٧ هاجروا إلى اسرائيل.
السكان: في العام ١٩٠١ كان عدد الصينيين ٤٢٦ مليونًا؛ وفي ١٩٤٩، بلغ ٥٤٨ مليونًا؛ وبحسب إحصاء ١٩٥٣، بلغ العدد ٥٨٢ مليونًا؛ وأشار إحصاء ١٩٨٢ إلى ان عددهم بلغ مليار و٤ ملايين، بينهم ٩٣٧ مليونًا (٩٣،٣٪)، من الهان، و٦٧ مليونًا (٦،٧٪) من الاقليات الاتنية؛ وحدّد إحصاء الأول من تموز ١٩٩٠ العدد بمليار و١٣٣ مليونًا و٦٨ ألفًا (٩٢٪ هان، ٨٪ أقليات)؛ وأعطت التقديرات الاحصائية للسكان في ١٩٩٢ الرقم مليار و١٧٠ مليونًا؛ والتقديرات الحالية ١٩٩٧-١٩٩٨) تشير إلى مليار و٢٠٠ مليون. السلطات تقول إن سياستها الديمغرافية تعمل على ألا يزيد العدد عن مليار و٣٠٠ مليون في العام ٢٠٠٠.
حتى السبعينات، كانت نسبة التزايد السكاني ٢،٥٪ سنويًا. ومع سياسة تنظيم النسل هبطت النسبة إلى ١،٤٪، ثم إلى ١٪. فرض قانون

الزواج سن الزواج ٢٢ عامًا للذكور و٢٠ للاناث، والمسموح بانجابه هو طفل واحد لكل أسرة، باستثناء مناطق محدودة متزامية الاطراف أو مناطق قليلة الكثافة ويصعب فيها تطبيق مثل هذه الاحكام.

في عددها الصادر في اوائل ١٩٩٨، ذكرت مجلة «سكان ومجتمعات» Population et Sociétés (عن المعهد الفرنسي للدراسات السكانية) أن التقديرات الأخيرة للأمم المتحدة تفيد أن سكان الهند (٩٧٦ مليونًا) سيبلغون ١،٥ بليون في العام ٢٠٥٠ وستنتزع الهند من الصين لقب البلد الأكثر عددًا للسكان في العالم.

وذكرت المجلة ايضًا ان الهند أعربت، على غرار الصين، عن قلقها إزاء زيادة عدد السكان منذ الخمسينات، وان سياسة الطفل الوحيد المطبقة في الصين لم تحقق الاهداف المرجوة منها. وساهمت هذه السياسة، مضافة إلى التفضيل التقليدي لدى الصينيين للذكور في زيادة عمليات الاجهاض للإناث، ما أدى إلى خلل في الولادات. فبلغت نسبة الذكور ١٢٢-١٣١ مقابل ١٠٠بنت. وسيعاني المجتمع الصيني طوال عشرات السنوات من هذا الخلل، كذلك من عدم التوازن في الزيجات وتراجع نسبة صغار السن.

يعيش ٩٠٠ مليون من السكان الصينيين في الارياف في حين يقطن ٣٠٠ مليون في المدن والبلدات التي يفوق عددها ١٠٠ ألف. ونجحت السياسة السكانية بالسيطرة على حركة انتقال السكان وأوقفت الزحف على المدن، رغم التغييرات التي بدأت تطرأ نتيجة الخطوات الاولى للانفتاح الاقتصادي التي بدأت في ١٩٧٨ وتعززت في ١٩٨٥ وتزخمت في اوائل التسعينات ولا تزال. فقامت المؤسسات الحكومية، منذ اوائل السبعينات، بتنفيذ برامج واسعة النطاق لتأمين المسكن والمأوى لمئات الملايين من الصينيين..

الحكم: جمهورية شعبية. «دولة اشتراكية تستمد ديكتاتوريتها من ديمقراطية الشعب Etat socialiste de dictature démocratique du peuple تقودها الطبقة العمالية وترتكز على تحالف العمال والفلاحين». يشارك الشعب في ادارة الدولة، وهي دولة موحدة ومتعددة القوميات. الدستور المعمول به صادر في ٤ كانون الاول ١٩٨٢. وهو ينص على ان الهيئات التي يمارس الشعب سلطة الدولة بواسطتها هي الجمعية الشعبية الوطنية (البرلمان) والجمعيات الشعبية المحلية (المادة ٢)، كما ان جميع هيئات الدولة تمارس «المركزية الديمقراطية» (المادة ٣)، وكل القوميات متساوية في الحقوق وتتمتع بحرية واستعمال وإنماء عاداتها وتقاليدها، ويكون هناك استقلال محلي حيث الاقليات القومية تشكل مجموعات متماسكة (المادة ٤).

الجمعية الشعبية الوطنية (البرلمان) هي الهيئة العليا في الدولة، وتتكون من لجنة دائمة من ١٥٥ عضوًا، ومن مجلس نيابي: ٢٩٧٧ نائبًا في انتخابات ١٩٩٣.

الحكومة، أو «مجلس شؤون الدولة» الذي تنتخب أعضاؤه الجمعية الشعبية الوطنية. ويتشكل هذا المجلس، إلى رئيسه أو رئيس الوزراء، من ١١ مستشار دولة، وسكرتير عام و٤١ وزيرًا. ويقال للوزراء «رؤساء لجان الدولة».

الحزب الشيوعي الصيني، تتشكل لجنته المركزية من ٣١٩ عضوًا، ويضم مكتبه السياسي ٢٠ عضوًا، ويبلغ عدد أعضائه نحو ٥١ مليون عضو (في ١٩٩١). بين ١٩٨٨-١٩٩٣، جرى طرد نحو مليون عضو من الحزب في حملة ضد

الفساد. كل خمس سنوات يعقد الحزب مؤتمرًا عامًا (راجع «الحزب الشيوعي الصيني» في معالم تاريخية).

المقاطعات: تقسم الصين، اداريًا، إلى ٢٢ مقاطعة (إسم المقاطعة، مساحتها، عدد أنفسها، إسم عاصمتها):

- سيشوان: ٥٦٧ ألف كلم م.، نحو ١٢١ مليونًا، شنغدو.
- شاندونغ: ١٥٣ ألف و٣٠٠كلم م.، نحو ٩١ مليونًا، جينان.
- هينان: ١٦٧ ألف كلم م.، نحو ٩٣ مليونًا، زنغزو.
- جيانغسو: ١٠٢ ألف و٦٠٠ كلم.م، نحو ٧٥ مليونًا، نانكين.
- هيباي: ١٨٨ ألف كلم م.، نحو ٦٨ مليونًا، شيجياهوانغ.
- غوانغدونغ: ١٧٨ ألف كلم م.، نحو ٦٨،٥ مليونًا، كانتون.
- هونان: ٢١٠ آلاف و٥٠٠كلم م.، نحو ٦٨ مليونًا، شانغشا.
- أنهوي: ١٣٩ ألفًا و٩٠٠كلم.م، نحو ٦٣،٥ مليونًا، هيفاي.
- هوباي: ١٨٦ ألف كلم.م.، نحو ٦٢ مليونًا، ووهان.
- زيجيانغ: ١٠١ ألف و٨٠٠كلم.م.، نحو ٤٧،٥ مليونًا، هانغزو.
- لياونينغ: ١٤٦ ألف كلم.م.، نحو ٤٦ مليونًا، شينيانغ.
- يونان: ٣٩٤ ألف كلم م.، نحو ٤١،٥ مليونًا، كونمينغ.
- جيانغكسي: ١٦٩ ألف كلم م.، نحو ٤٥ مليونًا، نانشنغ.
- شانكسي: ٢٠٦ آلاف كلم م.، نحو ٣٦،٥ مليونًا، كسيان.
- هايلونغجيان: ٤٦٩ ألف كلم م.، نحو ٤٢ مليونًا، هاربن.
- شانكسي: ١٥٦ ألف كلم م.، نحو ٣٦ مليونًا، تايوان.
- غيزو: ١٧٦ ألف كلم م.، نحو ٣٩ مليونًا، غيانغ.
- فوجيان: ١٢١ ألف كلم م.، نحو ٣٧،٥ مليونًا، فوزو.
- جيلين: ١٨٧ ألف كلم م.، نحو ٣٥،٥ مليونًا، شانغ شون.
- غانسو: ٤٥٤ ألف كلم م.، نحو ٢٧ مليونًا، لانزو.
- هينان: ٣٤ ألف كلم م.، نحو ١٠ ملايين، هايكو.
- كينغهاي: ٧٢١ ألف كلم م.، نحو ٨ ملايين، كسينينغ.

مناطق مستقلة

غوانكسي أو غوانغ-سي: واقعة على خليج تونكين، طول شاطئها ١٥٠٠كلم وتضم ٧٠٠ جزيرة، مساحتها ٢٣٦ ألف كلم م.، وعدد سكانها نحو ٤٤ مليونًا، عاصمتها نانينغ. أهم منتوجاتها الزراعية: الرز والذرة وقصب السكر والشاي والتبغ والفواكه، وتغطي الغابات ٢٣٪ من مساحتها. وأهم معادنها القصدير والزنك.

منغوليا الداخلية، يسميها الصينيون نايمنغو Neimenggu: مساحتها مليون و١٨٣ ألف كلم م.، وعدد سكانها نحو ٢٣ مليونًا، بينهم ١٠٪ من المنغول، وهناك أقليات من الكوريين والمنشوريين. عاصمتها هيهوهوت. زراعاتها القمح والشعير والسورغو والذرة والبطاطا والشمندر السكري. شهيرة بتربية الماشية والخيول، وبنمط حياة البداوة والرعي وإن كانت في تضاؤل. أهم معادنها الفضة والحديد والكروم والنحاس، واحتياطي كبير من الفحم. كانت تسكنها القبائل المنغولية عندما اخضعتها امبراطورية المنشو ابتداء من ١٦٣٥. وبعد سقوط أسرة كينغ، استمرت المنطقة الجنوبية من منغوليا (أي منغوليا الداخلية) تابعة للجمهورية الصينية، وقسمت في ١٩١٤ إلى ثلاث «مناطق خاصة»، ثم اصبحت ثلاث مقاطعات في ١٩٢٨. أثناء الاجتياح الياباني، انضم الامير المنغولي تو To إلى اليابانيين لتحقيق «منغوليا

الكبرى» (في قسميها الشمالي والجنوبي)، وترأس دولة منغولية جديدة (١٩٣٧) اعترفت بها اليابان ودعمت وجودها. وبعد هزيمة دول المحور، أنشأ الشيوعيون الصينيون (في ١٩٤٧) مكانها مقاطعة ذات استقلال داخلي باسم نايمنغو، وكان أولنفو (١٩٠٦-١٩٨٨) أول رئيس لها، وهو أول سكرتير عام للحزب الشيوعي الصيني (واستمر في هذا المنصب حتى ١٩٦٧). سياسة تصيين منغوليا الداخلية بدأت مع الجمهورية الصينية الاولى في ١٩١١، وأدى ذلك إلى ان يهبط عدد المنغول فيها حتى اصبحوا لا يشكلون أكثر من ١٠٪ من سكانها.

التيبت، يسميها الصينيون كسيزنغ Xizang (راجع، ج٧، ص١٥٥-١٦٤).

كسينجيانغ (سينكيانغ): راجع الباب الخاص بها.

نينغكسيا هوي: في شمالي البلاد. مساحتها ٦٦٤٠٠ كلم م.، وعدد سكانها نحو ٥،٥ ملايين نسمة، ثلثهم من اتنية الهوي، وثلث من المنغول والمنشوريين. عاصمتها ينشوان. زراعاتها الحنطة والبطاطا والشمندر السكري. ثرواتها المعدنية الجيبس والنفط والفحم والفوسفور. صناعاتها ميكانيكية وبتروكيميائية.

وضعيات إدارية خاصة: ثلاث بلديات: بكين، شانغهاي، وتيانجين (تينستين).

هونغ كونغ وماكاو: راجع باب «هونغ كونغ وماكاو».

ماكاو: راجع باب «هونغ كونغ وماكاو».

تايوان: راجع باب «تايوان».

الاقتصاد: في الجنوب، حيث المناخ المداري تكثر زراعة الأرز (الرز)، وقصب السكر والشاي على الهضاب. في الوسط الرز والقطن. في الشمال القمح والشعير والذرة والبطاطا الحلوة وشجر التوت (الحرير) والقطن. التصحير أصبح يغطي نحو مليون و٣٠٠ ألف كلم م.، من اراضي الصين، والخبراء يقولون انه في ازدياد يبلغ ألف كلم م.، سنويًا. لكن الصين ناشطة في مشاريع الري، وتبلغ اراضيها المروية ٥٥ مليون هكتار (الأولى في العالم من حيث مساحة الاراضي المروية). المصاعب الزراعية متأتية من التجهيزات الزراعية (خاصة في حقل صناعة الجرارات الزراعية) غير الكافية، ومن مردودية الهكتار المرتفعة الكلفة نسبيًا: بين ١٩٨٩ و١٩٩٣، خسارة نحو ٤٥ مليون طن سنويًا من مخزون الانتاج الزراعي بسبب الهبوط في أسعار السوق العالمي، وارتفاع في أسعار الكلفة.

أكبر المناطق الصناعية: المناطق الجنوبية من منشوريا حيث الصناعة المعدنية والكيميائية، وكانتون حيث صناعة الحرير والاقمشة (القطنيات)، وشانغهاي وبكين.

في أيام ماو تسي تونغ، أعاق الاهتمام الايديولوجي الإنماء الصناعي، لكنه أوجد لدى الصينيين قاعدة وسلوكية صناعية تغذيها فكرة الاعتماد على الذات باطلاق شعار «بناء كل شيء في مكانه»، فأقيمت الآلاف من الصناعات المحلية الصغيرة والخفيفة. وبعد وفاة ماو، جرى التخلي عن «بناء كل شيء في مكانه»، وبدأت الاستثمارات الكبيرة في قطاعات النقل، وأعيدت هيكلة المناطق الاقتصادية، وبذلت المساعي طلبًا للمساعدات التكنولوجية الخارجية. فكانت اليابان أول دولة مشاركة فوقعت الصين معها اتفاقًا تجاريًا (١٩٧٨) في إطار «معاهدة سلام وصداقة»، كما تقرر قيام مساع باتجاه المجموعة الاوروبية (قروض للدولة أو لمجموعات مصرفية، إقامة شركات اقتصادية مختلطة، بضائع نصف مصنعة لانجازها هناك...).

أما المنجزات العلمية الصينية، فكانت عناوينها حتى ١٩٧٥: القنبلة الذرية الاولى (١٩٦٤)، القنبلة الهيدروجينية الاولى (١٩٦٧)، القمر الصناعي الاول (١٩٧٠)، وأول استعادة للقمر الصناعي (١٩٧٥).

أما السياسة الاقتصادية الصينية الجديدة فقد بدأت في ١٩٧٨ مع السماح لاقامة المشاريع الخاصة، ثم مع إطلاق سياسة الاصلاح الاقتصادي (نيسان ١٩٧٩) التي بدأت باعطاء امتيازات للصناعات الخفيفة والاستهلاكية، وتغيير نظام الاسعار والاجور واليد العاملة بما يتلاءم ووظائف أواليات السوق، وتدعيم المشاريع بهدف زيادة انتاجية العمل. وفي ١٩٨٠، أقيمت الشركات المختلطة لاستيعاب التقنيات الاجنبية وصنع المنتوجات المعدة للتصدير، والمناطق الحرة أو الخاصة في مقاطعة غوانغدونغ وفوجيان، كما جرت العودة إلى الزراعات العائلية. وبين ١٩٨٣ و١٩٨٨، أعطيت الافضلية للسياسة الاقتصادية على السياسة الخارجية، وفتحت خمس مناطق حرة خاصة جديدة، و١٤ مرفأً لاجتذاب المستثمرين الاجانب. وفي نيسان ١٩٩٠، افتتحت منطقة حرة جديدة في بودونغ (شانغهاي) بمساحة ٣٥٠كلم م.. وفي ١٩٩١، دُشن العمل بـ٢٥٠٠ مشروع طاقة استيعاب العاملين بها ١،٣ مليون شخص، أي ما نسبته ٨٪ من مجموع الطاقة الصناعية لشانغهاي، كما جرى السماح للمشاريع الخاصة بصرف اليد العاملة الفائضة فيها. وفي ١٩٩٢، وضع مشروع ميناء دلتا تومن Tumen مع كوريا واليابان والاتحاد السوفياتي السابق (الوقت الذي يستغرقه هذا المشروع ٢٥-٣٠ عامًا، وكلفته نحو ٤٠ مليار دولار). وفي تشرين الاول ١٩٩٢، أطلق المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي الصيني سياسة «اقتصاد السوق الاشتراكي»، وألغى صيغة «الخضوع لادارة الدولة».

ففي فترة لا تزيد عن ١٥ سنة (آخرها اوائل ١٩٨٨) حققت الصين قفزة اقتصادية كبرى، وأصبحت تعد في مصاف الدول الكبرى اقتصاديًا. فتدفق رجال الاعمال الغربيون إلى «سوق العصر» (١،٢ مليار مستهلك) حيث وجدوا «المناطق الاقتصادية الخاصة» (مناطق حرة) تنتظرهم على الساحل الصيني، وفتحوا أكثر من ١٩٠ ألف شركة ومشروع. ففي ١٩٩٣ وحده بلغت الرساميل الاجنبية المستثمرة فعلاً في الصين ٢٧،٥ مليار دولار، وتقدمت بنسبة ١٦٪ في ١٩٩٤ لتصبح الصين ثاني بلد في العالم بعد الولايات المتحدة من حيث الرساميل الخارجية، ثم تقدمت لتصبح ٣٨ مليار دولار في ١٩٩٥. والاستثمارات الاجنبية في الصين وحدها تعادل كل الرساميل الاجنبية الموجودة في المكسيك والارجنتين وتايلاند واندونيسيا مجتمعة. وفي ١٩٧٧، أصبحت الصين أغنى دولة من حيث الاحتياطات بالعملات الاجنبية التي تفوق لديها قيمة ١٠٠ مليار دولار. وقد وظفت قسمًا كبيرًا منها في سندات الخزينة الاميركية. وتجدر الاشارة إلى ان الادارة الاميركية برّرت، في ربيع ١٩٩٧، تجديد تطبيق «بند الدولة الأكثر رعاية» على الصين على رغم معارضة رجال الكونغرس الذين رغبوا في معاقبتها لانتهاكها حقوق الانسان، بالتذكير بأن السوق الصينية «توفّر ١٧٠ ألف وظيفة للاميركيين» وان عدم تطبيق البند المذكور على الصين سوف «يكلّف المستهلكين الاميركيين نحو ٦٠٠ مليون دولار إضافي سنويًا».

لكن هذه الوثبة من الازدهار الذي حققته الصين في مدة قياسية سرعان ما أفرزت، أو بدأت تفرز، آفات هي عادةمصاحبة للنظام الرأسمالي

ولاقتصاد السوق. فاللامساواة الاجتماعية والهوة بين المناطق الناجمة عن التنمية غير المتوازية وصلت إلى مستويات خطرة: في شنيزن مثلاً، يقترب الدخل الفردي السنوي من ٢٥٠٠ دولار، ولا يتعدى ١٣٧ دولارًا في الأرياف التي يقطنها ٨٥٠ مليون صيني. كما ان مظاهر البيروقراطية والفساد والبطالة، وأزمة السكن، وأزمة القيم... أخذت تكون ملفتة في الصين. إلى ذلك تجنّد الصين أكبر جيش في العالم إذ يبلغ تعداد جيشها ٣،٢ مليون شخص، وهي تملك ثالث أقوى ترسانة نووية في العالم، وماضية في تحولها إلى قوة عظمى في القرن المقبل، إذا ما استمرت «المعجزة الاقتصادية-الصينية».

من جهة أخرى، تضرب البطالة قطاعات واسعة من السكان. وقدّر (اواسط ١٩٩٧) عدد العاطلين عن العمل كليًا أو جزئيًا بنحو ٣٠-٤٠ مليونًا في المدن و١٠٠-١٥٠ مليونًا في الارياف. وتتوقع وزارة العمل الصينية ان يصل عدد العاطلين عن العمل إلى نحو ٢٦٧ مليونًا في العام ٢٠٠٠. وهذا ما يدفع إلى التساؤل عن ديمومة المعجزة الاقتصادية الصينية.

نبذة تاريخية

مكتشفات الجذور البعيدة: متحجرات بشرية اكتشفت قرب بكين، ودعيت بـ«رجل بكين» أو «رجل الصين الاول»، أو «الانسان الباليوليتي القديم»، عمره ٤٠٠ ألف سنة، وأظهرت الدراسات عليه انه كان يمشي مستقيمًا، وكان يستعمل أدوات حجرية وعرف النار.

أما عن أصول الصينيين، فالجدال فيها لا يزال قائمًا خصوصًا لجهة قرابتهم بباقي الشعوب. ومنذ سنوات، تمّ اكتشاف مومياء (و١٠٠ جثة أخرى في الصين) عمرها ٤ آلاف سنة، ولم يعلن عنها إلا في ١٩٩٤، وباشرت مجموعة من الباحثين الاميركيين في جامعة بنسلفانيا بدراسة المومياء، ومن خلالها دراسة ما إذا كان الصينيون من الشعوب الشقر أصلاً (شعر المومياء أشقر) ومحاولة الربط بين ملامح الوجه وشكل العيون وطول القامة واحتمال نزوح قبائل من أوكرانيا أو روسيا إلى بعض المناطق الصينية القريبة من حدودها.

الحضارات القديمة: ثمة حضارة صينية قديمة عرفت في الألف السابع ق.م. وسمّيت حضارة «يانغ-شاو»، وقامت على نظام اجتماعي-أسروي خاضع لسلطة الأم (matriarcat) ومنقسم إلى قبائل. وفي الألف الخامس ق.م. انتقلت السلطة الاجتماعية-الأسروية إلى الأب (patriarcat) مع حضارة «لونغشان».

ترجع أقدم إنجازات الانسان الصيني إلى العصر الحجري، فتؤكد الأثريات انه انتقل من مرحلة التنقل والبداوة إلى مرحلة الاستقرار

والزراعة والصيد في الألف الخامس ق.م.، وكانت أدواته من الحجر المصقول ومن الأواني الفخارية التي كانت تستعمل في الطقوس الدينية ومراسيم الموت. وارتبطت هذه الادوات بالمحاولات الاولى للانسان الصيني لاستصلاح الارض وتنظيم الري وتعلّم الزراعة.

بعد مرحلة الادوات الحجرية والأواني الطينية تأتي مرحلة الادوات البرونزية المصنوعة في الألف الاول ق.م.. وبخصوص البرونز الصيني يقول الخبراء والمؤرخون انه انتقل إلى الصين من آسيا الصغرى بواسطة شعوب منغوليا وآسيا الوسطى.

خضعت الصين لتأثير ثقافة آسيا الشرقية-الشمالية عن طريق سيبيريا ومنغوليا. ويتأكد ذلك عند دراسة المفردات الزخرفية للتحف البرونزية الصينية التي تعكس مهارة تقنية مذهلة. وهي منفذة في عصر سلالة شانغ التي حصلت في عهدها الولادة الحقيقية للدولة الصينية. وقد حكمت منذ القرن السادس عشر وحتى القرن الحادي عشر ق.م.. وارتبطت بانجازات مهمة منها اختراع أصول الكتابة الصينية وصناعة الأواني البرونزية.

في تلك المرحلة كان المجتمع الصيني ينقسم إلى طبقات وكانت الطبقة الارستقراطية تعيش في قصور محصنة وتهتم بالصيد والحرب. ولأجل هذه الطبقة كانت تصنع الأواني من مادة البرونز وتستعمل في الطقوس الدينية التي كانت تقوم على عبادة الاجداد والآلهة المختبئة في باطن الارض.

إن أول أسرة حكمت الصين في أواخر هذه الحضارة، حضارة البرونز (٢٢٠٠-١٨٠٠ق.م.) كانت أسرة كسيا التي أسسها البطل الخرافي يو. وتوالت، عقب تلك الحضارة، ممالك عديدة أسستها أسر صينية، وأخرى غازية، حتى كان القرن الخامس ق.م. حيث تمّ اكتشاف الحديد الذي أدّى إلى تغيير عميق في الاوضاع الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية، بحيث أخذ التقسيم السابق للسكان بين حكام من النبلاء الاقطاعيين والفلاحين يتناقص تدريجًا تاركًا المجال لإقامة سلطات مركزية داخل الممالك المختلفة التي أحاطت نفسها بأسوار كبيرة، كسور الصين العظيم. وقد أدّى ذلك التغيير العميق ايضًا إلى نهضة فكرية كبيرة، لذلك تسمّى تلك الفترة بفترة «المائة مدرسة»، وهي التي ولد فيها فكر كونفوشيوس (٥٥١-٤٧٩ق.م.) الذي اعتمدته الامبراطورية الصينية طوال حياتها في ما بعد.

تشكيل الامبراطورية الصينية: خلال

مومياء عمرها ٤ آلاف سنة.

مرحلة حكم سلالة الهان (Han)، الصينية الأصل، بين ٢٠٦ق.م. و٢٢٠ بعده، تمّ تشكيل أول امبراطورية صينية مؤلفة من عدد كبير من المحافظات؛ وكان للدولة مبعوثوها وتجارها الذين يقطعون المسافات قاصدين جنوبي الهند الصينية وشمالي كوريا والمناطق الواقعة غربي طريق الحرير. انها المرحلة الكلاسيكية للثقافة الصينية وفيها عمل المثقفون الكونفوشيوسيون على عقلنة الفكر الصيني جاعلين من الانسان مركز العالم (في هذه الفترة تمت بعض الاختراعات والاكتشافات، مثل النفط والغاز الطبيعي). ومن آثار هذه الفترة تماثيل طينية تمثل راقصين وراقصات وعازفي موسيقى، تتميز ببساطتها وتعكس جوانب من الحياة اليومية، وتدل على دخول الفن الصيني مرحلة جديدة تتميز بالابتعاد عن الأجواء الاسطورية والتركيز على الواقع.

وبعد هذه السلالة الامبراطورية، لم تكف الأسر الامبراطورية على التعاقب. ويمكن حصر الفروقات بين هذه الأسر بنوعين أساسيين: فمن جهة، هناك الأسر التي حكمت مدة طويلة من الزمن، كأسرة الهان، وأسرة تانغ (٦١٨-٩٠٧)، وأسرة سونغ (٩٦٠-١٢٧٩)، وأسرة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤)، والأسرة الأخيرة أسرة تينغ (١٦٤٤-١٩١١). وهناك الأسر التي استمر حكمها مدة قصيرة، كأسرة تسن التي سبقت أسرة الهان والتي لم تستمر أكثر من عشرين سنة.

ويمكن، من جهة ثانية، التمييز بين الأسر الصينية الأصل والأسر الغازية. فعلى الرغم من ان غالبية الأسر الامبراطورية الصينية أسستها أسرة هان الصينية الأصل، فإن الشعوب المجاورة للصين من الشمال والشمال الغربي كانت تظفر أحياناً بتشتيت الجيوش الصينية وتنصيب أباطرة على الصين. وأشهر هذه الأسر الغازية أسرة يوان التي أسسها كوبلاي خان المنغولي عام ١٢٦٠، وبعدها أسرة كينغ المنشورية.

تمثال خزفي يعود الى الالف الاول ق.م.

وهذا التعاقب للأسر الامبراطورية، عنونه المؤرخون بعبارة «الدورة الأسرية». وأما الحضارة الصينية فقد تميزت بتاريخها الطويل والمستمر مرتكزة على ثلاث دعائم: العقيدة الكونفوشيوسية، اللغة الصينية المكتوبة والتقليد الطويل في ممارسة المركزية السياسية.

الوحدة الصينية الاولى: شهدت الفترة الممتدة من القرن الخامس إلى القرن الثالث ق.م. سبع ممالك في الصين: الهان، فاي، تشاو (ثلاثتها متفرعة من أسرة تسين)، تسي، تسين، شو ويان.

في نهاية القرن الرابع ق.م. تزعمت مملكة تسين (Qin) دعوة وحدة باقي الممالك وضمها إليها، وشنت حملة لتحقيق هذه الدعوة، واحتلت كامل الاراضي من منغوليا ومنشوريا في الشمال إلى المناطق الجبلية جنوبي نهر يانغ سي (النهر الأزرق).

أشهر أباطرة مملكة تسين هو تسين شي هوانغدي أو تسين الاول (حكم من ٢٢١ إلى ٢١٠ق.م.) الذي بنى سور الصين العظيم، وحقق الوحدة السياسية، وطبّق النظام المركزي (٣٦ إقليمًا يديرها موظفون بدل النبلاء الريفيين الذي تمكن الامبراطور من تفكيك طبقتهم)، وأنشأ شبكة طرقات تربط عاصمته كسيانينغ القائمة في الشمال الغربي من مدينة سينغانغ الحالية بأبعد اقاليم امبراطوريته، ووحّد المقاييس والاوزان والعملة التي اصبحت من النحاس وسميت سابيك Sapeque، ووحد الكتابة والقضاء، وحرّم الكتب الكونفوشيوسية الداعية للمحافظة على نظام التقسيم الاجتماعي بين النبلاء والفلاحين وأبقى منها على الكتب النافعة مثل كتب الطب والصيدلة والزراعة، وأنشأ نظامًا زراعيًا يشبه نظام التعاونيات، وجعل الدولة مشرفة مباشرة على المصادر الاساسية الكبرى للدخل، وبدأ العمل بجوازات السفر وبطاقات التعريف.

أسرة الهان: أدت زيادة الضرائب لتغطية النفقات الهائلة إلى انتفاضة شعبية وإلى دعوة إلى ظهور الخصوصيات الاقليمية، وأوشكت البلاد ان تعود من جديد إلى حالة التمزق لولا ظهور ليو بانغ Liu Bang وهو من كبار الملاكين، فحكم من ٢٠٢ إلى ١٩٥ق.م. مقيمًا سلطة أسرته، أسرة الهان Han التي استمر حكمها حوالي أربعة قرون. وتميز حكم الهان بصورة خاصة بازدهار الزراعة وانتشار صناعة الحديد وحفر الاقنية وإقامة السدود. وبزيادة الانتاج الزراعي ازداد عدد السكان الذي بلغ حسب إحصاء مبسط يعود إلى السنة الثانية بعد الميلاد أكثر من ٥٧ مليون نسمة. وظهرت طبقة كبار الملاكين التي حلت محل طبقة النبلاء القديمة، وطبقة التجار التي استفادت من ظروف الوحدة الجغرافية واتساع السوق ووحدة العملة والمقاييس. كما ان الصناعات الحرفية، وخاصة صناعة الحرير، ازدهرت كثيرًا بسبب النمو السكاني.

يعتبر الامبراطور وودي Wudi (١٤٠-٨٧ق.م.) أشهر اباطرة أسرة الهان. فقد دعم السلطة المركزية ولجأ لأول مرة لاختيار الموظفين الاداريين عن طريق الامتحانات، وتوسع جنوبًا ودخل شمالي فيتنام، ووصل غربًا إلى حدود الهند، ففتح طريق تجارة الحرير مع الشرق الذي كان آنذاك تحت السيطرة الرومانية.

وفي اواخر القرن الثاني، وقعت ثورة «العمائم الصفراء» التي قادها زعماء العقيدة التاوية (الطاوية)، فانهارت امبراطورية الهان وعادت الصين وتمزقت من جديد.

تميز حكم أسرة هان ببعث حضارة جديدة بسبب التحول الاقتصادي والاجتماعي العميق الذي صاحب ولادتها وبسبب العلاقات الجديدة مع البلدان المجاورة، خاصة الهند التي جاءت منها البوذية منذ القرن الثاني. وقرّب البلاط إليه الشعراء والأدباء والعلماء وأحدث في سنة ١١٠

مكتبًا خاصًا للموسيقى مهمته جمع مختلف النغمات والاغاني الشعبية الصينية. وفي العام ٢٩ أنشىء أول معهد تعليمي «ثانوي» ضم حوالي ٣٠ ألف طالب. كما ازدهرت العلوم بشتى انواعها، وجرى الاهتمام بالمعاجم والمكتبات وبعلوم الطب والكيمياء والفلك والتاريخ... وفي العام ٢٠٠، بوشر بوضع مدونة لغوية وصل عدد فقراتها إلى ٢٦٢٧٢ فقرة واشتملت على أكثر من ١٧ مليون حرف.

انقسام الصين إلى ثلاث ممالك: بعد سقوط حكم أسرة هان انقسمت الامبراطورية إلى ثلاثة أقسام تبعًا لأهم المناطق الاقتصادية الثلاث في تلك الفترة وهي: المنطقة الوسطى للنهر الأصفر (مهد الحضارات الصينية)، منطقة النهر الازرق، وحوض سيشوان الذي جعله موقعه الجغرافي المنعزل عن بقية العالم الصيني يتميز بالمحافظة على خصوصيته الاقليمية. وهكذا تأسست في القرن الثالث ثلاث ممالك، مملكة في كل منطقة من المناطق الذكورة: مملكة واي Wei في الشمال وعاصمتها ليويانغ، مملكة تشو Shu في حوض سيشوان وعاصمتها شانغ تو، ومملكة فو Wu التي تشمل كل الصين الجنوبية وعاصمتها فوتشانغ ثم نانكين. ويعتبر ليو باي، مؤسس مملكة سيشوان، والذي ينحدر من اسرة الهان في نظر المؤرخين الصينيين الامبراطور الشرعي الذي خلدت القصص الشعبية حروبه واعتبرته أهم شخصية صينية خلال فترة الانقسام التي استمرت حتى القرن السادس.

خلال فترة الانقسام انتشرت البوذية بشكل كبير، وحصلت هجرات واسعة من الشمال إلى الجنوب حيث كانت تتطور صناعة المعادن، وعممت زراعة الرز، وازداد الاهتمام بزراعة الشاي، وازدهرت حركة التجارة والصناعات التقليدية. وكانت عاصمة الجنوب (جيانكانغ) مركزًا ثقافيًا لعب فيه البوذيون دورًا كبيرًا.

وبالمقارنة مع الجنوب فقد كان الشمال في مرحلة الانقسام في حالة ركود اقتصادي. وهذا ما يفسر هجرة العديد من سكانه نحو الجنوب.

وقد كان الشمال مسرحًا لحروب طاحنة تمكنت فيها القبائل التي يطلق عليها المؤرخون الصينيون إسم «هُو البرابرة» (Hu) أي غير الصينيين من الانتصار على أسرة تسين الصينية الاصل، واستولت على عاصمتهم واصبحت تسيطر على كل المنطقة الشمالية إلى جنوبي النهر الاصفر، وذلك طيلة ما يزيد على قرن من الزمن، وهي الفترة التي تسمى «فترة الممالك الست عشرة»، أي ممالك قبائل «هُو البرابرة» المتنافس بعضها مع بعض. وقد استطاعت إحداها، وهي تركية الاصل، من توحيد الشمال وإرساء دولة واحدة هي مملكة باي-فاي Bei-Wei (٣٨٠-٥٥٠)، وقد بلغت أوجها في اواسط القرن الخامس وأصبحت تعد أقوى دولة في كل آسيا الشرقية. وربما يعود ذلك إلى سرعة اندماج تلك الأسرة الحاكمة في الحضارة الصينية ودفاع ملوكها عن الديانة البوذية وجعلها الديانة الرسمية للدولة.

الوحدة الصينية الثانية (القرن السادس-القرن التاسع): شهد الشمال ابتداء من ٥٥٠ معارك طاحنة بين أمراء أسرة باي-فاي الحاكمة أدت إلى تقسيمه إلى عدة دويلات. وفي ٥٨١، تمكن أحد الوزراء، من اصل صيني واسمه يانغ جيانغ من توحيد تلك المنطقة، واستطاعت جيوشه (٥٨٩) من احتلال جيان كانغ العاصمة الجنوبية، فحقق بذلك وحدة الامبراطورية من جديد تحت حكم أسرة سواي Sui.

بنى إبنه يانغ تي (حكم من ٦٠٥ إلى ٦١٦) القناة الكبيرة التي مهدت لنقل السلع وخاصة الحبوب من الجنوب إلى مناطق النهر الأصفر.

ثم جاءت أسرة تانغ التي حافظت بدورها على وحدة البلاد، وبلغت أوجها في القرن السابع والنصف الاول من الثامن، واهتمت بالعمارة، وعملت على رعاية البوذية، وشجعت التجارة. وفي عهد هذه الأسرة كان للتجار العرب علاقات واسعة مع الصين ووجدت عدة جاليات عربية في مدينة كانتون، كما عثر في مدينة سانغ نغان على نقود عربية وفارسية وبيزنطية تعود إلى تلك الفترة.

تعرضت البلاد، في آخر سنوات هذه الأسرة، إلى غزوات خارجية (من الجيوش الاسلامية في منطقة تالاس، ومن الاتراك، ومن سكان التيبت الذين هاجموا العاصمة ونهبوها في ٧٦٣) وإلى اضطرابات داخلية، أخطرها تمرد قاده أحد مثقفي هينان Henan وإسمه هوانغ تشاو Huang Chao في ٨٨١. وقد كشف هذا التمرد عن ان دولة أسرة تانغ باتت عاجزة عن حماية وحدة البلاد. فانهارت هذه الوحدة في ٩٠٧ بعد ان بلغت الحضارة الصينية قمة أوجها وشهدت الصين حرية واسعة لكل المعتقدات الدينية: مزدكية، منوية، مسيحية نسطورية واسلامية، على ان الديانة البوذية ظلت تحتل المكانة الاولى والبارزة، كما ان العقيدة الكونفوشيوسية أصبحت من جديد القاعدة الأساسية في التعليم، وازداد الاعتناء بالادب والشعر بشكل خاص. وفي هذا المجال اشتهر ثلاثة شعراء ما زالت اسماؤهم تذكر باعتزاز حتى الآن، وهم: لي بو، دو فو، بو كيوي.

انقسام جديد (٩٠٧-٩٦٠): بقيت الصين مقسمة (مرة جديدة) بين الشمال حيث تعاقبت على الحكم خمس أسر، والجنوب الذي تقاسمته عدة ممالك صغيرة، من ٩٠٧ إلى ٩٦٠. و لم يصاحب ذلك الانقسام تراجع في الحياة الاقتصادية، بل واصلت مناطق النهر الازرق تطورها. فازدهرت صناعات الخزف، وتجارة الشاي، كما عمّ استعمال الورق النقدي وظهرت الطباعة.

وحدة ثالثة فانقسام آخر (٩٦٠-١٢٧٦): في ٩٦٠، استطاع تشاو كوانغ (من المناطق الشمالية) توحيد البلاد مرة أخرى تحت حكم أسرة سونغ. إلا ان تلك الامبراطورية الصينية تعرضت منذ مطلع القرن الثاني عشر إلى اضطرابات وثورات مزقتها من جديد، واصبح الشمال الشرقي بيد أسرة كيتات Kitat ثم أسرة كين Kin التي تربطهما بالمنغول (المغول) روابط القربى، بينما انحصرت امبراطورية سونغ في المنطقة الوسطى والجنوبية الشرقية.

لم تحاول أسرة سونغ استرجاع المناطق الشمالية التي احتلها «البرابرة» (غير الصينيين) مكتفية بالمحافظة على وضعها مقابل تعويض مالي تدفعه لأسرة كين في الشمال. وهذا السلام بين الأسرتين: سونغ وكين (في الجنوب والشمال) مكّن الحضارة الصينية من مواصلة ارتقائها: انتشرت المدارس والطباعة، ازدهر الفن والنحت والرسم والشعر والعلوم (صنع العالم والطبيب سونغ تسو أول ساعة فلكية كما تم اختراع البوصلة والبارود).

وحدة رابعة تحت أسرة يوان المنغولية (١٢٧٦-١٣٦٨): في ١٢٧٦، شن المنغول (المغول)، بقيادة جانكيزخان، هجومًا على الجنوب واحتلوا عاصمته، ووحدوا الصين. لكن هذه المرة بزعامة أسرة غير صينية هي أسرة يوان Yuan المنغولية التي اصبحت تحكم امبراطورية تجاوزت حدود الصين إلى اواسط آسيا وعاصمتها خانباليك (بكين الحالية)، كما فرض المنغول سلطتهم على التيبت واليونان، وقاموا بغزوات بحرية ضد اليابان وفيتنام وبورما حتى جاوه في اندونيسيا. وهكذا نشأ تمازج كبير بين الحضارات المختلفة والشعوب المتباينة. وإلى تلك الفترة تعود رحلة الرحالة الايطالي الشهير ماركو بولو الذي ظل سنوات طويلة في الصين تولّى فيها عدة مناصب إدارية

(حديثًا، منذ السنوات الأخيرة، بدأت تظهر دراسات في اوروبا وأميركا تشكك في كتاب ماركو بولو وتعتبره من نسج خيال هذا الرحالة بعد ان سيطر كتابه، ولمدة قرون، على العقل الغربي الذي كان يبحث عن المعرفة حول مجاهل آسيا وخاصة الصين؛ لكن الغلبة لا تزال في جانب الباحثين الذين يؤكدون حقيقة وجدوى رحلة ماركو بولو وكتابه. وإلى هذه الفترة تعود ايضًا رحلة ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي-نسبة إلى لواته إحدى قبائل البربر- ١٣٠٤-١٣٧٧، حيث روى في كتابه «تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار» مشاهداته في الصين وغيرها من اقطار آسيوية).

عودة السلطة إلى الأسر الصينية، أسرة مينغ: كانت سلطة المغول حملاً أثقل كاهل الصينيين. فوقعت عدة انتفاضات بتحريض من المنظمات السرية مستغلة ظروف المجاعة التي عمت في مناطق واسعة من البلاد نتيجة الفيضان الكبير للنهر الأصفر (١٣٥١) إلى ان تمكنت منظمة «العمائم الحمراء» بقيادة أحد الفلاحين وإسمه زو يوان زانغ Zu Yuan Zhang من توجيه الضربة القاضية لأسرة يوان المنغولية (١٣٦٨). فأقام هذا حكمًا وطنيًا مؤسسًا أسرة مينغ Ming. وفي عهدها (١٣٦٨-١٦٣٦) عرفت الصين نهضة كبرى، فأعيد ترميم سور الصين العظيم، وجرى الاهتمام بالدرجة الاولى بالزراعة وتحسين طرق الري، وتنظيم المساحات الزراعية وتسجيلها، وتوزيع الماشية لتسهيل الحرث، وفرضت زراعة القطن. وصحب ذلك زيادة في عدد السكان، واهتمام بتنظيم دوائر الدولة، واتخذت بكين عاصمة للدولة دون إهمال للجنوب حيث أعيد فتح القناة الكبيرة، وعُمل على إحياء التجارة.

اضطرابات ووصول أسرة كينغ المنشورية (١٦٣٦-١٩١١): في ١٤٥٠، تمكن المغول في الشمال، وكانوا قد استرجعوا قوتهم وقاموا بعدة غزوات، من أسر الامبراطور الصيني نفسه. كما بدأ اليابانيون يغزون الشواطىء الشرقية من الصين ووصلوا (في ١٥٥٥) إلى مدينة نانكين. وإضافة إلى التهديدات الخارجية التي تعرضت لها أسرة مينغ الحاكمة، نشبت اضطرابات بسبب حدة الصراع بين الملاكين العقاريين والأعيان وأبناء الاسرة الحاكمة وبين الفلاحين الفقراء الذين استقطبتهم المنظمات السرية. وفي السنوات العشر الاولى من القرن السابع عشر، ثار سكان منشوريا وتحرروا من التبعية الصينية، وكوّنوا في ١٦٣٦ أسرة حاكمة تحمل إسم كينغ Qing تمكنت من الاستيلاء على العاصمة بكين، وأخذت تسيطر شيئًا فشيئًا على باقي المناطق الصينية. وكانت أسرة المينغ تتراجع نحو الجنوب، ثم نحو جزيرة تايوان حيث أسسوا مملكة صغيرة باسم «مملكة مينغ الجنوبية» (مناطق جنوبية من البر الصيني إضافة إلى جزيرة تايوان). لكن أسرة كينغ المنشورية تمكنت من القضاء عليها نهائيًا في ١٦٦٢. وهكذا، وللمرة الثانية توحدت الصين تحت حكم أسرة غير صينية استمر من ١٦٦٢ إلى إعلان الجمهورية في ١٩١١.

استمرت الصين في تطورها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وبلغت الحضارة الصينية مرة أخرى أوجها في القرنين السابع عشر والثامن عشر وأصبحت العاصمة بكين عبارة عن منتدى ثقافي تلتقي فيه شتى المدارس الفكرية والفلسفية، أخصها تلك الداعية للاصلاح.

التدخل الاوروبي، بداية التاريخ الحديث: يبدأ التاريخ الحديث للصين بتدخل الدول الاوروبية بشؤونها. ففي بداية القرن التاسع عشر كانت الصين ما تزال امبراطورية منعزلة رغم انها كانت تقيم علاقات (تجارية بشكل خاص) مع

اوروبا منذ مدة طويلة، إلا ان هذه العلاقات لم تكن لتؤدي أي دور مؤثر في حياة الصين الداخلية، وبقي الصينيون يقبعون في جهل تام للعالم الغربي، إلى ان كانت المواجهة الاولى، عام ١٨٣٩، عندما اندلعت الحرب الصينية-البريطانية التي أطلق عليها المؤرخون إسم «حرب الأفيون» (راجع باب «معالم تاريخية»). وقد أشعل الانكليز هذه الحرب لفتح ابواب الصين بالقوة امام تجارتهم، إذ كانوا يشجعون توريد كميات كبيرة من المخدرات جلبوها من الهند إلى الصين ليقايضوا بها مشترياتهم من الخزف والشاي خاصة. وعندما أقدم بعض الوطنيين الصينيين، بقيادة لين زيكو (١٨٣٩) على حجز كمية من تلك المخدرات وإحراقها وجد الانكليز حجة للتدخل المباشر في الصين وأعلنوا الحرب.

الهزيمة: كانت هزيمة الصين في هذه الحرب فاتحة سلسلة من المعاهدات التي أسماها الصينيون «المعاهدات غير المتكافئة». فكانت الصين، في كل مرة تخسر بها امام دولة أو عدة دول اوروبية متحالفة (كانت الولايات المتحدة تنضم إلى هذه الدول وتقدم مطالب خاصة بها ايضًا، راجع باب «المعالم التاريخية») تفقد أجزاء من أراضيها وقدرًا من سيادتها واستقلالها.

وفي اواخر القرن التاسع عشر، كانت الصين قد خسرت كل «حواجزها»، أي الاراضي التي كانت تشكل «محميات صينية»، فوقعت كوريا وفورموزا في أيدي اليابان؛ وضمت روسيا إليها اراض واسعة في الشمال وشمال شرقي الصين، وذهبت أنام-أي فيتنام- إلى فرنسا، وبورما إلى بريطانيا. وبالاضافة إلى ذلك فقد دخلت الدول الاوروبية واليابان إلى الصين نفسها من خلال مطالبها بـ«مناطق نفوذ» لها.

دولة صينية شبه مستعمرة: وهكذا، وفي أقل من خمسين سنة، تحولت الامبراطورية الصينية الكبرى إلى دولة شبه مستعمرة. فقد كان يصعب عليها، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وقد انهكتها الاضطرابات الداخلية والضرائب الباهظة وفساد الموظفين، الوقوف في وجه التحدي الاوروبي الزاحف إليها. فانفجرت حركات التمرد في جميع أنحاء الامبراطورية مغرقة البلاد في الحرب والتدمير والخراب. وأهم هذه الحركات ثورة التايبنغ (راجع «معالم تاريخية») التي اندلعت في ١٨٥١، و لم تهدأ قبل ١٨٦٤، وكانت تهدف إلى الاطاحة بالاسرة المنشورية الحاكمة (أسرة كينغ). وفي الفترة نفسها، كانت انتفاضة «نين» في الشمال، وانتفاضة المسلمين في الجنوب الغربي ثم في الشمال الغربي.

هكذا، تضافرت عوامل الضغط الخارجي والصراعات الداخلية لانهاك قوى الامبراطورية الآخذة في الانحطاط. وعلى الرغم من نجاح الأسرة المنشورية في الوقوف بوجه الانتفاضات الداخلية إلا انها كانت عاجزة تمامًا عن تحديد سياسة خارجية مستقلة وواضحة. وبدأ القادة الصينيون في التأرجح بين سياسة مقاومة الزحف الغربي وسياسة الانفتاح على الغرب. فأنفقوا الكثير من اجل تحديث ترسانتهم العسكرية واقتصادهم. إلا ان هذه المشاريع المكلفة لم تنفعهم بشيء؛ فكانت هزيمة الصين أمام اليابان (١٨٩٥) مؤشرًا قويًا على اقتراب الساعة الاخيرة.

إعلان الجمهورية: تبين للصينيين، على أثر هذه الهزيمة، انه ليس بالامكان انقاذ البلاد بمجرد تحديث الجيش إذا ظل النظام السياسي والاقتصادي عقيمًا. فسرت افكار جديدة تطالب باصلاح النظام، وراح آخرون يعملون للثورة الشاملة. فالتفوا حول صن يات صن، وأطاحوا أسرة كينغ الامبراطورية المنشورية، وأعلنوا قيام الجمهورية (١٩١١-١٩١٢).

وكان على الجمهورية الفتية ان تواجه مشكلات عديدة. فاضطر صن يات صن، ولم يتمكن بعد من بناء جيش حقيقي وقوي، ان يتخلى عن رئاسة الجمهورية لمصلحة يوان شي-كاي، قائد جيش الشمال (راجع بابي المعالم التاريخية والزعماء). وما لبث هذا أن نقض النظام البرلماني الجديد، وأعاد الملكية، وأعلن نفسه امبراطورًا. وعلى أثر موته (١٩١٦)، بدأت فترة في تاريخ الصين المعاصر دعيت «فترة أسياد-أو جنرالات-الحرب»، حيث تجابه العسكريون في مناطق مختلفة من الصين، في حين كانت الحكومة المركزية في بكين تتبدل بحسب نتائج نزاعاتهم.

الكومنتانغ: في إطار نزاعات جنرالات الحرب، عاود الثوار الجمهوريون تجميع صفوفهم بقيادة صن يات صن، وأسسوا الحزب الوطني «كومنتانغ»، ونجحوا بتشكيل حكومة في جنوبي الصين. وبعد موت صن يات صن (١٩٢٥)، تمكن تشيانغ كاي تشيك من فرض نفسه على رأس الكومنتانغ. وفي ١٩٢٦، أطلق جيشه في «حملة الشمال» وحقق انتصارات عسكرية على بعض «جنرالات الحرب»، ثم اقام حكومة وطنية في نانكين. لكن الصين بقيت، في عهده، فريسة النزاعات الداخلية والاخطار الخارجية. وفي خضم هذه النزاعات، رفض الحزب الشيوعي الصيني (تأسس في ١٩٢١) السلطة المركزية للكومنتانغ، ونظّم انتفاضة مسلحة.

أما الأخطار الخارجية، في عهد الكومنتانغ، فقد تمثلت في الهجوم السوفياتي (٢٨ تشرين الثاني ١٩٢٩) على منشوريا الواقعة عند الحدود بين الصين والاتحاد السوفياتي. فوقع أكثر من ثلث الجيش الصيني هناك بين أسير وقتيل. وقد أضعف هذا الهجوم موقف القوات الصينية في وجه التوسع الياباني الذي كان بدوره يركز على منطقة منشوريا محاولاً الامتداد عبرها إلى مناطق عديدة في الصين، وكذلك موقف تشيانغ كاي تشيك في الصراعات الصينية الداخلية. وكان من الواضح ان نوعًا من اتفاق ضمني بين موسكو وطوكيو كان يتعلق بتقاسم النفوذ بينهما في الصين، إضافة إلى ان موسكو كانت تعمل على إضعاف تشيانغ كاي تشيك في وجه القوات الشيوعية الصينية الثائرة. ونتيجة لذلك اضطرت بكين في ٢٢ كانون الاول ١٩٢٩ للاستجابة إلى مطالب موسكو والموافقة على مد خط السكة الحديد السوفياتية فوق منشوريا.

وفي ١٩٣١، احتل اليابانيون منشوريا في حين كان تشيانغ كاي تشيك يشن خمس حملات عسكرية ضد الشيوعيين ويلاحقهم حتى التخوم الشمالية الغربية للصين. وبعد وقت قصير، أي في ٢٩ كانون الثاني ١٩٣٢، دخلت القوات اليابانية شانغهاي بحجة إنقاذ حياة ٣٠ الف ياباني يعيشون في الصين، وتسببت في أزمة عالمية، انسحب اليابانيون على اثرها من شانغهاي بعد ان تمكنوا من فرض دولة مستقلة في منشوريا وتنصيب آخر امبراطور من الأسرة المنشورية امبراطورًا عليها. وعاود اليابانيون هجومهم على الصين في تموز ١٩٣٧. ففتح الصينيون، نتيجة ذلك، حرب مقاومة ضد الغازي، وشكل الوطنيون والشيوعيون جبهة موحّدة.

حرب أهلية ثم قيام «جمهورية الصين الشعبية»: عند نهاية الحرب العالمية الثانية، كان الشيوعيون قد نجحوا بخلق تنظيم متماسك وجيش قوي والتفاف جماهيري (خاصة فلاحي) حولهم، في حين كان الضعف والوهن آخذًا في حكومة تشيانغ كاي تشيك وجيشه وجميع مؤسساته. وسرعان ما عاد الخلاف ليتسع بين الفريقين، رغم محاولات خارجية (أخصها محاولات الولايات المتحدة) التوفيق بين الطرفين من دون ان تفلح. فاندلعت نيران الحرب الأهلية لمدة، واضطر تشيانغ

كاي تشيك، وحكومته، إلى اللجوء إلى جزيرة فورموزا (أو تايوان، أو الصين الوطنية). وفي أول تشرين الاول ١٩٤٩، أعلن الشيوعيون، بزعامة ماو تسي تونغ، قيام «جمهورية الصين الشعبية».

خلال السنة الاولى من حكم الشيوعيين، زار ماو موسكو (١٦ كانون الاول ١٩٤٩-١٤ شباط ١٩٥٠) ووقع مع ستالين «ميثاق الصداقة والعون المشترك» وقدم دعمًا كبيرًا، إلى حد المشاركة، لحرب كوريا الشمالية ضد الجنوبية.

ادعت كل من الحكومتين: الشيوعية في بكين والوطنية في تاييه، أنها الحكومة الشرعية لعموم الصين. لكن، وبعد سنوات طويلة من الدعم القوي الذي قدمته الولايات المتحدة للحكومة الوطنية، أصبحت جمهورية الصين الشعبية في ١٩٧١ عضوًا في الأمم المتحدة على حساب الصين الوطنية. وفي ١٩٧٩، كانت الولايات المتحدة الاميركية آخر الدول الكبرى التي اعترفت بحكومة الصين الشعبية كحكومة شرعية وحيدة للبلاد وسط مرارة كبيرة في تايوان (كان لا يزال يطلق عليها إسم الصين الوطنية).

كرونولوجيا أحداث ثلث القرن الأخير

(تجدر الاشارة إلى ان الأبواب التالية، أخصها: «معالم تاريخية» و«أحزاب» و«زعماء»، تفصّل بعض الشيء في أهم الاحداث الصينية الواقعة ليس في هذا الثلث الأخير من القرن الحالي بل ايضًا في الاحداث السابقة لها والتي تبدأ منذ أوائل هذا القرن).

١٩٦٦-١٩٨٠: من أهم الاحداث الداخلية التي عاشها النظام الشيوعي الصيني «الثورة الثقافية» التي بدأت في اواسط ١٩٦٦ وشملت كل أنحاء الصين. وكان ماو تسي تونغ يقف بنفسه وراء هذه الثورة بهدف إطاحة بعض الشخصيات الرسمية في الدولة والحزب والذين اتهمتهم الثورة بـ«البورجوازيين» و«التحريفيين». على رأس هذه الشخصيات: ليو شاو شي ولين بياو. و لم تنته هذه الثورة إلا بعد وفاة ماو في ١٩٧٦، والقبض على «زمرة الاربعة» الذين كانت تتزعمهم زوجة ماو، ومحاكمتهم في اواخر ١٩٨٠-اوائل ١٩٨١.

في ١٩٧٢، كان الرئيس نيكسون أول رئيس اميركي يزور الصين منذ وصول الشيوعيين إلى السلطة في بكين. وكان وزير خارجيته، هنري كيسنجر، قد مهّد لهذا اللقاء بزيارة سرية للصين في تموز ١٩٧١. وفي ١٩٧٩، توج هذا الانفتاح الذي أخرج الصين من عزلتها الدولية بإقامة علاقات دبلوماسية بين البلدين.

بعد وفاة ماو تسي تونغ (١٩٧٦)، اعتقد الكثيرون ان السلطة في الصين ستقع في أيدي الراديكاليين من ورثة ماو الحزبيين والسياسيين، إلا انها آلت في الحقيقة إلى القادة الذين كانوا يدعون إلى الانفتاح على الغرب: هوا كيو فينغ رئيس الحزب، ودينغ كسياو بينغ نائب رئيس الوزراء. وكانت زيارة دينغ كسياو بينغ إلى الولايات المتحدة (١٩٧٩) من أهم الدلالات على هذا الانفتاح وعلى رغبة الصين بإحداث تحول سياسي واقتصادي يجعل الصين أمة عصرية ومصنعة. وقد صاحب هذا التوجه مزيد من التدهور في علاقات الصين بالاتحاد السوفياتي (السابق)، واستمر التوتر على طول حدودهما المشتركة.

١٩٨١: هذا التوجه العام لم يكن سهلاً ولم يتم دون صراعات داخل القيادة الصينية الحاكمة داخل الكواليس. وقد حُسم، ظاهريًا، في ١٩٨١، باقصاء هوا كيو فينغ وتأكيد زعامة دينغ كسياو بينغ وهيمنة مجموعته على مقاليد السلطة، خاصة من خلال تعيين زاو زينغ رئيسًا للوزراء في مطلع ١٩٨١، أي بعد وقت قصير من صدور حكم الاعدام على إثنين من «زمرة الاربعة» (٢٥ كانون الثاني ١٩٨١).

وفي ١٦ حزيران، صرّح وزير الخارجية الاميركي ألكسندر هيغ، عقب زيارة له لبكين، عن استعداد بلاده بيع أسلحة للصين الشعبية. وفتحت ثلاث قنصليات صينية جديدة في الولايات المتحدة، وثلاث قنصليات اميركية في الصين.

في آخر تشرين الاول، وبمناسبة الذكرى الـ٣٢ لتأسيس جمهورية الصين الشعبية، اقترح المارشال يي جيانيغ، رئيس اللجنة الدائمة للجمعية الوطنية (البرلمان)، على سلطات تايوان إجراء محادثات توصلاً إلى علاقات اقتصادية وثقافية. وكانت السلطات الصينية بعثت، قبل ايام، برسالة علنية إلى جيانغ جينغو (ابن جيانغ جيشي، الاسم الصيني الجديد للزعيم تشيانغ كاي تشيك) تدعوه فيها إلى نقل رفاة والده إلى مسقط رأسه في فنغوا، وإلى

زيارة بكين. لكن سلطات تايوان اعتبرت كل مثل هذه الامور من قبيل «الدعاية الشيوعية».

١٩٨٢-١٩٨٣: عرف هذا العام دعوات متكررة ومتبادلة بين المسؤولين الصينيين والسوفيات لتحسين العلاقات بين البلدين. وقد جرت بالفعل لقاءات ومشاورات في هذا الخصوص، لكن دائمًا مع تأكيد الصينيين إدانتهم غزو السوفيات لأفغانستان.

في ٤ كانون الاول (١٩٨٢)، أقرّ مجلس الشعب الصيني، بالاقتراع السري، دستورًا جديدًا هو الدستور الرابع خلال ٢٨ عامًا، والثالث في الاعوام السبعة الأخيرة. وبموجب هذا الدستور أعيد منصب رئيس الجمهورية الذي كان قد ألغي إبان الثورة الثقافية، وحُذفت الفقرات التي وردت في دستور ١٩٧٨ والتي تشيد بالزعيم الراحل ماو تسي تونغ وفلسفته، واكتفى النص الجديد بالتشديد على وجوب «الاستمرار في نضال البروليتاريا ضد البورجوازية، وفي النضال من اجل النهج الاشتراكي ضد النهج الرأسمالي». كما شدّد على ضرورة إعادة توحيد تايوان مع الارض الصينية الأم، وعلى ان الصين ستتابع انتهاج سياسة خارجية مستقلة.

في تشرين الأول (١٩٨٣) بدأ الحزب الشيوعي الصيني حملة تصحيحية أعلنت عن طرد عدد من «مجرمي» الثورة الثقافية.

١٩٨٤: تبين من خلال المحادثات الصينية-السوفياتية (اوائل تشرين الثاني) التي كان الجانبان قد اتفقا على انعقادها كل ستة أشهر انه لم يحرز بعد أي تقدم في الخلافات حول المشاكل الرئيسية التي تحددها الصين بثلاث: وجود ٦٠٠ ألف جندي سوفياتي على الحدود، دعم موسكو للوجود الفيتنامي في كمبوديا والتدخل السوفياتي في أفغانستان.

وتحسنت علاقات الصين باليابان. فاستقبلت بكين رئيس الوزراء الياباني، ناكاسوني، استقبالاً استثنائيًا (آذار ١٩٨٤)، وصار التأكيد على صداقة طويلة ومتينة بعد الصدامات المريرة في الثلاثينات والاربعينات، وقدمت اليابان قرضًا كبيرًا للصين مما جعلها، في حينه، أكبر الدول المقرضة للصين.

وفي حزيران، قام رئيس الوزراء زاو زيانغ بجولة أوروبية بدأها في باريس؛ وفي تشرين الثاني قام رئيس الجمهورية لي شيانيان بجولة أخرى شملت اسبانيا والبرتغال ومالطا، وقبلها، أي في آب، زار رومانيا ويوغوسلافيا. وقبل ذلك (أي في آذار) زار باكستان، تركيا، نيبال والاردن حيث التقى الملك حسين والزعيم الفلسطيني ياسر عرفات. وبعد نحو شهرين، زار وزير الخارجية الصيني تونس والكويت حيث صرّح بأن الصين تلتزم الحياد التام في حرب الخليج، وانه ليس هناك تحالف صيني مع واشنطن ضد موسكو.

وفي الذكرى السنوية الـ٣٥ لقيام جمهورية الصين الشعبية ركّز الزعيم الصيني دينغ كسياو بينغ (تشرين الاول) على الاصلاحات الاقتصادية الجذرية. وبعد ايام، صدرت عن الدورة الموسعة للجنة المركزية للحزب وثيقة اساسية تبعد الصين أكثر عن النموذج الاقتصادي السوفياتي وتنطوي على اصلاحات من شأنها قلب الوضع الاقتصادي والاجتماعي في الصين في غضون خمس سنوات. وقد تقرر إعادة دور السوق واصلاح الأسعار والأجور والادارة الصناعية وسيطرة الدولة المركزية. وقد توجت هذه الاصلاحات والاجراءات بمقال فكري في صحيفة الشعب الناطقة باسم الحزب (٧ كانون الاول ١٩٨٤) حيث جاء بأول موقف في نوعه في الصين عندما اعتبر ان «الماركسية تخطاها الزمن ولا تحل مشاكل العصر». لكن هذا المنحى لم يمر دون بروز معارضة، سواء في الحزب أو في الجيش، للرجل القوي دينغ كسياو بينغ الذي ردّ بقوله إن الاصلاحات التي يعمل لها لن تولد بورجوازية جديدة.

١٩٨٥: اتخذت خطوات وإجراءات رسمية، وسُمح بمبادرات، جميعها أشارت إلى المضي بسياسة الانفتاح والاصلاح الاقتصادي: في كانون الثاني، جرى إصدار أسهم بقيمة ١،٥ مليون دولار لأول مرة منذ أكثر من ٣٠ سنة؛ وفي آذار، سمح باجراء انتخاب ملكة جمال لأول مرة منذ ١٩٤٩، وقد رعت الحفل شركة غربية لانتاج مستحضرات التجميل؛ وفي تموز، أفرج عن رجل الدين المسيحي المونسنيور أغناطيوس غونغ بينماي؛ وفي ايلول، تظاهر الآلاف من الطلاب ضد السياسة اليابانية، وتظاهر آخرون في اوروبا وبكين ضد التجارب النووية في إقليم كسينجيانغ؛ في كانون الاول، أعيد افتتاح كاتدرائية بكين.

١٩٨٦: في ايار، اتفقت الصين وتايوان على إجراء محادثات دورية بينهما، وزار الزعيم الروحي للتيبت باريس لمدة أربعة ايام؛ في حزيران، اتفقت الصين

والولايات المتحدة على تعاون في المجال العلمي الفضائي يبدأ بأن تحمل صواريخ صينية اقماراً صناعية اميركية؛ في تموز، جرى تخفيض قيمة اليوان (العملة الصينية) بنسبة ١٥،٨٪، والاعلان عن افلاس مصنع صيني، ومثل هذا الاعلان لم يكن مسموحاً منذ ١٩٤٩؛ في تشرين الاول، زارت الملكة البريطانية الصين، ووقعت الصين والبرتغال إتفاقاً حول ماكاو؛ في تشرين الثاني، زارت ثلاث سفن حربية اميركية ميناء كينغداو الصيني، وهي الزيارة الاولى في نوعها منذ ١٩٤٩؛ في كانون الاول، جرت مظاهرات طلابية في ١٧ مدينة صينية (بينها بكين وشانغهاي)، وبوادر تقارب رسمي مع دول حلف فرصوفيا باستثناء الاتحاد السوفياتي.

١٩٨٧: في كانون الثاني، وقعت حوادث إطلاق النار مع الفيتناميين على الحدود بين البلدين، وجرى إعدام ثلاثة مثقفين مفصولين من الحزب الشيوعي بتهمة أخذهم بمبادىء «البورجوازية الليبرالية»، واتخذت إجراءات لتسريع الاصلاح السياسي وإعادة التوازن للتجارة الخارجية، وأقيل هيو ياوبنغ، أمين عام الحزب الشيوعي، من منصبه لأنه لم يستعمل القسوة اللازمة في معالجته لمظاهرات الطلاب قبل نحو شهر؛ في آب، طُرد عدد آخر من مثقفي الحزب الشيوعي؛ في تشرين الاول، اندلعت مظاهرات في التيبت قام بها وطنيون من دعاة الانفصال والاستقلال؛ في تشرين الاول، زار رئيس الجمهورية فرنسا، وفي ٢٥ منه، عقد المؤتمر الثالث عشر للحزب الشيوعي في بكين وانتخب زاو زيانغ اميناً عاماً؛ في تشرين الثاني، طبّعت الصين علاقاتها مع لاوس؛ في كانون الاول، قامت مظاهرات طلابية في بكين واجهتها الشرطة بعنف وتحدثت الأنباء عن سقوط نحو ألف قتيل.

١٩٨٨: في نيسان، حطّم طلاب جامعة بكين نصبًا لماو تسي تونغ ؛ في ايار، أعلن الزعيم الصيني دينغ كسياو بينغ (الرجل الاول) «رفض الاشتراكية المتزمتة» والأخذ بـ«الاشتراكية الملائمة لكل بلد» وأطلق سراح جيانغ كينغ ارملة ماو؛ في حزيران، حمّل دينغ كسياو بينغ الماوية مسؤولية ٢٠ عاماً من «العذابات الكبرى» التي اصابت الشعب الصيني؛ في تشرين الثاني، عقدت الصين ومنغوليا معاهدة حول حدودهما المشتركة؛ في كانون الاول، زار وزير الخارجية، كيانغ كيشن، موسكو (أول زيارة منذ ٣٠ عامًا).

١٩٨٩: في شباط، قرر الاتحاد السوفياتي سحب ٢٦٠ ألف جندي سوفياتي من أقاليمها الآسيوية خلال عامين و٦٥ ألفًا من منغوليا، مع الاحتفاظ بنحو ٥٠٠-٧٠٠ ألف على طول حدوده مع الصين؛ في نيسان، اندلعت مظاهرات الطلاب في ساحة تيانانمن في بكين؛ في ايار، أرسلت تايوان أول فد رسمي لها إلى اجتماع في بكين عقده البنك الآسيوي للتنمية، وزار الزعيم السوفياتي غورباتشوف بكين، وهناك زار «المدينة المحرّمة»؛ في تشرين الثاني، استقال دينغ كسياو بينغ من رئاسة اللجنة العسكرية للحزب الشيوعي، وحلّ محله جيانغ زيمين.

١٩٩٠: في شباط، رفعت حال الطوارىء التي كانت فرضت إبان الاحداث الطلابية في ايار ١٩٨٩؛ في ايار، قدمت المصارف اليابانية للصين اعتمادات بقيمة ملياري دولار؛ في تموز، أعيدت العلاقات الدبلوماسية مع المملكة العربية السعودية؛ في آب، أعيدت العلاقات الدبلوماسية مع اندونيسيا التي كانت مقطوعة منذ ١٩٦٧؛ في تشرين الاول، أعيدت العلاقات الدبلوماسية مع سنغافورة؛ في كانون الاول، أعيد فتح بورصة شانغهاي بعد إقفال دام ٤١ عامًا.

١٩٩١: في نيسان، أعلن عن محاكمة ٧١٥ منشقًا لمشاركتهم في أحداث ١٩٨٩؛ في تشرين الاول، تم إعدام ٣٥ متاجرًا بالمخدرات، وكان قد تم إعدام ٨٨ آخرين في غضون ١٦ شهرًا سابقًا؛ في تشرين الثاني، تم تطبيع العلاقات مع فيتنام، وزار الصين وزير الخارجية الاميركي جيمس بايكر؛ في كانون الاول، أعلن رسميًا ان ٢٠ مليون صيني يعملون في بناء السدود على طول نهر هواي.

١٩٩٢: في كانون الثاني، أقامت الصين علاقات دبلوماسية مع اسرائيل، وأقر برلمانها على انضمام الصين إلى معاهدة السلاح النووي (وجرى التصديق على المعاهدة في آخر ١٩٩٢)؛ في آب، جرت اضطرابات في شنزن أثناء التداول في أسهم البورصة، وأقيمت العلاقات الدبلوماسية مع كوريا الجنوبية؛ في تشرين الاول زار الصين امبراطور اليابان أكيهيتو؛ في كانون الاول، زارها ايضًا الرئيس الروسي يلتسن، وأقفلت السلطات الصينية القنصلية الفرنسية في كانتون وطردت بعض الشركات الفرنسية العاملة في الصين عقب موافقة فرنسا بيع تايوان ٦٠ طائرة ميراج.

دينغ كسياو بينغ مع الزعيم السوفياتي غورباتشوف (بكين، ١٩٨٩)

ومع خليفته جيانغ زيمين.

١٩٩٣-١٩٩٥: في ايار ١٩٩٣، وأثناء الجولة التاسعة من محادثات السلام في الشرق الاوسط، زار رئيس حكومة اسرائيل شمعون بيريز الصين حيث أكّد له وزير خارجيتها كيان كيشين ان الصين «لن تبيع صواريخ لأي من سورية وايران مستقبلاً وذلك رغبة منها في عدم إضعاف عملية السلام الجارية في الشرق الاوسط».

في شباط ١٩٩٤، حظّرت السلطات نشاط المبشرين الدينيين الاجانب وفرضت قيودًا على دور العبادة تمنع من تلقي مساعدات خارجية من اجل أغراض دينية؛ في نيسان، زار رئيس أريتريا أسياس أفورقي بكين، ووقع الطرفان مجموعة اتفاقات اقتصادية وثقافية وقدمت بكين قرضًا لأريتريا قيمته ٤،٣ مليون دولار تسدّد خلال ٢٠ عامًا من دون فوائد؛ في آخر حزيران، وقّع أول اتفاق ذو أهمية ملموسة بين الصين وبريطانيا حول مستقبل المواقع العسكرية في هونغ كونغ منذ قبل سبع سنوات تتوصل إليه مجموعة الاتصال المشتركة الصينية-البريطانية؛ في اول تموز، زار رئيس الاركان الاسرائيلي الجنرال أيهود باراك بكين (أول رئيس أركان اسرائيلي يزور الصين)؛ في ايلول، زار الرئيس الصيني، جيانغ زيمين، روسيا (الأولى منذ زيارة ماو قبل ٣٧ عامًا)، وبعدها زار أوكرانيا، ثم فرنسا.

في آذار ١٩٩٥، زار الامير السعودي خالد بن سلطان بن عبد العزيز الصين، اعتبرت أول «زيارة علنية»، ومن خلالها كشف الاعلام العالمي ان الامير كان بدأ منذ اواسط الثمانينات، حيث كان يشغل منصب قائد قوات الدفاع الجوي السعودي، وبكتمان شديد، محادثات مع المسؤولين الصينيين توجت بحصول الرياض على عدد من صواريخ «ريح الشرق» الصينية، وألقى محاضرة في جامعة الدفاع الوطني الصينية وأدار حلقة البحث في أكاديمية العلوم العسكرية عن «حرب تحرير الكويت»؛ في نيسان، طغت في الاعلام العالمي أنباء «التعاون الصيني-الايراني في مجال نقل التكنولوجيا النووية» بسبب انعقاد مؤتمر تحديد معاهدة منع انتشار الاسلحة النووية في نيويورك؛ وفي كانون الاول، زار الصين الزعيم الكوبي فيدل كاسترو.

في ايلول ١٩٩٥، عقد في بكين مؤتمر المرأة العالمي، وكان مناسبة لإعادة طرح موضوع دور المرأة على نطاق واسع في مختلف أنحاء العالم، فبرز في أساس الابحاث حول دور المرأة كتابان: «حق الام الطبيعي» (صدر في مدينة بال السويسرية، ١٨٦١) لمؤلفه باخوفن، و«حلم الزمان» لمؤلفه بيتر درّز، إضافة إلى آخر الكتابات التي نشرها روجيه غارودي وأعلن فيها «ان النساء قادمات والويل لمن يقف في طريقهن»، كما طرح سؤالاً مهمًا: «أما آن الأوان لتوجيه النقد إلى ستة آلاف سنة من نظام أبوي وهيمنة كلية كان الرجل وما يزال يمارسها على المجتمع بأسره؟». ومن التساؤلات التي أثارها مؤتمر بكين على المجتمعات العالمية، على هامش موضوعاته وتوصياته وكلها ركزت على واقع المرأة ومكانتها ودورها، تساؤل أساسي يدور حول ما إذا كانت الحركات النسائية هي مجرد حركات مطلبية أم انها تحمل بين طياتها تباشير مشروع حضاري جديد لاعادة بناء العالم من جديد وكذلك هوية الانسان فيه.

بيريز في زيارة للصين (ايار ١٩٩٣). في الصورة ينظر الى مقاتل صيني بملابس تقليدية عند سور الصين العظيم.

١٩٩٦، «حقوق الانسان»: باشرت السلطات الصينية سنة ١٩٩٦ بعقد مؤتمر حزبي مخصص بشأن النشاط الديني في الصين، واصدار أمر لمراكز العبادة بتسجيل أسمائها لدى الدوائر الحكومية والتحذير من استغلال الممارسات الدينية لأغراض سياسية. وركز الحزب الشيوعي حملته (كانون الثاني ١٩٩٦) على الدعوات البوذية للانفصال في إقليم التيبت حيث انقسم السكان بين تأييد زعيمهم التقليدي الدالاي لاما من جهة، والزعيم الجديد غيان سين نوريو الذي لا يتجاوز عمره ٦ سنوات؛ كما تركزت الحملة الرسمية على كبح نشاط المبشرين المسيحيين القادمين من الغرب.

وفي تقرير لمنظمة العفو الدولية (نشر في تموز ١٩٩٧) ان ٦١٠٠ حكم بالاعدام صدر في الصين خلال ١٩٩٦، أي ١٧ حكمًا يوميًا، نفذ منها ٤٣٦٧ من المحكوم عليهم وان عدد عمليات الاعدام في الصين منذ مطلع التسعينات تجاوز عدد هذه العمليات في العالم بأسره.

وجاء في التقرير ايضًا ان عمليات الاعدام في الصين في ١٩٩٦ شهدت ارتفاعًا لا مثيل له منذ ١٩٨٣ (في هذا العام أعدم نحو ١٠ آلاف شخص) مع إطلاق حملة «ضرب الجريمة»، وتمحورت حول مكافحة المخدرات. وتملك السلطات الاقليمية صلاحية تحديد اهدافها. ففي التيبت ومنطقة كسينجيانغ (المسلمة) تعتبر النشاطات الانفصالية من «الآفات التي يجب استئصالها».

١٩٩٧، قمة «قد تعيد الحرب الباردة»، وقمة «شراكة إستراتيجية»: في آذار، زار آل غور نائب الرئيس الاميركي بكين، واعتبرت الزيارة الأهم لمسؤول اميركي منذ أحداث ساحة تيانانمن في ايار-حزيران ١٩٨٩. لكن بعد نحو شهر واحد حدث على جبهة آسيا (خاصة الجبهة الصينية-الروسية) ما هو أهم، إذ زار الزعيم الصيني جيانغ زيمين موسكو ووقع هناك اتفاقًا خماسيًا، ضم إلى جانب روسيا والصين الجمهوريات الثلاث: كازاخستان وطاجيكستان وقيرغيزستان، وهي الجمهوريات السوفياتية السابقة التي لها مع الصين حدود طولها ٧٥٠٠كلم. وأشار الرئيس الروسي، يلتسن، ان إعداد الاتفاق استغرق سبع سنوات وانه يمثل «اختراقًا مهمًا نحو تحقيق الاستقرار وتعميق الثقة المتبادلة». وقبل يوم من توقيع الاتفاق الخماسي، وقّع الرئيسان الروسي والصيني إعلانًا مشتركًا أكدا فيه رفضهما «محاولات دفع تطور العلاقات الدولية في اتجاه الواحدية القطبية»، في إشارة إلى هيمنة الزعامة الاميركية على العالم. وأشار الاعلان إلى ان دول العالم ينبغي ان تكون متكافئة بصرف النظر عن حجمها أو ثرائها «ولا يحق لأي طرف الهيمنة واتباع سياسة القوة والاحتكار» في الشؤون الدولية, ومن دون تسمية الحلف الاطلسي ذكر الاعلان ان الجانبين يعربان عن قلقهما «لمحاولات توسيع وتعزيز الاحلاف العسكرية» ويعتبران ان الامم المتحدة «لا يمكن استبدالها بأي منظمة دولية أخرى».

أما الاتفاق (أو المعاهدة) الخماسي فهو يهدف لإيجاد منطقة استقرار على مدى ٧ آلاف كلم من الحدود الصينية-الروسية، إذ وضعت حدًا اقصى لعدد القوات

الزعيم الكوبي فيدل كاسترو في زيارة الصين (كانون الاول ١٩٩٥).

عناق حار بين جيانغ زيمين وبوريس
يلتسن في بكين
(١٠ تشرين الثاني ١٩٩٧).

الرئيس الصيني جيانغ زيمين (في الوسط)، والى يساره الرئيس الروسي يلتسن والطاجيكي إمام علي رحمنوف، والى يمينه الرئيس القيرغيزستاني عسكر اكاييف والرئيس الكازاخستاني نور سلطان نزاربايف، بعد توقيع الاتفاق الخماسي (نيسان ١٩٩٧).

والقوى الجوية التكتيكية ومضـادات الطائرات والجنود في تلك الـدول في منطقة عرضهـا ١٠٠ كلـم علـى جـانبي الحدود، بين الصين وجمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق.

تذكّر العبارات المتسربة مـن الاتفـاق، وكـذلـك عبارات الاعلان المشترك، والتصريحات حولهما بالصياغـات والادبيات الماركسية التي كانت سائدة قبل سـقوط الاتحـاد السـوفياتي، مـا دفـع البعـض إلى اعتبـار «قمـة موسـكو» الخماسية بمثابـة مؤشـر قـوي علـى عـودة، أو قـرب عـودة «الحرب الباردة».

أخيرًا، ثمة ثلاثة أمـور يجـدر ذكرهـا: ١- جـاءت قمة موسكو بعد عشرة ايام من اول اعلان في نوعه لضابط صيني كبير، عُـين حديثًـا قـائدًا للقـوى الجويـة الصينيـة،ليـو شونياو، بأن الصين توسع قوتهـا العسـكرية وقدرتهـا علـى شـن حـرب حقيقيـة في التكنولوجيـا العسـكرية (بمـا فيهـا الحرب الالكترونية) بعيـدًا عـن شـواطئها. ٢- اعتبر وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف، ونظيره الصيـني كيـان كيشين، انهما هندسا القمة؛ والمعروف عن بريمـاكوف انـه نجح إلى حد كبير في تمتين علاقات موسكو مع الهند وايران والدول العربية إضافة إلى الصين. ٣- ثمة من رأى في القمـة والاتفاق المنبثق عنها نوعًا من مراجعة روسية سياسية عامـة تستلهم التجربة الصينية التي انفتحت على اقتصـاد السـوق من دون تخليها عن أدبياتها السياسية، وعـن المركزيـة الـتي حفظـت كيـان الدولـة والمؤسسـات، عكـس مـا جـرى في روسيا التي سرعان ما نهشتها، وما تزال، المافيات والتسيب والانهيار الاقتصادي الذي جعل موسكو عـاجزة عـن دفـع رواتب موظفيها وجيشها وجهاز أمنها وشرطتها. مـن هنـا يمكن القول إن الاتفاق ينفذ إلى جوهر المعضلات الروسـية، في محاولة لتقليص الاتفاق العسكري، إضافة إلى انه يعكـس تحولاً في تفكير موسكو الاستراتيجي قبل سـقوط الشيوعية وبعدها.

بعد نحو ستة أشهر من هذه القمـة الخماسية، زار يلتسن بكين (تشرين الثاني ١٩٩٧) وعقد اجتماع قمة مع زيمين، اكثرت التصريحات حولها والتعليقـات مـن استعمال عبارة «قمة الشراكة الاستراتيجية بين روسيا والصين» رغم ما ردّده الزعيمان بصددها عن انها «غير موجهـة ضـد أيـة دولة». وأسفرت هذه القمة عن توقيع الزعيمين أول اتفـاق حدودي بين البلدين وإبرام عقد لاقامة خـط أنـابيب لنقـل الغاز يبلغ طولـه ٣ آلاف كلـم يمتـد مـن سـيبيريا إلى شمـال شرقي الصين. وجاء في الاعلان المشترك في ختام القمـة انـه «للمرة الاولى في تاريخ العلاقـات بـين روسـيا والصـين، تمّ ترسيم القسم الشرقي من الحدود بينهما (نحو ٤٢٠٠ كلـم) بدقة (...) والطرفان يواصلان المفاوضات بهـدف التوصـل إلى قرار عادل وموزون في شـأن المسـائل الحدوديـة المعلقـة يتيح إنهاء ترسيم كامل الحـدود المشـتركة كليًـا». وهكـذا يكون هذا الاتفاق قد وضع حدًّا لخلاف استمر ثلاثة قرون في شأن الحدود الممتدة على طول نهر أمور.

والجدير ذكره أنه عشية وصـول يلتسـن إلى بكـين أنجز المهندسون الصينيون مـا وصفـه الزعيـم الصيـني جيـانغ زيمين بأنه «معجزة في تاريخ تحويل الطبيعة بايدي الانسان» عندما قطعوا (٨ تشرين الثاني ١٩٩٧) مجرى أطـول أنهـار الصين، يانغتسي، وحولـوه إلى قناة موازية بغيـة بنـاء سـدّ

جيانغ زيمين يتوسط قيادة الحزب الشيوعي الصيني في افتتاح مؤتمر الحزب الخامس عشر (ايلول ١٩٩٧).

المضائق الثلاثة الذي سيكون أكبر مركز لتوليد الطاقة الكهربائية في العالم عند انتهائه سنة ٢٠٠٩.

مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني (١٩٩٧): في ١٢ ايلول ١٩٩٧، افتتح المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الصيني، فتلا الأمين العام للحزب، الزعيم الصيني جيانغ زيمين، تقريره الذي تناول جميع جوانب السياسة المتعلقة بالحزب والدولة من اصلاح مؤسسات الدولة إلى الفساد مرورًا بالاصلاحات السياسية، واستعرض السنوات الخمس المنصرمة منذ المؤتمر الرابع عشر (١٩٩٢) وحدّد التوجهات الكبرى للسنوات الخمس المقبلة.

قال جيانغ زيمين في تقريره إن «الحكم بموجب القوانين يعني ان الديمقراطية الاشتراكية تترسخ وتتحول تدريجًا إلى سلوك ثابت (...) إن إرساء الطابع المؤسسي للنظام ضرورة موضوعية لاقتصاد السوق الاشتراكي (...) إن إعادة الهيكلة السياسية تفرض في المرحلة المقبلة تطويرًا للديمقراطية، وتعزيزًا للنظام القانوني، وفصلاً بين صلاحيات الحكومة وإدارة المؤسسات وترشيد الهيئات الحكومية وتحسين نظام الرقابة (...) إن هذه الاصلاحات تهدف إلى تحسين النظام الاشتراكي وليس إلى تقليد النماذج الغربية».

خرج زيمين من المؤتمر (١٢-١٨ ايلول ١٩٩٧) منتصرًا، إذ أعيد انتخابه لزعامة الحزب والدولة والجيش مع انتخاب مكتب سياسي جديد (٢٣ عضوًا) ولجنة دائمة منبثقة عنه (٧ أعضاء) فقد العسكريون فيها مقعدهم الوحيد، ما دفع بالكثيرين إلى القول إن هذا المؤتمر جاء يتوج نهاية حقبة بدأت أواخر الستينات عندما استعان ماو تسي تونغ بالجيش لاعادة النظام إلى الصين بعد الفوضى التي سببتها الثورة الثقافية. وكانت هيمنة الجيش قد بلغت ذروتها في المؤتمر التاسع للحزب (١٩٦٩) الذي شهد تعيين ١٢ ضابطًا في المكتب السياسي. وبغياب العسكريين هذه المرة فإن الرئيس زيمين يعزّز سلطته من طريق جعل نفسه الصلة الوحيدة بين الجيش والحزب.

عودة إلى التفاهم مع الولايات المتحدة: بعد توتر في العلاقات الصينية-الاميركية في ما يتعلق بقضايا حقوق الانسان والتجارة وتايوان وانتشار الاسلحة النووية، زار جيانغ زيمين الولايات المتحدة (اواخر تشرين الاول ١٩٩٧) وعقد اجتماع قمة (الاولى منذ ١٩٨٩) مع الرئيس الاميركي بيل كلينتون اسفرت عن اتفاقات، ابرزها (كما جاء في بيان للبيت الابيض):

- وافقت الصين على اتخاذ اجراءات جديدة لمراقبة تصدير المعدات والتكنولوجيا النووية. وستنضم إلى «لجنة زانغر الدولية» التي تنسق جهود الدول التي تزود الطاقة النووية للاشراف على الصادرات النووية. وأعلن الرئيس الاميركي رفع الحظر الاميركي عن بيع المعدات النووية إلى الصين.

الرئيس الاميركي كلينتون والصيني زيمين في مؤتمر صحافي (تشرين الاول ١٩٩٧).

– أعطت الصين واشنطن تأكيدات عن وقف المساعدة الصينية لايران على الصعيد النووي. ونتيجة ذلك قررت الولايات المتحدة السماح بتطبيق الاتفاق الصيني-الاميركي للاستخدام السلمي للطاقة النووية. وسيتيح الاتفاق، الذي وقع في ١٩٨٥ ولكن الكونغرس أوقف تطبيقه، للشركات الاميركية بيع الصين محطات نووية.

– اعترف الرئيسان الاميركي والصيني بـ«الخلافات الكبيرة» بينهما في وجهات نظرهما حول مسألة حقوق الانسان. لكن البيت الابيض ذكر ان الصين دعت مسؤولين دينيين اميركيين إلى زيارتها وتعهدت بالتعاون لتقليل عدد السجناء الصينيين. وقرر البلدان ايضًا إجراء مناقشات تمهيدية لتنظيم ندوة حول حقوق الانسان تشارك فيها المنظمات غير الحكومية.

– قرّر البلدان تعميق حوارهما الاستراتيجي عبر لقاءات دورية في عاصمتيهما.

– قررت بكين وواشنطن تبادل المعلومات بين جيشيهما وخصوصًا حول الازمات الانسانية والكوارث الطبيعية.

في أجواء هذه القمة والاتفاق الذي نتج عنها، صوّر الاعلام الصيني الولايات المتحدة بأنها تحاول فرض وجهات نظرها السياسية والاقتصادية مستفيدة من حلفها الامني مع اليابان وصلاتها الوثيقة مع كوريا الجنوبية ووجود ١٠٠ ألف جندي اميركي في شرقي آسيا. أما الصحافة الاميركية فقد اتهمت الصين بالمقابل بمحاولة خلق اجواء حرب باردة جديدة، منطلقة من تحديث الصين لقواتها العسكرية وبناء اسطول بحري يقلق جيرانها.

لكن هذه الحملات الاعلامية لم توقف مسار التفاهم. فأعلن البيت الابيض (في منتصف كانون الثاني ١٩٩٨) ان الرئيس كلينتون وقع في ١٢ كانون الثاني ١٩٩٨ اتفاق تعاون نووي مع الصين أكد فيه ان بكين تتجاوب مع شروط الحد من نشر الاسلحة النووية. ومما جاء في بيان البيت الابيض ان «هذا الاتفاق يخدم المصالح الامنية والاقتصادية للولايات المتحدة ويظهر ان سياسة الحكومة القائمة على تعهدات بناءة تجاه الصين تحصد نتائج ملموسة».

إزاء دول آسيان: «الصين لا تسعى إلى الهيمنة على جيرانها في جنوب شرقي آسيا بل إنها تقترح تعليق خلافاتها مع تلك الدول موقتًا من اجل بناء روابط أوثق (...) الصين لن تسعى ابدًا إلى الهيمنة، الصين ستكون دائمًا جارًا وشريكًا وصديقًا وفيًا لدول الأسيان»، هذا ما قاله زيمين، وردّده في الايام الاخيرة من سنة ١٩٩٧.

والمعروف ان روابط الصين بدول جنوب شرقي آسيا كثيرًا ما اتسمت بالتوتر. إذ تدعي بكين السيادة على جزر سبراتلي المتنازع عليها في بحر الصين الجنوبي، والتي يحتمل انها غنية بالنفط، وتطالب بها ايضًا فيتنام وبروناي وماليزيا والفيليبين وتايوان.

وجاء اجتماع زيمين مع زعماء الدول التسع اعضاء رابطة أسيان ورئيسي وزراء اليابان وكوريا الجنوبية (اوائل ١٩٩٨) ليؤذن ببداية مرحلة جديدة لتطوير العلاقات بين الصين ودول أسيان، وإن لم يسقط خوف هذه الدول وحذرها حيال الصين، خاصة بعد ان استعادت هونغ كونغ واستدارت إلى تايوان.

١٩٩٨: البارز في الشهرين الاولين من هذه السنة تشديد الصين وثباتها على موقفها الداعي إلى حل الأزمة مع العراق بالطرق الدولية السلمية ومعارضة السياسة الاميركية الداعية إلى إخضاع العراق بالقوة العسكرية. وقد كررت الصين موقفها هذا لدى استقبال زعيمها جيانغ زيمين رئيس اليمن علي عبد الله صالح في بكين (١٦ شباط ١٩٩٨). وخلال الزيارة أكد الرئيسان استعدادهما لتطوير علاقات التعاون بين البلدين .

معالم تاريخية

□ **ثـورة البوكسـرز (الملاكمـين) (١٨٩٨-١٩٠١):** واحدة من أعنف الثورات الـتي عرفتهـا الصين. ابطالها صينيون وطنيون معادون لتدخل الاجانب المتزايد في شؤون البلاد. والبوكسرز (أي الملاكمون) إسم أطلق على أعضاء جماعات صينية معادية للأجانب دعمتها الحكومة الصينية وتأسست كرد فعل على الإهانة التي لحقت بالصين على يد اليابان عبر معاهدة شيمونو زيكي (١٨٩٥) وعلى يد القوى الاوروبية التي قسمت الصين في ١٨٩٨. والإسم «بوكسرز» أطلقه الأجانب، في حين ان الإسم الصيني لهذه الجماعة هو «إي هو توان» الـذي يعني «قبضات العدالة المتآلفة»، ورفعت شعار «إحموا الوطن ودمّروا الاجنبي»، وباشرت، في خريف ١٨٩٩، حملتها للقضاء على المسيحيين الصينيين الذين اعتبروا «شياطين أجانب طفيليين».

انطلقت حركة هذه الجماعة من أهم مناطق ومراكز الكونفوشيوسية، من منطقة شاندونغ التي عانت أكثر من غيرها من مهانة الحرب الصينية-اليابانية، ثم من توالي الكوارث الطبيعية التي جاءت لتضاف إلى الضرائب التي فرضها الاجانب وإلى القروض الاجبارية على الحكومة الصينية لتسديد تعويضات الحرب. وكذلك جاء ضم الالمان لمنطقة كنفداو إلى ممتلكاتهم، والانكليز لمنطقة ويهاي، ليسمح باقامة صناعات في المنطقتين قضت على الحرف الصغيرة وأضرت بأصحابها، وفي الوقت نفسه امتلأت منطقة شاندونغ بالمبشرين الأجانب الذين اقاموا أكثر من ألف كنيسة ونصّروا أكثر من ٨٠ ألف مواطن.

هكذا، اجتمعت كل هذه العوامل لتطلق الثورة التي جعلت الاجانب والمبشرين هدفها الرئيسي، وكان عمادها الأساسي جماعة «قبضات العدالة المتآلفة» التي انتظمت في فرق سرية تتألف كل منها من عشرة اعضاء يتلقون تدريبات صارمة، وكلهم في البداية كانوا من الفلاحين الشبان والبحارة والحمالين والجنود ورهبان الأديرة الكونفوشيوسية، ثم انضم إليهم صغار الموظفين، ثم اصحاب الأملاك.

في اوائل حزيران ١٩٠٠، قامت الدول الاوروبية الكبرى بمحاولة فاشلة لانزال مزيد من قواتها في بكين. فازداد الوضع سوءًا، وقتل السفير الالماني الكونت كيتلر وحوصر العديد من السفراء الاجانب ومساعديهم وعدد من رهبان الارساليات المسيحية، ومئات من الصينيين في حي البعثات الدبلوماسية وفي الكنائس الكاثوليكية وآلاف من المسيحيين الصينيين (خاصة في هوبه، شانسي ومنشوريا). عندها، أخذت المانيا المبادرة وجهزت حملة (تبعتها الدول الاوروبية الاخرى) على الصين، من دون ان تعلن الحرب بل لـ«انقاذ» مواطنيها والقضاء على

في ايام حرب البوكسرز.

البوكسرز. والحال ان أكثر ما سبب رعبًا لدى القوى الاوروبية كان وقوف الامبراطورة الصينية إلى جانب الثوار لتوجيه الاستياء الشعبي ضد الاجانب بدلاً من ان يتوجه ضد الحكومة، وللتخلص من الاجانب أنفسهم أملاً بسد الطريق امام التغلغل الاجنبي المتزايد في البلاد. وفي آب ١٩٠٠، احتلت القوات الاوروبية المتحالفة بكين، ورفعت الحصار عن حي السفارات والجاليات الاجنبية والكنيسة الكاثوليكية، وراحت تطارد البوكسرز وتعمل في العاصمة نهبًا. وباحتلال بكين، اصبحت معظم أجزاء الامبراطورية الصينية تحت رحمة الاجانب، باستثناء منشوريا التي ما لبثت روسيا القيصرية ان أرسلت قوات ضخمة إليها بحجة حماية مواطنيها واستثماراتها، فقضت على كل مقاومة فيها، واحتلت مساحات واسعة من مقاطعات منشوريا الثلاث. ولم تنته الحملة الروسية إلا باتفاقية يحق لروسيا بموجبها الاشراف على منشوريا.

أما ثورة البوكسرز فانتهت في ٧ ايلول ١٩٠١ باستسلام الثائرين وخضوع الحكومة الصينية لشروط الدول الاوروبية التي فرضت على الصين يومها:

– ان تدفع الصين للحلفاء الغربيين تعويضات الحرب التي حدد مجموعها بـ٦٧،٥ مليون جنيه استرليني توزع بين الحلفاء بحسب اتفاقهم بعد ذلك. أما تسديد المبلغ فيكون مضمونًا بالاستناد إلى العوائد الجمركية والمساهمات غير المباشرة.

– على الصين ان تمنح القوى المتحالفة الكبرى نقاط استناد ساحلية بين بكين والبحر.

– يمنع الصينيون منعًا باتًا من ولوج منطقة السفارات.

– يقام نصب تذكاري للسفير الالماني الكونت فون كيتلر الذي اغتاله الثوار.

هذه التنازلات والشروط المهينة المفروضة على الصينيين كانت سببًا رئيسيًا في وقوفهم اولاً إلى جانب صن يات صن في ثورته «الجمهورية الديمقراطية»، ثم إلى جانب تشيانغ كاي-تشيك والكومنتاغ، وبعد ذلك إلى جانب ماوتسي تونغ.

□ **ثورة التايبنغ T'ai P'ing (١٨٥١–١٨٦٤)**: من أهم الثورات في تاريخ الصين الحديث. اكتسبت إسمها من «تايبنغ تينكوو»، أي «مملكة السلام السماوية العظيمة».

اندلعت هذه الثورة على أثر تأزم الوضع في الصين بعد حرب الأفيون واتفاقياتها المجحفة والمذلة، وانتشار المجاعة في إقليم كوانغسي، ووقوع العديد من الكوارث الطبيعية (فيضانات وقحط وجفاف) وتضخم عدد السكان وازدياد في كره الشعب للأسرة الامبراطورية الحاكمة.

كان قائد هذه الثورة شخصًا متواضعًا من منطقة كانتون يدعى هونغ هسيو شوان. ولد في ١٨١٤ ورسب مرارًا في الامتحانات الرسمية بسبب الطابع الطبقي التعجيزي لمثل هذه الامتحانات، فمرّ بأزمة نفسية وصوفية عميقة، أعلن على أثرها ان الله قد كلفه بمهمة سماوية لتخليص الصين من واقعها المرير، فبلور نظرية ثورية دينية فيها خليط من الافكار الصينية التراثية والافكار الدينية المسيحية البروتستانتية. وبدأ انطلاقًا من ١٨٤٤، يبشر بنظريته الجديدة ويناضل من اجل جمع المؤيدين لها. فالتفت حوله الطبقات الاجتماعية المسحوقة والهامشية، وبشكل خاص الفلاحون المحرومون الذين شكلوا حوله جيشًا من المزارعين المسلحين مركزه كوانغسي حيث أسس في ١٨٥١ عاصمة مملكة التايبنغ.

عكست شعارات ثورة التايبنغ وممارساتها في المرحلة الاولى نوعًا من التوفيق بين الافكار الغربية والتقاليد الصينية، وهذا ما جعل الدول الاستعمارية تقف في البداية موقف المحايد. ثم سيطرت عليها فيما بعد الروح القومية المعادية للغرب ولوجوده وللأسرة الامبراطورية المتواطئة معه. وقد رفضت الثورة الافكار الكونفوشيوسية واقامت تنظيمًا اجتماعيًا جديدًا مرتكزًا على المساواة، وألغت العبودية وتعدد الزوجات وسيطرة الرجال، ونادت بحياة جماعية قائمة على التقشف والفضيلة.

احتل جيش التايبنغ عدة مقاطعات صينية، ورفع شعار «الارض لزارعيها»، فازداد التفاف الشعب حول هذا الجيش الذي ضم حوالي مليون مقاتل. وعبرت ثورة التايبنغ عن أهدافها بشعارات بالغة الدلالة، تقول:

«أينما تكن ثمة أرض — فسوف نزرعها معًا»
«أينما تكن ثمة ملابس — فسوف نرتديها معًا»
«أينما تكن ثمة نقود — فسوف ننفقها معًا»
«لن يكون ثمة مكان لا يعرف المساواة»
«ولن يكون ثمة من يشكو من البرد والجوع».

انقسمت الصين من جراء ذلك إلى دولتين دائمتي الاحتراب: الاولى في الشمال وهي دولة المانشو الممثلة لمصالح الاقطاع وكبار قادة الجيش؛ والثانية في الجنوب وهي دولة التايبنغ الممثلة لمصالح الفلاحين والحرفيين والجنود. وحاولت التايبنغ توحيد الصين كلها، فاندفعت

تستكمل فتح بقية اقاليمها، ونجحت باحتلال الجزء الغربي من الصين. إلا ان جيوش الشمال نجحت في قطع مواصلات قوات التايينغ لأكثر من عامين تخللتهما اشتباكات ومعارك ضارية، اخذت بعدها قوات التايينغ تحرز الانتصارات المتوالية.

وقد قامت ثورات أخرى على غرار ثورة التايينغ في مواقع اخرى نجحت بالاتصال مع قوات التايينغ. وفي اعقاب حرب الأفيون الثانية، ساعدت الدول الاستعمارية المانشو في القضاء على ثورة التايينغ، ولكن قوات التايينغ استطاعت الحاق الهزيمة بجيش المانشو في ١٨٦٢. إلا ان هذا الجيش نجح باختراق صفوف التايينغ مستفيدًا من الانشقاقات في صفوفها؛ فنجح باحتلال نينغو وشاوشينغ ونغشاو حتى وصل إلى ابواب عاصمة التايينغ. إلا ان صمود هؤلاء أخّر سقوط عاصمتهم بعد ان كان قائد الثورة هونغ هسيو شوان قد انتحر يأسًا من النصر. وعندما سقطت العاصمة، كان ما تبقى من جيش الثوار لا يزيد على اربعة آلاف من اصل مليون مقاتل. لكن النظام الامبراطوري خرج منهكًا بعد هذه الثورة الجارفة التي كلفت البلاد عدة ملايين من الضحايا، واعتبرت ثورة التايينغ فاتحة الطريق امام الثورات الصينية اللاحقة وصولاً إلى ثورة ماو والشيوعيين (عن «موسوعة السياسة»، ١٩٧٩، ج١، ص٨٨٢-٨٨٣).

☐ **الثورة الثقافية:** حركة سياسية شيوعية وعقائدية صينية أطلقها الزعيم ماو تسي تونغ عقب موجات متوالية من الانتقادات الموجهة لفشل تجربة «القفزة الكبرى إلى الامام» وتجربة الكومونات الشعبية، وقد اراد ماو من خلالها استعادة إمساكه زمام السلطة داخل الحزب الشيوعي الصيني وإطلاق الدينامية الثورية.

التسمية الرسمية لهذه الثورة «الثورة البروليتارية الثقافية العظيمة». وقد هيأت لها مجموعة راديكالية صينية من عدد من مسؤولي الحزب الشيوعي الصيني سميت «جماعة الخمسة» وشكلت في بكين برئاسة بينغ شين وأوكل إليها توجيه هذه الثورة. لكن ماو تسي تونغ اقنع اللجنة المركزية للحزب، بعد عودته من شانغهاي في ١٦ ايار ١٩٦٦، بعدم راديكالية جماعة الخمسة هذه، مما دعا اللجنة إلى تعميم أمر عزلها واستبدالها بجماعة الثورة الثقافية التي ترأسها شين بو-تا، سكرتير ماو تسي تونغ السابق، وناشر صحيفة «هانغ شي» الناطقة بلسان اللجنة المركزية للحزب. وقد تم تشكيل الجماعة الجديدة وارتفع عدد اعضائها ليشمل عشرين عضوًا، بمن فيهم زوجة ماو تسي تونغ (وكانت أول رئيسة لمجلس النواب) شيانغ شي، وشيانغ شيون شياو، وياو وين (اعتقل هؤلاء في ١٩٧٦، وحوكموا بعد سنوات).

بدأت الثورة الثقافية في تشرين الثاني ١٩٦٥ بحملة صحافية مركزة وموجهة ضد وو هان Wu Han الذي كان يدافع عن وزير الدفاع المستقيل بنغ دو-هاي، وضد عمدة العاصمة بكين بنغ زن Peng Zhen. وكان ماو مطمئنًا لدعم الجيش الذي كان قائده، لين بياو، من أشد المناصرين له، وقد شكل معه، في ١٩٦٦، «الحرس الأحمر»، المكوّن من شبيبة تتراوح أعمار عناصرها من ١٥ إلى ١٩ عامًا، والمخوّل إحداث «الصدمة» ضد جميع الذين كانوا «ينتهجون الخط الرأسمالي داخل الحزب». ثم شكل ماو لجنة ثورية من زوجته وآخرين («زمرة الاربعة»). ولعبت ملصقات الحائط (دازيبوا daziboa)، و«الكتاب الأحمر» ودورات «إعادة التأهيل» في الريف والمعسكرات دورًا اساسيًا وسلاحًا فعالاً في يد الراديكاليين ضد جميع القادة «الانحرافيين».

لكن، وعلى الرغم من الاعتدال الذي اتسمت به مواقف شو إن لاي والقرار الذي اتخذه ماو (كانون الثاني ١٩٦٧) بتكليف الجيش إعادة الأمن إلى البلاد، استمر الحراس الحمر، وقد انضم إليهم «المتمردون الحمر» (العمال الشباب)، في حركتهم ومظاهراتهم المتسمة بالعنف في أغلب الاحيان، حتى انهم قادوا البلاد إلى شفير الانفلات والفوضى العامة، موجهين دائمًا الانتقادات لرجالات الحزب البارزين.

اعتبرت الثورة الثقافية في الصين جزءًا من نظرية الثورة المستمرة. وغيّرت مسار الاحداث واشخاص القيادة، فذهب ضحيتها الرئيس ليو تشاو-شي، ومن بعده لين بياو نفسه الذي كان معتبرًا خليفة لماو، وكرّست القطيعة مع الاتحاد السوفياتي، وقلّصت نفوذ شو إن لاي، وإن كان قد عاد إلى مسرح الاحداث بعد أن أدان شطحات هذه الثورة وحاول احتواء بعض الآثار الاقتصادية السلبية لممارساتها.

انتهت هذه الثورة، رسميًا، في ١٩٧١ باقصاء لين بياو، وبوقف لجانها عن العمل. إلا انها لم تنته فعلاً إلا بإقصاء زمرة الاربعة، ومحاكمتهم، وعودة دينغ كسياو بينغ والزعماء المعتدلين للقيادة.

☐ **حرب الأفيون:** هي حربان، الاولى في

١٨٤٠-١٨٤٢، والثانية في ١٨٥٧-١٨٦٠. سببهما الرئيسي مطامع بريطانية تجارية واستعمارية، انتهت باضطرار الصين إلى توقيع معاهدة مع بريطانيا تنازلت فيها عن قدر كبير من حقوقها في السيادة الوطنية، كما فتحت ابواب الصين أمام النفوذ الاستعماري الغربي. أما التسمية «حرب الأفيون» فتعود إلى الحادثة التي كانت بمثابة شرارة اندلاع هذه الحرب، ووقعت في مدينة كانتون حيث أقدم جمهور صيني على إحراق سلع صدرتها بريطانيا إلى الهند، وتبين انها من الأفيون. وكانت هذه السلعة تهرّب بتشجيع من بريطانيا نفسها لأسباب سياسية وتجارية. والحادثة وقعت بعد ان اعتدى بعض البحارة الانكليز السكارى على عدد من الصينيين في كانتون وقتلوا أحدهم. فانفجر الموقف، خاصة بعد رفض الانكليز تسليم الجناة لحاكم كانتون. وكانت الحرب سجالاً بين الفريقين في مرحلتها الاولى، ثم رجحت كفة البريطانيين نتيجة لتذبذب حكومة المانشو الامبراطورية في موقفها بين السلام والحرب، وافتقار الأقاليم الصينية إلى الموقف الموحد. فاحتلت القوات البريطانية آموي، تينغهاي، نينغبو، كانتون وشانغهاي. ثم توغلت في الاراضي الصينية وقطعت القناة الامبراطورية الكبرى، وسيلة الملاحة الرئيسية بين شمالي الصين وجنوبيها، واحتلت شينكيانغ ووصلت إلى مشارف نانكينغ، مدخل بكين العاصمة، عندها، قررت حكومة المانشو إيقاف الحرب، ووقعت مع بريطانيا اتفاقية نانكينغ (على ظهر إحدى السفن البريطانية في ٢٩ آب ١٨٤٢) قبلت فيها الصين أغلب الشروط البريطانية: تدفع الصين ٢١ مليون دولار للانكليز تعويضًا عن الأفيون الذي صادره حاكم كانتون لين تسي هسو واحرقه؛ تتنازل الصين عن ميناء هونغ كونغ ليتحول إلى مستعمرة بريطانية؛ فتح خمسة موانىء كبيرة (كانتون، فو شاو، آموي، نينغبو وشانغهاي) امام التجارة البريطانية الحرة مع إعفاء الرعايا البريطانيين من الخضوع للقانون الصيني؛ تتمتع بريطانيا بامتياز «الدولة الأكثر رعاية» في معاملاتها التجارية مع الصين؛ تخفيض الرسوم الجمركية على الواردات البريطانية للصين إلى أقل من ٥٪ من قيمة الواردات.

وتدافعت الدول الغربية على الصين، كل تريد الحصول على غنيمة في حرب لم تشترك فيها، مهدّدة الصين بأنها ستحذو حذو بريطانيا إن لم تستجب الصين لمطالبها. فوقعت الصين مع الولايات المتحدة معاهدة وانغهيا (تموز ١٨٤٤) حيث زادت الامتيازات الاميركية على الامتيازات البريطانية في مجال الاعفاءات القضائية والمعاملة الجمركية والملاحة في الانهار الداخلية. وحصلت فرنسا، بموجب معاهدة وامبو (تشرين الاول ١٨٤٤) على كافة الامتيازات التي حصلت عليها الولايات المتحدة بالاضافة إلى حق فرنسا في نشر المسيحية في الصين (دور اليسوعيين) وحماية المسيحيين فيها، كما اضطرت حكومة المانشو إلى الاعتراف بالكاثوليكية والبروتستانتية في الصين تحت ضغوط الدول الغربية الثلاث.

وقد أدت هذه الشروط المذلة إلى خلق مناخ ثوري في الصين سرعان ما تطور إلى هبّات وانتفاضات قومية ضد الاجانب والمتعاملين معهم، وكان ابرزها ما عرف بـ«ثورة التايبنغ» (راجع في هذا الباب) وبحرب الأفيون الثانية.

حول هذه الحرب (حرب الأفيون الثانية ١٨٥٧-١٨٦٠) جاء في «موسوعة السياسة» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ج١، ص١٧٩-١٨٠):

فتحت الحرب الاهلية الصينية، بين المانشو والتايبنغ، شهية الدول الاستعمارية، فألحت على ضرورة تعديل اتفاقيات حرب الأفيون الاولى لصالحها. وفي ١٨٥٣، اقترحت بريطانيا على الولايات المتحدة القيام بعمل مشترك لارغام الصين على فتح اسواقها كلها للتجارة الاجنبية. وفي العام التالي قدم روبرت ماكلين، الوزير الاميركي في الصين، مذكرة إلى يي ليانغ، نائب الامبراطور الصيني في ليانغ كيانغ، طالب فيها بتعديل اتفاقيات حرب الأفيون الاولى مقابل تقديم الولايات المتحدة المعونة لحكومة المانشو للقضاء على ثورة التايبنغ. وسرعان ما تقدم الممثلون الدبلوماسيون لبريطانيا والولايات المتحدة، في العام نفسه، بطلب مشترك إلى حكومة المانشو، بتعديل الاتفاقيات المشار إليها بما يقضي على ما تبقى من القيود المحدودة على التجارة الاجنبية، وبمنح أقصى درجات حرية الحركة للممثلين الدبلوماسيين الاجانب في الصين والتجار التابعين لهم. واختار المانشو الطريق الاسهل، طريق تقديم المزيد من التنازلات للاستعماريين. وفي شانغهاي حيث اشتد خطر «منظمة السيف الصغير» على حكومة المانشو، اقدم حاكمها الصيني ووشين شانغ (في ١٨٥٤) على إعفاء التجار الاجانب من الرسوم الجمركية. وشكلت لتطبيق ذلك الإعفاء لجنة ثلاثية (بريطاني واميركي وفرنسي).

وفي تشرين الاول ١٨٥٤، فشلت مفاوضات أجراها المبعوثان البريطاني والاميركي مع مندوب للامبراطور مانشو الصيني بغية الحصول على المزيد من

التنازلات للاجانب في الصين. وتذرعت بريطانيا باحتجاز حكومة المانشو لسفينة قرصنة صينية ترفع العلم البريطاني. وطالب المندوب البريطاني بالافراج عن السفينة وبحارتها. ولما لم تستجب حكومة المانشو قصف الاسطول البريطاني كانتون بالقنابل، واشتركت فرنسا بالحرب مع بريطانيا متذرعة بمقتل أحد مبشريها في كوانغسي (كانون الاول ١٨٥٧). فسقطت كانتون في ايدي القوات البريطانية-الفرنسية التي احتلت ايضًا قلاع تاكو قرب تيانتسين. وفي حزيران ١٨٥٨، وقّعت حكومة المانشو اتفاقية تيانتسين مع البريطانيين والفرنسيين، واصبحت الصين بموجبها مباحة لهم ولتجارتهم. ونصت هذه الاتفاقية على تخفيض التعرفة الجمركية إلى ٢،٥٪، وعلى دفع حكومة المانشو غرامة قدرها ٦ ملايين تابل من الفضة، ثلثها للبريطانيين، وثلثها الثاني للفرنسيين، والثالث للتجار الأجانب.

وبعد انسحاب القوات البريطانية والفرنسية من تيانتسين، طلبت حكومة المانشو إلغاء النص القاضي باقامة الاجانب في بكين من الاتفاقية الجديدة. فتجدد القتال، وأعلنت الدولتان الحرب من جديد على الصين، واحتلت قواتهما (في ١٨٦٠) تيانتسين، وتقدمت شمالاً فاحتلت بكين، وفرّ الامبراطور، ثم عادت حكومته وصادقت على معاهدة تيانتسين بعد ان زادت غرامة الحرب إلى ٨ ملايين تابل من الفضة.

وضربت كل من الولايات المتحدة وروسيا القيصرية على الحديد وهو ساخن. فطالبتا بالمساواة مع الانكليز والفرنسيين في الامتيازات، وكان لهما ما ارادتا.

واستعانت حكومة المانشو بالجنود الانكليز والفرنسيين في القضاء على ثورة التايبنغ مستفيدة من نص اتفاقيات حرب الأفيون الثانية على ضرورة مساعدة الدول الاستعمارية لحكومة المانشو في القضاء على الاضطرابات ونشر الأمن في الصين. وفي ١٨٦٤، تمّ القضاء على آخر معقل لثوار التايبنغ.

☐ **الحرس الأحمر**: راجع «الثورة الثقافية» في هذا الباب.

☐ **حركة نيسان-ايار ١٩٨٩**: حركة طلابية سياسية شعارها «تحيا الديمقراطية، تحيا الحرية»، اشترك فيها مئات الالوف من الطلاب الذين اتخذوا ساحة تيانانمن («تيان إن مين» التي تعني «ميدان السلام السماوي») الشهيرة في وسط بكين مكانًا رئيسيًا لتحركهم الذي بدأوه في ١٥ نيسان، يوم توفي ياو بانغ، الامين العام السابق للحزب الشيوعي الصيني الذي كان قد ابعد عن منصبه قبل عامين بسبب «انحرافه عن الخط المستقيم للحزب» وكان محبوبًا من الشباب والطلاب. وتوصل الطلاب إلى السيطرة على الساحة بتدفقهم المستمر عليها. وفي ٢١ نيسان، حاولوا اقتحام «قصر الشعب» (مبنى البرلمان). وبدأ إسم «ربيع بكين» يظهر في وسائل الاعلام العالمية، خاصة الغربية. واكتفت السلطات، في مرحلة أولى، بترك الطلاب يعبّرون عن أفكارهم ومطالبهم؛ ووصلت حركتهم إلى أوجها مع وصول الزعيم السوفياتي غورباتشوف (الذي كان بدأ «البيريسترويكا» في الاتحاد السوفياتي قبل نحو خمس سنوات) إلى بكين في ١٥ ايار، فتدفق الطلاب إلى الساحة بمئات الالوف لتحية غورباتشوف والمطالبة بتنحية الزعيم الصيني دينغ كسياو بينغ. وبعد أقل من اسبوع عزل أمين عام الحزب الشيوعي زاو زيانغ (جاو جيانغ) «الذي كان بالغ في انفتاحه على الطلاب ومحاورته لهم»، وأعلنت حالة الطوارىء، وراح الجيش يتحرك ضد المتظاهرين والمضربين في بكين وشانغهاي وسيتشوان، وراحت الانباء تتحدث عن مصادمات وجرحى وقتلى بالمئات. ووصلت الحوادث الدموية إلى أوجها يوم ٢٩ ايار عندما وضع الطلاب، وعلى بعد أمتار فقط من صورة ماو الشهيرة في الساحة، تمثالاً للحرية شبيهًا بالتمثال الاميركي، وأحاطوه بيافطات وشعارات الديمقراطية والحرية. فاستفز هذا الرمز الاميركي أقصى درجات الغضب لدى السلطات وكذلك لدى قطاعات واسعة من الشعب. فجرّد الجيش حملة قمع للطلاب ذهبت بارواح المئات منهم، ووضعت حدًّا للتحرك الطلابي. وواصلت السلطات حملتها فحاكمت العديدين من الطلاب المعتقلين، وأعدم (في ٢١ حزيران) عدد من الذين اتهموا باحراق القطارات والاستيلاء على معدات تعود إلى الجيش.

☐ **الحزب الشيوعي الصيني**: تأسس في تموز ١٩٢١ في مدينة شانغهاي على يد ١٢ شخصًا من بينهم ماو تسي تونغ وبحضور مندوب عن الكومنترن (الاممية الاشتراكية الثالثة التي نشأت عقب الحرب العالمية الاولى). وقد انتخب المؤسسون تشن تو-سيو أول أمين عام للحزب وعهدوا بقيادة الحزب إلى ثلاثة اشخاص هم تشانغ كو-تاو، لي تاو اضافة إلى الامين العام. أما ماو تسي تونغ فلم تعهد إليه أي مهمات قيادية، وكان لا بد له من انتظار عام ١٩٣٥ ليعين رسميًا أمينًا عامًا.

كان الحزب الشيوعي الصيني في بداياته ضعيف الانتشار بين الجماهير الصينية وشديد الاعتماد على نصائح الكومنترن التي كانت تجهل الظروف القومية للصين. ولم يحقق الحزب تقدمًا إلا في الاوساط العمالية النقابية. أما تغلغله السياسي وانتشاره الواسع فلم يبدأ إلا في ١٩٢٥ وذلك بفضل تحالفه مع الكومنتانغ الذي استمر حتى ١٩٢٧.

وفي الوقت الذي كان الحزب الشيوعي ينظم صفوفه في الداخل، كانت هناك عدة مجموعات شيوعية صينية تبرز إلى الوجود في الخارج وبصورة خاصة في فرنسا واليابان. وأبرز الشخصيات الشيوعية الصينية التي عاشت في فرنسا في تلك الفترة وتمرست في العمل السياسي والنقابي بواسطة الحزب الشيوعي الفرنسي شو إن لاي، تشن يي، ودينغ كسياو بينغ. أما تشو-ته، مؤسس الجيش الشعبي الصيني، فقد عاش في تلك الفترة في المانيا.

(حول الحزب الشيوعي الصيني منذ تأسيسه راجع مختلف ابواب هذه المادة «الصين»).

☐ **الحملة ضد الاعداء الثلاثة**: راجع «الكومونات الشعبية» في هذا الباب.

☐ **«دعوا مائة زهرة تتفتح ومائة مدرسة تتنافس»**: شعار أطلقه ماو تسي تونغ في خطاب له ألقاه في مؤتمر الدولة الأعلى (٢٧ شباط ١٩٥٧)، وتحدث فيه عما أسماه «المعالجة الصحيحة للمتناقضات الموجودة بالفعل في صفوف الشعب». وكان ماو يهدف إلى إضفاء بعض المظاهر الليبرالية على الممارسات السياسية في الصين.

استفاد الليبراليون من هذا الجو، حتى ان المعادين للشيوعية راحوا، في جامعة بكين (اواخر ١٩٥٧)، يحولون منبرها لادانة النظام الاشتراكي و«الطبقة الحاكمة الجديدة» في الصين.

إزاء ذلك، عادت السلطة وعالجت «الانفلات الايديولوجي» بالضرب بشدة. فأعلن ماو (٢٥ ايار ١٩٥٨) ان «كل عمل وكل كلام يبتعد عن الاشتراكية هو في ضلال»؛ ثم تبعه الكاتب الصيني كيو موجو، فأدان «الزهور السامة التي يجب قلعها». وقد تبع ذلك إرسال مئات الآلاف من المثقفين والليبراليين وأهالي المدن إلى الارياف «ليكفروا عن أخطائهم ويعودوا إلى ضمائرهم».

ما يزال المؤرخون حتى اليوم يختلفون في الحكم على هذه الحملة: هل كانت فخًا لجر المعارضة للتعبير عن نفسها، ثم كشفها، أم إنها كانت بادرة انفتاح حقيقي خاف اصحابها في ما بعد من ان تتطور إلى ظاهرة تهدد النظام؟.

☐ **«زمرة الاربعة»** أو «عصابة الاربعة»: إسم أطلقته القيادة السياسية الصينية، بعد ماو، على أربعة من أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني: تشاينغ تشينغ (أرملة ماو)، وانغ هونغ-ون (نائب رئيس الحزب الذي كان حتى ١٩٧٥ يعتبر مرشحًا لخلافة ماو)، شياو ون-وات (كان رئيس الدعاية في الصين) وشانغ تشون-تشياو (أقوى الاربعة وكان أحد نواب رئيس الوزراء والمفوض السياسي للجيش وعضو اللجنة الدائمة للحزب ورئيس وزراء محتمل).

اتهموا بالانحراف والتخطيط لانقلاب على نظام الرئيس هوا كو-فينغ، وسُمّوا «مافيا شانغهاي». سياستهم راديكالية متشدّدة سواء في الداخل أو في الخارج (مع الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي). جسّدوا الخط الأكثر تصلبًا في الثورة الثقافية.

اعتقلوا في ١٢ ايار ١٩٧٦، وحوكموا في ١٩٨٠، وجاءت المحاكمات كمؤشر واضح على التخلي عن الماوية. وصدر حكم بالاعدام (مع وقف التنفيذ) على تشاينغ وشانغ، والسجن المؤبد مع الاشغال الشاقة على الآخرين.

☐ **سياسة «الانفتاح وإعادة البناء» أو مرحلة التحول الكبير**: بعد وفاة ماو انشغلت الصين، ولا تزال حتى اليوم، أي طيلة عهد دينغ كسياو بينغ حتى وفاته في شباط ١٩٩٧ وخلال هذه السنة من عهد خليفته الرئيس الحالي جيانغ زيمين، انشغلت بمسألتين رئيسيتين: إعادة الاجزاء المفقودة من الوطن (هونغ كونغ التي عادت فعلاً في آخر حزيران ١٩٩٧، وماكاو المنتظر استردادها في آخر ١٩٩٩، وتايوان)، وإعادة البناء الاقتصادي في ضوء تجارب الماضي وضوء المستجدات والتطورات العالمية.

فعقب سلسلة من اجتماعات زعماء وقادة الحزب الشيوعي الصيني (١٩٧٨) غلبت لغة ضرورة توفير الظروف السليمة للمجتمع باتباع سياسة الاحترام المتبادل مع جميع دول العالم على الخطاب السياسي الصيني بشقيه: الحزب والحكومة، وبدأ تحول تدريجي في السياستين، الداخلية والخارجية، أحد عناوينه الرئيسية ان الصين لا تسعى للتناقض مع أحد اقتصاديًا أو سياسيًا.

«اقتصاد السوق»: ملصق اعلاني في بكين
«صين الاستهلاك، صين البؤس»
(«لوموند ديبلوماتيك»، تشرين الاول ١٩٩٧، ص ٢٠).

التحول الكبير داخليًا: حين تمكنت قوات الجيش من قمع تمرد الطلاب في ١٩٨٩ (راجع «حركة نيسان-ايار ١٩٨٩» في هذا الباب)، واعلان الحزب الشيوعي إبعاد رئيسه زاو جيانغ الذي كان من أشد القيادات تحمسًا لتطبيق آليات السوق الحرة في الاقتصاد الصيني بدا لكثيرين في الخارج ان الصين قد تخلت عن مسيرة الاصلاح الاقتصادي التي بدأتها بعد ماو. غير ان الصينيين حرصوا على تبديد هذه الادعاءات، وقام زعيمهم دينغ كسياو بينغ بزيارة المنطقة الحرة في مقاطعة هوانلونغ، وهناك أعلن ان «الصين لا تخشى الاستفادة من الاساليب الرأسمالية في ادارة اقتصادها، وعلى معارضي الاصلاح في الحزب والحكومة ان يتركوا مواقعهم ومناصبهم لمن يتحمسون لمسيرة تحديث الصين».

وحين اجتمع المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي الصيني في تشرين الاول ١٩٩٢، أكد جيانغ زيمين (زعيم الصين الحالي-١٩٩٨) ان «هدف البلاد في المرحلة المقبلة هو الاسراع في إنجاز الاصلاح وتحقيق مزيد من الانفتاح على العالم الخارجي ودفع عمليات التحديث». كما راح القادة الصينيون يؤكدون قناعة أخرى لديهم، مفادها ان السماح بآليات السوق الحرة بالنشاط في الاقتصاد الصيني لن يعني إلغاء دور الحزب الشيوعي والانتقال إلى الليبرالية السياسية. إذ إن الصين حريصة على منع السقوط في «الفخ» الذي وقع فيه الإتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية.

هنا، يطرح الجميع السؤال التالي: إلى أي حد يستطيع الحكم في الصين ان يفصل بين التحول الاقتصادي باستخدام آليات السوق الراسمالية الحرة، وبين الاصلاح السياسي الذي يقتضيه هذا التحول لا محالة؟. وعلى أساس هذا السؤال عدّت أحداث ١٩٨٩ مؤشرًا مهمًا على حتمية الارتباط بين المسارين وبرهانًا على تسرّب خيوط العملية السياسية من بين يدي الحزب الشيوعي. وعليه، فإن من طبيعة النشاط الاقتصادي الحر الذي انطلق منذ ١٩٧٨ ان تضغط في اتجاه الاصلاح السياسي الذي يؤمّن للنشاط الاقتصادي الاستمرار والنمو. يبقى ان نتعرف على طبيعة ومدى التحولات الاقتصادية التي انجزتها الصين منذ ان انتصر دينغ كسياو بينغ لقضية التحديث في ١٩٧٨ حتى اليوم (١٩٩٨).

في الزراعة، قررت السلطات التخلي، بدءًا من اواخر ١٩٨٠، عن نظام الكومونات الزراعية، واستبدلته بتوزيع أراضي الكومونة على الأسر الفلاحية بحيث تكون كل أسرة حرة في تنظيم الارض واستغلالها وزراعة ما تشأ من المحاصيل على أن تقدم ضريبة على الانتاج. ومع تطور هذا العمل اقرت حرية الفلاحين في العمل كتجار. فارتفع معدل النمو الزراعي بين ١٩٧٨ و١٩٨٩ بمعدل ٦،٥٪ مقابل ٢،٥٪ على مدى ٢٦ سنة سابقة على ١٩٧٨.

في الصناعة، انتهى الحزب في اواخر ايار ١٩٨٣ إلى اقرار نظام بتمتع المشروع الصناعي بحريات واسعة في مجالات شراء عناصر الانتاج والحصول على القروض وتسويق جزء من ا لانتاج وتحديد سعره وفقًا لاسعار السوق، وايضًا في كثير من نواحي الاتفاق مع جهات أجنبية. لكن التطبيق العملي أنذر ببطالة واسعة بين عمال المدن، ما جعل الدولة تتراجع عن كثير من إجراءات الحرية في مجال الصناعة مبقية مشاريع صناعية كثيرة في يدها.

على صعيد النظام المالي والمصرفي، لا يزال الحزب والدولة يبديان تحفظًا وحذرًا إزاء اصلاح النظام المالي،

والسماح للبنوك بالنشاط في الاقراض للافراد والمشروعات وتشجيع اسواق الأسهم والسندات، خشية الوقوع في التضخم. إذ إن مشكلة التضخم كانت سببًا رئيسيًا في انهيار نظام تشيانغ كاي تشيك وانتصار الثورة الشيوعية الصينية في ١٩٤٩؛ لذا فهي تمثل هاجسًا حقيقيًا لقيادات الحزب والدولة؛ ولهذا فإن الخطوات التي بدأها النظام الصيني في ما يتصل بتشجيع البنوك على الاقراض وانشاء اسواق الاسهم والسندات لا تزال خطوات خجولة مترددة.

يبدو، بصورة إجمالية، ان النظام الصيني مستعد لبذل كل ما يمكن لانجاح تجربته. فالانتعاش الاقتصادي الذي تمر به البلاد يسمح للحزب بدعم دعايته عن نجاح سياساته وحرصه على استمرار تدخل الدولة في جوانب من النشاط الاقتصادي لتجاوز الآثار الاجتماعية السلبية للاقتصاد الحر، والفساد في مقدمة هذه الآثار. فالحزب يبذل ايضًا جهودًا نشطة لمحاربة الفساد حتى يتأكد الشعب ان مسيرة الاصلاح لصالحه في نهاية الامر. وقد سجل في ١٩٩٢ القبض على آلاف الكوادر الحزبية بتهمة الرشوة واستغلال النفوذ. ومع ذلك لا يزال الحديث يدور عن ان نسبة الفساد الحكومي مرتفعة.

وعلى صعيد المجتمع المدني، فإن آليات السوق الحرة لم تنتج بعد الجماعات الاجتماعية التي تنازع الحزب سلطته السياسية. فالمجتمع المدني الصيني لا يزال شبه خال من التنظيمات الاقتصادية أو السياسة القوية التي تنشط على نطاق واسع. فليس في الصين حتى الآن نقابات عمالية مستقلة ولا صحافة غير حزبية ولا اتحادات تجارية. بل إن القيادة السياسية وجهت ضربات قاضية للبوادر الجنينية لتلك التنظيمات في حركة نيسان-ايار ١٩٨٩.

هنا، في وضع المجتمع المدني الصيني هذا، يبدو الأمر مختلفًا تمامًا عن دول اوروبا الشرقية حيث\كان نشاط تنظيمات المجتمع المدني فيها (وعلى رأسها النقابات والكنائس) سببًا من أسباب تراجع الحزب الشيوعي فيها عن موقعه في السلطة.

أضف إلى ذلك التجانس النسبي في قمة الحزب الشيوعي الصيني واتفاقها على الخطوط العريضة لمسيرة التحديث، وأهم هذه الخطوط اتفاق جميع التيارات (بين متشدد ومعتدل ومتراخ) على ان التحديث الاقتصادي ضروري لكن يجب ان لا يرتبط في بداياته بالديمقراطية على النمط الغربي. فليس هناك، في الصين، ما يدل، حتى الآن، على وجود «غورباتشوف» صيني.

التحول الكبير خارجيًا: مع بدء سياسة الانفتاح والاصلاح (منذ ١٩٧٨) بدأ تحول تدريجي في السياسة الخارجية الصينية ايضًا؛ إذ بدأت الصين بحل مشاكلها وخلافاتها السياسية والحدودية مع دول الجوار مثل الهند وفيتنام وروسيا. وكان من نتيجة هذه السياسة ان أصبحت الصين عضوًا مراقبًا في منظمة دول جنوب شرقي آسيا (آسيان، راجع «آسيان»، ج٢، ص١٠٢) وهو أمر لم يكن أحد يصدق ان من الممكن ان تقدم عليه بكين. وحتى في سياستها لاستعادة الاجزاء المفقودة من الوطن الأم (تايوان، هونغ كونغ، ماكاو) أوجدت الصين مبدأ «دولة واحدة ذات نظامين»، بمعنى ان الحكومة الصينية ستبقي على النظام الاقتصادي الرأسمالي القائم هناك.

بالنسبة إلى العلاقات مع الولايات المتحدة (وهنا المؤشر الأهم على التحول الكبير خارجيًا)، أخذت الدبلوماسية الصينية تحرص على عدم مواجهة السياسة الاميركية في العالم. ففي مجلس الأمن، لم تعد الصين مستعدة لمواجهة بعض القرارات التي ربما تكون غير مقتنعة بها، مثل قرار فرض العقوبات على ليبيا بسبب قضية لوكربي، ومثل اكتفائها بالدعوة إلى تخفيف العقوبات المفروضة على العراق، ومثل إقامتها، منذ ١٩٩٢، علاقات دبلوماسية مع اسرائيل آخذة في التطور بشكل سريع.

ومن المفارقات انه في الوقت الذي تتدفق فيه الاستثمارات الاميركية والغربية على الصين (بلغ حجمها ٥٠ ألف مليون دولار من اصل ١٣٤ ألف مليون دولار) فإن الولايات المتحدة ما زالت تخشى من تنامي القوة الصينية لذلك تلجأ بين حين وآخر لإثارة الضغوط على الصين بحجة الديمقراطية وحقوق الانسان، وباثارة المشاكل للصين مع جيرانها الآسيويات، والصين تتجنب دائمًا المواجهة وتصعيد المواقف لأنها لا تريد مشاكل تعرقل هدفها الاستراتيجي، وهو تحويل الصين إلى قوة اقتصادية كبرى عام ٢٠١٠، ولكن قادتها لا يترددون من التصريح عن عدم وجود نوايا حسنة للولايات المتحدة تجاه بلادهم، ويرون ان تدفق الاستثمارات الاميركية على الصين سببه اقتصادي. فالولايات المتحدة لا تريد التفريط بالاسواق الصينية، ووجدت مصلحة اقتصادية واستثمارية حيث الايدي العاملة الرخيصة والموارد الطبيعية والاسواق الاستهلاكية الكبيرة.

«يرى سفير عربي يعيش في الصين ودرس فيها ان للولايات المتحدة سياسة مزدوجة تجاه الصين. فهي تخشى من تفتت الصين ولكنها في الوقت نفسه تخشى من النهضة

الاقتصادية التي تشهدها الصين منذ ١٥ عامًا والتي استطاعت ان تحقق معدلات للنمو الاقتصادي تراوحت بين ٩ و١٢٪ وهو من أكبر معدلات النمو الاقتصادي في العالم. وما تخشاه الولايات المتحدة من تلك النهضة الاقتصادية ان تصبح الصين في القرن المقبل واحدة من أكبر القوى الاقتصادية في العالم وما سيعكسه ذلك على حجم نفوذها السياسي» (سليمان نمر، من مقال كتبه في بكين، «الحياة»، ٣ تشرين الثاني ١٩٩٥، ص١؛ وراجع «النبذة التاريخية»، و«عشرون عامًا على الاصلاحات» في هذا الباب «معالم تاريخية»).

□ **الصين دولة نووية:** آخر الأحاديث عن السلاح والطاقة النووية، واستخداماتهما والاستراتيجية النووية الصينية، عرفت زخمًا جديدًا (بعد الستينات) في صيف ١٩٩٥ عقب التجربة النووية التي أجرتها الصين (اوائل صيف ١٩٩٥) والتي جاءت بعد وقت قصير على توقيع عدد من الدول (منها معظم دول العالم الثالث) على اتفاقية عدم انتشار الاسلحة النووية. وكان جواب الصين على هدفية هذه التجربة مركزًا على ضرورة إجراء الاختبارات النووية للتأكد من سلامة السلاح، وهو جواب كانت الولايات المتحدة تتذرع به سابقًا عندما كانت تعارض مشاريع منع الاختبارات النووية التي تجرى في باطن الارض.

بدأ البرنامج النووي العسكري الصيني في الخمسينات، وتوج بتفجير أول قنبلة نووية في الستينات. أما البرنامج السلمي النووي فبدأ فعليًا في الثمانينات ويعتبر امتدادًا للبرنامج العسكري. وفي الستينات كان اعتماد الصين الأساسي على الاتحاد السوفياتي لتزويدها بالتقنية النووية. أما في برنامج الثمانينات اعتمدت الصين بنسبة ٧٠٪ من المنتجات المحلية، واستوردت الاجزاء المحلية من اليابان واوروبا الغربية. وفي التسعينات، وقعت الصين على اتفاقية مع روسيا (١٩٩٣) لتجهيزها بمفاعلين بطاقة ألف ميغاواط؛ ووقعت مع فرنسا (١٩٩٥) عقدًا بقيمة ٢،٨ بليون دولار لبناء مفاعلين بطاقة مائة ميغاواط، وعقدًا مع كندا لتجهيز مفاعل أصغر (٦٠٠ ميغاواط).

وتملك الصين مخزونًا ضخمًا من اليورانيوم الخام. إذ اكتشفت حديثًا (منذ سنوات قليلة) مناجم يورانيوم في مقاطعة منغوليا (شمالي الصين) وفي مقاطعة كسينجيان (سينكيانغ، غربي البلاد). وتعتبر الولايات المتحدة من أولى الدول المستوردة لليورانيوم الصيني الخام والمخصب. وتعتقد وكالة الطاقة النووية الدولية ان الصين ستوفر ٢٠٪ من حاجة الاسواق العالمية لليورانيوم حتى نهاية القرن الواحد والعشرين. وتقوم الصين حاليًا ببرنامج واسع لاستغلال الطاقة النووية للاغراض السلمية خصوصًا لانتاج الطاقة الكهربائية.

وخطورة البرنامج النووي الصيني، من وجهة النظر الغربية، انه لا يخضع لمراقبة الغرب وسيطرته، رغم الاتفاقية الموقعة، في ١٩٩٣، بين الصين والولايات المتحدة، التي توجب على الصين السيطرة على صادراتها من التقنية النووية، وتمكن الولايات المتحدة من منع أو حظر بيع التقنية النووية إلى الصين. لهذا بدأت الصين، بعد هذه الاتفاقية، سياسة نووية تجنّبها الاعتماد على التقنية النووية الاميركية أو الغربية، والعثور على شركاء لتطوير برنامجها النووي الواسع. لذلك ينظر الغرب بعين القلق للبرنامج النووي الصيني خاصة لجهة الاتفاقيات الصينية النووية مع كل من ايران وباكستان، وكذلك لجهة ان دراساته وابحاثه (الغرب) تميل إلى الاعتقاد باحتمال بروز الصين قوة عظمى على المسرح الدولي في المستقبل القريب، وتعطي نسبة ٨٠٪ لهذا الاحتمال، وكذلك نسبة ٨٠٪ لاحتمال استمرار عدم اتفاق الصين مع سياسة الغرب في المستقبل.

□ **طريق الحرير القديم والمشروع الجديد:** هي الطريق التي كانت البضائع تقطعها متنقلة من تاجر إلى تاجر من سيان في الصين متابعة «سور الصين العظيم» (راجع باب «مدن ومعالم») إلى الشمال الغربي، عابرةً صحراء تاكلاماكان، وصاعدةً جبال بامبرس، ثم مخترقة افغانستان إلى الشرق وحتى البحر المتوسط، ومن هناك تشحن إلى وجهاتها النهائية في اوروبا الغربية. كانت تمتد نحو ٦٦٠٠كلم (من سيان إلى شواطىء البحر الابيض المتوسط)، ثم تمتد ٢٤٠٠كلم أخرى من هضاب البامير إلى الهند.

ظلت طريق الحرير طوال ١٥٠٠سنة تنقل البضائع والافكار بين ثلاث حضارات قديمة، في الصين والهند وروما. فمن الشرق، كانت قوافل الإبل والخيل والثيران تنقل الأفاوية والحرير (الذي أعطى الطريق إسمه)، ومن الغرب حملت الصوف والنباتات الغربية والحيوانات والأحجار الكريمة.

مع فقدان الامبراطورية الرومانية، تدريجًا، سيطرتها على مناطقها في آسيا، ومع صعود القوة العربية-الاسلامية في الشرق، تحول طريق الحرير، تدريجًا، إلى طريق

الجسر القاري الاورو-آسيوي الجديد («الحياة»، العدد ١٢٢٥٢، تاريخ ١١ ايلول ١٩٩٦، ص١١).

غير مأمون. فخلا تقريبًا من المسافرين، ولم ينتعش مرة أخرى إلا على يد المغول. وفي ذلك الوقت، استخدم ماركو بولو الطريق للوصول إلى الصين. ولا يزال الطريق موجودًا اليوم جزئيًا في صورة طريق معبدة يربط بين باكستان وإقليم كسينجيانغ (سينكيانغ)، «تركستان الشرقية») في الصين.

وكان للعملات دور مهم في تطوير التجارة الدولية التي كانت تتم على طول هذه الطريق، ولذلك فهي تشكل مادة مهمة للتعرف على القوى المتنافسة للسيطرة على «طريق الحرير» منذ القرن الثالث ق.م. وحتى القرن السادس (في نيسان ١٩٩٣، عرض المتحف البريطاني مجموعة «عملات طريق الحرير» التي تعرّف بجانب من ثقافات الشعوب القديمة التي عاشت على طول هذه الطريق).

في ربيع ١٩٩٦، أقيم في الصين معرض دولي ساهم فيه نحو ٥٠٠ خبير اقتصادي من ٣٤ بلدًا، عرض فيه الصينيون مشروعًا لـ«طريق الحرير الجديدة» أسموه «الجسر القاري الأوروآسيوي الجديد»، وهو يمتد من المحيط الهادي في الصين إلى الاطلسي في شمالي افريقيا، كما عرضوا خريطة صينية تحدد ٣ خطوط رئيسية تشكل الجسر المقترح المؤلف من شبكة نقل حديثة من قطارات مغناطيسية وسكك حديد فائقة السرعة وطرق مائية ومراكز لانتاج الطاقة وتوزيعها وهياكل ارتكازية للاتصالات. وقد عرض الخبراء الصينيون نحو ٥٠ بحثًا في المؤتمر كشفوا فيها ان كثيرًا من هذه المشاريع أُكمل أو في طريقه إلى التنفيذ. وتساهم في تطوير هذا المشروع حاليًا، إلى جانب الصين، ايران وجمهوريات آسيا الوسطى.

و«سد الصين العظيم» الذي اقامته الصين على نهر اليانغتسي مرتبط بمشاريع الجسر القاري ويقدم صورة عن حجمها. وقد احتفلت الصين، في اواسط تشرين الثاني ١٩٩٧، بانتهاء المرحلة الاولى من بنائه. يعادل مرتين سد «إيتايبو» البرازيلي الذي كان يعتبر أكبر سد في العالم. يقطع سدّ الصين العظيم نهر اليانغتسي (ثالث أكبر نهر في العالم بعد النيل والأمازون) ويبلغ طوله أكثر من كيلومترين، وارتفاعه ٢٠٠م، وكلفته ١٥ بليون دولار، وسيقيم عند الانتهاء منه في العام ٢٠٠٩ كتلة برية تعادل

أربع مرات جزيرة هونغ كونغ، ويولّد طاقة كهربائية تعادل ١٨ محطة نووية. ويحقق هذا السد، الذي طرح مشروعه الزعيم الصيني صن يات صن (في ١٩١١) الحلم القومي للبلاد. وفي ١٩٥٦، كتب ماو تسي تونغ، وهو يسبح في نهر اليانغتسي قصيدة عن السدّ (الذي استمر يلهم خيال الصينيين إلى ان اصبح حقيقة) قال فيها إنه «سيوقف الغيوم ويجمّع الامطار». وخضع مشروع السد، بعد ماو وطوال سنوات ١٩٨٥-١٩٩٥، لنقاشات ساهم فيها أكبر عدد من المثقفين منذ الثورة الثقافية.

السبيل الوحيد لتنشيط الاقتصاد العالمي، برأي أكثر الخبراء الاقتصاديين العالميين، هو إحياء طريق الحرير. فالاستثمارات الكبرى في هذه الطريق تزيل الانفصام القائم بين الثروات المالية والاقتصاد الفعلي، وتحقق في الوقت نفسه ثورة التنمية في مناطق طريق الحرير التي تضم ثلاثة ارباع سكان العالم (آسيا والعالم العربي وافريقيا واوروبا). فالمركز الاقتصادي العالمي، برأيهم، قد تحول من منطقة المحيط الاطلسي إلى المحيط الهندي (المعروف ان هذا المركز، كان مع الاكتشافات البحرية وبداية عصور الاستعمار الغربي قد تحول من البحر المتوسط إلى الاطلسي، وها هو الآن يتحول من الاطلسي ليعود إلى المحيط الهندي-البحر المتوسط). وتؤكد ذلك الاتفاقات الاقتصادية الدولية التي تعقد حاليًا، وآخرها الاتفاقات التي جرت خلال زيارة الرئيس الصيني إلى الولايات المتحدة (تشرين الثاني ١٩٩٧). ويمثل المشروع الصيني «تطوير الجسر القاري الأوروآسيوي الجديد» خطوة أولى وأساسية لمسيرة التجديد الاقتصادي العالمي.

□ **عشرون عامًا على الاصلاحات** (اواخر ١٩٧٨-اواخر ١٩٩٧):

– ١٨-٢٢ كانون الاول ١٩٧٨: إطلاق الاصلاح الاقتصادي رسميًا بعد ان تسنى للخط الذي يمثله دينغ كسياو بينغ ان ينتصر على الخط الماوي المتشدّد بزعامة هوا كوا فينغ.

– ١٩٧٩: بداية الاصلاح الزراعي الذي وصل إلى حدّ إلغاء التعاونيات الزراعية، والسماح بانشاء مشاريع مشتركة صينية-اجنبية داخل المناطق الاقتصادية الخاصة.

– ٤ كانون الاول ١٩٨٢: اقرار الدستور الرابع (منذ ١٩٤٩).

– نيسان ١٩٨٤: إطلاق دينغ كسياو بينغ حملة اقتصادية واجتماعية واسعة.

– ربيع ١٩٨٦: مبادرات إصلاح سياسي، موضوعاته الرئيسية حرية الفكر، انتخاب ممثلين لمختلف مناصب ومراتب المسؤوليات وفصل الدولة عن الحزب.

– ايلول ١٩٨٦: توقف إطلاق إصلاحات جديدة وارتياح لدى المسؤولين المحافظين والاصلاحيين المعتدلين المتضامنين مع دينغ كسياو بينغ.

– ١٦ كانون الثاني ١٩٨٧: بعد اضطرابات طلابية، دينغ يضحّي بأحد خلصائه، هو ياو بانغ، أمين عام الحزب الشيوعي، ويعين مكانه أحد «ورثته» زاو زيانغ.

– ١٥ نيسان ١٩٨٩: وفاة هو ياو بانغ تطلق مظاهرات طلابية في ساحة تيانانمن، وزاو زيانغ يدعو إلى الحوار مع الطلاب، لكن دينغ كسياو بينغ، مدعومًا بالمحافظين والمتشددين في الحزب والدولة، يطلق حملة قمع ضد الطلاب.

– ٢٤ حزيران ١٩٨٩: إبعاد زاو زيانغ بتهمة تسامحه المفرط مع الطلاب، وتعيين جيانغ زيمين مكانه.

– كانون الثاني ١٩٩٢: خطاب دينغ كسياو بينغ في المنطقة الاقتصادية الحرة (الخاصة) في مدينة شنزهن، وإعلانه آليات إصلاحية دينامية.

– ١٩ تشرين الاول ١٩٩٢: تبني خط دينغ كسياو بينغ حول «اقتصاد السوق الاشتراكية» في المؤتمر الرابع عشر للحزب الشيوعي الصيني.

– ١٩ شباط ١٩٩٧: وفاة دينغ كسياو بينغ، وبروز جيانغ زيمين كرجل الصين القوي.

– أول يوم من تموز ١٩٩٧: استرداد الصين لهونغ كونغ.

– ١٨ ايلول ١٩٩٧: أول مؤتمر للحزب الشيوعي الصيني بعد دينغ كسياو بينغ يكرس الاستمرار في الاصلاح الاقتصادي، لكن، وكما في السابق، دون إقرار الانفتاح السياسي.

أكثر الدراسات الغربية تؤكد ان الصين تحولت، بفضل هذه الاصلاحات، وخلال عشرين سنة، من دولة متخلفة من دول العالم الثالث إلى دولة مرشحة لأن تكون في الربع الاول من القرن القادم (الواحد والعشرين) أكبر قوة اقتصادية في العالم. وهذه الدراسات، أخصها دراسات «مركز التوقعات الدولي» تقدم أرقامًا دالة على هذه الاستنتاجات، أهمها:

– المعدل الوسطي لنمو الاقتصاد الصيني بلغ ١٠،٢٪ في التسعينات (الاعلى في العالم).

– صادرات الصين كانت لا تزيد على ١٨ مليار

دولار في ١٩٨٠، فأصبحت ٦١ مليارًا في ١٩٩٠، و١٤٩ مليارًا في ١٩٩٥.

- بلغ فائض ميزانها التجاري مع الولايات المتحدة الاميركية ٤٠ مليارًا. وطبقًا لهذه الدراسات فإن حصة الصين من الاقتصاد العالمي ستصل في العام ٢٠٢٠ إلى ٢٠٪، وهو رقم يعادل الوزن الذي للاقتصاد الاميركي في الاقتصاد العالمي اليوم.

لكن دراسة حديثة لـ«البنك الدولي» نقضت ما أصبح شبه شائع عن «الاعجوبة الصينية». ففي تقرير أعده هذا البنك ونشره في الشهر الاول من ١٩٩٧ عن الفقر في الصين ان ا لاقتصاد الصيني تقلص حجمه بنسبة ٢٥٪ وارتفعت نسبة الذين يعيشون دون الحدّ المقبول للفقر إلى الثلث بعد ان كان شائعًا انها بحدود ٧٪.

وأما عن مسائل سياسية جوهرية، مثل الحريات السياسية وحقوق الانسان... بالمفهوم الغربي، فإن المسؤولين الصينيين لا يزالون يعطون الاولوية لـ«حقوق الاقتصاد» ويرفضون «فوضى الشارع». فبدلاً من دولة قوية واقتصاد ضعيف كما في ظل الماوية، وبدلاً من دولة ضعيفة واقتصاد ضعيف كما في ظل اليلتسنية (نسبة إلى بوريس يلتسن في روسيا)، فإن ما يميز النموذج الصيني، برأي قادته، هو جمعه بين دولة قوية سياسيًا واقتصاد قوي سوقيًا. فبدون دولة قوية، فإن النقلة إلى اقتصاد السوق كانت ستكون قفزة في المجهول (راجع كذلك «سياسة الانفتاح وإعادة البناء» في هذا الباب: معالم تاريخية).

□ **القفزة الكبرى إلى الامام:** شعار صيني شيوعي تنموي رفع لأول مرة في ١٩٥٨. ذلك انه عندما كانت التنمية الاقتصادية قد تباطأت خلال ١٩٥٧ فقد اريد للقفزة الكبرى لعام ١٩٥٨ ان تعوض عن التراخي الذي اصاب التنمية. فأنشئت كومونات شعبية في الريف ووضعت الخطط للتنسيق بين الجهود المبذولة في حقول الصناعة الثقيلة (إنتاج الصلب) والخفيفة والزراعة. وقد اقتضى الأمر تشغيل كل مواطن صيني تجاوز التاسعة من عمره في اعمال يدوية معينة يكلف بها، مع تخفيض معدل الاستهلاك. وكانت الحكومة تأخذ بعين الاعتبار الولاء العقائدي أكثر مما تراعي الكفاءة التقنية والفنية والعلمية. وحققت القفزة، على صعيد الانتاج، بعض النتائج المرضية إلا انها أثارت العديد من القضايا السياسية والفكرية.

أنشئت الكومونات الشعبية، في ١٩٥٨، لتحقق سياسة «القفزة الكبرى إلى الامام» وبهدف جعل الصين تعوّض الهوة التكنولوجية والانتاجية بينها وبين بريطانيا في اقل من ١٥ عامًا. وقد رافق هذا الرهان حملة ايديولوجية عبّأت كل قطاعات الشعب الصيني في إطار نظام انضباطي شديد، فتحولت المصانع والورشات والحقول إلى ما يشبه المعسكرات. وكان قرار هذه القفزة قد اتخذه المؤتمر الثامن للحزب، في دورته السادسة وباجتماعه في مدينة «ووهان» في تشرين الثاني-كانون الاول ١٩٥٨: «... إن قفزتنا الكبرى إلى الامام لعام ١٩٥٨ في المجال الزراعي والصناعي هي إنجاز عظيم وجدنا فيه طريقًا سريعًا لبناء الاشتراكية حسب الصيغة التالية: وفرة، سرعة وتوفير».

جاءت البيانات التقويمية الاولى لهذه التجربة-القفزة لتتكلم عن انتصارها وتحقيقها نتائج ايجابية في ظروف مناخية ممتازة؛ لكن الجهاز الانتاجي في القفزة (الذي فككته الحملة الايديولوجية) عجز عن الصمود امام سنوات القحط الثلاث التي تبعت ذلك وكادت تؤدي بالصين إلى حافة المجاعة. إضافة إلى ذلك فقد كان النزاع الصيني-السوفياتي قد بدأ يتبلور ويتصاعد إلى حد سحب الخبراء السوفيات من الصين مما زاد في إفشال القفزة. واضطرت قيادة الحزب الشيوعي الصيني إلى التخفيف من هذه الحملة بعد ان أدركت فشلها إلا انها لم تتخل عنها. وابتداء من ١٩٦٢ اعترف الحزب رسميًا بعدم نجاح الكومونات (أداة تنفيذ القفزة)، إلا ان ماو تسي تونغ لم يتحمل الانتقادات التي وجهت إليه خاصة من قبل المارشال بنغ تيه-هواي فاقاله من قيادة الحزب (آب ١٩٥٩). وفي ١٩٥٩ نفسها تخلى ماو عن رئاسة الجمهورية لصالح ليو شاو شي، وبدأ يحضر لمرحلة جديدة في تعميق التجربة الاشتراكية كانت الثورة الثقافية التعبير عنها.

□ **الكتاب الأحمر الصغير:** كتاب يتضمن مقتطفات مختارة من اقوال وكتابات ماو تسي تونغ، مُصدّر بالنداء المشهور «يا عمّال العالم اتحدوا». تشمل محتوياته ٣٣ بندًا، أو موضوعًا، هي:

الحزب الشيوعي، الطبقات والصراع الطبقي، الاشتراكية الشيوعية، المعالجة الصحيحة للتناقضات بين صفوف الشعب، الحرب والسلم، الامبريالية وجميع الرجعيين نمور من ورق، كونوا جريئين على الكفاح وانتزاع النصر، الحرب الشعبية، الجيش والشعب، قيادة لجان الحزب، الخط الجماهيري، العمل السياسي، العلاقات بين الضباط والجنود، العلاقات بين الجيش والشعب، الديمقراطية في الميادين الثلاثة الاساسية، التعليم والتدريب،

خدمة الشعب، الوطنية والأممية، البطولة الثورية، بناء بلادنا بالعمل المجدي والاقتصاد في النفقة، الاعتماد على النفس والنضال الشاق، اساليب التفكير وأساليب العمل، التحقيق والدراسة، تصحيح الافكار الخاطئة، الوحدة والتضامن، نظام النقد والنقد الذاتي، الشيوعيون، الكوادر، الشباب، النساء، الثقافة والفن، الدراسة.

تردد إسم الكتاب الأحمر كثيرًا إبان الثورة الثقافية في الصين منذ قيامها في ايار ١٩٦٦. فكان كل شاب يحمل نسخة ليتلو فقرات منه في كل مناسبة كما كانت الاذاعات تبدأ برامجها بتلاوة مختارات من هذا الكتاب.

كان السبب الرئيسي لنشره هو ان أجهزة الصحافة والدعاية التابعة للحزب في بكين كانت تحت سيطرة المعارضين لسياسة ماو الذين كانوا يرفضون ممارسة النقد الذاتي في هذه الاجهزة ويحدّون من طبع اعمال ماو وتوزيعها. وقد عمد جيش التحرير الشعبي نفسه إلى توزيعه.

عندما توفي ماو (ايلول ١٩٧٦) كان قد طبع من الكتاب الأحمر الصغير، بمختلف لغات العالم (ومنها العربية) أكثر من ٧٥٠ مليون نسخة.

□ **كسيان Xian (أو «سي-نغان»)، حادثة ١٩٣٦**: كسيان، أو سي-نغان Si-Ngan، مدينة صينية، عاصمة مقاطعة شانكسي. اشتهرت بحادثة كانت هذه المدينة مسرحًا لها في ١٩٣٦، ومؤداها انتقال المارشال تشانغ هيو-لينغ إلى معسكر الشيوعيين واعتقاله لرئيسه زعيم الكومنتانغ تشيانغ كاي-تشيك الذي كان يتهاون امام مطامع اليابان واعتداءاتها ويوجه عداءه وحملاته العسكرية ضد الشيوعيين الصينيين. فاشتهرت الحادثة بغرابتها وبالنتائج السياسية والنفسية التي أسفرت عنها، والتي اثرت إلى حد كبير في نمو المشاعر القومية للصينيين الذين كان مثقفوهم بدأوا يشكلون حركات وطنية وشعبية تدعو إلى إيقاف الحروب الأهلية بين الكومنتانغ والشيوعيين.

في هذا الاطار وقعت حادثة كسيان. فقد كان تشيانغ كاي-تشيك يتهيأ لاعلان سادس «حملة إبادة» ضد الشيوعيين، فانتدب لهذه المهمة مساعده المارشال تشانغ هيو-لينغ وارسله إلى كسيان. إلا ان رجال تشانغ هيو-لينغ كانوا جميعًا من الذين فقدوا وطنهم، وأدمت قلوبهم الحرب الاهلية، فاعترضوا على سياسة الاستسلام في وجه اليابان و«الاستبداد» على المواطنين الشيوعيين. فتاثر تشانغ هيو-لينغ بوطنية جنوده، وحاول إقناع رئيسه تشيانغ كاي-تشيك بتشكيل جبهة مشتركة مع القوى الاخرى في الصين. إلا ان هذا الأخير قدم إلى كسيان ليقود بنفسه الحملة على الشيوعيين. فاستنهض المارشال تشانغ هيو-لينغ جنوده (١٧٠ ألف رجل) واعتقل رئيسه وأحظره بأنه لن يستعيد حريته إلا إذا قبل بـ«النقاط الثماني» التي تفرض قيام جبهة موحدة للمقاومة ضد اليابان. وفور الاعلان عن هذه الحادثة، قامت اضطرابات في نانكن (عاصمة الصين

يقرأون في «الكتاب الاحمر الصغير».

التي كان يقودها تشيانغ كاي-تشيك). وفوجىء الشيوعيون بالخبر، وارسلوا شو إن لاي إلى كسيان على رأس وفد حيث كرروا مطالبهم في التعاون واستعدادهم لوضع قواتهم تحت إمرة تشيانغ كاي-تشيك في حال دخوله في حرب ضد اليابان. وقد كان الشيوعيون في موقع المفاوض المقتدر لانتشار قواتهم حول كسيان. أما الورقة التي لعبها شو إن لاي في المفاوضات فقد لاقت التأييد من السوفيات، وقد ضحّت، من جهة أخرى، بجزء من استقلالية الحزب الشيوعي والجيش الأحمر، وذلك لعلم شو إن لاي ان حربًا ضد اليابان لا يمكن ان يربحها الثوريون الصينيون وحدهم، ولا بد من تضافر جميع القوى الصينية.

بعد قبوله بـ«النقاط الثماني»، استعاد تشيانغ كاي-تشيك حريته في ٢٥ كانون الاول ١٩٣٦، فزاد ذلك من اعتباره في نظر الصينيين. وعاد إلى نانكن، واسترد معه تاشنغ هيو-لينغ الذي اعتبر نفسه اسيرًا لرئيسه.

□ **كومنتانغ Kuomintang**: حزب سياسي تزعمه الدكتور صن يات صن (راجع باب «زعماء، رجال دولة وسياسة»)، وتولى مهمة قلب امبراطورية مانشو، على أساس أهداف حديثة تحتذي مبادىء ووسائل الحكم الجمهوري الديمقراطي الغربي. لكن هذه المبادىء خضعت لتطورات وتغييرات بلغت أوجها مع القرار التاريخي الذي اتخذه الكومنتانغ في ١٩٢٤، ويقضي بالسماح للشيوعيين بالانضمام إليه كأفراد (وقد انضم فعلاً أكثر القادة الشيوعيين، بمن فيهم ماو تسي تونغ). وبعد ان عاجل الموت صن يات صن، نشب خلاف بين القوميين بقيادة تشيانغ كاي-تشيك من جهة والشيوعيين من جهة أخرى.

أخذت حكومة تشيانغ كاي-تشيك، وحزب الكومنتانغ، بعد نجاحات عديدة على الشيوعيين، يواجهان، بدءًا من ١٩٣٦، تهديدين خطرين عليهما: داخلي متمثل بالحزب الشيوعي، وخارجي من قبل اليابان. ووقف القوميون والشيوعيون، أول الأمر، متحالفين في وجه اليابان حتى ١٩٤٥. وبزوال تهديد اليابان، عاد الصراع بين الكومنتانغ والحزب الشيوعي، وانتهى بانتصار هذا الأخير في ١٩٤٩، وبانسحاب تشيانغ كاي-تشيك والكومنتانغ إلى جزيرة فورموزا.

□ **الكومونات الشعبية**: جاء في «موسوعة السياسة» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ج٥، ط٢، ص٢٦٢-٢٦٤):

الكومونة، في النظرية الماركسية، هي الشكل الاعلى والارقى للتنظيم الاجتماعي للعمل وللحياة حيث لا تكون كل وسائل الانتاج مملوكة ملكية جماعية وحسب بل ايضًا تكون كل الوسائل.والسلع الاستهلاكية مشتركة بين الجميع. فالكومونة عبارة عن اسلوب تنظيم الانتاج وإقامة أسرة اجتماعية جماعية يشترك كل أعضائها في ادارتها إما مباشرة وإما من خلال ممثلين منتخبين. ويسكن افراد الكومونة في بيوت مشتركة ويتقاسمون المطابخ والمغاسل نفسها ويستعملون التجهيزات التربوية ووسائل التسلية المشتركة. ويتم توزيع العمل والثروة على أسس مثالية تختصرها هذه العبارة «من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجاته».

وقد عُرف هذا الشكل من التنظيم الاجتماعي والحياة المشتركة شبه المشاعية في فرنسا في القرون الوسطى من خلال «قرى مشاعية». وفي القرن التاسع عشر نشأت ايضًا في ايطاليا وشمالي وجنوبي القارة الاميركية مجتمعات مشاعية مشابهة أسسها مثاليون مشبعون بالاتجاهات الدينية أوالاشتراكية أو الفوضوية، إلا ان هذه المجتمعات لم تكن تعمر طويلاً. وبعد الثورة البولشيفية الروسية، أصبحت الكومونة الوحدة الانتاجية والاجتماعية المفضلة لدى القادة السوفيات الجدد وخاصة في قطاع الزراعة. إلا ان هذا الشكل من التنظيم الاجتماعي والانتاجي ألغي في ١٩٣١. وكان لا بد من انتظار الثورة الصينية ليُعاد الاعتبار إلى هذا التنظيم الاجتماعي الاقتصادي وبالتحديد في ١٩٥٨ حين أطلقت حملة واسعة النطاق لفرض ما عرف بنظام الكومونات الشعبية.

والكومونة الشعبية، في التطبيق الصيني، هي عبارة عن شكل من أشكال التنظيم الاجتماعي المتعدد الأهداف الذي يقوم في آن واحد بمهام متعددة في مجال الانتاج والادارة والكفاية الذاتية.

وقد اقيم نظام الكومونات الشعبية في الصين في ١٩٥٨ على أثر رفع شعار «القفزة الكبرى إلى الأمام» الذي جاء بعد ثلاث حملات مثل «الحملة ضد الاعداء الثلاثة»: الفساد والتبذير والبيروقراطية في ١٩٥٢، و«الحملة ضد الانحراف الثقافي» في ١٩٥٥ وحملة «دعوا مائة زهرة تتفتح» في ١٩٥٦.

والواقع ان القيادة الصينية لم تقدم على «القفزة الكبرى إلى الامام» إلا بعدما أدركت ان القطاع الزراعي يمر بأزمة عميقة. ذلك انه بينما سجل الانتاج الصناعي تقدمًا ملحوظًا يقدر بنسبة ١٨٪ أثناء الخطة الخمسية الاولى

١٩٥٣-١٩٥٧، فإن الانتاج الزراعي لم يتجاوز في أحسن الاحوال ٤،٥٪ مع العلم ان الزراعة كانت تلبي حاجة الصناعة الخفيفة من المواد الاولية وتمثل ٧٥٪ من الصادرات وتعتبر المصدر الرئيسي لتسديد القروض للاتحاد السوفياتي آنذاك، وكان على الصين من ناحية أخرى تغذية ٢٠ مليون نسمة جدد كل سنة. وباعتبار ان السيطرة على الطاقة المائية تعتبر شرطًا اساسيًا لتطور الزراعة فقد أطلقت في شتاء ١٩٥٧-١٩٥٨ حملة واسعة لإنشاء السدود والخزانات والحواجز الطبيعية ساهم فيها ١٠٠ مليون فلاح. ثم تطور هدف تلك الحملة وأصبح موجهًا ايضًا لإصلاح الريف. فأقر الحزب في ١٩٥٨ الاقدام على خطوة جريئة جدًا وذلك باحداث نظام الكومونات الشعبية. وفعلاً، لم يمض وقت طويل حتى تمخضت الحملة الشهيرة «القفزة الكبرى إلى الامام» عن تكوين ٢٠ ألف كومونة تضم كل واحدة حوالي ٢٥ ألف نسمة، وبذلك تم تنظيم ما يقارب ٥٠٠ مليون إنسان، كما امتصت تلك الكومونات كل التعاونيات الزراعية التي كان عددها يزيد على ٧٥٠ ألف تعاونية. وأخذت تلك الكومونات على عاتقها كل المهمات السياسية والادارية والعسكرية (كان للكومونات حرسها الخاص) والاجتماعية والاقتصادية (أي الانتاج الزراعي والصناعي).

وكان من المنتظر ان تؤدي تلك العملية إلى الاسراع بإقامة النظام الشيوعي حيث حشد المسؤولون لها أقصى طاقات المجتمع لتحقيق أعلى معدل إنتاجي ممكن. ولوضع المجتمع الريفي ضمن التوجه السياسي لنظام الحكم فقد ألغيت عمليًا الملكية الفردية وأطلقت دور إيواء العجزة مئات الملايين من النساء للعمل في حقول الكومونات الشعبية بدوام كامل. وهكذا اصبح من الواضح ان الصين بدأت منذ ١٩٥٨ طريقًا جديدًا نحو الشيوعية وتخلت عن الطريق السوفياتي معتمدة على وسائل مستمدة من واقعها المحلي آخذة بعين الاعتبار حاجات المجتمع الصيني دون تغليب قطاع على آخر. وقد جسدت تلك السياسة الجديدة في شعار «لنمشِ على قدمينا الإثنتين». ومن النتائج الباهرة التي حققتها تلك السياسة تصنيع الريف وإنشاء أكثر من مليون فرن عالٍ صغير في كل مناطق الصين. ففي نهاية ١٩٥٨ تضاعف إنتاج الفولاذ والفحم والحبوب والقطن مرتين، كما ازدادت المساحات المروية ٣٣ مليون هكتار.

انتقد مسؤولون في اللجنة المركزية للحزب (في اجتماعها في آب ١٩٥٩) سياسة «القفزة الكبرى إلى الامام» وشككوا في الارقام المعلن عنها بالنسبة إلى الانتاج الزراعي والصناعي. كما ان سنة ١٩٦٠ كانت أسوأ سنة مرت بها الصين منذ قرن من الزمن حيث اجتاحتها كوارث طبيعية وأفسدت الفياضانات أكثر من نصف الاراضي الزراعية بالاضافة إلى تدهور العلاقات مع الاتحاد السوفياتي، ما أدّى إلى قطع المساعدات وسحب الخبراء الفنيين الذين كانوا يقومون بإنشاء الوحدات الصناعية الكبرى. وهكذا انخفض الانتاج الصناعي بشكل مأساوي.

وأمام تلك الوضعية الخطيرة أدرك المسؤولون ان الحل الوحيد لتجاوز تلك الازمة يكمن في تعديل الخطوط العريضة لسياستهم تلك. فاقروا مثلاً سياسة تحديد الأجور وأدخلوا عنصر الحافز الشخصي وأبيح للفلاح في الكومونة الشعبية ان يستغل حديقة صغيرة خاصة به يتصرف بانتاجها في سوق حرة محدودة. كما قرروا، منذ شتاء ١٩٦٠، تشجيع مشاركة المواطنين بشكل أكبر في عملية النهوض بالاقتصاد الوطني وذلك بتقليص صلاحيات فيالق الانتاج (تضم كل كومونة من ١٥ إلى ٢٠ فيلقًا انتاجيًا) التي هي عبارة عن التعاونيات الزراعية السابقة. وهكذا اصبحت هذه الأخيرة الخلية الاساسية التي بيدها أهم وسائل الانتاج وتشرف على توزيع المهمات وعلى المحاسبة المالية وذلك إلى سنة ١٩٦٢ حيث أحيلت صلاحيات الفيالق الانتاجية إلى الفرق الانتاجية (يضم الفيلق من ٦ إلى ١٠ فرق) التي أصبح الفلاح داخلها يتمتع من جديد بحرية أكبر في استغلال قطعة ارض خاصة. وحلّ التقنيون والكوادر الادارية محل الكوادر السياسية في المراكز القيادية وأعيد نظام العمل بالقطعة والمكافآت المادية التي ألغيت في ١٩٥٧. وقد أدّت تلك الحوافز إلى زيادة الانتاجية وقدرت نسبة زيادة الانتاج الصناعي في ١٩٦٥ بـ٥٠٪ مقارنة بنسبة ١٩٥٧. وبلغت كمية الحبوب ٢٠٠ مليون طن. ولكن عندما اندلعت الثورة الثقافية، في ١٩٦٦، انتقدت بشدة تلك الخطوات واعتبرتها إجراءات رجعية تهدد النظام الاشتراكي ومن شأنها ان ترجع بالصين، إذا ما استمر تطبيقها، إلى النظام الرأسمالي. وباعتبار ان ماو تسي تونغ نفسه كان يقف وراء الثورة الثقافية فقد تم التراجع عن العديد من القرارات التي تشجع الملكية الخاصة وتمّ التركيز من جديد على أهمية التسيير المركزي ضمن كل كومونة شعبية بحيث أصبح مجلس الكومونة يحظى كما كان في بداية ١٩٥٨ بصلاحيات واسعة.

□ الكونفوشيوسية، الحملة ضد:

الكونفوشيوسية نسبة إلى كونفوشيوس، أبرز حكماء

الصين وأكثرهم تأثيراً منذ نحو ٢٥٠٠ سنة (عاش كونفوشيوس بين ٥٥١ و٤٧٩ق.م.). والكونفوشيوسية فلسفة اخلاقية واجتماعية تهدف إلى رسم السلوك الأمثل للإنسان في المجتمع. وهي مجموعة المعتقدات والطقوس الصينية المستندة إلى الكتب الكلاسيكية التي صنفها كونفوشيوس والتعاليم الاخلاقية والاجتماعية والسياسية التي أمر باتباعها والتي تنادي بنوع من السلفية المطلقة والتعلق بالقيم القديمة واحترام الاجداد والخضوع للحكام. ودخلت الكونفوشيوسية في صراع مع البوذية والطاوية (التاوية)، وما لبث ان تاثرت بالفكر البوذي، وقد حظيت باحترام كبير طيلة العهود الامبراطورية الصينية، واصبحت في فترات بعض السلالات العقيدة الرسمية في الصين. ودخلت فيتنام من الصين الشمالية في بداية العصر المسيحي، وقد تكيفت منذ وصولها مع الشروط الجغرافية لجنوب شرقي آسيا، وبالأخص الهند الصينية، كما تداخلت مع التيارات الدينية الأخرى مثل البوذية والطاوية، ونشأ بينها تراث متسامح. وأضحت الكونفوشيوسية من القرن الخامس عشر وحتى القرن العشرين العقيدة الرسمية في فيتنام.

عندما اندلعت الثورة الصينية، في ١٩١١ بزعامة صن يات صن وحزب الكومنتانغ، جرت محاولات لتحويل الكونفوشيوسية إلى دين رسمي للدولة. لكن هذه المحاولات لم تصمد أمام الضربات الشديدة التي وجهها بعض المفكرين والسياسيين لهذه العقيدة. ومن أبرز هؤلاء الفيلسوف الليبرالي هو شي والكاتب لو شيون والزعيم الشيوعي ماو تسي تونغ الذي كان يكنّ، منذ بداية حياته السياسية، عداء مستحكمًا للكونفوشيوسية وأخذ على نفسه مهمة تحرير الصينيين من تأثيرها. وقد خصّص لها حملة عشواء بين ١٩٧٢ و١٩٧٤ هدفت إلى الحط من مكانة كونفوشيوس وفلسفته الاجتماعية المتعارضة مع الماركسية-اللينينية-الماوية. وقد ركزت الحملة على اعتناق كونفوشيوس الفلسفة المثالية التصورية، وقبوله بالتقسيم الطبقي، ومعارضته التغيرات الاجتماعية وخاصة تحرير العبيد، وتشديده على ضرورة تأدية الاحترام والطاعة والولاء للحكام والبيروقراطيين والأهل وإيمانه بتفوق الجهد الذهني على الجهد العضلي.

الجدير ذكره انه في الوقت الذي كانت فيه الصين الشعبية تشهد أعتى الحملات ضد كونفوشيوس، كان قادة تايوان (بزعامة تشيانغ كاي-تشيك) يعمدون إلى تعظيم كونفوشيوس وإقامة الاحتفالات الضخمة لإحياء ذكراه وتعاليمه. وكذلك، بدأت تظهر مؤشرات ودلالات على «تسامح ما» إزاء الكونفوشيوسية بعد ماو، في عهد دينغ كسياو بينغ.

☐ **«لنمشِ على قدمينا الأثنتين»**: شعار أطلقه القادة الصينيون الشيوعيون إبان «القفزة الكبرى إلى الامام» التي عهد بتطبيقها إلى نظام «الكومونات الشعبية» (راجعهما في هذا الباب، معالم تاريخية)، وقصدوا به الاتكال على النفس والاستغناء عن الدعم السوفياتي.

☐ **الماوية**: راجع «ماو تسي تونغ» في باب «زعماء، رجال دولة وسياسة».

☐ **المسيرة الطويلة (أو الكبرى)**: تُطلق هذه التسمية على الانسحاب الاستراتيجي الذي نفّذه الجيش الأحمر الصيني بقيادة ماو تسي تونغ لإحباط خطة تطويقه من قبل قوات تشيانغ كاي-تشيك التي قامت، بين ١٩٣٠ و١٩٣٤، بمحاولات متكررة لضرب قواعد الشيوعيين في «مناطقهم المحررة» ولا سيما في مقاطعة كيانغ-سي.

في خريف ١٩٣٤، أوعزت قيادة الحزب الشيوعي الصيني في شانغهاي إلى ماو وقواته بالانتقال إلى الهجوم مهما كلّف الثمن؛ بيد ان قوات الطرفين لم تكن متكافئة، الأمر الذي جعل خطر التطويق والإبادة يهدّد الجيش الأحمر. وقد نجح ماو في حمل معظم القادة العسكريين والمقاتلين على تبني فكرة الانسحاب باتجاه الشمال الغربي ومعاودة القتال من هناك. وهكذا بدأت المسيرة الطويلة في تشرين الاول ١٩٣٤ وانتهت في تشرين الاول ١٩٣٥. كانت تضم ساعة انطلاقها نحو ٩٠ ألف مقاتل، لكن ١٥ ألفًا منهم استطاعوا ان يستمروا بها حتى النهاية، (حتى وصولهم إلى مقاطعة شانسي) ويقطعوا مسافة ١٢ ألف كلم من الصحاري والجبال، فضلاً عن ان القوات الحكومية لم تكف عن ملاحقتهم ومهاجمتهم بالاسلحة الحديثة. وإبان هذه المسيرة، ترأس ماو المكتب السياسي للحزب وأضحى القائد الاول للثورة الصينية. وقد كرّست هذه المسيرة زعامة ماو، وأفرزت القيادات التي حكمت الصين الشعبية حتى وفاة ماو.

يصوّر المؤرخون الصينيون الماويون المسيرة الكبرى بأنها «ملحمة عظيمة» حسمت مسار الصين الثوري وأكدت زعامة ماو تسي تونغ على الحزب الشيوعي الصيني. ولا ترجع أهمية هذه المسيرة إلى طول الطريق الذي

سلكته فحسب، بل ايضًا إلى كونها حافظت على الجيش الأحمر وعلى الحزب معًا. إذ أمّنت بقاء الحزب والحركة الشيوعية، ولم تكن عبارة عن جيوش تتحرك وحسب بل كانت تتحرك معها كل الاجهزة الحزبية: المكتب السياسي، اللجنة المركزية وأقسامها المتعددة... أي بمعنى آخر كل المسؤولين السياسيين والعسكريين في الحركة الشيوعية آنذاك. فكانت عبارة عن «جمهورية رحّالة» تعقد خلالها الاجتماعات السياسية ويمارس التثقيف الحزبي. وساهمت المسيرة الكبرى في منح الحزب استقلالية نسبية عن الاتحاد السوفياتي.

□ **معسكرات العمل (لاوغاي):** بدأت بها الصين الشعبية منذ بدايتها في ١٩٤٩، خدمة «للايديولوجيا البروليتارية، إذ «يقتضي تركيز النضال على المستوى الذهني وإعادة التربية العقلية لمن تفرزهم المسيرة الثورية من المتخلفين عن الركب ممن تحول تربيتهم البورجوازية في ظل المجتمع القديم وموروثه العنيد من العادات والذهنيات بينهم وبين متابعة خوض الصراع الطبقي إلى نهايته القصوى».

«هؤلاء الساقطون على درب المسيرة الثورية، علاوة على البقية الباقية من الاعداء الطبقيين السافرين من قدامى الاقطاعيين والرأسماليين، هم في طليعة المرشحين للإقامة المؤقتة أو المؤبدة في معسكرات العمل (لاوغاي). وهذه المعسكرات هي على ثلاثة أنواع: معسكرات التقويم ونزلاؤها من اعداء الشعب والثورة المقطوع الرجاء منهم؛ ومعسكرات إعادة التربية، ونزلاؤها هم من غير المقطوع الأمل من عودتهم إلى أخذ مكانهم في مجتمع البناء الاشتراكي؛ ومعسكرات التعيين المهني الاجباري، ونزلاؤها ممن انجزوا فترة إعادة التربية وما زالوا بحاجة إلى فترة انتقالية للتكيف قبل العودة النهائية إلى المجتمع (...) والجميع يحرمون من حقوقهم المدنية ويوضعون تحت رقابة مكتب الأمن العام (...) وإذا أخذنا بعين الاعتبار الفترة الاجمالية لنصف القرن الممتد من ١٩٤٩ إلى اليوم (١٩٩٨)، فإن معسكرات العمل الصينية، بأنواعها الثلاثة، تكون قد استقبلت نحو من ٥٠ مليون شخص (...) ومع انه لا تتوافر أرقام رسمية، فإن عدد الذين تم تنفيذ حكم الاعدام فيهم يقدر بنحو ١٥ مليون شخص في الفترة الممتدة من ١٩٤٩ إلى ١٩٨٠» (عن جورج طرابيشي في تحقيقه لكتاب «الغولاغ الصيني»، بالفرنسية، لمؤلفه هاري وو، داغورنو، باريس، ١٩٩٧؛ نشرت التحقيق «الحياة»، العدد ١٢٧٦٠، تاريخ ٨ شباط ١٩٩٨، ص١٤).

□ **«المناطق البيضاء»:** هي المناطق الصينية الخاضعة لسيطرة الحكومة المركزية.(بزعامة تشيانغ كاي-تشيك) أو تحت سيطرة الجيوش الاقطاعية، المعاديتين للشيوعيين، وذلك طيلة عقدي الثلاثينات والاربعينات (حتى سقوط المناطق البيضاء وإعلان «جمهورية الصين الشعبية» في ١٩٤٩). وكانت الحركة الشيوعية في هذه المناطق تصطدم بصعوبات بالغة؛ ولقد نجحت الحكومة في تصفية عدد من القادة الشيوعيين (بمساعدة أجنبية احيانًا، وخاصة بريطانية وفرنسية) والقضاء على خلايا وقواعد شيوعية عديدة. ففقد الحزب الشيوعي كل تأثير له على النقابات في هذه المناطق (البيضاء)، إلا انه حافظ على وجود مؤثر في الاوساط الجامعية والثقافية. وجاءت السياسة اليابانية التوسعية لتعطي الشيوعيين فرصة ثمينة للمزايدة على الحكومة المركزية وإدانة عدم استعدادها العسكري ومهاجمة سياستها الاقطاعية، ما أكسبهم بعض الرصيد لدى جماهير «المناطق البيضاء» من دون ان يصل إلى حدّ ضمان حمايتهم. فوجدت قيادة الحزب في هذه المناطق ان من مصلحتها اللجوء إلى «المناطق الحمراء» (المناطق المحررة) التي يشرف عليها ماو تسي تونغ. فانتقلت في بداية ١٩٣٣ إلى قاعدة كيانغسي الحمراء مدعمة بذلك نفوذ ماو داخل الجهاز الحزبي.

□ **«المناطق الحمراء»، المحرّرة (الجمهورية السوفياتية الصينية):** مناطق نفوذ ماو تسي تونغ إبان الحروب الأهلية (١٩٣٠-١٩٤٩) والتي بدأ تشكلها عقب فشل الهجوم الشيوعي على المدن الكبرى في صيف ١٩٣٠ وتراجع فكرة الثورة الشاملة كل الاراضي الصينية وتوجيه الاهتمام نحو القواعد الريفية العسكرية، خاصة قاعدة كيانغسي. ويقول المؤرخون ان هذه المناطق كان يسكنها، في ١٩٣٠، نحو ١٠ ملايين شخص تحت إشراف الحزب الشيوعي الصيني والسوفيتات المحلية.

في ٧ تشرين الثاني ١٩٣١، عقد المؤتمر الاول للسوفيتات الصينية (في كيانغسي)، وتم فيه اعلان «الدستور المؤقت للجمهورية الصينية»، وتشكيل «حكومة مركزية». وبعد نحو ثلاثة اسابيع انتخب ماو تسي تونغ رئيسًا لـ«الجمهورية الصينية السوفياتية» (في «المناطق الحمراء»، مناطق سيطرة الشيوعيين). ومن أهم قرارات هذا المؤتمر تلك المتعلقة بالارض والفلاحين، وهي التي أكسبت الشيوعيين شعبية كبيرة في هذه المناطق، وعوّضت عليهم ضعفهم العسكري مقارنة بجيوش تشيانغ كاي-

تشيك وجيوش «أسياد الحرب».

لم يكن نمو المنطقة الحمراء دائمًا بدون صدامات داخل صفوف الحزب الشيوعي أو صراع بين قادتهم على النفوذ والسلطة. ففي الأسابيع الأخيرة من ١٩٣٠، على سبيل المثال، عمد ماو إلى اعتقال عدد كبير من المعارضين بتهمة الانتماء إلى منظمة سرية قومية معادية للشيوعيين، وبلغ عددهم ٤٤٠٠ شخص. كما قام ليو ثيو، المفوض السياسي في إحدى كتائب الجيش الأحمر العاشر بتمرد في مدينة تونغكو، وحاول تأليب كبار قادة الثورة ضد ماو الذي عمد إلى تصفية عدة آلاف من المعارضين له.

صمدت «المناطق الحمراء» ضد حملات «المناطق البيضاء» التي كانت متفوقة عسكريًا بما لا يقاس على الشيوعيين طيلة ١٩٣٠-١٩٣٤، حتى كانت الحملة الأخيرة (أكثر من مليون جندي أبيض، أو جندي صيني وطني) التي وصلت طلائعها إلى مشارف كيانغسي، فغادرها الشيوعيون وبدأوا المسيرة الكبرى التي انتقلت بها «المنطقة الحمراء» من منطقة كيانغسي (في الجنوب الشرقي) إلى منطقة شنسكي (في الشمال الشرقي، راجع «المسيرة الطويلة» وخريطتها في هذا الباب).

□ النزاعات الاربعة: مع الاتحاد السوفياتي، مع فيتنام، مع الهند ومع اليابان:

النزاع الصيني-السوفياتي: هو الخلاف العقائدي والسياسي بين الصين والاتحاد السوفياتي بدأ، رسميًا وعلنًا، بعد خطاب الزعيم السوفياتي نيكيتا خروتشوف في ١٤ شباط ١٩٥٦ امام المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي والذي تضمن تحولاً مهمًا في سياسة الاتحاد السوفياتي والكتلة الشرقية نحو الغرب الرأسمالي.

مرت العلاقات بين البلدين بمراحل خمس:

المرحلة الاولى، مرحلة التحالف: وتمتد بين ١٩٤٩ و١٩٥٩، وتعود جذورها إلى صلات الرفقة والتعاون قبل انتصار الثورة الصينية. ومنذ ولادة الصين الجديدة في تشرين الاول ١٩٤٩، سارع السوفيات إلى إقامة قواعد متينة لمساعدة الصين اقتصاديًا وبناء جيش نظامي قوي. ووقع الجانبان معاهدة صداقة وتحالف وتعاون متبادل (١٤ شباط ١٩٥٠) تعهد السوفيات بموجبها بتقديم قرض للصين قيمته ٧٠٠ مليون دولار، وبانشاء شركات مشتركة وتشجيع الثورة الصينية، التي كان يغلب عليها الطابع الفلاحي، إلى الاتجاه نحو التصنيع. وقد بلغ عدد الوحدات الصينية التي أشيدت بفضل المساعدة السوفياتية من مصانع ومعامل وسدود ومؤسسات ما مجموعه ٢٥٠ وحدة. وقدم السوفيات اسلحة متقدمة وخبراء ومصانع ومعدات لتطوير جيش التحرير الشعبي من جيش ثوري يتقن حرب العصابات إلى جيش نظامي

ماو تسي تونغ في الثلاثينات.

حديث يتوجه نحو الحرب النظامية. وقد عجل في ذلك التطور مشاركة الصين في حرب كوريا (١٩٥٠-١٩٥٣)، كما تعهد الاتحاد السوفياتي عام ١٩٥٧ على اطلاع الصينيين على سر صنع القنبلة الذرية. ومع ذلك، أحجمت الصين عن الانضمام إلى حلف وارسو خشية الوقوع في التبعية للاتحاد السوفياتي. وفي ١٩٥٨ أطلق ماو تسي تونغ حملته الاقتصادية التي عرفت بـ«القفزة الكبرى إلى الامام» بدوافع قومية هدفها التغلب على التخلف وعلى قلة ادوات الانتاج الصناعي وإبراز دور الكومونات الشعبية. الأمر الذي كان يخالف النظرة السوفياتية إلى هذه الأمور.

المرحلة الثانية: بداية الخلاف ١٩٦٠-١٩٦٣:

بدأت ظواهر الفتور في العلاقات على اثر محاولة الصين استرداد فورموزا في صيف ١٩٥٨ التي لم تحظ بأكثر من تأييد كلامي من السوفيات. وفي حزيران ١٩٥٩، بادر السوفيات إلى إلغاء الاتفاق الذري مع الصين، فردّ الصينيون بتطهير الجيش من العناصر الصديقة للسوفيات، وعيّنوا لين بياو قائدًا للجيش الذي عاد أكثر ثورية وأقل نظامية وأخذ يُسهم في المشاريع القومية الكبرى كبناء الطرق والمصانع ضمن واجباته الأساسية، وأنشأوا ميليشيا شعبية ضخمة تعمل إلى جانب الجيش وبالتعاون معه.

وفي نيسان ١٩٦٠، نشرت صحيفتا «العلم الأحمر» و«الشعب» الصينيتان تحت عنوان «تحيا اللينينية» ثلاث دراسات عقائدية ردت فيها على خطاب خروتشوف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي (١٩٥٦). وقد تركز الخلاف حول حتمية الحروب حيث جاء في الموقف السوفياتي ان الحرب في العصر النووي هي حرب فناء وان بامكان القوى الاشتراكية ان تتغلب سلميًا على الرأسمالية بعد ان أصبح معسكر الاشتراكية والسلام في كل مكان. وقد رد الصينيون على ذلك بقولهم إن احتمال الحرب موجود طالما هناك امبريالية وان الحرب النووية ستعني فناء الامبريالية لا فناء الانسانية بأسرها. ونقطة الخلاف الثانية كانت حول رفض القيادة الصينية للسياسات الاصلاحية السوفياتية وشعار «التعايش السلمي» وإصرارها على الدور الثوري للبروليتاريا وضرورة قيامها بشن حروب عادلة ضد الامبريالية.

وقد أكدت وجهة النظر الصينية على ان الانسان لا التكنيك هو الذي يقرر مصير الانسانية. وبرزت نقطة خلاف ثالثة حول دور حركات التحرير الوطني في بلدان العالم الثالث، إذ جاء في وجهة النظر الصينية ان من شأن السياسات السوفياتية تجميد النضال الثوري في تلك البلدان بينما تعتبر القيادة الصينية العالم الثالث المركز الرئيسي للثورة العالمية.

وسحب السوفيات جميع بعثاتهم الفنية وانخفض التبادل التجاري وضعف تماسك الحركة الشيوعية العالمية وبدأ الانشقاق يظهر في صفوفها بعدما حاول القادة الصينيون إضعاف موقع السوفيات في الحركة الشيوعية العالمية وفي العالم الثالث.

المرحلة الثالثة: التوتر ١٩٦٣-١٩٦٦:

تميزت هذه الفترة باتجاه الصين كليًا للاعتماد على النفس ومحاولتها شق الاحزاب الشيوعية الاوروبية وتكوين تنظيمات مناصرة لها ورفض مبدأ عقد مؤتمر دولي شيوعي لبحث النزاع الصيني-السوفياتي بعدما ضمن الاتحاد السوفياتي تأييد ٦١ حزبًا من مجموع ٩١ حزبًا في العالم. وعلى الرغم من سقوط خروتشوف (١٩٦٤) في القيادة السوفياتية ومحاولة بريجنيف وكوسيغين وميكويان تحسين العلاقات فإن الصين وسعت علاقاتها الاقتصادية مع اوروبا الغربية واليابان ونجحت في تفجير أول قنبلة ذرية لها، ولم تسفر المحادثات الثنائية عن نتائج ايجابية.

المرحلة الرابعة: الصدام منذ ١٩٦٦:

أي مع بدء الثورة الثقافية. وكان ذلك إيذانًا بالتشدد مع السوفيات ومع دعاة التفاهم معهم داخل الحزب والجيش والدولة وبنهاية دبلوماسية التقارب. وفي ايلول ١٩٦٦، طالبت الصين موسكو بإعادة ٦٠٠ ألف ميل مربع من اراضي الصين التي ضمت إلى الاتحاد السوفياتي في العهود السالفة وبدأت مرحلة طويلة من الاستفزازات والاحتكاكات على الحدود أدت في النهاية إلى صدامات مسلحة محدودة النطاق. وقد تأثر نتيجة ذلك خط الامداد السوفياتي لفيتنام الشمالية وثوار فيتنام. ورافق ذلك تصعيدًا في التعبئة الشعبية ضد الفريق الآخر.

وقد ساد التوتر العلاقات فترة السبعينات ايضًا، الأمر الذي أتاح للاميركيين اللعب على التناقضات الصينية-السوفياتية. فقام هنري كيسنجر، مستشار الرئيس الاميركي نيكسون (ثم وزير خارجيته) بزيارة للصين ووضع أسس تقارب بين الولايات المتحدة والصين بعد خصومة مستحكمة طبعت علاقات البلدين منذ قيام جمهورية الصين الشعبية. وقد قام الرئيس نيكسون وبعده الرئيس فورد بزيارة للصين.

المرحلة الخامسة: عودة إلى الاعتدال بعد وفاة ماو:

بعد ماو، تمكن الفريق المرن والمعتدل في القيادة الصينية بزعامة هوا كو-فينغ من تطبيع العلاقات الصينية-السوفياتية. ومع وصول غورباتشوف إلى الزعامة في الاتحاد السوفياتي (اواسط الثمانينات) وما رافقه من انفراج في العلاقات الدولية بدأ الخلاف العقائدي الصيني-السوفياتي في فقدان حدته دون الزوال نهائيًا نظرًا إلى المشكلات الحدودية. ومع انهيار الاتحاد السوفياتي وقيام روسيا الاتحادية (واستعادة الجمهورية السوفياتية السابقة استقلالها)، سارت العلاقات الصينية-الروسية نحو التطبيع الكامل دون ان يعني ذلك زوالاً تامًا لبعض المشكلات العالقة، وعلى رأسها المشكلات الحدودية (راجع «النبذة التاريخية»).

النزاع الصيني-الفيتنامي: هو نزاع حدودي في الأساس أدى إلى مواجهة عسكرية بين البلدين في مطلع ١٩٧٩، ويدور حول بضع عشرات من الكيلومترات المربعة من جهتي الحدود، بالاضافة إلى ارخبيل باراسيل وسبارتلاي.

وجذور هذا النزاع تعود إلى اتفاقيتين قديمتين وقعتهما فرنسا (بصفتها الدولة المستعمرة في تونكين، المنطقة الشمالية من فيتنام حاليًا)، والسلالة المنشورية الحاكمة في الصين، الأولى في ٢٦ حزيران ١٨٨٧، والثانية في ٢٠ حزيران ١٨٩٥، ورسمتا الحدود الفاصلة بين الصين وتونكين. وقد عهد يومها إلى لجان مشتركة بوضع شارات على ذلك الخط الحدودي الذي كثيرًا ما كان يمر في مناطق يتعذر بلوغها، ولا يراعي وجود الاقليات الاتنية التي قضى عليها بالتشتت بين البلدين. وقد طرأت تغييرات عدة على تلك الشارات خلال ربع قرن من الزمن. بعضها ضاع واندثر، وبعضها الآخر نقل من موقع إلى آخر، بفعل مبادرات من طرف واحد. ومما زاد في الالتباس السائد على تلك الحدود، ان خطها لم يُرسم على أساس عوائق جغرافية، و لم يحدد بالدقة المتوخاة. لكن المساحات المختلف عليها، على طرفي الخط الحدودي هذا، تبقى صغيرة نسبيًا.

كان الشيوعيون الفيتناميون والصينيون قد قرروا، حوالي العام ١٩٥٧، تجميد الحدود الفاصلة بين البلدين على اساس الخط الذي وضع لتلك الحدود إبان العهد الاستعماري. ولئن امتنعت الصين وفيتنام عن التوقيع على اتفاقية حدود، فبسبب نزاع آخر أخطر يدور حول أرخبيلي باراسيل وسبارتلاي الواقعين في بحر الصين الجنوبي. فكل من هانوي وبكين تدعي سيادتها على جزر هذين الارخبيلين القاحلة التي يحتوي جرفها القاري على النفط. وقد بسطت الصين، في الوقت الراهن، سيادتها على جزر باراسيل بعد ان نجحت في استعادتها من نظام سايغون في مطلع ١٩٧٤، في حين فرضت فيتنام سيطرتها على جزء من أرخبيل سبارتلاي الذي تحتل الفيليبين وتايوان أجزاءه الأخرى. كانت هانوي قد سكتت، حتى ١٩٧٥، عن الاحتلال الصيني لجزر باراسيل التي اعتبرت صينية حتى في الخرائط السوفياتية. لكن مع توقف المساعدات الصينية لفيتنام، ثم تدهور العلاقات بين البلدين، عادت هانوي إلى إثارة موضوع هذه الجزر. ومما زاد هذا النزاع حدة انحياز هانوي المطلق لموسكو في نزاعها مع بكين، وكذلك دخول القوات الفيتنامية إلى كمبوديا وإسقاطها لنظام بول بوت حليفها. وقد اعتبرت الصين ان هذه السياسة الفيتنامية تهدد مصالحها القومية والاستراتيجية في المنطقة، مما جعلها تقوم بعدة حملات «تأديبية» ضد الفيتناميين ولكن دون نتيجة حاسمة. وأدّى الانفتاح السوفياتي، في عهد غورباتشوف، وكذلك اعلان فيتنام عن استعدادها للانسحاب من كمبوديا (١٩٨٨) إلى ترطيب الاجواء بين البلدين (راجع «النبذة التاريخية»).

النزاع الصيني-الهندي: هذا النزاع متوارث عن امبراطورية الهند البريطانية، وهو في غاية التعقيد ويثير مسألة سيادة البلدين على بعض مناطق الهملايا، بالاضافة إلى مصير مقاطعتي التيبت (راجع «التيبت»، ج٧، ص١٥٥-١٦٤) وكشمير. وقد ضمت التيبت إلى جمهورية الصين الشعبية، في حين قسمت كشمير بين الهند وباكستان إلا ان جوهر النزاع يتمحور حول منطقتين اساسيتين: منطقة أكساي شين في الشمال الغربي من جهة، وهي منطقة قاحلة في هضبة التيبت لا تزال الهند تصر على اعتبارها جزءًا من اراضيها في وقت أقدم فيه الصينيون على شق طريق عبرها تؤدي إلى مقاطعة سينكيانغ وإلى إقامة مواقع استراتيجية فيها. ومن جهة أخرى شريط جبلي عريض من الحوض الاوسط للبراهما بوتر في الشمال الشرقي حيث تشغل الجزء الأكبر منه ولاية هيماشال-براداش الهندية. ويمكن إعادة هذا النزاع، في المقام الأول، إلى عدم اعتراف الصين بخط ماك ماهون الذي تمّ التفاوض عليه في العام ١٩١٤ بين الادارة البريطانية وسلطات التيبت، والذي فرض على الصين حدودًا اعتباطية في جزئها الشرقي.

وفي تشرين الاول ١٩٦٢، اخترقت الجيوش

الصينية المراكز الهندية وتوغلت في عمق وادي نهر براهما بوتر. لكنها عادت وانسحبت إلى ما وراء مواقعها السابقة. وقد عزّزت في الوقت عينه مواقعها في منطقة أكساي شين التي شهدت هي الأخرى عمليات حربية. وبعد ان فشل التدخل العسكري الصيني في ١٩٦٢ في حل هذا النزاع برزت فكرة اللجوء إلى التفاوض لحل هذا النزاع بين العاصمتين المعنيتين، بكين ونيودلهي. وفي أعقاب زيارة قام بها إلى نيودلهي (حزيران ١٩٨١) نائب رئيس الحكومة ووزير الخارجية الصيني، هوانغ هوا، أعلن الطرفان الصيني والهندي عن رغبتهما في اللجوء إلى التفاوض لحل خلافهما على الحدود. ولما لم يأت هذا الخيار بحلول ملموسة، على المدى القريب على الأقل، نظرًا إلى التباعد في وجهات نظر الطرفين، فإنه يحول، على كل حال، دون إبقاء مسألة الخلاف على الحدود حجر عثرة في طريق إيجاد بعض التقارب والتعاون بين البلدين.

وفي الاطار الأوسع لهذا النزاع الصيني-الهندي، كانت الهند تقف دائمًا إلى جانب الاتحاد السوفياتي في صراعه مع الصين، وبادلها الاتحاد السوفياتي الموقف نفسه. وبعد وصول غورباتشوف إلى السلطة في الكرملين وانتهاجه سياسة انفتاح على كل الجبهات، بما فيها الجبهة الصينية، بدأت العلاقات الصينية-الهندية تشهد بعض التحسن ولكن دون ان يؤدي ذلك إلى حل هذا النزاع. وفي ١٩٨٧، شهدت المناطق الحدودية توترًا شديدًا كاد يؤدي إلى نزاع مسلح شامل لولا ما أظهره الطرفان من ضبط للنفس (مرجع هذه المادة: «النزاعات الثلاثة»، «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٠، ج٦، ط١، ص٥٧٥-٥٧٩).

النزاع الصيني-الياباني: نزاع حالي (وكانت هناك نزاعات سابقة وتاريخية عديدة) حول حقوق السيادة على مجموعة جزر غير مأهولة في بحر الصين، تقف فيه الصين وتايوان موقفًا واحدًا في مواجهة اليابان. وتؤلف هذه الجزر أرخبيلاً من ثماني جزر صغيرة تقع على بعد ٣٠٠كلم من جزيرة أوكيناوا اليابانية و٢٠٠كلم من السواحل الشمالية الشرقية لتايوان، ويسمونها في الصين دياير **Diaoyua**، فيما يصرّ اليابانيون على تسميتها باسم سينكاكو **Senkakua**.

يندرج هذا النزاع في سياق تركيبة المنطقة الجغرافية القائمة على تناثر بقع يابستها المتصلة والمنفصلة فوق بحر الصين، بكل ما يعنيه ذلك من خلافات حول المياه الاقليمية والجرف القاري وحقوق الصيد والابحار واستغلال الثروات، ثم بحكم الحروب التاريخية ما بين دولها.

وعلى رغم ان الخلاف حول السيادة على جزر دياير قديم، إلا انه صار يأخذ، منذ تموز ١٩٩٦، أبعادًا خطيرة، وتحول من مجرد نزاع صامت إلى أزمة متحركة تنذر بوقوع مواجهة مسلحة بعدما قامت مجموعة من «اتحاد الشبيبة الياباني» (نيهون سينين شا) المعروف باتجاهاته اليمينية المتطرفة وعلاقاته بجماعات ياكوزا المافيوية النشطة، بالابحار صوب الجزر وإقامة فنار على إحداها ورفع العلم الامبراطوري الياباني. فثارت ثائرة نشطاء قوميين صينيين، واعتبرت الحكومة اليابانية مسؤولة عن تصرف هذه الجماعة لأنها لم تتصدى لها. فاندفع صينيون بالابحار نحو دياير وأنزلوا العلم الياباني، وسارت تظاهرات منددة باليابان في عدد من المدن الصينية، ما دلّ بوضوح ان موجة العداء لليابان لا تزال متأججة بعد عقود طويلة من كسر شوكة اليابان.

تدعي الصين السيادة على دياير منذ القرن السادس عشر، وتعتبر ان معاهدة ١٨٩٥ التي سلبتها منها باطلة. بينما تقول اليابان انها ألحقتها بأراضيها بالتزامن مع استيلائها على أوكيناوا في ١٨٧٩، ثم صارت هي وأوكيناوا رسميًا جزءًا من اراضيها وفقًا لمعاهدة ١٨٩٥ التي أعقبت هزيمتها للصين. وقد أعادت الولايات المتحدة أوكيناوا وسينكاكو (دياير) إلى اليابان في ١٩٧٢.

حاول دينغ كسياو بينغ حل هذه القضية باقتراحه الذي أطلقه في ١٩٧٨ ويدعو إلى وضع اعتبارات السيادة جانبًا والتركيز بدلاً منها على التعاون المشترك لتنمية جزر دياير. لكن اصرار الحكومة اليابانية في حينه على فرض سيادتها وحدها عليها واستسلامها لضغوط الجماعات اليابانية اليمينية احبط اقتراح دينغ في مهده.

حول الأسباب الاقتصادية والاستراتيجية للنزاع الصيني-الياباني على جزر («دياير» صينيًا، و«سينكاكو» يابانيًا) كتب عبد الله المدني («الحياة»، العدد ١٢٢٧٧، تاريخ ٦ تشرين الاول، ص١٢):

إن تفجر الأزمة الراهنة لا يمكن اختزال أسبابها الحقيقية في حالة العداء التاريخية ما بين اليابانيين والصينيين فقط. إذ لا بد وان تكون هناك أسباب وجيهة أخرى تستحق المجازفة والمضي نحو المواجهة إن لزم الأمر. فالنفط هو الحاضر الدائم في مثل هذه الازمات حول جزر صغيرة غير مأهولة وعديمة القيمة من الناحية الاستراتيجية.

فمنـذ أن أوردت التقـارير الأمميـة في ١٩٦٨ ان المنطقة البحرية المتاخمة لجزر دياويو ربما شكلت واحـدة من أكـبر مناطق احتياطات النفـط والغـاز في العـالم، وضعـت الصين نصب عينيها ضرورة فرض سيادتها على هذه الجـزر بأي ثمن. ذلـك ان وضـع اليـد عليهـا يعـني ببسـاطة تمتعهـا بجرف قاري يمتد إلى حوالي ٢٢ ألف كلـم م.، ويصـل إلى ثلاثة مكامن رئيسية للنفط والغاز على الاقـل. لكنهـا رأت انـه طالمـا لا يمـس اليابـانيون الجـزر ولا يقيمـون عليهـا الانشاءات، فلا ضرورة لأي تحرك من جانبها.

وهكذا ظلت بكين تراقب الوضع حتى ثبت لها مع مطلع العام ١٩٩٦ وجود توجه ياباني، وإن كان رمزيًا وعلى يد جماعات لا تمثل السلطة رسميًا، للتحرك نحوالجـزر. فكان ان تحركت هي قبلاً عبر إرسال سفينة التنقيب النفطية المسماة «كانتون ٣» إلى منطقة تبعد ٣٢٠كلم إلى الشمال من الجزر، أي إلى تخوم الميـاه الـتي تعتبرهـا اليابـان إقليميـة، وذلك في عملية لم يكشـف النقـاب عنهـا. وعلـى رغـم ان الصين قد نفت في حينه ان تكون سفينتها تنقب عن النفـط أو الغاز فإن اليابانيين يؤكدون العكس.

ولا يكتمل الامـر بطبيعـة الحـال دون الاشـارة إلى موقف تايوان التي تعتبر نفسها طرفًا في النـزاع علـى أسـاس انها تمثل الحكومة الشرعية لعموم الصين مثلما تدعي. فهـي وإن كانت تطالب بسيادتها علـى الجـزر للأسـباب نفسـها التي تسـوقها حكومـة بكـين، إلا انهـا بسـبب مـن وضعهـا الدولي الهش تحاول التصرف بهـدوء وعـدم الانسياق وراء الضغوط والمشاعر الشعبية التي ظهـرت تجلياتهـا في استفتاء للرأي قامت به صحف تايبه حيث تبين ان كل خمسـة مـن أصل ستة اشخاص يفضلون استخدام القوة العسكرية ضـد اليابان.

وعلى العكس من بكين التي تشغلها مسائل النفـط والغـاز والسـيادة، تبـدو تـايوان مهتمـة بفتح ملـف الثروة السمكية في المياه المحاذية للجزر المتنازع عليها، خصوصًا ان مجموع ما تجلبه سفنها من هذه المنطقة يقدر بـ٤٠ ألف طن سنويًا، وبقيمة إجمالية تصـل إلى ٦٥ مليـون دولار. وعلـى الرغم مـن ان تـايوان تسـتطيع مواصلـة عمليـات الصيـد في المنطقة بصورة قانونية على اعتبار ان جزر دياويو تقع ضمـن حدود الـ٢٠٠ ميل بحـري مـن سـواحلها الـتي يجيز قـانون البحار الدولي للجميع استغلال ثرواتها، ثم علـى اعتبـار ان الجزر المذكورة غير مأهولـة وبالتـالي لا تسـتطيع اليابـان ان تدعي بسيادتها على المياه المحيطة إلى أبعد من ١٢ ميلاً بحريًا بحسب القانون المذكور، فإن مـا يخيـف حكومـة تايبـه هـو تغيير الاوضاع بما قد يؤثر سـلبًا على نشاط سـفن الصيد التابعة لها. من هنا تفهم أسباب دعـوة الرئيـس التـايواني لي تينغ هوي حول ضرورة وضع حلول دائمة لحقـوق الصيـد في المنطقـة بـدلاً مـن الاختـلاف علـى مسـائل السـيادة.

كسينجيانغ أويغور (تركستان الشرقية) والمسلمون في الصين

بطاقة تعريف: منطقة واسعة وشبه صحراوية على الحدود الغربية من الصين. كانت كسينجيانغ أويغور Xinjiang ouigour (سينكيانغ) قبلاً تدعى تركستان الشرقية، وهي، منذ سنوات، ساحة لاضطرابات تقوم بها الأقلية الكبرى «أويغور» المسلمة طلبًا للاستقلال بالبلاد؛ وكانت بكين ترد دائمًا بقوة عليها. والمراقبون لأحداثها يجمعون تقريبًا على انها عاجزة على ان تتطور إلى حد فرض الاستقلال على بكين مقارنةً مع جمهوريات آسيا الوسطى التي نالت استقلالها عن موسكو مع انهيار الاتحاد السوفياتي.

تبلغ مساحة كسينجيانغ ١٦٤٧٠٠٠كلم م.، وعدد سكانها نحو ١٦ مليون نسمة، يتوزعون بين ٤٠-٥٠٪ من الهان (وهم الاتنية الصينية)، و٤٠-٤،٥٪ من الأويغور، و٧٪ من الكازاخ، و٠،٨٪ من الهيو، و١٪ من القيرغيز، و١٪ من المنغول.

أهم ثرواتها المنجمية: الذهب، الفحم، النحاس، الحديد، القصدير، الزنك، الملح، الاورانيوم والنفط. وفي وسط البلاد، قرب مدينة كورتا، مجمّع للتجارب النووية. عاصمتها أورومكي Urumqui («لوموند ديلوماتيك»، عدد ايلول ١٩٩٧، ص.١٠-١١). وعلى رغم ان سكان هذا الاقليم يشكلون أقل من ١٪ من عدد سكان الصين، فإن مساحته تزيد على ١٧٪ من مساحة الصين العامة.

كسينجيانغ الصينية، او «تركستان الشرقية» داخل الاطار على الخريطة («لوموند ديبلوماتيك»، ايلول ١٩٩٧، ص ١١).

وحول عدد المسلمين في كسينجيانغ، حيث المجموعة الاسلامية الأكبر في الصين، وحول عددهم في الصين عمومًا، تكاد المراجع تجمع على ان السلطات الصينية تذيع أرقامًا متباعدة. أما الأرقام التقديرية التي تذيعها المرجعيات الاسلامية فتؤكد ان عدد المسلمين في الصين يتراوح بين ٧٥ و٨٠ مليون نسمة، في حين ان ارقام السلطات الصينية تقل عن نصف هذا التقدير.

أكبر مجموعة مسلمة هي الأويغور، وتتركز في كسينجيانغ. لكن الاقلية المسلمة في الصين تنتمي إلى اتنيات عدة منها الهان الذين يشكلون وحدهم ٩٢٪ من مجموع سكان الصين، والكازاخ، والهيو، والتركمان، والكينغاي (الذين يعيشون حول بحيرة كينغاي-هو، وهي أكبر بحيرة

عن «الحياة».

في الصين)، والقيرغيز والمنغول.

وينتشر المسلمون الصينيون في أقاليم عدة في غربي الصين وشماليها، وفي وسطها في شانغهاي ويونان. وتجمعهم الأساسي في كسينجيانغ التي تعني في الصينية «الارض الجديدة». وقد أطلق هذا الاسم على الاقليم بعد ان تمكن الصينيون، في ١٧٦٠، من احتلاله وضمه بعد ان كان جزءًا من دولة تركستان الاسلامية. ويكتسب هذا الاقليم أهمية جغرافية-سياسية بالغة (إضافة إلى أهميته الاقتصادية بسبب ثروته المعدنية المتنوعة). فهو يقع على الحدود بين الصين وروسيا وبطول ثلاثة آلاف كلم، وقد استخدم الاتحاد السوفياتي موقع هذا الاقليم طوال مراحل الصراع والتقارب بين موسكو وبكين منذ عهد ستالين. كما استخدمته الصين لاقامة قواعد الصواريخ الموجهة إلى العمق السوفياتي أثناء أزمات الحدود، واستعملته حتى لاجراء تجاربها النووية في صحرائه المترامية الاطراف، وكان آخرها في ١٩٩٢.

«العاصمة قديمًا (أي ايام كانت المقاطعة «تركستان» هي مدينة كاشغر التي سماها الصينيون «شوفو». أما العاصمة الحديثة فيسميها الاتراك أورومكي، أو أوروبجي، وسمّاها الصينيون «تيهوا» والمدينة الثالثة يارقند التي سماها الصينيون «سوجي». وشمل تغيير الاسماء الاماكن كما شمل اسماء البشر حيث أصبح محمد ومسعود «ما» والحسن والحسين «حا» وناصر ونصر ونصير الدين «نا» (عن محمود السيد الدغيم، كاتب سوري مقيم في بريطانيا، «الحياة»، ١٩ شباط ١٩٩٧، ص١٨).

لم تظهر أي إشارة لوجود صراع طائفي بين مسلمي الصين طوال تاريخ وجودهم في الصين، وسمّوا أنفسهم بالحنفيين (أتباع الإمام أبو حنيفة). ولم يعرفوا التقسيمات الطائفية كالشيعة والسنة، مما ساعد على توحيد كلمتهم على رغم اختلاف المرجعيات المتمثلة برجال الدين المقلدين. كما ساهموا بقسطهم في تطوير الحضارة الصينية (خاصة في مجال الاضافات المبتكرة على بناء المساجد)، وترجم عدد منهم أعمال العرب وكتاباتهم إلى اللغة الصينية في ميادين الحساب والفلك. وترجموا كتبًا تعالج قضايا اسلامية وأخرى عن حياة النبي محمد. وعرف هؤلاء المترجمين بعلمهم ودراستهم في مدارس خارج الصين مثل بخارى.

المسلمون في الصين بحسب قومياتهم: في الصين عشر قوميات مسلمة ضمن ٥٥ قومية معترف بها رسميًا في الصين وتشكل التركيبة الكلية للدولة الصينية. ولكل من القوميات العشر تاريخ حضاري خاص، إنما الاسلام يجمعها. ومفهوم «الصينيين المسلمين» إنما ينطبق، أكثر ما ينطبق، على «الخوي» (أو «الهوي») المسلمين. فهم وحدهم، بالمعنى العرقي والتاريخي والأنتروبولوجي والسيوسيولوجي، ينتمون إلى الأصل الصيني، ويستخدمون اللغة الصينية التي هي لغتهم القومية واليومية، ويعيشون ويتوزعون على كافة أرجاء الصين كغيرهم من الصينيين الذين يعرفون بـ«الهان» (أو «الخان») والذين يشكلون ٩٢٪ من مجموع سكان الصين. و«الخوي» («الهوي»)، مثلهم مثل الهان، قدموا عشرات آلاف الشهداء لقضايا أرض الوطن، «الصين»، امام مختلف اشكال العدوان التي تعرضت لها الصين. فلا يُنظر لهم من جانب الهان إلا باعتبارهم أبناء الصين المسلمين. إلا ان هذه الحقيقة يقابلها تواجد لأقليات مسلمة في الصين لا تحمل ولاء للصين بل «تناضل» في سبيل الاستقلال بوطن معتبرة ان الصين ضمتها إليها عنوة كما حدث مع بقية «الإمارات الإسلامية» في آسيا الوسطى من طرف روسيا. ولا تزال كل هذه القوميات تتحدث بلغتها الأصلية وتكتب بها وتعيش ذاكرتها.

وبحسب الاحصاءات الرسمية، تأتي، بعد قومية الخوي الصينية، قومية الأويغور، وهم مسلمو تركستان الشرقية (كسينجيانغ) الذين قدموا إلى هذه الارض حوالى سنة ٨٤٠ من منغوليا الداخلية عقب هزيمتهم هناك على يد القيرغيز، ويتحدثون الأويغورية وهي من أرومة اللغة التركية القديمة، ويستخدمون الحروف العربية في الكتابة.

وبعد الأويغور يأتي القازاق (أو الكازاخ، من كازاخستان)، ولغتهم كذلك من الأرومة التركية ويستخدمون الحروف العربية. وبعدهم يأتي «دونغشيانغ» وهم من أصول منغولية ويعتبرون أول من اعتنق الاسلام من المنغول، وما يزالون يتحدثون اللغة المنغولية. وبعدهم يأتي القيرغيز، وهم من أصول تركية جاءوا من قيرغيزستان الحالية، وتقول معظم المراجع بشأن اعتناقهم الاسلام انهم اعتنقوه في اوائل القرن الثامن عشر بتشجيع من السلطات الروسية. ولقومية القيرغيز في الصين ولاية ذات حكم ذاتي في إطار كسينجيانغ.

وبعد القيرغيز يأتي السالار الذين أجبروا على مغادرة مناطق تركمانستان بسبب سياسة الدولة السلجوقية ضدهم خلال ١٣٨٠ و١٤٢٤، فجاءوا عبر سمرقند إلى تركستان الشرقية. ولقومية السالار محافظة ذات حكم ذاتي

في إطار بلدية شانغهاي (التابعة إداريًا للحكومة المركزية).

وبعد السلار يأتي الأوزبك، ومكان تجمعهم الأساسي في كسينجيانغ جنبًا إلى جنب مع الأيغور، ولغتهم من الأرومة التركية.

ثم يأتي الطاجيك، وهم قوم سكنوا منذ القدم قمم هضبة باميير التي تدعى اليوم محافظة تاشكور، وهم من أصول فارسية ويتحدثون الفارسية إلى اليوم وينتمون إلى الشعب نفسه الذي تضمه جمهورية طاجيكستان.

ثم يأتي البوان، وهم فرع من المنغول ولغتهم تنتمي إلى أرومة اللغة المنغولية.

يأتي أخيرًا التتار (عاشر قومية مسلمة في الصين) الذين يتعايشون مع بقية الشعوب التركية في تركستان الشرقية (كسينجيانغ) ويتكلمون التركية القديمة مستخدمين الحروف العربية في الكتابة.

نبذة تاريخية (حتى اواخر القرن ١٩): يعتبر سعد بن ابي وقاص المبشر الاساسي بالاسلام في الصين، وبنى أول جامع في كانتون بعد وصوله إليها. ولا يزال هذا الجامع يعرف حتى اليوم باسم «واي شن زي». وعندما عاد سعد إلى الجزيرة العربية بعد إقامة طويلة في كانتون، طلب منه الخليفة عثمان العودة إليها كرسول منه إلى امبراطور الصين، إلا انه توفي هناك (في كانتون) ولا يزال ضريحه الكبير فيها.

القائد الأموي قتيبة بن مسلم الباهلي هدّد، في ٤٧٠، الحدود الغربية للصين، واحتل أغلب مناطق مركز آسيا، وتبادل الرسائل مع امبراطور الصين هس يانت سونغ الذي طلب منه عدم احتلال بلاده لقاء جزية، وقبل قتيبة هذا العرض. والطبري في تاريخه يؤكد ان «ملك الصين دفع الجزية لموفدي قتيبة بعد ان حاورهم وتأكد من إصرار قتيبة على فتح الصين».

ويتحدث التاريخ عن وصول عدة رسل من الصين إلى بغداد خلال حكم الخليفتين ابوا لعباس والرشيد. أما السبب الرئيسي الذي أدّى إلى انتشار الاسلام في الصين هو طلب الامبراطور هو يان تيسونغ المساعدة العسكرية من الخليفة المنصور للقضاء على التمرد الذي قاده ضده أن لوشان. استجاب الخليفة لهذا الطلب وأرسل ١٠ آلاف جندي تمكنوا من دحر المتمردين. وشجع هؤلاء الجنود على الزواج من الصينيات والبقاء في العاصمة واحتلوا مكانة في الجيش والوظائف. وكذلك جاء نزوح المسلمين إلى الصين من وراء الحدود الغربية إليها، وقبولهم كمقيمين، ليزيد من أعدادهم فيها.

عاش المسلمون حياة آمنة في الصين، وعوملوا معاملة كريمة من قبل الأباطرة. إلا ان مكانتهم السياسية والاجتماعية بدأت بالهبوط منذ ١٦٤٤، حين فقدوا حريتهم وبدأ اضطهادهم دينيًا، ومُنعوا من الذهاب إلى مكة لإداء فريضة الحج، وإقامة جوامع جديدة، وحُرم رجال الدين من دخول المقاطعات الصينية. وامتدت هذه الفترة زهاء ١٧٠ عامًا، أي حتى آخر عهد اباطرة اسرة المانشو (١٩١١) الأسرة التي عُرفت باضطهادها المسلمين في الصين.

وشهدت هذه الفترة (١٦٤٤-١٩١١) انتفاضات عديدة قام بها المسلمون ضد حكم المانشو. من ابرز هذه الانتفاضات: انتفاضة تشو بقيادة محمد أمين (١٧٨٢)، الثورات في شن فن بقيادة شي سان (١٧٨٥)، ثورة أكسين جانغ (١٨٢١-١٨٣٠)، ثورة منطقة يونان بقيادة محمد سلمان (١٨٨٠-١٨٨٥). وكانت جميع هذه الثورات تُقمع بشكل دموي. وتبعًا لبعض الإحصائيات التاريخية، تقلص في مدينة كانسن ومنطقتها عدد السكان من ١٥ مليونًا إلى مليون واحد، وكان ٦٦٪ من الضحايا مسلمين. وكانت الصين أعلنت رسميًا ضم تركستان الشرقية إليها في ١٨٨٤، وأطلقت عليها إسم «كسينجيانغ أويغور».

محاولات تنصير المسلمين على يد المبشرين (أواخر القرن ١٩-أوائل القرن ٢٠): كانت الصين، في اواخر القرن التاسع عشر، في طليعة اهتمامات المبشرين الانجليين (البروتستانت) والكاثوليك نظرًا إلى كثافتها السكانية وغناها بالثروات، إضافة إلى انها كانت قد رضخت، في معظم أجزائها، لسيطرة القوى الاوروبية.

وفي الوقت الذي وجد فيه هؤلاء المبشرون أرضًا خصبة، إلى حد ما، لدى الكونفوشيوسيين والبوذيين، إلا انهم اصطدموا بجدار راسخ لدى المسلمين الذين يعودون هناك، بجذورهم التاريخية وثقافتهم الدينية، إلى القرون الاولى للهجرة.

وفي مطلع القرن العشرين انعقد في أدنبره (اسكوتلندا) المؤتمر التبشيري العالمي. ونص أحد القرارات التي اتخذها على تشكيل لجنة مهمتها دراسة سبل إقامة بعثة تبشيرية دائمة في الصين للعمل تحديدًا في صفوف المسلمين. وعهدت اللجنة إلى المبشر مارشال برومهول **Marshall Bromhall** باعداد تقرير شامل عن اوضاع المسلمين في الصين يكون اساسًا تُبنى

عليه خطة التبشير المسيحي في ما بعد. وسبق ليرومهول ان أمضى سنوات عدة في الصين، ووضع دراسة شاملة اصدرها في كتاب-تقرير بعنوان «المشكلة المهملة» طبع في ١٩١٠ (وأعيد إصداره، قبل سنوات قليلة في لندن)، واصبح أحد أهم المراجع عن اوضاع مسلمي الصين في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين.

في العقدين الاولين من عهد جمهورية الصين الوطنية: أعلن مؤسس جمهورية الصين الوطنية صن يات صن ان الامة الصينية تتكون من خمسة شعوب هي: الهان، المانشو، المنغ، الهوي (المسلمون) والشانج. وأعطيت الشعوب الخمسة حق المساواة في القانون الأساسي المعلن في ١٩١٣.

واعتبرت الثورة الجمهورية (١٩١١) المسلمين من المتضررين نتيجة قمع الحكم السابق (أسرة مانشو الامبراطورية)، ما أدّى إلى تخلفهم وتدهور مستواهم الاقتصادي والتعليمي. وساعدتهم الثورة على استرداد هويتهم وحسّنت من ظروف حياتهم بشكل كبير. وتقلد عدد منهم مناصب مهمة في اجهزة الحكم العليا، كالجيش الذي اصبح تمثيلهم فيه أكبر بكثير من بقية القوميات، وأسند إلى أحد المسلمين منصب وزير التربية وعمل على تطوير نظام التعليم بشكل كبير، ووضع المناهج الدراسية الجديدة، وعزز روح الانفتاح على القوميات الأخرى.

وجرى الاعتناء بالزراعة التي شكلت (ولا تزال) الحرفة الرئيسية للمسلمين، ما أدّى إلى تحسن أوضاعهم الاقتصادية والمعيشية.

وبين ١٩٢٦ و١٩٣١، اصدر المسلمون ٢١ صحيفة ناطقة باسمهم (في حين انهم لا يتمتعون، في الوقت الحاضر، بحق اصدار أي صحيفة أو منشورة مستقلة تعبر عن وجهات نظرهم السياسية والاجتماعية، أو حتى للتثقيف الديني. وكل الاصدارات الناطقة باسمهم تصدرها وتشرف عليها جهات حكومية). وفتحت في مناطقهم المدارس، وجرى الحفاظ على ثقافتهم، ومُنحوا إقامة معاهد ثقافية خاصة بهم. واستمر هذا الوضع المزدهر حتى نشوب الحروب الاهلية الصينية بين الكومنتانغ والشيوعيين.

خلال الحروب الاهلية ١٩٣١-١٩٤٩: فريقا هذه الحروب الاهلية الرئيسيان: الكومنتانغ بزعامة تشيانغ كاي-تشيك، والشيوعيون بزعامة ماوتسي تونغ، لم يسلم منها مسلمو الصين، خاصة في مقاطعة تجمعهم الأساسية: تركستان الشرقية (كسينجيانغ). فقد ناصبهما الفريقان العداء إبان فترات اقتتالهما بين ١٩٣٠ و١٩٣٦، وبين ١٩٤٦ و١٩٤٩، وخاصة إبان تحالفهما في حربهما ضد اليابان التي غزت منشوريا قبيل الحرب العالمية الثانية وأثناء هذه الحرب. وقاوم المسلمون ما استطاعوا، وتمكنوا احيانًا من إقامة سلطاتهم الذاتية.

ففي ١٩٣٠، ثار مسلمو كسينجيانغ ضد مراكز وجود السلطة الصينية، وسيطروا على شاشان وطرفان واقتربوا من العاصمة أوورومكي، ثم سيطروا عليها وطردوا الحاكم الصيني. واستولوا، في الشمال، على اقاصو بقيادة تيمور كما استولوا على خوتان بقيادة أمين، ثم توجه القائدان فاستوليا على كاشغر وأعلنا «حكومة كاشغر الاسلامية»، وانضم إليهما الشيخ خوجانياز. وفي ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٣، أعلن قيام «الجمهورية الاسلامية في تركستان الشرقية» (كسينجيانغ)، وقررت الحكومة تطبيق الشريعة الاسلامية في الحكم بعد ان اختير الشيخ نيازي خوجانياز لرئاسة الدولة وثابت داملا لرئاسة الحكومة.

خشي الاتحاد السوفياتي من امتداد الثورة إلى آسيا الوسطى حيث جمهورياته الاسلامية. فقدم دعمًا كبيرًا إلى الصينيين، خاصة إلى الشيوعيين منهم. فتمكن هؤلاء من اجتياح كسينجيانغ (تركستان الشرقية) في حزيران ١٩٣٤ وتمّ إعدام خوجانياز وثابت داملا واعضاء الحكومة.

وبين ١٩٣٦ و١٩٤٠، عاود المسلمون ثوراتهم ضد الوجود السوفياتي-الصيني. ولدى انسحاب الجنود السوفيات، تمكن الصينيون من السيطرة سيطرة تامة على المنطقة.

وإبان الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) انتشرت بين المسلمين ثلاثة تيارات سياسية: تيار شيوعي صيني، وآخر وطني (الكومنتانغ)، والثالث قريب من اليابان.

بعد الحرب، استفاد المسلمون من أجواء التباعد السوفياتي-الصيني، فأعلن أحد قادتهم، علي خان، استيلاءه على منطقة إي لي من شمالي تركستان الشرقية، وأنشأ ادارة مستقلة عن العاصمة أوورومكي. وثارت النواحي الأخرى بدعم سوفياتي، فنالت تركستان الشرقية استقلالاً ذاتيًا، وعين الدكتور مسعود صبري بايكوز رئيسًا للحكومة، ومحمد أمين بوغره نائبًا للرئيس ويوسف عيسى ألبتكين (توفي في تركيا، ١٩٩٥) سكرتيرًا عامًا للحكومة المحلية، أي حكومة «جمهورية تركستان الشرقية» المعلنة في ١٩٤٤، وبتأييد من الاتحاد السوفياتي. واستمرت هذه الجمهورية حتى ١٩٤٩، عندما انتصر الشيوعيون على الكومنتانغ، فسقطت تركستان الشرقية (كسينجيانغ) بيدهم.

تمثال ماو تسي تونغ يفصل بين احياء المسلمين واحياء الصينيين في احدى مدن كسينجيانغ.

جانب من مسجد صيني، ومصلّون.

يوسف بك مخلصي زعيم «الجبهة الاويغورية».

كسينجيانغ في العهد الشيوعي (١٩٤٩-إلى اليوم، اوائل ١٩٩٨)

سياسة استيطانية وهجرة: كانت نسبة الهان (الاتنية ذات النسبة الساحقة، نحو ٩٢٪ من مجموع سكان الصين) في تركستان الشرقية لا تزيد (في ١٩٤٩) على ٦٪ من مجموع سكانها. أما نسبتهم اليوم فإنها تتجاوز، حسب التقديرات الصينية، نصف السكان. فسياسة الدولة الشيوعية (خاصة في بدايات عهد ماوتسي تونغ) سياسة استيطانية كما كان الامر بالنسبة إلى التيبت.

في ظل الوضع المستجد، غادر عدد كبير من الشيوخ المسلمين البلاد، كما هاجرت أعداد من المواطنين، وتوزعوا في الدول الاسلامية، واستقرت جالية منهم في المملكة العربية السعودية، وجالية كبرى في تركيا لا سيما اسطنبول. وتابع علماؤهم وناشطوهم جهادهم خارج البلاد، فطبعوا الكتب في مصر والسعودية وتركيا، وأصدروا المجلات وحافظوا على لغتهم.

في العهد الشيوعي: استهدف الشيوعيون، منذ وصولهم إلى السلطة في ١٩٤٩ في الصين، عزل المسلمين وجعلهم أقلية في المجتمع. فأعلنت الحكومة ان عددهم ١٠ ملايين، ما أدّى إلى وضعهم في خانة الأقلية القومية (ومذ ذاك والارقام المعطاة، أو المتسربة، أو المعلن عنها رسميًا أو غير رسمي، أو المقدرة من مراكز ابحاث اجنبية أو المعطاة من هيئات اسلامية... عن عدد مسلمي مقاطعة كسينجيانغ في الصين أو عدد مسلمي عموم الصين، كلها أرقام شديدة التضارب والتباعد إلى حد انها تتراوح بين ٢٠-٨٠ مليون نسمة). واعتبر الدين الاسلامي من الأديان الثانوية في الصين مقارنة مع الأديان والقوميات الأخرى. ولم يسمح الحزب الشيوعي ببناء مساجد جديدة منذ ١٩٥٠. وشكل الحزب منظمة رسمية هي «منظمة المسلمين الصينيين»، كما أسس «معهد علم اللاهوت الاسلامي»، ومنع الحجاج من الذهاب إلى مكة للحج سوى عدد قليل تختارهم السلطات.

وفي ١٩٥٨، اقر دمج اراضي الوقف بالجمعيات التعاونية. فقاوم المسلمون هذا القرار، وحدثت مواجهات مع السلطة، أدّت إلى احتلال السلطة للجوامع. وفي ١٩٥٩، قام نحو ١٠ آلاف مسلم بحركة عصيان في منطقة هوتن جنوب غربي مدينة أكسن جانغ، وتمكنوا من شن هجوم على أحد السجون واطلقوا سراح ٦٠٠ سجين وقتلوا ٥٠ من المسؤولين الشيوعيين، واحتلوا بعض المناطق.

وقمع هذا التمرد بعد اسبوع من اعلانه بهجوم من القطعات العسكرية. وحدثت انتفاضة أخرى في منطقة أنينغ عاصمة إيلي كازاك، وقمعت ايضًا.

وقبيل هذه الاضطرابات في إقليم كسينجيانغ كانت حدثت اضطرابات أخرى في التيبت. ومع تأزم العلاقات مع الاتحاد السوفياتي في مطلع الستينات، وبذريعة أن لهذه الاقليات امتدادًا في الجمهوريتين السوفياتيتين السابقتين، كازاخستان وقيرغيزستان، اصبحت مشكلة الأقلية المسلمة جزءًا من الصراع بين الدولتين. فاشتد الضغط عليها ما أدّى إلى لجوء بضعة ملايين منهم إلى الاتحاد السوفياتي في منتصف الستينات. وإثر اعلان ماوتسي تونغ ثورته الثقافية والقضاء على «التقاليد البالية» اشتد التأزم في كسينجيانغ. ورغم غنى هذا الاقليم بالثروات الطبيعية، فقد اتسم وضعه الاقتصادي بالركود ولم تشمله موجة الاصلاحات الاقتصادية التي طرأت على العديد من الاقاليم الصينية الشرقية والجنوبية. كما انه أضحى مركزًا للتجارب النووية الصينية، واحتل موقعًا مهمًا في الاستراتيجية الصينية كونه ايضًا يقع على الحدود الشمالية الغربية الحساسة. وهذا ما حدا بالحكومة الصينية إلى اتباع سياسة تغيير ديمغرافي استمرت منذ أول عهدها بالسلطة (١٩٤٩-١٩٥٠) حتى السنوات الأخيرة والقاضية باسكان اعداد كبيرة من الصينيين المتحدرين من عرق الهان في مناطق كسينجيانغ. والنتيجة ان الاقليم تحول بؤرة نزاعات عرقية وتوتر وصدامات مستمرة، خاصة وانه واقع بجوار جمهوريات اسلامية فتية (جمهوريات آسيا الوسطى، السوفياتية سابقًا) من جهة، وغير بعيد ويتأثر بنزاعات مشابهة مثل النزاع في أفغانستان أو الشيشان على سبيل المثال، من جهة ثانية. فكلها أمور جعلت من كسينجيانغ اقليمًا عرضة لتنامي مشاعر البحث عن الهوية القومية والدينية إلى حد المطالبة بإقامة كيان مستقل، أو التطرف وحمل السلاح احيانًا. وهذا يفسّر شدة الصدام الذي اندلع في مدينة يننغ الحدودية، ثم امتد إلى مدن الاقليم الاخرى عشية حلول عيد الفطر في اوائل ١٩٩٧، واعتبر الأخطر في المنطقة منذ اضطرابات ١٩٩٠ التي قمعتها الحكومة الصينية بتوجيه عشرات الآلاف من افراد الجيش الصيني.

مذكرة عيسى ألبتكين تعكس الوضع والمطالب: نشرت «الحياة» (العدد ١٢٣٦٨، تاريخ ٧ كانون الثاني ١٩٩٧، ص١٨) نص مذكرة الزعيم التركستاني الشرقي

عيسى يوسف ألبتكين، الذي كان يعيش في أنقرة وتوفي بها (اواخر ١٩٩٥)، إلى رئيس وزراء الصين الشعبية شوزي يان الذي جاء إلى السلطة مع بدايات سياسة الانفتاح عقب فشل الثورة الثقافية ومحاكمة «زمرة الاربعة». وكانت السلطات الصينية بدأت تدلي ببيانات حول «تصحيح جميع الأخطاء... وإقامة العلاقات مع شعب تركستان الشرقية على قواعد سليمة». وقال عيسى يوسف ألبتكين في مذكرته إنه «على أتم استعداد للدخول في مذكرات مع ممثلي الحكومة الصينية على جميع المستويات لتثبيت أنسب الطرق وأنجح الوسائل لتحقيق ذلك».

ومما جاء في المذكرة: «إن مقارنة بسيطة بين القوى الامبريالية في العالم بما فيها الامبريالية الروسية والامبريالية الغربية وبين السياسة العنصرية للاستعمار الصيني تكشف النقاب عن المأساة التي تعيشها تركستان الشرقية. فالامبريالية الغربية تهدف إلى فرض سيطرتها الاقتصادية على الشعوب، بينما السياسة العنصرية الصينية ترمي إلى ابعد من ذلك، وتستهدف القضاء على الشعوب المستعمرة لها وتصفيتهم. ... وكذلك الامبريالية الغربية لم تستبدل أسماء البلاد التي احتلتها باسماء جديدة من عندها. فروسيا القيصرية مثلاً لما احتلت تركستان الغربية جعلتها ولاية كبيرة وجعلت طشقند مقرًا لها واطلقت عليها إسم «ولاية تركستان»، وعندما آل الامر إلى الشيوعيين جزّأوها إلى خمسة أجزاء، وهي ما يسمى اليوم بالجمهورية، ولكن اطلقوا عليها أسماء قبلية فقالوا أوزبكستان، وكازاخستان وتركمانستان، وقيرغيزستان وطاجيكستان. أما الخيلاء الصينية فأبت ألا ان تغير إسم «تركمانستان الشرقية» وأطلقت على جميع مدنها وجبالها وسهولها وكل شيء فيها اسماء صينية. وما من دولة امبريالية غربية، وبينها الروس، احتلت ارضًا ثم أعلنت انها جزء لا يتجزأ من ارضها، ولكن السياسة القومية للامبريالية الصينية فعلت ذلك وأعلنت تركستان الشرقية جزءًا لا يتجزأ من الصين وحرفت في ذلك الحقائق التاريخية والجغرافية. كما ان الدول الامبريالية الغربية إذا احتلت شعبًا اعترفت له على الأقل بحقه في الشكوى والانتقاد، والتجمع، والاستقلال الذاتي في شؤونه الدينية والمدنية والثقافية، وإصدار الصحف والمجلات وتأسيس المطابع وتشكيل الاحزاب والجمعيات، أما السياسة الامبريالية الصينية فانكرت كل هذه الحقائق وقضت عليها. والامبرياليون الغربيون يحملون إلى مستعمراتهم التكنولوجيا الحديثة والامكانات التي تتمتع بها الحضارة العصرية. أما الامبريالية الصينية فقد حملت الخراب والدمار إلى تركستان الشرقية، المركز العلمي والثقافي والحضاري في التاريخ، وفرضت على شعبها الجهل والتخلف، وحرمته من نعم الحضارة ووسائلها. فالانكليز مثلاً، فتحوا المجال لنشأة شخصيات كبيرة في الهند من أمثال غاندي وطاغور ومحمد علي جناح ومحمد إقبال، والسياسة القومية للصين اعتبرت القضاء على مثل هذه الشخصيات مبدأً اساسيًا لها لا تحيد عنه. والدول الامبريالية الغربية أخذت مع الأيام تنسحب من البلاد التي احتلتها، ونتيجة لذلك تحررت مئات الشعوب، واصبحت أعضاء في الامم المتحدة، أما الصين فلم تقم بأية حركة تدل على انها تنوي الانسحاب من الاراضي التي احتلتها».

وقدّم ألبتكين، في مذكرته، قائمة بالمطالب تضمنت ٣١ مطلبًا. من بينها: ان تتخلى الصين الشعبية عن زعمها في ان تركستان الشرقية جزء لا يتجزأ من اراضيها، وان يغادرها المستوطنون الصينيون، والعودة إلى الاسم التاريخي، أي إلى «تركستان الشرقية» بدلاً من الاسم الصيني «كسينجيانغ أويغور»، وتقديم إحصاء دقيق للسكان، وإخلاء جميع المعتقلين السياسيين وإيقاف الاعدامات التعسفية، وفتح جميع المعابد والمساجد الاسلامية، والسماح بالكتب التركستانية وبالتعليم باللغة التركية، والاعتراف بأن قبائل تركستان الشرقية من أويغور وكزاك وقيرغيز وأوزبك وتتار تنتمي إلى أمة واحدة وهي الأمة التركية، وعدم إكراه الناس على عضوية الحزب الشيوعي، والشروع في إعمار وبناء تركستان الشرقية التي اصبحت خرابًا إذ إن قسمًا من واردها السنوي من معادنها ومحصولاتها الزراعية (وكلها تذهب الآن إلى الصين الشعبية) يغطي مصاريف بنائها وإعمارها من جديد.

توتر الاقليم في دورة عنف جديدة (١٩٩٧):

الخط العام لمسار الأمن في إقليم كسينجيانغ خلال العهد الشيوعي انه كان دائم التوتر الذي كان يتراوح بين توتر صامت ومقموع، وتوتر تصاحبه اضطرابات وانتفاضات وأعمال عنف ذهبت بأرواح الآلاف من أبنائه، بينهم مَن حُكم عليهم بالاعدام بتهمة «خلق اضطرابات بتحريض من قوى أجنبية».

فخلال ١٩٩٦، أعدمت السلطات ما يزيد عن ألف من أبناء الاقليم وزجت بآلاف آخرين في السجون.

وفي الاول من شباط ١٩٩٧، اندلعت الاضطرابات في بلدة يننغ (قريبة من الحدود مع

كازخستان)، بعدما أقدمت السلطات على «إعدام ٣٠ مسلمًا أويغوريًا على مرأى من اقربائهم وجيرانهم». ثم ما لبثت المواجهات المسلحة ان عمت شمال غربي الصين، وبرز فيها إسم «الجبهة الوطنية الثورية الموحدة» التي وصفتها وسائل الاعلام الغربية بأنها «اسلامية اصولية»، في حين تسربت أنباء عن مصادر من كازخستان تقول إنها محسوبة على «التيار العرقي الأويغوري» أي انها قومية أولاً واسلامية ثانيًا. ومعروف ان النزعة الاستقلالية لدى الأويغوريين، الناطقين بالتركية يكتبونها بأحرف عربية، تلقت دفعًا قويًا لدعواها القومية بانهيار الاتحاد السوفياتي وقيام جمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية في الاراضي المحاذية لمناطقهم في إقليم كسينجيانغ الصيني.

ولأن السلطات الصينية كانت مدركة ماذا يعني انهيار الاتحاد السوفياتي وولادة الجمهوريات الاسلامية على حدودها، فقد سارعت إلى عقد اتفاقات أمنية مع كازخستان وأوزبكستان وقيرغيزستان.

لكن واقع الأمر أن الأويغوريين ومختلف مسلمي تركستان الشرقية (كسينجيانغ) الذين لجأوا في موجات واسعة، أولها كان في ١٩٤٩، إلى تركيا وكازخستان، شكلوا جبهات معارضة سياسية واعلامية، وأصدروا المنشورات... وتفاعلوا بشكل وثيق مع حركة المعارضة الداخلية. فنشأت حركات تحرير، في الخارج والداخل، يدعو بعضها إلى تحقيق الانفصال عن الصين بالكفاح المسلح.

وإثر أحداث شباط ١٩٩٧، برزت أسماء اربع حركات: «حركة تحرير أويغورستان» التي لا تحبذ الكفاح المسلح وتكتفي بالدعوة السياسية؛ «الجبهة الوطنية الثورية الموحدة»، وهي الجبهة الأقوى وزعيمها ضابط في الجيش الصيني سابقًا ويدعى يوسف بك مخلصي، ويقوم افراد هذه الجبهة بشن عمليات مسلحة من الحدود الكازاخستانية وفي الداخل؛ و«نمور لوب نور» و«شرارة الامة»، وهما حركتان صغيرتان تعتمدان ايضًا الكفاح المسلح وتتواجدان في شمالي الاقليم حيث تكثر المساجد السرية.

في ٢٨ تموز ١٩٩٧، أعلنت السلطات الصينية أنها أعدمت تسعة مسلمين انفصاليين من الأويغوريين في بلدة يننغ «لاشتراكهم في أعمال عنف مناهضة لبكين في إقليم كسينجيانغ». وانتهت السنة نفسها (١٩٩٧) على استمرار حملة القمع الصينية في الاقليم، واستمرار سلسلة اعتداءات ومواجهات بين قوميتي الهان والأويغور.

الصورة المعروفة الوحيدة لاسامة بن لادن والتي تتناقلها مختلف الوسائل الاعلامية.

«الجهاد الاسلامي في الصين» (مناقشة): اطلقت تصريحات المسؤولين الصينيين، منهم عبد العايط عبد الرشيد حاكم إقليم كسينجيانغ، حول وجود تنظيمات اسلامية، على رأسها «حزب الله»، تعمل على إنفصال الاقليم (وكان المسؤولون الصينيون ينسبون قبل ذلك، التحركات الانفصالية إلى عناصر فردية وليس إلى مجموعات منظمة)، اطلقت، منذ اواسط ١٩٩٧، سيلاً من التحليلات حول أحداث كسينجيانغ (تركستان الشرقية) وأهدافها، وقد تداخلت بعضها «تقارير» تتحدث عن «مصادر» أمنية واستخباراتية، وتحركات واجتماعات سرية. والمقال الذي نشرته «الوطن العربي» (العدد ١٠٥٥، تاريخ ٢٣ ايار ١٩٩٧، ص١٨-٢٠)، وأُعدّ وكُتب في باريس وموسكو، يقدم نموذجًا عن هذه التحليلات «التقاريرية»، وجاء فيه:

عرف نيسان ١٩٩٧ حركة من النشاط غير العادي في اوساط الجماعات الاسلامية في اوروبا سرعان ما كشفتها الاجهزة الاوروبية التي تبين لها أن هذا النشاط يتمحور حول «حركة المهاجرين» في لندن التي يتزعمها السوري عمر بكري محمد ويستهدف (وهو الاحتمال المرجح) دراسة احتمالات القيام بحملة تجنيد لمتطوعين من اجل الجهاد في الصين. وثمة تحركات مماثلة لتحرك لندن في فرنسا وايطاليا والمانيا وبلجيكا. وقد تأكد لجهاز أمني تابع للقوة الدولية في البوسنة عن قيام مجموعات من المتطوعين

الاسلاميين بمغادرة البوسنة على وجه السرعة في اتجاه بيشاور (ومنها إلى الصين).

وفي هذا الوقت تلقى جهاز أمني غربي تقريرًا من باكستان يتحدث عن اجتماعات سرية مكثفة جرت مؤخرًا في اوساط الجماعات الاسلامية في عدة مدن منها كابول وجلال آباد في أفغانستان، وبيشاور وإسلام آباد في باكستان. وكشف التقرير ان إجتماع جلال آباد ضم مجموعات من «الافغان العرب» في حضور يونس الزعيم الافغاني المنشق عن «الحزب الاسلامي» الذي اشتهر مؤخرًا بمنحه الأمان لأسامة بن لادن ومصالحة الطالبان مع «الأفغان العرب» وشارك فيه قيادي من مجلس شورى الطالبان ومصطفى حمزه من «الجماعة المصرية»، وتميز بحضور مكثف من أنصار أسامة بن لادن. أما في اسلام آباد فتحدث التقرير عن أكثر من اجتماع عقد في إحدى قاعات «الجامعة الاسلامية الدولية» في حضور رموز من الاسلاميين العرب والآسيويين، وموضوع الاجتماعات الرئيسي كان إعداد الخطط لإرسال المتطوعين للجهاد في الصين وتحديدًا في إقليم سينكيانغ (كسينجيانغ) لنصرة المسلمين الصينيين. وكشف التقرير عن اتصالات ومفاوضات بين بن لادن وقيادة «الطالبان» حول الموضوع تركزت على توجه بن لادن بنفسه للاقامة في الاقليم الصيني مع جماعته. وتطابقت هذه المعلومات مع معلومات المخابرات البريطانية التي تحدثت عن اتصالات ولقاءات بين جماعة بن لادن في لندن وجماعات اسلامية آسيوية وصينية تقيم في العاصمة البريطانية لندن.

وفي الوقت الذي كانت الاجهزة المعنية تدقق في مصادر معلوماتها وتسعى إلى تحليلها تلقت عدة أجهزة اوروبية من المخابرات الروسية تقريرًا سريًا بعنوان «الجهاد في الصين» ويتحدث بالتفصيل عن مجموعات اسلامية بدأت تنتقل من الشيشان إلى سينكيانغ مثل «جماعة الخلفاء الراشدين» و«شباب محمد»، وتضم عناصر سورية ولبنانية ومصرية ويمنية وخليجية ومغاربية شاركت في حرب الشيشان. وأكثر ما لفت الانظار ان التقرير الروسي كشف عن حالة تعبئة في أوساط الاقلية الويغورية (الأويغورية) في تركيا واتصالات ولقاءات مكثفة جرت بين ممثلي هذه الفئة التي يزيد عدد أعضائها على ٣٠٠ ألف أويغوري صيني هربوا في السنوات الأخيرة إلى تركيا بسبب القمع والتعسف الذي يتعرضون له في إقليم سينكيانغ (كسينجيانغ) المسلم غربي الصين، وعناصر من حزب الرفاه الاسلامي، إضافة إلى لقاءات مع اليمين المتطرف التركي الذي بدأ يخوض حملة المطالبة باستقلال تركستان الشرقية «الاسم الأصلي لإقليم سينكيانغ قبل ان يضع الاحتلال الشيوعي الصيني حدًا لجمهورية تركستان الشرقية الاسلامية التي قامت في المنطقة على مرحلتين ١٩٣٣-١٩٣٤ و١٩٤٤-١٩٤٩».

إن ما زاد من مخاوف الصين ان الاقليم الثائر (كسينجيانغ) محاط بدول اسلامية مجاورة تشهد صحوة دينية وتتمركز في بعضها جمعيات وتنظيمات تناضل من اجل تحرير تركستان المفتوحة حدودها مع هذه الجمهوريات على أكثر من ٣ آلاف كلم من الجبال التي تصعب مراقبتها.

وبالفعل، بدأت بكين استراتيجية احتواء خارجية مستخدمة نفوذها وعلاقاتها لمنع وصول الدعم الاسلامي والدولي لانفصاليي سينكيانغ وخصوصًا بعد ان بدأ تدفق الاسلحة المهربة إلى داخل الاقليم بكميات ضخمة.

وللوهلة الاولى وجدت الصين عددًا هامًا من الاوراق في ايديها. فهذه المرة ليس هناك توتر في العلاقات بين موسكو وبكين يساهم كما جرى في الثمانينات في إثارة اضطرابات في سينكيانغ (كسينجيانغ). بل على العكس كان هناك توافق روسي-صيني واضح هذه المرة على إبعاد «الخطر الاسلامي» الذي تتشارك في التوجس منه أنظمة جمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية بعدما حصل في افغانستان.

وتؤكد معلومات ان الاتفاق الحدودي الذي وقع قبل اسابيع (آذار ١٩٩٧) في الكرملين بين الصين وروسيا وطاجيكستان وقيرغيزستان وكازاخستان حول خفض القوات على الحدود المشتركة تضمن بندًا خاصًا يلحظ ضرورة «مكافحة النشاطات الارهابية والانفصالية والاصولية». وقبل يوم من هذا الاتفاق كان الرئيس الروسي يوقع مع نظيره الصيني إعلانًا مشتركًا اعتبر موجهًا ضد الولايات المتحدة الاميركية ويدعو إلى «عالم متعدد الاقطاب ونظام دولي جديد»، ويندد بالتالي بالهيمنة الاميركية على العالم.

ولعل الإنجاز الأهم الذي حققته الصين هو في تأكيد تقاربها مع كازاخستان وطاجيكستان وقيرغيزستان لتفادي دعم هذه الجمهوريات للانفصاليين، وتحديدًا تحييد كازاخستان. وبالفعل، يبدو الرئيس الكازاخي انه اختار التقارب مع الصين على حساب مسلمي سينكيانغ منذ الاتفاق الحدودي الاول عام ١٩٩٦. ومن يومها زادت الضغوط الكازاخية على التنظيمات الاستقلالية الأويغورية،

ومؤخرًا تبلغت «جبهة تحرير أويغورستان» ضرورة وقف حملاتها الاعلامية ومنعت من إصدار نشراتها والتظاهر أمام السفارة الصينية في ألما أتا، وبدأت المضايقات تزداد على «الجبهة القومية الثورية الموحدة لتحرير تركستان الشرقية» التي يتزعمها يوسف بك مخلصي الذي أعلن مؤخرًا ان «ساعة الجهاد قد حانت».

وتقول مصادر اسلامية مطلعة إن الرئيس الكازاخي نور سلطان أشقر أكاييف عقد صفقة مهمة مع بكين على حساب الأويغور تقوم على أساسها الصين بإغراء مسلمي سينكيانغ الكازاخ ويقدر عددهم بـ١،١ مليون نسمة بالهجرة إلى كازاخستان، وهكذا تتخلص بكين من هذا العدد من مواطنيها المسلمين الذين يسعى أشقر أكاييف لاستعادتهم بهدف زيادة نسبة الكازاخ في كازاخستان (٦،٥ ملايين نسمة) ليصبحوا أكثر من الروس (٦،٢ ملايين نسمة) والاثنيات الأخرى، وفي المقابل تحقق الصين الأغلبية للهان في سينكيانغ.

ومن منطلق احتواء الانفصاليين نفسه، اعتمدت الصين على علاقاتها الاستراتيجية الجيدة مع ايران لاقناع نظامها بعدم الدخول في إغراء «تصدير الثورة الاسلامية» إلى الصين وعدم مساعدة الانفصاليين المسلمين كما فعلوا في البوسنة، ويبدو من مصادر صينية أكيدة ان طهران اختارت تغليب مصلحتها الاستراتيجية وحاجتها للسلاح الصيني فوعدت بعدم دعم مسلمي الصين والتعامل معهم كما تعاملت في قضية أذربيجان حيث تدعم ايران الارمن المسيحيين ضد المسلمين الأذريين.

والسؤال الذي تسعى الاجهزة الغربية للجواب عنه هو: ما هو حجم التعبئة الاسلامية للجهاد في الصين ولماذا في هذا الوقت بالذات ولأية أهداف؟

في رأي مصدر أمني فرنسي خبير في شؤون الحركات الاسلامية انه، كما في أفغانستان والبوسنة والشيشان، ثمة عوامل عديدة تتداخل للدفع في اتجاه «الجهاد في الصين». ويقول إن هذا الجهاد من شأنه خدمة أكثر من طرف نظرًا لتعدد أسبابه وعوامله. «الأفغان العرب» ليسوا سوى أحد هذه العوامل. فبالنسبة إلى عدة جهات ان إرسال الأفغان العرب وبن لادن معهم إلى الصين يعني تجميعهم في بلد بعيد أكثر ما يمكن عن مناطق ساخنة يمكنهم ان يهددوا فيها مصالح حساسة وانظمة ومعظم الدول التي ينتمي إليها هؤلاء لن تنزعج عن تحييد هؤلاء «المجاهدين» في آخر الدنيا. حتى «الطالبان» فيبدو انهم وجدوا في سينكيانغ المخرج المثالي لهم، فهم بذلك يحترمون التزامهم إقفال معسكرات الارهاب في بلدهم، ومن ناحية ثانية لا يطردونهم إلى دول تطاردهم ولا يعقدون اية صفقة على حسابهم بل يستخدمونهم لتأكيد مشروعهم الاسلامي.

أما الأفغان والمتطرفون الاسلاميون فوجدوا في هذا العرض فرصة سانحة لتحقيق أهدافهم التي يرفعون شعاراتها وفي الوقت ذاته لتحسين صورتهم بعدما تحولوا من مجاهدين يدافعون عن الاسلام إلى مجرمين وإرهابيين. فالمشاركة في جهاد حقيقي تمحو صفة الارهاب والاجرام التي التصقت بالمتطرفين وباتوا يجدون صعوبة في التبرؤ منها وخصوصًا بعد مسلسل المجازر التي تنفذه الجماعة المسلحة في الجزائر والذي شكل وصمة عار في كل من ينادي بالجهاد من المتطرفين. ومن شأن الجهاد في الصين ضد «عدو شيوعي» وللدفاع عن مسلمين يتعرضون حقًا للقمع والإذلال والإنقراض ان يعطي صورة مختلفة يحتاج إليها هؤلاء الاسلاميون المتطرفون، كلما افتقدوها بعد أفغانستان وخسروها بعد البوسنة.

أما بالنسبة إلى أسامة بن لادن فيبدو حسب معلومات مؤكدة ان هذا «الجهاد في الصين» قد أغراه منذ احتلال الطالبان لكابول في ايلول ١٩٩٦. وفي مرحلة الحديث عن صفقة بين الطالبان والولايات المتحدة للقضاء على الأفغان ولوضع حد لبن لادن جرى الحديث جديًا في اوساط رجل الاعمال هذا عن انتقاله للاستقرار في الصين كآخر ملجأ ممكن. وبالفعل أرسل يومها عددًا من انصاره إلى سينكيانغ (كسينجيانغ). ولا تستبعد هذه المصادر ان تكون الحملة الأخيرة التي تعرض لها بن لادن في جلال آباد ومحاولة اغتياله هناك وإرغامه على اللجوء في قندهار إلى جانب زعيم الطالبان هي مقدمة لـ«إقناعه» بمغادرة أفغانستان بدون تسليمه إلى واشنطن أو غيرها إلى مكان يعتبر آمنًا على حياته وتكون الصين هي هذا المكان.

ولا يستبعد المصدر ان تكون حملة التهديدات الاميركية الأخيرة لبن لادن والتلويح بتعميم مذكرة اعتقاله لدى الإنتربول والحديث عن إرسال مجموعة لمعاقبته جزء من سيناريو دفع ممول المتطرفين إلى «الخيار الصيني».

ويذهب هذا المصدر إلى ابعد من ذلك إلى حد التذكير بالعلاقات السابقة الخفية والعلنية بين المجاهدين والاسلاميين والمخابرات الاميركية منذ ايام أفغانستان إلى البوسنة. ويتساءل لماذا لا يتكرر الأمر في سينكيانغ حيث يقاتل الاسلاميون عدوًا مشتركًا مع الاميركيين هو النظام الشيوعي. ولا يستبعد هذا المسؤول ان تكون واشنطن ذات

مصلحة في إثارة التهديد الاسلامي للصين وخصوصًا بعد الاعلان المشترك الصيني-الروسي الذي كشف وجود رغبة من بكين وموسكو لمواجهة الهيمنة الاميركية. وإذا كانت واشنطن قادرة على مواجهة موسكو بسلاح الاقتصاد فيمكن ان ترفع في وجه الصين سلاح «الجهاد الاسلامي» الذي يعتبر اليوم أكبر عامل تهديد لوحدة الصين التي تتألف من أكثر من ٥٠ اقلية.

ولعل ما زاد قناعة بعض المراقبين بوجود أصابع اميركية وراء «الجهاد في الصين» دخول طرفين حليفين لواشنطن على خط دعم المسلمين في الصين وهما الطالبان، وتركيا التي تلتقي روسيا والصين عند التخوف من طموحاتها لتزعّم آسيا الوسطى حيث النسبة الكبرى من السكان ناطقة بالتركية.

يبقى السؤال الأهم: هل يمكن ان يؤدي إعلان الجهاد في سينكيانغ (كسينجيانغ) إلى فرط الصين واستقلال تركستان الشرقية؟

حتى الآن قلة من المراقبين تواجه هذا الاحتمال ولدى الغالبية قناعة بأن المسألة استراتيجية وحساسة جدًا بالنسبة إلى الصين ومستقبلها إلى درجة تدفع للتأكيد بأن بكين مستعدة لارسال الثلاثة ملايين جندي لقمع ثورة المسلمين في سينكيانغ وإبادتهم من أجل الاحتفاظ بهذه المنطقة. ويوافق هؤلاء على اعتبار حرب المسلمين في الصين، كونها مسألة خطيرة جدًا بالنسبة إلى بكين، هي ورقة ضغط هامة قد تدفع في النهاية إلى إرغام الصين على «تقديم تنازلات» لاحتواء قضية سينكيانغ، لكنها قبل ذلك قد تفعل بالاقليم أكثر ما فعله الروس في الشيشان، وخصوصًا ان كل مقومات الحرب الاهلية موجودة. وفي كل الاحوال، يقول خبير أمني غربي ان طبيعة المنطقة الجغرافية وسعة مساحتها وانتشار حدودها وتداخل شعوبها يجعل من اندلاع حرب تحرير عملية طويلة جدًا قد تدوم سنوات أكثر من حرب أفغانستان ينشغل خلالها الأفغان العرب والمتطرفون الاسلاميون، وقد يكون هذا هو المطلوب في النهاية

هونغ كونغ

بطاقة تعريف هونغ كونغ كمستعمرة بريطانية حتى ٣٠ حزيران ١٩٩٧: إسم هونغ كونغ يعني «ثغور العطور». وهي جزيرة صغيرة تشكل جزءًا من شبه جزيرة كولون الصينية؛ وتتضمن كذلك جزيرة لان تاو وعددًا من الجزر الصغيرة.

المساحة الاجمالية لشبه الجزيرة وللجزر المبعثرة حولها تبلغ ١٠٣١كلم م.. لكن الجزيرة المستعمرة (هونغ كونغ) لا تحتل من هذه المساحة سوى ٧٥كلم م..

فكتوريا (العاصمة) وكولون هما أهم مدينتين في هونغ كونغ.

كان عدد سكان هونغ كونغ في ١٩٤١، أي عند بداية احتلال اليابان للجزيرة نحو مليون و٦٠٠ ألف نسمة. وعند انتهاء هذا الاحتلال في ١٩٤٥ هبط عدد السكان إلى نحو ٦٠٠ ألف، ليعود ويرتفع بوتائر سريعة بعد ان استلم

موقع هونغ كونغ و ماكاو

الشيوعيون السلطة في الصين الشعبية إذ لجأ الآلاف من الصينيين إلى هونغ كونغ. ويبلغ عدد سكان هونغ كونغ حاليًا (١٩٩٧) نحو ٦ ملايين نسمة، بينهم نحو ٤١٥ ألف أجنبي. فتكون الكثافة السكانية ٧٥٢٢ نسمة في الكلم م. الواحد أما اللغات المحكية في هونغ كونغ فهي الانكليزية في المقام الاول، وتليها لغة اقليم كانتون الصيني، واصبحت اللغة الصينية (المندرين) منذ أول تموز ١٩٩٧ اللغة الرسمية. ويشكل الصينيون نسبة ٩٨٪ من مجموع السكان.

تمحور النشاط الاقتصادي في هونغ كونغ، كمستعمرة بريطانية، حول ميناء هونغ كونغ الذي هو ميناء حر (لا رسوم جمركية إلا على بعض السلع القليلة) حيث تعبر البضائع من العالم قاطبة. وقد جعل هذا الواقع من الميناء أكثر موانىء العالم تجهيزًا. ومنذ انتهاء الحرب العالمية الثانية نمت في هونغ كونغ صناعات كثيرة: القطن، الأقمشة، المواد البلاستيكية، الأجهزة الكهربائية والالكترونية... وكان لوفرة اليد العاملة الرخيصة والمتقنة في الوقت نفسه، وللضرائب القليلة... ان تفسّر هذا الانتاج الصناعي الضخم الذي عرفه العالم والذي حمل علامة «صنع في هونغ كونغ». وكان القطاع السياحي بتزايد سنوي. وأما الزراعة، فهناك نسبة ضئيلة جدًا من السكان تعمل فيها وتزرع الخضار وتربي الخنازير والدواجن. وتستورد هونغ كونغ من الصين أكبر كمية من المواد الغذائية، ما عدا السمك الذي تصطاده بنفسها.

بلغ إجمالي انتاجها المحلي (قبيل عودتها إلى الصين) ١٢٢ مليار دولار، أي ما كان يوازي ٢٥٪ من قيمة انتاج الصين. وبلغ معدل الفرد ١٨٦٥٠ دولارًا، ومعدل النمو ٥٪، ومعدل التضخم ٨٪، ومعدل البطالة ٣٪، واحتياط العملات الصعبة ٥٠ مليار دولار. التجارة الخارجية: ١٦٥ مليار دولار استيراد، و١٥٥ مليار دولار تصدير، و١٥ مليار دولار إعادة تصدير. ميزان المدفوعات: ٤،٨ مليار دولار. ومركزها المالي: الثاني في آسيا بعد سنغافورة.

نبذة تاريخية: في حزيران ١٨٤٠، بدأت حرب الأفيون الاولى بين بريطانيا والصين. وفي كانون الثاني ١٨٤١، عقدت اتفاقية شونبي التي تخلت الصين بموجبها عن هونغ كونغ لبريطانيا، ثم أكدت معاهدة نانكين في آب ١٨٤٢ ضم بريطانيا لهذه الجزيرة. وفي ١٨٦٠، عقدت اتفاقية بكين التي أحازت للندن ضم شبه جزيرة كولون Kowloon.

في حزيران ١٨٩٨، شكلت «الاقاليم الجديدة»، المتضمنة المنطقة الممتدة من شمالي كولون حتى نهر شنزن و٢٣٥ جزيرة صغيرة، موضوع عقد إيجار لمدة ٩٩ سنة مفروض على الصين. وهو العقد الذي تم بموجبه ضم هونغ كونغ والذي تنتهي مدته الساعة صفر من ليل ٣٠ حزيران-الاول من تموز ١٩٩٧. وقد تمتعت هذه المنطقة بنظام الاقليم البريطاني التابع للتاج والذي يرأسه حاكم تعينه الحكومة البريطانية.

بين كانون الاول ١٩٤١ وآب ١٩٤٥، خضعت هونغ كونغ للاحتلال الياباني.

في ١٩٨٤، وقّع الطرفان، بريطانيا والصين، إعلانًا مشتركًا، بعد سنتين من المفاوضات، حدّدا فيه الطريقة التي ستتمتع هونغ كونغ بموجبها بـ«درجة عالية من الحكم الذاتي» بدءًا من أول تموز ١٩٩٧ ولمدة خمسين عامًا، مع احتفاظها بطريقة حياتها وفقًا لمبدأ «بلد واحد ونظامان».

في حزيران ١٩٨٩، تظاهر نحو مليون من أبناء هونغ كونغ احتجاجًا على أحداث تيانانمن (راجع باب «معالم تاريخية»).

في ١٩٩٠، أقرت الجمعية الوطنية الشعبية (البرلمان) الصينية القانون الأساسي الذي سيتم بموجبه حكم هونغ كونغ. وينص هذا القانون على ان «المنطقة الادارية الخاصة» (المقصود هونغ كونغ) ستحتفظ بنقلها، وميزانيتها، وعملاتها الصعبة، وادارتها، وشرطتها، ونظامها القضائي... وسيحكمها حاكم يكون بمثابة رئيس وزراء (رئيس تنفيذي)، ويكون مواطنًا صينيًا منذ أكثر من أربعين عامًا، مقيمًا في هونغ كونغ منذ عشرين عامًا على الأقل، ولا يحمل جواز سفر أجنبيًا.

في تموز ١٩٩٢، عيّن جون ماجور (رئيس الوزراء البريطاني) آخر حاكم بريطاني على الجزيرة، هو كريستوفر باتن الذي كان رئيسًا سابقًا لحزب المحافظين.

في ايلول ١٩٩٥، ولأول مرة، جرى انتخاب جميع أعضاء المجلس التشريعي (ليغكو)، وهو الهيئة التي تعاون الحاكم في إدارة شؤون المستعمرة. وهذا الاجراء، الذي كان اتخذه الحاكم باتن منذ تشرين الاول ١٩٩٢، أثار حفيظة الزعماء الصينيين، خاصة وان الحزب الديمقراطي الذي يتزعمه مارتن لي، أشدّ أعداء القادة الصينيين في هونغ كونغ، فاز بـ٤٢٪ من الاصوات وبـ١٢ من اصل ٢٠ من مجموع حقائب الحكم.

مسار عودة هونغ كونغ إلى الصين بدءًا من اوائل ١٩٩٦: في كانون الثاني ١٩٩٦، عينت بكين لجنة

تحضيرية من ١٥٠ عضوًا، من بينها ٥٦ عضوًا من البر الصيني، والآخرين (٩٤ عضوًا) من المتمولين ورجال الاعمال ووجهاء الجزيرة. وعلى هذه اللجنة تعيين ٤٠٠ عضو يؤلفون الجمعية الموقتة ورئيس الوزراء، على ان تنتهي اللجنة من عملها هذا أواخر ١٩٩٦. ويكون على الجمعية وعلى رئيس الوزراء المعين تحضير عملية انتقال هونغ كونغ إلى وضعية «المنطقة الادارية الخاصة». وستحل الجمعية في أول تموز ١٩٩٧، محل المجلس التشريعي (ليغكو) وتعلن عودة هونغ كونغ إلى الصين.

رأس هذه اللجنة التحضيرية وزير الخارجية الصيني كيان كيشن الذي شغل سابقًا منصب رئيس هيئة الدراسات الصينية حول هونغ كونغ. وكان تمّ حل هذه قبل شهر (أي في كانون الاول ١٩٩٥) لاتاحة الفرصة للجنة التحضيرية للعمل.

ووعد أصحاب الاعمال الذين يشكلون الغالبية في هونغ كونغ بالتعاون مع اللجنة التحضيرية.

وبعد محادثات ومفاوضات بين الصين وبريطانيا على مدى أكثر من عشر سنوات انتهت بالاتفاق على تحديد طبيعة التسليم وتاريخه في الاول من تموز ١٩٩٧، لم تبق بينهما سوى مسألة حقوق الانسان.

وفي صدد «حقوق الانسان» قال حاكم هونغ كونغ البريطاني كريستوفر باتن: «على الصين ان توقع ميثاق الامم المتحدة لحقوق الانسان لتهدئة القلاقل والمخاوف في اوساط هونغ كونغ (...) إن قائمة حقوق الانسان رمز للثقافة في هونغ كونغ، وإن الشعب قلق بسببها لأنه قلق على مستقبله، قلق على منهجه وطريقته في الحياة». والجدير ذكره ان الصين دولة غير موقعة على ميثاق حقوق الانسان للامم المتحدة، الأمر الذي يجعلها غير مسؤولة عن تقديم التقرير السنوي عن اوضاع هونغ كونغ إلى لجنة حقوق الانسان في الامم المتحدة.

ودأب المسؤولون الصينيون على طمأنة الهونغ كونغيين بتكرار انهم يريدون لهونغ كونغ درجة مرتفعة من الحكم الذاتي وبأن تستمر في المحافظة على نظامها الرأسمالي تبعًا لمبدأ «بلد واحد بنظامين» (مثل تصريحات وزير الخارجية الصيني كيان كيشن في آذار ١٩٩٦).

إلا ان هذه التطمينات لم تحل دون تدفق عشرات الآلاف من أبناء هونغ كونغ واحتشادهم لتقديم طلبات للحصول على جوازات سفر بريطانية خاصة، في محاولة للافادة من الساعات الأخيرة المتبقية قبل الموعد النهائي الذي يقفل بعده باب الطلبات، واضطرت السلطات إلى فتح ملعب كرة القدم لاستيعاب اصحاب الطلبات (آخر آذار ١٩٩٦).

في أواخر ١٩٩٦، ومع اقتراب موعد عودة هونغ كونغ إلى الصين، كثرت التقارير (والأحاديث والدراسات) التي تتكلم عن «النيات الصينية التوسعية»، وعن «تحول الصين بسرعة إلى قوة عالمية هائلة»، وعن أوضاع المنطقة الآسيوية القريبة، مثل البلبلة المقبلة في أندونيسيا بعد انتهاء حكم سوهارتو، وما يمكن ان يستجد في كوريا، إضافة إلى علاقات اوستراليا بمحيطها. وتزامنت هذه المخاوف مع تحذيرات اطلقها وزير دفاع سنغافورة توني تان، في تشرين الاول ١٩٩٦، الذي اشار إلى ظهور علامات جديدة تؤكد المطامع الصينية في جزر سبراتلي المتنازع عليها مع ماليزيا وتايوان وبروناي وفيتنام والفيليبين والصين. وتتخوف اوستراليا ونيوزيلندا وبقية دول المنطقة من هجوم صيني مباغت لاحتلال تلك الجزر مما يعني وقوع طرق الملاحة بين الجزء الجنوبي للارض وجزئها الشمالي تحت السيطرة الصينية.

وبصورة متزامنة تقريبًا مع هذه الأحاديث والمخاوف من السياسة والاستراتيجية الصينية، بدا ان السلطات الصينية تقصدت ان تهز عصاها الغليظة في وجه «الوحل الأجنبي». فباشرت (في صيف ١٩٩٦) حملة اعتقالات ومحاكمات واعدامات طالت الآلاف من المفسدين، خاصة في مجال مكافحة المخدرات، باسم «إرادة الشعب»، ودائمًا من خلال الاشارة إلى المافيا المنظمة في هونغ كونغ، وهي، بنظر العديدين، «أعرق» وأطول باعًا من المافيا الايطالية الشهيرة، إذ تمتد جذورها إلى أقاصي الصين منذ ستة قرون، وتسيطر على أضخم عمليات توزيع الهيروين في العالم؛ إضافة إلى ان هنالك ناحية اخلاقية-تاريخية في المسألة تعود إلى ان هونغ كونغ أنشئت على «الوحل الاجنبي»، أي الانكليزي بالتحديد، وهو «الوحل» الذي جلب الأفيون إلى الصين ووصمها بعاره حتى مجيء ماو تسي تونغ.

في كانون الاول ١٩٩٦، انتخب أول زعيم لهونغ كونغ في الأيام الأخيرة للاستعمار البريطاني. واعتبر هذا الانتخاب الانطلاقة الفعلية لعودة هذه الجزيرة إلى الصين. والمنتخبون هم أعضاء اللجنة الـ ٤٠٠ الذين عينتهم بكين، وانتخبوا المرشح الثري تونغ تشي هوا لمنصب أول «رئيس السلطة التنفيذية» في هونغ كونغ بعد رحيل البريطانيين (أي بدءًا من أول تموز ١٩٩٧). كما اختار الناخبون ٦٠ عضوًا للجمعية التشريعية الموقتة التي ستحل في الاول من

تموز (١٩٩٧) محل الجمعية القائمة التي أعلنت بكين حلها.

ومنذ اواسط كانون الاول ١٩٩٦، أي قبل ستة أشهر من موعد الاستحقاق، موعد عودة هونغ كونغ إلى الصين، بدت مهمة الحاكم البريطاني كريستوفر باتن غير سهلة بسبب الخلاف بين ادارته والفريق الذي سيتولى سلطة السيادة الصينية حول قرار بكين حلّ الجمعية التشريعية وعزم باتن، قبل مغادرته، تعديل القوانين المتعلقة بالحريات الفردية في هونغ كونغ.

في ٢٥ كانون الثاني ١٩٩٧، انتخبت ريتا فان (مولودة ١٩٤٣)، وهي مسؤولة سابقة في هونغ كونغ غيرت ولاءها إلى جانب الصين، لتكون رئيسة لأول هيئة (البرلمان الاقليمي) تسن القوانين الخاصة بالحقوق المدنية في هونغ كونغ بعد عودتها إلى الصين وسط معارضة بريطانية لهذا الاجراء. وكان أعضاء البرلمان (٦٠ عضواً) اجتمعوا عبر الحدود في شينغين من اجل تجنب قيام دعاوى قانونية تطعن في شرعية اجتماعه في هونغ كونغ. وكان هذا أول اجتماع للبرلمان الذي اختير اعضاؤه بواسطة اللجنة الصينية. وبعد أقل من اسبوع، قررت اللجنة التحضيرية المكلفة الاشراف على انتقال هونغ كونغ إلى الصين إلغاء أو تعديل ٢٥ من القوانين المعتمدة في هونغ كونغ والمتعلقة بالحقوق المدنية.

في ٢١ نيسان ١٩٩٧، وصلت إلى هونغ كونغ طلائع الجنود الصينيين الذين سينتشرون في المستعمرة، وضمت ٤٠ عنصراً من جيش التحرير الشعبي بقيادة الجنرال جو بوروننغ. وكانوا يرتدون اللباس العسكري لكن لا يحملون أسلحة. وهذه المجموعة كلفت التحضير لوصول الفرقة الصينية التي ستحل محل آخر الفرق البريطانية في الساعة صفر من ليل ٣٠ حزيران-الاول من تموز ١٩٩٧. ووصلت في إطار اتفاق ابرم قبل ايام قليلة بين بريطانيا والصين عبر لجنة الارتباط المشتركة المكلفة السهر على حسن سير العملية الانتقالية.

في ٤ حزيران ١٩٩٧، أي قبل ٢٦-٢٧ يوماً من الموعد المحدد لعودة هونغ كونغ إلى السيادة الصينية، نزل عشرات الآلاف من سكان هونغ كونغ إلى حديقة فكتوريا العامة في وسط الجزيرة لإحياء الذكرى السنوية الثامنة لأحداث ساحة تيانانمن (تيان ان مين) حيث سحقت القوات الصينية في ٤ حزيران ١٩٨٩ تظاهرة مؤيدة للديمقراطية. وكانت تظاهرة هونغ كونغ الحدث الأهم قبل عودة الجزيرة إلى الصين بعد أكثر من ١٥٠ سنة من الحكم البريطاني. وقد أزيح الستار في المناسبة عن «نصب العار»

جنود صينيون (بثياب مدنية) يهبطون ارض هونغ كونغ تمهيدا للاحتفال بعودتها الى الصين (حزيران ١٩٩٧).

للنحات الدانماركي ينز غالشيوت الذي قدمه تحية إلى الحركة الديمقراطية في الصين.

ولئن لم يصدر عن السلطات الصينية ما ينبىء بأنها ستمنع إحياء ذكرى تيانانمن مستقبلاً فإن تانغ تشي هوا الذي سيتسلم حاكمية الجزيرة في الاول من تموز ١٩٩٧ حض سكان هونغ كونغ على طي هذه الصفحة

والتركيز على المستقبل. لكن رئيس الحزب الديمقراطي في هونغ كونغ مارتن لي أبدى تخوفه من المستقبل قائلاً «إن الديمقراطية تتقدم في أنحاء العالم لكننا في هونغ كونغ نعود إلى الوراء بحيث يتم التخلي عن مجتمع حر لنظام معاد للديمقراطية».

ساعة الصفر، ليل ٣٠ حزيران–الاول من تموز ١٩٩٧: في ٢٨ حزيران اختتم برلمان هونغ كونغ جلسته الأخيرة بعد وقت قصير من إعلان بكين انها سترسل قوات قوامها ٤ آلاف جندي خلال ساعات من الساعة صفر. ووصف رئيس البرلمان أندرو وونغ جلسة الوداع الطويلة التي استمرت ٢٣ ساعة بعبارة «مات الملك عاش الملك». وكان الامير تشارلز، ولي العهد البريطاني ممثل الملكة اليزابت الثانية في احتفالات عودة هونغ كونغ إلى السيادة الصينية، على رأس وفد ضم وزير الخارجية روبن كوك ورئيس الوزراء السابق ادوارد هيث وجيفري هاو وزير الخارجية السابق مهندس الاتفاق الذي وقعته لندن وبكين ١٩٨٤ بشأن عودة هونغ كونغ إلى السيادة الصينية.

في اليوم التالي (٢٩ حزيران)، وقبيل ذهابه إلى هونغ كونغ، القى الزعيم الصيني جيانغ زيمين في مجلس الشعب في بكين خطابًا تعهد فيه باحترام حقوق هونغ كونغ، وقال: «سنلتزم بشدة مبدأ دولة واحدة ونظامين، وان يحكم هونغ كونغ شعبها، ويتمتع بدرجة عالية من الحكم الذاتي (...) ونضمن حقوق وحريات سكان هونغ كونغ بما يتفق مع القانون». وترافق خطابه مع اعلان رئيس المجلس التنفيذي لهونغ الذي عينته بكين، تونغ تشي هوا، ان الانتخابات الاشتراعية الاولى في الجزيرة ستجري في ايار ١٩٩٨. إذ إن الاتفاقات الصينية–البريطانية المبرمة في ١٩٨٤ تضمنت موافقة الصين على تنظيم انتخابات في هونغ كونغ بعد ١٢ شهرًا من عودتها إلى السيادة الصينية.

وبحلول منتصف ليل ٣٠ حزيران–الاول من تموز ١٩٩٧ (أي الساعة الرابعة بعد ظهر ٣٠ حزيران بتوقيت غرينيتش)، طوت بريطانيا الصفحة الاخيرة من وجودها الاستعماري في هونغ كونغ (وفي آسيا). ونكست الاعلام البريطانية وحلت محلها الاعلام الصينية، وسلّم الامير تشارلز مقاليد هونغ كونغ إلى الرئيس الصيني جيانغ زيمين، متوجًا بذلك سلسلة احتفالات استمرت طوال النهار في مناسبة عودة المستعمرة إلى الوطن الأم بعد ١٥٦ عامًا.

قال الرئيس الاميركي بيل كلينتون ان الولايات المتحدة ستتابع عن كثب مدى احترام الصين لاتفاقياتها مع بريطانيا وتعهداتها إزاء «حقوق هونغ كونغ»، وأكد ان «لا دلائل تشير حاليًا إلى رغبة بكين في انتهاكها». أما رئيس الوزراء البريطاني توني بلير (التقى الرئيس الصيني) فقد ناشد الصين تناسي معارك الماضي وبناء علاقة جديدة مع بلاده، وقال «إن هونغ كونغ يمكن ان تتحول جسرًا بين البلدين أكثر منها عائقًا في طريق تقاربهما».

شخصيتا الحدث الاداريتان: هما كريستوفر

الامير تشارلز واخر حاكم بريطاني لهونغ كونغ وجنود صينيون في ساحة تيانانمن يستعدون للمشاركة في احتفالات التسلم (حزيران ١٩٩٧).

باتن، الحاكم البريطاني؛ وتونغ تشي هوا، الحاكم الصيني.

باتن هو الحاكم البريطاني الثامن والعشرون والأخير للمستعمرة. شغل عدة مناصب قيادية في حزب المحافظين البريطاني، آخرها الرئيس التنفيذي للحزب قبل سقوطه في الانتخابات النيابية عام ١٩٩٢، ثم تعيينه حاكمًا لهونغ كونغ. قال إنه سيعود بعد تسليم المستعمرة إلى بيت يملكه في جنوبي فرنسا ليؤلف كتابًا عن تجربته.

تونغ تشي هوا، الحاكم والرئيس التنفيذي الجديد لهونغ كونغ (ابتداء من أول تموز). هو أكبر أبناء رجل أعمال في النقل البحري من شانغهاي، الذي هاجر في ١٩٤٩ إلى بريطانيا حيث درس ابنه تونغ تشي هوا في ليفربول، وعمل في التجارة ايضًا، وكان يقدم تبرعات مالية لأحزاب سياسية أكبرها حزب المحافظين. وتونغ تشي هوا صاحب اسطول سفن ضخم.

الحدث في الاطار الاستعماري البريطاني الحالي:

المعروف ان الخارجية البريطانية اتخذت، منذ الخمسينات، إجراء سمّته «التصحيح السياسي»، أقلعت فيه عن استخدام كلمة «مستعمرة» مستبدلة إياها بتسمية «المناطق المستقلة» التي ترعاها في لندن «هيئة المناطق المستقلة»، ويرأسها حاليًا توم رسل من جزر كايمان.

بعد تسليم هونغ كونغ، يبقى من مستعمرات الامبراطورية البريطانية ١٣ مستعمرة بمجموع سكانها نحو ١٨٠ ألف نسمة، وجميعها جزر مبعثرة بين القطبين الشمالي والجنوبي طولاً، وبين المحيطين الباسيفيكي والأطلسي عرضًا. وهي جزر صغيرة وفقيرة. يخضع سكانها لوضع خاص بموجب قانون الجنسية لسنة ١٩٨١، باستثناء جبل طارق الذي تطالب به اسبانيا، وجزر الفوكلاند التي تطالب بها الارجنتين، كما قد يكون هناك استثناء آخر لسكان جزيرة سانت هيلانة.

ويمنح هذا الوضع الخاص تلك الجزر مرونة قانونية تبعًا لخصوصية كل جزيرة أو مجموعة جزر. فحين اختارت، مثلاً، جزر البهاما هوية وطنية خارج ذلك النظام، هرب رجال الاعمال إلى جزيرة كايمان، واصبح فيها إلى الآن ٣٠٠ مصرف. فانتبهت جزيرة برمودا للأمر وأبقت على التاج البريطاني.

يسكن منطقة أنتارتيك البريطانية الممتدة إلى القطب الجنوبي والمغطاة بالجليد ٧٠ شخصًا من العلماء. وتسيطر الارجنتين على جزيرتي ساوث ساندويتش وساوث جورجيا منذ ١٩٨٢، وهي غير مسكونة.

أما جزر المحيط الباسيفيكي، «كاغوس أرشبلاغو»، فهي قواعد بحرية بريطانية-اميركية مشتركة في ديغو غارسيا التي كان لها دور فعّال في فترة الحرب الباردة، وتتمتع بمزايا في عمليات القصف الجوي الطويل المدى، كما جرى في حرب الخليج الثانية.

ومن أكثر الجزر البريطانية أهمية في الموقع جزيرة بيتكارن التي تتوسط المسافة بين باناما ونيوزيلاندا، وهي

انزال العلم البريطاني في ساعة الصفر.

تونغ شي هو.

كريستوفر باتن.

آخر المستعمرات البريطانية في المحيط الباسيفيكي، استقر فيها تسعة من البحارة المتمردين في العام ١٧٩٠.

الحدث والرأي العام الهونغ كونغي: في حين ينظر صينيو البر الصيني إلى عودة هونغ كونغ إليهم بعد ١٦٥ عامًا من الاستعمار البريطاني على انها نهاية عار وإذلال عميقين، يطغى، ولا ريب، شعور الانتماء القومي على سكان هونغ كونغ (٩٨٪ من أصل صيني)، ومعظمهم تحدّر من لاجئين من الشمال عبر تاريخ الصين المضطرب، فيبدّد لديهم الخوف من الخطر الذي يشكله هذا التغيير التاريخي على حرياتهم الشخصية وعلى النظام «نصف الديمقراطي» الذي يتمتعون به.

و لم تكن لسكان الجزيرة، على أي حال، كلمة مؤثرة في المفاوضات بين لندن وبكين من ١٩٨٢ إلى ١٩٩٧. فهم كانوا متفرجين فحسب في المواجهة بين الطرفين. ومع ذلك استمروا يعملون ليل نهار في تطوير جزيرتهم وتحضيرها لتصير بين ليلة وضحاها العاصمة المالية للبلد الذي يضم أكبر عدد من السكان في العالم. ورمز ذلك قصر المؤتمرات الفخم الذي شيّد في وقت قياسي لاستضافة آلاف الشخصيات المدعوة للمشاركة في احتفالات العودة. و لم ينسَ الهونغ كونغيون كذلك ان سرّ التطور السريع لجزيرتهم هو المال: بورصة هونغ كونغ اقفلت (قبل يومين فقط من ساعة الصفر) على ارقام قياسية، فيما لا تزال اسعار العقارات في أوجها.

وفيما انسحب البريطانيون بهدوء تاركين وراءهم مستعمرة في أوج الازدهار ومحتفظين فيها بمصالح مالية مهمة، لم يتوان الصينيون عن الاحتفال بالنهاية الحقيقية لـ«حرب الأفيون» بعدما لقّنوا صغارهم على مدى أجيال ان هذه الحرب انتهت في السابق بـ«معاهدات غير متكافئة» فرضها الغرب على سلالة فاسدة وضعيفة. لكن الانتصار الصيني لن يكون كاملاً إلا بعد عودة ماكاو المقررة في ١٩٩٩، وخصوصًا عودة تايوان التي يبقى إلحاقها بالصين الهدف الأهم في نظر بكين.

ورغم ارتداء الجزيرة حلة العيد وترحيب سكانها، بصورة عامة، بحدث العودة إلى الوطن، لم تتنبه الصين إلى ان الضجة التي تضفيها دعايتها على دخول ٤ آلاف جندي هونغ كونغ مع اسلحتهم ومدرعاتهم قد يحيي مخاوف لدى سكان الجزيرة لم تكد تهدأ.

ويعتبر رئيس المجلس التنفيذي لهونغ كونغ، تونغ تشي هوا، أن من الطبيعي ان تؤكد الصين بهذه الطريقة سيادتها الجديدة على الجزيرة المستعادة. وسيكون عليه ان يفعل الكثير لطمأنة السكان المعتادين على صحافة حرة وعلى مستوى معيشي هو من الأعلى في العالم. ويحتفظ معظم سكان هونغ كونغ عن إبداء موقفهم منذ الآن. وكثيرون منهم واثقون بأنهم هم الذين سيغيرون الصين التي باتت منفتحة على الخارج، لا العكس (عن تعليقات وكالات الأنباء العالمية).

أول إجراء عميق لحكومة هونغ كونغ الجديدة: بعد اسبوع واحد على عودة هونغ كونغ إلى الصين، صدر بيان رسمي جاء فيه ان حكومة هونغ كونغ عاكفة على دراسة مشروع قانون يقضي بتعليق العمل بسبعة قوانين كان الحكم البريطاني السابق أقرها، وذلك بقصد «السماح بإجراء فحص شامل ومناسب لآثار التغييرات المختلفة لتلك القوانين لتحديد ما إذا كانت في صالح الشعب (...) أو فيما إذا كانت تمثل انحرافًا كبيرًا عن سياسات الحكومة وربما تفضي إلى آثار سلبية على المدى الطويل على المجتمع». ومعظم هذه القوانين متعلق بالعمل والعمال.

ماكاو

الاسم: ماكاو Macao هو الاسم المعروف والمعتمد منذ دخول البرتغاليين إليها في ١٥٥٧. أما الاسم الصيني فهو آو-مِن Ao-Men.

الموقع: ماكاو عبارة عن ثلاثة جزر في بحر الصين، قريبة جداً من الشاطىء الصيني الجنوبي. وهي: جزيرة ماكاو (العاصمة)، وجزيرتا تايبا Taipa وكولوين Coloane. تبعد هذه الجزر نحو ٦٤كلم فقط عن هونغ كونغ.

المساحة: ١٦كلم م.

السكان: يبلغ تعدادهم نحو ٣٨٥ ألف نسمة. الغالبية العظمى من سكان هذه الجزر كانوا في السابق من التجار والمبشرين البرتغاليين. أما اليوم فإن غالبيتهم العظمى من الصينيين (٩٢٪)، وهناك ٢٪ من البرتغاليين و٦٪ من جنسيات مختلفة. نحو ٤٥٪ من السكان يعتنقون البوذية، و٨٪ الكاثوليكية، و٢٪ البروتستانتية، والباقون (٤٥٪) بدون معتقد ديني.

اللغات: الصينية، البرتغالية والانكليزية.

الحكم: ماكاو إقليم صيني تديره السلطات البرتغالية. والدستور المعمول به صادر في ١٧ شباط ١٩٧٦، ومعدّل في ١٩٩٠. يعين الرئيس البرتغالي حكومة ماكاو بعد استشارة السلطات المحلية. الحاكم الحالي هو الجنرال فاسكو روكا فيرا، وقد عين في ٢٣ نيسان ١٩٩١، يعاونه سبعة أمناء يعينهم الرئيس البرتغالي كذلك. وهناك المجلس الاعلى للامن (١٢ عضواً)، وجمعية تشريعية من ٢٣ عضواً (١٦ منتخبين و٧ معينين) مدة ولايتها ٤ سنوات، ومجلس استشاري. وليس في ماكاو من أحزاب، ومجال نشاط المواطنين ينحصر في جمعيات مدنية.

في ١٩٨٦، اتفقت البرتغال والصين على عودة ماكاو للصين (على ان تتمتع بادارة خاصة) في ٢٠ كانون الاول ١٩٩٩. وهكذا تستعيد الصين ماكاو بعد نحو سنة ونصف من استعادتها هونغ كونغ من بريطانيا.

الاقتصاد: كانت ماكاو مركزاً ممتازاً للقرصنة وتجارة الأفيون. ويرتكز اقتصادها حاليّا على التجارة البحرية وصيد الاسماك والسياحة. وصناعتها الاساسية عود الكبريت والألعاب النارية المستخدمة للزينة.

٣٣٪ من يدها العاملة تعمل في الصناعة وصيد الاسماك (٤٦٪ من الدخل العام)؛ و٨٪ في قطاع البناء (١١٪)، و٢٢٪ في السياحة (٣٣٪)، و٤،٧٪ في قطاع المصارف والمال، و٣٣٪ في التجارة والخدمات.

نبذة تاريخية: في ١٥٥٧، أعطت الصين ماكاو للبرتغال مكافأة لها على المساعدة التي قدمتها للامبراطور الصيني في حربه ضد القرصان تشانغ تسي لاو. فشكلت ماكاو، بعد ذلك، أول مركز أسس في القرن السادس عشر للتجارة بين الصين واوروبا. وكان على البرتغاليين، طيلة قرون، دفع ضرائب ورسوم للحكومة الصينية. واضطرت الصين، في ١٨٨٧، ان توقع معاهدة تعترف فيها بسيادة البرتغال على ماكاو، ولكن الحدود بقيت مبهمة ولم يجرِ ترسيمها.

في كانون الاول ١٩٦٦، وإبان الثورة الثقافية في الصين، نزل عدد من عناصر الحرس الأحمر (قادمين من جهة المحيط) بماكاو ونظموا مظاهرات ضد رفض حاكمها السماح بفتح مدرسة صينية فيها. وفي هذا العام، تخلى الحاكم عن السلطة السياسية لكنه احتفظ بالسلطة الادارية بطلب من الصين نفسها خشية ان يكون لهذا الوضع في ماكاو مضاعفات مضرة بأوضاع هونغ كونغ المالية. وبعد ثورة ١٩٧٤ في البرتغال، منحت الحكومة البرتغالية الجديدة المزيد من الحكم الذاتي لماكاو، فحلّ نظام الاقليم محل النظام السابق الذي كان يعتبر ماكاو مقاطعة برتغالية ما وراء البحار. وفي تموز ١٩٧٥، جرت محاولة عسكرية فاشلة. وفي ٣٠ كانون الاول ١٩٧٥، غادرت الحامية البرتغالية ماكاو؛ وبعد يومين (الاول من كانون الثاني ١٩٧٦)، أنشئت قوة أمنية محلية. وفي ١٩٨٦، اتفقت الدولتان، الصين والبرتغال على ان تعود ماكاو صينية اعتباراً من ٢٠ كانون الاول ١٩٩٩.

تايوان

(راجع «تايوان»، ج٦، ص١٥٩-١٧٠؛ والوارد هنا إضافات تستكمل مختلف أبواب المادة).

ذرائع تاريخية لاستدامة الانفصال: نادرًا ما تتحدث وثائق الأسر الامبراطورية الصينية عن تايوان. وهناك ذكر لحملة من ١٠ آلاف رجل أرسلها امبراطور الصين في العام ٢٣٩ق.م. لاكتشاف الجزيرة. وهذا الحدث هو الذي يعتمده بعض زعماء تايوان حاليًا، من الذين يطالبون بعدم ضم تايوان إلى الصين وإبقائها دولة مستقلة، لتأكيد حق بلادهم التاريخي المبني على اساس مبدأ الاكتشاف. وفي فترة حكم أسرة تانغ (٦١٨-٩٠٧) حدثت بعض الهجرات الصينية إلى تايوان. وهي هجرات لا تبرّر، برأيهم، ضم الجزيرة إلى «الارض الأم». وكذلك، في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، حينما حكم المغول الصين، بقيت تايوان خارج سلطتهم. وفي ذلك الوقت، كان القراصنة الصينيون والقراصنة اليابانيون يتقاتلون للسيطرة عليها، وانتهى الامر بخضوع الجنوب الشرقي من الجزيرة لسلطة الصين وبقيت الشطآن الشمالية تحت السيطرة اليابانية. وفي ١٥١٧، أطلق عليها البحارة البرتغاليون، وهم في طريقهم إلى اليابان، إسم «إيها فورموزا» ومعناه «الجزيرة الجميلة».

خضعت تايوان لحكم الصين بين ١٦٨٣ و١٨٨٦، وكانت تعتبر جزءًا من مقاطعة فوجيان الصينية، وكان يحرم على سكان الصين الهجرة إليها. وفي اوائل القرن التاسع عشر، اقترح مندوب الولايات المتحدة في اليابان، تاونسند هاريس، على حكومته ان تفاوض الصين لشراء الجزيرة، وردت الصين بنفي أي مسؤولية عن تايوان، ففسرت الولايات المتحدة ذلك ان الصين لا تعتبر تايوان جزءًا منها. وكذلك، عندما احتجت اليابان في ذلك الوقت على سوء معاملة بحارتها من قبل التايوانيين ردت الصين بأنها لا تستطيع ان تتحمل المسؤولية. وكان المبعوثون الصينيون إلى الجزيرة لا يتكلمون اللغة المحلية، ولم يقوموا بأي شيء لخدمة الصالح العام، بل كان الهدف من وجودهم إبقاء السيطرة الاسمية للصين على الجزيرة.

ولم تول الصين أهمية للجزيرة إلا عندما اندلعت أعمال فوضى وشغب في جنوبي الصين ما هدّد حكم أسرة مانشو للبلاد. ولما حاصر الفرنسيون الجزيرة وقصفوها بمدفعيتهم بسبب خلافهم مع الصين حول الهند الصينية أدرك قادة بكين الاهمية الاستراتيجية للجزيرة فاعادوا تنظيم الامور فيها بجدية وعينوا حاكمًا فعليًا عليها. كان ذلك في ١٨٨٤. وبعد عامين اعتبرت بكين ان تايوان مقاطعة صينية. لكن حكم الصين لتايوان لم يدم طويلاً، فقد اندلعت الحرب بين اليابان والصين في ١٨٩٤، وخسرت بكين الحرب بسرعة. وبموجب اتفاق مع طوكيو تخلت الصين عن جزيرة تايوان لليابانيين، واعتبر ذلك «إلى الأبد». وعندما وصلت أنباء الاتفاق إلى التايوانيين أعلن قادتها عن تأسيس الجمهورية التايوانية المستقلة. وكانت بذلك أول جمهورية في آسيا. لكن اليابانيين سرعان ما حولوها إلى مستعمرة، وفشلت جهود رجال المقاومة التايوانيين في إقناع الصين بدعمهم ومساعدتهم.

ومع الوقت تحولت الجزيرة إلى «حاملة طائرات غير قابلة للغرق» كما كان يحلو لليابانيين ان يسموها. وأصبحت تايوان رأس جسر في انطلاقة الجيوش اليابانية جنوبًا عندما احتلت الفيليبين وبعض الدول الآسيوية الأخرى («الحياة»، العدد ١٢٠٨٩، تاريخ ٣١ آذار ١٩٩٦، ص١٣).

الولايات المتحدة مع ضم تايوان إلى الصين (١٩٤١-١٩٥٠) ثم الحرب الكورية التي غيرت الموقف: أثناء الحرب العالمية الثانية اتفقت الولايات المتحدة الاميركية مع حليفها تشيانغ كاي- تشيك، رئيس الجمهورية الصينية، في مؤتمر عقد في القاهرة عام ١٩٤١، على طرد اليابانيين من جميع الاراضي الصينية بما فيها تايوان، ومن ثم ضم تايوان إلى الصين. ومع انتهاء الحرب بانتصار الحلفاء ألحقت تايوان بالصين تحت قيادة تشيانغ كاي-تشيك.

وجاءت الحرب الاهلية بين الكومنتانغ (بزعامة رئيس جمهورية الصين الوطنية تشيانغ كاي-تشيك) وبين الشيوعيين (بزعامة ماو تسي تونغ)، بعد تحالفهما ضد اليابان أثناء الحرب، لتسفر عن نصر ساحق للشيوعيين وفرار تشيانغ كاي-تشيك (ونحو مليون ونصف صيني) إلى تايوان بعد سقوط البر الصيني برمته في أيدي قوات ماو تسي تونغ وشو إن لاي التي بدأت تستعد لتوها للهجوم على تايوان، خاصة بعد توقيع الحكم الشيوعي الجديد معاهدة دفاعية مع الاتحاد السوفياتي في ١٤ شباط ١٩٥٠. وفي الوقت نفسه، لم تكن قوات «الصين الوطنية» (تشيانغ كاي-تشيك) تنتظر الكثير من حليفتها الولايات المتحدة

الاميركية، إذ قرّر، حينها، الرئيس الاميركي هاري ترومان، اتباع سياسة «كف اليد» بانتظار ما سيؤول الأمر إليه نهائيًا في الصينين المعلنين: «الصين الشعبية» (الشيوعية) و«الصين الوطنية» (الكومنتانغ).

لكن حرب الكوريتين، التي اندلعت في ٢٥ حزيران ١٩٥٠، فاجأت الطرفين الصينيين ومعهما الولايات المتحدة، وقلبت المواقف. ففي هذا التاريخ قرّر الزعيم الشيوعي الكوري الشمالي كيم إيل سونغ، مدفوعًا من ستالين، مهاجمة كوريا الجنوبية واحتلال عاصمتها سيول. فشهدت الاستراتيجية الاميركية في آسيا، وعلى الفور، انعطافًا كاملاً في الموقف هناك طال على وجه الخصوص اليابان وتايوان. فردّت الولايات المتحدة على الهجوم بكل قواها برًا وبحرًا وجوًا، وأمر ترومان الاسطول السابع الاميركي بالتوجه إلى مضيق تايوان وحماية الجزيرة من أي هجوم شيوعي يتهددها، وأعلنت واشنطن ان «تحديد مستقبل فورموزا (تايوان) يجب ان يُنظر إليه بعد استتباب الأمن في الباسيفيك وبعد الانتهاء من الإجراءات السلمية في اليابان (وكانت الولايات المتحدة لا تزال تحتلها)، والأخذ بعين الاعتبار وجهة نظر الولايات المتحدة في هذا الموضوع حيث ستقوم الولايات المتحدة بتقديم الدعم العسكري لكل حلفائها في جنوب شرقي آسيا».

وأدّت تطورات الحرب الكورية التي خاضها الاميركيون خصوصًا ضد الـ ٢٠ ألف «متطوع» الذين جاؤوا من الصين لمساعدة الكوريين الشماليين إلى تصميم الولايات المتحدة على مساعدة تايوان لبناء قدراتها العسكرية. ووصل، في ٢ آذار ١٩٥١، وفد عسكري اميركي ليستقر في الجزيرة بصورة رسمية، وكان من مهماته بناء قوات الصين الوطنية وتدريبها. وفي عهد الرئيس الاميركي أيزنهاور، تسارع زخم المساعدات الاميركية لتايوان، خاصة وان وزير خارجيته جون فوستر دالاس كان يكن العداء الشديد للشيوعيين. فأدرجت تايوان في عداد الدول التي اعتبرها الاميركيون في الخط الاول لمواجهة الشيوعية في غربي المحيط الباسيفيكي، أي من اليابان وجنوبي كوريا شمالاً حتى الفيليبين والهند الصينية جنوبًا. وقد زُوّدت تايوان بالدعم اللازم ليس فقط للدفاع عن نفسها، بل لاستعادة الارض الام إذا أمكنَ ذلك. وفي ٢ كانون الاول ١٩٥٤، وقعت الولايات المتحدة وتايوان اتفاقًا للدفاع المشترك. وبعد عام (١٩٥٥)، اقر الكونغرس الاميركي حق الرئيس أيزنهاور بـ«اللجوء إلى القوة العسكرية للدفاع عن فورموزا (أو «الصين الوطنية»)، ولم

تشيانغ كاي تشيك.

يكن الاميركيون يستعملون إسم «تايوان») ضد أي هجوم عسكري، وإن من حق الرئيس تقرير ذلك والحكم بضرورته».

وحرب فيتنام عززت دور تايوان في الاستراتيجية الاميركية: بقيت الولايات المتحدة على سياستها هذه خلال عهود الرؤساء الاميركيين كينيدي وجونسون، وإلى حد كبير نيكسون وفورد. إذ جاءت الحرب في الهند الصينية، وخاصة في فيتنام، في الستينات واوائل السبعينات، لتعزز قيمة تايوان الاستراتيجية نظرًا إلى الدور الذي لعبته كقاعدة خلفية للقوات الاميركية في المنطقة. فخلال حرب فيتنام كان هناك ١٠ آلاف من الجنود والخبراء الاميركيين في تايوان في إطار سياسة اميركية ضامنة لوجود هذه الجزيرة ولاستقلالها وإبعاد كل خطر عليها من الصين الشعبية. فتحول الجيش التايواني إلى قوة اقليمية حديثة، واصبحت اللغة السياسية التايوانية هي التي تهدد الصين الشعبية وتقول بـ«تحريرها».

وكان يقابل هذا التصاعد التايواني في القدرة العسكرية والدور السياسي تدهور في حال جيش الصين الشعبية، وتراجع في الاقتصاد الصيني بسبب فشل خطة ماو عبر «القفزة الكبرى إلى الأمام»، وبعدها «الثورة الثقافية»، وكذلك تدهور في العلاقات.

مراجعة في السياسة الاميركية: زيارة نيكسون: متغيرات دولية، في اوائل السبعينات، دفعت بالادارة الاميركية إلى إعادة النظر بسياستها إزاء الصين، خاصة وقد تبين لها من جهة ان النزاع الصيني-السوفياتي نزاع عميق وجوهري وليس عارضًا، ومن جهة ثانية ان الخروج من المأزق الفيتنامي قد يفترض محاولة كسب ود الصين لمواجهة القوة المتعاظمة للسوفيات ونزعتهم التوسعية.

لهذا قام الرئيس الاميركي، نيكسون، برحلته التاريخية إلى بكين في شباط ١٩٧٢، والتقى ماو تسي تونغ، ودار الحديث بينهما حول تطبيع العلاقات بين الجانبين. وجهد نيكسون، وبعده فورد، على ان يكون التطبيع مقبولاً ايضًا من الصين الوطنية (تايوان). لذلك لم تستجب الادارة الاميركية لمطالب بكين حول إلغاء معاهدة الدفاع المشترك المبرمة بين الولايات المتحدة وتايوان في ١٩٥٤ من دون ان تأخذ وعدًا قاطعًا وصريحًا من أن الصين لن تلجأ إلى القوة لحل مشكلة تايوان.

كارتر يطبّع العلاقات مع الصين والجمهوريون يتصلبون: لما تسلم الرئيس جيمي كارتر سدّة الحكم في الولايات المتحدة سارع إلى الاعلان ان العلاقات مع الصين اصبحت طبيعية. وبعد ذلك، جرت الموافقة على منح الصين مقعدًا دائمًا في مجلس الامن مع حق النقض (فيتو). وكذلك، ألغى كارتر المعاهدة الدفاعية مع تايوان، وقبل شروط بكين بايقاف المعونات العسكرية إلى الجزيرة لمدة عام واحد.

انتقده الحزب الجمهوري الاميركي بشدّة في الكونغرس، وهاجم سياسته المتعلقة بتايوان. وأصدر الكونغرس مسودة قرار عُرف بـ«قانون العلاقات مع تايوان»، وأريد به ان يكون بديلاً عن معاهدة الدفاع المشترك الملغاة، ومما جاء فيه ان الولايات المتحدة «ستبقي في المنطقة (المحيط الباسيفيكي) قوة عسكرية كافية لردع أي اعتداء يهدد أمن شعب تايوان وبحبوحة اقتصاده».

ومع انتصار الحزب الجمهوري في انتخابات ١٩٨٠، وتبوء الرئيس رونالد ريغان سدة الحكم الاميركي، عادت آمال التايوانيين بعودة السياسة الاميركية المتصلبة من الصين، تغذيها الانتقادات المستمرة التي وجهها ريغان إلى سلفه كارتر متهمًا إياه بتقديم تنازلات إلى الصينيين مضرة بمصالح الاميركيين وأصدقائهم التايوانيين، ومؤكدًا تمسك الولايات المتحدة بأمن تايوان. إلا ان الخطوات التي تمت على طريق العلاقات الاميركية-الصينية كانت بمقدار من الثبات، المدعوم بتطورات وتغيرات والتقاء مصالح الدولتين، جعلها متصاعدة بصورة عامة وإن كان يشوبها احيانًا بعض التقطع المشوب بالتوتر. والتطورات الصينية، خاصة في الحقل الاقتصادي، في مرحلة ما بعد ماو تسي تونغ، لعبت دورًا اساسيًا في الابقاء على تطبيع العلاقات اولاً، ثم في دفعه نحو مزيد من نقاط الالتقاء.

فبدءًا من ١٩٩٤-١٩٩٥، أخذ المسؤولون الصينيون يكثرون من توجيه «رسائل» سياسية معتدلة بشأن تايوان، مفادها ان المهم لديهم ان تكون هناك دولة صينية واحدة، ومن الممكن البحث في كل المواضيع المتعلقة بإيجاد وضع خاص لتايوان إلا مسألة ان تكون هناك دولتان صينيتان، وأن الرغبة في الوحدة مع الوطن الأم موجودة في تايوان لدى أبنائها ولكن هناك بعض القوى السياسية التي تؤيدها الولايات المتحدة تعارض الوحدة. وكانت الحكومة الصينية فتحت المجال واسعًا للتايوانيين للاستثمار في الصين منذ ١٩٩٠. وبلغت استثماراتهم في اوائل ١٩٩٦ قرابة ٣٠ بليون دولار يتركز معظمها في مقاطعة فوميان الصينية المقابلة للجزيرة على الطرف الآخر للمضيق.

عاصفة آذار ١٩٩٦: مناورات عسكرية صينية والانتخابات رئاسية تايوانية: (مقدمةً لهذا الموضوع، راجع «تايوان»، ج٦، ص١٦٦ تحديدًا. وفيها: زيارة الرئيس التايواني لي تنغ هيو لواشنطن، والموقف في العواصم الثلاثة: تايبي، بكين وواشنطن).

في أجواء الانتخابات الرئاسية في تايوان (آذار ١٩٩٦)، وخشية ان تؤدي هذه الانتخابات إلى إعلان استقلال الجزيرة، صعّدت الحكومة الصينية موقفها وأعلنت عن إجراء مناورات للقوات البحرية والجوية بالذخيرة الحية في بحر الصين الجنوبي وبحر الصين الشرقي ابتداء من ٢٠ آذار (١٩٩٦)، وأكدت بكين (في ٩ آذار) ان «كارثة بالغة الخطورة ستحل بالتايوانيين وان اقتصادهم سيتعرض للتدمير التام إذا أعلنت تايوان استقلالها رسميًا». وفي اليوم التالي (١٠ آذار)، أعلن وزير الخارجية الاميركي وارن كريستوفر ان حاملة الطائرات الاميركية «أنديندنس» والسفن المرافقة لها «ستقترب من تايوان في الأيام المقبلة». وفي ١٢ آذار، ساد الذعر في صفوف سكان المناطق الساحلية في تايوان الذين أفاقوا على دوي انفجارات وهدير طائرات في إطار المناورات العسكرية الصينية بالذخيرة الحية. وجاء ذلك في وقت نفذت فيه الولايات المتحدة أضخم حشد عسكري لها في المنطقة منذ الحرب

الفيتنامية، وإعلان البنتاغون الاميركي عن إبحار حاملة الطائرات النووية الاميركية «نيميتز» من الخليج إلى المياه التايوانية لتنضم إلى حاملة الطائرات الاميركية.

وعلى الرغم من هذا التهديد الصيني، صوت التايوانيون (٢٣ آذار) لصالح لي تنغ هيو كرئيس للجمهورية. وكانت الصين عشية الانتخابات خففت من تهديداتها، كما كثر حديث المسؤولين التايوانيين عن ضرورة البحث عن «طرق لتخفيف التوتر وإعادة بناء قاعدة جيدة من التعامل بين الجانبين».

تخفيض حدة التوتر (كرونولوجيا ١٩٩٧- شباط ١٩٩٨): في آذار ١٩٩٧، بدأ البرلمان الصيني مناقشة مشروع قانون دفاعي يهدف إلى تفادي وقوع اضطرابات داخلية مسلحة وحركات «انفصالية» وليس إلى حماية البلاد من غزوات عسكرية خارجية. والمناطق المستهدفة بمشروع القانون، إلى جانب تايوان، الاقاليم الحدودية، أي التيبت وكسينجيانغ ومنغوليا الداخلية.

في اليوم التالي لعودة هونغ كونغ إلى الصين (آخر حزيران ١٩٩٧)، قال الرئيس الصيني جيانغ زيمين إن فكرة «إعادة الوحدة الكاملة وإنهاض الامة الصينية باتت أمرًا حليًا»، وطلب من سلطات تايوان «اتخاذ تدابير ملموسة في هذا الإطار». لكن حكومة تايبه شددت على سيادتها وتمسكها بالاستقلال، ورفضت القبول بنظام مماثل لنظام هونغ كونغ للانضمام إلى الصين على أساس مبدأ «بلد بنظامين» وهي الصيغة التي كان اقترحها الزعيم الصيني دينغ كسياو بينغ، وطبقت مع هونغ كونغ.

وبخلاف حكومة تايبه، بدا مندوبو تايوان إلى مؤتمر الحزب الشيوعي الصيني (ايلول ١٩٩٧) واثقين من إمكان التوصل إلى توحيد الصين «في المستقبل القريب».

وفي اطار اتفاق بين طوكيو وواشنطن (ايلول ١٩٩٧)، بعد نحو عامين من المفاوضات، حول أسس جديدة للتعاون الدفاعي في المنطقة، حذّرت الصين البلدين من مغبة وضع تايوان تحت المظلة الامنية الاميركية-اليابانية معتبرة تايوان «خطًا أحمر».

في تشرين الثاني ١٩٩٧، وبعد نحو عامين من تعليق المحادثات بين بكين وتايبه إثر زيارة قام بها الرئيس التايواني لي تنغ هيو للولايات المتحدة (١٩٩٥). دعت الخارجية الصينية إلى «تسريع النقاشات السياسية بهدف وضع حد للعداء القائم بين الجانبين»، كما أعلن الرئيس التايواني ان حكومته مستعدة لمزيد من الليونة في علاقتها مع بكين شرط ان يمنح الجانبان وضعًا متساويًا خلال المفاوضات وليس على أساس اعتبار تايوان مقاطعة صينية.

وبدأت سنة ١٩٩٨ على أحاديث من الجانبين تتناول دعوات زيارات متبادلة لمسؤولين وإقامة ندوات دراسية تتناول خاصة موضوع التعاون الاقتصادي. لكن هذه الأحاديث رافقتها، في أحيان كثيرة، أحاديث عسكرية مثل استكمال تايوان نشر أنظمة صواريخ «باتريوت» الاميركية الصنع المضادة للطائرات والصواريخ في النصف الثاني من هذه السنة (١٩٩٨).

كتب التاريخ ووطنية تايوانية وليدة: السؤال الأساسي الذي طالما طرحه ويطرحه التايوانيون على أنفسهم: هل الجزيرة التي يسكنها ٢١ مليون نسمة أمة في ذاتها، أو محافظة صينية بعيدة عن الشاطىء؟

هذا السؤال كان وراء كتب التاريخ التي اعتمدت في مدارس تايوان منذ أيلول ١٩٩٦، واستمر مطروحًا بعد اعتمادها وبصورة حادة خاصة بين وزارة التربية وبين المحافظين الذين يرون ان كتب التاريخ المعتمدة جزء من جهد لتسميم العقول الشابة بمفهوم ان الجزيرة منفصلة عن الصين. ونظم المحافظون تظاهرات في تموز ١٩٩٧ وهدّدوا باحراق مبنى وزارة التربية، فأثار ذلك دعاة الاستقلال الذين قالوا إن المتظاهرين يجب أن يعدموا.

فقد كانت تايوان جزءًا من الصين قرونًا عدة لكنها سلخت عنها قبل نحو مائة سنة، فصارت أولاً مستعمرة يابانية، ثم قاعدة للصينيين القوميين «الكومنتانغ» (بزعامة تشيانغ كاي تشيك) الذين حكموا الصين إلى أن أطاحهم ماو تسي تونغ في ١٩٤٩. وأصرّ القوميون اللاجئون إلى تايوان على انهم يمثلون الحكومة الشرعية للصين وحوّلوا الجزيرة نسخة مصغرة عن أرضهم التي أبعدوا عنها، وقمعوا أي توجه انفصالي، واعتبروا كل دعوة إلى الاستقلال خيانة. وكان من السمات الأساسية لسياسة الرئيس الحالي لي تنغ هيو (وهو أول رئيس ينتخب من أصل تايواني، ومولود في تايوان) انه سعى جاهدًا لفك الارتباط بين سياسة حزبه الحاكم (الكومنتانغ) في الماضي، أي منذ ١٩٤٩، وبين سياسته الحالية الديمقراطية الاستقلالية. فقد قام في ١٩٩٥ بتقديم إعتذار إلى الشعب التايواني عمّا أصبح يعتبر رمزًا لطغيان الحزب القومي، أي مذبحة الـ ٢٠ الف تايواني التي نفذها رجال الحزب في ١٩٤٧ عندما احتشدت جموع المثقفين والمهنيين لتحتج على صلافة القوميين وسوء معاملتهم. وقد اقيم في تايبه حديقة ونصب

لي تنغ هيو.

تذكاري على أثر المذبحة.

وما إن انتهت الانتخابات الرئاسية (آذار ١٩٩٦) حتى علت الاصوات واحتدم نقاش بين مختلف التجمعات السياسية حول كتب التاريخ ومهمات الرئيس وأولوياته وما إذا كان يتوجب عليه العمل على الاستقلال التام عن الصين أم تسوية الاوضاع معها تمهيدًا لاعادة توحيد البلدين.

فالحزب التقدمي الديمقراطي، أكبر الاحزاب المعارضة ويتزعمه بانغ مينغ مين (حصل على ٢١٪ من الاصوات في الانتخابات الرئاسية)، يطالب بالاستقلال، كما يدعو الحزب القومي (أو الوطني، «كومنتانغ») إلى طي صفحة ماضيه وتبني مواقف القومية التايوانية.

فمحور الصراع الحالي بين النزعة الوطنية الصينية الغارقة في القدم والوطنية التايوانية الوليدة، إلى أولويات الرئيس السياسية، هي كتب التاريخ المعتمدة حديثًا. ففي حين كانت الكتب القديمة تقول «إن توحيد الصين سلميًا هو أمنية صادقة لجميع الصينيين»، يقرأ التلامذة في الكتب الجديدة ان الجانبين «يريدان إرساء علاقات صداقة وسلام».

* **لي تنغ هيو** (١٩٢٣-): رئيس تايوان الحالي، وأول رئيس ينتخب بالاقتراع المباشر في تاريخ تايوان والصين. ولد في عائلة ريفية في شمالي تايوان. درس في جامعة كيوتو العريقة في اليابان، ثم في جامعة اميركية في ولاية إيوا، ثم عاد إلى تايبه ودرس في جامعة تايوان قبل ان يحصل على الدكتوراه من جامعة كورنيل، ويجيد الانكليزية والفرنسية واليابانية.

بدأ حياته السياسية في الادارة المحلية كاختصاصي في المسائل الزراعية وشغل منصب وزير بلا حقيبة من ١٩٧٢ إلى ١٩٧٨. وبين ١٩٧٨ و١٩٨١ شغل منصب رئيس بلدية تايبه، ثم اصبح حاكمًا لتايوان من ١٩٨١ إلى ١٩٨٤ قبل ان ينتخبه البرلمان نائبًا للرئيس في ١٩٨٤. وتمكن من فرض نفسه كقائد مستنير في مواجهة شيوخ الكومنتانغ القومي الذي يرأسه. وفي ١٩٨٤، أصبح بموجب القانون رئيسًا للبلاد. إثر وفاة الرئيس تشيانغ تشينغ كيو (ابن تشيانغ كاي تشيك). وبعد عامين، انتخبه البرلمان رئيسًا لمدة ستة أعوام، وأصبح في ١٩٩٠، أول رئيس معين للجزيرة من أصل تايواني. وفي آذار ١٩٩٦، أول رئيس في تايوان (وفي الصين عبر تاريخها) ينتخب بالاقتراع المباشر. حقق شهرته، من جهة بمعارضته للصين ووقوفه في وجه تهديداتها بالتدخل العسكري إضافة إلى سعيه الحثيث لتأكيد دور تايوان على الساحة الدولية، ومن جهة أخرى بقبوله مبدأ توحيد الصين بشرط ان تكون البلاد الصينية برمتها ديمقراطية ومزدهرة.

مدن ومعالم

* بكين (Pekin (Beijing: يعني الإسم «عاصمة الشمال». وهي عاصمة جمهورية الصين الشعبية. تعد نحو ٨ ملايين نسمة. تتمتع بكين، بموجب التقسيمات الادارية للبلاد، بوضعية «البلدية ذات الاستقلال الاداري الذاتي» والتابعة مباشرة للحكومة المركزية. مجموع سكان منطقتها البلدية يعدون نحو ١١،٥ ملايين نسمة. تاريخيًا، كانت المدينة عاصمة لاسرتي مينغ وكينغ الامبراطوريتين. بقربها أنشأ المنغول عاصمة امبراطوريتهم الصينية بدءًا من ١٢٦٧، وقد أطلق الرحالة الغربيون في القرون الوسطى، وخاصة ماركو بولو، على هذه العاصمة إسم كمبالوك Cambaluc الذي يعني «مدينة الكيهان».

في قلب بكين، ووراء ساحة تيانانمن، تقوم «المدينة المحرمة»، أو القصر الامبراطوري (كانت هذه المدينة محرمة لمئات السنين على الجميع في ما عدا الاباطرة وزوجاتهم وأبنائهم). كانت هذه المدينة-القصر المقر الدائم لأباطرة أسرتي مينغ وتشينغ (المانشو). والقصر أكبر البنايات المعمارية القديمة الموجودة في العالم. بدأ إنشاؤه من ١٤٠٦ وانتهى في ١٤٢٠، وأقام فيه (حتى ١٩١١) ٢٤ امبراطورًا. وتقول الوثائق الامبراطورية إنه في عهد امبراطور واحد هو «يونغ لي» سيق أكثر من ١٠٠ ألف من الفنيين وحوالي مليون من العمال للمشاركة في أعمال البناء. ويغطي القصر حوالي ٧٢٠ ألف متر مربع، منها ١٥ ألفًا للمباني وحدها، وله اربع بوابات في الشرق والغرب والشمال والجنوب.

لماذا كانت هذه المدينة-القصر محرمة؟

من استطلاع ميداني نشرته «العربي» (العدد ٣٥٦، تموز ١٩٨٨، ص٧٥ و٧٨) وعلى لسان كبير محرري دار النشر تشانغ فونشيانغ: «المعتقد الصيني القديم يتصور ان العالم عبارة عن مربع تتوسطه دائرة هي الصين، وبين المربع والدائرة تعيش شعوب من البرابرة والمتوحشين لا حول لهم إلا ان يكونوا تابعين للشعب الذي في داخل الدائرة. ويتوسط هذه الدائرة مستطيل متناسق الترتيب هو العاصمة، وفي داخل المستطيل سور داخلي يحيط بأرض مربعة هي المدينة الخارجية التي تضم بداخلها منطقة مستطيلة الشكل محيطها عشرون كلم، وهي المدينة الداخلية التي يقيم بها طبقات الشعب والايدي العاملة. وتطل المدينة الداخلية من الداخل على المدينة الامبراطورية البالغ محيطها ٩كلم، وفي جوانبها الاربعة تقوم ابواب الأسوار في تناسق تام على جانبي المحور من الداخل حيث ترتفع أسوار عالية، تفصل بينها وبين القصور الامبراطورية التي تعتبر كلها داخل نطاق المدينة المحرمة. وهذه المدينة المحرمة تتناثر فيها مجموعة من القاعات الكبيرة المنفصل بعضها عن بعض في تنسيق متناغم الترتيب تسمى كلها القصر الامبراطوري، وهذا القصر هو مركز القلب للمدينة المحرمة التي لا يدخلها إلا موظفو البلاط وعائلة الامبراطور وحاشيته وخدامه. على هذا القصر الحرام تشرق الشمس لتغمره بالأشعة والنعم، ومنه يشع السلطان المطلق للامبراطور، ابن السماء، على جميع انحاء الكون، فهو قلب الصين ومركز العالم، وهو للارض كلها بمثابة الشمس التي تحدّد مسيرة الحياة. ذلك هو سر تسمية المدينة المحرمة التي ما يزال هيكلها محافظًا على الشكل الذي كان عليه في عهد مينغ، وما يزال يحيط بها نفس الخندق المائي القديم بعرض ٥٠ مترًا، ويفصلها عن بقية أنحاء العاصمة بكين سور أرجواني اللون طوله ٤كلم وارتفاعه ١٠ أمتار».

تحوّلت الآن «المدينة المحرمة» إلى متحف مفتوح أمام الشعب والسياح، وهي تضم الكنوز والتحف الامبراطورية، وقد جلب أغلبها (إضافة إلى الموجود منها في المكان ذاته) من مختلف المقاطعات الصينية.

أما ساحة تيانانمن، فهي ساحة العاصمة الأهم والأوسع. كانت البوابة الأوسع للسور الامبراطوري، ويعني إسمها «باب السلام السماوي». بنيت في أوائل القرن الخامس عشر، وتعرضت للخراب، وأعيد ترميمها في ١٩٨٣. شهدت الساحة (ومنها انطلقت) أمهات الاحداث الكبرى في تاريخ الصين المعاصر: من تظاهرات طلاب وعمال بكين في ٤ ايار ١٩١٩، إلى إعلان ماو تسي تونغ قيام جمهورية الصين الشعبية في ١٩٤٩، إلى الثورة الثقافية، إلى مظاهرات ١٩٨٩... فيها نصب تذكاري يرمز للنضال ضد الاستعمار منذ حرب الأفيون، وعمود تذكاري للزعيم الصيني شو إن لاي، ومتحف الثورة الصينية، ومتحف التاريخ.

تاريخيًا، بكين هي سادسة العواصم الست القديمة بعد شيان (أو «كسيان») ونانكين ولويانغ وكايفنغ وهانغ شو. يعود تاريخ إنشاؤها إلى القرن الحادي عشر ق.م. عندما كانت عاصمة لدويلة «يان» في عهد الممالك المتحاربة، وكان إسمها «جي». وظلت هذه المدينة تتمتع بأهمية كبيرة في شمال الصين أكثر من ألف سنة، منذ قام الامبراطور تشين هوانغ بتوحيد كل الصين في ٢٢١ق.م.،

بوابة ومنصة ساحة «تيانانمن» (والاسم يعني «السلام السماوي»)، وعليها صورة ماو تسي تونغ ولافتتان تحييان «جمهورية الصين الشعبية» و«وحدة شعوب العالم». وتعتبر البوابة المدخل الرئيسي لـ«المدينة المحرمة». وامام هذه البوابة تمتد ساحة تيانانمن بمساحة تقارب نصف مليون متر مربع.

وامتد ذلك طوال عهود أسرة هان وسوي وتانغ. وعندما جاء كوبلاي خان وأعاد توحيد الصين أطلق على العاصمة إسم «دادو» أي «العاصمة الكبرى». وفي ١٣٦٨، صارت عاصمة لأسرة مينغ، ومن بعدها لأسرة تشينغ المنشورية.

بين ١٩٧٠ و١٩٨٠، شهدت المدينة تغييرًا جذريًا في تنظيمها المُدُني ببناء عدد كبير من الأحياء السكنية الحديثة.

* **تايوان Taiyuan** (غير تايوان الجزيرة): كان إسمها يانغكو سابقًا. عاصمة مقاطعة شانكسي. تعد نحو ٣ ملايين نسمة. آثار تاريخية مهمة. مركز صناعي للحديد والاسمنت والعقاقير والتجهيزات العسكرية. مناجم حديد، منغنيز، نحاس، قصدير، فحم وكبريت.

* **تيانانمن، ساحة**: راجع «بكين» في هذا الباب: مدن ومعالم.

* **الجسر القاري الأورو–آسيوي**: راجع «طريق الحرير» في باب معالم تاريخية.

* **جينان (أو تسينان) Jinan**: عاصمة مقاطعة شانغدونغ. تعد نحو ٢،٧٥٠ مليون نسمة. شهيرة ببحيرتها «دافنغ هو» (٤٧ هكتارًا). عقدة مواصلات. صناعة السيارات والآلات والإسمنت والأقمشة القطنية.

* **ديايو، جزر**: راجع «النزاع الصيني–الياباني» في باب معالم تاريخية.

* **زنغزو Zhengzhou** (تشنغ–تشيو سابقًا): عاصمة مقاطعة هينان. تعد نحو مليوني نسمة. عقدة مواصلات ومركز ثقافي مهم وآثار تاريخية عديدة. زراعات القمح والشعير والرز والذرة والقطن والتبغ. مناجم الفحم والبوكسيت والكاولين. صناعات نسيجية وغذائية. انها إحدى أقدم المدن الصينية، وكانت دخلت في حوزة أسرة شانغ.

*** سدّ الصين العظيم:** راجع «طريق الحرير» في باب معالم تاريخية.

*** سور الصين العظيم:** أبرز معلم تاريخي تشتهر به الصين. جزء من ماضي الصين العريق احتاج إليه الصينيون ليتحصنوا به في وجه بعضهم البعض وفي وجه برابرة السهوب والبلاد المجاورة القادمين من منغوليا. الجزء القريب من بكين زحفت نحوه العاصمة بتوسعها العمراني السريع والمستمر حتى اصبحت مجاورة له.

أكبر بناء دفاعي في الارض والمعلم الهندسي الوحيد الذي بناه الانسان والذي يمكن رؤيته بالعين المجردة من الفضاء الخارجي. ظهر تدريجًا إلى الوجود ابتداء من القرن السابع ق.م. كانت كل مملكة تبني سورًا دفاعيًا يحيط بعاصمتها إلى ان أتى امبراطور صعد إلى عرش أسرة كين سنة ٢٤٦ق.م. وأطلق على نفسه إسم شي هوانغ. كان عمره ١٣ عامًا، وكان اللقب الذي استخدمه ومعناه «الامبراطور الاول» مؤشرًا على نوع الحياة التي ستنتظره. فاستطاع ان يقهر الممالك الصينية واحدة تلو الأخرى على مدى ٢٠ عامًا حتى سقوط آخر خصومه. انجازاته العظيمة ووحشيته الكبيرة لم يكن لهما حدود، لكنه استطاع ايضًا ان يصنع للصين تاريخًا موحدًا وان يجمع اراضيها تحت سلطته. وبذلك أتيح للسور العظيم الذي لم يكن قد ظهر إلى الوجود بشكله الحالي ان يكتمل بعدما تحول إلى سلسلة متصلة من الاسوار المترامية التي لم يكن يربطها من قبل أي رابط.

لم يسلم السور العظيم من الثورات الكثيرة التي حدثت في الصين وكانت آخرها الثورة الثقافية في الستينات التي أباحت للفلاحين الحصول على حجارة الطابوق والحجارة المنحوتة لتعمير منازلهم، على اعتبار ان السور «رمز البورجوازية البائدة». وما لم يدمره الفلاحون والشيوعيون أثّرت فيه العوامل المناخية المتقلبة التي تراوح بين ٤٠ درجة مئوية في الصيف و٤٠ درجة مئوية تحت الصفر في الشتاء.

يمتد السور العظيم من معبر شانهايغوان على الساحل الشرقي إلى معبر جيايوغوان في صحراء غوبي في الغرب الذي كان يعتبر نقطة عبور مهمة لسالكي طريق الحرير ومركز جباية رئيسيًا للرسوم الجمركية.

لكن هذا البناء الدفاعي لم ينجح في لعب الدور

جانب من سور الصين العظيم.

الأساسي الذي أنشيء من اجله. فقد غزا المغول الصين وتجاوزوا السور ليصلوا إلى بكين حيث عملوا على مدى ٦٤ عامًا على توحيد الصين وإقامة أسرة يوان التي حكمت أوسع امبراطورية عرفها العالم آنذاك. وفي عهد أسرة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤) خضع السور لعملية ترميم وتحديث على مدى ٢٠٠ عام. وبعد سقوط تلك الأسرة تراجع الاهتمام بالسور العظيم.

وكان من الممكن ان يستمر التخلي عن الاهتمام بالسور، فيتعرض مع الوقت، وبعدما فقد أهميته الاستراتيجية والثقافية، إلى التهاوي ثم السقوط لولا صناعة السياحة الآخذة في الازدهار يومًا بعد يوم في العالم قاطبة، ولولا الحاجة الماسة إلى العملات الصعبة التي جعلت المسؤولين الشيوعيين يفتحون ابواب الصين أمام الزوار الاجانب والسياح.

ويحتاج السور العظيم إلى أكثر من ١،٥ بليون دولار من اجل ترميم الاجزاء الآيلة إلى السقوط. ولذلك تلتفت انظار السلطات الصينية إلى العالم الخارجي اليوم للحصول على المساعدة المالية اللازمة للحفاظ على هذه الاعجوبة الهائلة (عن ابراهيم خياط، من استطلاع من بكين، «الحياة»، العدد ١٢٣٣٩، تاريخ ٧ كانون الاول ١٩٩٦، ص١٤).

* شانغشا **Changsha**: تعد نحو ١،٧٥٠ مليون نسمة. مركز ثقافي (شهيرة بمسرحها «مسرح الظلال والدمى») وبمتحفها حيث تعرض الادوات والاواني البرونزية التاريخية. زراعة الرز والشعير والسورغو والبطاطا الحلوة والذرة. مناجم حديد ومنغنيز. صناعات نسيجية وميكانيكية وآلات. كانت عاصمة مملكة تشو. بالقرب منها، عثر المنقبون، في ١٩٧٢، على ثلاثة توابيت تعود إلى أسرة هان، وبداخلها فخاريات وأواني خشبية وأعشاب طبية ولوائح عليها مخطوطات ورسوم على قطع حريرية.

* شانغ شون **Chang-Chun**: عاصمة مقاطعة جيلين، على نهر سونغهوا جيانغ. تعد نحو ٣ ملايين نسمة. صناعة السيارات والاسمنت. بالقرب منها، مناجم فحم، وآبار للنفط والغاز الطبيعي. شهيرة باستوديوهاتها السينمائية.

* شانغهاي **Shanghai**: واقعة على نهر هوانغبو، على بعد ٢٧كلم من التقائه بنهر شانغ جيانغ. تعد نحو ١٠ ملايين نسمة. تتمتع، اداريًا، بوضعية البلدية المستقلة ذاتيًا والمتعلقة مباشرة بالحكومة المركزية. إجمالي مساحتها (مع مساحة المناطق البلدية التابعة لها) ٦٣٤٠كلم م.، وإجمالي سكانها نحو ١٦ مليون نسمة. إنها أكبر مدينة في الصين، وأهم موانىء البلاد. مركز جامعي (فودان، تونغجي) وثقافي: مسرح، متحف بلدي يضم مجموعة من

شانغهاي وبكين بين اكبر المدن في العالم (عن «الحياة»، العدد ١٢١٥٣، تاريخ ٤ حزيران ١٩٩٦، ص ١٦).

التحف البرونزية التاريخية النادرة، ورسوم وخطوط، وقطع البورسلين.

تقع في قلب منطقة غنية وخصبة: الرز، القمح، القطن، الخضار، الحليب ومشتقاته، صيد الاسماك... وتمتلك شانغهاي إرثًا تجاريًا وصناعيًا طويلاً. وكان لفتح مينائها على الخارج بموجب معاهدة نانكين ١٨٤٢ (حرب الأفيون)، ثم لجمل التنازلات والامتيازات التجارية المقدمة للدول الاوروبية بدءًا من ١٨٤٥، ان جعل من شانغهاي «جنة التجار المغامرين». فارتفعت على ضفة نهر بوند (أحد روافد نهر هوانغبو) العمارات المخصصة لاحتواء مكاتب الشركات التجارية الكبرى، أو مكاتب الادارات. صناعاتها الحالية: حديدية، بتروكيمائية، الكتروميكانيكية، سيارات، صناعات خفيفة، أقمشة، عقاقير، أسمدة ومبيدات للحشرات. وفيها ايضًا أحواض لصناعة السفن، ومجمعات لصناعة الأدوات والآلات التي تستلزمها سكة الحديد. وعرفت المدينة في السبعينات والثمانينات تطورًا هائلاً بفضل سياسة الانفتاح التي اطلقتها الحكومة المركزية: إنشاء مناطق للتنمية الاقتصادية والتكنولوجية سميت مناطق خاصة، أهمها «منطقة بودونغ الخاصة».

* **شنغدو Chengdu**: عاصمة مقاطعة سيشوان. تقع على نهر مين جيانغ. تعد نحو ٤ ملايين نسمة. مركز ثقافي (مسرح) وجامعي. عقدة مواصلات ومركز صناعي: صناعات ميكانيكية والكترونية، واشغال يدوية (باستعمال الحرير). عاصمة مملكة شو (القرن الثالث).

* **شنيانغ Shenyang**: كانت تسمى موكدن. تقع على بعد ٦٠٠ كلم من بكين. عاصمة مقاطعة لياونينغ. تعد نحو ٦ ملايين نسمة. مركز صناعي واقتصادي مهم في المنطقة الشمالية-الشرقية من الصين. عقدة مواصلات. عاصمة منشوريا قديمًا.

* **شونغكينغ Chongqing**: تقع عند ملتقى نهري شانغ جيانغ وجيالينغ جيانغ. تعد نحو ٤ ملايين نسمة. مرفأ نهري مهم ومركز صناعي: أقمشة (حرير)، كيميائيات، ميكانيك، إسمنت. مركز هيدروليكي. زراعات الرز والقمح والذرة والشاي. عاصمة مملكة «با» (في ايام أسرة شونغ كيو). عاصمة الحكومة الوطنية (حكومة تشيانغ كاي تشيك المعادية للشيوعيين) خلال الحرب العالمية الثانية.

* **شيجيازوانغ Shijiazhuang**: عاصمة مقاطعة هيباي. تعد نحو ٢،٥ مليون نسمة. عقدة مواصلات. صناعة نسيجية، وعقاقير. زراعة القطن والقمح والذرة.

* **غوانغ-زو Guang-Zhou**: يسميها الغربيون كانتون Canton. عاصمة مقاطعة غوانغدونغ. تقع على نهر زو جيانغ (أو «نهر الجواهر»). تعد ٥ ملايين نسمة. سوق زراعي (الحنطة، الفواكه). صناعة نسيجية ويدوية. تاريخيًا، كانت المدينة ميناء مفتوحًا للتجارة مع الخارج في ايام أسرة كين وأسرة هان، وكانت معروفة من التجار العرب منذ أيام أسرة تانغ. دخلت السفارات البرتغالية، ثم الارساليات الاوروبية، إلى الصين عبر مدينة كانتون، وذلك في القرن السادس عشر. وفي ١٨٦١، في أعقاب حرب الأفيون الثانية، أقام البريطانيون والفرنسيون مراكز تجارية لهم، بعد حصولهم على امتيازات، في جزيرة شاميان. ومن كانتون انطلقت الثورة التي قضت على أسرة كينغ المنشورية في ١٩١١.

* **غيانغ Guiyang**: عاصمة مقاطعة غيزو. تقع على نهر نانمينغ (أحد روافد شانغ جيانغ). تعد نحو ٢،٥ مليون نسمة. مركز صناعي: صناعة الادوات النظرية. بالقرب منها، مناجم البوكسيت (إحتياطي يقدر بنحو ٢١٠ ملايين طن).

* **فوزو Fuzhou**: عاصمة مقاطعة فوجيان. تقع على نهر مين جيانغ. تعد نحو ١،٧٥٠ مليون نسمة. مركز مهم للانتاج الزراعي (الحنطة، الزيوت، الفواكه). صناعة السكريات (قصب السكر). ميناء صيد. تجارة بحرية. تعرضت للقصف على يد الأميرال كوربي في ١٨٨٤.

* **كانتون Canton**: راجع «غوانغ-زو» في هذا الباب: مدن ومعالم.

* **كسيان Xian**: تدعى ايضًا سينغان. عاصمة مقاطعة شاأنكسي. تعد نحو ٤ ملايين نسمة. المجموعة المسلمة تشكل غالبية سكانها. لا تزال المدينة (وجوارها) تحافظ على مواقع أركيولوجية وتاريخية مهمة: «معابد الأوزة المتوحشة»، آثار قصور اسرة الهان وأسرة تانغ، أسوار عالية، بوابات وأبراج أسرة مينغ، مساجد، موقع

يعود إلى العصر النيوليتي (في بانبو)، مقبرة امبراطورية ومتحف في كسيانيانغ، متحف يضم «غابة العصور» (أكثر من ألف نوع) أهمها الأنواع من الآثار المتبقية من ايام النساطرة حيث هناك لوحة تؤرخ إقامة أول كنيسة مسيحية في العام ٦٣٨ (في أيام اسرة مينغ). في ١٩٩٣، افتتح متحف تاريخي يضم مجموعة قيّمة من جدرانيات وجدت في مقابر أسرة تانغ المتناثرة في جوار المدينة.

المدينة مركز صناعي: كيميائيات، نسيج وتجهيزات عسكرية، اشغال حرفية. عقدة مواصلات. سياحة. جامعة.

تاريخيًا، كانت تدعى قديمًا شانغان، عاصمة امبراطورية خاصة في ايام أسرتي هان وسوي وأسرة تانغ. كانت المدينة مزدهرة جدًا وكان عدد سكانها يبلغ نحو مليون نسمة عندما كانت نقطة انطلاق لـ«طريق الحرير»، وكانت مركزًا ثقافيًا وفنيًا لامبراطورية قوية. شهيرة، في تاريخها المعاصر، بـ«حادثة كسيان» التي وقعت في ١٩٣٦- حيث أُلقي القبض على تشيانغ كاي تشيك و لم يتم الافراج عنه إلا بعد قبوله التفاوض مع الشيوعيين الذين استفادوا إلى أقصى حدّ من هذه الحادثة (راجع معالم تاريخية).

* **كونمينغ Kunming**: يعني إسمها «جنوب الغيوم». عاصمة مقاطعة يونان. تعد نحو ٢،٢٥٠ مليون نسمة. شهيرة بمناخها المعتدل، حتى أنها دعيت «مدينة الربيع الابدي». صناعات الآلات. مناجم الفوسفور. على مسافة ١٢٦كلم لجهة الجنوب-الشرق، في قضاء لونان، موقع اثري مهم معروف باسم «غابة الاحجار» (٢٧ ألف هكتار). تاريخيًا، عاصمة مملكة دالي منذ ٨٠٩. مقر أمراء يونان (١٢٨٨). فيها اقام ماركو بولو. نقطة انطلاق سكة حديد يونان، والطريق إلى بورما، وبصفتها هذه لعبت دورًا استراتيجيًا في الحرب العالمية الثانية.

* **لانزو Lanzhou**: عاصمة مقاطعة غانسو. تقع على نهر هوانغ هي. تعد نحو مليوني نسمة. عقدة مواصلات مهمة. مركز تجاري في منطقة الشمال الصيني. مصفاة نفط وصناعات بتروكيميائية. معمل لتقوية الأورانيوم. مناجم النحاس والقصدير والزنك والذهب والكوارتز. صناعة السيارات.

* **«المدينة المحرّمة»**: راجع «بكين» في هذا الباب.

* **نانجينغ Nanjing**: تدعى ايضًا نانكين، وهذا الاسم يعني «عاصمة الجنوب». عاصمة مقاطعة جيانغسو. تقع على نهر شانغ جيانغ. تعد نحو ٣،٢٥٠ مليون نسمة. بقايا سور. قبر الامبراطور مينغ هونغويو (١٣٨١). مركز ثقافي (جامعة، معاهد أبحاث). ميناء نهري وعقدة مواصلات (جسر كبير يبلغ طوله ١٦،٧كلم على نهر شانغ جيانغ بني في ١٩٦٦-١٩٦٨). مركز تجاري وصناعي: صناعات ميكانيكية ومواد البناء. تاريخيًا، عاصمة امبراطورية قديمة، وأول عاصمة لأسرة مينغ، ثم لمملكة تايبنغ. فيها تم الاعلان عن قيام «الجمهورية الصينية» (١٩١١) وعن انتخاب صن يات صن أول رئيس لها. وكانت العاصمة ايضًا في ايام تشيانغ كاي تشيك بين ١٩٢٧ و١٩٣٧، وذلك قبل ان يحتلها اليابانيون، ثم يغادرونها في كانون الاول ١٩٣٧ عقب ارتكابهم مجازر طالت نحو ٣٠٠ ألف ضحية.

* **نانشانغ Nanchang**: عاصمة مقاطعة دجيانغكسي. تعد نحو مليوني نسمة. عقدة مواصلات ومركز صناعي ميكانيكي وغذائي. الرز أهم مزروعاتها. مناجم الكاولين. مقالع احجار الغرانيت والكوارتز.

* **هاربين Harbin**: في الروسية خاربين. مدينة صينية. عاصمة مقاطعة هايلوجيلنغ. تقع على نهر سونغوا جيانغ. تعد نحو ٤ ملايين نسمة. عقدة مواصلات. مجمّع صناعي مهم عرف انطلاقة كبرى بدءًا من ١٩١١ لارتباطه بوجود ثروات معدنية مهمة في المناطق المجاورة للمدينة: الفحم الحجري، الحديد، النحاس، القصدير. تاريخيًا، كانت المدينة مهد حركة شعب يدعى «جورشيت»، وهو أحد شعوب منشوريا. في ١١١٥، تمكن زعيمه وانيان أكوتا (حكم من ١١١٥ إلى ١١٢٣) من توحيد القبائل وتأسيس أسرة جين (والاسم يعني «الذهب») في شمالي الصين. وانتصر الجورشيت على الخيتان Khitans في ١١٢٥ وسيطروا على عاصمة أسرة سونغ في الشمال «كايفنغ»، وهزمهم المنغول في ١٢٣٤. وعادوا في القرن السابع عشر، ومنهم أسرة كينغ. في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين، كانت المدينة تابعة لروسيا، ثم لليابان.

* **هانغزو Hangzhou**: عاصمة مقاطعة زيجيانغ. تقع على نهر كيانتانغ جيانغ، عند الطرف الجنوبي من القناة الكبرى. تعد نحو ١،٩٠٠ مليون نسمة. آثار

عديدة تشهد على ماضيها العريق: مغارات بوذية (القرن العاشر)، مغارات على شاطئها الصخري مليئة بتزيينات بوذية (القرن الثاني عشر-القرن الرابع عشر) وبحيرة «كسي هيو»، كلها جعلت من المدينة مركزًا سياحيًا مهمًا. مركز صناعي وتجاري وثقافي.

أهم مزروعاتها الرز والشاي والقطن والقنب. تاريخيًا، تأسست حوالي العام ٦٠٠. كانت عاصمة أسرة سونغ الجنوبية من ١١٢٧ إلى ١٢٧٦. وكانت تدعى كينساي في كتابات ماركو بولو الذي أظهر فيها وصفًا لعظمة المدينة وثرائها.

* **هيفاي Hefei**: عاصمة مقاطعة أنهوي. تعد نحو ١،٢٠٠ مليون نسمة. الحنطة أهم مزروعاتها. صناعاتها ميكانيكية ونسيجية وكهربائية.

* **ووهان Wuhan**: عاصمة مقاطعة هوباي. تعد نحو ٤،٧٥٠ مليون نسمة. شكلتها وحدة مدن ووشانغ، هانكو وهانيانغ. مركز جامعي. مركز صناعي مهم: صناعات ميكانيكية وملاحية، كيميائية وبتروكيميائية ونسيجية (القطن). ميناء نهري. عقدة مواصلات. في ١٩٥٥، تمّ بناء جسر حديدي (طوله ١١٥٦م) فوق نهر شانغ جيانغ.

زعماء، رجال دولة وسياسة

* **بنغ باي Peng Pai** (١٨٩٥-١٩٢٨): أول زعيم صيني شيوعي عمل على تنظيم الطبقة الفلاحية، وسبق بحركته حركة ماو تسي تونغ.

ولد في هاي-فونغ في عائلة ميسورة. درس الاقتصاد السياسي في طوكيو، وتأثر بالمثقفين اليابانيين الاشتراكيين. التحق لدى عودته إلى الصين بمنظمة الحزب الشيوعي الصيني الناشئة، وعمل على تثقيف الفلاحين وتلقينهم المبادىء الاشتراكية وتنظيمهم. واتسعت حركته حتى شملت مقاطعات أخرى إضافة إلى مقاطعة هاي-فونغ. وفي ١٩٢٧، حضر مؤتمر قادة الحركة الفلاحية حيث التقى ماو تسي تونغ وفانغ تشن-مين، وفي المؤتمر الوطني الخامس للحزب الشيوعي دخل اللجنة المركزية واللجنة التنفيذية لاتحاد الفلاحين الصينيين الذي كان يتزعمه ماو تسي تونغ. بعدها، التحق بثورة نان تشانغ المسلحة مع شو إن لاي، ورافق الجنرالات الشيوعيين الثوار. وعلى الرغم من القمع الشديد الذي تعرضت له الثورة، تمكن بنغ باي من إقامة حكم سوفياتي اشتراكي في مقاطعتي هاي-فونغ ولو-فونغ. لكن حركته فشلت في النهاية، وهرب إلى شانغهاي حيث خانه أحد انصاره فألقي القبض عليه وأعدم.

* **بنغ تشن Peng Tchen** (١٨٩٩-): من زعماء الحزب الشيوعي الصيني التاريخيين. ولد في تشو-وو في وسط قروي. انخرط في صفوف الشيوعيين في ١٩٢٦. سجنه الصينيون الوطنيون من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٥. أصبح اليد اليمنى لـ ليو تشاو شي. مدير «مدرسة الحزب» في ١٩٤٢. أصبح واحدًا من الـ١٥ عضوًا في المجلس الاعلى للحزب. بعد انتصار الثورة في ١٩٤٩، استلم عمدة بكين، واحتفظ بهذا المنصب حتى الثورة الثقافية. ترأس عدة وفود شيوعية صينية إلى الخارج.

أوصى بالاعتدال والحوار إثر نشوب الخلاف الصيني-السوفياتي، وحاول إيجاد حل لهذا الخلاف. لكنه، في ١٩٦٥، وأثناء الاحتفال بالذكرى الـ٤٥ لتأسيس الحزب الشيوعي الأندونيسي في جاكرتا، حمل بنغ تشن بعنف على سياسة موسكو. كان هدفًا لهجمات الثورة الثقافية التي اتهمته بقيادة «خط أسود» رجعي وبورجوازي ليمنع تطور أسلوب بروليتاري في الفن والأدب. فجرّد من مناصبه كافة، وفصل من الحزب في ١٩٦٦.

* بنغ تو هواي Peng To-Houai (١٩٠٠-١٩٧٤): زعيم صيني شيوعي. ولد في هونان، وعاش طفولة بائسة، وتعاطى حرفًا عديدة قبل انخراطه في الجيش، وأقدم على اغتيال أحد الحاكمين. انتسب إلى الحزب الشيوعي في ١٩٢٨، وشارك في المسيرة الطويلة. عضو اللجنة المركزية للحزب إثر انتخابه في المؤتمر السابع (١٩٤٥). في ١٩٥٠، قاد المتطوعين الذين دخلوا كوريا، وعاد ظافرًا إلى بكين (١٩٥٣) ليتسلم مهام وزارة الدفاع. وعُزل من هذا المنصب ليحل محله لين بياو، بسبب إنتقاده لـ«القفزة الكبرى إلى الامام» التي أضرت، بنظره، في الاقتصاد، وبسبب رأيه القائل بضرورة بناء جيش احترافي تبعًا للنموذج السوفياتي، معارضًا بذلك نظرة ماو تسي تونغ ولين بياو المبنية على تشكيل ميليشيات لخوض حرب العصابات الشعبية. تعرّض للهجومات من الثورة الثقافية. توفي (١٩٧٤) وهو في السجن. ردّ إليه اعتباره في ١٩٧٨.

بو-يي (هو ان تونغ بالولادة).

بو-يي طفلا مع الوصي على العرش.

* بو-يي P'ou-Yi (١٩٠٦-١٩٦٧): آخر ملوك الصين «المنشوريين». ولد في بكين، والده الأمير تشوون Tchouen، خلف جده الامبراطور كوانغ-سيو على العرش وهو في الثالثة من عمره، أي في ٢ كانون الاول ١٩٠٨. وعندما أعلنت الجمهورية في أول كانون الثاني ١٩١٢، قدمت لونغ يو، أرملة جده والوصية عليه، في ١٢ شباط من العام نفسه، الاستقالة باسم جدّه المتوفى. وهكذا انتهت سلالة «المنشوريين» التي حكمت أقدم امبراطورية في العالم، وكان بو يي آخر ممثليها.

اقام بو-يي في المدينة المحرّمة يتقاضى معاشًا، ويحتفظ بلقبه الامبراطوري. وفي الاول من تموز ١٩١٧، حاولت مجموعة من السياسيين بعث امبراطورية منشوريا من جديد، فأجلست بو-يي على عرشها، لكنه خلع بعد ١٢ يومًا. طرده الجنرال فونغ يو-سيانغ من المدينة المحرمة، فانتقل إلى اليابان في ١٩٢٨. وبعد هجوم اليابانيين على مدينة موكدن (١٨ ايلول ١٩٣١) حاولوا طمأنته بالقول بأنه لا مطمع لهم في منشوريا سوى إقامة دولة مستقلة جديدة يكون هو امبراطورها. ذهب بو-يي إلى جنوبي منشوريا، ووافق على الجلوس على العرش، شرط ان يؤسس فيها نظامًا ملكيًا في اقل من عام. وفي سنة ١٩٣٤ أصبح امبراطورًا، وانحصر دوره في مراسم الاحتفالات. وكانت تظهر أهمية «دولته» (منشوريا) الاستراتيجية بقدر ما كان يزود اليابان بالمواد الاولية التي يحتاجها. وعندما استسلمت اليابان في ١٥ آب ١٩٤٥، أعلن بو-يي تخليه عن العرش، وحاول السفر إلى اليابان. فأوقفته الفرق السوفياتية ونقلته إلى الاتحاد السوفياتي، حيث قضى خمس سنوات في السجن، كما أدين كمجرم حرب في طوكيو سنة ١٩٤٦. أعاده السوفيات إلى الصين الشعبية في ١٩٥٠ فسجن من جديد في خاربين، ودُعي للاعتراف بأخطائه أثناء محاكمة مجرمي الحرب اليابانيين، وبأنه لم يكن يملك أي سلطة أثناء حكمه، وبأن اليابانيين وحدهم حكموا بلاده.

صدر عفو بحقه في ١٩٥٩. فعاد إلى بكين ليعمل في حديقة النباتات، ثم في لجنة الابحاث التاريخية (بعد ان عمل فترة في المكتبة الوطنية السياسية)، ثم أصبح عضو اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشاري للشعب الصيني. توفي بمرض السرطان (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ج١، ط١، ص٦٣٠).

في ١٩٦٥، نشر بقلمه سيرة حياته بعنوان: «من امبراطور إلى مواطن».

*** تشانغ تسو-لين Tchang Tso-Lin**

(١٨٧٣-١٩٢٨): عسكري صيني، ومن أسياد الحرب في منشوريا قبل تحقيق وحدة الصين. قاتل إلى جانب الصين في حربها ضد اليابان (١٨٩٤-١٨٩٥)، وإلى جانب اليابان في حربها ضد روسيا (١٩٠٤-١٩٠٥). عمل لاستقلال منشوريا. التقى مع تشيانغ كاي تشيك في عدائه للشيوعيين، إذ اقتحم السفارة السوفياتية في بكين وأسر ٢٠ شيوعيًا صينيًا. تعاون مع اليابان في منشوريا، لكنه بقي عقبة في وجه مطامعها، ففجرت المخابرات اليابانية قنبلة في القطار الذي كان يقله، وقتلته، واستفادت من غيابه لتدعيم احتلالها لأجزاء من الصين.

خلفه ابنه تشانغ هيو-لينغ حاكمًا على منشوريا، فناور هذا بحنكة للوقوف في وجه الصين واليابان الطامعتين بخيرات منشوريا، وانتهى به الأمر إلى التسليم بسيادة الصين عليها مظهرًا تعاطفًا مع الشيوعيين. ومع ذلك حاكمه الشيوعيون بعد سيطرتهم على الاوضاع في الصين؛ ونقل تشانغ إلى تايوان عندما التجأ إليها تشيانغ كاي تشيك، وعاش هناك في الاقامة الجبرية.

*** تشانغ كوو-تاو Tchang Kouo-Tao**

(١٨٩٧-؟): زعيم شيوعي صيني حتى ١٩٣٨، أي حتى دخوله في صراع مباشر مع ماو تسي تونغ. كان قائدًا طلابيًا في مظاهرات ٤ ايار ١٩١٩. اشترك في تاسيس الحزب الشيوعي الصيني (١٩٢١). زار موسكو حيث استقبله لينين.

نظم حرب عصابات ضد قوات تشيانغ كاي-تشيك. انتخب (١٩٣١) نائب رئيس الحكومة المركزية لجمهورية كيانغ سي السوفياتية، وكان ماو تسي تونغ رئيس هذه الحكومة. لكن، منذ ١٩٣٤، بدأت تظهر خلافات في وجهات نظر الرجلين. وفي ١٩٣٧، وبعد ان توصل طرفا الحرب الاهلية الصينية: الشيوعيون، والوطنيون إلى التحالف بهدف محاربة اليابان، تقدم تشانغ كوو-تاو بطلب اللجوء والحماية من حكومة تشيانغ كاي-تشيك الوطنية. فسببت هذه الحادثة صدمة قوية في صفوف الشيوعيين، خاصة وان تشانغ كوو-تاو كان يمثلهم في احتفال مناسبة اعلان التحالف، وأعطت تشيانغ كاي-تشيك فرصة لم يكن يحلم بها، وكلف تشانغ بمهام ادارية داخل حكومته. وعلى اثر انتصارات الجيش الأحمر والشيوعيين (١٩٤٩)، هرب تشانغ إلى هونغ كونغ وانسحب من الحياة السياسية، ثم هاجر إلى كندا.

*** تشن بو-تا Tchen Po-Ta (١٩٠٥- ؟):**

زعيم شيوعي صيني. ولد في عائلة فلاحية فقيرة. درس الفلسفة في جامعة صن يات صن في موسكو، وسرعان ما ظهر مثقفًا ومنظرًا ايديولوجيًا، فدرّس في المدرسة الحزبية، وأصبح مستشارًا لـ ماو تسي تونغ، فرافقه إلى موسكو للتوقيع على معاهدة التحالف الصيني-السوفياتي (كانون الاول ١٩٤٩). وفي ١٩٥٨، أصبح رئيس تحرير «الراية الحمراء». وأثناء الثورة الثقافية، شغل منصب عضو احتياطي في المكتب السياسي ومنصب نائب رئيس أكاديمية العلوم، وكان يتمتع بثقة ماو تسي تونغ الكاملة حتى إنه كلفه بتحريك «النقد الثوري لدى الجماهير» (الثورة الثقافية)، وبرز في الصف الامامي في القيادة الصينية إلى جانب شو إن لاي وغيره. وكان أبرز الذين عملوا على تجميع واختيار نصوص الكتاب الأحمر.

في صيف ١٩٧٠، جرّد تشن بو-تا من كل مهماته، ولم تعرف الاسباب وترجح المصادر الغربية ان التهمة الموجهة إليه تتعلق بانتمائه إلى اليسار المتطرف، في حين ان «التهمة الرسمية» اكتفت بنعته بـ«البورجوازي الوصولي المتآمر عدو الثورة».

*** تشن تو-سيو Tchen Tou-Sieou**

(١٨٧٩-١٩٤٢): زعيم شيوعي صيني. ولد في عائلة ثرية. درس في دار المعلمين في طوكيو، وتعلم الفرنسية والانكليزية وعاش فترة في فرنسا. أسس في شانغهاي «مجلة الشبيبة» (١٩١٥) حيث برزت أفكاره المتأثرة بالديمقراطية الاوروبية، وبرفض التقاليد الكونفوشيوسية المحافظة. أصبح عميد جامعة بكين. ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي الصيني (١٩٢١)، وكان لا يؤمن بثورة الفلاحين (بعكس ماو تسي تونغ). عارض ستالين، فطرد من الحزب الشيوعي

الصيني الذي عقد مؤتمره السادس في موسكو (١٩٢٩). شكّل، مع عدد من الشيوعيين، مجموعة تروتسكية اتخذت من جريدة «كلامنا» منبرًا لها، وأعلنت إيمانها بالثورة الدائمة دون المرور بمرحلة «الاشتراكية في بلد واحد». وبسبب هذه المواقف، اغتيل ولداه، وسجن هو لمدة ١٥ سنة (بدءًا من ١٩٣٢). وعندما دخلت الصين الحرب ضد اليابان (١٩٣٧)، أفرج عنه بعد أخذ تعهد منه بالعودة إلى السجن بعد الحرب والتحق بالجبهة الموحدة. وبينت كتاباته استمرار رفضه للستالينية، وتأكيده بضرورة الاشتراكية.

*** تشن يي Tchen Yi (١٩٠١-١٩٧١):** زعيم شيوعي صيني. درس الكيمياء في باريس حيث خالط الطلاب الثوريين وتأثر بأفكارهم، فطردته الحكومة الفرنسية (١٩٢١). انضم إلى الحزب الشيوعي الصيني في ١٩٢٥، واشترك في حملة الشمال ضد الاقطاعيين. انضم إلى ماو تسي تونغ (١٩٢٨)، واعتبرت كتيبته النواة الاولى للجيش الأحمر، وأظهر قدرات عسكرية عالية طيلة الحرب الأهلية. اصبح عضو اللجنة المركزية للحزب (١٩٤٥)، واصطحب شو إن لاي إلى مؤتمر باندونغ (١٩٥٥)، وخلفه في وزارة الخارجية (١٩٥٨)، وصادف ذلك بدء الخلافات الصينية-السوفياتية، وبروز الدبلوماسية الصينية وتعاظم فاعليتها في العالم الثالث. قام بعدة مهمات في أندونيسيا وجنيف (مؤتمر حول لاوس) وافريقيا السوداء وبعض البلدان العربية. تعرّض إبان الثورة الثقافية (١٩٦٥-١٩٦٩) لهجمات عنيفة، فاتهم بالرجعية، ولكنه استطاع ان يحتفظ بمنصبه في اللجنة المركزية، وبمهمات حكومية.

*** تشيانغ كاي-تشيك:** راجع النبذة التاريخية، ومختلف أبواب هذه المادة، «الصين»؛ و«تايوان»، ج٦.

*** تونغ تشي هوا (١٩٣٧-):** سياسي واقتصادي ورجل أعمال وأول حاكم صيني وغير بريطاني لهونغ كونغ منذ قرن ونصف القرن، وصاحب امبراطورية تجارية (النقل والشحن البحري) تحقق دخلاً سنويًا يفوق ١،٧ مليار دولار، وكان والده (توفي في ١٩٨٢) قد أسس هذه الاعمال منذ الاربعينات.

دخل تونغ المعترك السياسي في نهاية الثمانينات حينما اختير عضوًا في اللجنة المكلفة صياغة القانون الاساسي (الدستور) لهونغ كونغ. وفي ١٩٩٢، اختارته الحكومة الصينية ليكون مستشارها لشؤون هونغ كونغ، في الوقت الذي اختاره الحاكم البريطاني كريس باتن ليصير عضوًا في إدارته التنفيذية (مجلس الوزراء). وعين نائب وزير الخارجية الصيني كيان كيتشين في رئاسة اللجنة التحضيرية المكلفة نقل السيادة على هونغ كونغ من بريطانيا إلى الصين.

تحدث الاعلام، بعد تعيينه، عن ضعف شعبيته لدى مواطني هونغ كونغ قياسًا على شعبية منافسه السير تاي ليانغ الذي كان إلى وقت قريب يترأس دائرة العدلية قبل ان يستقيل منها ويتنازل عن جواز سفره البريطاني من أجل دخول حلبة المنافسة على منصب الحاكمية.

معروف عن تونغ اعجابه بالنموذج السنغافوري وصاحبه لي كوان يو، وتركيزه الشديد على ضرورة العودة إلى القيم الصينية القديمة.

*** جيانغ زيمين (١٩٢٧-):** الرئيس الصيني الحالي، خليفة دينغ كسياو بينغ. ويتولى، إضافة إلى رئاسة الدولة، رئاسة الحزب الشيوعي الصيني والجيش. لكنه، خلافًا لسلفه ليس له أي ماض عسكري. ومنذ بدأ دينغ يرتب شؤون خلافته في ١٩٨٩، بدأ جيانغ زيمين يحتل المناصب الأعلى في الحزب والحكومة والجيش حتى أضحى الخليفة الوحيد لدينغ عقب وفاة هذا الأخير في شباط ١٩٩٧، وكان جيانغ امضى سبع سنوات على توليه منصب الامين العام للحزب، وستة اعوام على رئاسته للجنة العسكرية المركزية وثلاث سنوات في رئاسة الدولة. وبعد ساعات قليلة من وفاة دينغ، سارع الحزب إلى اصدار بيان يؤكد فيه زعامة جيانغ، كما أكدت الأسلحة الثلاثة الرئيسية في الجيش (بعد ايام قليلة) ارادتها في تحويل الحزن على وفاة دينغ إلى «قوة» وتعهدت بـ«رص صفوفها بقوة» حول اللجنة المركزية في الحزب الشيوعي واللجنة العسكرية «وفي قلبهما جيانغ زيمين» (راجع النبذة التاريخية).

*** دينغ كسياو بينغ Deng Xiaoping (١٩٠٤-١٩٩٧):** زعيم شيوعي صيني. ولد في غوانغان في مقاطعة سيشوان (جنوب غربي الصين). بعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية غادر إلى فرنسا في إطار برنامج دراسي في ١٩٢٠. في ١٩٢٤، انضم إلى الحزب الشيوعي الصيني. في ١٩٢٧، عاد إلى الصين وشارك في النضال السري. في ١٩٣١، انضم إلى ماو تسي تونغ في مجلس السوفيات في جيانغتسي (جنوب غربي البلاد). في ١٩٣٤-١٩٣٥، شارك في المسيرة الطويلة. في ١٩٣٨،

دينغ كسياو بينغ (الى يمين الصورة) مع ماو تسي تونغ في ١٩٧٤

ومع الرئيس الاميركي رونالد ريغان.

اصبح المفوض السياسي في الجيش الخامس الذي شارك بفاعلية في الحرب ضد اليابان (١٩٣٧-١٩٤٥). في ١٩٤٥، أصبح عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني. في ١٩٥٤، عين اميناً عاماً للحزب، واصبح عضواً في المكتب السياسي (١٩٥٥). تعرض للنقد والابعاد أثناء الثورة الثقافية لاتهامه باختيار «طريق الرأسمالية»، وأقيل من جميع مهامه ونفي إلى الريف.

في ١٩٧٣، استدعي إلى بكين ليستعيد منصبه كنائب لرئيس الوزراء، ويصبح رئيساً لهيئة أركان الجيش. وفي ١٩٧٤، ترأس الحكومة خلال مرض رئيس الوزراء شو إن لاي. وفي ١٩٧٦، أقيل مرة ثانية بضغط من «زمرة الاربعة» بعد وفاة شو إن لاي، ثم أعيد الاعتبار إليه مع تولي هوا كو فينغ زمام القيادة في الصين، فانتخب في المؤتمر الحادي عشر للحزب عضواً في اللجنة المركزية (١٩٧٧)، ونائباً لرئيسها ونائباً لرئيس مجلس الدولة، ورئيساً لاركان الجيش في العام نفسه. وفي ١٩٧٨، عين رئيساً للوزراء وتسلم زمام الحكم بصورة نهائية وبدأ برنامجه للاصلاحات الاقتصادية.

في ١٩٧٩، قام برحلته التاريخية إلى الولايات المتحدة الاميركية التي قال بشأنها، في ما بعد، الرئيس الاميركي كلينتون إنها «أرست أسس التطور الكبير في العلاقات والتعاون بين البلدين». وفي ١٩٨٩، أرسل الدبابات لصد الطلاب المتظاهرين في ساحة تياناتمن التي وقعت في اطارها مذبحة الطلاب. لكنه تمكن من تلطيف صورة الصين في الخارج، وبقي حكماً في الصراع على السلطة بين القيادات الصينية. في ١٩٩٢، قام بجولة في جنوبي البلاد لتسريع الاصلاحات الاقتصادية. وفي شباط ١٩٩٤، كان آخر ظهور علني له عبر التلفزيون بمناسبة رأس السنة القمرية، وقد بدت عليه علامات الوهن الشديد.

بعد ذلك، أخذت الانباء تتحدث عن لسان أطباء ومقربين من دينغ انه لم يعد يستطيع الكتابة ويكاد يكون أعمى، وتضاءل سمعه كثيراً، وغدا غير قادر على الوقوف أو المشي ودخل في حالة غيبوبة. وأخذ الصينيون ينظرون بقلق إلى الكيفية التي ستؤول إليها الامور من بعده، هو الذي أخرج الصين من فوضى الثورة الثقافية، وحقق تحولات اقتصادية تاريخية ومهمة. وهذا القلق لم يخفف منه الواقع الرسمي لمشكلة خلافة دينغ، وهو اختيار جيانغ زيمين خلفاً لدينغ ورئيساً للبلاد ابتداء من ١٩٨٩. ومن يومها حصل جيانغ على تسعة ألقاب في الحزب والجيش والحكومة.

توفي دينغ في ١٩ شباط ١٩٩٧، وقالت أرملته في الخطاب الذي حمل ايضاً توقيع ولديه وبناته الثلاث ان دينغ طلب في وصيته ان ينثر رماده في البحر وان يتم توخي البساطة في جنازته، وان يتم التبرع بقرنيتيه وان تقدم أعضاؤه الداخلية للبحث العلمي.

وفي بيان الحزب الشيوعي الصيني الصادر في مناسبة وفاة زعيمه دعوة إلى «تعزيز الوحدة بين شعوب مختلف العرقيات في البلاد». وفيه ايضاً انه «في ظل القيادة الراسخة للجنة المركزية للحزب، وفي وسطها الرفيق جيانغ زيمين، سيتمكن الحزب والجيش والشعب، من خلال الاخلاص لنظرية دينغ كسياو بينغ عن الاشتراكية ذات الخصوصيات الصينية، من التوصل بالتأكيد إلى الاصلاحات الاشتراكية القائمة على الانفتاح والتحديث، وهي القضية الكبرى التي باشرها دينغ، ومن الوصول إلى تحقيق هدفنا».

أجمعت الكتابات التحليلية لحكم دينغ انه انطلق بسرعة على عجلتين: الاصلاح والانفتاح. اصلاح النظام الداخلي بتحويله شيئاً فشيئاً نحو الليبرالية المتكيفة مع الخصوصية الصينية الضاربة الجذور في التربة الكونفوشيوسية؛ والانفتاح الخارجي على اليابان والولايات المتحدة والغرب الرأسمالي عموماً. وقد نجح دينغ في محو آثار الثورة الثقافية الماوية وأعاد السلام الداخلي إلى البلاد وفك العزلة عنه وغسل «العار الوطني» بحصوله في ٢٦ ايلول ١٩٨٤ على الوعد بعودة هونغ كونغ إلى حضن الصين في آخر حزيران ١٩٩٧. وقد سلك طريقاً وسطاً بين مختلف التيارات وخصوصاً «المحافظين» المتمسكين بتركة الثورة الماوية وسيطرة الحزب الواحد، وبين «الاصلاحيين» الذين ارادوا تعجيل الاصلاحات من طريق الليبرالية الرأسمالية. فساعدته سياسته التوفيقية هذه في بسط سلطته، ولكنها لم تخلُ من الهزّات كما حدث في عامي ١٩٨٦ و١٩٨٩ في الانتفاضات الطالبية التي هزّت «امبراطورية الوسط» كما يقول الصينيون عن بلدهم.

ففي فترة وجيزة نقل دينغ الصين إلى مصاف الدول الكبرى اقتصاديًا عن طريق سياسة الانفتاح الاقتصادي (راجع «الاقتصاد» في باب «بطاقة تعريف»). لكن هذا الانفتاح لم يرافقه انفتاح سياسي ملحوظ، إذ ظل الحزب الشيوعي يمسك بمفاصل السلطة تحت حماية الجيش الشعبي. وميّزت «عبارة الشخص» عصره كما ميزت عصر ماو. ورغم التسويات التي فرضها دينغ فقد أدت الهوة بين التيارين، المحافظ والاصلاحي، إلى الانفجار الاول

عام ١٩٨٦ (الذي دعته وسائل الاعلام الغربية «ربيع بكين الاول») عندما اجتاحت التظاهرات الطالبية شوارع بيجينغ مطالبة بالمزيد من الديمقراطية، ما دفع دينغ إلى إقالة الرجل الذي عينه خليفة له (هيو ياو بانغ) متهمًا إياه بالخضوع لإغراء البورجوازية الليبرالية (التهمة نفسها التي وجهت لدينغ ايام ماو). وتكررت الانتفاضة الطالبية بعد ثلاث سنوات (١٩٨٩) في ساحة تيانانمن، على خلفية الصراع على السلطة (بعد دينغ العجوز) وعلى خلفية فساد وتضخم وجريمة ولا مساواة وهجرة من الريف إلى المدينة وغيرها من امراض الاقتصاد الحر، وكذلك على خلفية انتشار أخبار «بيريسترويكا» الزعيم السوفياتي غورباتشوف وبدأت فيها النظم الشيوعية الاوروبية مسار الانهيار تباعًا. وقد أمر دينغ بسحق الانتفاضة وإقالة خليفته المعيّن، زيانغ، المتفهم للمطالب الطالبية. وانتهت تظاهرات ساحة تيانانمن بمئات القتلى وآلاف الجرحى وعشرات آلاف المعتقلين الذين فتحت لهم معسكرات «إعادة تأهيل». ولم يأبه دينغ للحصار الذي فرضته الدول الغربية على الصين لإجبارها على تحقيق إصلاحات ديمقراطية واحترام حقوق الانسان بعد احداث ١٩٨٩ لأنه كان يوقن بأن الغرب المحتاج للعلاقة مع السوق الصينية الواسعة سوف يعود عن قراراته، وهذا ما حصل فعلاً.

* زاو زيانغ Zhao Ziyang (١٩١٩-):
زعيم شيوعي وسياسي واداري صيني. ترتكز شهرته أساسًا كإداري واقعي. ولد في مقاطعة هونان. انضم إلى الحزب الشيوعي في ١٩٣٨. تدرّج في مهمات حزبية إلى ان أصبح في ١٩٦٥ سكرتيرًا أول للحزب في مقاطعة غوان غدونغ. فتعرض لهجوم عنيف من الحرس الأحمر أثناء الثورة الثقافية، فأقيل من مناصبه. بعد هزيمة الثورة، أعيد إليه الاعتبار، وعين (١٩٧٤) مسؤولاً عن قيادة الحزب في مقاطعة سيتشوان (أكثر المقاطعات الصينية ازدحامًا بالسكان)، فعمل من خلال سياسته المرنة والعملية على زيادة الدخل الصناعي وزيادة الانتاج الزراعي. وقد حصل على هذه النتائج لاتباعه سياسة تشجيع العمال والفلاحين بالحوافز المادية، ومنح مدراء المؤسسات الانتاجية نوعًا من الاستقلالية عن السلطات المركزية. وكانت النتيجة زيادة الدخل الصناعي بنسبة ٨١٪ خلال ثلاث سنوات. وهذا ما لفت انظار قيادة الحزب، وبشكل خاص دينغ كسياو بينغ، إليه، فانتخب (في ١٩٧٧) عضوًا احتياطيًا في المكتب السياسي للحزب، ثم عضوًا كاملاً في ١٩٧٩. وفي ايلول ١٩٨٠، عين زاو زيانغ، رئيسًا لوزراء الصين مكان هوا غو فنغ، واعتبر تعيينه في هذا المنصب انتصارًا للخط الذي يمثله دينغ كسياو بينغ. وقد وضع زاو على رأس اهتماماته تطبيق سياسة الحزب الجديدة القائمة على التحديثات الاربعة: الزراعة، الصناعة، الدفاع الوطني، والعلم والتكنولوجيا.

* شانغ شون-شياو Chang Chun-Chiao
(١٩١١-): زعيم شيوعي صيني ومن «زمرة الاربعة» (زعماء الثورة الثقافية). ولد في شانغهاي. دعم استراتيجية

البانديت جواهر لال نهرو (الى يمين الصورة) يستقبل شو ان لاي.

ماو تسي تونغ ضد ليو شاو-شي، واصبح في ١٩٦٧ نائب مدير المجموعة المكلفة بالثورة الثقافية تجاه اللجنة المركزية؛ وفي ١٩٦٩، انتخب عضواً في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الصيني؛ واصبح، في المؤتمر العاشر (١٩٧٣) عضواً في اللجنة الدائمة للمكتب السياسي. وفي كانون الثاني ١٩٧٥، قدّم تقريره حول الدستور امام الجمعية الوطنية وعين نائباً لرئيس الوزراء ورئيساً للشعبة السياسية في الجيش. وبعد أزمة ١٩٧٦، أبعد عن المسرح السياسي واتهم بأنه العقل المدبر لـ«زمرة الاربعة». فاعتقل وحكم عليه بالاعدام (١٩٨١) مع وقف التنفيذ.

*** شو إن لاي Chou En-Lai** (١٨٩٨-١٩٧٦): زعيم شيوعي صيني وأحد أبرز القادة في القرن العشرين.

ولد في هويان وتوفي في بكين. ولد في اسرة ميسورة. درس في فرنسا (١٩٢٠-١٩٢٣) حيث اتصل باليساريين واطلع على مؤلفات ماركس ولينين، وساهم في تأسيس فرع للحزب الشيوعي الصيني في فرنسا (١٩٢١). ولدى عودته إلى الصين، اصبح من كبار قادة الحزب في شانغهاي ومفوضاً سياسياً في أكاديمية غوامينتدنغ العسكرية، ومثل حزبه في اجتماعات الكومنترن في موسكو. وفي ١٩٣١، فرّ إلى سوفيات كيانغسي حيث اصبح المفوض السياسي للجيش الأحمر، وشارك في المسيرة الطويلة، وبايع، مع غيره من القادة، ماو تسي تونغ بالقيادة والزعامة. ومنذ ذلك الوقت وطّد الزعيمان صداقة قوية وثابتة وقيادة ثنائية منسجمة. ومنذ ١٩٤٩، عين رئيساً للوزراء، وبقي يشغل هذا المنصب حتى وفاته. وكان مهندس التنظيم الاداري ومسؤول السياسة الخارجية لجمهورية الصين الشعبية (حتى ١٩٥٩) حيث حاول التلطيف بعض الشيء من طروحات ماو تسي تونغ المتطرفة، لكن مع بقائه على إخلاصه له. مثل بلاده في مؤتمر باندونغ ولعب دوراً عظيم الأهمية فيه، وأقام علاقات شخصية مع عدد من زعماء العالم الثالث. وعلى الرغم من تعرض الصين إلى بعض الهزات السياسية والتنظيمية كالثورة الثقافية على مدى أكثر من ربع قرن، فإن شو إن لاي حافظ على مكانته وكان عامل استقرار واتزان داخل القيادة الصينية. وفي اثناء مرض المّ به، في سنواته الأخيرة، عمل على تحضير دينغ كسياو بينغ لخلافته.

*** شيانغ شينغ Shiang Ching** (١٩١٣-١٩٩١): زعيمة شيوعية وسياسية صينية. معروفة ايضاً باسم جيانغ كينغ، وهي الزوجة الرابعة لـ ماو تسي تونغ.

ولدت في شاندونغ، في اسرة فقيرة الحال. بدأت، منذ ١٩٣٣، تمتهن فن التمثيل في مدينة شانغهاي. وفي ١٩٣٧، انضمت إلى الحزب الشيوعي الصيني واصبحت رفيقة ماو تسي تونغ الذي ما لبث ان تزوجها رغم اعتراض المكتب السياسي على هذا الزواج. لكن المكتب السياسي فرض عليها ان تبقى بعيدة عن الحياة العامة. بدأت تلعب دوراً فعالاً في ١٩٦٥ عندما تزعمت «زمرة الاربعة» الذين قادوا الثورة الثقافية. فكانت تثأر، من خلال هذا الدور، من أخصامها السابقين، وتجسّد، في الوقت نفسه، الاتجاه الراديكالي داخل الحزب الشيوعي الصيني. حُكم عليها بالاعدام في كانون الثاني ١٩٨١، بعد اعوام عدة استغرقتها محاكمتها. ولم ينفذ بها الحكم، بل تركت عشرة أعوام أخرى في السجن انتهت باعلان انتحارها يوم ٤ ايار ١٩٩١ وسط صمت عالمي، إذ كان العالم أكثر إنشغالاً بالحديث عن «ربيع بكين».

على رأس اسباب هذا المصير الذي انتظر شيانغ شينغ، أرملة ماو، انها منذ اللحظة التي توفي فيها زوجها بدأت تحركها من اجل الوصول إلى أعلى درجات السلطة في الصين قائلة إن رغبتها هذه إنما تنبع من حرصها «على مواصلة العمل الكبير الذي كان يقوم به الزعيم الراحل في خدمة الصين ضد مختلف انواع التحريفيين». إلا انها فوجئت بأن الجيش كان القوة الاولى التي تصدت لها وأبدت المعارضة لوصولها إلى السلطة. فما كان منها إلا ان وزعت كميات كبيرة من السلاح على ميليشيات شانغهاي، المدينة التي كانت تعتبر أقوى حصن سياسي موال لها. وأسرع خصمها، الرئيس هوا كو-فينغ بالتحرك، مستنداً إلى دعم الجيش وإلى انقسام وارتباك قادة الحزب بعد رحيل ماو، فاعتقل شيانغ وأقنع هيئات الحزب بانتخابه رئيساً له. وقد مكّنه هذا المنصب، إضافة إلى دعم الجيش له في الشارع، من القبض على آلة الدعاوة في الحزب، ما سهّل له ان يشن حملة دعائية عنيفة ضد شيانغ شينغ ورفاقها مطلقاً عليهم إسم «زمرة الاربعة» ومتهماً إياهم بأنهم «أعداء الدولة والشعب»، وملصقاً بهم كل سلبيات السنوات السابقة إضافة إلى مآسي الثورة الثقافية التي كانت شيانغ شينغ أحد أعمدتها.

*** صن يات صن Sun Yat-Sen** (١٨٦٦-١٩٢٥): ثائر ومصلح صيني ومؤسس الجمهورية الصينية

بعد إطاحته النظام الامبراطوري في ١٩١١. القوميون الصينيون يكرمون ذكراه ويعتبرونه «أب الجمهورية»، والشيوعيون يجلّونه على اساس انه «رائد الثورة».

ولد صن يات صن في قرية واقعة في مقاطعة غوانغدونغ الجنوبية. غادر مزرعة أبيه وهو في الثالثة عشرة من العمر وهاجر إلى هاواي حيث التحق بشقيقه الأكبر الذي كان يعمل في التجارة. دخل في مدرسة للارساليات في هونولولو، فتعلم الانكليزية واطلع على العلوم الغربية واعتنق المسيحية. أنهى دراسته في معهد للطب في هونغ كونغ بين ١٨٨٧ و١٨٩٢. وأثناء وجوده في مقاطعة كانتون (١٨٨٤-١٨٨٦)، اقام علاقات وثيقة مع الجمعيات السرية المناوئة لحكم أسرة مانشو.

في ١٨٩٤، اسس جمعية سرية باسم «رابطة إصلاح الصين» التي عملت على تجميع كل المعارضين الصينيين للحكم الامبراطوري في حزب واحد. وفي ١٨٩٥، قام بانتفاضة فاشلة، اضطر على أثرها إلى الهرب خارج الصين. فعاش في المنفى مدة عشر سنوات (اليابان، الولايات المتحدة واوروبا)، تعرض خلالها لحادثة اختطاف فاشلة على يد الشرطة الامبراطورية وهو في لندن (١٨٩٧). فزادت هذه الحادثة من شهرته ونفوذه خاصة في أوساط مثقفي الجاليات الصينية المنتشرة في الخارج.

قبيل عودته إلى الصين من طوكيو (١٩٠٥)، كان صن يات صن قد توصل إلى صياغة مبادىء حركته الاساسية الثلاثة (بمساعدة من مثقفين صينيين) التي يبدو فيها متأثرًا جدًا بالفلسفة الليبرالية الغربية: أول هذه المبادىء، القومية التي نادى بها ووجهها ضد أسرة مانشو الامبراطورية التي تسببت، بضعفها، في التغلغل الامبريالي في الصين؛ وثانيها الديمقراطية التي تتطلب وضع دستور جمهوري يضمن المساواة في الحقوق بين المواطنين وفصل السلطات؛ والمبدأ الثالث متصل بمجموعة من افكار استوحاها من المبادىء الاشتراكية وترتكز على عدالة توزيع الثروات وإيجاد فرص العمل.

بعد عودته (١٩٠٥)، شارك في عدة تحركات ومؤتمرات ضد الحكم الامبراطوري، إلا انها جميعها باءت بالفشل. وفي ١٩١١، كان أنصاره قد بلغوا من القوة ما مكّنهم من القيام اخيرًا بثورة ناجحة أطاحت حكم الأباطرة، وأعلنوا قيام «جمهورية الصين»، وعينوا صن يات صن أول رئيس لها بعد ان استدعوه من الولايات المتحدة حيث كان يقوم بجولة اعلامية. وبعد بضعة اشهر من تسلمه الرئاسة، أعلن صن يات صن، رسميًا، في آب

صن يات صن (جالسا) وخلفه تشيانغ كاي تشيك في مدينة كانتون عام ١٩٢٤.

١٩١٢، تأسيس حزب الكومنتانغ (أي حزب الشعب).

واجهت الجمهورية الصينية برئاسة صن منذ تأسيسها العديد من الصعوبات كان أبرزها خروج عدد من المقاطعات الشمالية عن سلطتها. وكان صن يات صن يحظى بتأييد ١٣ مقاطعة من اصل ثماني عشرة، فحاول إرجاع المقاطعات الخمس الباقية إلى حظيرته بالتفاوض مع زعيمها يوان شيه كاي نائب الامبراطور الأسبق. وقد توصل الرجلان إلى اتفاق لاعادة توحيد البلاد، مؤداه انه إذا ما نجح يوان في إقناع الامبراطور بالتنازل عن العرش، فإن صن سيتخلى عن الرئاسة لمصلحة يوان. وفي ١٢ شباط ١٩١٢ تنازل آخر الأباطرة الصينيين عن العرش وتخلى صن يات صن عن منصبه ليوان.

إلا ان يوان سرعان ما انقلب على الجمهورية، فوجه كل جهوده لمحاربة صن يات صن وحزبه، وذلك بالرغم من فوز الكومنتانغ بأغلبية ساحقة في الانتخابات النيابية التي جرت في ١٩١٣. وفي ١٩١٤ عمد يوان إلى حل مجلس النواب بالقوة، مستندًا بذلك إلى قواته العسكرية وإلى تأييد الاوساط المالية الصينية له، إضافة إلى التأييد الاوروبي والاميركي. عند ذلك اضطر صن إلى مغادرة البلاد ثانية واللجوء إلى اليابان، في حين استمر يوان في جهوده لتنصيب نفسه امبراطورًا، مما أدّى إلى قيام حرب أهلية طاحنة خاصة في مناطق الصين الجنوبية الغربية. وفي ١٩١٦، توفي يوان معزولاً، بعد ان فشل في تحقيق مطامحه. ولم تؤد وفاته إلى إعادة وحدة الصين بل ازدادت الحرب الأهلية فيها ضراوة، مما أسفر عن تقسيم البلاد إلى دويلات صغيرة متقاتلة ضعيفة يسيطر على مقاليدها «أسياد الحرب» خاصة في الشمال.

في ظل الظروف رأى صن يات صن ان من الضروري، لكي يعيد وحدة الصين، ان يبني قوة عسكرية ضاربة ومنظمة انطلاقًا من الجنوب وبالتحديد من كانتون. وهكذا أعلن صن يات صن عام ١٩١٧ عن تشكيل الحكومة العسكرية لجنوبي الصين ومركزها كانتون؛ وأخذ، انطلاقًا منها، يعد العدة لاعادة توحيد الصين، واختبار أفكاره السياسية من خلال ادارته لهذه المدينة. وابتداء من ١٩١٧، وبالتحديد بعد نجاح ثورة أكتوبر الروسية، بدأ صن يتلقى الدعم العسكري من الحكم السوفياتي الجديد في مواجهة اسياد الحرب الذين هددوا كانتون مرارًا وأرغموا حكومتها العسكرية على الخروج من المدينة أكثر من مرة. وابتداء من ١٩٢٣ بدأت علاقة صن مع الاتحاد السوفياتي تتعمق، خاصة بعد ان دخل الشيوعيون الصينيون بشكل فردي إلى الكومنتانغ، ولعبوا دورًا متزايدًا في قيادة النضال ضد اسياد الحرب الشماليين. وفي ١٩٢٤، قام الجنرال فينغ يو-هسيانغ بالانقلاب على رئيسه في بكين والانضمام إلى صن يات صن مما فتح الباب واسعًا امام إعادة توحيد البلاد. وبالفعل فقد ذهب صن إلى بكين ليجتمع بزعماء الصين الشماليين وإقناعهم سلميًا بأهمية هذا التوحيد. إلا ان المنية وافته في ١٩٢٥ وهو على وشك تحقيق حلمه القومي، فخلفه تشيانغ كاي تشيك الذي وحّد الصين مؤقتًا، لكنه انقلب على الشيوعيين وطردهم من الكومنتانغ وتحالف مع الولايات المتحدة.

أحيط صن يات صن بعد وفاته بتكريم واحترام عظيمين من جميع الصينيين. وعندما انتصر الشيوعيون في ١٩٤٩ وأعلنوا قيام جمهورية الصين الشعبية عينوا شينغ لينغ سونغ، أرملة صن وشقيقة زوجة تشيانغ كاي تشيك، نائبة لرئيس الجمهورية تكريمًا لذكرى زوجها (عن «موسوعة السياسة»، ج٣، ط١، ص٦٥٥-٦٥٧؛ وأنسيكلوبيديا أونيفرساليس، ١٩٦٨، ج١٥، ٥٤٦-٥٤٧).

*** كانغ شنغ Kang Sheng** (١٨٩٩-١٩٧٥): شيوعي وسياسي صيني. ولد في عائلة ميسورة. درس في شانغهاي وكان أستاذه كوكيو باي الذي اصبح في ما بعد السكرتير العام للحزب الشيوعي الصيني. انضم إلى الحزب الشيوعي في ١٩٢٥، وتدرّج بسرعة فاصبح عضوًا في اللجنة المركزية في ١٩٢٨. مارس العمل السري حتى ١٩٣٧ سافر أثناءها إلى الاتحاد السوفياتي. التحق بماو تسي تونغ، ودخل المكتب السياسي في ١٩٣٩. وبعد انتصار الشيوعيين (١٩٤٩)، كلف بمهام حزبية وحكومية، ورافق شو إن لاي إلى الاتحاد السوفياتي لتوقيع معاهدة التعاون بين البلدين. عززت الثورة الثقافية من مكانته ووقف إلى جانب قادتها («زمرة الاربعة»). بعد المؤتمر العشرين (آب ١٩٧٣)، اصبح كانغ شنغ النائب الثالث للرئيس لكن وضعه الصحي لم يسمح له بتسلم مهامه.

*** كوكيو باي Quqwbai** (١٨٩٩-١٩٣٥): شيوعي وسياسي صيني. ولد في عائلة متواضعة الحال وكان والده مدرسًا. درس اللغة والادب الروسيين وترجم غوركي إلى الصينية. سافر إلى روسيا (١٩٢٠) حيث تلقى مبادىء الماركسية، وعمل استاذًا في علم الاجتماع في شانغهاي. حُمل إلى قيادة الحزب وهو شاب يافع فاصبح سكرتيرًا عامًا للحزب الشيوعي الصيني في آب ١٩٢٧ حتى آب ١٩٢٨. وقع في أيدي عملاء الكومنتانغ (وكان يتزعمه تشيانغ كاي تشيك) وأعدم رميًا بالرصاص. انتقدت الثورة الثقافية كتاباته، فاعتبرته ممثلاً لـ«أول انحراف انتهازي يساري» في الحزب. أعيد الاعتبار إلى شخصه في آذار ١٩٨٠.

*** كياو غوانهوا Quiao Guanhua** (١٩١٣-١٩٨٣): شيوعي وسياسي ودبلوماسي صيني. تابع دراسته في اوروبا وحصل على لقب دكتور في الفلسفة من جامعة توبنغن Tubingen (ألمانيا). انضم إلى الحزب الشيوعي الصيني، وأصبح أكثر المقربين إلى شو إن

لاي. بعد ١٩٤٩، أوفد بمهمات دبلوماسية إلى الامم المتحدة (١٩٥٠) وإلى جنيف (١٩٥٤).

لعب دورًا أساسيًا في إعادة إقامة العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحدة (١٩٧٢). وفي ١٩٧٤، اصبح وزيرًا للخارجية. وفي ١٩٧٦، وبعد عودته من نيويورك حيث كان يرأس وفد بلاده إلى الامم المتحدة، اختفى عن المسرح السياسي بعد اتهامه باقامة علاقات شخصية بواسطة زوجته مع أرملة ماو تسي تونغ و«زمرة الاربعة». وافته المنية جراء سرطان في الرئة.

*** لاو شي (١٨٩٩-١٩٦٦):** أحد كبار الأدباء والكتاب السياسيين الصينيين. تمكن، طوال عقود من الزمن، ان يجعل لنفسه مكانة عالمية وأضحى الاديب والكاتب الصيني الأكثر شهرة في الخارج، ولا سيما في الولايات المتحدة وبريطانيا واليابان، حيث كان معظم كتبه يترجم فور صدورها في الصينية.

ولد لاو شي في أسرة متواضعة من أصل منشوري، وكان أبوه ضابطًا في الحرس الامبراطوري، قتل خلال معارك البوكسرز (الملاكمين)، ما اضطر الأم للعمل خادمة حتى تمكن ا بنها شو كنغتشوان (إسم لاو شي الأصلي) من تلقي العلم. فأنهى دراسته الابتدائية ثم الثانوية فالثانوية العليا، وأصبح مدرسًا ثم خبيرًا تربويًا، وبدأت تظهر لديه الميول الادبية باكرًا، لا سيما حين اقام في انكلترا لمدة خمسة أعوام (١٩٢٤-١٩٢٩) اكتشف خلالها أعمال ديكنز وتأثر بها، فكتب هناك عدة روايات.

في ١٩٣٠، عاد إلى الصين وعين استاذًا في الجامعة. وإبان الغزو الياباني (١٩٣٧) هرب إلى مقاطعة ودهان، وهناك تعرف إلى ماو تسي تونغ وبدأ يشغل مناصب رسمية في الثورة. وفي ١٩٤٦ توجه إلى الولايات المتحدة، وثابر هناك على الكتابة. وحين عاد إلى الصين بدأ يشغل مناصب عليا في الادارة الثقافية. وفي ١٩٥٤، انتخب نائبًا عن بكين. وفي وقت كان يكتب فيه رواية يحكي فيها سيرته الذاتية لقي مصرعه على ايدي حرس الثورة الثقافية الأحمر؛ وكانت الرواية الرسمية انه عثر على جثته قرب بحيرة السلام (في بكين) وقد غمس رأسه كله في الماء بينما كانت ثيابه لا تزال جافة، و«يعتقد بأنه مات انتحارًا». وكان لاو شي، قبل يوم من العثور على جثته، قد ضرب من الحرس الأحمر على مدخل معبد لكونفوشيوس كان يزوره.

لاو شي.

*** لياو تشنغزي Liao Chengzhi (١٩٠٨-):** شيوعي وسياسي صيني. ولد في طوكيو. كان والده من زعماء الكومنتانغ، وقد اغتيل في ١٩٢٥. فهرب لياو إلى اليابان حيث انضم إلى فرع الحزب الشيوعي الصيني هناك. عاد بعد ذلك إلى الصين ودرس في كانتون، ثم سافر إلى المانيا حيث اعتقل بسبب نشاطه الثوري. انضم إلى الجيش الأحمر أثناء المسيرة الكبرى. اعتقله الصينيون الوطنيون (بزعامة تشيانغ كاي-تشيك) في ١٩٤٢، وانتخب غيابيًا عضوًا بديلاً في اللجنة المركزية للحزب.

اتهم أثناء الثورة الثقافية بالتحريفية وأبعد عن مناصبه. وبعد وفاة ماو تسي تونغ، كلف بادارة شؤون الصينيين في الخارج، وترأس جمعية الصداقة الصينية-اليابانية. انتخب في ايلول ١٩٨٢ عضوًا في المكتب السياسي، ففسر انتخابه بأنه إشارة إلى الاولوية التي باتت تعطيها الصين لمشكلات تايوان وهونغ كونغ وللعلاقات مع الصينيين المقيمين خارج وطنهم.

*** ليتا-تشاو Lita-Tchao (١٨٨٨-١٩٢٧):** من مؤسسي الحزب الشيوعي الصيني وأحد ألمع المثقفين. درس الحقوق والادارة. ومارس الصحافة وأسس عددًا من المجلات، ودرّس التاريخ والاقتصاد والعلوم السياسية في

جامعة بكين، وترك تأثيره في نفوس الطلاب، وتأثر بالثورة البلشفية؛ وفي ١٩١٨، أنشأ مجموعة لدراسة الماركسية، وكان له دوره الأساسي في تأسيس نواة للحزب الشيوعي الصيني منذ ١٩٢٠، وفي إعطائه الاتجاه اللينيني. وشكل مجموعات من الناشطين للعمل في الوسط البروليتاري؛ وفي تموز ١٩٢١، عقد أول مؤتمر في شانغهاي لاعلان ولادة الحزب الشيوعي. انتخب عضوًا في اللجنة المركزية أثناء المؤتمر الثاني للحزب (١٩٢٢). ولعب دورًا مهمًا في إقناع صن يات صن بالتعاون مع الكومنترن والحزب الشيوعي الصيني. وانتسب ليتا-تشاو إلى الكومنتانغ بصفة شخصية. حضر المؤتمر الخامس للكومنترن الذي انعقد في موسكو. في نيسان ١٩٢٧ اعتقله تشانغ تسو-ين، حاكم منشوريا العسكري واتهمه صوريًا بالتعاون مع اليابان. وأثار هذا الاعتقال الاوساط الثقافية الصينية خاصة وان ليتا-تشاو كان قد ألقي القبض عليه داخل سفارة الاتحاد السوفياتي في بكين بتحريض ضمني من الدبلوماسيين الغربيين. ولم تتمكن العريضة الموقعة من العديد من المثقفين من إيقاف الحكم، فشنق وله من العمر ٣٨ عامًا.

*** لي فو-تشون Li Fu Chun** (١٨٩٩-١٩٧٥): زعيم شيوعي واقتصادي صيني. بدأ حياته السياسية بانخراطه في «عصبة دراسة الشعب الجديد» التي كان ماو تسي تونغ أحد مؤسسيها. سافر إلى فرنسا وعمل في مصانع «رينو» ثم «كروزو». وبعد إقرار مبدأ التعاون بين فروع الحزب الشيوعي الصيني في الخارج وحزب الكومنتانغ (قبل انقلاب تشيانغ كاي تشيك على هذا التعاون)، أصبح لي فو-تشون (١٩٢٤) عضوًا للجنة التنفيذية للكومنتانغ في باريس، وفي الوقت نفسه في الحزب الشيوعي الصيني. بعد عودته، شارك في حملة الشمال ضد «أسياد الحرب».

انتخب في ١٩٣٤ عضوًا في اللجنة المركزية للحزب، وشارك في المسيرة الطويلة، وأصبح عضوًا في اللجنة الاقتصادية والمالية لمناطق الشمال الغربي في الصين. وبعد هزيمة اليابان وتحرير منشوريا، كلف لي فو-تشون ولين بياو وبنغ تشن وتشن يون بتنظيم هذه المنطقة ذات الأهمية الاقتصادية على أساس النمط التعاوني للقواعد الحمر. وبقيت منشوريا لمدة طويلة ميدانًا لنشاطه الاداري والاقتصادي. في ١٩٥٠، عين وزيرًا للصناعة الثقيلة. وكان أحد المفاوضين الرئيسيين في المحادثات الصينية-السوفياتية (١٩٥٠-١٩٥٢) التي كان يؤمل منها انعاش الاقتصاد الصيني واطلاق الخطة الخمسية الأولى التي وضعت بالتعاون مع الاتحاد السوفياتي. اعتبر لي فو-تشون صانع نجاحات الاقتصاد الصيني في المرحلة التأسيسية لجمهورية الصين الشعبية.

*** لي كزيانيان Li Xiannian** (١٩٠٥-): رئيس جمهورية الصين الشعبية المنتخب في حزيران ١٩٨٣، بعد شغور هذا المنصب مدة ١٥ سنة، أي منذ إطاحة ليو تشاو شي في ١٩٦٨. ويعتبر لي كزيانيان من القادة التاريخيين للثورة الصينية، وإن لم يكن يومًا مقربًا من ماو تسي تونغ.

ولد في أسرة فلاحية فقيرة. انخرط باكرًا في صفوف الحزب الشيوعي. التقى ماو في ١٩٣٥، وانضم إلى الجيش الأحمر في مسيرته الكبرى. بعد إعلان جمهورية الصين الشعبية (١٩٤٩)، عين قائدًا عسكريًا لمقاطعة هوباي (وهي المقاطعة التي ولد فيها) ورئيسًا للحكومة المحلية، ثم اصبح عمدة مدينة ووهان الصناعية الكبرى. ومنذ ١٩٥٤، شغل منصبي نائب رئيس الحكومة المركزية ووزير المالية، وفي ١٩٥٦ انتخب عضوًا في المكتب السياسي (وكان اصبح عضوًا في اللجنة المركزية منذ ١٩٤٥).

عرف كيف يجتاز عاصفة الثورة الثقافية بفضل دعم شو إن لاي ومساعدته له. وبعد وفاة شو إن لاي طرح إسم لي كزيانيان لخلافته على رأس الحكومة. إلا انه أبعد في النهاية عن هذا المنصب لصالح هوا كو فينغ.

*** لين بياو Lin Biao** (١٩٠٨-١٩٧١): قائد عسكري ورجل دولة وزعيم شيوعي صيني. ولد في هوانغ-كانغ وانتسب إلى الحزب الشيوعي الصيني في ١٩٢٥. شارك في انتفاضة هونان (١٩٢٧)، وانضم إلى الزعيم ماو تسي تونغ الذي عينه قائدًا للجيش الصيني الاول في ١٩٣٢. وكان لين بياو خبيرًا من الطراز الاول في الشؤون الاستراتيجية والتكتيك العسكريين، وقد ابرز مواهبه العسكرية الفائقة أثناء المسيرة الكبرى، ثم أثناء الحرب ضد الاحتلال الياباني والحرب الأهلية الصينية، محققًا الانتصارات العسكرية الحاسمة التي اتاحت للحزب الشيوعي الصيني إمكانية الاستيلاء على السلطة في بكين. وقد ارتبط إسمه، على وجه الخصوص، بمعركة ممر بنغكسين (١٩٣٧) حيث تمكن، على رأس الفرقة ١١٥ التي كانت بقيادته، من هزم القوات اليابانية الزاحفة من منشوريا باتجاه المناطق الوسطى في الصين.

بعد إعلان الجمهورية الصينية الشعبية (١٩٤٩)، أخذ لين بياو يتقدم الصفوف في الحزب والدولة. ففي ١٩٥٥، منح لقب ماريشال، وانتخب عضوًا في المكتب السياسي للحزب. وفي ١٩٥٩، عين وزيرًا للدفاع، فنشر بيانه الشهير: «إلى الامام تحت الراية الحمراء للخط العام ولفكر ماو تسي تونغ العسكري» الذي مهّد لعملية إعادة تنظيم الجيش الصيني على أسس ما قبل العام ١٩٤٩. وقد ألغى لين بياو سائر الترتيبات التي كانت قد اتخذت في عهد سلفه، والتي كانت ترمي إلى إعطاء الجيش الصيني طابع الجيش النظامي الكلاسيكي وإلى تحريره، وإن بصورة مبدئية، من سيطرة الحزب. وقد تبنى لين بياو بحزم وقوة شعار «الحزب يحكم البندقية» مدللاً على التزام مطلق بخط ماو تسي تونغ.

في صيف ١٩٦٦، حلّ لين بياو مكان ليو تشاو شي في موقع الرجل الثاني في النظام الصيني. وأصبح لقبه «الرفيق الأقرب إلى ماو تسي تونغ». وفي نيسان ١٩٦٩، اختاره المؤتمر التاسع للحزب الشيوعي الصيني خليفة لماو تسي تونغ. وفي التقرير السياسي الذي رفعه إلى هذا المؤتمر دافع لين بياو عن الثورة الثقافية بحماس.

بيد ان الأمور بدأت تتبدل منذ آب ١٩٧٠ الذي شهد انعقاد جلسة مكتملة للجنة القومية التاسعة للحزب في أجواء أزمة خلافة ماو تسي تونغ، وظهر ان الاجماع حول لين بياو بدأ يتلاشى. وفي صيف ١٩٧١، تمكن خصومه، وعلى رأسهم شو إن لاي، من تقليص نفوذه ثم إطاحته. وفي ايلول ١٩٧١، أعلن عن مقتله في حادثة سقوط طائرته فوق اراضي جمهورية منغوليا الشعبية. وقد زعمت سلطات بكين وقتها ان لين بياو قد تآمر ضد الزعيم ماو تسي تونغ وحاول تنظيم انقلاب عسكري بغية الاستيلاء على السلطة، وعندما باءت محاولته بالفشل حاول الهرب إلى الاتحاد السوفياتي، غير ان طائرته سقطت بعد ان نفذ وقودها، فقتل وقتلت معه زوجته. والواقع ان هذه الرواية الرسمية لم تكن مقنعة. إذ إن لين بياو، بصفته خليفة لماو تسي تونغ، ورجل الصين القوي، كان سيتسلم زمام السلطة إن عاجلاً أو آجلاً، بل كان سيتسلمها عاجلاً نظراً إلى تقدم ماو تسي تونغ في السن. وقد كان اساسًا، حتى في ظل وجود ماو، يتحكم إلى حد كبير بمصير الصين. فلماذا تراه يتآمر على سلطة بعضها في يده وبعضها الآخر في متناول هذه اليد؟.

الشيء الأكيد ان لين بياو قد قتل، وفي حادثة طائرة على الارجح. وقبل وفاته بشهرين، في تموز ١٩٧١، قام وزير الخارجية الاميركي هنري كيسنجر بزيارته السرية الاولى للصين مدشنًا، بعيدًا عن الأنظار، طريق الانفتاح على تكنولوجيا الغرب التي سوف تسلكها الصين في وقت لاحق. فهل عارض لين بياو هذه الزيارة ودعا بالمقابل إلى التخفيف من حدة التوتر والتشنج في العلاقات الصينية-السوفياتية، فاستحق، على هذا الموقف، نقمة ماو؟ إن جميع التأويلات تبقى واردة في ظل شح المعلومات الصينية الرسمية حول اسباب وفاة من كان يعتبر خليفة ماو (عن «موسوعة السياسة»، ج٥، ص٦٠٠-٦٠٢).

لم تضف المراجع (أخصها تلك المتخصصة في السير الذاتية مثل «لو روبير»، والكتب السنوية مثل «كيد»...)، حتى اليوم، رواية أخرى، رسمية أو غير رسمية، عن مقتل لين بياو، وتذكر انه لا يزال سرًا محيرًا.

*** ليو تشاوشي Liu ShaoChi (١٨٩٨-؟):**

زعيم شيوعي صيني. انضم إلى الحزب الشيوعي منذ تأسيسه (١٩٢١). سافر إلى موسكو (١٩٢٦). لم يشارك في المسيرة الكبرى ولا في المعارك التي قادها ماو تسي تونغ، إذ كان يهتم بالتنظيم الحزبي في المدن، وأصبح منظرًا له، ومن أهم مؤلفاته «كيف تكون شيوعيًا جيدًا». أمين عام الحزب (١٩٤٣)، والرجل الثاني في المكتب السياسي (١٩٤٥) بعد ماو تسي تونغ. نائب رئيس الجمهورية

لين بياو.

(١٩٤٩)، ورئيس الدولة (١٩٥٩). شارك في الخطة الخمسية الاولى، وفي حملة «المائة زهرة» وفي نقدها، وفي «القفزة الكبرى إلى الامام» (١٩٥٨)، وأعلن عن فشلها (١٩٦٢) مشيرًا إلى تردي الاوضاع الاقتصادية في البلاد.

لم يوافق ليو على جر البلاد إلى الثورة الثقافية، فعاقبه ماو على هذا الموقف باطلاقه شعار «أقصفوا القيادة العامة» الذي ترجمه الحرس ا لأحمر على الفور: «هاجموا ليو تشاو-شي»، وهكذا أصبح ليو تشاو-شي بنظرهم «خروتشوف الصين»، و«المرتد»، و«التحريفي». ثم ارغم في نيسان ١٩٦٨ على ممارسة نقده الذاتي بصورة مذلة، وأسيئت معاملته إلى ان جرّد من جميع مناصبه ووظائفه وحتى عضويته الحزبية. واعتقل في مكان مجهول. تقول رواية «رسمية» أو «شبه رسمية» انه توفي في ١٩٦٩ نتيجة أزمة صدرية حادة أهملت معالجتها بسبب اعتقاله في أحد القطارات المهجورة. وتقول رواية أخرى انه توفي بالسرطان في ١٩٧٣. والروايتان تداولتهما الصحف الصينية في العام ١٩٧٩ الذي تم خلاله رد الاعتبار إليه.

*** ماو تسي تونغ Mao Tsé - Toung**

(١٨٩٣-١٩٧٦): أبرز الزعماء الشيوعيين الصينيين وأحد أبرز القادة العالميين في القرن العشرين.

ولد في شاوشان (مدينة صغيرة في مقاطعة هونان الصينية). كان والده فلاحًا ميسورًا. وفّق ماو بين عمله في الزراعة منذ نعومة أظافره وبين دراسته التي استماله منها دراسة تاريخ الثورات الفلاحية.

أتمّ دراسته الثانوية في معهد سيانغ-هيانغ. وفي ١٩١١، التحق بالجيش الثوري، وأبدى حماسًا لقضية الجمهورية ورئيسها صن يات صن. وأمضى عام ١٩١٢ (بعد تسريحه من الجيش) في مطالعات مؤلفات روسو ومونتسكيو وآدم سميث وستيوارت ميل وداروين وسبنسر. وفي ١٩١٣ التحق بدار المعلمين ومكث فيها حتى ١٩١٨ مشاركًا في النشاطات الطلابية. وفي ١٩١٧، نشر إعلانًا في إحدى الصحف دعا فيه الشباب الذين يشاطرونه آراءه إلى تأسيس جمعية ثقافية واجتماعية أطلق عليها في ما بعد إسم «جمعية المواطنين الجدد» (بعض المراجع يسميها «جمعية الشباب الجديد»). وقد لبّى الدعوة في البداية ثلاثة أشخاص بينهم لي ليسان. وكان ماو يؤمن، في هذه الفترة، بالديمقراطية الليبرالية ويجاهر بعدائه للنزعة العسكرية وللامبريالية.

في ١٩١٩، سافر إلى بكين حيث عمل فترة موظفًا في إحدى المكتبات. ثم رحل إلى شانغهاي حيث تعرف إلى بعض الماركسيين، فاعتنق الماركسية وشارك في حركة الشبيبة المناهضة للامبريالية وهي المعروفة باسم «حركة ٤ ايار». ومن المؤلفات التي أثرت فيه تأثيرًا قويًا في تلك الفترة «البيان الشيوعي» لكارل ماركس، و«الصراع الطبقي» لكارل كاوتسكي، و«تاريخ الاشتراكية» لكلير كوب. وفي ١٩٢٠، تبنى ماو الماركسية نهائيًا متحررًا بذلك من الآراء الفوضوية التي اجتذبته مدة من الزمن. فبدأت سيرته الذاتية تقترن بتاريخ الحركة الثورية الصينية.

انتخب ماو أمينًا للمؤتمر الاول للحزب الشيوعي الصيني (تموز ١٩٢١)، وركّز الحزب نضاله في سنواته الاولى على التنظيم النقابي، ولم يطل العام ١٩٢٢ حتى كان عمّال المناجم قد أنشأوا ما يقارب ٢٠ نقابة عمالية. وتولى ماو شخصيًا ادارة إضراب في مناجم نغان-يوان. وانتهج الحزب سياسة انفتاح وتحالف مع القوى الثورية قاطبة في الصين.

في المؤتمر الثالث (١٩٢٣) قرّر الحزب الاتحاد مع

ماو تسي تونغ.

الكومنتانغ، وكان ماو عضواً في اللجنة المركزية للحزب، وعضواً في المكتب التنفيذي لكومنتانغ شانغهاي.

وخلافاً للمبادىء الماركسية التي تركز على تثوير الطبقة العاملة في المدن، بادر ماو إلى اطلاق شرارة الثورة على نظام تشيانغ كاي-تشيك من الريف. فقد تحرّك من هونان حيث أرسى قاعدة أول نواة ثورية وحرّك مسيرة قوامها الاتحادات الفلاحية (١٩٢٥). وفي أوج ما اتفق على تسميته بـ«الحرب الاهلية الثورية الاولى» (١٩٢٥-١٩٢٧) وضع ماو كتابه «تحليل طبقات المجتمع الصيني» مؤكداً فيه على الطاقات الثورية للطبقة الفلاحية. وكان هذا النص يتعارض مع الماركسية التقليدية إلى حد رفض معه شن دو كسيو (زعيم الحزب يومذاك) نشره ومناقشته في اللجنة المركزية.

وفي آذار ١٩٢٧، عارض ماو للمرة الثانية التيار السائد في الحزب الشيوعي الصيني، ودافع عن الحركة الفلاحية في هونان. ورفض المؤتمر الخامس للحزب (ربيع ١٩٢٧) دعاوى ماو تسي تونغ. غير ان معارضة قوية ضد نهج زعيم الحزب شن دوكسيو بدأت تتبلور وأخذت عليه مهادنته تشيانغ كاي-تشيك وسوء تقديره لدور الفلاحين في الثورة. وبضغط هذه المعارضة، عيّن ماو على رأس اتحاد الفلاحين لعموم الصين، وحُمّل دوكسيو على الاستقالة.

بادر ماو إلى بناء جيش ثوري وإقامة نظام سوفيتات في مناطق يصعب على الكومنتانغ وقوات تشيانغ كاي-تشيك الوصول إليها. فشكل الفرقة الاولى من الجيش الفلاحي والعمالي الاول. وفشل في بادىء الامر وتكبدت قواته خسائر فادحة، وألقي القبض عليه، وتمكن من الفرار، لكنه أقصي من اللجنة المركزية والمكتب السياسي. فاضطر إلى اللجوء إلى جبال جيغانغ.

هناك، أسس ماو، في تشرين الثاني ١٩٢٧، «قاعدة سوفياتية». وفي ايار ١٩٢٨، انضم إليه شو ته ورجاله، فبادر عندما كان في المنطقة التي باتت تسمى «المنطقة الحرة»، إلى تنظيم عملية توزيع الاراضي والاسلحة على الفلاحين. وقد قوبلت سياسته هذه بنقد عنيف من قيادة الحزب. لكن في المؤتمر الرابع للحزب الشيوعي الصيني الذي انعقد في موسكو (حزيران ١٩٢٨) حصلت مصالحة بين ماو والقيادات الحزبية التي وافقت على تبني سياسة ماو موقتاً.

وتعرضت «القواعد الحمراء» التي أنشأها ماو في المنطقة الحرة التي يسيطر عليها لضغط شديد من قوات تشيانغ كاي-تشيك بين ١٩٣٠ و١٩٣٤. فاضطر ماو إلى

جزء من ملصق ماوي عملاق يمثل فلاحين ثواراً.

الانسحاب في اتجاه الشمال الغربي والقيام بتلك «المسيرة الكبرى» التي استغرقت عاماً كاملاً.

أثناء هذه المسيرة (١٩٣٥) تسلم ماو زمام قيادة الحزب وترأس المكتب السياسي. وفي ١٩٣٧، تحالف مع تشيانغ كاي-تشيك لصد العدوان الياباني، بيد ان ماو رفض ترجمة هذا التحالف انصهاراً على صعيدي القوات والقيادات، واستمر تحالفهما إلى ١٩٤٥. وأثناء حرب المقاومة هذه وضع ماو أهم أعماله. ففي ١٩٣٦ كتب «المشكلات الاستراتيجية للحرب الثورية في الصين»؛ وفي ١٩٣٨ «في الحرب الطويلة الأمد» و«المشكلات الاستراتيجية لحرب الانصار ضد اليابان».

وعندما أعلنت اليابان استسلامها في آب ١٩٤٥، واجه الشيوعيون الصينيون السؤال الملح التالي: هل يتعين عليهم ان يبادروا فوراً إلى تشكيل حكومة اتحاد وطني مع الكومنتانغ وتنظيم انتخابات عامة وتوحيد القوات المسلحة؟ أم ينبغي عليهم ان يتأهبوا لمواجهة مسلحة مع القوات الوطنية؟.

ورغم ان موسكو ضغطت لاختيار الاتجاه الاول، إلا ان ماو تسي تونغ رفضه بعناد لصيانة الوجود المتميز

للقوات الشيوعية. ومع ذلك، وافق على إجراء مفاوضات مع الكومنتانغ أسفرت عن توقيعه مع تشيانغ كاي-تشيك على اتفاق حل وسط (تشرين الاول ١٩٤٥) تعهد فيه الشيوعيون بالتخلي عن جزء كبير من المناطق الواقعة تحت سيطرتهم لصالح الكومنتانغ. لكن بعد ان قاطع الشيوعيون الانتخابات التي نظمها تشيانغ كاي-تشيك انفجرت الحرب الاهلية (١٩٤٦-١٩٤٩) بين الشيوعيين وأنصار تشيانغ.

في البدء اضطرت القوات الشيوعية، التي بات يطلق عليها إسم «جيش التحرير الشعبي»، إلى الانسحاب حتى يينان. غير انها عادت فشنت هجومًا ساحقًا خلال ١٩٤٨ و١٩٤٩ ونجحت في استرداد بكين وشانغهاي وكانتون. وفي الاول من تشرين الاول ١٩٤٩، أعلن ماو من ساحة تيانانمن في بكين قيام «جمهورية الصين الشعبية»، فيما كان تشيانغ كاي-تشيك ينسحب مع أنصاره إلى جزيرة فورموزا (راجع «تايوان»، ج٦)، وغدا رئيسًا للحكومة، ورئيسًا للجمهورية (من ١٩٥٤ إلى ١٩٥٩) ورئيسًا للحزب.

وسرعان ما دخل ماو في صراع مكشوف مع موسكو أعلن فيه عن رفضه تبني المثال السوفياتي في الصين مفجرًا بذلك ما اتفق على تسميته بـ«النزاع الصيني-السوفياتي» (راجع باب «معالم تاريخية»). هذا النزاع، الذي تمحور، على الصعيد النظري، حول ٢٥ نقطة أساسية، أدّى، على الصعيد العملي، إلى إحداث انشقاق جديد في الحركة الشيوعية العالمية وإلى إضعافها.

في ١٩٦٦، أطلق ماو شرارة «الثورة الثقافية» (راجع باب «معالم تاريخية») في الصين واطاح الرئيس ليو تشاو-شي وعددًا كبيرًا من القياديين والزعماء التقليديين والتاريخيين للحزب الشيوعي الصيني معتمدًا في ذلك على الجيش والحرس الأحمر. أما «الكتاب الأحمر»، الذي جمع أهم آراء ماو ومواقفه، فقد غدا في تلك السنوات المضطربة من تاريخ الصين، بمثابة «كتاب مقدس» ليس بالنسبة إلى الشباب الصيني فحسب، وإنما ايضًا بالنسبة إلى شرائح عريضة من الشباب الثوري في العالم.

توفي ماو تسي تونغ في بكين في ايلول ١٩٧٦. وقد أعيد النظر في سياسته بعد وفاته، وانحسر نفوذ المقربين منه، كما أدينت زوجته شيانغ شين وأذلت وأدخلت السجن بتهمة التآمر على أمن الدولة (المرجع الرئيسي: «موسوعة السياسة»، ج٥، ص٦٩٨-٧٠٢).

فكر ماو، المترجم في مختلف مؤلفاته، والمطبق منذ زعامته للحزب الشيوعي الصيني حتى وفاته، يُقال له «الماوية» التي قدر لها ان تمارس تأثيرًا كبيرًا تخطى حدود الصين والعالم الثالث، ليشمل القارة الاوروبية ايضًا. فبدا ماو أول منظّر ماركسي غير اوروبي وواضع أول تجربة اشتراكية غير ستالينية التوجه والسمات. فكانت الماوية منظومة افكار الثورة الصينية مثلما كانت اللينينية منظومة افكار الثورة الروسية. والسمة الأساسية في الماوية هي في تقويم دور الجماهير الفلاحية باقتحامها الميدان السياسي والعقائدي لتفرض إعادة نظر في المخططات الماركسية في بلد تعداد فلاحيه ٥٠٠ مليون فلاح منتشرين في مساحات شاسعة ولا يقابلهم سوى مليونين أو ثلاثة ملايين عامل متمركزين في عدد محدود من المدن الكبرى. إن جيشًا قوامه الفلاحون لا يهزم من قبل قوات حكومية. انه قادر على تطويق هذه القوات وتوجيه الضربة القاضية لها؛ في حين ان العمال المحصورين في مدن قليلة، كان يسهل تطويقهم وضربهم. وقد صاغ ماو هذه الاطروحة في شعاره الشهير «تطويق الارياف للمدن».

مع الثورة الثقافية راج استخدام كلمة «الماوية» Maoisme، وازدهرت التيارات الماوية في العالم. لكن المفارقة التاريخية شاءت ان تكون الثورة الثقافية خاتمة حزينة لماو. وقبل ان ينقضي عقد واحد على وفاة ماو، كان مد الماوية قد انحسر على نحو ملحوظ داخل الصين وخارجها، بعد ان كانت قد عرفت توسعًا كبيرًا في اوساط الحركات التحررية في العالم الثالث، وفي اوساط المثقفين في الغرب.

من أهم مؤلفات ماو وكتاباته: «تحليل طبقات المجتمع الصيني» (١٩٢٦)، «تقرير عن التحقيق الذي أجري في هونان حول الحركة الفلاحية» (١٩٢٧)، «القضايا الاستراتيجية للحرب الثورية في الصين» (١٩٣٦)، «في الحرب المستمرة» (١٩٣٧)، «في التناقض» (١٩٣٧)، «الديمقراطية الجديدة» (١٩٤٠)، «مقدمة وملحق لتحقيقات في الريف» (١٩٤١)، «مداخلات في ندوات حول الادب والفن في يينان» (١٩٤٢)، «حول التقارير العشرة الكبرى» (١٩٥٦)، «في سبيل حل عادل للتناقضات في صفوف الشعب» (١٩٥٧). وقد جمع مناصروه أهم نقاط وموضوعات هذه المؤلفات في «الكتاب الأحمر الصغير» الذي كان بمثابة «كتاب مقدس» و«دليل عمل» في الثورة الثقافية.

*** ماو دون Mao Dun (١٨٩٦-١٩٨١):**
كاتب وسياسي صيني عهد إليه بوزارة الثقافة على مدى

١٦ عامًا (١٩٤٩-١٩٦٥). إسمه الاصلي شن يانبينغ، وقد استخدم عددًا من الأسماء المستعارة، بيد انه لم يعرف الشهرة، سواء في الصين أو في الخارج حيث ترجمت مؤلفاته إلى عدد من لغات العالم، إلا تحت إسم ماو دون.

ينتمي ماو دون إلى ذلك الجيل من المثقفين الصينيين الذين انخرطوا في الحياة السياسية في مرحلة ما بين الحرب العالميتين، وعانوا من رقابة الكومنتانغ واحيانًا من قمعه، ثم أصبحوا، بعد قيام جمهورية الصين الشعبية جزءًا من جهازها. وقد عمل ماو دون، منذ ١٩٢٥، في دائرة دعاية الكومنتانغ الذي كان وقتذاك حليفًا للشيوعيين، ثم التحق، في ١٩٣٠، برابطة كتّاب اليسار. وفي الثلاثينات كتب أعماله الرئيسية، ومنها: «منتصف الليل» و«دود قزّ الربيع»، مقدمًا فيها لوحة غنية شاملة عن المجتمع الصيني المتفسخ، الغارق في صراعات اجتماعية تنذر بالحرب الاهلية وبمجيء الشيوعية.

وإلى جانب اضطلاعه بمهام وزارة الثقافة، ترأس ماو دون اتحاد الكتاب وأسس مجلة «الأدب الصيني» الصادرة بعدة لغات عالمية. لكن في أثناء الثورة الثقافية، تحوّل إلى هدف لانتقادات الحرس الأحمر الذين اتهموه بالتركيز أكثر مما ينبغي على تقديم أبطال «سلبيين» على حساب اهتمامه بالابطال «الايجابيين». وفي ١٩٧٢، رد إليه الاعتبار، وفي ١٩٧٤، رشحته شخصيات عالمية لجائزة نوبل للآداب («موسوعة السياسة»، ج٥، ص٧٠٢).

*** هوا كيوفينغ Hua GuoFeng (١٩٢٠-):**
زعيم شيوعي وسياسي صيني بارز. ولد في شانغهاي. نائب رئيس حكومة هونان (١٩٥٨-١٩٦٧)، وسكرتير الحزب الشيوعي في هونان منذ ١٩٥٩. نائب رئيس لجنة الثورة في هونان أثناء الثورة الثقافية، ثم رئيسًا لهذه اللجنة في ١٩٧٠، وعضو اللجنة المركزية للحزب منذ ١٩٦٩، وسكرتير أول للحزب في مقاطعة هونان بين ١٩٧٠ و١٩٧٧، وعضو المكتب السياسي منذ ١٩٧٣، ونائب أول للأمين العام من نيسان ١٩٧٦ حتى تشرين الأول من السنة نفسها. نائب أول لرئيس الوزراء ووزير الدفاع (١٩٧٥). رئيس الوزراء وأمين عام الحزب الشيوعي الصيني من ١٩٧٦ إلى ١٩٨١ حينما جرى انتخاب زهاو زيانغ أمينًا عامًا جديدًا، واحتفظ هوا كيو-فينغ بعضوية اللجنة المركزية منذ ١٩٨٢، وجدد المؤتمر الثاني عشر للحزب (١٩٨٣) والثالث عشر (١٩٨٧) انتخابه عضوًا في لجنته المركزية.

*** هوانغ هوا Huang Hua(١٩١٣-١٩٨٩):**
شيوعي وسياسي ودبلوماسي صيني. درس في جامعة يانكين ثم جامعة بكين. انضم إلى الحزب الشيوعي في ١٩٣٦، ثم التحق بالسلك الدبلوماسي وتدرج في منصبه حتى تولى مدير دائرة غربي اوروبا في وزارة الخارجية. ترأس فريق المفاوضين الصينيين أثناء الحرب الكورية (١٩٥٣)، ثم الناطق الرسمي لفريق المفاوضين في جنيف (١٩٥٤)، وترأس الوفد الصيني إلى مؤتمر باندونغ (١٩٥٥) بصفته المستشار السياسي لرئيس الوزراء شو إن لاي. مستشار الوفد الصيني إلى المفاوضات الاميركية-الصينية في وارسو (١٩٥٨)، ثم سفير في غانا (١٩٦٠-١٩٦٦)، ومصر (١٩٦٦-١٩٦٩)، وكندا (١٩٧١)، والممثل الدائم للصين في الامم المتحدة (١٩٧١-١٩٧٦)، وعيّن، في ١٩٧٦ وزيرًا للخارجية حتى ١٩٨٣ متوليًا في أثنائها منصب نائب رئيس مجلس الدولة (١٩٨٠-١٩٨٢). نائب في مجلس نواب الشعب (١٩٨٣-١٩٨٨). وكان هوانغ هوا قد انتخبه المؤتمر العاشر للحزب (١٩٧٤) عضوًا في اللجنة المركزية، وجدد انتخابه في المؤتمر الحادي عشر (١٩٧٨) والثاني عشر (١٩٨٣). وظل يشغل منصب عضو اللجنة المركزية حتى ١٩٨٧، ثم أصبح أمين عام الحزب، وكان من دعاة الحوار والانفتاح على الطلاب في حركتهم الشهيرة (١٩٨٩).

*** وانغ تونغ-هسينغ Wang Tung-Hsing:**
شيوعي وسياسي صيني. لفّ الغموض شخصه لفترة طويلة بسبب مهماته الامنية، أولها مسؤوليته عن الحرس الشخصي لماو تسي تونغ فبقي ملازمًا له من ١٩٤٧ حتى وفاة ماو في ١٩٧٦. نائب حاكم كيانغسي (١٩٥٨-١٩٦٠)، ثم نائب وزير الأمن في بكين. لعب دورًا سريًا وقياديًا في الثورة الثقافية. في ١٩٦٩، انتخبه المؤتمر التاسع للجنة المركزية، واصبح عضوًا احتياطيًا في المكتب السياسي، ثم عضوًا كاملاً في ١٩٧٣. وإبان أزمة تشرين الاول ١٩٧٦، اعتقد انه كان من بين «زمرة الاربعة»، ولكن سرعان ما تبدد هذا الاعتقاد عندما ظهر في الصف الامامي على المنصة التي وقف عليها هوا كيو-فينغ في مناسبة تعيينه رئيسًا للحزب. وفي آب ١٩٧٧ انتخبه المؤتمر الحادي عشر عضوًا في اللجنة الدائمة في المكتب السياسي.

*** واي جنغ-شنغ (١٩٥٢-):** معارض ليبرالي صيني. ولد في عائلة متوسطة الحال، برز فيها عدد من

المثقفين. عامل كهربائي في حديقة حيوانات بكين، إلا انه جهد في تثقيف نفسه، فاطلع على ترجمات صينية لكتب اقتصادية وسياسية واشتراكية فرنسية وبريطانية، وخاصة مؤلفات شارل فورييه وآدم سميث.

اعتقل في ٢٩ آذار ١٩٧٩ لآرائه الليبرالية ومعارضته نظام دينغ كسياو بينغ وفي أجواء تحرك دُعي يومها «ربيع بكين»، وأطلق شرارته، بصورة غير مباشرة، الرئيس دينغ كسياو بينغ نفسه الذي بدأ حملة اصلاحية واسعة في المجال الاقتصادي، فواكبته تحركات جدية تطالب بالديمقراطية وتستعمل «الصحافة الجدرانية» الملصقة على جدار في بكين يقع في حي جيدان. وضمن إطار هذا التحرك وضع واي جنغ-شنغ نصًا حقق له شهرة كبيرة في العالم وكان له رد فعل قوي داخل الصين. وكان عنوان النص: «التحديث الخاص: الديمقراطية»، وأشار فيه إلى التحديثات الاربعة التي كان نظام دينغ يسعى لاحلالها: تحديث الجيش والعلم والزراعة والصناعة، وقال انه لا يمكن تحقيقها في اطار الوضع السياسي الراهن في الصين من دون تحقيق تحديث خاص هو الديمقراطية. كما راح واي جنغ-شنغ يشرح ضرورة الديمقراطية السياسية بعبارات لا تمت إلى الماركسية بصلة. فلم تتحمل السلطات كلامه على رغم كل وعود الليبرالية الاقتصادية والسكوت الرسمي عن بعض مظاهر ربيع براغ (١٩٧٩)، فاعتقلته وحكمت عليه بالسجن لمدة ١٥ عامًا.

وخلال شهر ايلول ١٩٩٣ (أي قبل ٦ أشهر من انقضاء مدة سجنه) اطلقت السلطات سراحه، وعاد ليخوض مجددًا حملته في سبيل الديمقراطية «لأن الجائعين في الصين يفوق عددهم عدد الموسرين، ولأن هناك أناسًا يموتون من الجوع في عدد من الأقاليم بينما يستخدم الحزبيون سيارات المرسيدس في تنقلاتهم» (عن ابراهيم العريس، «الحياة»، ٢٩ آذار ١٩٩٤؛ نقلاً عن مجلة «أكسبرس» الفرنسية في ملف كرسته للحديث عن واي جنغ-شنغ).

* **يوان شي-كاي (١٨٥٩-١٩١٦)**: أول رئيس لجمهورية عموم الصين بعد سقوط الحكم الامبراطوري. ولد في مقاطعة هونان. التحق بالجيش في ١٨٨٢. عين حاكمًا على سيول (عاصمة كوريا) حتى ١٨٩٤. عين مستشارًا للامبراطور الصيني في ١٨٩٨، ثم للامبراطورة. وبعد وفاتها نفي من البلاد. وبسقوط اسرة مانشو (١٩١١) تولى قيادة جيش المقاطعات الشمالية. عين رئيسًا للحكومة في ظل آخر مرسوم امبراطوري، وقام بوضع أسس نظام جمهوري، وتولى رئاسة الجمهورية الجديدة بصفة مؤقتة في ١٩١٢. وبعد استقالة صن يات صن في الجنوب، تولى الرئاسة بصفة رسمية (١٩١٣-١٩١٦)، فحاول فرض نظام دكتاتوري، وحلّ البرلمان، واضطهد صن وأتباعه وأعاد الكونفوشيوسية إلى الصين، واتهم بأنه كان يسعى لاستعادة عرش الصين لنفسه. توفي في ظروف مريبة (راجع «صن يات صن» في هذا الباب «زعماء، رجال دولة وسياسة»).

طاجيكستان

بطاقة تعريف

الموقع والمساحة: في آسيا الوسطى وإحدى جمهورياتها الاسلامية. لها حدود مشتركة مع أوزبكستان وقيرغيزستان والصين وأفغانستان. وطاجيكستان هي الدولة الأصغر في آسيا الوسطى، تبلغ مساحتها ١٤٣١٠٠ كلم م..

العاصمة: دوشنبه (ستالين آباد سابقًا) التي تعد نحو ٦٢٥ ألف نسمة. وأهم المدن خوجند (لينين آباد سابقًا) وتعد نحو ١٧٠ ألف نسمة.

والعاصمة «دوشنبه» حديثة العهد، أنشئت في ١٩٢٥ على أنقاض قرية صغيرة تقع في وادي غيسار وتحمل الإسم نفسه «غيسار». وإسم «دوشنبه» يعني «سوق يوم الاثنين». وعلى الرغم من التقاليد الحضرية في البلاد، فإن عدد المدن (أي التي تتجاوز الـ٣٠ أو الـ٤٠ ألف نسمة) لا يتعدى ١٨ مدينة، مقابل ١٢٣ مدينة في أوزبكستان و١٦ مدينة في تركمانستان و٢١

مدينــة في قيرغيزســتان و٨٣ مدينــة مــن كازاخستان.

اللغات: الطاجيكية (رسمية منذ ١٩٩٠)، وهي تنتمي إلى المجموعة اللغوية الفارسية. واللغة نفسها تتكلمها أقليات من العرق نفسه في الصين وأفغانستان وشمالي باكستان.

السكان والهوية: بلغ عددهم (في ١٩٩٢) ٥ ملايين و٦٠٠ ألف نسمة. منهم ٦٢٪ طاجيك، و٢٤٪ أوزبكيون، و٨٪ سلافيون (روس)، إضافة إلى نسبة من التتار والقيرغيزيين.

التكوين العرقي للطاجيك جعلهم مجموعة متغايرة الخواص والعناصر، وهي صفة أساسية متأصلة في طاجيكستان، وبالتالي تُعد من العوامل المهمة التي حالت دون نمو هوية وطنية قومية واضحة بين المواطنين الطاجيك. ولقد عجز هؤلاء وسط اقليات البلاد العرقية وشعوب المنطقة، عن تكوين صورة واضحة عن أنفسهم. كما زادت حدة المشكلة بسبب معنى لفظ «طاجيك» الذي تعددت دلالاته عبر التاريخ. ففي حين يشير الأصل العرقي للطاجيك إلى «سكان الجبال من السنّة الناطقين بالفارسية»، إلا ان التعريف الحديث للطاجيك لا يعني أكثر من «أناس يدينون بالمذهب السني ويتكلمون الفارسية ويقطنون آسيا الوسطى». وبالتالي، فإن هذا التعريف ينطبق على بعض الجماعات العرقية في شمالي أفغانستان. ومما زاد في الغموض (لدى الطاجيك أنفسهم) ان التحدث بلغتين شائع جدًا خاصة في مدن طاجيكستان، فلم يعد من الممكن استخدام اللغة دليلاً قاطعًا على الهوية العرقية. إذ إن بعض التجمعات تعتبر نفسها من الأوزبكيين برغم ان أبناءها يتكلمون لغة الطاجيك؛ كما توجد جماعات تتكلم الأوزبكية وتعتبر نفسها من الطاجيك.

وكذلك، فمن المشكلات الأساسية في «توضيح الهوية الطاجيكية» ان حدود الجمهورية الطاجيكية الحالية لا تعكس الكيان التقليدي للدولة، ولا توزيع سكان الطاجيك (على افتراض انهم الشعب الناطق بالفارسية الذي يعتنق المذهب السنّي) داخل آسيا الوسطى أو خارجها. ففي الوقت الحالي، يفوق عدد الطاجيك الذين يعيشون خارج حدود الجمهورية عدد القاطنين داخلها، إذ استقر أكثر من ٣ ملايين منهم في أفغانستان، وأكثر من مليون في أوزبكستان. ويرجع السبب في ذلك إلى تقسيم السوفيات للاراضي، حيث ضموا إلى أوزبكستان مدينتي سمرقند وبخارى اللتين تعدان من المراكز الثقافية العريقة للطاجيك، بينما حوّلوا قرية صغيرة مثل دوشنبه لتكون عاصمة طاجيكستان. وفي ظل هذه الظروف، أصبح الانتماء إلى العشيرة أو مناطق جغرافية من المعايير الملائمة والطبيعية لتحديد الهوية أو الولاء، أكثر من استخدام الانتماء إلى وطن أو هوية وطنية. هذا إضافة إلى انه لم يكن هناك، قبل العهد السوفياتي، وجود سياسي لطاجيكستان، نظرًا إلى ان تاريخها كان حافلاً بالهجرات والغزوات والاحتلالات.

في ١٩٢٠، أدت سياسات ستالين القومية إلى قيام طاجيكستان عبر توحيد ثلاث مناطق مختلفة هي: لينين آباد، المنطقة الوسطى الجنوبية والباميرس. وقد تميزت هذه المناطق بتكوينها العرقي الخاص بها. فجاء تأسيس الدولة عملية مصطنعة ولم يعكس رغبة واضحة لدى الطاجيك في ان يكون لهم مصير واحد، بل كان أمرًا مفروضًا من موسكو استجابة لمستلزمات سياسية: «لا يوجد دليل واقعي على ان الطاجيك اعتبروا أنفسهم جماعة تحمل هوية وطنية مميزة برغم التراث الايراني الذي يجمع بينهم. ولم يكن هناك احتكاك يذكر بين

المجموعات الفرعية الثلاث التي وجدوا أنفسهم منقسمين إليها» (عن جوليان ثوني، «النزاع في طاجيكستان»، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية»، ابو ظبي، ١٩٩٤، ص١٦، نقلاً عن Tersa Rakowska-Harmstone, «Russia and Nationalism in Central Asia», London 1970, p.78).

وبالرغم من جميع تلك المصاعب التي اعاقت ولادة هوية وطنية، فقد حاولت فئة المفكرين في مدن طاجيكستان صياغة خطاب قومي والعمل على نشره بين جميع السكان. وقد اعتمدت هذه الايديولوجيا القومية على الفكرة القائلة بأن الطاجيك هم خليط من الاشكال الشرقية والغربية للحضارة الايرانية التي تعود ثقافتها إلى مملكة السامانيين (٨٧٥-٩٩٩). ومنذ الاستقلال في ١٩٩١، اتخذت محاولة اكتشاف ثقافة قومية قديمة، وهوية وطنية، أشكالاً متعددة، منها إعادة استخدام الأسماء التاريخية مثل «خوجند»، أو العودة إلى الحروف العربية، أو تأسيس مركز ثقافي للطاجيك. لكن الصراعات الداخلية والاقليمية التي ابتليت بها الجمهورية الوليدة حكمت على هذه المحاولات بالفشل.

المناطق، باداخشان مستقلة ذاتيًا: تقع في شرقي البلاد منطقة مستقلة استقلالاً ذاتيًا تسمى «جورنو-باداخشان» التي تتميز بسلسلة جبال البامير شاهقة الارتفاع، وببعدها عن وسط البلاد وانعزالها النسبي عنها. ومن الناحية التاريخية، تبعد هذه المنطقة عن المؤثرات الخارجية، وتسكنها عدة جماعات عرقية من البامير التي تنتمي إلى المذهب الاسلامي المسمّى «الاسماعيلية» (التي يتزعمها الآغاخان)، ويتكلم أهلها لغات ايرانية شرقية مختلفة عن اللغة الطاجيكية الشائعة، وحضارتهم قريبة من — الحضارة الأفغانية. وتغطي باداخشان ٤٤٪ من إجمالي مساحة طاجيكستان، بينما لا يقطنها سوى ٣٪ من إجمالي السكان. عاصمتها خوروغ التي تعد نحو ١٦ ألف نسمة.

في الشمال تقع منطقة «لينين آباد» التي تعزلها هي الأخرى عن وسط البلاد سلسلة جبال زرافشان المرتفعة. وتاريخيًا، كان هذا الجزء من البلاد يتبع إقليم خانت كوكاند الذي كان يهيمن عليه الأوزبك، وكان أول إقليم يقع تحت السيطرة الروسية في القرن التاسع عشر. والاقليم اتخذ حاليًا إسم «خوجند»، وهو يفوق باقي المناطق في المستوى الصناعي والحضاري. وكان قد ضمّ إلى الجمهورية الفتية في ١٩٢٩ لكي يكون القاعدة الاقتصادية للدولة. ويصل عدد الأوزبكيين فيه إلى نصف عدد السكان. ويعد هذا الاقليم حيويًا لبقاء طاجيكستان، وكان يستأثر بنسبة ٦٥٪ من إجمالي الناتج القومي قبل الاستقلال والحرب، مع انه كان يستهلك ٤٠٪ فقط من الموازنة.

أما المنطقة الوسطى-الجنوبية فتتميز بالوديان والسهول، وكانت قديمًا جزءًا من إقليم «خان بخارى» الذي كان معاديًا لاقليم كوكاند (خوجند) ومتميزًا عنه. وتسود الزراعة في المنطقة الوسطى-الجنوبية التي يعتمد اقتصادها على زراعة القطن. وتتكون هذه المنطقة من ثلاثة أقاليم: دوشنبه التي تمتد من وادي هيسار حتى وادي غارم إضافة إلى المقاطعتين الاداريتين كرجان-طيوب وكولياب في الجنوب. وثمة تحول تاريخي كبير عاشته هذه المنطقة في الخمسينات عندما زادت الحاجة إلى عمال زراعة القطن، فأجبر بعض سكان باميرس وغارم على الاستقرار في اقليمي كرجان-طيوب وكولياب، فأصبحت المنطقة خليطًا من شعوب ذات أصول مختلفة، ولم ينجح الوافدون الجدد في الاندماج

مع المجتمعات الموجودة أصلاً، بل على العكس أنشأوا مزارع تعاونية خاصة بهم واستمروا في ممارسة تقاليدهم الخاصة.

إقتصاد: طاجيكستان أفقر جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق. ثرواتها: الفحم الحجري، الغاز الطبيعي، النفط، القصدير، الزنك، الالومينيوم. صناعتها خفيفة، أساسها الصناعات الغذائية (خاصة صناعة الفواكه المجففة). تتوزع يدها العاملة على نحو ٣٨٪ في الزراعة، ٢٤٪ في الصناعة، و٣٨٪ في التجارة والخدمات.

يعيش حوالي ٧٠٪ من سكان طاجيكستان على حافة الفقر أو تحتها. ولا تساعد مصادر البلاد الأساسية على حل هذه المشكلة. فانتاج القطن والحرير والطاقة الكهربائية والألومينيوم والملح والمواد الغذائية يُدار بطرق بدائية. فإذا كان انتاج القطن جيدًا تتم مقايضته بالسلع الضرورية، والأولوية من هذه السلع تُعطى للسكر والزيت والشاي والملابس، ويُعتبر الشاي مادة غذائية اساسية. وتسجل في البلاد نسبة وفيات أطفال هي بين النسب المرتفعة في العالم.

لقد نمت مناطق طاجيكستان بطريقة شديدة التفاوت. فمنطقة الشمال، وخاصة خوجند، عرفت نموًا صناعيًا مهمًا قياسًا على مناطق الجنوب والشرق. وكانت خوجند (لينين آباد في العهد السوفياتي) مصدرًا أساسيًا للكادرات والقيادات الحاكمة، وتضم نسبة كبيرة من اقلية الأوزبك الموجودة في البلاد، والتي كانت (ولا تزال) تتطلع إلى الاندماج بأوزبكستان التي لا تزال تعتبر أن خوجند نزعها ستالين منها.

يعتبر الجنوب الأكثر تخلفًا، ولم يشارك أي من أبنائه في سلطة القرار وينتمي إلى الجنوب جميع قادة المعارضة الحالية تقريبًا.

نبذة تاريخية

قبل العهد السوفياتي: يرجح المؤرخون أن تسمية «طاجيك» التي أطلقت على قبائل المنطقة، مع انتشار الاسلام في فتوحاته في المنطقة، جاءت من إسم قبيلة «طيء» العربية. ثم تعمّمت هذه التسمية حتى أصبحت تطال المسلمين المحليين الناطقين بالفارسية التي كانت في ذلك الحين لغة التخاطب الرئيسية في هذه المناطق. وقد ساهم الطاجيك، الذين هم والايرانيون من عرق واحد، بقسط في تطوير الحضارة الاسلامية. وما يزال الطاجيك يفخرون بعباقرة المنطقة المسلمين وينسّبونهم إليهم من أمثال الامام ابي عبد الله محمد البخاري أو الطبيب والفيلسوف ابي علي ابن سينا والفلكي ابي محمود الخجندي.

تمثال ابن سينا في ساحة جديدة في دوشنبه، وكان قد نقل اليها في ١٩٨٠ في نطاق احتفالات تكريمية لهذا الفيلسوف والعالم التي اقيمت بمناسبة مرور الف سنة على ولادته.

أنشأ الطاجيك في القرنين التاسع والعاشر دولة السامانيين التي ضمت جزءًا كبيرًا من اراضي آسيا الوسطى الحالية وأفغانستان، وكانت عاصمتها بخارى في ذلك الحين من أكبر الحواضر الثقافية في العالم الاسلامي. لكن بخارى سقطت خريف ٩٩٩ في ايدي القبائل التركية. فكان حدثًا دراماتيكيًا بالنسبة إلى الشعوب الناطقة بالفارسية. فعاش الطاجيك طوال القرون العشرة التالية من دون ان يكون لهم دولة. وعلى الرغم من ان لغتهم كانت سائدة في المعاملات الرسمية والثقافية في بخارى وسمرقند حتى العشرينات من هذا القرن، فإنهم كانوا يتعرضون باستمرار للمضايقات فيرحلون إلى المناطق الجبلية في حين كانت الشعوب التركية المحلية تنتقل من حياة الرعي إلى حياة الزرع وتتحضر في وديان ما وراء النهر الحضرية.

في العهد السوفياتي، «جمهورية طاجيكستان الاشتراكية السوفياتية»: في ١٨٦٨ سيطر الروس القياصرة على القسم الشمالي مما يُعرف اليوم بطاجيكستان، في حين ظل القسم الشرقي متصلاً بما كان يُعرف آنذاك بامارة بخارى، أي ما يعرف اليوم بأوزبكستان.

بعد قيام الثورة الشيوعية بسنوات قليلة، وتحديدًا في ١٩٢٤ منح السوفيات حكمًا ذاتيًا للمناطق الطاجيكية، ثم عمدوا في ١٩٢٩ إلى فصل الاراضي الطاجيكية عن أوزبكستان وأنشأوا دولة مستقلة في إطار حدود طاجيكستان الحالية. وهكذا، وللمرة الاولى بعد انقطاع استمر ألف سنة تقريبًا عادت «الجزيرة الايرانية» إلى الظهور في محيط يغلب عليه العنصر التركي.

لكن وحدة هذه الدولة التي أنشأها السوفيات وأطلقوا عليها إسم «جمهورية طاجيكستان الاشتراكية السوفياتية» (١٩٢٩) جاءت مركبة ومصطنعة لدرجة ظل الطاجيك يعتبرون ان بخارى وسمرقند قد نزعتا منهم، في حين اعتبر الأوزبك (وما يزالون) ان القسم الجبلي من طاجيكستان كان تابعًا لإمارة بخارى، ويقدم كل من الطرفين مبرراته التاريخية.

وحكم دوشنبه (عاصمة طاجيكستان) زعماء شيوعيون ينتمون جميعًا إلى عشيرة خجند الطاجيكية الموجودة في شمالي البلاد التي كانت تقليديًا (منذ العصور الوسطى) تمد السلطات المتعاقبة بالعناصر القيادية وتتميز بمستوى أعلى من التطور الاقتصادي والثقافي. أما ابناء المناطق الأخرى فكانوا لا يحتلون سوى مناصب ثانوية. فظلت هذه المناطق، وخاصة الجنوبية، تنحدر إلى هوة الركود الاقتصادي والفقر، لكن أبناءها بقوا، وهم سكان المناطق الجبلية، محافظين على الاسلام، يتزعمهم مشايخ الطريقة القادرية والطريقة النقشبندية الصوفيتين. وهكذا تراكمت وراء واجهة «جمهورية طاجيكستان الاشتراكية السوفياتية» تناقضات بين المناطق التي واجهت ظروفًا اقتصادية واجتماعية غير متكافئة.

خطوات الاستقلال عقب اطلاق «البيروسترويكا»: مع وصول الزعيم السوفياتي، ميخائيل غورباتشوف، إلى السلطة في موسكو، واطلاقه البيروسترويكا في ١٩٨٥، سارع الامين الاول للحزب الشيوعي الطاجيكي، رحمن نبييف، الذي كان من أنصار الزعيم السوفياتي السابق ليونيد بريجنيف، إلى تقديم استقالته من زعامة الحزب والدولة في طاجيكستان (آذار ١٩٨٥)، مفسحًا في المجال أمام القادة الشيوعيين الموالين لغورباتشوف. وفي ظل القيادة الشيوعية الجديدة، أخذت طاجيكستان تعرف مسارًا إنفكاكيًا عن الاتحاد السوفياتي شبيهًا بباقي دول الاتحاد السوفياتي السابق. ففي شباط ١٩٨٩، أعلن عن قيام أول حركة معارضة للشيوعية باسم «راستوخيز». وقد تلى ذلك وعلى مدى نحو ـــ

نماذج من رسوم توضيحية كانت وكالة «نوفوستي» السوفياتية توردها في منشورات دعائية تتكلم عن مختلف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق. هنا بعض الرسوم الخاصة بجمهورية طاجيكستان الاشتراكية السوفياتية قبل سنة واحدة من انهيار الاتحاد السوفياتي.

عامين تأسيس عدد من الحركات والاحزاب (راجع باب «المؤثرات الداخلية والخارجية»).

في ١١ شباط ١٩٩٠، عمّت العاصمة دوشنبه تظاهرات بسبب ما قيل عن توطين أرمن في طاجيكستان فارين من الحرب الدائرة بين أرمينيا وأذربيجان. وبعد نحو شهر، جرت انتخابات مجلس السوفيات الاعلى (البرلمان) وحصل الشيوعيون على ٩٧٪ من المقاعد.

١٩٩١: في آب، أثارت محاولة الانقلاب الفاشل التي قادها ضباط متشددون في موسكو ضد غورباتشوف نقمة شعبية في طاجيكستان ضد الحكومة الطاجيكية التي أظهرت تأييدًا للانقلابيين وعمت التظاهرات دوشنبه. وبعد ايام قليلة، أي في ٢٥ آب، أعلن استقلال طاجيكستان عن الاتحاد السوفياتي، وحلّ الحزب الشيوعي فيها. وبعد أقل من شهر واحد، أي في ٢٢ ايلول، وبعد الاحتفال بعيد المولد النبوي، اجتمع الأهالي حول تمثال لينين الضخم (٢٥ طنًا) في العاصمة، وصرخوا «الله أكبر» ثم تدافعوا لنزع التمثال عن قاعدته وتحطيمه. فسلطت هذه الحادثة الضوء على تعاظم دور قاضي الاسلام توراجان زاده، ونمو الاسلام السياسي في طاجيكستان، وتحول أحمد شاه مسعود القائد الأفغاني والطاجيكي الاصل إلى بطل قومي بسبب قتاله الشيوعيين الذين تدور معاركه ضدهم على مقربة من ارضهم. وبعد أقل من اسبوع من هذه الحادثة (تحطيم تمثال لينين) أي في الاول من تشرين الثاني ١٩٩١، انعقد المؤتمر التأسيسي لحزب النهضة الاسلامي في إحدى قاعات مبنى الحزب الشيوعي المنحل. ومع ذلك استمر المشهد السياسي العام يدور في مصلحة الحزب الشيوعي الطاجيكي، إذ فاز الزعيم الشيوعي السابق رحمن نبييف برئاسة طاجيكستان في أول انتخابات رئاسية وبأغلبية ٥٤٪ في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٩١، وادعت المعارضة (بجناحيها

متظاهرون طاجيك.

الديمقراطي والاسلامي) حصول تزوير.

الحرب الأهلية (١٩٩٢): في ٢٠ كانون الثاني ١٩٩٢، ألغى البرلمان الطاجيكي قرار حلّ الحزب الشيوعي وسمح بعودته (الأغلبية في البرلمان شيوعيون). فعمت التظاهرات مطالبة باستقالة رئيس البرلمان والقيادات الشيوعية. في ٢٢ نيسان، أطاح المجاهدون الأفغان بالحكومة الشيوعية في أفغانستان، ودخلوا كابول، فأثار ذلك القلق من مدّ اسلامي في آسيا الوسطى؛ وفي ٣٠ نيسان، أعلن نبييف حالة الطوارىء في طاجيكستان والحكم الرئاسي المباشر لمدة ٦ اشهر، فقامت المعارضة (الديمقراطية والاسلامية) بحشد أنصارها امام البرلمان في اعتصام مفتوح، وبعد اسبوع استولت على الاذاعة والتلفزيون، ثم حاصرت مبنى الاستخبارات. في ١١ ايار ١٩٩٢، وافق رئيس الجمهورية رحمن نبييف على مطالب

المعارضة، فتشكلت حكومة ائتلافية. لكن المجالس المحلية في خوجند (الشمال) وكلياب (الجنوب) رفضت الاعتراف بهذه الحكومة. وفي حزيران ١٩٩٢، اندلعت اشتباكات مسلحة بين مؤيدي الحكومة ومعارضيها. وفي ايلول ١٩٩٢، قدم نبييف استقالته في مطار العاصمة بينما كان يحاول الفرار إلى الشمال واللجوء إلى موسكو.وتسلّمت المعارضة الحكم برئاسة أكبر اسكندروف. فسارعت موسكو إلى تعزيز قواتها في طاجيكستان بوحدة من ٨٠٠ جندي سيطروا على المطار؛ وخلال اسابيع تالية، تمكن الشيوعيون من الاستيلاء على العاصمة دوشنبه، وأعلن رئيس البرلمان نفسه رئيسًا للجمهورية محمّلاً الاصوليين مسؤولية الاحداث. وخلال اسبوع واحد من المعارك، نجحت القوات الحكومية في طرد الشيوعيين من العاصمة، لكن هؤلاء تمكنوا من السيطرة على الجنوب ثم بدأوا زحفهم نحو العاصمة والشمال (في الاسابيع القليلة التي حكمت فيها المعارضة، أصبحت اللغة الطاجيكية رسمية، وبدأ إحلال الحرف العربي محل الروسي، وكانت الخطوط الجوية الطاجيكية هي الوحيدة التي كتبت الحرف العربي على طائراتها من بين سائر جمهوريات آسيا الوسطى الاسلامية، واعتبرت الاعياد الاسلامية عطلة رسمية، ورفض استقبال برامج التلفزيون التركية التي تدعو إلى استخدام الحرف اللاتيني). في تشرين الثاني ١٩٩٢، أعلن رئيس الجمهورية الموقت اسكندروف استقالة الحكومة الائتلافية، وقبل البرلمان المنعقد في خوجند استقالته وعيّن شيوعيًا سابقًا،إمام علي رحمنوف رئيسًا للبرلمان ورئيسًا للجمهورية بالوكالة. في كانون الاول ١٩٩٢، رفض الاسلاميون الحكومة الجديدة، ودخل الشيوعيون العاصمة وسط أنباء عن حصول مذابح جماعية ولجوء آلاف الطاجيك إلى افغانستان (في ٣ كانون الاول ١٩٩٢، قبلت منظمة المؤتمر الاسلامي عضوية طاجيكستان).

انقضى العام ١٩٩٢ على هزائم منيت بها المعارضة الديمقراطية والاسلامية، لكنها احتفظت بقواعد مهمة في داخل البلاد، كما ان اللاجئين الطاجيك نظموا مقاومة مسلحة انطلاقًا من الاراضي الأفغانية. وقد برزت كذلك نزعة انفصالية في منطقة باداخشان (مرتفعات جبلية تغطي حوالي نصف مساحة البلاد، وتسيطر القوات الروسية والحكومية الطاجيكية على جزء بسيط منها).

وأما المشهد السياسي العام للمنطقة في ضوء ما آلت إليه الحرب الطاجيكية، أواخر ١٩٩٢، من صراع على السلطة هو ان هذه الحرب اصبحت مرشحة للتحول إلى «ما يشبه الحرب الأفغانية في بداياتها». وهذا الاحتمال أصبح كابوسًا حقيقيًا لموسكو، وكذلك للجمهوريات الآسيوية التي بدأت تشهد نموًا ملحوظًا للتيارات الاسلامية في بلدانها. أما أفغانستان (وبدرجة أقل باكستان) فهي الدولة الأكثر تأثرًا بمجريات الحرب الطاجيكية بسبب قطبي الزعامة الرئيسية فيها: الأوزبكي رشيد دوستم، والطاجيكي أحمد شاه مسعود.

١٩٩٣: في شباط، تمكنت القوات الحكومية (الشيوعية) من تصفية جيوب المقاومة في مناطق البامير الجبلية التي لجأ إليها مقاتلو حزب النهضة الاسلامي. في آذار، لاقى سنحق صفروف زعيم الجبهة الشعبية (الشيوعية) وفيضولي ظريفوف أحد قادتها مصرعهما باطلاق عيارات نارية وفي ظروف ظلت غامضة. في تموز، واصلت القيادتان الطاجيكية وحليفتها الروسية سياسة التصعيد ضد الاسلاميين سواء داخل طاجيكستان أو في المناطق الأفغانية الحدودية حيث يحتشد المعارضون الطاجيك «للاستيلاء على ولاية باداخشان جنوبي طاجيكستان لاعلان جمهورية اسلامية منفصلة هناك بدعم من كابول»، فيما

ذكر زعيم حزب النهضة الاسلامي المهندس شريف همت زاده ان الثوار استولوا على كميات كبيرة (٢٥ تموز) من السلاح والذخيرة.

في آب، تزخمت المعارك بين القوات الحكومية الطاجيكية والروسية الحليفة وبين الثوار الطاجيك المسلمين الذين يشنون هجوماتهم من الاراضي الأفغانية الحدودية في إطار سياسي عام عنوانه تصريحات رسمية روسية متكررة مفادها ان موسكو تعتبر «الحدود (الطاجيكية-الأفغانية) خطًا دفاعيًا مهمًا ضد الخطر الذي يشكله الثوار الاسلاميون الطاجيك ومناصروهم في جمهوريات آسيا الوسطى المسلمة»؛ وتتمركز قوات من حرس الحدود الروسية بالاتفاق مع الحكومة الطاجيكية. وفي أواخر آب، بدأت تصدر بيانات من الطرفين المتنازعين تتكلم عن «سيطرة كل منهما على قرى استراتيجية» في ولاية باداخشان.

١٩٩٤: في كانون الثاني بدأ الحديث عن مؤتمر تشترك فيه اطراف النزاع. وفي آذار، وافقت المعارضة والسلطات الطاجيكية على إجراء أول محادثات مباشرة بينهما على ان تستضيف موسكو الاجتماع بحضور مسؤولين من ايران ودولة ثالثة. وقبل تقرير موعد الاجتماع، عقد وزراء خارجية روسيا وجمهوريات آسيا الوسطى اجتماعًا في دوشنبه (١٥ آذار) لصياغة موقف موحد من التسوية في طاجيكستان، ولدفع المفاوضات بين حكومتها والمعارضة. وكانت روسيا لعبت دورًا في مساعي المصالحة ونسقت مع ايران لاقناع قادة المعارضة والحكومة ببدء مفاوضات في موسكو برعاية الامم المتحدة. لكن اغتيال معين شاه نزارشويف نائب رئيس الوزراء الطاجيكي في الاسبوع الثاني من آذار أدّى إلى توتر الاوضاع من جديد وتأجيل المفاوضات. وفي مسار الانفراج نفسه، زار الرئيس الطاجيكي امام علي رحمنوف إسلام آباد، لإبرام عدد من الاتفاقات التجارية والصناعية.

في أيار، أعلن عن فشل محادثات موسكو، لكنها «فتحت الطريق امام عملية معقدة وطويلة لاحلال السلام في طاجيكستان».

وفي تموز، اجتمع ممثلون عن المعارضة وحكومة دوشنبه (في طهران، وفي جولة ثانية من المحادثات) بإشراف الامم المتحدة، أعلن خلالها وزير الخارجية الايرانية علي أكبر ولايتي ان بلاده «لا ترغب في تصدير الثورة إلى طاجيكستان (...) وإيران التي تقيم علاقات جيدة مع المعارضة تؤيد إعلان وقف النار قبل أي بحث سياسي». في غضون ذلك، شنت القوات الحكومية الطاجيكية حملة على الثوار الاسلاميين في منطقة غارم (على بعد نحو ١٥٠ كلم من دوشنبه) في أعقاب اغتيال نائب وزير الدفاع الطاجيكي.

في آب، نقلت الصحف الروسية أنباء عن مشاركة عرب في عمليات إلى جانب المعارضة الاسلامية في طاجيكستان، وذكرت أنهم كانوا تدربوا في الحرب الأفغانية، وان القوات الروسية على الحدود وزعت وثائق تثبت تورط عرب في عمليات ضد حكومة طاجيكستان. في ايلول، قرر البرلمان الطاجيكي تأجيل الانتخابات الرئاسية والاستفتاء على الدستور في محاولة لوقف الاشتباكات وعقد صلح مع المعارضة ورضوخًا لضغوط موسكو. وتمكن الإسلاميون من السيطرة على مدينة طول دره الاستراتيجية في وسط البلاد (٩ ايلول) ليومين فقط، أعقبتهما محادثات بين الحكومة والمعارضة في طهران وبوساطة ايرانية وروسية أسفرت عن اتفاق على وقف النار وتأجيل الانتخابات الرئاسية وتبادل الأسرى. وفي أواخر تشرين الاول، جرت جولة ثالثة من هذه المحادثات في اسلام آباد لم تسفر عن تنفيذ ما اتفق عليه في جولة طهران. وفي تشرين الثاني، جرت الانتخابات الرئاسية وفاز بها رئيس البرلمان إمام علي رحمنوف (مولود ١٩٥٢) على منافسه عبد

ا لله عبدا لله جانوف رئيس الوزراء السابق.

١٩٩٥: في شباط، جرت انتخابات برلمانية، قاطعها المعارضون الديمقراطيون والاسلاميون، وفاز بها الموالون للرئيس إمام علي رحمنوف والحزب الشيوعي؛ ومن بين أربعة احزاب مسجلة رسميًا، شارك في هذه الانتخابات ثلاثة هي: الشيوعي والشعبي والوحدة الوطنية. في نيسان، استجد وضع خطير بدخول «فصائل الدفاع» طرفًا في الصراع إلى جانب المعارضة وأفراد هذه الفصائل من الطائفة الاسماعيلية التي كانت تلتزم موقف الحياد؛ وبعد فشل مسلسل المحادثات السابقة عادت المعارك إلى منطقة باداخشان الجبلية الوعرة، وتبدد معها الأمل القريب في انتهاء النزاع الذي أزهق أرواح ١٠٠ ألف شخص خلال السنوات الثلاث الأخيرة.

في ايار، زار الآغا خان، الزعيم الروحي للاسماعيليين، إقليم باداخشان برفقة الرئيس الطاجيكي إمام علي رحمنوف، وطلب من أتباعه وقف الكفاح المسلح ضد الحكومة الشيوعية في دوشنبه. وفي ٢٢ ايار، بدأت جولة جديدة من المفاوضات بين الحكومة والمعارضة الاسلامية في ألما أتا، من دون ان تسفر عن أي نتيجة.

في تموز، التقى رحمنوف وزعيم المعارضة عبدا لله نوري في طهران. وبصدد هذا اللقاء ناشد الأمين العام بطرس غالي في تقريره إلى مجلس الأمن (في ايلول) الرجلين «ان يتخذا التدابير اللازمة للتعجيل في تنفيذ تدابير الثقة التي اتفقا عليها خلال لقائهما في طهران».

مع نهاية ١٩٩٥، أثبت الطرفان، الحكومة والمعارضة، عن قوة متعادلة تصعب معها غلبة طرف للطرف الآخر، ما جعل المراقبين يقترحون حلولاً للصراع الدموي تدور حول: الاستمرار في إقحام الاطراف المتنازعة في الحوار ومن ضمنها روسيا والأمم المتحدة وايران وأفغانستان، أخذ

الرئيس السابق رحمن نبييف.

الرئيس الحالي امام علي رحمنوف.

الشيخ تورجان زاده

رئيس حزب النهضة محمد شريف همت زاده.

مطالب المعارضة في الاعتبار، زيادة هامش الحرية لإقليم باداخشان، عفو عام عن القوى المعارضة، انتخابات جديدة للبرلمان والرئاسة بمشاركة كل القوى المعارضة وعودة اللاجئين من أفغانستان.

١٩٩٦: في ٢٢ كانون الثاني، اغتيل في ضواحي دوشنبه مفتي طاجيكستان فتح الله شريف زاده، وكان انتخب في كانون الاول ١٩٩٢ وتميز بالاخلاص للحكومة ورئيس الجمهورية رحمنوف. وفي عشق آباد (عاصمة تركمانستان) بدأت محادثات جديدة بين طرفي النزاع الطاجيكي في أجواء اعتدال في الموقف الروسي عبر عنه وزير الخارجية الروسي يفغيني بريماكوف بقوله إثر لقائه الرئيس الطاجيكي إن «المعارضة جزء من شعب طاجيكستان». لكن المعارك التي انفجرت في ٢٣ كانون الثاني، استمرت متصاعدة حتى اواخر شباط، وكل اتفاق على وقف اطلاق النار كان طرف يتهم الطرف الآخر بخرقه. وتجددت في ايار وعادت في كانون الاول لتسجل تقدمًا لقوات المعارضة في وسط البلاد باستيلائها على بلدة غارم.

واجتمع الرئيس رحمنوف وزعيم المعارضة سعيد عبدالله نوري (اواسط كانون الاول) في شمالي أفغانستان، وأعلنا عن توقيع بروتوكول لوقف اطلاق النار يسري مفعوله حتى ١٩ كانون الاول موعد بدء مفاوضات في موسكو بين الجانبين المتنازعين. وفي هذه المفاوضات التي رعتها موسكو، وقع رحمنوف ونوري (٢٣ كانون الاول) اتفاقية تنص على وقف النار وإنشاء لجنة للمصالحة الوطنية، برئاسة ممثل عن المعارضة، ستقوم بتشكيل حكومة انتقالية، وتعديل الدستور والتحضير لانتخابات برلمانية جديدة، وتسليم الثوار أسلحتهم للحكومة وانضمامهم إلى الجيش.

١٩٩٧، «اتفاقية السلام والوفاق الوطني»: تنفيذًا لاتفاقية موسكو، بدأت المحادثات بين الطرفين الطاجيكيين في طهران (٦ كانون الثاني) لتشكيل لجنة المصالحة، وأعمال خطف لرهائن دوليين وروس لم تؤثر في مسار المحادثات والتقارب، ولا محاولة اغتيال الرئيس رحمنوف في آخر آذار.

في ٢٧ حزيران، وقعت في الكرملين اتفاقية «السلام والوفاق الوطني» لإنهاء الحرب الأهلية التي بدأت في ١٩٩٢ في طاجيكستان ووقع الاتفاقية، ومذكرة تفاهم ملحقة بها، الرئيس إمام علي رحمنوف، وزعيم «المعارضة الموحدة» سعيد عبدالله نوري، والمبعوث الخاص للامم المتحدة غيرد ميريم، بحضور الرئيس الروسي يلتسن ووزراء خارجية الدول المراقبة لتنفيذ الاتفاقية: روسيا، ايران، كازاخستان، قيرغيزستان، أوزبكستان وتركمانستان، كما حضر ممثلون عن باكستان وأفغانستان (برهان الدين رباني بوصفه ممثلاً لأفغانستان)، كما شارك في مراسيم التوقيع الامين العام لمنظمة المؤتمر الاسلامي عز الدين العراقي. وتنص الاتفاقية على إنهاء المجابهة العسكرية وتبادل الأسرى والمحتجزين وتشكيل حكومة ائتلافية للمعارضة ٣٠٪ من حقائبها، وانتقال المعارضين المسلحين إلى طاجيكستان واندماجهم تدريجًا في القوات المسلحة والشرطة المحلية، وتشكيل لجنة متابعة لتنفيذ الاتفاق.

وصف رحمنوف الاتفاقية بأنها «نقطة انعطاف في التاريخ الحديث لطاجيكستان»، وقال إن «شمس الحرية والاستقلال أعمت أبصارنا و لم ننتبه إلى انحدارنا نحو اقتتال الاخوة».

و لم يبدأ شهر تموز إلا وكانت لجنة المصالحة قد شكلت برئاسة زعيم المعارضة عبدالله نوري، واحتل منصب نائب الرئيس ممثل السلطات الرسمية نائب رئيس البرلمان عبد المجيد دوستييف. وأعطيت اللجنة صلاحيات واسعة إذ يحق لها ان تطرح على الاستفتاء العام تعديل الدستور وإعادة

تشكيل الحكومة الطاجيكية. وتمّ رفع الحظر عن نشاط الاحزاب السياسية المعارضة.

لكن شهر آب عرف انتكاسة أمنية كبيرة للاتفاق مع اندلاع قتال في شمالي العاصمة قيل إنه «بين مسلحي الضرائب ووزارة الداخلية» (١٠ آب). وفي اليوم التالي، شنت القوات الموالية للرئيس رحمنوف هجومًا على «مواقع زعيم متمردي جنوبي العاصمة»، قال بشأنهم رحمنوف إن «مشعلي المجابهة العسكرية يرتبطون بمافيا المخدرات وعالم الاجرام». لكن سرعان ما تبين ان الأمر يتعدى هذا النطاق الضيق (مافيا المخدرات) ليطال مجموعات، أخصها من الأوزبك، أبقت على سلاحها واستمرت تقاتل معتبرة أن «اتفاقية السلام والوفاق الوطني» جاءت بجحفة حقوقها. وفي ١٩ آب، أعلنت الحكومة ان قواتها «سحقت بالكامل» التمرد الذي تزعمه الكولونيل محمود خودايبردييف والذي «ربما انتقل إلى أوزبكستان». وفي ١٢ ايلول، وصل زعيم المعارضة الاسلامية سعيد عبدا لله نوري إلى دوشنبه (لأول مرة بعدما كان قد غادرها منذ ١٩٩٢) وتباحث مع الرئيس رحمنوف لترسيخ المصالحة. لكن العنصر الأوزبكي في الأزمة عاد ليتحرك عسكريًا من جديد في اواخر تشرين الاول، فتندلع معارك في منطقة الحدود بين طاجيكستان وأوزبكستان، حيث أفادت التقارير الرسمية بأن المتمردين هناك ينتمون إلى مجموعة الكولونيل محمود خودايبرديف. والجدير ذكره ان أوزبكستان رفضت ان تكون من الدول الضامنة لاتفاقية السلام والوفاق الوطني. وشهد الشهر الأخير من ١٩٩٧ خلافًا بين قادة المعارضة في ما بينهم وبين الحكومة الطاجيكية حول توزيع الحقائب الوزارية والمناصب الرسمية وفقًا للاتفاقية المذكورة.

١٩٩٨: في ١٥ كانون الثاني، أعلنت المعارضة انسحابها من لجنة المصالحة الوطنية، ولكنها أكدت تمسكها بالتسوية السياسية وتشكيل حكومة ائتلافية. واتهمت المعارضة نظام الرئيس رحمنوف بـ«المماطلة والتسويف» في تنفيذ اتفاقية السلام والوفاق الوطني. ورفع زعيم المعارضة سعيد عبدا لله نوري مذكرة إلى الامين العام للامم المتحدة وقيادات الدول الضامنة للاتفاقية (روسيا وايران وباكستان) ذكر فيها ان حكومة طاجيكستان «تسوّف عن عمد» في تنفيذ البنود المتعلقة بالقضايا العسكرية وضم انصار المعارضة إلى القوات المسلحة وإعادة تشكيل الوزارة ضمن القواعد المتفق عليها في الاتفاقية. أما الرئيس رحمنوف فردّ بتأكيد التزامه عملية السلام.

المؤثرات الداخلية والخارجية في الأزمة الطاجيكية

المؤثرات الداخلية (الاحزاب): تنعكس منازعات طاجيكستان الداخلية على أفضل وجه في نشأة الاحزاب السياسية وتكوينها واهدافها، سواء على مستوى احزاب المعارضة (ديمقراطية أو اسلامية) أو الحكومية.

تتعدد احزاب وجماعات المعارضة وتتنوع أهدافها، لكن جميعها تشترك في هدف واحد هو توسيع المشاركة السياسية ووضع حد لاحتكار الشيوعيين السلطة. وتتراوح مطالب احزاب المعارضة بين ترويج الثقافة واللغة الفارسية القديمة والعودة لاستخدام الحروف العربية (كما نادت بذلك حركة «راستوخيز» للصحوة الاسلامية) وبين التطبيق التدريجي للشريعة الاسلامية، وهو ما يطالب به حزب «النهضة الاسلامي». هذا بينما ينادي الحزب الديمقراطي بتطبيق اهداف قومية معادية للروس والأوزبك. أما العضو الرابع في الائتلاف المعارض فهو حركة «لالي باداخشان» (ياقوتة باداخشان) التي اعتبرت تحالفها مع المعارضة مجرد أداة لتحقيق هدفها الطويل الأجل وهو استقلال إقليم «جورنو-باداخشان».

ومنذ بدء مسار المصادمات والمواجهات العسكرية (الحرب الاهلية) طوّرت أحزاب المعارضة ائتلافها السياسي إلى حلف عسكري. وكثيرًا ما امتزج خطاب قادة هذه الاحزاب السياسي وكرّر مطالبهم التي تتمحور حول موضوعات: العودة إلى ممارسة الشعائر الدينية وإلى الجذور الثقافية، تعزيز الاهداف القومية للطاجيك (ووضع نهاية للاعتماد على موسكو)، إجراء تحولات ديمقراطية في التركيبة السياسية، تنظيم انتخابات ديمقراطية تشارك فيها احزاب متعددة، وفرض حظر على نشاط الحزب الشيوعي. ومع ذلك، كانت شعاراتهم السياسية تخفي وراءها الخليط العرقي القبلي الذي ينتمون إليه.

تتكون احزاب المعارضة، بصفة عامة، من «الغارميس» (سكان وادي غارم الواقع في شرقي دوشنبه الذين انتقلوا إلى منطقة كرغان-طيوب) ومن «البامير س» (أصلاً من جورنو باداخشان).

ويمكن تفسير التحالف المفاجىء بين المتشددين الاسلاميين والمتشددين الديمقراطيين بانتمائهم إلى اصول جغرافية مشتركة (بامير أو غارم) وبولائهم لقبائلهم. هذا اضافة إلى ان الانفتاح النسبي للبرنامج السياسي لحزب النهضة الاسلامي (الذي لم يطالب باقامة دولة اسلامية)، والرغبة القومية المشتركة لدى الحزبين للتخلص من النخبة الحاكمة التقليدية، كانا من العوامل الأخرى التي ساعدت في إقامة التحالف. وجدير بالذكر ان القاضي علي أكبر تورا زاده اصبح مسؤولاً مهمًا عن التنسيق بين نشاطات «حزب النهضة الاسلامي» و«الحزب الديمقراطي» ومنحهما تأييده المعنوي. وسرعان ما أصبحا من أبرز احزاب المعارضة وأقواها، حيث وصل عدد محازبي النهضة الاسلامي (في ١٩٩٣) إلى ٢٠ ألف عضو، والحزب الديمقراطي إلى ١٥ ألفًا. وعندما اشتدت حدة الصراع، قام الحزبان بتوحيد الميليشيات التابعة لهما تحت إسم «جبهة الانقاذ الوطني». وبعد هزيمتهما في كانون الاول ١٩٩٢، حوّلا هذه الميليشيات إلى وحدات فدائية.

وبرغم شعاراتهم الشيوعية، فقد ثبت الولاء العشائري للقوات الحكومية ولاعضاء الحزب الشيوعي. وكان اتجاههم إلى الماركسية واللينينية مرتبطًا بالعهد السوفياتي البائد، عندما وجدت بعض العشائر ان الايديولوجيا الشيوعية واستخدام الهيكلية السوفياتية للحكم، هما من الوسائل الملائمة للسيطرة على طاجيكستان. ولكن في مواجهة مطالب الاحزاب المعارضة بفرض الحظر على نشاط الشيوعي وادخال الديمقراطية إلى المؤسسات الوطنية، تم تشكيل جماعات الميليشيا الموالية للحكومة على اساس المزارع التعاونية في جنوبي طاجيكستان، أو على اساس الحرس الجمهوري الخاص الذي شكله الرئيس نبييف. وتكونت القوات الموالية للشيوعيين من التحالف بين «الكيليابيين (من منطقة «كيلياب») و«الخوجنديين» (سكان منطقة «لينين آباد») و«الهيساريين» (من منطقة «هيسار» الواقعة إلى الغرب من العاصمة دوشنبه)، مع انضمام عدد كبير من الاقليات الأوزبكية إلى الخوجنديين والهيساريين (راجع «السكان» و«المناطق» في بطاقة تعريف).

وإذا كان تاريخ الحزب الشيوعي معروفًا (الشيوعي الطاجيكي يماثل إلى حد كبير الاحزاب الشيوعية الأخرى في باقي جمهوريات الاتحاد السوفياتي السابق) فإن ثمة تأريخًا لأحزاب المعارضة الطاجيكية يمكن كتابته على الشكل التالي:

١- حزب «راستوخيز»، تأسس في ١٩٨٩، هو بمثابة جبهة شعبية ذات اهداف قومية تضم العديد من المثقفين العلمانيين والقوميين والاسلاميين المعتدلين. وقد انضم هذا الحزب، في ما بعد، إلى الحزب الديمقراطي.

٢- حزب النهضة، تأسس في ١٩٩٠، وهو حزب علماني قومي يضم نخبًا مدينية، ويعمل من اجل الدفاع عن الهوية والثقافة الطاجيكية بمواجهة «الهيمنة الأوزبكية»، ويتركز وجوده في محيط العاصمة ويقدم نفسه بوصفه الطرف القادر على الموازنة بين دوشنبه وخوجند المعتبرة قلعة شيوعية في الماضي وفي الحاضر. ويتسم الصراع بين الحزب الشيوعي وحزب النهضة (القومي) بطابع مناطقي يقوم على التناقض بين خوجند ودوشنبه.

٣- الحزب الديمقراطي، تأسس في ١٩٩٠، ويطالب باقامة نظام ديمقراطي على الطريقة الغربية، على ان تكون الثقافة الطاجيكية قاعدة تتوحد من حولها البلاد. وقد استطاع هذا الحزب ان يستميل القسم الأكبر من مؤيدي راستوخيز، وهو يضم عناصر شبابية وكادرات اصيبت بالاحباط من التجربة الشيوعية الطويلة. ويعاني الحزب من ضعف انتشاره في مناطق طاجيكستان النائية ويتركز وجوده أساسًا في العاصمة ومحيطها.

٤- حزب النهضة الاسلامي، تأسس في ١٩٩١، ويعتبر الأهم في المعارضة، والأكبر عددًا بعد الحزب الشيوعي، إذ إنه واسع الانتشار في الارياف وفي المؤسسات الدينية التقليدية في العاصمة. أحد ألمع قادته قاضي الاسلام أكبر تورخان زاده (مولود ١٩٥٣، ودرس جزئيًا في الاردن). لا يفصل جمهور هذا الحزب بين القومية والاسلام. وبخلاف الاعتقاد السائد لا يطالب الحزب باقامة دولة اسلامية في طاجيكستان، وهو فرع من حزب يحمل الاسم نفسه وينتشر في غير جمهورية في وسط آسيا والقوقاز وروسيا نفسها. ولعل اعتدال هذا الحزب هو الذي أتاح نشوء معارضة موحدة اسلامية وديمقراطية في مواجهة الحزب الشيوعي الحاكم والأكثر تنظيمًا ونفوذًا (عن جوليان ثوني، «النزاعات في طاجيكستان»، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ١٩٩٤، ص٢٨-٣٠؛ وعن فيصل جلول، «الحياة»، العدد ١١٢٢٤، تاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩٩٣، ص١٤).

المؤثرات الخارجية: لعبت القوى الخارجية دورًا في إذكاء حدة النزاع الطاجيكي، خاصة وان البلاد حديثة العهد بالاستقلال و لم يكن لديها قوات مسلحة ولا عملة خاصة بها، إضافة إلى تعدد الاقليات العرقية فيها. فإلى أي مدى أثرت القوى الخارجية في مجريات النزاع؟

روسيا: لروسيا وجود قوات عسكرية (تحت علم «اتحاد الدول المستقلة») في طاجيكستان ترتكز اساسًا على فرقة المشاة الميكانيكية رقم ٢٠١ ووحدات حرس الحدود. وكان كلما تفاقم النزاع زادت أهمية دور موسكو التي اعتبرته صراعًا عشائريًا في بادىء الامر، ثم سرعان ما صار مسألة حيوية تمس أمن روسيا.

بين ايار وتشرين الاول ١٩٩٢، فضلت موسكو الابتعاد عن المشاكل الداخلية في طاجيكستان. فقد اكتفت قوات حرس الحدود الروسية بمسؤولية ضمان الامن الخارجي لطاجيكستان، بينما تولت الفرقة ٢٠١ مهمة حراسة المنشآت الاستراتيجية مثل السدود ومستودعات الذخيرة، إضافة إلى مساعدة وحدات حرس الحدود في صد الهجمات الخارجية التي تُشن من أفغانستان.

ودأبت القوات الروسية على انتهاج سياسة الولاء للحكومة الائتلافية الشرعية. فعندما شنت قوات المعارضة (٢٤-٢٥ تشرين الاول ١٩٩٢) هجومًا للاستيلاء على دوشنبه، منعتهم الفرقة ٢٠١ من الاستيلاء على المباني الحكومية واجبرتهم على التراجع. وبدأت مخاوف موسكو تزداد من انتشار الفوضى السياسية والاجتماعية في المنطقة كلها بسبب تحول مناطق طاجيكستان الشرقية إلى مفترق طرق لتجارة المخدرات والأسلحة من افغانستان إلى روسيا واوروبا الغربية. وفي ١٥ ايار (١٩٩٢) تحققت أول خطوة نحو فرض الاستقرار، وذلك بتوقيع طاجيكستان على معاهدة الأمن الجماعي بين روسيا وكازاخستان وقيرغيزستان وأوزبكستان التي نصت على ان وقوع أي اعتداء على احدى الدول الموقعة على المعاهدة يُعد اعتداء على جميع اطراف المعاهدة. ويرجع تركيز سياسة روسيا الخارجية على ضمان حدود طاجيكستان من الخارج وعزوفها عن إلقاء ثقلها في المعركة الداخلية، في العامين الاولين من الحرب الطاجيكية، إلى ذكريات تورطها في افغانستان وإلى تصور موسكو لأولوياتها في مجال الشؤون الخارجية. فالسيطرة على الحدود، في نظر موسكو، كان يعني منع القوى الاجنبية، مثل افغانستان أو باكستان أو تركيا أو غيرها، من تعزيز مواقعها في المنطقة. هذا فضلاً عن ان النظرة إلى «الخطر الاسلامي» واحتمالات امتداده إلى روسيا ذاتها أدت إلى ادراك موسكو بأنه لم يعد في إمكانها تجاهل أحداث طاجيكستان.

وباعتبار ان التدخل في طاجيكستان مسألة امنية داخلية بالنسبة إلى موسكو، فقد كان ايضًا مثالاً لشتى جمهوريات آسيا الوسطى عن تجاهل الأقليات الروسية فيها، إذ إن عودة المستوطنين الروس في شكل هجرة جماعية

واسعة النطاق إلى روسيا لن تؤدي إلى اضطراب اوضاعها الاقتصادية الهشة فحسب، بل ايضًا إلى تعزيز موقف الحركات القومية اليمينية المتطرفة فيها.

بعد عودة الشيوعيين إلى السلطة في طاجيكستان (تشرين الثاني ١٩٩٢)، قررت موسكو الانتقال إلى التأييد المكشوف والكامل للحكومة الشرعية. فأيدت، في بداية الأمر، حليفتها أوزبكستان في جهودها لطرد قوات المعارضة من دوشنبه. ثم جاء تعيين الكولونيل الروسي شيشليانوكوف وزيرًا للدفاع في طاجيكستان ليكشف التدخل الروسي السافر والمتزايد في الشؤون الداخلية لطاجيكستان، إضافة إلى التزام موسكو الصريح بتشكيل الجيش الوطني للطاجيك من اعضاء الفرقة الروسية ٢٠١، واسناد القوات الحكومية بالمدفعية في معاركها ضد القوات المعارضة وبأمر مباشر من وزير الدفاع الروسي بافل غراتشوف.

إن توقيع المعاهدة الثنائية للدفاع والصداقة بين دوشنبه وموسكو في ٢٣ ايار ١٩٩٣، التي تنص على توسيع غطاء الدفاع الجوي الروسي مقرونًا بفرض الحظر على أهم احزاب المعارضة (حزب النهضة الاسلامي)، دفع الثوار إلى مجابهة أكثر ضراوة وعنفًا مستخدمين الاراضي الأفغانية المجاورة، وإلى رد روسي (تحت غطاء قوات «اتحاد الدول المستقلة») بقصف القرى الأفغانية التي يعتقد انها تأوي الفدائيين الطاجيك (تموز-آب ١٩٩٣).

لكن تكلفة مثل هذه العمليات العسكرية ومخاطرة السقوط في مستنقع أفغاني جديد واستنكار المجتمع الدولي المتزايد وتعريض فرص الحل السياسي، كلها عوامل جعلت سياسة موسكو في طاجيكستان تتخذ منحى جديدًا تقوم على تشديد القبضة العسكرية من جهة (تشكيل «القوات المشتركة لحفظ السلام» من دول «اتحاد الدول المستقلة» بإمرة قائد روسي)، وتكثيف اتصالاتها الدبلوماسية مع أطراف المعارضة، وكانت أفغانستان وايران الهدفين الرئيسيين من وراء هذه الاتصالات (راجع مسار هذه الاتصالات وما اسفرت عنه وصولاً إلى اتفاقية موسكو للسلام والوفاق في ١٩٩٧، في «النبذة التاريخية»).

أوزبكستان: المؤثر الخارجي الثاني (بعد روسيا)، خاصة من الناحية العسكرية، جاء من أوزبكستان بشخص سياسة رئيسها إسلام كاريموف الذي انصبّ تدخله في النزاع الطاجيكي على مواجهة «الاصولية».

خشي كاريموف من ان تحذو المعارضة السياسية في بلده حذو ما يحدث في طاجيكستان، ورغب في الدفاع عن مصالح الاقلية الأوزبكية في طاجيكستان التي تدين بولائها للنخبة الخوجندية، اضافة إلى حاجته إلى السيطرة على الاقلية الطاجيكية الموجودة في بلاده، وطموحه لاعادة تحديد موقع أوزبكستان كدولة مهيمنة على المنطقة لموازنة الثقل المتزايد لموسكو وألما أتا (عاصمة كازاخستان) في المنطقة، وتخوفه من أي صحوة اصولية اسلامية، وحاجته إلى الاستقرار من اجل الاستثمارات الاجنبية التي كان الاقتصاد الأوزبكي في أمسّ الحاجة إليها.

منذ ١٩٩٢، اصر كاريموف على ان تتصدر قضية أمن الحدود الجنوبية قائمة جدول أعمال جميع اجتماعات «اتحاد الدول المستقلة». ولذلك لم يكن من قبيل المصادفة ان يتم توقيع اول معاهدة أمن جماعي في طشقند عاصمة أوزبكستان. ويضاف إلى هذا حدة ردة فعل كاريموف إزاء إكراه الرئيس الطاجيكي نبييف على الاستقالة في ٧ ايلول ١٩٩٢، إذ أمر بإلغاء جميع رحلات الطيران إلى طاجيكستان وباغلاق الحدود معها. وكان يعتبر إغلاق الطريق الرئيسي لايصال الأغذية والوقود إلى طاجيكستان بمثابة فرض حصار على الحكومة الائتلافية فيها (التي خلفت نبييف، وكان الاسلاميون طرفًا رئيسيًا فيها).

وتدخلت طشقند مباشرة في النزاع الطاجيكي مؤيدة القوات الموالية للحكم الشيوعي (الذي عاد بعد سقوط الحكومة الائتلافية)، بامدادها بالمعدات العسكرية الثقيلة. وشنت القوات الجوية الأوزبكية هجمات عدة على قوات المعارضة، كما تولت أوزبكستان تدريب لواء من قوات الطاجيك الحكومية.

ووصل الدعم الأوزبكي للحكومة الطاجيكية حدًا اعتبر فيه المراقبون انه لم يكن بامكان القوات الموالية للشيوعية استعادة السلطة والبقاء فيها دون التأييد الأوزبكي العسكري والسياسي. وهكذا أدّى التدخل إلى الاخلال بميزان القوى العسكرية في طاجيكستان، كما ساهم في تحويل النزاع الداخلي إلى قضية اقليمية، وتعزيز الموقع السياسي للاقلية الأوزبكية في طاجيكستان على حساب الطاجيك، مما قد يدفع هؤلاء، مستقبلاً، إلى تعصب قومي أشدّ وإلى معارضة هيمنة الأوزبك.

أفغانستان وباكستان: ثمة روابط ثقافية متوارثة بين افغانستان، التي يسكنها نحو ٤ ملايين طاجيكي، وطاجيكستان. وكانت إطاحة الشيوعيين في افغانستان قد عززت قناعة الطاجيكيين بأن الحكم الشيوعي الطاجيكي سيلقى المصير نفسه.

لقد أدى اتخاذ الحكومة الطاجيكية لاجراءات صارمة ضد المعارضة (نهاية ١٩٩٢) إلى فرار طاجيكيين باعداد كبيرة إلى افغانستان، مما زاد في فعالية دور المجاهدين الأفغان في نزاع طاجيكستان. وتمكنت المعارضة الطاجيكية من ترسيخ وجودها في افغانستان وشراء الاسلحة وتدريب الفدائيين الطاجيك الذين جُندوا من بين اللاجئين لشن هجمات عسكرية عبر الحدود. وتولى زعماء الفصائل الأفغانية، مثل أحمد شاه مسعود (طاجيكي) وقلب الدين حكمتيار (بشتوني)، تدريبهم وإمدادهم بالمأوى والطعام والسلاح.

لكن القائدين، مسعود وحكمتيار، كان لكل منهما هدف مختلف من دعمه للاجئين الطاجيك. ففي حين كان مسعود يهدف إلى اقناع الروس بقبول مؤازرته ضد حكمتيار في مقابل تهدئة المعارضة الطاجيكية الموجودة في المناطق التي تقع تحت سيطرته، حاول عدوه حكمتيار، بدعم من باكستان إثارة مسألة الانسحاب العسكري الروسي في طاجيكستان عبر مساندته الفدائيين الطاجيك، كما حاول إشعال فتيل النزاع بين فصيلي الطاجيك والأوزبك في أفغانستان، أي بين مسعود وزعيم أوزبك أفغانستان دوستم. ويضاف إلى ذلك، ان تفكك أفغانستان ودخول «الطالبان» بقوة في معادلاتها الداخلية ساعد على تعقيد الامور وتفاقم المخاوف في أوزبكستان وروسيا من ان ينتقل النموذج الافغاني إلى طاجيكستان فتصبح قاعدة خلفية مثالية لمختلف جماعات المجاهدين المتنافسة التي يمكنها ان تزيد قوتها من خلال نشر خطابها الاسلامي المتشدد وبتجنيد المزيد من المقاتلين. ويقول أكثر المحللين إنه لولا مؤازرة الافغان للمعارضة لتمكنت روسيا وأوزبكستان من تهدئة الاحوال في طاجيكستان خلال بضعة شهور، في حين بدأ تفكيرهما يتجه بعد مضي اقل من سنة على اندلاع الحرب الاهلية إلى إيجاد الوسائل اللازمة لتسوية النزاع بعيدًا عن استخدام القوة.

أما بالنسبة إلى باكستان، فإن موقفها من الحرب الطاجيكية، والأهداف التي تريد الوصول إليها من خلال «دور خفي وفعّال في الوقت نفسه» ليس واضحًا تمامًا. فمنذ اندلاع الحرب الأفغانية في ١٩٧٩، وجدت إسلام آباد في الوضع العام في آسيا الوسطى الوسيلة لتطوير قوتها ونفوذها اللذين يتعرضان لتهديد جاد من الهند. وعندما انهار الاتحاد السوفياتي، رأت باكستان ان بامكانها ان تصبح الطريق الرئيسي الذي يربط جمهوريات آسيا الوسطى المستقلة حديثًا بالمحيط الهندي، مما يؤدي بالتالي إلى زيادة ثقلها في المنطقة.

تبعد دوشنبه عن كراتشي مرورًا بأفغانستان برًا مسافة ٢٧٢٠كلم، وعن الميناء الايراني بندر عباس مسافة ٣٤٠٠كلم، وعن فلاديفوستوك ٩٥٠٠كلم، وعن رستوف على نهر الدون ٤٢٠٠كلم. وفي ايار ١٩٩٢، أثناء انعقاد قمة اقتصادية في أشخباد (عشق آباد)، شكلت دول آسيا الوسطى وباكستان مجلسًا للطرق السريعة بهدف انشاء طرق تصل باكستان بجمهوريات آسيا الوسطى. لكن إسلام آباد كانت في حاجة، اولاً وقبل تنفيذ خططها، إلى ضمان سيطرتها على افغانستان وذلك من خلال حليفها حكمتيار وحزبه الاسلامي («جماعة اسلامي»). وثانيًا، تطلب تحقيق طموحاتها التخلص من نفوذ موسكو لدى حكومات دول آسيا الوسطى. لذلك، قدم النزاع الطاجيكي الفرصة إلى باكستان، التي كانت المدافع عن الاصولية الاسلامية، لكي تساعد الفدائيين من خلال دعمها لحليفها الزعيم الأفغاني حكمتيار. ووصل دعمها إلى أوجه في ١٩٩٣ عندما حاولت قوات المعارضة الطاجيكية استرداد العاصمة دوشنبه.

ايران: لقد انتهجت طهران سياسة حيادية إزاء النزاع في طاجيكستان، على عكس افغانستان، وذلك بالرغم من المزاعم حول تقديم ايران مساعدات ضخمة في شكل أغذية وأسلحة واموال إلى المعارضة الاسلامية والديمقراطية. ومنذ بداية الحرب التزمت طهران خطًا براغماتيًا، حيث أبدت مرونة في تطبيق عقيدتها الاسلامية الثورية، وعرضت تقديم مساعيها الحميدة للتوسط في تسوية المنازعات. وقد حافظ سفير ايران في دوشنبه على العلاقات الطيبة مع السلطات الطاجيكية، ولا شك في ان هذا الموقف اصاب المعارضة الطاجيكية بالاحباط. ومع ذلك، أدت الهزيمة العسكرية للائتلاف الاسلامي والديمقراطي وتدخل الروس والأوزبك في الشؤون الداخلية لطاجيكستان إلى إثارة سخط طهران، فأعلنت شجبها لهذه التدخلات.

ويبدو ان طهران تجد صعوبات في التأثير في مجريات الاحداث في طاجيكستان بالرغم من الروابط الثقافية والتاريخية واللغوية التي تجمع بين ايران وطاجيكستان. فأولاً، من الناحية الجغرافية، يمثل عدم وجود حدود مشتركة عائقًا امام النفوذ الايراني، وثانيًا من الناحية الايديولوجية، تدرك ايران جيدًا ان خطابها الاسلامي المبني على اساس المذهب الشيعي لن ينجح ابدًا في اختراق المجتمع السني للطاجيك.

فنتيجة لمعاناة من عزلة سياسية امتدت إلى سنوات طويلة، والركود الاقتصادي، حاولت ايران تقديم يد المساعدة لتثبيت أسس الاستقرار في آسيا الوسطى، وهو ما يوفّر لها دورًا قياديًا وفرصة لتنمية الروابط الاقتصادية مع تلك الدول. وعلاوة على ذلك، حرصت ايران على ألا تثير سياستها الخارجية تجاه طاجيكستان غضب موسكو التي بمقدورها تهديد حدودها الشمالية بسهولة، اضافة إلى ان روسيا تزوّد ايران بأسلحة مهمة؛ فضلاً عن ان مساندة ايران للمعارضة الطاجيكية سوف يعني إغضاب أوزبكستان وكازاخستان، وهما قطبان اقتصاديان وتجاريان رئيسيان في آسيا الوسطى، ويقفان إلى جانب الحكم الشيوعي في دوشنبه. وتدرك ايران ان أية اضطرابات ستقود بالأحرى إلى تعزيز قبضة روسيا العسكرية والسياسية على آسيا الوسطى.

علاوة على ذلك، تدرك ايران، في ظل تعدد الاعراق فيها (أكراد وعرب وأذربيجانيون وأتراك) مدى خطورة «اللعب بالورقة العرقية» من اجل تعزيز مواقعها في طاجيكستان وآسيا الوسطى بصفة عامة. والسلام هو الحالة الوحيدة التي تسمح لايران باكتساب نفوذ في المنطقة عبر أشقائها الناطقين باللغة الفارسية. ولذلك، تلتزم ايران بالمحافظة على الوضع الراهن في المنطقة، ومن ثم، فهي ليست مستعدة لمساندة المعارضة (كل ما يتعلق بـ«المؤثرات الخارجية»: عن جوليان ثوني، «النزاع في طاجيكستان»، مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ابو ظبي، ١٩٩٤، ص٣٠-٤٤؛ وعن بدر حسن شافعي، «طاجيكستان: مرحلة جديدة من الوفاق»، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٣٠، تشرين الاول ١٩٧٧، ص١٧٢-١٧٤).

العالم

الارض
(نظرة فلكية عامة)

(مرجع هذا الباب مقالة علمية خصّ بها الموسوعة الصديق الدكتور أحمد شعلان، استاذ في كلية العلوم- الجامعة اللبنانية وعضو فريق الجزيء والذرة في المجلس الوطني للبحوث العلمية، وقد استند فيها على ثلاثة مراجع:

١- موسوعة غينيس في علم الفلك، الدار العربية للعلوم، باتريك موور، ط٤، ١٩٩٢.

٢- موسوعة Le Monde des Sciences, Vol. L'Univers, L. Nicolson et Patrick Moore, Ed. France Loisirs, 1991.

٣- Essentials of Astronomy, Motz and Duveen.)

الارض في الكون: الارض كوكب صغير لا يزيد عمره عن ٤٥٠٠ مليون سنة، يبحر في مدار إهليلجي حول نجم قريب متوسط الحجم والعمر، يسمّى الشمس.

جاذبية الشمس القوية تمسك بتسعة كواكب، تحتل الارض بينها الموقع الثالث لجهة البعد عن الشمس، بعد عطارد والزهرة، ويلي الارض المريخ والمشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتون بالتتالي.

هذه الكواكب،مع مجموعة أقمارها العالقة بجاذبية كل منها، إضافة إلى عدد كبير من الأجسام الفلكية الصغيرة وكمية كبيرة من الغازات والغبار، تشكل ما نسمّيه «المنظومة الشمسية».

تبلغ السرعة المدارية للارض حول الشمس ٢٩،٧٩كلم في الثانية، وهي تتمّم دورة مدارية كاملة في مدة ٣٦٥،٢٥٦ يومًا، تتوالى خلالها الفصول الاربعة حسب المسافة المتغيرة التي تفصلها عن الشمس.

تبعد الارض عن الشمس وسطيًا حوالي ١٥٠ مليون كلم، أي ما يوازي مسافة ٨،٣ دقائق ضوئية (تدعى هذه المسافة: وحدة فلكية). وأقرب نجم إلينا، بعد الشمس، هو «ألفاسنتوري» الذي يبعد ٤،٤ سنة ضوئية، أي أبعد من الشمس بنسبة ٢٧٠ ألف مرة.

الارض، شكلاً وحجمًا وجاذبية وحرارة: الكرة الارضية ليست كروية تمامًا، فقطرها الاستوائي ١٢٧٥٦كلم بينما قطرها القطبي ١٢٧١٤كلم. وبالمقارنة مع قطر الشمس، يكون قطر الارض أصغر بـ١٠٩ مرات، ما يعني ان حجم الارض أقل بمليون مرة تقريبًا من حجم الشمس.

أما وزن كتلة الارض فهو ٥،٩٧٦×١٠ ^٢٤^ كلغ، أي أقل بنسبة ٣٢٩ ألف مرة من وزن الشمس. أما معدل كثافة الارض نسبةً إلى الماء فهي ٥،٥١٧. والارض تدور حول محورها دورة كاملة كل ٢٣ ساعة و٥٦ دقيقة و٤ ثوان.

يبلغ معدل جاذبية الارض على سطحها ٩،٨٠٦٦٥ نيوتن بالكلغ، وللانفلات من هذه الجاذبية يجب تسريع الجسم حتى ١١،١٥كلم في الثانية على الأقل.

أما حرارة كوكب الارض فهي وسطيًا ٢٢ درجة مئوية، تتفاوت بين منطقة ومنطقة، وبين الصيف والشتاء، وبين الليل والنهار، وتتراوح بين ٤٠ درجة مئوية في المناطق الاستوائية و٤٠ درجة تحت الصفر في المناطق القطبية.

تستقبل الارض طاقة ضوئية من الشمس بمعدل ١،٣٧ كيلووات وعلى كل متر مربع مضاء، فتعكس منها ٣٦٪ تعيدها نحو الفضاء الخارجي وتمتص الباقي في محيطاتها وتربتها وغلافها الجوي.

الحقل المغناطيسي: تحاط الارض بحقل مغناطيسي ناتج عن تيارات المعادن الذائبة في قلب الكوكب. والحقل المغناطيسي الأرضي يأسر أحزمة من الجزئيات المشحونة التي تجلبها الريح الشمسية والأشعة الكونية (أحزمة فان آلن).

تحتك هذه الجزئيات بطبقات الجو العليا على

ارتفاع ٥٠ كلم إلى ٢٠٠ كلم خاصة فوق المناطق القطبية حيث تتكثف الخطوط المغناطيسية فتشعّ بدورها مسببة ما يسمّى بظاهرة «الفجر القطبي».

الغلاف الجوي: يتكون الغلاف الجوي للارض بصورة رئيسية من غاز الأزوت (نيتروجين) (٧٨٪ من الحجم الكلي للغلاف) والأوكسجين (٢١٪). أما النسبة الباقية فيتوزعها بخار الماء وغاز الأرغون وثاني أوكسيد الكربون. يضغط هذا المحيط الهوائي بثقله على الارض بما معدله ١٠١٣ ميلليبار، أي ما يوازي ضغط أنبوب من الزئبق إرتفاعه ٧٦٠مم.

يقسّم الغلاف الجوي لعدة طبقات، أدناها- وتدعى «تروبوسفير»- تمتد حتى ارتفاع ١٢ كلم وتحتوي على القسم الأكبر من بخار الماء والغيوم والهواء، وتحدد بالتالي العوامل المناخية للارض. يشكل التروبوسفير محيطًا هوائيًا يحافظ على توازنه الفيزيائي والكيميائي من خلال التفاعل مع البيئة الارضية (غابات، محيطات، كائنات...) ويتيح للانسان-وبقية المخلوقات الحية والنباتات- العيش في أعماقه. وتنخفض حرارة هذه الطبقة كلما ارتفعنا لتصل إلى ٥٦ درجة مئوية تحت الصفر عند حدودها العليا.

فوق هذه الطبقة تمتد طبقة «ستراتوسفير» حتى ارتفاع ٥٠ كلم عن سطح الارض، وتحتوي، بين غازاتها، على غلاف رقيق جدًا من غاز الأوزون الذي يلعب دورًا حيويًا في امتصاص الأشعة الما فوق بنفسجية الخطرة، حاميًا بذلك البيئة الحية على الارض من التعرّض لهذه الأشعة.

بعد الستراتوسفير تبدأ طبقة «ميزوسفير» التي تمتد حتى ارتفاع ٨٠٠ كلم، وتحوي على ارتفاع ٧٠ كلم تقريبًا طبقة من الغازات المؤينة والشحنات المنفردة تدعى «إيونوسفير» التي يمكنها عكس موجات الراديو وإعادتها إلى الارض. وتمتاز طبقة الميزوسفير بانخفاض شديد في الحرارة مع الارتفاع حتى تصل إلى ١٠٠ درجة مئوية تحت الصفر. يلي طبقة الميزوسفير طبقة الترموسفير أو الطبقة الحرارية التي تمتد إلى ارتفاع يقارب ٥٠٠ كلم عن سطح البحر، وهي تتميز بانخفاض كثافة الهواء وبالازدياد المطرد للحرارة مع الارتفاع.

بعد الترموسفير نصل إلى الطبقة الأخيرة: إكزوسفير، التي تصل حتى ارتفاع ألف كلم وتحوي بشكل أساسي على غازي الهيدروجين والهيليوم.

جيولوجيًا: تمثل اليابسة ٣٠٪ من مساحة الكرة الارضية، بينما تمثل المحيطات ٧٠٪ منها (مساحة الارض الاجمالية ٥١٠١٠٠٠٠٠ كلم م). أما البنية الجيولوجية للارض فهي تتشكل من القشرة الخارجية الصلبة التي تبلغ سماكتها ١٠ كلم تحت المحيطات و٥٠ كلم تحت اليابسة، تليها طبقة مغلّفة تمتد نزولاً إلى بمسافة ٢٨٩٠ كلم وتضم ٦٧٪ من الوزن الكتلوي للارض وتتكون أساسًا من السيليكات والاحجار البازلتية. تلي هذه الطبقة طبقة معدنية سائلة خارجية تمتد نزولاً إلى ٥١٥٠ كلم وتضم ٣١٪ من الوزن الكتلوي للارض.

أما القلب الداخلي للارض، فهو صلب بفعل الضغط الخارجي الهائل ويضم ١،٧٪ من الوزن الكتلوي الكلي للارض، ويقال إنه يعوم في القلب الخارجي السائل.

أخطار بيئية: لقد بدأت الأنشطة البشرية تشكل، يومًا بعد يوم، خطرًا على التوازن الدقيق للبيئة الارضية ومناخها، وتعقد المؤتمرات الدولية للتحذير من أخطار جمّة تهدد مستقبل الارض، وأهم هذه الأخطار:

– ثقب طبقة الأوزون، أو بالأحرى ترقّق هذه الطبقة بفعل تدفق مشتقات الكلور إليها (خاصة غاز الكلوروفلورو كربون CFC) الذي يعمل على تفكيك جزئياتها وإضعاف دورها في حجب الأشعة المضرّة من نور الشمس.

– ظاهرة الدفيئة الناتجة عن تراكم ثاني أوكسيد الكربون في طبقات الجو بفعل تزايد نفث المصانع والآليات لهذا الغاز من جهة، والنقص الفاضح للغابات على الارض من جهة أخرى. يلعب هذا الغاز دورًا يمكن تشبيهه بزجاج يحيط بالارض، يمرّر إليها معظم أشعة الشمس لكنه يمنعها من بث الحرارة المتراكمة إذ يعكسها ويعيدها إلى الارض مما يتسبب في رفع حرارة الارض تدريجيًا. وقد جاء في التقرير الرسمي الذي اقرّه المؤتمر العالمي حول التغيرات المناخية، الذي عقد في جنيف في تموز ١٩٩٦، ان الحرارة العالمية سترتفع ما بين درجة و٣،٥ درجات (درجتان في المتوسط) بحلول السنة ٢١٠٠، وسيتبع ذلك ارتفاع في مستوى سطح مياه البحر يراوح بين ١٥ و٩٥ سنتيمترًا. وهذا يعني تغيرًا مستقبليًا في مناخ العالم، وتهديدًا جديًا للجزر والاراضي الساحلية المنخفضة، بالاضافة إلى ظاهرة «التصحر» المتفاقمة في أكثر من منطقة من الارض.

– ظاهرة الامطار الحمضية الناتجة عن قذف المشتقات الكبريتية في الهواء من المصانع الكبيرة التي أخذت تحيط بكل المدن الصناعية الكبيرة على الارض. تتفاعل هذه

المشتقات مع بخار الماء فتتحول إلى مطر حمضي (أسيدي) يفتت الآثار الحجرية ويؤكسد الآليات المعدنية وينشر الامراض الرئوية والسرطانية الخطيرة حيث يهطل.

– ظاهرة الضباب الكيميائي Photo Chemical Smog الناتج عن تراكم الغبار والغازات السامة مثل مشتقات الكبريت والرصاص وأول أوكسيد الكربون وغيرها مما تنفثه المصانع. تتكثف هذه السموم الغازية وتهبط إلى مستوى الأبنية السكنية بدافع البرد الشديد وهدوء الهواء، مشكلةً سحابة قاتمة يُجبر السكان على تنشقها حتى المرض أو الموت. أمثلة عديدة يمكن ذكرها في هذا المجال أهمها حسب التسلسل التاريخي، ما حصل في مدينة دونورا في ولاية بنسلفانيا الاميركية عام ١٩٤٨، وفي لندن عام ١٩٥٢ (٤ آلاف قتيل وعدة آلاف في المستشفيات خلال فترة لا تتعدى الاسبوع)، وفي طوكيو عام ١٩٧٠، وفي بعض مناطق غربي المانيا عام ١٩٨٥، وفي أثينا عام ١٩٩٣...

هذه الاخطار، بالاضافة إلى أخطار النفايات النووية التي تتراكم بمئات الاطنان سنويًا دون ان يجد الانسان حلا جذريًا للتخلص منها، تشكل تهديدًا جويًا ينذر العالم الارضي باسباب محتملة للهلاك الجماعي.

القمر والمريخ وزحل
(الأهداف الاولى)

تمهيد: إن الدرجة التي بلغتها علوم الفلك أو الفضاء، في اواخر هذا القرن (القرن العشرون)، وهي علوم قديمة عرفتها حضارات بلاد ما بين النهرين وسورية ومصر والصين واليونان، ثم الدول الاسلامية، وبعدها ابتداء من القرون الوسطى الدول الاوروبية التي بدأت تخطو بها خطوات سريعة حتى وصلت بها إلى الانجازات الفضائية الحالية الماثلة عن طريق إفراز حضاري وعلمي نما على ارض تقع خارج اوروبا، هي ارض «العالم الجديد»، أميركا، وتحديدًا الولايات المتحدة التي لم تتردد في تخصيص جزء كبير من ثرواتها خدمةً لهذه العلوم وفي تصرف علماء كبار استجمعتهم، إضافة إلى علمائها، من مختلف بلدان العالم (سوفيات، أوروبيون، يابانيون، صينيون، هنود، عرب...) وشكلت منهم فرق عمل علمي فضائي موزعين على مراكز ابحاث فضائية تبعًا لبرامج علمية محدّدة مترجمةً بهم العلم الحديث للبشرية، وبصورة مترافقة مع زعامتها العالمية الاقتصادية، وإلى حد كبير السياسية... ان هذه الدرجة العلمية مكنت إنسان اواخر القرن العشرين من غزو الفضاء. ولهذا الغزو الاستكشافي ثلاثة عناوين كبرى: القمر والمريخ وزحل.

«باث فايندر» على سطح المريخ.

رائد الفضاء الاميركي على سطح القمر.

القمر: جرم يدور في فلك الارض وقريب منها. يبعد وسطيًا عن الارض ٣٨٤٤٠٠كلم (من المركز إلى المركز) أي ما يوازي مسافة ١،٢ ثانية ضوئية تقريبًا. وينهي القمر دورة مدارية واحدة حول الارض كل ٢٧،٣٢ يومًا. يبلغ قطره ٣٤٧٥،٦كلم، أي ما يقارب ربع قطر الارض. أما وزنه فلا يتعدى ١،٢٣٪ منَ وزن الارض، وجاذبيته تساوي ١،٦٢ نيوتن بالكلغ، أي ما يعادل سدس جاذبية الارض تقريبًا، وهي تؤثر على مياه المحيطات الارضية وتنتج على السواحل الارضية ظاهرة المد والجزر. وللانفلات من جاذبية القمر يحتاج جسم ما، على سطحه، إلى سرعة أقلها ٢،٣٨كلم في الثانية.

وسطح القمر أرض جرداء، غير صالحة للحياة، مليئة بالحفر والتضاريس التي سببتها النيازك والبراكين. وتصل الحرارة ظهرًا عند خط الاستواء القمري إلى ١١٧ درجة مئوية وقد تنخفض ليلاً إلى ١٦٣ درجة مئوية تحت الصفر.

بدأ الانسان استكشافه لهذ الجزيرة الفضائية القريبة في ٢٠ تموز ١٩٦٩ عندما هبطت المركبة المأهولة Apollo 11 («أبولو» تعني «البرنامج الفضائي الاميركي لاستكشاف القمر» الذي تقرر البدء به في ١٩٦١ والانتهاء منه في ١٩٧٢، ويتضمن على ١٧ رحلة فضائية، الرحلات الـ١١ الأخيرة كانت مأهولة برواد الفضاء) على سطح القمر، ثم تتالت الرحلات المأهولة والممكننة إلى القمر.

حقق الاميركيون، بهبوط روادهم الفضائيين على سطح القمر، الانتصار الأكبر في سباق الفضاء مع السوفيات الذين كانوا متقدمين عليهم في هذا المجال منذ اواسط الخمسينات، أي منذ كان السوفيات اصحاب أول خطوة في اتجاه الفضاء وكواكبه. كما حقق الاميركيون (في ١٩٦٨-١٩٦٩) انتصارهم الكبير في مجال التلفزة (التي أمّنت لسكان الارض مشاهد هبوط الرواد ومركباتهم على سطح القمر بصورة مباشرة وحية) وعالمية الصورة.

وبعد ٢٥ عامًا على انتهاء بعثات «أبولو» التي أتاحت لـ١٢ رجلاً المشي على سطح القمر وساد فيها الاعتقاد انه لا يوجد على القمر أي أثر للحياة سواء في الماضي أو الحاضر، عادت الولايات المتحدة، في ٧ كانون الثاني ١٩٩٨، إلى غزوه مع اطلاق المركبة الاستكشافية «لونار بروسبيكتور» بهدف «استكمال خرائطه وتحديد ما إذا كان يختزن الماء». وتستغرق هذه المهمة سنة ونصف سنة، وهي الاولى التي تقصد التحليق فوق قطبي القمر ووضع خريطة كاملة للقمر، إذ إن لا خرائط حتى اليوم لنسبة ٧٥٪ من مساحته. كذلك ستتيح آلات الاستكشاف المتطورة التي تحويها «لونا بروسبيكتور» التأكد إذا كان ثمة ماء في قطبيه، وذلك بعدما اكتشف القمر الاصطناعي «كليمنيتن» التابع للجيش الاميركي، في ١٩٩٧، طبقة من الجليد في منطقة غير مستكشفة من قبل. وإذا ثبت وجود ماء في شكل جليد على سطح القمر ربما ناشىء عن اصطدام الكوكب بحجار نيزكية أو بمذنبات صغيرة، سيكون ممكنًا إقامة قاعدة دائمة عليه وإطلاق رحلات من القمر إلى كواكب أخرى ومنها المريخ، على ان يتم جمع الهيدروجين واستخدامه وقودًا لهذه المركبات.

في ٤ آذار ١٩٩٨، أعلن المسؤول عن مهمة المركبة (لونار بروسبيكتور) انها اكتشفت كتلاً جليدية على سطح القمر، وان المسؤولين عن المهمة قدّروا حجم الجليد المكتشف بين ١١ مليونًا و٣٣٠ مليون طن، وان هذه الكتلة موجودة في القطبين الشمالي والجنوبي من القمر. وأضاف المسؤول (وكان يعقد مؤتمرًا صحافيًا) ان وجود جليد المياه على القمر يمكن ان تثبت فائدته الهائلة لأي مستعمرات بشرية في المستقبل بأن يتمكن العلماء من فصل مكوناته لاستخدامها كوقود لصواريخ واستخدامه للمساعدة في إنشاء تجمعات سكنية وتشغيلها.

و«لونار بروسبيكتور» مركبة فضائية صغيرة، طولها ١،٢م وتزن ٢٩٥كلغ، وبلغت كلفتها ٦٣ مليون دولار.

المريخ: في ٤ تموز ١٩٩٧ (يوم عيد الاستقلال للولايات المتحدة)، حطت المركبة الفضائية الاميركية «باث فايندر» **Path Finder** على المريخ **Mars** بعد ان كانت انطلقت في ٤ كانون الاول ١٩٩٦ وقطعت مسافة ٤٩٨ مليون كلم. وهذه هي الرحلة الثالثة إلى المريخ. الرحلة الاولى، كانت في ١٩٧٦ عندما نقلت مركبتا «فايكنغ» الاميركية ١٥٠ ألف صورة عن المريخ والاجواء البيئية المحيطة به إلى الارض، وأعدّت بذلك لرحلة «باث فايندر». أما المرحلة الثانية فقامت بها مركبة «روسيا-المريخ ٩٦» التي اطلقتها مؤسسة الفضاء الروسية في تشرين الثاني ١٩٩٦، وانتهت بفشل ذريع بعيد الاطلاق وسقوط الصاروخ حامل المركبة في المحيط الهادىء.

والرحلة الثالثة هي الحالية، «باث فايندر» الاميركية التي حملت في داخلها سيارة «باث سوجورنر» (بحجم صغير ٦٠سم×٣٠سم) التي تنقلت على سطح المريخ

وزوّدت المركبة المعلومـات لتحليلها وإرسالها إلى الارض.

وبـاث فـايندر هـي الاولى في سلسلة المركبـات الفضائيـة الاميركية (عشر مركبات) تنوي الولايات المتحـدة إرسـالها إلى المريخ حتى سنة ٢٠٠٥ تشارك فيها أجهزة روبوتية ومعدات متطورة جدًا من روسيا وبعض الدول الاوروبية.

وتجدر الاشارة إلى ان الروس كانوا قد خططوا للقيـام برحـلات مأهولة إلى المريخ قبـل ١٩٦٥، إلا ان وفـاة عـالم الفضاء الروسي سيرجي بافلوفيتش كوروليف الذي كان وراء اطلاق مركبة «سبوتنيك» الاولى حالت دون إتمام المشروع.

مسافة المريخ عن الشمس ٢٤٩١٠٠٠٠٠كلم.

دورته الفلكية ٦٨٦ يومًا و٢٣ ساعة و٥٥ دقيقة.

دورته المحورية حول نفسه ٢٤ ساعة و٣٧ دقيقـة و٢٢،٧ ثانية.

قطره الاستوائي ٦٧٨٧كلم.

وزنه الكتلوي (الارض=١) ٠،١٠٨

حجمه (الارض=١) ٠،١٥

كثافته ٣،٩

جاذبيته (الارض=١) ٠،٣٨

إن فكرة وجود معالم حياة في المريخ، رغـم الجفـاف والصقيع السائدين فيه ليست جديدة. إذ لا يستبعد العلماء ان يكـون في المريخ شكل من أشكال الحياة لا سيما وانه كان زاخرًا بالمحيطات والبراكين الناشطة منذ أكثر من ٣ مليارات عـام، وكـان مناخه أقل قسوة مما هو عليه الآن. ويمكن ان تتواجد فيه جراثيم أو أحياء أخرى تكيفت مع الأجواء المناخية وحفرت طريقها داخـل تربة الكوكب لتكون قريبة من الدفء بجوار المنابع البركانية المرتفعة الحرارة بطريقة مشابهة للعضويات التي تعيش بالقرب من مصادر المياه الدافئة تحت سطح البحر على كوكب الارض.

جريدة «الحيـاة» (العدد ١٢٥٥٦، تاريخ ١٦ تموز ١٩٩٧، ص١٦) التقت بعد أقل من اسبوعين مـن هبـوط المركبة باث فايندر على سطح المريخ، الدكتور مصطفى شاهين (لبناني الاصل) رئيس العلماء في مختبر وكالة الفضاء الاميركية الذي أشـرف على بنـاء المركبة وادارتها ورئيس أهـم هيئتين علميتين دوليتين لدراسة الارض والفضاء، ومما قاله شـاهين إن النتائج الاولية للفحوص التي قامت بها العربة الفضائية الآلية أثناء تجولها فوق سطح المريخ أكدت وجود أوجه شبه مدهشـة بين تطور هذا الكوكب والارض. فـالصخور والتراب تتكون مـن الكوارتز والسليكا التي يحدثها النشاط البركـاني والمائي. وآخر بركان وقع على المريخ قبل أكثر مـن بليون سنة. ومنـذ ذلك الحين توقفت الـدورة الهيدروليجية المسـؤولة عن تكوين المـاء والبراكين وكل النشاطات المميزة للكواكب الحيـة. إن شيئًا مـا حدث للمريخ الـذي يزيد عمره عـن ٤ بلايين سنة وأوقف الدورة الهيدروليجية التي تطورت عنها الحيـاة على الارض. ما الذي جرى للمريخ الذي يقع والارض على مسافة متساوية من الشمس؟ كيف تحـول هـذا الكوكب الأحمر، الـذي ما يزال الاعتقاد العلمي قائمًا باحتمال وجود حياة فيه إلى كرة صخرية جرداء؟ هل يحتوي على ماء وحياة من نـوع مـا تحت سطحه الذي اختفت منه كل مظاهر الحياة؟ هـذا هـو سر الاهتمام الكبير بالمريخ الذي يعد أكثر كواكب المنظومـة الشمسية إثارة للخيال منذ قديم الزمان.

مصطفى شاهين.

زحـل: في ١٥ تشرين الاول ١٩٩٧، أعلنـت ادارة الطيران والفضاء الاميركية (ناسا) ان مجسّ الفضـاء «كاسيني» الذي يعمل بالطاقة النووية أطلق إلى كوكـب زحـل Saturne يقطع خلالها ٣،٥ بليون كلم، ويصل إلى مدار يقـترب بـه من كوكـب الزهـرة مرتين ومـن كوكـب الارض ومـن كوكـب المشتري قبل ان يصل إلى هدفه النهائي في شهر تموز مـن العام ٢٠٠٤. وتهبط من «كاسيني» مركبة اوروبية الصنع «هيغـنز» على سطح تايتان أكبر أقمار زحل. ويعتقد العلماء ان في زحـل محيطات من غاز الميثان المسال. وستكون مهمة مركبة كاسيني الاميركية، خلال السنوات الاربع التي سيمضيها في المدار حـول زحل، التحقق من دقة المعلومات المتوافرة عنه، وكذلـك تحديد تكوين الجو تحت السحب، ومتابعة حركته، لتحديد الفروقـات في الحرارة والضغط، وكذلك معرفة مصدر الطاقة الـتي يطلقهـا الكوكب.

وزحـل، الكوكـب الثـاني حجمًـا في النظـام الشمسي بعد المشتري، والسادس في ترتيب الكواكب بعـدًا عـن الشمس، يتـألف، مثـل المشـتري، مـن مجموعـة مـن الغـازات، لا سيما الهيدروجين والهليوم، ويفـوق حجمه حجم الأرض بـ٧٦٤ مرة، ويبلغ قطره ١٢٠٥٥٣كلم.

الأرض بيت البشر
(مشكلات بيئية وبشرية)

١ – التصحر

تمهيد: تميز تاريخ البشرية، أكثر ما تميز، بنشاط الانسان في الارض، مصدر حياته، خصوصًا لجهة تربتها ومائها ونباتها وحيوانها. فالانسان، من هذا القبيل، كافح التصحر عن فطرة منه، باستصلاح الاراضي واستثمارها بالزراعة.

إلا ان الانسان لم يتمكن بعد، بالرغم من نشاطه المتواصل، من إيقاف الجفاف وزحف الصحراء (التصحر) على بقاعه غير الصحراوية (الزراعية). فانتظر، حتى الربع الأخير من هذا القرن (القرن العشرون)، ليسمع علماءه البيئيين يعلنون «التصحر» كأخطر مشكلة بيئية (خاصة بالنسبة إلى العالم العربي وافريقيا) تهدد التوازن العالمي على المدى المتوسط والبعيد.

عوامل التصحر: تقف الضغوط السكانية وراء تقدم الصحراء. فضروريات الحياة تلزم السكان باستنزاف الموارد الطبيعية بشكل لا عقلاني وتعبث الفساد بالبيئة المحيطة: قطع الاشجار، إتلاف الغطاء النباتي للارض من جراء الإفراط باستخدام المراعي الطبيعية، والمبالغة في استغلال الاراضي الزراعية، وضخ السموم والمبيدات والمواد الكيماوية المخصبة، والإحراق، وتخفيض مراحل استراحة الارض... فالنشاط الانساني، المترافق مع النمو السكاني، يقف وراء عملية التصحر المستمرة، خاصة لجهة قضائه على الغابات المترافق مع اختفاء أصناف نباتية وحيوانية، وانخفاض منسوب الامطار وارتفاع حرارة الارض... هذا إضافة إلى تبعات الاحتباس الحراري، وتلوث المياه وهدرها واستخدام طرق الري غير الملائمة...

المؤتمرات المتخصصة وأرقامها: انتهى مؤتمر ليشبونة حول التصحر (انعقد في ١٩٩٦) إلى ان هناك ٣٦ مليون كلم م.، أي ما يوازي ربع مساحة الكرة الارضية، يعاني حاليًا من التصحر. وسيصيب التصحر، بعد نحو ١٠٠ سنة، ٥٠ مليون كلم م. (ثلث اليابسة). وقد أضافت منظمة الأونسكو إحصاءات تشير إلى ان عدد السكان الذين يعيشون على ارض مجدبة أو جافة في العالم يعادل ٩٠٠ مليون شخص، وينجم عن هذا خسارة هائلة في العائدات توازي ٤٢ مليار دولار سنويًا. وتتوزع هذه الخسارة على آسيا (٢١ مليارًا) وافريقيا (٩ مليارات) واميركا الشمالية (٥ مليارات) واميركا الجنوبية (٣ مليارات) واوروبا (مليار واحد)، وان ٨٠٪ من الدول التي تعاني كارثة التصحر، هي من الدول النامية، خاصة العربية والافريقية.

قبل مؤتمر ليشبونة، كانت ثمة بداية للاهتمام الدولي بالتصحر نتيجة لكارثة الجفاف في افريقيا في نهاية الستينات وبداية السبعينات. فأمكن عقد «مؤتمر الامم المتحدة للتصحر» في ١٩٧٧ الذي أقر «خطة العمل لمكافحة التصحر». وبعد نحو عشر سنين من متابعة تنفيذ الاتفاقية أعلن «برنامج الامم المتحدة للبيئة» (يونيب) ان الخطة التي افتقرت إلى الموارد المالية لم توفق في الحد من التصحر. وقدرت «يونيب» الخسائر الناجمة عن التصحر بأنها تزيد، عالميًا، عن ٤٢ بليون دولار. ويسبّب هذه الخسائر فقدان الموارد العالمية بسبب التصحر، وتتحمل افريقيا منها أكثر من ٩ بلايين دولار، وآسيا نحو ٢١ بليونًا، واوستراليا ٣ بلايين، واوروبا ١،٥ بليون، واميركا الشمالية ٥ بلايين واميركا الجنوبية ٣ بلايين.

وفي ١٩٩٢، دعا زعماء دول العالم المجتمعون في «قمة البيئة» (في ريو دي جانيرو، البرازيل) الهيئة العامة للامم المتحدة إلى إنشاء لجنة دولية للتفاوض حول عقد اتفاقية دولية للتصحر. وبدأت اللجنة عملها في ايار ١٩٩٣، وانتهت منه في حزيران ١٩٩٤، وفتحت الاتفاقية للتوقيع في تشرين الاول ١٩٩٤ في باريس. ووصل عدد الدول الموقعة حتى نهاية ١٩٩٦ إلى ١١٢ دولة (بينها ١٦ دولة عربية). وفي تشرين الاول ١٩٩٧، عقد اطراف الاتفاقية (إسمها: «إتفاقية الامم المتحدة لمكافحة التصحر») مؤتمرًا في روما، حضره أكثر من ألف وزير ومسؤول وخبير. وهيمن على المؤتمر موضوع حجم الاموال التي تحول من الدول المانحة إلى الدول المتضررة (بين البلدان الغنية غير المتأثرة مباشرة بالتصحر والبلدان الفقيرة التي تعاني منه)، الأمر الذي جعل المردودية العملية (سواء لجهة إيجاد صندوق دولي للتصحر، أو آلية متابعة وتنفيذ) للمؤتمر عند حلها الأدنى.

أخيرًا، تحدّد الاتفاقية التصحر بأنه غير الصحراء، وبأنه «تردي الاراضي القاحلة وشبه القاحلة والجافة، شبه الرطبة، نتيجة عوامل مختلفة من بينها الاختلافات المناخية والأنشطة البشرية». وتتعهد البلدان المنضمة إلى الاتفاقية

بتعزيز التعاون التقني والعلمي في ميداني مكافحة التصحر وتخفيف آثار الجفاف. وعلى غرار الاتفاقية الدولية الأخرى الخاصة بالبيئة تتبنى اتفاقية التصحر مبادىء العولمة والديمقراطية. فالمطلوب من الدول المنضمة إليها ان «تروّج السياسات وتعزز الأطر المؤسسية التي تنمّي التعاون والتنسيق بروح من الشراكة بين اوساط المانحين والحكومات على جميع المستويات والسكان المحليين والجماعات المحلية».

التصحر في العالم العربي: التصحر هو المشكلة البيئية الاولى في العالم العربي. تبلغ المساحة المتصحرة فعليًا حتى الآن ١٠ ملايين كلم م.، أي ٨٦٪ من إجمالي مساحة العالم العربي، وترتفع النسبة إلى ٨٨٪ عند حساب مساحة ٣ ملايين كلم م. معرضة للتصحر. وهذا الأمر يفسّر مسارعة انضمام ١٦ بلدًا عربيًا إلى اتفاقية الامم المتحدة لمكافحة التصحر: مصر، تونس، السودان، لبنان، الجزائر، ليبيا، عمان، موريتانيا، الاردن، المغرب، اليمن، سورية، جيبوتي، السعودية، الكويت والبحرين (...) ينتشر التصحر في كل البلدان العربية. لكنه يأخذ نطاقًا واسعًا ومدمرًا في تونس والسودان والمغرب وموريتانيا.

٢- المناخ (التسخين)

المناخ في قمة الارض: عرف العام ١٩٩٧ إجتماعين دوليين: قمة الارض في نيويورك (في حزيران) ومؤتمر كيوتو (اليابان، كانون الأول)، عالجا موضوع الارتفاع التدريجي لحرارة الارض وما يستتبعه من عواقب قد تؤدي إلى تردي المستوى المعيشي والرفاه في جميع انحاء الارض. وهو الموضوع الذي يطلق عليه العلماء مصطلح «ظاهرة الاحتباس الحراري» التي تسبب تغيرات مناخية تأخذ شكل زيادة في الأعاصير والفيضانات والجفاف وذوبان القمم الجليدية في المناطق القطبية.

قمة الارض الثانية في نيويورك (بعد قمة ريو دي جانيرو، ١٩٩٢) شارك فيها ٦٠ من رؤساء دول وحكومات ووزراء بيئة من مجموع ١٨٥ دولة في الامم المتحدة، وغابت عنها الارادة السياسية (خلاف اوروبي- اميركي حول نسب التخفيض في الغازات المسبّبة لظاهرة الاحتباس الحراري)، وبرزت فيها الكلمة الافتتاحية لرئيس الجمعية العمومية للامم المتحدة المندوب الماليزي السفير رزالي اسماعيل الذي قال إن العالم يواجه، بعد خمس سنوات على القمة الاولى في ريو دي جانيرو، ركودًا لكنه ليس ركودًا اقتصاديًا بل هو ركود في الهمة والروح، ركود في الارادة السياسية لتحقيق تغيير فعلي. وأضاف «إن الاحصاءات التي اجريت بعد قمة الريو اظهرت اننا لا نزال نستهلك الموارد ونلوث وننشر الفقر كما لو كنا الاجيال الأخيرة على الارض (...) وان الذين قطعوا على أنفسهم التزامات خطيرة في الريو لم يفوا بوعودهم مما يجعل الأمر مأسويًا...». أما الأمين العام للامم المتحدة، كوفي أنان، فحذر من ان عدم اتخاذ الاجراءات الآن «سيلحق بالكرة الارضية ضررًا لا عودة عنه ويطلق العنان لمزيد من المجاعة والحرمان والامراض والفساد السياسي».

المناخ في مؤتمر كيوتو: أما مؤتمر كيوتو (عاصمة اليابان القديمة) في كانون الاول ١٩٩٧، الذي نظمته الامم المتحدة، فقد خرج، بعد ١١ يومًا من مفاوضات متواصلة، بالموافقة على خطوات عملية لتنفيذ «اتفاق المناخ». وتحدّد البروتوكولات التي تمت الموافقة عليها في المؤتمر مستويات مختلفة لإطلاق غاز ثاني أوكسيد الكربون وست غازات أخرى تنبعث من حرق وقود النفط والفحم والنشاطات الزراعية. ويعتبر الاتفاق سنة ١٩٩٠ سنة قياسية يحدد بموجبها خفض اطلاق هذه الغازات بنسبة ٧٪ للولايات المتحدة و٦٪ لليابان و٨٪ لأوروبا. وقد تمّ هذا الاتفاق بعد تخطي آخر عقبة أمام مداولات المؤتمر، وذلك بإزالة فقرة تفرض على الدول النامية الالتزام بخفض إطلاق الغازات والتي عارضتها الهند والصين ودول «مجموعة ٧٧» (التي تضم البلدان العربية المنتجة للنفط)، ذلك لأن الدول النامية لا تتحمل مسؤولية «الاحتباس الحراري» لضعف صناعاتها المسببة لهذا الاحتباس من جهة، ولأنها في حاجة ماسة للتنمية من جهة أخرى.

علميًا، لم يحسم مؤتمر كيوتو الخلاف القائم بين العلماء حول علاقة إطلاق الغازات المنبعثة عن حرق وقود النفط والفحم بتغير المناخ العالمي.

أخيرًا، المناخ (التسخين) على علاقة عضوية بموضوع بيئي آخر ومهم، وهو التلوث (راجع في ما يلي).

٣- إختلال البيئة وتلوثها

نظرة عامة: الارض هي «بيت البشرية»، وهي محور حياة الانسان، مكوناتها وعناصرها موجودة في الأصل في حالة توازن دقيق. وقد زاد استغلال الانسان

للموارد الطبيعية بشكل هائل في هذا القرن، مما سبّب اختلالاً في توازن عناصر البيئة. وتشترك الدول الغنية والدول الفقيرة في هذا الاختلال. فالدول الغنية تستند في تقدمها الصناعي إلى استهلاك كميات متزايدة من المواد الخام ومن الطاقة، وتستخدم كثيرًا من المواد الكيميائية الضارة، كما ينتج من أكثر صناعاتها مواد أخرى شديدة الضرر بالبيئة. كذلك فإن الدول الفقيرة، تستنفد اراضيها بالزراعات المعدة للتصدير والمعتمدة على استعمال المبيدات (بينت إحدى الدراسات في ١٩٨٣ ان نحو ١٠ آلاف شخص قد لقوا حتفهم بهذه المبيدات وإصابة نحو ٤٠٠ ألف باصابات بالغة)، وقطع الغابات، واكتظاظ المدن...

ويؤدي الاستهلاك اليومي الهائل للوقود في التجمعات الصناعية وفي وسائل النقل والسيارات إلى تصاعد ملايين الاطنان من غازي أوكسيد الكربون، مما يؤدي (كما يؤكد أكثر العلماء) إلى رفع درجة حرارة الارض (التسخين) بمرور الوقت، وإلى ارتفاع مستوى سطح مياه البحار وغمر المدن الساحلية ومصبات الانهار. كذلك يتسبب غاز ثاني أوكسيد الكربون وأسيد النيتروجين الناتجة عن حرق الوقود في تكون الامطار الحمضية التي تتساقط اليوم فوق أراضي كثير من الدول. ويقدر ان بعض المناطق في اوروبا تتلقى نحو غرام من الكبريت على كل متر م. منها في العام.

يضاف إلى ذلك بعض المواد الكيميائية الضارة التي تنتج في الصناعة مثل مركبات الكلوروفلوروكربون التي تستخدم في التبريد وفي عبوات مستحضرات التجميل والمبيدات، كما تستخدم في المواد الرغوية المستخدمة في إطفاء الحرائق، فهي تساعد على اضمحلال طبقة غاز الأوزون التي تمتص الأشعة فوق البنفسجية، مما يهدد الحياة على سطح الارض.

يقول العلماء، بشأن الخطر الآتي من ثقب الأوزون، إن ثقبًا آخر يوشك على الظهور في الشمال ليناظر سابقه الجنوبي ويهدد الحياة في نصف الكرة الارضية الشمالية الذي يمكن ان ينصب عليه فيضان من الأشعة فوق البنفسجية يلهب الجلود بالسرطان ويقتل خصوبة التربة.

إن أغلب هذه الآثار الضارة في توازن البيئة ليست محلية، ولكنها ذات طبيعة شاملة الارض كلها والبشرية كلها، شمال وجنوب، شرق وغرب، فقراء وأغنياء، مَن ينتفعون بانتاج واستهلاك هذه المواد ومَن لا ينتفعون.

تشريعات ومعالجات: لم يبدِ الانسان وعيًا لما تحدثه الصناعات من اضرار على البيئة إلا في وقت متأخر. وبذور هذا الوعي تتحدث عنه بعض التشريعات الخاصة ببعض الصناعات في اوروبا. فتلوث الجو، تناوله قانون ١٩١٧ في فرنسا الذي وضع تصنيفًا للمؤسسات الصناعية المعتبرة خطرة، ثم جاء قانون ٢ آب ١٩٦١ ليتيح للحكومة وضع شروط وأحكام كل مؤسسة صناعية تعتبر «خطرة».

في جمهورية المانيا الفدرالية (المانيا الغربية سابقًا)، تمّ فرض قواعد محدّدة، منذ ١٩٥٩، على كل تجهيز حراري بيتي، وفي ٤ آب ١٩٦٠ صدر مرسوم يدرج قائمة بالمصانع المسموح بها.

الأمر نفسه تقريبًا مع قانون «ألكالي» Alkali Act الصادر في بريطانيا في ١٩٠٦، والذي أكمل أحكامه قانون صادر في ١٩٥٨. أما قانون «كلين إير» Clean

التلوث البيئي يغطي مدينة باريس. والامر نفسه تقريبا بالنسبة الى غالبية مدن العالم الشديدة الاكتظاظ السكاني.

Air الصادر في تموز ١٩٥٦ فقد حدّد الخصائص الفيزيائية والكيميائية المتوجب توفرها في الدخان حتى لا يكون معتبرًا مضرًا.

في الولايات المتحدة، وضعت ولاية كاليفورنيا، منذ حزيران ١٩٦٦، قواعد متعلقة بالغازات التي تنفثها محركات السيارات، وبقيت الحكومة الفدرالية حتى أول كانون الثاني ١٩٦٨ لتتبنى هذه القواعد وتفرضها على باقي الولايات.

بالنسبة إلى تلوث مياه المجاري والبحيرات رأت تشريعات مختلف هذه البلدان أن يصار إلى إنشاء هيئة خاصة بكل مجرى مائي أو بحيرة. وقد صدرت مختلف تشريعاتها حول هذا الموضوع في الخمسينات والستينات. أما في كندا فقد أنشأت مقاطعة أونتاريو، في ١٩٥٦ هيئة «أورك» (O.W.R.C) وأتبعتها بوزارة البيئة.

وفي ١٥ نيسان ١٩٧٢، وقعت كندا والولايات المتحدة، بعد ثماني سنوات من المفاوضات، اتفاقًا حول مياه البحيرات الكبرى. وفي ٢ آب ١٩٧٢، صدر قانون كندي حول حماية مياه الأركتيكا (في القطب الشمالي) من التلوث وعلى مسافة نحو ١٦٥كلم من الشواطىء الكندية، ويتناول خاصة الاشراف على سفن شحن النفط العملاقة التي تعبر هذه المنطقة.

وفي بداية السبعينات، بدأت مؤتمرات بيئية متخصصة هدفها التنسيق بين التشريعات البيئية في مختلف البلدان الصناعية، خاصة في ما يتعلق بحاجة الانسان إلى المياه. إذ تبين لهذه البلدان انه كلما زاد عدد سكانها مرة زادت حاجتهم للمياه مرتين (تبعًا للمتطلبات المدنية ومسار الرفاه الآخذة به هذه البلدان). وفي ا ستوكهولم انعقد أول مؤتمر للامم المتحدة حول البيئة (حزيران ١٩٧٢). وفي لندن، وقعت ٩١. دولة اتفاقًا دوليًا يحظر رمي النفايات الضارة في المحيطات (تشرين الثاني ١٩٧٢). وفي فانكوفر انعقد أول مؤتمر حول السكن (ايار ١٩٧٦).

ومنذ هذه البدايات توالت المؤتمرات الدولية والاقليمية والمحلية، وأصدرت أكثر الدول (بما فيها الدول النامية) تشريعات لحماية البيئة. وقد ترافق ذلك مع تزايد الوعي البيئي واهتمام الرأي العام بحماية البيئة، فتأسست منظمات بيئية دولية رسمية وشعبية (أهمها «غرين بيس»)، ومنظمات وجمعيات إقليمية ومحلية (أصبحت نادرة جدًا الدول التي لم تشارك في أنشطة بيوية ولم توقع على اتفاقيات دولية واقليمية حول البيئة ولا يهتم مواطنوها بموضوعات بيئية)، وبدأت عمليات تستهدف تطوير تكنولوجيات جديدة لمكافحة التلوث من جهة، أو تؤمّن صناعة غير مُلوّثة من جهة ثانية.

ومع ذلك، ما يزال تحدي التلوث أكبر من الجهود المبذولة لمكافحته، وما زالت مستويات غازات ثاني أوكسيد الكربون وثاني أوكسيد الكبريت وأكاسيد النيتروجين، التي تتصاعد في الهواء، عالية، وكذلك مستويات الجسيمات العالقة والهيدروكربونات غير تامة الاحتراق.

٤- الماء

نظرة عامة: بمثل ما هيمن النفط على السياسة الاقتصادية (والاقتصاد السياسي) العالمية في النصف الثاني من القرن العشرين وانتهت بتلقي عدة «صدمات» نفطية منذ ١٩٧٠، تتجه الامور حاليًا لتعنون هيمنة مائية على القرن المقبل بحسب ما يقول الخبراء الجغراسيين الذين يرجّحون اندلاع نزاعات جغراسية وتجارية واسعة النطاق بسبب الماء الذي هو مصدر ضروري للحياة ولا بدائل له والمتوافر بكميات قابلة للتناقص رغم الدورة المائية المعروفة جغرافيًا.

فاستعمال الدول الغنية المفرط وغير العقلاني للصناعة والزراعة والسياحة وفي البيوت أدّى إلى إيصال التلوث إلى بعض الحقول المائية الجوفية إضافة إلى ان تبذيرها المائي يهدد بنقص كبير في حجم الكتلة المائية الحلوة (مياه الري والشفة) للكرة الارضية. في حين ان نحو ١،٤ مليار بشري يجلون انفسهم محرومين يوميًا من ماء الشفة.

«إذا لم يُصار إلى اتخاذ إجراءات فورية فإن الوضع سيزداد خطورة في المستقبل». كانت هذه هي العبارة التي انتهت إليها وثيقة دراسية مقدمة إلى الجمعية العامة للامم المتحدة في اجتماعاتها المخصصة لاحتياطي المياه الحلوة (مياه الينابيع والسواقي والأنهار) في الارض. فالمياه باتت مشكلة مطروحة على مستوى البشرية بأكملها، وحلها سيتناول مستقبل المجتمعات، ولا تنمية بدونها.

إن ما يجدر ملاحظته، كعناوين عريضة للمشكلة، ان الثروات المائية آخذة في التناقص في مناطق عديدة سواء في وجودها الظاهر على سطح الارض أو في احتياطها المخزون، ان التلوث بات منتشرًا على نطاق واسع وان التصحر يزحف. وهذه الظاهر على صلة وثيقة بظواهر بيئية أخرى أكثرها خطورة واستعجالاً التغيرات المناخية، قطع أشجار الغابات وطبقة الأوزون؛ كما انها على صلة

عضوية بالثمن الباهظ الذي يدفعه الانسان مثل سوء التغذية والامراض والنزوح من الارياف... فالمياه، في نهاية المطاف، ثروة قابلة للنضوب وغير موزّعة بصورة عادلة في الزمان والمكان. صحيح انها تُعوّض عن طريق الدورة المائية المعروفة (١٣٨٥٩٨٥كلم مكعب)، لكن احتياطيها ليس من دون حدود. والخبراء يعتقدون بأن «إجمالي كميات الماء على سطح الارض سيكون مستهلكًا من الآن حتى العام ٢١٠٠، وان كل كمية المياه المتأتية من دورة المياه ستكون ناضبة من الآن حتى العام ٢٢٣٠» (من الدراسات المقدمة في المؤتمر العالمي التاسع، مونريال، ١-٦ ايلول ١٩٩٧).

في الواقع، فإن المياه الحلوة لا تحتل سوى ٣٪ من إجمالي مياه الارض. وإذا استثنينا الكتلة المائية الجامدة في الكتل الجليدية وفي المستوعبات المائية في أعماق الارض، فلا يبقى للبشرية سوى ١٪ من المياه الحلوة المتأتية من المجاري المائية والبحيرات والامطار. وكذلك، هناك شخص واحد من كل خمسة أشخاص محروم من مياه الشفة الصحية، ونصف البشرية لا تتمتع بشبكة صحية ملائمة. وبلدان افريقيا الشمالية والشرق الاوسط التي لا يحصل إنسانها على أكثر من ٢٠٠٠ متر مكعب في السنة، تعيش في ظروف «قلق مائي حقيقي»، وهي الظروف التي تعوق نموها الاقتصادي والاجتماعي.

مشار نزاعات؟: إذا كان سكان الارض قد زاد عددهم ثلاث مرات خلال القرن العشرين، فإن الطلب على الماء قد زاد سبع مرات، والاراضي المروية زادت ست مرات. وجاء التلوث خلال السنوات الخمسين الأخيرة ليخفض كمية مياه المحتويات المائية إلى الثلث.

إن تحلية مياه البحار ليست ممكنة، حتى الآن، إلا في بعض البلدان (حيث أسعار الطاقة رخيصة نسبيًا). وقد تبين انه حتى في حال اللجوء إلى هذا الإجراء (كما في الكويت والسعودية) فإنه لم يمنع من وصول معدلات استهلاك الماء إلى «مستويات منذرة بالخطر».

تمتص الزراعة ثلثي الاستهلاك العالمي من الماء. وينذر الخبراء بأنها لن تحتفظ بهذه النسبة في القرن الحادي والعشرين: «إن الندرة المتفاقمة للمياه الحلوة هي، حاليًا، معوّق اساسي للانتاج الغذائي، للصحة، للاستقرار الاجتماعي وللسلام بين الدول». فمصر وليبيا والجزائر والمغرب أصبحت تستورد، منذ الآن، أكثر من ثلث حاجياتها من الحنطة.

يمكن للماء ان يكون مصدرًا قويًا لنشوب النزاعات: العرب واسرائيل حول مياه نهر الاردن والليطاني والجولان (المعتبر بمثابة خزان ماء). اتفاق طابا (الذي يُقال له ايضًا «أوسلو-٢») الموقع في واشنطن في ٢٨ ايلول ١٩٩٥، بين السلطة الوطنية الفلسطينية واسرائيل، يشرّع توزيع مياه الضفة إلى ٨٢٪ للاسرائيليين و١٨٪ للفلسطينيين. أما مياه النيل ودجلة والفرات فليس هناك بشأنها، حتى الآن، أي اتفاق نهائي.

إن أكبر شبكة ري في العالم هي في باكستان على نهر الهندوس الذي يمتد جزء من حوضه إلى الهند. مشاريع السدود العملاقة في الصين وفي ماليزيا تثير جدالاً حاميًا حول كلفتها وملاءمتها ونتائجها الانسانية والبيئوية. الولايات الاتحادية، كما الولايات المتحدة والهند، تتنافس في ما بينها حول حصصها من الثروات المائية. وفي اوروبا، فإن الاشغال المنفذة على الدانوب أجبرت هنغاريا وسلوفاكيا على إعادة ترسيم حدودهما المشتركة، ونزاعهما حول محطة غبسيكوفو أحيل على المحكمة الدولية في لاهاي.

ومع ذلك، فإن المنازعات حول الماء يمكن تجنبها. وهذا ما تحاوله بلدان «مجموعة التنمية الافريقية الجنوبية» من خلال مفاوضاتها حول توزيع مياه نهر الزامبيز والأورانج. وكذلك الهند وبنغلادش اللتان توصلتا إلى إنهاء خلافاتهما، التي تعود إلى عشرين سنة سابقة، باتفاقهما حول نهر الغانج. والمياه التي تبيعها ليسوتو لجنوب افريقيا تمكّنها، بثمنها، من تمويل مدارسها الابتدائية.

لمواجهة تعقيدات المشكلة، خاصة لجهة النقص في المياه، يقترح البعض إخضاع إدارة المياه وتوزيعها لادارة السوق الحرة واحكامها، أي «تخصيص» **Privatisation** المياه، والاميركيون أكثر المتحمسين لهذا الحل.

الماء بين مصالح السوق والقواعد الاخلاقية العليا: مثل هذا العنصر الحيوي، (الماء)، المتلىء بالرموز والثقافة والروحانية (ما من معتقد بشري إلا وأحلّه في مرتبة القدسية) هل يمكن النظر إليه كمجرد سلعة سوقية؟.

فديريكو مايور، المدير العام للأونسكو، يقول في كتابه «ماء وحضارة» (أوكسفورد، ١٩٩٧): «يجب اعتبار هذه الثروة الضرورية للحياة ككنز طبيعي يشكل جزءًا من الإرث المشترك للانسانية».

هذه النظرة عارضها واضعو التقرير المقدم للامم المتحدة في ١٩٩٧، حيث جاء: «يجب ان يكون ثمة مقاربة (لموضوع الماء) أكثر توجهًا ناحية السوق لادارة عمليات

تأمين الماء، كما يجب اعتبار الماء سلعة يتحدد سعرها وفقًا للعرض والطلب».

لكن، في نهاية دورة الامم المتحدة المخصصة للماء (حزيران ١٩٩٧) أوصى برنامج تنفيذ المذكرة ٢١ التي كانت قد تبنتها قمة ريو ١٩٩٢ بأن «يجري التثمين الاقتصادي للماء في إطار الضرورات الاجتماعية والاقتصادية لهذه الثروة»، وعلى هذا التثمين ان «يعكس الحاجات الأساسية». وكان مؤتمر الامم المتحدة المنعقد في مار دل بلاتا (١٩٩٧) قد أعلن: «لجميع الناس حق الحصول على مياه الشفة سواء من ناحية كمية المياه أو نوعيتها، وان تكون حصة كل فرد معادلة لحاجاته الرئيسية».

ومما يقوله بعض الخبراء، خاصة من الذين يعارضون جعل المياه «سلعة في السوق»، إنه من غير الجائز معالجة المشكلات المائية بحد ذاتها، بل يجب معالجتها في إطار مختلف وجوه التنمية الاقتصادية والاجتماعية حتى يتسنى تأمين الحاجات الانسانية الاساسية. فالمشكلة الحقيقية كامنة في الأمن الغذائي، وصحة السكان والسلام والاستقرار في العالم. فالقضية إذن لا تتعلق بالتقنيين فقط، وأفضل تعبير عن ذلك ما جاء على لسان الوزير المكلف الشؤون المائية في جنوب افريقيا، قادر أسمال عندما صرّح بقوله: «نحن بحاجة إلى نشاط متعدد الاطراف، فعّال وديمقراطي» (تشرين الثاني ١٩٩٧). والامم المتحدة، في نهاية دورتها المخصصة للمياه (حزيران ١٩٩٧)، أوصت باعطاء الاولوية المطلقة للمياه الحلوة والبدء بمقاربة استراتيجية لتأمين وجهات استعمال الماء لأهداف اجتماعية واقتصادية.

من أجل عقد عالمي (مناقشة): إذا لم تُتخذ، في السنوات الـ ١٠-١٥ القادمة، مبادرة جماعية مدروسة وموثوقة تضع المياه في إطار عالمي وتخضعها لنظام سياسي واقتصادي وقضائي واجتماعي-ثقافي، فإن محاولات السيطرة عليها ستؤدي إلى نزاعات اقليمية عديدة، وتاليًا، إلى خسائر اقتصادية فادحة. وبذلك سيتحول هذا المصدر الأساسي للحياة إلى ثروة استراتيجية، أي إلى سلعة نادرة تتحكم بها اسواق جديدة تعمل على تحقيق ارباح خيالية.

ان الرأي القائل بأن السوق وحده كفيل بضمان «سلام المياه» وبتأمين التوازن الفعال بسبب ما يفرضه من «سعر عادل» بين العرض (المتناقص) والطلب (المتزايد)، أخذ يجد له مزيدًا من المؤيدين خلال السنوات الأخيرة حتى في صفوف مَن هم ليسوا من النيوليبراليين الذين يعملون، كما هو معروف، على تخصيص كل ما هو قابل للخصخصة.

ومع ذلك، فالدروس المستقاة من التخصيصات المائية المحققة في المملكة المتحدة وفرنسا تدفع إلى وجوب اتخاذ أعلى درجات الحذر. إن سعر الماء ارتفع في المملكة المتحدة بنسبة ٥٥٪ بين ١٩٩٠ و١٩٩٤، وإن فترات انقطاع الماء زادت هناك عن السنوات السابقة. وكانت حكومة كيبيك (في كندا) أول من استفاد من العبرة، وأعلن رئيسها لوسيان بوشار، رغم انه من المتحمسين للخصخصة أن «الماء ملك عام ويجب ان يكون، ويبقى، تحت الادارة العامة» (١٩٩٧). أما «مجموعة ليشبونة» فلا يفتأ أعضاؤها يعملون على إيجاد حركة دولية تمثل رأيًا عامًا دوليًا يضغط في اتجاه اعداد، ثم تنفيذ، «العقد المائي العالمي».

ينطلق هذا العقد من مبدأ ان ماء الشفة حق اقتصادي واجتماعي لكل شخص، وفي الوقت نفسه، حق جماعي لكل مجموعة بشرية. وأول ما يفرضه هذا العقد هو العمل الفوري لتأمين الماء لنحو ١،٤ مليار انسان. وإذا كان صعبًا، أو شبه مستحيل تمويل مثل هذه المشاريع في الوقت الحاضر، كما يقول مسؤولون سياسيون واقتصاديون وماليون، فإن الأمر يبدو سهلاً إذا ما اقتطعت نسب بسيطة من استثمارات المشاريع المعطاة الأولوية في الوقت الحاضر، مثل: الأوتوسترادات المحلية أو عابرة الدول، والاعلام والمعلومات والمواصلات، والبرامج العسكرية...

(مرجع هذه المادة: «المياه»، مقالات: ريكاردو بيتريلا، استاذ في جامعة لوفان الكاثوليكية ورئيس «مجموعة ليشبونة»؛ دانيال بودرو، استاذ محاضر في جامعة تولوز؛ برنار ماري، باحث في مختبر دراسات وأبحاث اقتصاد الانتاج في فرنسا؛ محمد لاربي بوغيرا، جامعي وعضو في برنامج «ماء الوفاق من أجل عالم مسؤول ومتضامن»؛ «لو موند ديلوماتيك» تشرين الثاني ١٩٩٧، ص٢٤-٢٥).

٥- الفقر والجوع

تاريخ: يقول الخبراء إن المجتمعات البدائية (ما قبل التاريخ) عانت من نقص في الغذاء ومن المجاعات، ويعيدون ذلك إلى الوسائل الزراعية البدائية. فالصيد والقطاف لا يمكنهما في الحقيقة تأمين الغذاء لأكثر من ١٠ اشخاص في

الكلم م. الواحد. فكل زيادة سكانية عن هذه النسبة كانت تؤدي إلى فائض في عدد السكان.

في القرون الوسطى، وقع عدد كبير من المجاعات، وكانت في أغلب الاحيان مصحوبة بالحروب والامراض (الطاعون بصورة خاصة)، ما جعل معدلات الوفيات مخيفة.

تخلصت اوروبا من المجاعات الكبرى في القرن التاسع عشر (مع الثورة الصناعية). لكن مثل هذه المجاعات ظلت تضرب مناطق واسعة في العالم، كما في الصين التي عرفت مجاعتها الكبرى الأخيرة في خمسينات هذا القرن.

الفاو: منذ نهاية الحرب العالمية الاولى، بدأ الاتجاه لمكافحة الجوع يهم جميع سكان الارض. ففي ١٦ تشرين الاول ١٩٤٥، أنشأت الامم المتحدة، في كيبيك (كندا)، منظمة «الفاو» (Food and Agriculture (F.A.O) Oraganization) ووضعت على رأس أهدافها «رفع مستوى تغذية السكان في العالم وظروف حياتهم... وتحسين مردود الانتاج وفعالية توزيع كل المنتجات الغذائية والزراعية». وعلى الفور بادرت ١٠٠ دولة لتقديم دعمها المالي لهذه المنظمة التي اتخذت روما مقرًا لها. ثم بدأت بعض الدول الصناعية تقديم مساعدات اقتصادية ومالية وتكنولوجية للبلدان النامية، لكنها مساعدات غير كافية من جهة، ومن جهة ثانية جاءت في إطار شبكة معقدة جدًا من أزمات وأوضاع عالمثالثية ودولية ومصالح وتنافس... فلم تكن مجدية، واستمر الجوع يطال نحو ربع سكان العالم.

ربع القرن الأخير: الدراسات المختصة في السبعينات أظهرت ان نحو ٧٠٪ من إجمالي سكان العالم يحصلون على حصة غذائية لا تتعدى وحدتها الحرارية الـ ٢٣٠٠ وحدة حرارية يوميًا، و٢٠٠٠ وحدة حرارية لمليار من السكان، في حين انها تتعدى ٣٠٠٠ وحدة حرارية للبلدان الصناعية. كما أظهرت هذه الدراسات ان شخصين من كل ثلاثة أشخاص لا يأكلان شبعهما.

الاقتصاديون والديمغرافيون (الذين وضعوا هذه الدراسات في السبعينات) رأوا ان كل زيادة سكانية تعادل ١٪ في أي بلد من البلدان، يجب ان تستتبعها زيادة ٤٪ في الدخل القومي العام حتى يستطيع السكان المحافظة على مستوى عيشهم. فقياسًا على هذه النسب كان الوضع وما يزال كارثيًا بالنسبة إلى البلدان النامية.

١٥٠ مليون نسمة، حسب إحصاءات الفاو، كانوا مهددين بالموت جوعًا في آخر ١٩٨٤. وشبح هذه المجاعة هيمن على مناطق شاسعة في افريقيا وجنوبي آسيا واميركا اللاتينية: ٣٨ بلدًا من بينها ٢٦ افريقيًا (أخصها: اثيوبيا، السودان، تشاد، النيجر، مالي وموزمبيق).

في اميركا اللاتينية: منطقة النوردست (الشمال الشرقي من البرازيل) التي تبلغ مساحتها ١،٥ مليون كلم م. وعدد سكانها ٣٥ مليون نسمة، وهايتي، ومرتفعات جبال الأندز (حيث الهنود)، وبوليفيا، وبيرو وبعض مناطق غواتيمالا والسلفادور (في السنوات الأخيرة، لم تعد المجاعة مطروحة في أميركا اللاتينية، وحُصرت المشكلة في الفقر وسوء التغذية).

في جنوبي آسيا: تأتي بنغلادش في مقدمة الاقطار المكابدة موسميًا من المجاعات. فبعد فيضانات ١٩٨٤، حصلت مجاعة كبرى أودت بحياة أكثر من مليون و١٠٠ ألف شخص. ولئن كانت الهند، بلد المجاعات التقليدي، قد نجحت بالتغلب على المجاعة، إلا انها لا تزال تشكو من الفقر وسوء التغذية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى النيبال ولاوس وأفغانستان وكمبوديا وفيتنام (للمزيد حول هذه الموضوعات الاجتماعية، راجع «آسيا» و«افريقيا»، و«أميركا اللاتينية» في الجزء الثاني والثالث من الموسوعة).

«سلاح الغذاء»: مصطلح سياسي (واستراتيجي) بدأ استعماله على نطاق واسع إثر الحملة المركزة التي قامت بها منظمة الفاو منذ ١٩٦٠ تحت شعار «حملة التحرر من الجوع»، وأعقبتها بعقد المؤتمر الاول للاغذية، في ١٩٦٣، الذي أكد على «أن سوء التغذية أمر لا يمكن قبوله من الناحية الاخلاقية والاجتماعية ويتعارض مع كرامة الانسان ويهدد الأمن الاجتماعي العالمي».

و«سلاح الغذاء» سلاح مهم تلجأ إليه الدول الغنية في علاقاتها الخارجية للتأثير على السياسة الداخلية أو الخارجية لدولة أو لمجموعة من الدول بهدف حملها على الرضوخ لارادتها والانصياع لاستراتيجيتها. وأهمية هذا السلاح تكمن في انه يستعمل مواد غذائية اساسية تستخدمها وتستهلكها كل شعوب العالم بدون استثناء بمختلف مستوياتها ومواقعها وتعددها.

الولايات المتحدة هي أبرز جهة هدّدت باستخدام هذا السلاح مستغلة ظروفًا خاصة أهمها: قدرتها العالية في انتاج المواد الغذائية، وعلى رأسها القمح (١٢٪ من الانتاج العالمي)، استغلال نفوذها المستحكم في العديد من انظمة الدول المصدرة للقمح. وقد استخدمت الولايات المتحدة

هذا السلاح في التشيلي ضد حكومة سلفادور ألليندي، ولوحت باستخدامه (من خلال الشركات الاحتكارية) ضد الدول العربية (١٩٧٨)، وأمرت بايقاف تصدير القمح للاتحاد السوفياتي بسبب غزوه أفغانستان (١٩٨٠).

ثمة وجه آخر (غير مباشر) تستخدمه الدول الغنية، خاصة الولايات المتحدة، كسلاح غذائي ضد دول العالم الثالث ولإخضاعها، وهو الوجه المبطن بـ«العلم والدراسات والخبراء والمستشارين... ودواعي التنمية... وضرورات واحكام وقواعد الانخراط في السوق العالمي...» ومن خلال المؤسستين النقديتين الدوليتين الرئيسيتين: «البنك الدولي» و«صندوق النقد الدولي»، واللتين باتت الاصوات في العالم (ليس فقط في العالم الثالث بل وايضًا في العالم الصناعي المتقدم) ترسم تساؤلات كبيرة مدعومة بسوابق وحجج ووقائع، حول حقيقة دورهما. فالعدد الأكبر من الاضطرابات الاجتماعية (في دول العالم الثالث، وفي دول اوروبا الشرقية إبان أحداث انفراط الاتحاد السوفياتي ثم انهياره، وفي السنوات التي تلت هذا الانهيار وتميزت بالازمات الاقتصادية والاجتماعية)، إنما قام بعد أو خلال تدخل هاتين المؤسستين. كما ان تدخل البنك أو الصندوق كان دائمًا يلي مطالبة دولة من الدول بدعم اقتصادها الآيل إلى الافلاس. ثم يأتي التدخل مقرونًا بفرض البنك أو الصندوق شرطه في إيقاف الدولة لدعمها العديد من السلع الأساسية الضرورية، ولا سيما الخبز والمواد الغذائية والوقود (كأن دعم الدولة لهذه السلع هو سبب المشكلة)؛ وإذ يجد الشعب نفسه امام اوضاع تحتم عليه ان يدفع أكثر مما يستطيع ثمنًا لضرورات حياته، تنفجر الاوضاع وتندلع القلاقل.

هذا السيناريو بدأ منذ اوائل الخمسينات، أي منذ بدأ البنك والصندوق عملهما. ولعل المثال الأوضح على هذا السيناريو جاء من فنزويلا عندما اندلعت ثورة جوع عارمة في ٥ آذار ١٩٨٩ في العاصمة كاراكاس وغيرها من المدن الكبرى. والملفت ان الرئيس الفنزويلي نفسه كارلوس أندريس بيريزا سبق النقابات والاحزاب اليسارية في اتهام «صندوق النقد الدولي وممارساته وضغوطاته الوقوف وراء مخططات مشبوهة...». إذ جاء صندوق النقد الدولي ليقرر بعد «ان درس اوضاع الاقتصاد الفنزويلي دراسة جيدة ان الوقت قد حان لأن توقف الدولة دعمها لأسعار الاغذية والخبز وايضًا لاسعار النقل العام...». وبسرعة استجابت السلطات، ولا سيما رئيس البلاد الذي كان في ذهنه ان ينفذ برنامجًا اقتصاديًا شديد الطموح. والسيناريو نفسه تقريبًا لا يزال مستمرًا بين الصندوق والبنك من جهة، وعدد من الدول من جهة ثانية، كما بالنسبة إلى تايلاند وغيرها من دول مجموعة آسيان؛ وآخر فصوله تدور حاليًا في أندونيسيا.

القمة العالمية للأغذية (١٩٩٦): في ١٣ تشرين الثاني ١٩٩٦، افتتحت، في روما، القمة العالمية للاغذية، حضرتها وفود من دول العالم كافة، وتمثل نصفها برؤسائها أو رؤساء حكوماتها. وافتتح المؤتمر البابا يوحنا بولس الثاني إلى جانب الامين العام للامم المتحدة بطرس غالي، ورأس أعماله رئيس الحكومة الايطالية رومانو برودي.

من وثائق المؤتمر ان الجائعين يشكلون ٢٠٪ من سكان العالم الثالث، وان ٨٢ بلدًا لا يزال يعتبر ضمن فئة بلدان العجز الغذائي منها ٩ بلدان عربية (مصر، الاردن، سورية، اليمن، المغرب، موريتانيا، السودان، جيبوتي والصومال، إضافة إلى العراق الذي يعاني من اوضاع غذائية صعبة بسبب الحصار الدولي المضروب عليه)، وان المساعدات الغذائية التي كانت تشكل ربع أو خمس إجمالي واردات العالم الثالث من الحبوب في اوائل السبعينات انخفضت حاليًا إلى العشر. ومن وثائقه ايضًا فيض من دراسات وإحصائيات وضعتها منظمة الفاو، وغيرها، وكلها يمكن إدراجها تحت عنوان واحد وهو ما أفاد به «برنامج الامم المتحدة للتنمية» في العام ١٩٩١ حيث جاء ان خمس سكان الكرة الارضية، الأكثر غنى، يسيطر على ٨٤،٧٪ من موارد العالم الطبيعية ويستهلكها، في حين ان خمس سكان الكرة الارضية الأكثر فقرًا لا يملك سوى ١،٤٪ من هذه الموارد.

ثمة أمور عدة يجدر ذكرها حول مؤتمر هذه القمة، أهمها:

– تغيب عن القمة جميع رؤساء الدول الغنية التي تملك القدرة على انقاذ حياة ٨٤٠ مليون انسان (رقم اعطته دراسات الفاو المقدمة للمؤتمر) يعانون الجوع ونقص التغذية.

– برز الزعيم الكوبي فيدل كاسترو نجمًا للمؤتمر بانتقاده الشديد له واصفًا إياه بـ«المخجل فيما ٣٥ ألف شخص يموتون من الجوع في اليوم نصفهم من الاطفال» (الاحصاءات تفيد ان هناك طفلاً يموت كل سبع ثوان). وقد اعتبر كاسترو ان «النيوليبرالية والرأسمالية وقواعد السوق الهمجية وعلاقات التبادل غير المتكافئة بين الشمال والجنوب هي التي تقتل ملايين البشر».

– في ايام المؤتمر، قامت المنظمات غير الحكومية بعقد مؤتمر مواز في العاصمة الايطالية وعلى بعد مئات الامتار من الفاو (صاحبة الدعوة لعقد مؤتمر القمة)، فضحت فيه سياسات الدول الصناعية و«محاولاتها المستمرة لتركيع الجنوب عبر تكبيله بالديون وإغراق حكوماته بتجارة الاسلحة» رغم انتهاء الحرب الباردة. وقد طالبت هذه المنظمات بوقف برامج ووصفات البنك الدولي لأنها تقود دول العالم الثالث إلى الانتحار.

٦– السكان

نظرة عامة: تفيد تقديرات العلماء ان عدد سكان العالم في الألف الثامن ق.م. لم يكن يتجاوز الـ٥ ملايين، وان معاصري السيد المسيح لم يصلوا إلى أكثر من ٢٥٠ مليونًا، وان العدد انتظر العام ١٦٥٠ ليتضاعف (أي ليصبح في حدود الـ٥٠٠ مليون)، ووصل إلى المليار في العام ١٨٤٠، والمليارين ونصف المليار في ١٩٥٠، و٤ مليارات في ١٩٧٦ (آخر التقديرات–١٩٩٨–تفيد ان العدد ٦ مليارات).

إن النمو السكاني (أحد العناصر الأساسية في التحليل الديمغرافي إلى جانب الولادات، الخصوبة، الوفيات، الهجرات...) في بلدان كثيرة اصبح سريعًا ومتكاثفًا إلى درجة بات يخشى معه ان تصل الكتلة البشرية قريبًا إلى حجم تعجز فيه موارد الارض من تأمين ضرورات عيشها. وأكثر المستشعرين هذا «الخطر» البلدان الغنية التي باتت تصدر توصيات للبلدان الفقيرة بوجوب اعتماد سياسات تحديد النسل.

«المالتوسية» تلقي الضوء على البعد الفكري للموضوع، و«مؤتمر القاهرة»، على آخر الأنشطة الدولية في محاولات المعالجة.

المالتوسية: المالتوسية هي مذهب القس والاقتصادي الانكليزي توماس روبرت مالتوس (١٧٦٦–١٨٣٤)، وقد عرضه في مؤلفيه الرئيسيين: «محاولة في مبدأ السكان» (١٧٩٨) و«مبادىء الاقتصاد السياسي» (١٨٢٠). ويستند هذا المذهب على فكرة رئيسية تتلخص في ان الانسان، على غرار الكائنات الحية قاطبة، ينزع إلى التكاثر وفق وتيرة أكبر كثيرًا من وتيرة تكاثر الغذاء المتوافر. ففي حين يتكاثر الناس وفق متوالية هندسية فإن الغذاء لا يتزايد إلا وفق متوالية عددية. وانطلاقًا من هذا «القانون الطبيعي» خلص مالتوس إلى القول إن الارض تعاني من خطر التكاثر السكاني، ودعا إلى مواجهة هذا الخطر بالحد من الإنجاب عن طريق التزام العفة والتأخر في الزواج. وقد أطلق إسم المالتوسية ايضًا، أو النيومالتوسية، على مجموعة المذاهب الحديثة التي تقر بانتمائها إلى مالتوس بهذا القدر أو ذاك، والتي تدعو إلى تحديد النسل ومنع الحمل.

هوجمت المالتوسية من مفكرين وتيارات فكرية عدة، واعتبرت من بعضهم دفاعًا عن البورجوازية، إذ إنها تتيح لها ذريعة التنصل من كل مسؤولية إزاء الفقر وتبرر وجود قلة من الناس الميسورين والسعداء. لكن لئن تكلم مالتوس بقسوة وعنف، ولا سيما في كتاباته الاولى، عن التضخم البشري والتكاثر السكاني، فإنه لم يفعل ذلك بدافع من عداء مطلق لمبدأ التكاثر وإنما من منظور إنتاجي وانطلاقًا من رغبة في تحقيق نمو متوازن بين السكان والموارد، وبين الانتاج والاستخدام.

وقد أطلق ايضًا مصطلح المالتوسية أو المالتوسية الاقتصادية على الاجراءات الرامية إلى فرض تقنين وتقييد متعمدين على الانتاج، أو إلى إتلاف المحاصيل الزراعية والمنتجات الغذائية بغية الحؤول دون تدني أسعارها. والقاسم المشترك بين مالتوسية مالتوس وبين هذه الاجراءات هو الحد الارادي المتعمد: الحد من الانجاب في الحالة الاولى، والحد من الانتاج في الحالة الثانية.

كان لمالتوس تأثير كبير على الفكر الاقتصادي في القرن التاسع عشر. فالفتوحات التي تحققت على صعيد العلوم الاقتصادية حدثت إما من خلال السعي إلى تطوير المالتوسية، وإما من خلال العمل على دحضها. والمفكرون الذين عمدوا إلى نقد المالتوسية ركزوا على دحض السمة «الطبيعية» لقانون مالتوس واعتبروا هذا القانون قانونًا اجتماعيًا بالدرجة الاولى، والماركسيون منهم (الذين يرجعون ظاهرة التكاثر السكاني إلى الملكية الخاصة الرأسمالية) رأوا ان رأي مالتوس مثّل حجة قوية بين ايدي المالكين وأصحاب الامتيازات لتبرير بؤس الفقراء واستغلالهم.

وقد احتج بنظرية مالتوس دعاة حركات إصلاحية شتى، بدءًا من الحمائيين (دعاة تدخل الدولة لحماية الانتاج الوطني) إلى الليبراليين، ومن الداروينيين إلى السبنسريين (الفيلسوف سبنسر). ونظرية مالتوس استخدمت من قبل المالتوسيين الجدد الذين دعوا إلى الحد الطوعي من الانجاب عن طريق اللجوء إلى وسائل منع الحمل. وينتمي المالتوسيون الجدد إلى تيارات فكرية مختلفة: فمنهم من

طالب بالحد من الانجاب انتصاراً للمرأة ورغبة في تحريرها من عبء الولادات المتكررة، ومنهم من ربط البطالة بتكاثر السكان، فدعا إلى الحد من الانجاب للحد من البطالة. بيد ان القاسم المشترك بين المالتوسيين الجدد هو رفضهم للرادع الاخلاقي الذي نادى به مالتوس، واعتبارهم ان منع الحمل يتكيف ويتبدل بفعل التقدم الذي أحرز على صعيد مستوى الحياة والثقافة. وهكذا يكون المفهوم المالتوسي للرادع الاخلاقي قد تحول إلى نظريات اجتماعية للسلوك التقييدي، ولم يعد ثمة من يؤمن بوجود قانون عام للسكان، وإنما بوجود تقلبات وتموجات مرتبطة بالشروط الاقتصادية والثقافية لمختلف الاقطار (عن «موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٩٠، ج٥، ص٦٧٢-٦٧٤).

مؤتمر القاهرة (١٩٩٤): هو المؤتمر الدولي الخامس للسكان الذي عقد في القاهرة (ايلول ١٩٩٤)، وكان الاول عقد في روما (١٩٥٤)، والثاني في بلغراد (١٩٦٥)، والثالث في بوخارست (١٩٧٤)، والرابع في مكسيكو (١٩٨٤). وكان تقرر، منذ المؤتمر الاول، عقده كل عشر سنوات «لمراجعة اوضاع العالم السكانية، وما ينتج عنها من مشكلات، مقارنة الحلول والسياسات الممكنة لمواجهة مشكلات الحاضر وتحديات المستقبل».

كان سكان العالم، عند انعقاد المؤتمر الاول (١٩٥٤) ٢،٧ مليار شخص، وأصبحوا ٥،٧ مليارات مع المؤتمر الخامس في القاهرة (١٩٩٤)، أي ان العدد زاد خلال أربعين عامًا بنسبة ١١١٪، وان ٨٠٪ من هذه الزيادة حدثت في بلدان العالم الثالث، وهو الأمر الذي زاد من تخلف وفقر ومديونية معظم هذه البلدان، خاصة في القارة الافريقية.

أما مصر، الدولة المضيفة للمؤتمر الخامس، فقد زاد عدد سكانها حوالي ثلاثة أمثال بين مؤتمري روما (١٩٥٤) والقاهرة (١٩٩٤)، من ٢٢ مليونًا إلى حوالي ٦٠ مليونًا. وبذلت مصر جهودًا للحد من معدل الزيادة السكانية من ٢،٨٪ إلى ٢،١٪ في خمس سنوات سابقة على موعد المؤتمر في القاهرة.

تقديرات الامم المتحدة للنمو السكاني كانت محور المناقشات في المؤتمر، «مؤتمر السكان والتنمية» (القاهرة، ٥-١٣ ايلول ١٩٩٤). وأهم ما جاء في هذه التقديرات:

- تمثل آسيا ٥٣٪ من سكان العالم الآن، ومناطق الصحراء الكبرى ١٢٪، والشرق الاوسط وافريقيا الشمالية ٦٪، واميركا اللاتينية ٨٪، والدول الصناعية (اوروبا واميركا الشمالية) ٢٠٪.
- ٩٥٪ من النمو السكاني ينحصر في الدول النامية التي ستزيد ثقلها النسبي في عدد سكان العالم بالنسبة إلى الدول الصناعية التي تشهد منذ زمن طويل نموًا سكانيًا بطيئًا.
- في القارة الاوروبية، يسير النمو السكاني فيها بأدنى وتيرة في العالم. وسيرتفع عدد السكان فيها من ٧٩٦ مليون شخص (بمن فيهم سكان الدول الشرقية والاتحاد السوفياتي السابق) إلى ٨٨٦ مليونًا حتى ٢٠٢٥ مع نمو أقل بعشر مرات من النمو الذي تشهده افريقيا. وسجل بعض الدول الاوروبية خلال عشرين عامًا انخفاضًا مدهشًا في النمو السكاني، إذ يبلغ معدل الولادات الآن في ايطاليا واسبانيا والمانيا حوالي ١،٣ طفل لكل امرأة (نسبة النمو في المانيا وايطاليا سلبية)، ويقف بعض الدول عند معدل وسط (١،٨ و١،٥) مثل فرنسا وبلجيكا وهولندا وبريطانيا. ويقارب معدل الولادات في روسيا والسويد والنروج طفلين لكل امرأة. ونتيجة لذلك فإن نسبة الاجيال الشابة ستتقلص وستشيخ اوروبا في شكل أسرع من باقي انحاء العالم.
- في اميركا الشمالية (كندا والولايات المتحدة) تمثل ٢٨٢ مليون شخص وسيصل عدد السكان عام ٢٠٢٥ إلى ٣٦٠ مليونًا من خلال وتيرة زيادة ١،١٪.
- في اميركا الجنوبية والكاريبي، سيقفز عدد السكان من ٤٥٨ مليون شخص إلى ٧٠١ مليون عام ٢٠٢٥ وبالوتيرة الحالية ١،٨٪ سنويًا. وتحقق الانتقال باتجاه نمو سكاني أقل مع هبوط بارز في معدل الولادات في الارجنتين وتشيلي والبرازيل وكولومبيا، لكن المعدل استمر مرتفعًا في هايتي وغواتيمالا وهندوراس ونيكاراغوا.
- في افريقيا، تحافظ هذه القارة على أعلى نسبة نمو سكاني في العالم: ٢،٩٪ سنويًا، الأمر الذي تنتج عنه مضاعفة عدد السكان خلال جيل واحد. وهكذا سيقفز العدد من ٦٨٢ مليونًا إلى ١،٦ مليار في ٢٠٢٥. وسجل بعض الدول الافريقية خلال الفترة ١٩٩٠-١٩٩٤ نموًا يزيد على ٣٪، ووصل متوسط الولادات في كل القارة إلى نحو ٦ اطفال لكل امرأة، وفي بعض الدول إلى ٧ اطفال أو أكثر، مثل مالاوي والصومال وأوغندا وأنغولا وبينن وغينيا ومالي.
- في آسيا التي تعتبر القارة الأكثر اكتظاظًا

بالسكان في العالم. يسكنها ٣،٣ مليار شخص، ويتوقع ان يصل العدد إلى ٤،٩ مليار في ٢٠٢٥. لكن وتيرة النمو فيها بمعدل زيادة ١،٨٪ سنويًا. وستبقى الصين، في ٢٠٢٥، البلد الأكثر اكتظاظًا بالسكان في العالم (١،٥ مليار مقابل ١،٢ مليار حاليًا)، وتتبعها الهند (١،٣ مليار مقابل ٨٩٦ مليونًا حاليًا). وتقابل المناطق الآسيوية التي تشهد معدلاً مرتفعًا في الولادات (الهند ٤ اطفال لكل امرأة، وايران وباكستان ٦ اطفال) مناطق تشهد معدلاً أدنى من ذلك بكثير مثل سنغافورة واليابان (١،٧ طفل لكل امرأة) وتايلاند والصين (٢،٢) وهونغ كونغ (١،٤).

– في اوقيانيا (اوستراليا ونيوزيلندا وماليزيا وبابوا وغينيا الجديدة)، سيرتفع عدد السكان فيها من ٢٧ مليونًا إلى ٤١ مليونًا في العام ٢٠٢٥، مع معدل نمو أدنى من نصف النمو الذي تشهده افريقيا.

وشهد مؤتمر القاهرة جدالات حامية حول عدد من الموضوعات، على رأسها موضوع «الاجهاض» الذي برز فيه توافق تام بين موقف الفاتيكان ومواقف الدول الاسلامية. ونجح المؤتمر في الخروج بتوافق عام في الاراء حول النقاط الآتية: ضرورة الاهتمام بتعليم المرأة وتثقيفها، الدعم المالي للجوانب الاجتماعية والاقتصادية، تأكيد ان الاجهاض لا يعد من وسائل تنظيم الأسرة، ضرورة مراعاة معتقدات وعادات كل دولة وتأكيد ان ما يناسب دولة لا يشترط ان يكون ملائمًا لدولة أخرى، وجوب احترام المرأة وعدم اعتبارها وعاء للحمل، ضرورة حل مشاكل المهاجرين في العالم.

٧– الإسكان

نظرة عامة: التقت الحضارات القديمة حول مجاري الانهار، وأنشأت تجمعات سكنية في شكل قرى أو مدن، وتمّ اختيار اماكنها وشوارعها ومبانيها من مواد محلية حسب المتاح في كل حضارة وعصر.

مع الثورة الصناعية والمكننة نمت المدن بوتائر لم تعرف شبيهًا لها في السابق، لكن بيوتها كانت بائسة ومعدومة الشروط الصحية. وبدأت أوضاع هذه البيوت بالتحسن مع بدء استعمال الباطون المسلح في بنائها في اواخر القرن التاسع عشر. ففي ١٩٠٠، بنى المهندس فرنسوا إينبيك أول بناية من الباطون المسلح في باريس (شارع دانتون)، وفي ١٩٠٣، كانت البناية الثانية التي أنشأها المهندس أوغست برّيه (شارع فرانكلين).

و لم تظهر الحاجة لانشاء وزارات وإدارات ومراكز ابحاث خاصة بالاسكان إلا في النصف الثاني من القرن العشرين، وبالذات عقب الخراب الذي عانت منه دول اوروبا خلال سنوات الحرب العالمية الثانية.

مؤتمر المستوطنات البشرية في اسطنبول (٢–١٤ حزيران ١٩٩٦): أتى هذا المؤتمر الدولي للاسكان (وهو الثاني) في اسطنبول تتويجًا لسلسلة المؤتمرات الدولية التي نظمتها الامم المتحدة ومنظمات تابعة لها خلال السنوات الخمس الماضية. ومن أشهرها قمة الارض في ريو دي جانيرو (حزيران ١٩٩٢)، ومؤتمر السكان والتنمية في القاهرة (ايلول ١٩٩٤)، والقمة الاجتماعية في كوبنهاغن (آذار ١٩٩٥) ومؤتمر المرأة في بكين (ايلول ١٩٩٥).

في المؤتمر، كشف تقرير الامم المتحدة الخاص بالاوضاع السكنية في العالم ان الحكومات والبلدان تتكبد نفقات لمكافحة الأوبئة ومعالجة المشاكل الاجتماعية والامنية الناجمة عن الظروف السكنية السيئة أكبر مرات عدة من كلفة بناء مساكن لائقة للناس، وان أكثر من ٥٠٠ مليون شخص في العالم محرومين من السكن اللائق أو يعيشون في ظروف سكنية مزرية.

وتوقع التقرير ان يزداد عدد سكان المدن من نحو مليارين ونصف مليار حاليًا إلى ٥ مليارات عام ٢٠٢٥، وذكر ان سكان المدن يزدادون بنسبة تعادل مرتين ونصف الزيادة في سكان الريف، وان سوء الاحوال السكنية والظروف الصحية المتردية للمدن المكتظة يسبب وفاة ١٠ ملايين شخص سنويًا. وتعتبر أديس ابابا أسوأ المدن من الناحية السكنية، حيث يفتقر ٧٩٪ من سكانها إلى السكن اللائق. وعلى رغم الأداء الاقتصادي الباهر لأندونيسيا فإن العاصمة جاكرتا تحتل المرتبة الثانية في سوء الاحوال السكنية، حيث يفتقر نحو ٥٤٪ من مواطنيها إلى السكن اللائق، وتأتي العاصمة الكولومبية بوغوتا في المرتبة الثالثة حيث يعاني نصف سكانها من ظروف سكنية سيئة.

وأشار التقرير الذي حمل عنوان «عالم يتحضر» An Urbanizing World إلى ان مشكلة الحرمان من السكن اللائق لا تقتصر على البلدان النامية بل تصيب البلدان المتقدمة ايضًا. ففي لندن مثلاً يقل متوسط عمر الفقراء الذين يعيشون في ظروف سكنية سيئة بنسبة ٢٥٪ عن باقي سكان العاصمة.

هذا المؤتمر، الذي اطلق عليه الامين العام للامم

المتحدة، بطرس غالي، إسم «قمة المدن»، أخفق في هدفه الرئيسي في الاعتراف بحق كل انسان بسكن لائق. فبدلاً من اعتماد صيغة واضحة تتحدث عن السكن اللائق كحق من حقوق الانسان الأساسية، اعتمدت الصيغة الاميركية التي دعت إلى «التحقيق الكامل للحق في سكن لائق».

٨- التنمية الاجتماعية

قمة كوبنهاغن (١٩٩٥): هذه الموضوعات البيئية التي تناولها هذا الباب-وغيرها كثير دون شك-تدخل جميعًا، إذا ما عُمل لها إيجابيًا وعدالةً وارتقاءً نحو إنسانية أفضل، في إطار ما يُسمّى «التنمية الاجتماعية».

في آذار ١٩٩٥، عقد في كوبنهاغن مؤتمر قمة عالمي ضم ١١٨ رئيس حكومة ودولة (اعتبر الأضخم والأعظم في التاريخ) تحت عنوان «قمة التنمية الاجتماعية». وفي ضوء هذه القمة جرى طرح فيض من التساؤلات اساسها دراسات وإحصائيات تقارير الأمم المتحدة من جهة، وإجماع بين ممثلي الحكومات والدول والمنظمات الدولية حول استمرار وجود الافتقار إلى الارادة السياسية لتحقيق إزالة الفقر ووقف التفكك الاجتماعي وإلغاء البطالة من جهة ثانية. وأما التساؤلات الكبرى فدارت حول:

- كيفية تحقيق حق كل إنسان في التنمية الاجتماعية التي تعني تأمين الغذاء والسكن والخدمات الصحية والتعليمية الاساسية والعمل، وهناك ٥٥٠ مليون شخص ينامون جائعين كل ليلة، وأكثر من مليار و٥٠٠ مليون إنسان يفتقرون إلى المياه النقية للشرب والاستخدامات الصحية.

- كيفية تحقيق العمالة الكاملة العالمية في حين يوجد حاليًا ١٢٠ مليون عاطل عن العمل كليًا ونحو ٨٠٠ مليون يعملون في أعمال غير منتجة من مجموع القوة العاملة البشرية البالغة مليار و٨٠٠ مليون.

- كيفية بلوغ المساواة بين النساء والرجال في حين ان النساء يشكلن ٧٠٪ من فقراء العالم، ولا يزال وأد البنات يقضي على حياة ١٠٠ ألف فتاة سنويًا معظمهن في آسيا.

- كيفية تحقيق التضامن والسلام الاجتماعي والاستقرار في عالم اتسعت فيه الفجوة ضعفين، أي بين الـ٢٠٪ الذين هم أفقر سكان العالم والـ٢٠٪ الذين هم أغنى سكان العالم، وازدادت هذه الفجوة التي كانت نسبتها في العام ١٩٦٠ واحد إلى ثلاثين فوصلت في العام ١٩٩١ إلى واحد إلى واحد وستين.

لكن أرقامًا أخرى، أوردتها وثائق قمة كوبنهاغن، تبرّر أمل المتفائلين، أو بعض أملهم. من هذه الارقام:

- تضاعف الثروة العالمية سبع مرات خلال السنوات الخمسين الماضية.

- ازدياد معدل عمر الانسان في البلدان النامية من ٤٠ سنة عام ١٩٥٠ إلى ٦٣ سنة عام ١٩٩٠.

- ازدياد انفاق البلدان النامية على التعليم في الفترة الممتدة بين ١٩٦٠ و١٩٩٠ من ٢،٢ من إجمالي الانتاج إلى ٣،٤٪، فيما تضاعفت مرتين نسبة تعليم الإناث في جميع أنحاء العالم، وقفزت من ١٨ إلى ٣٦٪ خلال العقدين الاخيرين فقط.

- انخفاض الانفاق العسكري العالمي بنسبة ٣،٦٪ سنويًا منذ ١٩٨٧ رغم النزاعات والحروب المستمرة حتى الوقت الراهن.

جميع هذه المعطيات، التي نقلتها وسائل الاعلام العالمية في تغطيتها لحدث قمة التنمية الاجتماعية في كوبنهاغن، أنهى محمد عارف، بعد تعداده لها («الحياة»، العدد ١١٧١٠، تاريخ ١٤ آذار ١٩٩٥، ص١٢) بطرح التساؤل التالي: «هل تبرر هذه الارقام (المقصود أرقام الفقرات الاربع الاخيرة)، الاعتقاد بأن الانسانية تتوجه حاليًا نحو تحقيق حلمها إزالة الفقر والظلم الاجتماعي، أم ان برنامج التنمية الاجتماعية العالمية سيظل في أحسن الاحوال مثل وثيقة إلغاء الرق التي لم تفلح في تحرير العبيد إلا بعد أكثر من مئة عام من وضعها؟».

الاعلان العالمي الصادر عن قمة كوبنهاغن حول الحقوق الاجتماعية للانسان: «لأول مرة في التاريخ، يجتمع نحن رؤساء الدول والحكومات، تلبية لدعوة الامم المتحدة، لكي نقر بأهمية التنمية الاجتماعية وتوفير أسباب الراحة لجميع البشر، ولكي نضع هذين الهدفين في أعلى مقام من الاولوية الآن وفي القرن الحادي والعشرين (...) وإننا نؤمن بأن لا غنى عن التنمية الاجتماعية والعدالة الاجتماعية لتحقيق السلم والأمن وصونهما داخل دولنا وفيما بينها (...) ونعترف بأن الناس هم مدار اهتمامنا بالتنمية المستدامة وبأن من حقهم ان ينعموا بحياتهم أصحاء منتجين على وفاق مع البيئة (...) وإننا نجتمع ونحن على وعي تام بصعوبة المهام التي امامنا ولكن عن اقتناع بأن في الامكان تحقيق تقدم كبير، ويجب تحقيقه، ومن المؤكد انه سيتحقق (...)».

الامين العام (السابق) للامم المتحدة بطرس بطرس غالي مع ملكة الدانمارك.

كانت هذه عبارات من النداء الذي توجه به قادة العالم في قمة كوبنهاغن إلى جميع شعوب العالم. وقد شكل هذا النداء مقدمة الاعلان الذي تضمن عددًا من النقاط التي تشكل إطارًا للعمل، أهمها:

– جعل الناس محور التنمية وتوجيه الاقتصادات إلى تلبية الاحتياجات البشرية.

– تحقيق التكامل بين السياسات الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

– النهوض بالديمقراطية وكرامة الانسان والعدالة الاجتماعية والتضامن على الصعيدين الوطني والدولي.

– العمل على عدالة توزيع الدخل وتكافؤ الفرص.

– الاقرار بأن الأسرة هي الوحدة الاساسية في المجتمع والاعتراف بأنها تؤدي دورًا رئيسيًا في التنمية الاجتماعية.

– إعادة تأكيد وتشجيع الاعلان العالمي لحق جميع الشعوب الخاضعة للاحتلال في تقرير المصير.

– تأكيد الطابع العالمي للتنمية الاجتماعية.

– الاعتراف بأن التكنولوجيات الجديدة للمعلومات والنهج الجديدة التي تتيح للفقراء الوصول إلى التكنولوجيات واستخدامها يمكن ان تساعد على تحقيق أهداف التنمية الاجتماعية، ومن ثم الاعتراف بالحاجة إلى تيسير الوصول إلى هذه التكنولوجيات.

– تعزيز السياسات والبرامج التي تضمن تحسين وتوسيع مشاركة المرأة في جميع مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أساس الندية الكاملة.

أما برنامج العمل الذي وافقت عليه «القمة العالمية للتنمية الاجتماعية» في ختام إجتماعاتها (في ١٢ آذار ١٩٩٥) فجاء في خمسة فصول، هي:

١– إيجاد بيئة تتيح تحقيق التنمية الاجتماعية.

٢– القضاء على الفقر.

٣– توسيع العمالة المنتجة والحد من البطالة.

٤– التكامل الاجتماعي.

٥– التنفيذ والمتابعة.

وأهم ما جاء في أسس برنامج العمل وأهدافه:

«لا يمكن فصل التنمية الاجتماعية عن البيئة الثقافية والإيكولوجية والاقتصادية والسياسية والروحية (...) ويتطلب تعزيز التنمية الاجتماعية توجيه القيم والاهداف والاولويات نحو توفير اسباب الراحة للجميع وتقوية وتشجيع المؤسسات والسياسات التي تفضي إلى تحقيق هذا الغرض. إن كرامة الانسان وجميع حقوق الانسان وحرياته الأساسية والمساواة والإنصاف والعدالة الاجتماعية تشكل قيمًا أساسية لكل المجتمعات (...) إن الترابط بين اقتصادات العالم ومجتمعاته آخذ في الازدياد (...) إن الهدف النهائي من التنمية الاجتماعية هو تحسين وتعزيز نوعية حياة المجتمع. وهو يتطلب إقامة مؤسسات ديمقراطية، واحترام جميع حقوق الانسان وحرياته الأساسية، وزيادة الفرص الاقتصادية وتكافؤها، وسيادة القانون، وتشجيع احترام التنوع الثقافي وحقوق الاشخاص الذين ينتمون إلى الأقليات، والمشاركة النشطة من جانب المجتمع المدني...».

العالمية
(العولمة)

نظرات عامة (على طريق فهم المصطلح ومحاولة تعريفه): منذ سنوات عدة، وخاصة منذ انهيار المعسكر الاشتراكي الذي كان له ايضًا «عولمته» ويسمّيها «الأممية»، تتردد ألفاظ ومصطلحات، مثل «العولمة» أو «الكوكبة» أو «الكونية» Mondialisation, Globalisation, Universalisation، أو «العالم قرية»... من دون ان يكون لها مستقر متفق عليه، أو مفهوم واضح أو تعريف أو إتفاق على المضمون. لذلك، كان لا بد من اقتطاف عناوين من بعض هذا الكم الهائل من المقالات والدراسات التي أدلت بدلوها، حتى الآن، فأعطت آراء حول ما يعنيه المصطلح أو حول ما سيعنيه في مساراته العملية؛ وكلها أجمعت على ان المصطلح لا يزال مفهومه في طور التكوّن:

– إن اشتقاق كلمة العولمة بذاتها يضعها على طرفي نقيض من القومية.

– إن العولمة تتعارض مع الاقتصاد القومي مبدأً وواقعًا، إذ انها تعني، أول ما تعني، عالمية السوق انتاجًا واستهلاكًا على حد سواء.

– إن العولمة أكثر الظواهر التاريخية التي تطبع نهاية القرن العشرين، مثلما كانت القومية في الاقتصاد والسياسة والثقافة هي الظاهرة التاريخية لنهاية القرن التاسع عشر ولبداية القرن العشرين.

– إن العولمة، حاليًا، هي نتاج التقدم العلمي والتكنولوجي الجاري منذ عقود. وهي بذلك ظاهرة موضوعية شاملة لا يمكن ردها أو إبطالها برغبة ذاتية. فيكون المطلوب إجراء التكيف اللازم مع آلياتها بما يكفل دعم عملية التقدم الانساني إلى الأمام وتقليص الاخطار الناجمة عنها، ولا سيما إزاء التفاوت الاقتصادي بين المناطق المتقدمة والمتأخرة في العالم.

– إن العولمة والتكنولوجيا ظاهرتان مترابطتان لا فكاك بينهما. فلا يمكن فهم العولمة من دون تلمس الأثر الأهم للتقدم العلمي والتكنولوجي في خلق هذه الظاهرة بكل ما تحمله من ثورات وقفزات في تطور القوى المنتجة والقدرات الانسانية التي أتاحت وتتيح حركة ميسورة للبشر ورؤوس الاموال والخدمات والسلع وبحمل ثمار العلم والتكنولوجيا عبر الحدود الوطنية وضمن شبكة كونية معقدة من الاتصالات والترابطات.

– إن العولمة، على حد تعبير التقرير نصف السنوي لصندوق النقد الدولي (١٩٩٧)، هي «الاندماج المتسارع للاقتصاد العالمي عبر التجارة وتدفق رؤوس الاموال وانتقال التكنولوجيا وانتشار شبكات الاتصال وتيار التثاقف».

– «إن الترابط بين اقتصادات العالم ومجتمعاته آخذ في الازدياد. كما ان تدفق التجارة ورؤوس الاموال، والهجرات، والابتكارات العلمية والتكنولوجية، والاتصالات، وعمليات التبادل الثقافي، آخذة في تشكيل مجتمع عالمي (...) تأكيد الطابع العالمي للتنمية الاجتماعية، ورسم نهج جديد ومعزز للتنمية الاجتماعية يقترن بزخم متجدد للتعاون والتشارك الدوليين» (من «الاعلان العالمي للحقوق الاجتماعية للانسان»، مؤتمر قمة كوبنهاغن، آذار ١٩٩٥).

– تنطوي العولمة على تحديات خطيرة تواجه البلدان النامية التي لا تؤهلها إمكاناتها الاقتصادية والتكنولوجية المتواضعة للدخول في منافسة متكافئة مع مؤسسات الدول المتقدمة والشركات متعددة الجنسيات. وعلى رأس هذه التحديات خطر إقصاء الدول النامية من الدورة الاقتصادية العالمية، الأمر الذي يهدد باتساع الهوة التي تفصلها عن الدول المتقدمة.

مغزيان تاريخيان: شبيهان جدًا، هذان المغزيان، بأكثر التوصيفات التي تعطى للعولمة الحالية وبأشدّ مرتكزاتها: الاول، من حيث ارتباطها بالشركات وبالسوق؛ الثاني، من حيث ارتباطها بالعلم والتكنولوجيا.

١– في القرن الثامن عشر، كانت «شركة الهند الشرقية» تحكم شبه قارة مترامية وتؤثر على سياسات بلد المنشأ ذاته. وكان عصر هذه الشركة يشهد حركة تنظيرية فكرية واكبت النشاط التجاري الاستعماري وبرّرته ونظمته في أحايين كثيرة. ومن المفارقات التي نعيش ملابساتها حتى الآن ان هيوغو غروتيوس، «أب القانون الدولي»، كان مستشارًا قانونيًا لشركة الهند الشرقية (الهولندية) وكان من الدعاة المتحمسين للمدّ التجاري الهولندي. ومما تمخّض عنه ذلك العصر مفهوم «الاتجارية» أو «المركنتيلية» الذي أطّر انتقال اوروبا من عهد الاقطاع إلى بدايات الدولة الحديثة التي ستسعى بدأب منظم متزايد إلى تعزيز الثروة الوطنية عن طريق تحديث الصناعة والزراعة وفتح الاسواق الخارجية (واستغلال المستعمرات) لتكديس الذهب والفضة اللذين كانا يعتبران معيار الثروة الوطنية التي

ستنصّب الدولة نفسها حامية لها ومدبّرة. وعن «المركنتيلية» أو في مواجهتها تدرّج مفهوم «التجارة الحرة» الذي وجد بدوره حليفًا متميزًا في الفلسفة الداروينية الاجتماعية (وقبلها كتابات آدم سميث)، مما سهّل بالتضافر مع النمو الهائل في المكننة والاتصالات والصناعة الحربية وترسيخ المؤسسات العامة، مدّ رقعة المستعمرات الغربية إلى أبعد مدى.

٢- في بداية الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، قام العمّال بالتمرد على استخدام الآلة وتحطيمها باعتبارها قد تسبّبت بتسريح العمال عن العمل وتوسيع البطالة. وكان هذا الموقف موضع نقد معروف من جانب المفكرين الاجتماعيين والاشتراكيين آنذاك لأنه أخطأ في تحديد سبب البطالة المتمثلة بطبيعة علاقات الانتاج وأخفق في فهم القيمة التاريخية لاختراع الآلة كأداة مهمة لتطوير القوى المنتجة. واليوم، تأتي العولمة بقدرات وإمكانات هائلة في ميادين تكنولوجيا المعلومات والاتصالات وأنماط الانتاج والتخصص وتقسيم العمل والميزات النسبية وغيرها، وتشرع في تغيير وجه الكوكب، بل الكون، بمقاييس مدهشة من حيث القوة والسرعة. إلا انها أدت من ناحية أخرى إلى تعميق التفاوت الاقتصادي والثقافي في العالم وأفرزت ظاهرة «تهميش» البلدان النامية. وهذا التهميش يعود إلى سياسات وممارسات الشركات متعددة الجنسيات، الأمر الذي يدعو إلى التركيز على نقدها ورفضها واستبدالها بادارة ديمقراطية عادلة للاقتصاد الدولي وإقامة علاقات متكافئة بين الدول. وهنا يتجلى المغزى التاريخي المهم لهذه المقارنة. فبالأمس كان الخطأ يكمن في محاربة الآلة وتحطيمها لأنها «سبب البطالة»، واليوم يقوم الخطأ في محاربة العولمة ورفضها لأنها أدّت إلى تهميش البلدان النامية. وفي خضم هذا الخلط والتصورات الذاتية الضيقة انحرف الكفاح والعمل المطلوبان عن هدفهما الحقيقي والأساسي سواء بالنسبة إلى علاقات العمل ورأس المال في القرن الثامن عشر أو بالنسبة إلى هيمنة الشركات متعددة الجنسيات في المرحلة الراهنة.

أخيرًا، معارضو العولمة كثيرون، افرادًا (مثقفين خاصةً) وأحزابًا وهيئات، سواء في الدول النامية أو الدول المتقدمة، يتدارسونها ويقدمون الدلائل على «أمركتها» و«سحقها» الانسان في نهاية المطاف، بدءًا بانسان العالم الثالث. وأبلغ وآخر ما صدر عن هؤلاء المعارضين ما جاء في التقرير السنوي للاتحاد الدولي للنقابات الحرة (يضم ١٢٤ مليون عضو في ١٩٥ منظمة من ١٣٧ بلدًا)، اواسط حزيران ١٩٩٧، من أن «قمع النشاطات النقابية تكثف خلال العام الماضي (أي ١٩٩٦) وأدّى إلى قتل ٢٨٠ ناشطًا وإلى عدد قياسي من انتهاكات الحقوق النقابية في العالم الذي باتت تسوده شريعة الغاب الناجمة عن العولمة». وفي مناسبة نشر هذا التقرير، صرّح الامين العام للاتحاد بيل جوردان في جنيف: «نلاحظ زيادة الهجمات على المنظمات النقابية لأنها اصبحت درعًا في وجه الآثار السلبية للعولمة وطمع المؤسسات في الارباح».

العالمية (العولمة) في التاريخ

نظرة عامة: يمكن القول إن فكرة العالمية (العولمة) المقرونة بمحاولات تنظيم دولية، أي إيجاد آليات متابعة (مؤتمرات، منظمات، هيئات...) ظهرت قبل نحو قرن من الزمان بعدما كانت قد مرّت في مرحلة جنينية من القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن الثامن عشر، ومرحلة النشوء من منتصف القرن الثامن عشر حتى العام ١٨٧٠ وما بعده. ثم مرحلة الانطلاق التي استمرت حتى عشرينات القرن العشرين وفيها تمت منافسات كونية منها الألعاب الأولمبية وجوائز نوبل وتطبيق الزمن العالمي إضافة إلى حدوث الحرب العالمية الأولى ونشوء عصبة الامم، ثم مرحلة الصراع من اجل الهيمنة واستمرت من العشرينات حتى منتصف الستينات (الحرب العالمية الثانية، إنشاء هيئة الأمم المتحدة، مؤتمر يالطا، بداية الحرب الباردة...). ثم مرحلة «عدم اليقين» التي أدت إلى اتجاهات وأزمات التسعينات، وإلى دمج العالم الثالث في المجتمع الدولي وتصاعد الوعي الكوني.

فإذا كان النمط السائد (في مرحلة العولمة الحالية) هو العولمة «المؤمركة» فهناك عولمة «متأوربة»، إذ تحاول اوروبا مقاومة النمط الاميركي وسيادته. وفي الوقت نفسه هناك عولمة على الطريقة الآسيوية. وتكمن المسألة في موقف المجتمعات المختلفة من العولمة إذ إن هناك معركة كبرى ايديولوجية وسياسية واقتصادية وثقافية تدور على العولمة التي يرفضها بعض الاتجاهات بالكامل ويقبلها بعضها من دون تحفظ على اعتبارها لغة العصر المقبل ويحاول بعضها فهم القوانين الحاكمة للعولمة مع إدراكها مسبقًا ان العولمة عملية تاريخية.

العالمية من خلال فكرة التنظيم الدولي في كتابات المفكرين الغربيين: (المرجع: د.محمد المجذوب،

«التنظيم الدولي»، الدار الجامعية، بيروت، ١٩٩٨، ص١٣-٢١):

قام المفكرون والفلاسفة، منذ القدم، بمحاولات فكرية ترمي إلى تنظيم المجتمع الدولي وإشاعة روح التعاون بين جماعاته المتباينة. وهذه بعض المحاولات التي أسفرت عن وضع مشروعات للسلام.

١- مشروع بيار دوبوا P. Dubois (١٢٥٠-١٣٢٣): كان محاميًا ونائبًا عامًا ومفكرًا سياسيًا. يُعتبر أول أوروبي كتب عن نظام دولي جديد بتحقيق التعايش السلمي بين بعض الدول. أشهر مؤلفاته كتاب «استرداد الارض المقدسة» الذي تضمن دعوة صريحة إلى تجديد الحملات الصليبية على الشرق الاسلامي بتكوين عصبة أمم من الدول الاوروبية للوقوف في وجه الإقطار الاسلامية وتستعيد الاراضي المقدسة. ومشروع تنظيمه الدولي (الاوروبي بالاحرى) يستند إلى الافكار التالية: -تكوين مجلس اتحادي يضم دول اوروبا الغربية ويكون وسيلة لدراسة القضايا الاوروبية المشتركة ووضع الحلول الصائبة لها. -إحداث لجنة من المحكّمين يعينها مجلس الاتحاد ويكلفها انتخاب ثلاثة من رجال الدين وثلاثة من القضاة المدنيين تكون مهمتهم التوفيق بين الاطراف المتنازعة وإصدار قرارات تحكيمية. -رفع الأمر إلى البابا عند رفض أحد الإطراف المتنازعة الخضوع لقرار التحكيم، ويكون حكم البابا حاسمًا ونهائيًا، وفي حال إصرار هذا الطرف على عدم الاذعان والتنفيذ يقترح دوبوا على الاطراف الأخرى مقاطعته إقتصاديًا ونفي رئيسه إلى الشرق.

٢- مشروع الوزير سولي Sully (١٥٦٠-١٦٤١): كان بروتستانتيًا ووزير مالية الملك الفرنسي هنري الرابع ومستشاره مدة ربع قرن. بعد اغتيال هنري الرابع (١٦١٠)، اعتزل السياسة وعكف على إعداد مذكراته «اقتصاديات ملكية» وفيها تحدث عن «المشروع الأعظم» (ونسبه إلى الملك الراحل) الذي عكس أحلامه بتحقيق تغيير جذري في وضع اوروبا يرتكز على دعائم ثلاث: تهدئة دينية، استقرار المذاهب الدينية المتنازعة (الكاثوليكية والبروتستانتية)، وإعادة توزيع الاقاليم في اوروبا من اجل إقامة توازن بين القوى الاوروبية، بحيث تكون الجغرافيا السياسية لأوروبا من ١٥ اقليمًا أو دولة اوروبية تشكل في ما بينها «جامعة مسيحية» يكون لها مجلس اتحادي مكّون من ١٥ عضوًا (عضو لكل دولة من دول الاتحاد أو الجامعة) ويتولى الاشراف على سياسة الاتحاد الذي يكون له جيش قوي يستطيع الصمود في وجه العثمانيين. وبعد سنوات، اضطر سولي (إسمه الكامل: مكسيميليان دو بيتون سولي، بارون دو روسني، دوق دو سولي) إلى التنازل عن فكرة المساواة بين دول الاتحاد وإدخال بعض التعديلات على فكرة تكوين المجلس الاتحادي، فاقترح ان يكون لكل دولة عضو عدد من الممثلين يتلاءم وقوتها.

٣- مشروع الراهب أمريك كروسيه Emeric Crucé (١٥٩٠-١٦٤٨): رجل دين مسيحي فرنسي، كره الحرب لما تسببه من آلام. وضع كتابًا في ١٦٢٣ سمّاه Le Nouveau Cynée، نادى فيه باتحاد دولي مفتوح لجميع دول العالم دون تفرقة عرقية أو دينية، ويكون له مجلس يتكون من البابا ومن الأباطرة والملوك المسيحيين، ويكون لكل دولة فيه المرتبة التي تليق بمقامها، فجعل المرتبة الاولى للبابا، ويليه سلطان تركيا، ثم الملوك الآخرون. واقترح ان تكون البندقية مقرًا للمجلس. ينظر الباحثون إلى مشروعه بعين التقدير والاعجاب لأنه كان أول دعوة صادقة صدرت عن اوروبي ونادت بتنظيم دولي صحيح لا يتقيد بدين معين ولا يقتصر على الاقطار الاوروبية. فالدولة العثمانية والفرس والهند والصين كان لها أمكنتها في مشروعه الاتحادي.

٤- مشروع الراهب وليام بن W.Penn (١٦٤٤- ١٧١٨): تأثر بالفكرة الاجتماعية الحديثة المستندة على فكرة العقد الاجتماعي (هوبز، لوك، روسو)، فنشر كتابًا بعنوان «مشروع للسلام الاوروبي في الحاضر والمستقبل» (١٦٩٤) حيث تبرز الفكرة الأساسية الكامنة وراء مشروعه، ومفادها انه كما ان الافراد يتنازلون عن شطر من حقوقهم وحرياتهم الطبيعية للمجتمع السياسي، فإنه يتعين على الدول ان تتنازل، أسوة بالافراد، عن جزء من حقوقها كي تتمتع بحماية المجتمع الدولي.

والراهب وليام بن شخصية إنسانية سامية كانت تنتمي إلى طبقة النبلاء البريطانيين. وهو يُعتبر المشرّع الرسمي لجمعية «كويكرز» المسيحية التي انتشرت، ابتداءً من القرن السابع عشر، في بريطانيا والولايات المتحدة، وكانت تؤمن برفض العنف في العلاقات الاجتماعية وتنادي برفض حمل السلاح واعتبار الحرب جريمة انسانية. وهاجر إلى اميركا وأسس فيها، عام ١٦٨٢، مستوطنة ما زالت تحمل إسمه

«بنسلفانيا». وحاول ان يطبق فيها مبادىء الجمعية المذكورة فحرّم على أهلها حمل السلاح واستعمال القوة.
وأهم الافكار اتي وردت في مشروعه:
أ- على الدييت (أو المجلس الاتحادي، أو الهيئة الاتحادية العليا) ان يجتمع مرة في السنة، أو على الأقل مرة كل سنتين أو ثلاث، أو عندما يرى الاعضاء ضرورة لاجتماعه.
ب- كل الخلافات أو المنازعات يجب ان تُرفع إلى الدييت. وإذا رفضت دولة عضو رفع شكاواها إليه، أو رفضت الاذعان لحكمه، أو عمدت إلى استعمال السلاح، كان من واجب الاعضاء ان يوحّدوا قواهم لإكراهها على الخضوع وتنفيذ الحكم وتحمّل جميع النفقات والأضرار.
ج- تتّبع طريقة التمثيل النسبي لتمثيل الدول الاعضاء في الدييت.
د- من الأفضل (وذلك من اجل تجنب الخلافات التي تنشأ بسبب مسألة الصدارة) ان تكون قاعة الاجتماعات مستديرة وذات ابواب متعدّدة للدخول والخروج.
هـ- بالامكان تقسيم الدييت إلى شُعَب أو فروع يتكون كل منها من عشرة أعضاء.
و- تُتخذ القرارات بأغلبية ثلاثة ارباع الأصوات.
ز- يجب تقديم الشكاوى كتابةً، بشكل مذكّرة تُحفظ في خزانة خاصة.
ح- عند حصول نزاع حول مسألة معينة بين ممثلي دولة واحدة من الدول الاعضاء يُعوّل على تصويت الممثل الذي يعبر عن رأي الأغلبية.
ط- لغة الاستعمال في المناقشات يجب ان تكون اللاتينية أو الفرنسية.

من هنا نرى ان مشروع بن يتميز -وخصوصًا عند مقارنته بمعظم المشاريع السلمية الأخرى- باللقة المتناهية والوضوح الشامل والتنظيم المفصّل. فالراهب لم يفكر فقط في إنشاء منظمة دولية لفضّ المنازعات بين الدول، بل قدّم الينا حلولاً عملية دقيقة لمعظم المشاكل والعراقيل التي لا تزال حتى اليوم تعترض طريق المنظمات الدولية، مثل: طرق تمثيل الدول في المنظمات، والخلافات حول مسألة الصدارة، وتنظيم عمليات المناقشات، وأصول التصويت، ولغة الاستعمال الرسمية. وقد تبنت المنظمات الدولية المعاصرة معظم الحلول التي اقترحها في مشروعه.

ومن الافكار النبيلة التي تضمّنها مشروعه انه جعل من مهام الدييت الأساسية منع التنافس في التسلح ومنع التدخل في الشؤون الداخلية للدول الاعضاء. وقد حمل على الحروب، وشرح مزايا السلم، وردّ على الذين يدّعون ان إلغاء الحروب مدعاة لانتشار البطالة وتفشي الخمول، وضمّن مؤلفه القيّم دعوة مخلصة إلى تغيير اتجاه الغريزة العسكرية المتغلغلة في نفوس الناس وإعداد الأجيال الناشئة إعدادًا رياضيًا ومهنيًا وفكريًا يختلف عن الاتجاهات والأساليب الغابرة.

٥- مشروع الفيلسوف جيريمي بنثام Jérémie Bentham (١٧٤٨-١٨٣٢): نشر كتابه «مبادىء القانون الدولي» في ١٧٨٩ (العام الذي عصفت فيه الثورة الفرنسية بالنظام الملكي)، وفيه فصل بعنوان «مخطط لسلام عالمي وأبدي».

ونظريته في السلم الدولي تتفق ونظريته الاقتصادية المبنية على مبدأ المنفعة. فأي مشروع للسلام يجب ان يهدف إلى تحقيق أكبر قسط من السعادة لأكبر عدد من الأفراد. وما دامت الحروب لا تثمر، وما دام السلم يضمن سعادة الانسانية وتقدمها فإنه يتعيّن علينا ان نعمل على تحقيقه عن طريق التنظيم الدولي الذي يتم، في رأيه، حسب المخطط التالي:
أ- تخفيض التسلح في جميع الدول.
ب- تحرير جميع المستعمرات وجلاء المستعمرين عنها.
ج- مكافحة المعاهدات السرية والدبلوماسية الخفيّة.
د- تشجيع التبادل التجاري بين الدول.
هـ- تكوين محكمة عدل دولية تفصل في المنازعات.
و- إنشاء مجلس اتحادي يضم نائبين إثنين عن كل دولة، وتكون المناقشات علنية فيه ليطّلع الرأي العام العالمي على اتجاهاته وميوله وتصرفاته.

ونلاحظ ان بنثام، كغيره من المفكرين الأنكلوساكسونيين، قد اقام وزنًا كبيرًا للرأي العام العالمي واعتقد ان هذا الرأي كفيل وحده بإحباط المؤامرات التي تُحاك ضد الأمن الدولي.

العالمية من خلال فكرة التنظيم الدولي في كتابات المفكرين العرب (د.محمد المجذوب، المرجع المذكور، آنفًا، ص٢١-٣٦):

تمهيد: ثمة ظاهرتان تاريخيتان-ثقافيتان يجدر ذكرهما في هذا السياق:

الاولى، انه في الوقت الذي كان فيه المفكرون الغربيون يُعنون بقضية السلام العالمي وتنظيم العلاقات بين الدول كان الفكر العربي يَعْمَه في متاهات الركود والخمول ويرزح تحت ثقل الخرافات والأساطير إلى ان لاح فجر القرن التاسع عشر، فاشتدّ خلاله الاحتكاك بين الشرق والغرب.

الثانية، ان التاريخ الاسلامي لا ينطوي على أية دعوة إلى إقامة اتحاد أو تنظيم دولي، بالمعنى الحديث و«الغربي» لهذه الكلمة. «ولِمَ لم يفكر المسلمون في إقامة تنظيم دولي يجمع بين دولتهم الموحدة وبين الدول الأخرى غير الاسلامية؟ والجواب بسيط: كان المسلمون لا يعترفون بدين غير الدين الاسلامي، ولا يعترفون بالتالي بوجود دول غير اسلامية. إن الدين عند الله الاسلام، ولا عهد للمشركين عند الله وعند رسوله. والمسلمون قد اتبعوا، وخصوصًا في العهود الاولى للاسلام، هذا المنطق واعتبروا الدول غير الاسلامية ديار شرك يجب اعلان الحرب عليها حتى تؤمن با لله (...) إن التنظيم الدولي لم يكن ممكنًا في داخل الدولة الاسلامية نفسها لأنها كانت دولة واحدة مترابطة منظمة (...) والتنظيم لم يكن ممكنًا ايضًا على صعيد دولي لأن الجمع بين الدولة الاسلامية والدول المشركة في مؤسسة سياسية واحدة كان امرًا مستحيلاً لا يرضى عنه الدين، ولهذا لم يتجه تفكير المسلمين يومًا إلى المناداة بتنظيم من هذا النوع» (ص٢٢-٢٣).

وعلى الرغم من ذلك فإن تاريخ الفكر العربي والاسلامي لا يخلو من فكرات صادقة تُقرّ بضرورة التنظيم وتدعو إلى إقامته بين مختلف الدول. وأهم هذه الفكرات، وأوضحها، ما أتى في كتابات الفارابي والكواكبي.

١- ابو نصر محمد الفارابي (٨٧٢-٩٥٠): حيث جاء في كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» (المنسوج على منوال كتاب «الجمهورية» لأفلاطون): «فالمدينة التي يقصد بالاجتماع فيها التعاون على الأشياء التي تنال بها السعادة في الحقيقة هي المدينةالفاضلة. والاجتماع الذي به يتعاون على نيل السعادة هو الاجتماع الفاضل. والأمة التي تتعاون مدنها كلها على ما تنال به السعادة هي الأمة الفاضلة. وكذلك المعمورة الفاضلة إنما تكون إذا كانت الأمم التي فيها يتعاونون على بلوغ السعادة». واهتم الفارابي في دراسته لتنظيم المعمورة الفاضلة بأمر رئيسها، وهو «الرئيس الاول للمدينة الفاضلة، وهو رئيس الامة الفاضلة، وهو رئيس المعمورة من الارض كلها». و لم يهتم الفارابي من التنظيم الاتحادي للمعمورة السعيدة التي يدعو إليها إلا بصفات الرئيس: إن اتحاد شعوب المعمورة يجب ان يتم بزعامة رئيس واحد يُسمّى الإمام ويتصف بصفات سامية معينة. وإذا لم تجتمع هذه الصفات لواحد فقط كانت الرئاسة في أكثر من واحد يملك كل منهم جزءًا من الصفات المطلوبة ويكون مكملاً للآخرين. أما الدافع لاتحاد المعمورة فهو حاجة الشعوب والمجتمعات إليه، ذلك ان الانسان مخلوق مجتمعي بفطره لا يستطيع ان يعيش إلا بالتعاون مع غيره.

٢- عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٨-١٩٠٢):
في كتابه «أم القرى» يتخيل الكواكبي مشروعًا اتحاديًا يجمع المسلمين في العالم قاطبة. والمشروع المتخيل ان جمعية من المسلمين عقدت، في ١٨٩٨، مؤتمرًا لها في مكة، قبيل الحج، حضره ممثل أو أكثر عن كل قطر إسلامي، وان الرئاسة أُسندت إلى ممثل مكة، والأمانة العامة إلى السيد الفراتي (أي الكواكبي نفسه). كما تصوّر ان المؤتمر عقد ١٢ اجتماعًا (كتاب «أم القرى» يتضمن ١٢ فصلاً تتضمن ما دار في هذه الاجتماعات من أبحاث ومناقشات وآراء ومقررات).

ولا يكتفي المؤتمر (في مشروع الكواكبي) بالبحث في امراض المجتمعات الاسلامية وعلاجها، بل يقترح إنشاء جمعية دائمة تُعنى باصلاح أحوال المسلمين والدول الاسلامية وتشرف على تنفيذ برامجها في الاصلاح، وتتألف من ١٠٠ عضو، ١٠ عاملين، ١٠ مستشارين، والباقي اعضاء فخريين. وتضم الجمعية أعضاء مساعدين لا حصر لهم. ويشترط في الاعضاء الفخريين معرفة إحدى اللغات: العربية والتركية والأوردية والفارسية. وعليهم ان يقدموا للمنظمة تقريرًا شهريًا عن احوال مناطقهم. ويقترح الكواكبي ان يقوم التنظيم الاسلامي على هيئات ثلاث: جمعية عامة، هيئة عاملة وهيئة مستشارة. والجمعية العامة تجتمع مرة في السنة ولا يجوز لعضو عامل ان يتخلف عنها. ومن اختصاصاتها انتخاب اعضاء الهيئتين (العاملة والمستشارة) وانتخاب رئيس الجمعية لمدة سنة واحدة، ونائب رئيس لمدة سنتين... ومركز الجمعية يكون في مكة، وتنشأ لها شُعب في معظم البلدان المهمة. ولا تخضع الجمعية لحكومة ما، ولا تتقيد بمذهب ديني خاص، ويكون شعارها «لا نعبد إلا الله». ويكون من أهم أغراضها تعميم التعليم

الديني، والترغيب في العلوم والفنون النافعة، وإيجاد المدارس العالية للتخصص، وتوحيد مناهج التعليم، ووضع برامج للرقيّ بالاخلاق...

وورد في القانون الأساسي للجمعية (في مشروع الكواكبي) مادة تنص على ان الجمعية لا تتدخل «في الشؤون السياسية مطلقًا ما عدا إرشادات وإخطارات بخصوص مسائل التعليم وتعميمه».

«وإذا كان الكواكبي قد جعل من منظمته (المقترحة) منظمة دينية هدفها إقامة اتحاد بين الدول الاسلامية فعذره انه عاش في فترة كانت النزعة الدينية فيها شديدة مسيطرة، وكان تيار العروبة لا يزال في المهد، وكانت النزعة العالمية حلمًا من الاحلام البعيدة. ثم ان الغرب كان حافلاً إذ ذاك بالمشاريع الرامية إلى إنشاء اتحادات بين الدول المسيحية وحدها، فلا عجب إذا ما تأثر مفكرنا بهذا الاتجاه، وراح يقلّد الغربيين على صعيد إسلامي بحت» (ص٣٦).

العالمية من خلال محاولات عملية حديثة لإقامة تنظيمات دولية: (د.محمد المجذوب، المرجع المذكور، ص٣٧-٤٧).

تمهيد: ظلت فكرة التنظيم الدولي، حتى بداية القرن التاسع عشر، أمنية تراود أذهان الفلاسفة والمفكرين. ومع نهاية الحروب النابوليونية أخذ العالم يشهد أولى المحاولات الجدّية العملية لاقامة تنظيمات دولية. ولم تقتصر هذه المحاولات على الميدان السياسي فقط بل تجاوزته إلى ميادين الثقافة والاقتصاد والتجارة والمواصلات.

وأهم ما اعتبر في خانة «التنظيمات السياسية الدولية» التي ظهرت قبل ١٩١٩ (أي قبل مؤتمر فرساي وقيام أول منظمة عالمية هي عصبة الأمم المتحدة): مؤتمر وستفاليا، المؤتمر الاوروبي، اتحاد الدول الاميركية.

وأما أهم ما اعتبر في خانة «التنظيمات غير السياسية الدولية»: اللجان الادارية الدولية أو اللجان النهرية الدولية، الاتحادات الادارية الدولية، مؤتمر لاهاي.

التنظيمات السياسية الدولية: اعتبر اختصاصيون (منهم الدكتور محمد المجذوب) ان البذور الأولى لهذه التنظيمات في التاريخ الحديث تعود إلى مؤتمر، أو معاهدات وستفاليا، في ١٦٤٨، التي أنهت حرب الثلاثين عامًا الاوروبية. وذلك من حيث ان هذه المعاهدات «تضمنت عدة مبادىء جديدة أهمها ذلك المبدأ الذي يبني العلاقات الدولية على أساس فكرة التوازن والمشاركة، ويعترف بتضامن مصالح الدول الاوروبية وبوجوب الاجتماع الدائم والتشاور المستمر لمعالجة قضاياها الداخلية والخارجية».

المؤتمر الاوروبي: ثم ذهب «المؤتمر الاوروبي» إلى حدود أبعد في إقرار هذه العناصر: التوازن، المشاركة، الاقرار بتضامن المصالح، وجوب الاجتماع الدائم والتشاور... فكان، إلى حد بعيد، بمثابة البداية الفعلية لـ«التنظيمات السياسية الدولية».

يطلق هذا الإسم، «المؤتمر الاوروبي» على مجموعة المؤتمرات والمعاهدات التي ظهرت بمناسبة الحروب النابوليونية. فانتهاء هذه الحروب، وحصاد العبر منها، كانا فرصة لاجراء أول تجربة سياسية في تنظيم الدول الاوروبية. ففي ٥ شباط ١٨١٤، صرّح سفراء الدول الحليفة الاربع (بروسيا، روسيا، النمسا، بريطانيا) لمندوب نابوليون انهم لا يمثلون العروش الحاكمة فقط، وإنما يتكلمون كذلك باسم اوروبا كلها التي تشكل كلاً لا يتجزأ. ومن هذا التصريح انبثقت فكرة نظام «الادارة الاوروبية».

وفي ٣٠ ايار ١٨١٤، وبعد عودة الملكية إلى فرنسا، وقّع الحلفاء معاهدة باريس التي أعلنوا فيها تصميمهم على إقامة سلام دائم بين الدول يقوم على أساس من التوازن العادل بينها. وبعد معركة واترلو، اجتمعت الدول الحليفة في فيينا (ايلول ١٨١٤ حتى حزيران ١٨١٥)، وعكفت على وضع نظام جديد مستقر متين لاوروبا. وكانت فكرة التوازن الدولي تسود جوّ المؤتمر. والتوازن كان يعني إرجاع الأسر المالكة إلى عروشها، وتقسيم اوروبا بشكل يتلاءم ورغبات الدول الكبرى. وأسفر مؤتمر فيينا على عدة قرارات مهمة، منها: إقرار الحياد الدائم لسويسرا، ووضع بعض القواعد الدولية الخاصة بحرية الملاحة في الأنهار الدولية، وتحريم الاتجار بالرقيق، وتنظيم البعثات الدبلوماسية.

وبعد هذا المؤتمر، عقدت الدول الاوروبية حلفًا أطلقت عليه إسم «التحالف المقدس»، انضمت إليه بريطانيا وفرنسا في تشرين الاول ١٨١٨ عندما عقد أول اجتماع عام للمؤتمر الاوروبي في مدينة أكس لا شابل. وتميز هذا الاجتماع بالاقتراح الذي قدمه قيصر روسيا والذي يقضي بعقد معاهدة عامة تتعهد فيها كل دول اوروبا بضمان ممتلكات بعضها البعض، وضمان أشكال الحكومات والنظم السياسية القائمة فيها. ويُعتبر هذا الاقتراح نواة لفكرة

الضمان الجماعي التي وردت في ميثاق أول تنظيم دولي، أي عصبة الامم، وبعدها هيئة الامم.

واستمر المؤتمر الاوروبي في عقد اجتماعاته للاهتمام بالمسائل المتعلقة بالقارة. وبحجة صون النظام والأمن في القارة سمح المؤتمر لنفسه بالتدخل في شؤون الدول الصغرى. وتجاوز نشاطه مشاكل القارة الاوروبية فأخذ يُعنى بالمسألة المصرية وبتنظيم الملاحة في الأنهار الافريقية الكبرى. وفي ١٩٠٠، نظّم التدخل الاوروبي في حرب البوكسرز في الصين.

يمثل المؤتمر الاوروبي أول تجربة في حقل التنظيم الدولي (العالمية). وهذه التجربة دلّت على إمكان تطبيق فكرة التنظيم الدولي في مجال أوسع. ومن هنا، انطلق مؤسسو عصبة الأمم الذين ارادوها منظمة عالمية شاملة.

إتحاد الدول الاميركية: عندما كثرت تدخلات المؤتمر الاوروبي في شؤون الدول الصغرى وكادت ان تمتد إلى أقطار القارة الاميركية ثارت بريطانيا على ذلك وأعلنت ان أي تدخل من الدول الاوروبية في المستعمرات الاسبانية يُعتبر عملاً عدائيًا موجهًا ضدها. وشعرت الولايات المتحدة ايضًا بـ«الخطر الاوروبي» فقامت تنادي بـ«مبدأ مونرو» وتضامن دول القارة الجديدة الذي تساعده عوامل عديدة: تجاور جغرافي، تاريخ واحد، نضال متشابه ضد المستعمرين الاوروبيين، خوف مشترك من تدخل المؤتمر الاوروبي.

وارادت الولايات المتحدة ان تجعل من نفسها حامية لاستقلال الدول الاميركية فأصدر رئيسها جيمس مونرو، في ١٨٢٣، تصريحه الشهير الذي كان له اثر عظيم في السياسة الدولية وفي تطور العلاقات بين اوروبا وأميركا. وقد تضمّن التصريح عدة مبادىء أساسية أهمها: حق الدول الاميركية في الاستقلال، وعدم جواز استعمار أي إقليم من البلاد الاميركية، وعدم جواز تدخل الدول الاوروبية في شؤون دول العالم الجديد.

وكما كانت دول المؤتمر الاوروبي تجتمع وتتشاور وتشترك في معالجة الشؤون الدولية فإن الدول الاميركية أخذت تعقد المؤتمرات الدورية وتحاول تنسيق العلاقات المتبادلة بينها على أساس المبادىء الدولية الجديدة. وابتدأت، في أول الأمر، بإنشاء مكتب تجاري للجمهوريات الاميركية، في ١٨٨٩، تحوّل فيما بعد إلى «اتحاد الدول الاميركية».

تنظيمات دولية غير سياسية: في موازاة هذه المحاولات لاقامة تنظيمات سياسية دولية، رغبت بعض الدول في التعاون الوثيق في غير الميدان السياسي، شجعها على ذلك التوسع الصناعي والتجاري المقرون بتطور هائل في وسائل النقل ومضاعفة الاتصالات بين الشعوب. وأهم ما جرى تحقيقه في هذا المجال.

– وقعت روسيا مع الباب العالي، في ١٨٢٩، معاهدة منحت جميع السفن التابعة لمختلف الدول حق المرور في المضائق التركية.

– عقد في كوبنهاغن، في ١٨٧٥، مؤتمر عالمي انتهى بتوقيع معاهدة تجعل من بحر البلطيق والمضائق الدانماركية طرقًا وممرات حرة. وعقدت مؤتمرات مماثلة للاتفاق على حرية البحار والمضائق والترع في الأطلسي.

– وقعت اتفاقية القسطنطينية، في ١٨٨٨، التي كرست مبدأ حرية الملاحة التجارية في قناة السويس. وفي ١٩٠١–١٩٠٢، تمّ الاتفاق بين الولايات المتحدة وباناما وبريطانيا على تطبيق المبدأ ذاته على قناة باناما. وعمّم مبدأ تدويل البحار والمنافذ البحرية على الانهار الدولية الكبرى.

– طبقت فكرة طوابع البريد لأول مرة في انكلترا في ١٨٤٠. وفي ١٨٧٤، أنشىء الاتحاد العالمي للبريد على غرار الاتحاد الدولي للبرق الذي كان قد أنشىء في ١٨٦٥... وتوالت الاتحادات الدولية حول عدد من الأنشطة التي تهم المجتمع الدولي. وكان لنجاحها ان حث الدول على توسيع نطاق تعاونها. لكن الحرب كان يهدّد دائمًا هذا التعاون، ولمعالجة هذا الأمر تنادت الدول لعقد مؤتمر في لاهاي.

– مؤتمر لاهاي: اجتمعت الدول مرتين في لاهاي بناء على رغبة قيصر روسيا: الأولى في ١٨٩٩، وقد ضم الاجتماع ٢٦ دولة معظمها اوروبي. والثاني في ١٩٠٧، واشترك فيه ٤٤ دولة، من بينها عدد كبير من الدول غير الاوروبية.

أسفر اجتماع مؤتمر لاهاي الاول عن توقيع ثلاث اتفاقيات تتعلق إحداها بتسوية المنازعات الدولية بالطرق السلمية، وعن توقيع ثلاثة تصريحات ترمي إلى تطبيق المبادىء الانسانية في الحروب البرية. وقد أنشأ هذا الاجتماع «محكمة دولية دائمة للتحكيم».

وأسفر اجتماع المؤتمر الثاني عن توقيع ١٣ اتفاقية، وتصريح واحد يؤكد مبدأ التحكيم الاجباري.

وإذا كانت اجتماعات لاهاي واتفاقياتها قد فشلت من الناحية السياسية (بنشوب الحرب العالمية الاولى) فإنها خلّفت أثرًا عميقًا، من الناحية المعنوية، في الرأي العام

العالمي، وكانت قرارتها بداية مرحلة جديدة في تاريخ تطور القانون الدولي.

العالمية وقد تحققت في منظمة دولية: عصبة الأمم ثم هيئة الأمم: (د.محمد المجذوب المرجع المذكور، آنفاً، ص١٣٥-٣١٢).

١- عصبة الأمم المتحدة: كان ظهورها حدثًا تاريخيًا مهمًا وخطوة كبرى على طريق التطور الايجابي لعملية التنظيم الدولي. وكان تكوّينها عملية اقتباس وتطوير للأنماط والنماذج السابقة للتنظيم الدولي التي ذكرنا أهمها سابقًا، كما جاءت ولادتها مباشرة اثر جهود فردية اضطلعت بها شخصيات ذات مكانة ونفوذ بتأليفها جمعيات عالجت بجدية وإخلاص مسألة التنظيم الدولي، ووضعت برامج مفصلة لإرساء قواعد السلام. وهذه الجمعيات:

- جمعية اتحاد الرقابة الديمقراطية التي أسستها جماعة من رجال السياسة والقانون في بريطانيا، كان من بينهم ماكدونالد زعيم حزب العمال.

- جمعية مكافحة الحرب التي تأسست في هولندا وعقدت مؤتمرًا في لاهاي ضمّ ممثلين عن الكتل المتحاربة والدول المحايدة، وانتهى باعلان «برنامج للسلام الدائم».

- جمعية دعم السلام التي تكونت في الولايات المتحدة بزعامة وليم تافت الذي كان رئيسًا لهذه الدولة من ١٩٠٩ إلى ١٩١٣.

وفي ١٩١٦، أعلن الرئيس الاميركي ولسون تقبله أفكار جمعية دعم السلام وتأييده المطلق لفكرة إقامة عصبة أمم تشترك فيها دول العالم.

وعندما أوشكت الحرب في ١٩١٨ على الانتهاء، بدأت الحكومات (خاصة البريطانية والفرنسية والاميركية، إضافة إلى الجنرال سمطس **Smuts**، رئيس وزراء اتحاد جنوب افريقيا الذي نشر كتيبًا بعنوان «عصبة الأمم» وتحدث عن نظام الانتداب) تنهمك في اعداد مشروعات تنظيم دولي لمعالجة الأزمات سلميًا وإبعاد شبح الحرب.

هنا، ظهر، لدى هذه الدول، اتجاهان: اتجاه اوروبي دافعت عنه فرنسا ونادى بوجوب تكوين المنظمة العالمية على نمط التنظيم السياسي للدولة الاتحادية بحيث تصبح هذه المنظمة ذات صلاحيات ذاتية واسعة تملك وسائل القمع والمنع. واتجاه أنكلوساكسوني نادى بإنشاء منظمة عالمية ذات اختصاصات بسيطة، لا توضع تحت تصرفها وسائل القمع والمنع، وإنما تعتمد في دعمها للسلام العالمي وعملها في سبيل التعاون الدولي على نفوذها الأدبي وتأييد الرأي العام العالمي لها. والاتجاه الثاني هو الذي تغلب أخيرًا.

وعاد ولسون إلى الولايات المتحدة ليعرض المشروع على مجلس الشيوخ فوجد منه معارضة شديدة. ورجع إلى باريس يحمل مقترحات جديدة لتعديل المشروع، أهمها: النص في ميثاق العصبة على انه يتلاءم وتصريح الرئيس مونرو، والنص على انه ليس من حق العصبة التدخل في الشؤون الخاصة للدول الأعضاء، والنص على ان الانسحاب من العصبة ممكن. واستطاع ولسون ان يُقنع الدول الاوروبية بقبول هذه التعديلات لضمان موافقة مجلس الشيوخ. وتمت الموافقة وعُدّل المشروع ووضع في ٢٨ نيسان ١٩١٩ في صيغته النهائية واصبح جزءًا لا يتجزأ من معاهدة فرساي ودخل، في ١٠ كانون الثاني ١٩٢٠، حيز التطبيق. ومع ذلك فإن مجلس الشيوخ الاميركي أصرّ على رفضه فبقيت الولايات المتحدة خارج العصبة.

وفي ديباجة ميثاق العصبة ورد نص يتحدث عن أغراض العصبة، وهي: استتباب السلام وتحقيق الأمن ومنع الحروب بين الدول، وتنمية التعاون بينها والعمل على توثيقه. وتقوم هذه الأغراض على مبادىء احترام الدول قواعد القانون الدولي.

وكان أعضاء العصبة ثلاث فئات: فئة الاعضاء المؤسسين (٢٧ دولة)، وفئة الأعضاء المدعوين المكونة من الدول المحايدة التي أُخذ رأيها عند إعداد الميثاق (١٣ دولة)، وفئة الاعضاء المنضمين وهي الدول التي قبلت عضويتها بين ١٩١٩ و١٩٣٩ (٢١ دولة).

أما الأجهزة الرئيسية للعصبة فكانت: الجمعية (العمومية) التي تتخذ قراراتها بإجماع اصوات الاعضاء الحاضرين في الاجتماع، إلا في حالات أكثرها إجرائية. والمجلس، وكان يعتبر الاداة التنفيذية للعصبة، ويضم نوعين من الاعضاء (خمسة دائمين يمثلون الدول الكبرى: فرنسا، انكلترا، ايطاليا، اليابان والولايات المتحدة؛ وأربعة غير دائمين). والأمانة العامة، وهي الجهاز الاداري الدائم للعصبة، مقرها مدينة جنيف، والامين العام يقوم بوظيفة أمين سر المجلس والجمعية وينفذ قراراتهما.

انتهت العصبة إلى الفشل، وعقدت بعض الدول الاعضاء فيها الاجتماع الأخير للجمعية في نيسان ١٩٤٦ بقصد اتخاذ القرارات اللازمة لتصفية اعمالها وتسليم تراثها

وممتلكاتها إلى المنظمة الدولية الجديدة التي حلّت محلها. وتُعتبر العصبة ملغاة من الوجهة القانونية ابتداء من ٣١ تموز ١٩٤٧، أي حين أنهى مكتب التصفية حساباتها.

يعزو الاختصاصيون (منهم الدكتور محمد المجذوب، في مؤلفه، مرجع هذه المادة، ص١٦١-١٦٦) هذا الفشل إلى أسباب عديدة، أهمها:

– عدم انضمام جميع الدول الكبرى إلى العصبة: الولايات المتحدة التي لم تنضم إليها من البداية؛ الاتحاد السوفياتي الذي لم ينضم إلا في ١٩٣٤، وطُرد منها في ١٩٣٩؛ انسحاب اليابان والمانيا وايطاليا وغيرها.

– الطابع الاوروبي الذي غلب عليها حتى انها اصبحت وكأنها «جمعية اوروبية».

– ترددها في اتخاذ المواقف الحازمة عند الملمات.

– عجزها عن إيجاد قوة أو أداة تنفيذية دائمة مع ان الميثاق كان يسمح لها بذلك.

لكن، مهما يكن من أمر فإن هذه المنظمة كانت إطار التجمع الدولي الأول في التاريخ. وبعدها، لم يكن بإمكان الدول إبقاء العالم من دون تنظيم دولي عالمي مشابه، فكانت على الفور «هيئة الأمم المتحدة».

٢- هيئة الأمم المتحدة: ولّدت كارثة الحرب العالمية الثانية وعيًا جديدًا قوامه العزم على وضع أسس نظام دولي أفضل من نظام عصبة الأمم. وكانت رغبة الدول الحليفة في توحيد جهودها، أثناء الحرب وبعدها، ان دفعتها، قبيل انتهاء الحرب، إلى وضع الحجر الأساسي لمنظمتين دوليتين اقتصاديتين هما: صندوق النقد الدولي والبنك الدولي للأنشاء والتعمير.

وتعتبر المنظمة الجديدة (هيئة الأمم) نسخة منقحة عن المنظمة السابقة (عصبة الأمم)؛ فكثير من الخطوط الرئيسية والملامح الأساسية للعصبة تتجلى في الهيئة الجديدة.

مرّت عملية تكوّن هيئة الأمم بثلاث مراحل:

الأولى، مرحلة التصريحات، وأهمها: ١-تصريح الأطلسي أو ميثاق الأطلسي الذي أصدره رئيس الولايات المتحدة (روزفلت) ورئيس حكومة بريطانيا (تشرشل) بتاريخ ١٤ آب ١٩٤١، حيث أكّدا رغبة الدولتين على مبدأ الأمن الجماعي، ومبدأ التخلي عن استخدام القوة، ومبدأ التقدم الاقتصادي والضمانات الاجتماعية. ٢-تصريح الأمم المتحدة، الذي وقعه في الاول من كانون الثاني ١٩٤٢ ممثلو ٢٦ دولة حليفة، والذي أكد مبادىء ميثاق الاطلسي واستعمل لأول مرة تعبير «الأمم المتحدة». ٣-تصريح موسكو الذي وقعه في ٣٠ تشرين الاول ١٩٤٣ رؤساء أربع دول كبرى (الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا والصين)، وجاء فيه ان الدول الكبرى ترى من الضروري «التعجيل بانشاء هيئة عالمية تقوم على أساس المساواة في السيادة بين جميع الدول المحبة للسلام وتفتح صدرها لكل الدول، كبيرها وصغيرها». ٤-تصريح طهران الذي وقعه في الاول من كانون الاول ١٩٤٣ رئيس الولايات المتحدة ورئيسا الحكومة في بريطانيا والاتحاد السوفياتي، وأكدوا فيه جميع المبادىء التي نادى بها الحلفاء.

الثانية، مرحلة المقترحات التي تجسدت بتكليف الدول الاربع الحليفة فقهاء من رعاياها لوضع نصوص وبنود الهيئة العالمية الجديدة. وفي خريف ١٩٤٤، اجتمع الخبراء القانونيون في دمبارتون أوكس (قرية من واشنطن)، وبعد أشهر قليلة (أي في شباط ١٩٤٥) عقد مؤتمر يالطا (زعماء الولايات المتحدة وبريطانيا والاتحاد السوفياتي) الذي تقرر فيه تسوية المشكلات التي سيطرحها انهيار المانيا ودعوة الدول الحليفة للاجتماع في الولايات المتحدة.

المرحلة الثالثة، مرحلة التنفيذ: وفي الموعد المقرر، عقد الاجتماع في مدينة سان فرنسيسكو (الولايات المتحدة). وكان قد تقدمه اجتماع أولي عقد في المدينة ذاتها من اجل إعداد نظام المحكمة الدولية الجديدة. ودامت المناقشات في مؤتمر سان فرنسيسكو من ٢٥ نيسان حتى ٢٦ حزيران ١٩٤٥. ولم تشترك في المؤتمر إلا «الأمم المتحدة»، أي الدول التي أعلنت الحرب على دول المحور قبل أول آذار ١٩٤٥، ووقعت على تصريح الامم المتحدة للعام ١٩٤٢.

وفي ٢٦ حزيران ١٩٤٥ وافق مؤتمر سان فرنسيسكو على مشروع ميثاق الامم المتحدة (ديباجة- و١١١ مادة) عدا النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية المكون من ٧٠ مادة. ودخل الميثاق طور التنفيذ في ٢٤ تشرين الاول ١٩٤٥. وقد عدّل هذا الميثاق حتى الآن (ربيع ١٩٩٨) مرتين: مرة في ١٩٦٣ لزيادة عدد أعضاء مجلس الأمن واعضاء المجلس الاقتصادي والاجتماعي، ومرة في ١٩٧١ لزيادة عدد المجلس الاخير.

تتلخص مقاصد الامم المتحدة بـ:

– حفظ السلم والأمن الدوليين.

– تنمية العلاقات الودية بين الدول على أساس المساواة في الحقوق.

– تحقيق التعاون الدولي في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والانسانية.

– جعل الامم المتحدة مرجعًا لتنسيق جهود الدول وتوجيهها لخدمة الغايات المشتركة.

– وتتلخص مبادئها بـ:

– قيام الامم المتحدة على مبدأ المساواة في السيادة بين جميع اعضائها.

– تنفيذ الاعضاء التزامات الميثاق بحُسن نيّة.

– فض المنازعات الدولية بالطرق السلمية.

– امتناع الاعضاء عن استعمال القوة أو التهديد باستعمالها.

– تقديم العون للامم المتحدة في الاعمال التي تتخذها.

– العمل على ان تسير الدول غير الاعضاء على مبادىء الامم المتحدة.

ابتدأت الامم المتحدة بـ٥١ عضوًا مؤسسًا. وعدد اعضائها اليوم وصل إلى ١٨٥ عضوًا. وبهذا العدد، والصلاحيات، حققت المنظمة عالميتها بصورة لم تعرف البشرية مثيلاً لها في التاريخ.

أما الأجهزة الرئيسية للامم المتحدة فهي:

١– الجمعية العامة المؤلفة من جميع اعضاء الامم المتحدة، وتجتمع في دورة سنوية عامة، ويحق لها عقد دورات استثنائية، وإنشاء أجهزة فرعية وفق ما تراه ضروريًا. واختصاصاتها ينص عليها الميثاق في مواضع مختلفة.

٢– مجلس الأمن، وهو الأداة التنفيذية للأمم المتحدة، ويعتبر أهم جهاز فيها، وهو المسؤول الاول عن حفظ السلم والسهر على الأمن الدولي وقمع أعمال العدوان. ويتألف من ١٥ عضوًا: خمسة دائمين و١٠ تنتخبهم الجمعية العامة.

٣– المجلس الاقتصادي والاجتماعي.

٤– مجلس الوصاية.

٥– الأمانة العامة، وهي الهيئة الادارية التي تشرف على تسيير اعمال الامم المتحدة. والأمين العام هو أسمى موظف في هيئة الامم المتحدة، ويجري انتخابه من قبل الجمعية العامة بناء على توصية مجلس الامن ولمدة حددتها الجمعية بخمس سنوات. وأول أمين عام كان تريغفي لي Trygve Lie (من النروج)، ثم خلفه داغ همرشولد (من السويد)، ثم يو ثانت (من بورما)، ثم كورت فالدهايم (من النمسا)، ثم دو كويلار (من البيرو)، ثم بطرس بطرس غالي (من مصر)، وبعده، منذ ١٩٩٧، انتخب كوفي أنان (من غانا).

٦– محكمة العدل الدولية، وهي الهيئة القضائية الرئيسية للامم المتحدة. وقد وُضع لها نظام خاص مستمد من النظام الأساسي الذي وضعته عصبة الامم للمحكمة الدائمة للعدل الدولي. تتكون من ١٥ قاضيًا، ويتم انتخابهم من الجمعية العامة ومجلس الامن من قائمة يعدّها الامين العام وتحتوي على مرشحي الدول الاعضاء في الامم المتحدة. وللدول وحدها الحق في ان تكون اطرافًا في الدعاوى التي تُرفع إلى المحكمة. وحكمها نهائي وغير قابل للاستئناف.

أما أهم مظاهر نشاط الامم المتحدة فيمكن عنونته بالتالي: حماية حقوق الانسان، والحريات العامة، الاهتمام باللاجئين، حل المنازعات الدولية وحفظ السلام، التنمية الاقتصادية والمساعدة الدولية، وتحرير الاقطار الخاضعة لغيرها.

كثرت في الآونة الاخيرة (ولا سيما بعد حرب الخليج، والتقاعس عن إغاثة شعب البوسنة، وضرب الحصار على ليبيا، والتدخل الفاشل في الصومال) الانتقادات الموجهة إلى الامم المتحدة، وأهمها:

١– سيطرة الدول الكبرى عليها (وخصوصًا الولايات المتحدة).

– إخفاقها في وضع برنامج عام لنزع السلاح وحظر الاسلحة النووية بشكل كامل.

٣– فشلها في تكوين جيش أممي يخضع لها ويُستخدم لفرض العقوبات على الدول أو المنظمات المخالفة لمبادىء الامم المتحدة وأهدافها.

٤– عجزها عن حل بعض المعضلات الدولية الكبرى (فلسطين، كشمير، قبرص، البوسنة).

٥– عجزها الفاضح عن تنفيذ قراراتها ووقوفها عاجزة إزاء إصرار بعض الاعضاء على عدم الاذعان لقراراتها. والأمثلة كثيرة، ولعل أشهرها رفض اسرائيل كل القرارات التي اتخذها مجلس الامن أو الجمعية العامة بشأن القضية الفلسطينية.

(تجدر ملاحظة ان كل المادة، التي تبدأ بالعنوان الفرعي «العالمية من خلال فكرة التنظيم الدولي في كتابات المفكرين الغربيين»، وتنتهي هنا، جاءت موجزة جدًا وتكاد تكون مجرد عناوين، خاصة في ما يتعلق بمنظمة الامم المتحدة، لمجمل محاضرات الدكتور محمد المجذوب الجامعية التي عكف على تدريسها منذ نحو أربعين سنة وجمعها

مؤخرًا في كتابه «التنظيم الدولي» الصادر عن الدار الجامعية، بيروت، ١٩٩٨).

موقع الأمم المتحدة في النظام العالمي الجديد: منذ سنوات قليلة، وتحديدًا خلال ولاية الامين العام السابق بطرس بطرس غالي والسنة الأولى من ولاية الامين العام الجديد كوفي أنان، والامم المتحدة تشهد تحولات أساسية تحت عنوان «إعادة الهيكلية والاصلاح» تتصل بمختلف أوجه النشاط الذي تقوم به (راجع العنوان الفرعي التالي «مشروع إصلاح الامم المتحدة»). أما موقع الامم المتحدة في النظام الجديد الذي اصطلح على تسميته بـ«النظام العالمي الجديد» المتصل بالمناخ الدولي الذي ساد كنتيجة للتغيرات التي شهدها المجتمع الدولي في أعقاب انهيار المنظومة الاشتراكية وتفكك الاتحاد السوفياتي، فيمكن تبيانه من خلال النقاط التالية:

– اعتبر المعسكر الغربي، وعلى رأسه الولايات المتحدة، انه انتصر في الحرب الباردة وان ميزان القوى مال إلى صالحه.

– سارع هذا المعسكر إلى إملاء رغبته باعادة صياغة أشكال وأنماط العلاقات الدولية. وتمكنت الولايات المتحدة من تكريس نفسها كأقوى قوة عظمى جعلت لها هيمنة شبه مطلقة على توجيه تلك الرغبة.

– كانت الامم المتحدة في الأساس، منذ نشأتها، تلبية لرغبة المنتصرين في الحرب العالمية الثانية وخاصة منهم الولايات المتحدة. ومن البديهي ان تكون، هذه المرة ايضًا، هدفًا أساسيًا للمنتصرين في الحرب الباردة (بانتهاء الاتحاد السوفياتي)، خاصة وان إجماعًا دوليًا عامًا اظهر رغبته في الحفاظ عليها وفي ضرورة استمرارها كأداة تجمع اعضاء المجتمع الدولي.

– اتضح ان الارادة السياسية للولايات المتحدة كانت، منذ انهيار الاتحاد السوفياتي، المحرك الأساسي لتحديد الأطر العامة لعملية وضع الامم المتحدة في سياق قبول مستلزمات النظام العالمي الجديد وفق الرؤية الاميركية الدولية. وقد أمكن، حتى الآن، دفع باقي اعضاء المجتمع الدولي للمشاركة في تقرير التفاصيل للتغيرات، مستفيدين من غطاء وحصانة الارادة الطوعية المبنية على الشكل الديمقراطي المتفق عليه لصناعة القرار في المنظمة الدولية، وعزّز، في الوقت نفسه، من رسوخها.

– إن «المشاكسة»، أو «المعارضة» التي أظهرتها الولايات المتحدة للامم المتحدة منذ قبل سنوات من انهيار الاتحاد السوفياتي واستمرت بها إلى سنوات بعد انهياره، خاصةً لجهة عدم وفاء الولايات المتحدة بالتزاماتها إزاء المنظمة الدولية، فسّرها كثيرون باعتبارها ضغوطات على المنظمة بهدف تطويعها، أو زيادة تطويعها للرغبة الاميركية. ولعلّ أهم ما يمكن ان يلقي ضوءًا على هذه المسألة المقال الذي كتبه جيمس بايكر، وزير الخارجية الاميركي في عهد الرئيس جورج بوش، بعنوان «الامم المتحدة والخارجية الاميركية» («الشرق الاوسط»، بالاتفاق مع «لوس أنجليس تايمز»، عدد تاريخ ١٦ شباط ١٩٩٧، ص٨) حيث جاء:

«(...) البعض يخشى الامم المتحدة معتبرًا إياها خطرًا داهمًا على سيادتنا الوطنية، والبعض الآخر يثني عليها باعتبارها الترياق الشافي لكل الشرور في العالم. لكنها لا هذا ولا ذاك، فالامم المتحدة، بالأحرى، تمثل أداة واحدة، من بين أدوات عدة، للذود عن المصالح القومية الاميركية. فما الامم المتحدة سوى أداة، لا غاية، للسياسة الخارجية الاميركية. تلك هي المقاربة التي اعتمدناها إزاء الامم المتحدة خلال عهد إدارة بوش، وهي مقاربة ترتكز على أرضية صلبة من الفهم الواقعي لمكامن قوة الامم المتحدة وضعفها. وخلال أزمة الخليج، على سبيل المثال، استخدمنا الامم المتحدة لتحشيد الرأي العالمي وعزل العراق عن طريق العقوبات الدبلوماسية والاقتصادية (...)».

وبعد ان يعدّد بايكر، ويحلّل، أمثلة على مشاركة الولايات المتحدة في بعض مهمات الامم المتحدة، خاصة لجهة حفظ السلام، والكلفة الادبية والمادية التي تحملتها الولايات المتحدة (التي هي «موضع إعجاب كبير مثلما هي موضع سخط شديد») نتيجة لمشاركتها هذه، يخلص إلى القول:

«إن عضوية الامم المتحدة أمر هام للولايات المتحدة ولدورها القيادي في الشؤون العالمية. وهذا الدور القيادي، هام وضروري لسلام العالم واستقراره وازدهاره. وليس من الصائب قط ان تكون القوة العظمى الوحيدة الباقية في العالم وصاحبة أكبر اقتصاد في العالم وموطن الأمل للكثيرين–هي القوة المنهكة في العالم في الوقت نفسه».

– كان لاوروبا والدول النامية والصين والاتحاد الروسي مداخلاتها التي أثرت في بعض تفاصيل اعمال الامم المتحدة، لكنها ظلت مجرد وصفات تجميلية أو تخفيفية تستجيب لبعض المشاغل الوطنية المتفرقة من دون ان تؤثر جديًا في الأطر العامة.

مشروع اصلاح الأمم المتحدة: في ١٦ تموز ١٩٩٧، وبمناسبة الدورة الاستثنائية للجمعية العامة، أعلن الأمين العام كوفي أنان «مشروع إصلاح الامم المتحدة» الذي كان بدأه سلفه الدكتور بطرس بطرس غالي. وأوكل أنان هذه المهمة إلى مهندس الاصلاح الكندي موريس سترونغ وعيّنه على رأس لجنة تنفيذية لإعادة الهيكلية التي تضم كبار مديري المنظمة وهيئاتها المتخصصة، وهو رجل إدارة وأعمال ورأس (في ١٩٩٢) مؤتمر قمة الارض في ريو دي جانيرو. وقد تبنت الجمعية العامة خطة إصلاحية ترمي إلى تعزيز دور المنظمة في خمسة مجالات رئيسية: الأمن والسلم، والشؤون الانسانية، والاقتصادية، والاجتماعية، وحقوق الانسان.

ومن ضمن ما نصت عليه الخطة الجديدة: تعزيز دور الرقابة والتفتيش داخل المنظمة الدولية، وتحديد مهمات بعض المنظمات والمؤتمرات، واعتماد سياسة تقشف لمواجهة ازمة المنظمة المالية بتخفيض الموازنة والحد من النفقات (تخفيض ٨،٠٪ لموازنة ١٩٩٨-١٩٩٩) وإزالة ألف وظيفة من أصل ١٠ آلاف؛ ويذكر ان العجز بلغ في السنوات الثلاث الماضية ٣ بلايين دولار نتيجة تأخر الولايات المتحدة، وهي المساهم الاول في موازنة المنظمة، في تسديد التزاماتها وبلغت المتأخرات بليون و٨٥ مليون فرنك).

بالنسبة إلى الشق السياسي لعملية الاصلاح والمقصود الهيئة الرئيسية صاحبة القرار، وهي مجلس الامن، أوصت الخطة بتوسيع عضوية مجلس الأمن من ١٥ عضواً (٥ دائمين و١٠ غير دائمين) إلى ٢٤ عضواً، ودخول المانيا واليابان في نادي الدول الدائمة العضوية ليرتفع عددها إلى سبع دول، وحرّم المشروع تلك الدولتين من حق ممارسة الفيتو، لكنه أوصى بتقييد ممارسة هذا الحق والاقتصار على ممارسته في الشؤون التي تمس الأمن والسلم عملاً بميثاق الامم المتحدة (الفصل السابع منه).

وكذلك طال مشروع الاصلاح «حقوق الانسان»، إذ أُعطي لمركزه في جنيف صلاحيات أوسع وموازنة أكبر. كما أوصى باعطاء أهمية أكبر إلى المفوضية العليا للاجئين التي تعنى بمصير ٧٠ مليون لاجىء في العالم وربط بعض الادارات الانسانية بالمفوضية. ويعزّز المشروع من المقر الاوروبي للامم المتحدة، ويبقي على مؤتمر نزع السلاح، وهو المحفل الوحيد الذي يعالج شؤون نزع السلاح والاتفاقات المتعلقة به.

«عالمية الاشتراكيين» («الأممية»، أنترناسيونال)

«الأممية»، أو الأصح «الأمميات»، تسمية أطلقت

كوفي أنان.

على منظمات الاحزاب العمالية التي تهدف إلى تحويل المجتمعات الرأسمالية إلى مجتمعات اشتراكية، وتوحيد هذه الأخيرة في فدرالية عالمية. وكان الثائر الفرنسي فرنسوا نويل بابوف (١٧٦٠-١٧٩٧) الذي حرّك فكرة «مؤامرة» مبدأ «المتساوون» (المبدأ الأساسي للثورة الفرنسية) في كتاباته التي نشرها في ١٧٩٥، وكذلك كان ماركس وإنغلز اللذان أسّسا «الرابطة الشيوعية» في لندن (١٨٤٧-١٨٥٢)، روّاد فكرة «الأنترناسيونال».

تأسست **الأممية الاولى**، المعروفة باسم «الرابطة الاممية للعمال» في ٢٨ ايلول ١٨٦٤ في لندن وعلى يد عدد من المنبوذين السياسيين الفرنسيين والايطاليين والالمان والبولنديين (من انصار برودون، والفكر الوضعي) الذين تبنوا أغلب افكار ماركس. وقد كتب هذا الأخير كلمة افتتاح الاجتماع التأسيسي. وفي مؤتمرها الذي عقدته في لوزان (١٨٦٧)، انضم إليها عدد من الفوضويين من انصار ميخائيل الكسندروفيتش باكونين، الذين طُردوا منها في مؤتمر لاهاي (١٨٧٢) فأسسوا أممية خاصة بهم عقدت آخر اجتماع لها في ١٨٨١. وبسبب القمع الذي تعرضت له نقلت أممية ماركس مقرها إلى نيويورك. وفي ١٨٧٦، حلّت نفسها لكثرة الخلافات التي عصفت بأعضائها.

الأممية الثانية، أسستها احزاب اوروبا الاشتراكية والاشتراكية الديمقراطية في مؤتمرها الذي عقد في باريس (تموز ١٨٨٩)، وهي الأممية الأطول عمرًا بين الاممية الاربع، إذ كانت لا تزال مستمرة حتى قبيل انهيار

«المنظومة الاشتراكية» مع تفكك الاتحاد السوفياتي.

طرحت على الاممية الثانية، منذ نشأتها، مسألة تحديد حق العضوية فيها. وقد حسم هذا الأمر مؤتمر لندن (١٨٩٦) الذي استبعد من العضوية النقابات والتجمعات العمالية غير المنظمة، ولم يبق فيها سوى الاحزاب الاشتراكية.

أكدت على العقيدة الماركسية القائلة بصراع الطبقات، لكنها قالت بـ«الجمهورية البرلمانية» ورفضت «دكتاتورية البروليتاريا» التي كان لينين يقول بها.

بعد إعلان الحرب العالمية الاولى، صوّت القادة الاشتراكيون، باستثناء الروس والصرب، إلى جانب الميزانيات العسكرية التي تقدمت بها الحكومات البورجوازية. فتنادى اشتراكيو الاممية الثانية إلى عقد مؤتمر زيمروالد (ايلول ١٩١٥)، ومؤتمر كينتال (نيسان ١٩١٦) في سويسرا، وكانت قد اصبحت، عشية الحرب، جهازًا ضخمًا يضم ٣،٥ مليون منتسب و١٢ مليون ناخب، و٢٠٠ صحيفة. وانقسم الامميون بين جناح الوسط بزعامة الالماني كارل كاوتسكي، واليسار بزعامة لينين الذي اطلق نداءه الشهير حول ضرورة «تحويل الحرب الرأسمالية إلى حرب أهلية».

في شباط ١٩١٩، تداعى الاشتراكيون الديمقراطيون (اليمين) إلى مؤتمر في برن، ثم إلى مؤتمر في جنيف (تموز ١٩٢٠). وشاركت أممية برن في مؤتمر هامبورغ (١٩٢٣) الذي، جاء انعقاده بدعوة من «أممية فيينا» التي كان أسسها، في ١٩٢١، اشتراكيون من الوسط. أوقفت الاممية الثانية نشاطها في ١٩٣٩، ثم عادت واستأنفت أعمالها تحت إسم «الاممية الاشتراكية» وانطلاقًا من مؤتمر فرنكفورت الذي عقدته في ١٩٥١.

الأممية الثالثة، أي الاممية الشيوعية، وتسمى ايضًا «كومنترن». كان الهدف من إنشائها ان تكون أداة للثورة ليس بيد الطبقة العاملة وحسب، بل ايضًا بيد كل عمال العالم. وقد كانت هذه الاممية نتيجة مباشرة للحرب العالمية الاولى التي كشفت ضعف الاممية الثانية. ولقد عبّر عن ذلك لينين بقوله: «إن الاممية الثانية قد أفلست ويجب تهيئة أممية جديدة». وقد ساهم في وضع الأسس النظرية للاممية الثالثة بوخارين وروزا لوكسمبورغ وتروتسكي وزينوفييف، وبصفة خاصة لينين، حين انكبوا على تحليل «الامبريالية» و«الثورة» وتوصلوا إلى استنتاج ان هذه الحرب العالمية الثانية ليست إلا حربًا امبريالية يمكن ان تحولها إلى حرب أهلية، وستجد الجماهير الاشكال التنظيمية التي تضمن إسقاط اجهزة الدولة الرأسمالية وإنشاء دكتاتورية البروليتاريا.

وجاءت ثورة أكتوبر البولشفية (الشيوعية) في ١٩١٧ لتدفع عملية إنشاء الاممية الثالثة. فتم إنشاؤها في مؤتمر عقد في موسكو في ١٩١٩ وبدعوة من لينين. وفي مؤتمرها الثاني (١٩٢٠) وضعت شروط الانتساب إليها (٢١ شرطًا) وحددت أهدافها؛ كما حدّدت لها أشكالاً تنظيمية دقيقة في المؤتمر الثالث: المؤتمر هو في القمة ويمثل السلطة العليا. أما القيادة ما بين المؤتمرات فتؤمنها «لجنة مركزية» منتخبة من المؤتمر ومركزها روسيا. ويترأس هذه اللجنة رئيس يكون هو الناطق الرسمي باسم الاممية الشيوعية (زينوفييف، بوخارين، ديمتروف). وتنشر اللجنة المركزية مجلة «الأممية الشيوعية» وصحيفة «الصحافة الدولية». وتنظم مدارس تخرج منها الكوادر، وترسل مندوبيها إلى مختلف البلدان التي فيها احزاب شيوعية.

مع الأزمة الاقتصادية الدولية (١٩٢٨-١٩٢٩)، طغى الجمود والتردد على سياسة الاممية، خاصة إزاء السياسة التي يجب اتباعها ضد هتلر، والموقف من ستالين.

في ايار ١٩٤٣، قرر البريزيديوم السوفياتي إلغاء الاممية الثالثة. ولم يحدث هذا القرار أي ضجة. وفي ١٩٤٧، أنشىء الـ«كومنفورم» في وارسو لتنظيم تبادل المعلومات والخبرات بين الاحزاب الشيوعية ولمواجهة مشروع مارشال والحلف الاطلسي. وفي ١٩٥٣، تقرر حل الكومنفورم لنفي تهمة تبعية الاحزاب الشيوعية لأي توجيهات اجنبية، وتكونت بدلاً من ذلك «لجنة ثقافية» في براغ بقصد مناقشة مختلف الافكار الاشتراكية. وكانت هذه اللجنة تصدر مجلة باسم «مسائل السلم والاشتراكية» بتسع لغات من بينها العربية.

أما **الأممية الرابعة** فأنشأها تيار يساري معارض ظهر في ١٩٢٣ في الحزب الشيوعي الروسي، هو التيار التروتسكي. فعندما تمت تصفية هذا التيار من الحزب الشيوعي الروسي في ١٩٢٨، راح يفكر بإنشاء أممية رابعة تأخر ظهورها حتى ١٩٣٨. وكان التأسيس في باريس، والمؤسسون كانوا نحو عشرة ممثلين لقوى يسارية متطرفة وهامشية. ولم تتمكن هذه الاممية من الانتشار ومن التنظيم بسبب الانشقاقات التي حصلت في داخلها لا سيما بين ١٩٥٠ و١٩٥٢، ولم يعد لها تأثير يذكر.

وإضافة إلى هذه الامميات الاشتراكية الأربع، هناك «أممية النقابات الحمراء» (بروفنترن)، وهي كناية عن تنظيم نقابي أممي شكله الماركسيون بعد ثورة أكتوبر البولشفية في

١٩١٧ وضم نحو ٣٠ مليون عامل وجعلوا من موسكو مركزًا له. لكن هذه الاممية تأسست رسميًا في ١٩٢١، وشارك في تأسيسها مندوبون عن النقابات العمالية التي كان يسيطر عليها الماركسيون في أنحاء العالم. وخلال تصاعد الفاشية في اوروبا (أواسط الثلاثينات)، عملت هذه الاممية على خلق جبهة موحدة ضد الفاشية والحرب. وقد ضمت الاممية الحمراء المراكز النقابية التقدمية واتحادات العمال في العديد من البلدان (شارك في مؤتمرها الاول-١٩٢١-٣٨٠ مندوبًا مثلوا ١٧ مليونًا من النقابيين في ٤١ بلدًا). وقد وقفت هذه الأممية، منذ تأسيسها مواقف طبقية في تحليلها للاحداث، مغلّبة التناقض الطبقي على التناقض القومي (مرجعا هذه «الأمميات»: لو روبير، ط١٩٩٤، و«موسوعة السياسة»، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ط١، ج١، ص٣٢٦-٣٢٩).

حقوق الانسان

نبذة في الجذور: إن أول ما يتبادر إلى الذهن لدى التلفظ بـ«حقوق الانسان»، أو لدى ذكر «الاعلان العالمي لحقوق الانسان»، وثيقة مهمة جدًا صدرت قبل أكثر من مائتي سنة عن الثورة الفرنسية وعُرفت بـ«وثيقة اعلان حقوق الانسان والمواطن» وأقرتها الجمعية التأسيسية الفرنسية في سنة الثورة الاولى، أي في ١٧٨٩.

وهذه الوثيقة مربوطة، بحكم التواصل التاريخي للبشرية، فكرًا وواقعًا وممارسة، بالجهود الضخمة التي بُذلت خلال ما يزيد على ألفي عام، وصولاً لإقرار هذه الوثيقة كإحدى ثمار النضال البشري من أجل المساواة. فمع هذا الإقرار، بدأت حياة جديدة، ثم تطورت بعدها فكرة الحق الانساني بصوره المختلفة.

أما الربط الأساسي بالجذور لوثيقة الثورة الفرنسية («وثيقة اعلان حقوق الانسان والمواطن») فيكاد الدارسون يجمعون على انه يتمثل بالقرن السادس عشر الذي كان له شرف البدء بالهجوم على الماضي الظالم. إذ شهد هذا القرن حركة الاصلاح البروتستانتي التي دعت إلى حرية الفكر، فكر الافراد، بدءًا بحريتهم في قراءة الكتاب المقدس وحرية تفسيره. فاعتبرتهم الكنيسة مارقين حتى اشتعلت الحرب الأهلية في أكثر أرجاء اوروبا وتمخض عنها الفكر الجديد بعنوان كبير هو «حرية الضمير». وفي اواخر القرن، أي في ١٥٩٨، أطلق هنري الرابع «مرسوم نانت» الذي دعا إلى إطلاق حرية الاعتقاد على النحو الذي عبرت عنه وثيقة الثورة الفرنسية بعد «مرسوم نانت» بنحو مائتي سنة. وفي القرن السابع عشر، توالت حركات التمرد حتى شملت أكثر من خمس مدن كبيرة شهدت صراعات فلاحية عنيفة (١٦٣٥ و١٦٣٦ و١٦٣٧ و١٦٣٩).

وخارج فرنسا، لا بد من ذكر وثيقة أخرى هي «ماغنا كارتا» **Magna Carta**، أو الشرعة العظمى التي أصدرها الملك الانكليزي جون في ١٢١٥ والتي تعتبر أقدم وثيقة دستورية في التاريخ البريطاني (راجع «بريطانيا»، ج٥، ص١٨٧-١٨٨). وكذلك، من أشهر الإعلانات حول حقوق الانسان، وثيقة الحقوق الصادرة في بريطانيا في ١٦٨٩، والتعديلات العشرة الاولى على الدستور الاتحادي الاميركي التي أطلق عليها الإسم نفسه الذي اطلقته الثورة الفرنسية على وثيقتها («وثيقة اعلان حقوق الانسان والمواطن») والتي تمت الموافقة عليها في ١٧٩١، وتضمنت عددًا من الحقوق والحريات العامة، أهمها حرية العقيدة والتعبير والاجتماع وحرية المسكن وبعض ضمانات التحقيق والمحاكمات الجنائية.

من وثيقة الثورة الفرنسية إلى وثيقة الأمم المتحدة: صدر الاعلان الاول لحقوق الانسان والمواطن في ٢٦ آب ١٧٨٩ عن الجمعية الوطنية الفرنسية إبان الثورة الفرنسية التي اعترفت فيه بصورة قاطعة بالمساواة بين جميع المواطنين، وبحقوق الانسان وحرياته الأساسية، وبالشعب مصدرًا لجميع السلطات، وبالقانون مظهرًا لارادة الامة، إلى غير ذلك.

كان هذا الاعلان الدافع الأكبر والسبب الأهم في المعارضة (والعداء) التي لقيتها الثورة من الانظمة الملكية الاوروبية ومن مختلف القوى والجهات والهيئات ذات المصلحة في استدامة الأنظمة السابقة.

لكن رغم هذه المعارضة، أخذت «حقوق الانسان» (وهي على رأس مبادىء الثورة الفرنسية) تترسخ في ضمير العالم، وأخذت الدول، تباعًا، توردها في قوانينها الدستورية الخاصة بالاضافة إلى وضعها في حماية القانون الدولي.

وهكذا، نص ميثاق عصبة الامم على احكام مختلفة تتعلق بحقوق الانسان وواجبات الدول إزاءها. وجاء ميثاق الامم المتحدة في ١٩٤٥ يفتتح احكامه بالتصريح الرسمي عن إيمانه الراسخ بحقوق الانسان الأساسية، إلى ان تبلورت هذه الحقوق في الوثيقة التي أعلنتها الامم المتحدة في ١٠ كانون الاول ١٩٤٨، وهي الشرعة العالمية لحقو الانسان التي يمكن اعتبارها الأساس الأحدث لنظرية حقوق الانسان في الوقت الحاضر، إذ إنها تضم في موادها الثلاثين المبادىء الجوهرية التي أجمعت الدول الاعضاء في منظمة الامم المتحدة على إقرارها والعمل بموجبها في تشريعاتها الداخلية، وفي سياستها مع شعوبها وسائر شعوب الارض.

وما يجدر ذكره، لمامًا، انه كان قد صدر قبل هذا الاعلان التاريخي، وبعده، شرعات أخرى خاصة بمنظمات إقليمية، كشرعة بوغوتا في ٢ ايار ١٩٤٧ المعروفة بـ«الشرعة الاميركية لحقوق الانسان وواجباته» العائدة لمنظمة الدول الاميركية، وعلى الأخص الاتفاقية الخاصة بحماية حقوق الانسان وحرياته الأساسية المعقودة في روما في ٤ تشرين الثاني ١٩٢٠ والخاصة بالاتحاد الاوروبي الغربي.

وما من دستور حديث قد صدر إلا وتقدمه إعلان للحقوق الفردية، وضمّ في مستهله بيانًا بتعداد هذه الحقوق.

«الاعلان العالمي لحقوق الانسان»: يشير ميثاق الامم المتحدة إلى حقوق الانسان في عدة مواضع: في الديباجة وفي المواد ١ و١٣ و٥٥ و٦٢ و٦٨ و٧٦. وتنص المادتان ٥٥ و٥٦ على الالتزام القانوني الذي يفرضه الميثاق على الدول الاعضاء للتعاون، فرادى أو جماعات، مع هيئة الامم من اجل تحقيق الاحترام العالمي والفعّال لحقوق الانسان والحريات الأساسية للجميع بلا تمييز بسبب العرق أو الجنس أو اللغة أو الدين.

وللقيام بهذه المهمة السامية أنشأت الامم المتحدة «لجنة حقوق الانسان»، وأقرّت الجمعية العامة في ١٠ كانون الاول ١٩٤٨، «الاعلان العالمي لحقوق الانسان». ويتضمن هذا الاعلان سلسلة من الحقوق والحريات التي يمكننا ان نقسّمها إلى اربع فئات:

١- الحقوق الشخصية: حياة الانسان، حريته، سلامته، كرامته، المساواة امام القانون، وتحريم الرق والتعذيب والاضطهاد.

٢- الحقوق الاجتماعية: الزواج، الملكية، حق اللجوء، والحق في الجنسية.

٣- الحريات العامة والسياسية: حرية المعتقد والتعبير والاجتماع والانتخاب وتكوين الجمعيات.

٤- الحقوق الاقتصادية والثقافية: الحق في العمل، الحريات النقابية، الثقافة، الراحة، والضمان الاجتماعي.

وأصبح هذا الاعلان مرجعًا ومستندًا لهيئة الامم وللدول الاعضاء تعتمد عليه لإدانة كل دولة أو منظمة أو جمعية... تنتهك احكامه. واستندت هيئة الامم إلى هذا الاعلان عندما مارست رقابتها على الاقطار الخاضعة للوصاية أو الاقطار غير المتمتعة بالحكم الذاتي. وكثيرًا ما أشير إلى هذا الاعلان في الاتفاقات الدولية.

وبعد هذا الاعلان أصدرت الامم المتحدة العديد من الاتفاقات والقرارات حول الحقوق والحريات، مثل العهد الدولي الخاص بالحقوق المدنية والسياسية، والعهد الدولي الخاص بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، والاتفاقية الدولية للقضاء على جميع أشكال التمييز العنصري، واتفاقية منع جريمة الابادة الجماعية، والاتفاقية الخاصة بحقوق المرأة السياسية...

إن أغلب هذه الاتفاقيات كانت توقع عقب مؤتمرات دولية تدعو إليها الامم المتحدة. وآخر هذه المؤتمرات، واحد في ١٩٩٠ والآخر في ١٩٩٣. انتهى الاول إلى تبني اتفاق حقوق الطفل، والثاني إلى إنشاء المفوضية السامية لشؤون حقوق الانسان. وتُعنى الاخيرة بمراقبة ومتابعة أنشطة الدول بهذا الصدد وتقديم الخدمات الفنية لها حين الطلب، وتنسيق اجتماعات وخدمات اللجان المختلفة المساعدة للمجلس الاقتصادي في الامم المتحدة أو المنبثقة عن الاتفاقات الدولية المعنية بحقوق الانسان.

طال مشروع الاصلاح في هيكلية الامم المتحدة، الذي تبنته الجمعية العمومية في تموز ١٩٩٧، مركز (وأجهزة) حقوق الانسان في الامم المتحدة. إذ يعتبر المركز الخلية الرئيسية المستقلة في الامم المتحدة التابعة للجنة حقوق الانسان التي تتبع بدورها المجلس الاقتصادي والاجتماعي.

ومركز حقوق الانسان، الذي يتخذ من جنيف مقرًا له، يعمل فيه ١٦٠ موظفًا، ويعد التقارير للجنة

الدولية التي تعقد اجتماعها السنوي في جنيف، ويعتبر صلة الوصل مع الحكومات في مجال مراقبة انتهاكات حقوق الانسان، إذ يعين المركز المقررين الخاصين حسب الحالات والدول بما يعرف بآلية الشكاوى التي ترد إلى المركز.

في أعقاب مؤتمر فيينا، ١٩٩٢، استحدث منصب «المفوض السامي لحقوق الانسان»، وشغله إيالا لاسو (من الإكوادور) الذي قدم مشروعًا جديدًا لاعادة الهيكلية بدمج وحدات المركز الذي اصبح يحتوي على ثلاث وحدات رئيسية تتناول المواضيع الآتية: فروع الابحاث والمسائل الخاصة بالتنمية، والخدمات والمؤتمرات وإداء الشكاوى، والبرامج الميدانية والاشراف على الخبراء والمقررين. وفي مطلع حزيران ١٩٩٧، عيّن الامين العام كوفي أنان رئيسة أيرلندا ماري روبنسون مفوضًا ساميًا لحقوق الانسان بدلاً من إيالا لاسو الذي استدعته حكومته ليشغل منصب وزير خارجية الاكوادور.

وفي ١٩ آذار ١٩٩٨، صرّحت روبنسون، في جنيف، ان الذكرى الخمسين للاعلان العالمي لحقوق الانسان «ليست مناسبة تدعو إلى الفرح»، وحذرت الحكومات التي تتحدث عن انتهاكات لحقوق الانسان في دول أخرى طالبة منها «الاعتراف بأنه ليس هناك بلد لا توجد فيه مشكلات تتعلق بحقوق الانسان». واعتبرت روبنسون انها وجدت ما يبعث على الأمل في الديمقراطية في جنوب افريقيا معتبرة ان ذلك يشكل «أكبر رسالة تشجيع يمكن ان نأمل بها».

نص «الاعلان العالمي لحقوق الانسان»: في ١٠ كانون الاول ١٩٤٨، أقرت الجمعية العامة للامم المتحدة، الاعلان العالمي لحقوق الانسان، وأعلنته. وبعد هذا الحدث التاريخي، دعت الجمعية العامة الدول الاعضاء، إلى ترويج نص الاعلان، وإلى العمل على نشره وتوزيعه وقراءته ومناقشته، وبخاصة في المدارس والمعاهد التعليمية، بدون أي تمييز في شأن الوضع السياسي، للدول والأقاليم. وفي ما يلي النص الحرفي للاعلان بترجمته العربية المعتمدة رسميًا:

ألمادّةُ ٱلأولى
يولَدُ جَميعُ ٱلنّاسِ أَحرارًا مُتَساوينَ في ٱلكَرامَةِ وٱلحُقوقِ ، وقَدْ وُهِبوا عَقْلًا وضَميرًا ، وعَلَيهِمْ أَنْ يُعامِلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِروحِ ٱلإِخاء .

ألمادّةُ ٱلثّانِيَةُ
لِكُلِّ إِنْسانٍ حَقُّ ٱلتَّمَتُّعِ بِٱلحُقوقِ وٱلحُرِّيّاتِ ٱلوارِدَةِ في هٰذا ٱلإِعْلانِ ، كافَّةً ، مِنْ دونِ أَيِّ تَمييزٍ ، كَٱلتَّمييزِ بِسَبَبِ ٱلعُنْصُرِ أَوِ ٱللَّوْنِ أَوِ ٱلجِنْسِ أَوِ ٱللُّغَةِ أَوِ ٱلدّينِ أَوِ ٱلرَّأْيِ ٱلسِّياسِيِّ أَوْ أَيِّ رَأْيٍ آخَرَ ، أَوِ ٱلأَصْلِ ٱلوَطَنِيِّ أَوِ ٱلاِجْتِماعِيِّ ، أَوِ ٱلثَّرْوَةِ أَوِ ٱلميلادِ أَوْ أَيِّ وَضْعٍ آخَرَ ، مِنْ دونِ أَيَّةِ تَفْرِقَةٍ بَيْنَ ٱلرِّجالِ وٱلنِّساء .

وفَضْلًا عَمّا تَقَدَّمَ ، لَنْ يَكونَ هُناكَ أَيُّ تَمييزٍ أَساسُهُ ٱلوَضْعُ ٱلسِّياسِيُّ أَوِ ٱلقانونِيُّ أَوِ ٱلدَّوْلِيُّ، لِلْبَلَدِ أَوِ ٱلبُقْعَةِ ٱلَّتي يَنْتَمي إِلَيْها ٱلفَرْدُ ، سَواءٌ أَكانَ هٰذا ٱلبَلَدُ (أَوْ تِلْكَ ٱلبُقْعَةُ) مُسْتَقِلًّا ، أَمْ تَحْتَ ٱلوِصايَةِ ، أَمْ غَيْرَ مُتَمَتِّعٍ بِٱلحُكْمِ ٱلذّاتِيِّ ، أَمْ كانَتْ سِيادَتُهُ خاضِعَةً لِأَيِّ قَيْدٍ مِنَ ٱلقُيود .

ألمادّةُ ٱلثّالِثَةُ : لِكُلِّ فَرْدٍ ٱلحَقُّ في ٱلحَياةِ وٱلحُرِّيَّةِ وسَلامَةِ شَخْصِه .

ألمادّةُ ٱلرّابِعَةُ : لا يَجوزُ ٱسْتِرْقاقُ أَيِّ شَخْصٍ أَوِ ٱسْتِعْبادُهُ ، ويُحَظَّرُ ٱلاِسْتِرْقاقُ وتِجارَةُ ٱلرَّقيقِ ، بِأَوْضاعِهِما كافَّةً .

ألمادّةُ ٱلخامِسَةُ : لا يُعَرَّضُ أَيُّ إِنْسانٍ ، لِلتَّعْذيبِ ولا لِلْعُقوباتِ أَوِ ٱلمُعامَلاتِ ٱلقاسِيَةِ أَوِ ٱلوَحْشِيَّةِ أَوِ ٱلحاطَّةِ بِٱلكَرامَة.

ألمادّةُ ٱلسّادِسَةُ : لِكُلِّ إِنْسانٍ ، أَيْنَما وُجِدَ ، ٱلحَقُّ في أَنْ يُعْتَرَفَ بِشَخْصِيَّتِهِ ٱلقانونِيَّة .

ألمادّةُ ٱلسابعةُ : كُلُّ ٱلنّاسِ سَواسِيَةٌ أَمامَ ٱلقانونِ، ولَهُمُ ٱلحَقُّ في ٱلتَّمَتُّعِ بِحِمايَةٍ مُتكافِئَةٍ مِنْهُ ، مِنْ دونِ أَيَّةِ تَفْرِقَةٍ ، ولَهُمْ جَميعًا ٱلحَقُّ في حِمايَةٍ مُتساوِيَةٍ ، ضِدَّ أَيِّ تَمْييزٍ يُخِلُّ بِهٰذا ٱلإِعلانِ ، وضِدَّ أَيِّ تَحْريضٍ عَلى تَمْييزٍ كَهٰذا.

ألمادّةُ ٱلثامِنَةُ : لِكُلِّ شَخْصٍ ٱلحَقُّ في أَنْ يَلْجَأَ إِلى ٱلمَحاكِمِ ٱلوَطَنِيَّةِ ، لإِنْصافِهِ مِنْ أَعْمالٍ فيها ٱعْتِداءٌ عَلى ٱلحُقوقِ ٱلأَساسِيَّةِ ٱلَّتي يَمْنَحُهُ إِيّاها ٱلقانون .

ألمادّةُ ٱلتاسِعَةُ : لا يَجوزُ ٱلقَبْضُ عَلى أَيِّ إِنْسانٍ، أَوْ حَجْزُهُ ، أَوْ نَفْيُهُ ، تَعَسُّفًا .

ألمادّةُ ٱلعاشِرَةُ : لِكُلِّ إِنْسانٍ ٱلحَقُّ ، عَلى قَدَمِ ٱلمُساواةِ ٱلتامَّةِ مَعَ ٱلآخَرينَ ، في أَنْ تُنْظَرَ قَضِيَّتُهُ أَمامَ مَحْكَمَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ نَزيهَةٍ ، نَظَرًا عادِلًا عَلَنِيًّا ، لِلْفَصْلِ في حُقوقِهِ وٱلْتِزاماتِهِ ، وفي أَيَّةِ تُهْمَةٍ جِنائِيَّةٍ تُوَجَّهُ إِلَيْه .

ألمادّةُ ٱلحادِيَةَ عَشْرَةَ : (١) كُلُّ شَخْصٍ مُتَّهَمٍ بِجَريمَةٍ ، يُعْتَبَرُ بَريئًا ، إِلى أَنْ تَثْبُتَ إِدانَتُهُ قانونِيًّا ، بِمُحاكَمَةٍ عَلَنِيَّةٍ ، تُؤَمَّنُ لَهُ فيها ٱلضَّماناتُ ٱلضَّرورِيَّةُ ، لِلدِّفاعِ عَنْه .

(٢) لا يُدانُ أَيُّ شَخْصٍ ، مِنْ جَرّاءِ أَداءِ عَمَلٍ ، أَوِ ٱلِامْتِناعِ عَنْ أَداءِ عَمَلٍ ، إِلّا إِذا كانَ ذٰلِكَ يُعْتَبَرُ جُرْمًا ، وَفْقًا لِلْقانونِ ٱلوَطَنِيِّ أَوِ ٱلدَّوْلِيِّ ، وَقْتَ ٱلِارْتِكابِ ، كَذٰلِكَ ، لا توقَعُ عَلَيْهِ عُقوبَةٌ أَشَدُّ مِنْ تِلْكَ ٱلَّتي كانَ يَجوزُ توقيعُها ، وَقْتَ ٱرْتِكابِ ٱلجَريمَة .

ألمادّةُ ٱلثانِيَةَ عَشْرَةَ : لا يُعَرَّضُ أَحَدٌ لِتَدَخُّلٍ تَعَسُّفِيٍّ في حَياتِهِ ٱلخاصَّةِ ، أَوْ أُسْرَتِهِ ، أَوْ مَسْكَنِهِ ، أَوْ مُراسَلاتِهِ ، أَوْ لِحَمَلاتٍ عَلى شَرَفِهِ وسُمْعَتِهِ ؛ ولِكُلِّ شَخْصٍ ٱلحَقُّ في حِمايَةِ ٱلقانونِ ، مِنْ مِثْلِ هٰذا ٱلتَّدَخُّلِ ، أَوْ تِلْكَ ٱلحَمَلات .

ألمادّةُ ٱلثالِثَةَ عَشْرَةَ : (١) لِكُلِّ فَرْدٍ حُرِّيَّةُ ٱلتَّنَقُّلِ وٱخْتِيارِ مَحَلِّ إِقامَتِهِ ، داخِلَ حُدودِ كُلِّ دَوْلَة .

(٢) يَحِقُّ لِكُلِّ فَرْدٍ أَنْ يُغادِرَ أَيَّةَ بِلادٍ ، بِما في ذٰلِكَ بَلَدُهُ ، ويَحِقُّ لَهُ ، أَيْضًا ، ٱلعَوْدَةُ إِلَيْها.

ألمادّةُ ٱلرابِعَةَ عَشْرَةَ : (١) لِكُلِّ فَرْدٍ ٱلحَقُّ في أَنْ يَلْجَأَ إِلى بِلادٍ أُخْرى ، أَوْ يُحاوِلَ ٱلِالْتِجاءَ إِلَيْها ، هَرَبًا مِنَ ٱلِاضْطِهاد .

(٢) لا يَنْتَفِعُ بِهٰذا ٱلحَقِّ ، مَنْ قُدِّمَ إِلى ٱلمُحاكَمَةِ ، في جَرائِمَ غَيْرِ سِياسِيَّةٍ ، أَوْ لِأَعْمالٍ تُناقِضُ أَغْراضَ ٱلأُمَمِ ٱلمُتَّحِدَةِ ، ومَبادِئَها .

ألمادّةُ ٱلخامِسَةَ عَشْرَةَ : (١) لِكُلِّ فَرْدٍ حَقُّ ٱلتَّمَتُّعِ بِجِنْسِيَّةٍ ما .

(٢) لا يَجوزُ حِرْمانُ شَخْصٍ ، مِنْ جِنْسِيَّتِهِ ، تَعَسُّفًا ، أَوْ إِنْكارُ حَقِّهِ في تَغْييرِها .

ألمادةُ ألسادسةَ عشْرةَ : (١) لِلرَّجُلِ والْمَرأَةِ ، مَتى بَلَغا سِنَّ الزَّواجِ ، حَقُّ التَّزَوُّجِ وتأْسيسِ أُسْرَةٍ ، مِنْ دونِ أَيِّ قَيْدٍ بِسَبَبِ الجِنْسِ أَوِ الدِّينِ ، ولَهُما حُقوقٌ مُتساوِيَةٌ ، عِنْدَ الزَّواجِ ، وأَثْناءَ قِيامِهِ ، وعِنْدَ انْحِلالِه.

(٢) لا يُبْرَمُ عَقْدُ الزَّواجِ ، إِلّا بِرِضى الطَّرَفَيْنِ الرّاغِبَيْنِ في الزَّواجِ ، رِضًى كامِلًا لا إِكْراهَ فيه.

(٣) الأُسْرَةُ هِيَ الوَحْدَةُ الطَّبيعِيَّةُ الأَساسِيَّةُ لِلْمُجْتَمَعِ ، ولَها حَقُّ التَّمَتُّعِ بِحِمايَةِ المُجْتَمَعِ والدَّوْلَة .

ألمادةُ السابعةَ عشْرةَ : (١) لِكُلِّ شَخْصٍ حَقُّ التَّمَلُّكِ ، بِمُفْرَدِهِ ، أَوْ بِمُشارَكَةِ غَيْرِه .

(٢) لا يَجوزُ تَجْريدُ أَحَدٍ مِنْ مُلْكِهِ ، تَعَسُّفًا .

ألمادةُ الثامنةَ عشْرةَ : لِكُلِّ شَخْصٍ الحَقُّ في حُرِّيَّةِ التَّفْكيرِ وَالضَّميرِ والدِّينِ ، ويَشْمَلُ هٰذا الحَقُّ حُرِّيَّةَ تَغْييرِ دِيانَتِهِ أَوْ عَقيدَتِهِ ، وحُرِّيَّةَ الإِعْرابِ عَنْهُما، بِالتَّعْليمِ والمُمارَسَةِ وإِقامَةِ الشَّعائِرِ ، ومُراعاتِها ، سَواءٌ أَكانَ ذٰلِكَ سِرًّا ، أَمْ مَعَ الجَماعَة .

ألمادةُ التاسعةَ عشْرةَ : لِكُلِّ شَخْصٍ الحَقُّ في حُرِّيَّةِ الرَّأْيِ والتَّعْبيرِ ، ويَشْمَلُ هٰذا الحَقُّ حُرِّيَّةَ اعْتِناقِ الآراءِ ، مِنْ دونِ أَيِّ تَدَخُّلٍ ، واسْتِقاءِ الأَنْباءِ والأَفْكارِ ، وَتَلَقِّيها ، وإِذاعَتِها بِأَيَّةِ وَسيلَةٍ كانَتْ ، مِنْ دونِ تَقَيُّدٍ بِالحُدودِ الجُغْرافِيَّة .

ألمادةُ العشرونَ : (١) لِكُلِّ شَخْصٍ الحَقُّ في حُرِّيَّةِ المُشارَكَةِ في الجَمْعِيّاتِ والجَماعاتِ السِّلْمِيَّة .

(٢) لا يَجوزُ إِرْغامُ أَحَدٍ على الانْضِمامِ إِلى جَمْعِيَّةٍ ما .

ألمادةُ الحاديةُ والعشرونَ: (١) لِكُلِّ فَرْدٍ الحَقُّ في المُشارَكَةِ في إِدارَةِ الشُّؤونِ العامَّةِ لِبِلادِهِ ، إِمّا مُباشَرَةً ، وإِمّا بِواسِطَةِ مُمَثِّلينَ يُخْتارونَ اخْتِيارًا حُرًّا .

(٢) لِكُلِّ شَخْصٍ الحَقُّ نَفْسُهُ الَّذي لِغَيْرِهِ ، في تَقَلُّدِ الوَظائِفِ العامَّةِ في البِلاد .

(٣) إِنَّ إِرادَةَ الشَّعْبِ هِيَ مَصْدَرُ سُلْطَةِ الحُكومَةِ ، ويُعَبَّرُ عَنْ هٰذِهِ الإِرادَةِ ، بِانْتِخاباتٍ نَزيهَةٍ دَوْرِيَّةٍ ، تَجْري عَلى أَساسِ الاقْتِراعِ السِّرِّيِّ ، وعَلى قَدَمِ المُساواةِ بَيْنَ الجَميعِ ، أَوْ وَفْقًا لِأَيِّ إِجْراءٍ مُماثِلٍ ، يَضْمَنُ حُرِّيَّةَ التَّصْويت .

ألمادةُ الثانيةُ والعشرونَ : لِكُلِّ شَخْصٍ ، بِصِفَتِهِ عُضْوًا في المُجْتَمَعِ ، الحَقُّ في الضَّمانَةِ الاجْتِماعِيَّةِ ، وفي أَنْ تُحَقَّقَ ، بِوِساطَةِ المَجْهودِ القَوْمِيِّ والتَّعاوُنِ الدَّوْلِيِّ ، وبِما يَتَّفِقُ وَنُظُمَ كُلِّ دَوْلَةٍ، ومَوارِدَها، الحُقوقُ الاقْتِصادِيَّةُ والاجْتِماعِيَّةُ والتَّرْبَوِيَّةُ الَّتي لا غِنى عَنْها لِكَرامَتِهِ ، ولِلنُّمُوِّ الحُرِّ لِشَخْصِيَّتِه.

ألمادةُ ألثالثةُ وألعشرون : (١) لِكُلِّ شخصٍ ألحقُّ في ألعملِ ، ولَهُ حُرِّيَّةُ أختيارِهِ ، بِشروطٍ عادِلَةٍ مُرضِيَةٍ ، ولَهُ حَقُّ ألحِمايَةِ مِنَ ألبِطالَةِ .

(٢) لِكُلِّ فَرْدٍ ، مِنْ دونِ أيِّ تَمييزٍ ، ألحَقُّ في أجْرٍ مُساوٍ لِلعَمَلِ ألَّذي يَقومُ بِهِ .

(٣) لِكُلِّ فَرْدٍ يَقومُ بِعَمَلٍ ، ألحَقُّ في أجْرٍ عادِلٍ مُرْضٍ ، يَكْفُلُ لَهُ ولأُسْرَتِهِ ، عيشَةً لائِقَةً بِكَرامَةِ ألإِنسانِ ، تُضافُ إِلَيْهِ ، عِنْدَ ألْلُزومِ ، وَسائِلُ أُخرى ، لِلْحِمايَةِ ألاجْتِماعِيَّةِ .

(٤) لِكُلِّ شَخصٍ ألحَقُّ في أَنْ يُنْشِئَ نِقاباتٍ ، أَوْ يَنْضَمَّ إِلَيْها ، حِمايَةً لِمَصْلَحَتِهِ .

ألمادةُ الرابعةُ وألعشرون : لِكُلِّ شَخصٍ ألحَقُّ في ألرّاحَةِ ، وفي أوْقاتِ ألفَراغِ ، ولاسِيَّما في تَحْديدٍ مَعْقولٍ لِساعاتِ ألعَمَلِ ، وفي عُطُلاتٍ دَوْرِيَّةٍ بِأجْرٍ .

ألمادةُ ألخامسةُ وألعشرون: (١) لِكُلِّ شَخصٍ ألحَقُّ في مُستَوًى مِنَ ألمَعيشَةِ ، كافٍ لِلْمُحافَظَةِ عَلى ألصِّحَّةِ وألرَّفاهِيَةِ، لَهُ ولأُسْرَتِهِ ، ويَتَضَمَّنُ ذٰلِكَ ، ألتَّغْذِيَةَ وألمَلْبَسَ وألمَسْكَنَ وألعِنايَةَ ألطِّبِّيَّةَ ، وألخَدَماتِ ألاجْتِماعِيَّةَ ألّلازِمَةَ ، ولَهُ ألحَقُّ في تَأْمينِ مَعيشَتِهِ ، في حالاتِ ألبِطالَةِ وألمَرَضِ وألعَجْزِ وألتَّرَمُّلِ وألشَّيْخوخَةِ ، وغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ فِقْدانِ وَسائِلِ ألعَيْشِ ، نَتيجَةً لِظُروفٍ خارِجَةٍ عَلى إرادَتِهِ .

(٢) لِلأُمومَةِ وألطُّفولَةِ ألحَقُّ في مُساعَدَةٍ ورِعايَةٍ خاصَّتَيْنِ ، ويَنْعَمُ ألأطْفالُ كُلُّهُمْ ، بِألحِمايَةِ ألاجْتِماعِيَّةِ نَفْسِها ، سَواءٌ أكانَتْ وِلادَتُهُمْ ناتِجَةً مِنْ رِباطٍ شَرْعِيٍّ ، أَمْ بِطَريقَةٍ غَيْرِ شَرْعِيَّةٍ .

ألمادةُ ألسادسةُ وألعشرون : (١) لِكُلِّ شَخصٍ ألحَقُّ في ألتَّعَلُّمِ ، ويَجِبُ أَنْ يَكونَ ألتَّعْليمُ ، في مَراحِلِهِ ألأولى وألأساسِيَّةِ ، عَلى ألأَقَلِّ ، بِألمَجّانِ ، وأَنْ يَكونَ ألتَّعْليمُ ألأَوَّلِيُّ إلزامِيًّا ، ويَنْبَغي أَنْ يُعَمَّمَ ألتَّعْليمُ ألفَنِّيُّ وألمِهَنِيُّ ، وأَنْ يُيَسَّرَ ألقَبولُ لِلتَّعْليمِ ألعالي ، عَلى قَدَمِ ألمُساواةِ ألتّامَّةِ ، لِلْجَميعِ ، وعَلى أساسِ ألكَفاءَةِ .

(٢) يَجِبُ أَنْ تَهْدُفَ ألتَّرْبِيَةُ ، إِلى إنْماءِ شَخْصِيَّةِ ألإِنسانِ إنْماءً كامِلًا ، وإِلى تَعْزيزِ أحْتِرامِ ألإِنسانِ وألحُرِّيّاتِ ألأَساسِيَّةِ ، وتَنْمِيَةِ ألتَّفاهُمِ وألتَّسامُحِ وألصَّداقَةِ ، بَيْنَ جَميعِ ألشُّعوبِ وألجَماعاتِ ألعُنْصُرِيَّةِ أَوِ ألدّينِيَّةِ ، وإِلى زِيادَةِ مَجْهودِ ألأُمَمِ ألمُتَّحِدَةِ ، لِحِفْظِ ألسَّلامِ .

ألمادةُ ألسابعةُ وألعشرون : (١) لِكُلِّ فَرْدٍ ألحَقُّ في أَنْ يُشارِكَ مُشارَكَةً حُرَّةً ، في حَياةِ ألمُجْتَمَعِ ألثَّقافِيَّةِ ، وفي ألاسْتِمْتاعِ بِألفُنونِ ، وألإِسْهامِ في ألتَّقَدُّمِ ألعِلْمِيِّ ، وألاسْتِفادَةِ مِنْ نَتائِجِهِ .

(٢) لِكُلِّ فَرْدٍ ألحَقُّ في حِمايَةِ ألمَصالِحِ ألأَدَبِيَّةِ وألمادِّيَّةِ ، ألمُتَرَتِّبَةِ عَلى إنْتاجِهِ ألعِلْمِيِّ أَوِ ألأَدَبِيِّ أَوِ ألفَنِّيِّ .

أَلمادَةُ آلثامِنَةُ وآلعِشرون : لِكُلِّ فَرْدٍ آلحَقُّ في آلتَّمَتُّعِ بِنِظامٍ آجْتِماعِيٍّ دَوْلِيٍّ ، تَتَحَقَّقُ ، بِمُقْتَضاهُ ، آلحُقوقُ وآلحُرِّيّاتُ آلمَنصوصُ عَلَيْها في هٰذا آلإِعْلانِ ، تَحَقُّقًا تامًّا .

أَلمادَةُ آلتاسِعَةُ وآلعِشرون: (١) عَلى كُلِّ فَرْدٍ واجِباتٌ نَحْوَ آلمُجْتَمَعِ آلَّذي يُتاحُ فيهِ ، وَحْدَهُ ، لِشَخْصِيَّتِهِ ، أَنْ تَنْمُوَ نُمُوًّا حُرًّا كامِلًا .

(٢) يَخْضَعُ آلفَرْدُ ، في مُمارَسَةِ حُقوقِهِ وحُرِّيّاتِهِ، لِتِلْكَ آلقُيودِ آلَّتي يُقَرِّرُها آلقانونُ فَقَطْ ، لِضَمانِ آلآعْتِرافِ بِحُقوقِ غَيْرِهِ وحُرِّيّاتِهِ ، وآحْتِرامِها ، ولِتَحْقيقِ آلمُقْتَضَياتِ آلعادِلَةِ لِلنِّظامِ آلعامِّ وآلمَصْلَحَةِ آلعامَّةِ وآلأَخْلاقِ ، في مُجْتَمَعٍ ديمُقْراطِيٍّ .

(٣) لا يَصِحُّ ، بِحالٍ مِنَ آلأَحْوالِ ، أَنْ تُمارَسَ هٰذِهِ آلحُقوقُ ، مُمارَسَةً تُناقِضُ أَغْراضَ آلأُمَمِ آلمُتَّحِدَةِ ومَبادِئَها .

أَلمادَةُ آلثَلاثون : لَيْسَ في هٰذا آلإِعْلانِ نَصٌّ يَجوزُ تَأْويلُهُ ، عَلى أَنَّهُ يُخَوِّلُ لِدَوْلَةٍ أَوْ جَماعَةٍ أَوْ فَرْدٍ ، أَيَّ حَقٍّ في آلقِيامِ بِنَشاطاتٍ ، أَوْ تَأْدِيَةِ عَمَلٍ ، يَهْدُفُ إِلى هَدْمِ آلحُقوقِ وآلحُرِّيّاتِ آلوارِدَةِ فيهِ .

Encyclopédie Historique et Géographique

Continents, Régions, Pays, Nations,
Villes, Sujets, Signes et Monuments

Tome XI

PAR
Massoud Khawand

تمّ طبع الجزء الحادي عشر
في نيسان ١٩٩٨
وتليه الأجزاء الأخرى تباعًا
Ed. Avril 1998